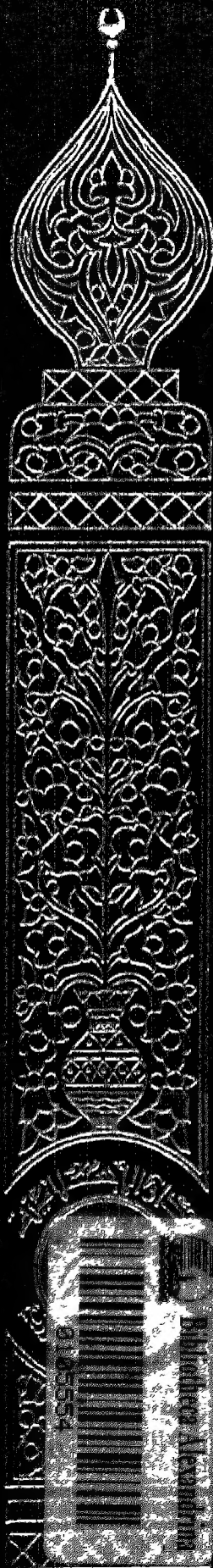
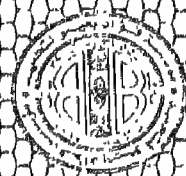


مخاضات الأستاذ الشيخ جعفر الشكافي

الإسلام
كل شيء لكناج والسنة والنقل

بسم
الشيخ حسن بن محمد الشكافي

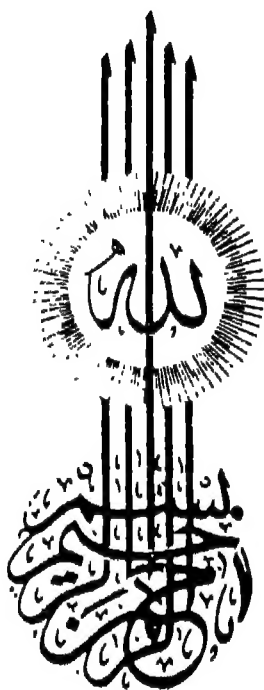






الالهيات

ملهندي الكتاب والسنة والمثل



محاضرات
الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني

الإلهيات

على هدى الكتاب والسنة والعقل

بمقام
الشيخ حسن محمد مكي القاري

أجزء الثاني

الدار الإسلامية

حُقوق الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

كُورْنِيشُ الْمَزْرَعَةِ، بِنَايَةُ الْمُحَسَّنِ سَنَنْتَر، الطَّابِقُ الثَّانِي، هَافَتُنْ : ٨١٦٦٢٧
فَرْعُ ثَانِي : خَادَةَ حَرْتِيك، شَايَع دَكَاش، هَافَتُنْ : ٨٣٥٦٧٠
صُرْب : ١٤٥٦٨ - تَلَكُش : ٢٣٢١٢ - غُدِير



تصدير بقلم المحاضر

تطوير علم الكلام أو رصد الحركات الإلحادية

الحمد لله الذي هو الأول لا شيء قبله ، والآخر لا غاية له ، لا تقع
الأوهام له على صفة ، ولا تقعد القلوب منه على كيفية ، ولا تناله التجزئة
والتبعض ، ولا تحيط به الأبصار والقلوب . والصلاة والسلام على من أرسله
على حين فترة من الرسل ، وطول هُجعة من الأمم ، واعتزام من الفتن ،
وانتشار من الأمور ، والدنيا كاسفة النور ، ظاهرة الغرور ، محمد الخاتم لما
سبق ، والفتاح لمن غلق ، والمعلن الحق بالحق^(١) . وعلى أهل بيته مصابيح
الظلم ، وعصم الأمم ومنار الدين الواضحة ، ومثاقيل الفضل الراجحة ، صلاة
تكون إزاء لفضلهم ، ومكافئة لعملهم ، وكفاء لطيب فرعهم وأصلهم ، ما أنار
فجر ساطع ، وأضاء نجم طالع .

أما بعد :

فقد أسس علم الكلام في القرون الإسلامية الأولى ولم يكن تأسيسه
وتدوينه إلا ضرورة دعت إليها حاجة المسلمين إلى صيانة دينهم وعقيدتهم
وشريعتهم . وأول مسألة طرحت على بساط البحث بين المسلمين هي حكم
مرتكب الكبيرة التي اختلف فيها المسلمون إلى أقوال ، فمن قائل بأنه كافر ،

(١) اقتباس من خطب الإمام أمير المؤمنين في نهج البلاغة ، لاحظ الخطبة ٨١ و ٨٥ و ٦٩ .

إلى قائل بأنه ليس بمؤمن ولا كافر ، بل في منزلة بين المنزلتين ، ويعاقب أقل من عقاب الكافر ، إلى ثالث بأنه مؤمن فاسق . وتلت هذه المسألة مسألة حديث كلامه سبحانه أو قدمه فأحدثت بين المسلمين ضجة كبرى ، وصارت مبدء لمحنة أو محن . وفي عرض هذه المسألة إرتفع النقاش حول الصفات الخبرية الواردة في الكتاب والسنة ، كاليد ، والعين والإستواء على العرش إلى غير ذلك من الصفات .

ثم إنه كلما ازداد الاحتكاك الثقافي بين المسلمين والأجانب ، وشاعت ترجمة الكتب الفلسفية والعقيدية للفرس واليونان وغيرهما ، زاد النقاش والبحث حولها ، لاصطكاك بين تلك الآراء وما جاء به القرآن والسنة ، فلم يجد المسلمون في تلك الاجيال إلا التدرع بالبراهين العقلية حتى يصونوا بذلك حوزة الإسلام من السهام المرقوشة التي ما زالت تطلق إلى قلب الإسلام والمسلمين ، ونواميس الدين والشريعة . فشكر الله مساعي الجميع من سنة وشيعة في حفظ الدين وصيانيته .

هذا ما قام به القدماء في أداء وظيفتهم الرسالية ، لكن التاريخ يشهد بأن قسماً كبيراً من مسائل علم الكلام ، حول المبدأ والمعاد ، وحول التوحيد والعدل ، متخذة من خطب الإمام امير المؤمنين عليه السلام ، وأنه هو البطل المقدم في دعم هذه الأصول وإحكامها . ولو اعترفت المعتزلة بأن منهجهم الكلامي يرجع إلى علي عليه السلام فقد صدقوا في انتمائهم وانتسابهم إلى ذلك المنهل العذب الفياض . وليس علي وحده من بين أئمة أهل البيت ، أقام دعائم هذا العلم وأشاد بنيانه ، بل تلاه الأئمة الآخر منهم ، كعلي بن الحسين زين العابدين عليه السلام (ت ٣٨ - م ٩٤) ، فقد صقل العقول والأذهان الصافية بأدعيته المعروفة التي هي لباب التوحيد وصفوة المعارف الإلهية ، وفيها من العرفان الصافي ما لا يوجد في غيرها . كما أن صادق الأمة وامامها جعفر بن محمد عليه السلام (ت ٨٣ - م ١٤٨) رفع صرح المدرسة الكلامية الموروثة من آبائه وأجداده ، يقف عليه من سبر أحاديثه وكلماته وأماله ، حتى جاء عصر الإمام الثامن علي بن موسى الرضا (ت ١٤٨ - م ٢٠٣) ، فأضفى على المسائل

الكلامية ثوبا جديدا ، وأبان عن المعارف في مناظراته مع أهل الكتاب والزنادقة ، وأسكت خصماءه ، ودحض شبهاتهم ، وردّ أيديهم إلى أفواههم .

ولو لم يكن لأئمة أهل البيت ميراثٌ كلامي سوى كتاب توحيد الصدوق (ت ٣٠٦ - م ٣٨١) ، واحتجاج الطبرسي (المتوفى حوالي ٥٥٠) لكفى فخرا في الدفاع عن حياض الإسلام ومعارفه وعقائده .

وقد استخدم أئمة أهل البيت في بحوثهم ومناظراتهم ، الوسائل التي كان الخصم يستخدمها ويعتمد عليها . كما أن لفيفا من علماء الكلام قد دقوا هذا الباب ووردوا هذه الشريعة ، فتدروا بأحسن ما كان خصماؤهم متدربين به ، كما أنهم لم يزلوا بالمرصاد للحركات الإلحادية القادمة من جانب الروم واليونان ومستسلمة أهل الكتاب ، فأوجب هذا الرصد والتدرب سلاح اليوم ، أن يكون علمُ الكلام علماً يباري الخصماء ، ويصرعهم في ميادين البحث ، والمناظرة ، فجاء يماشي حاجات العصر جنبا إلى جنب ، وكتفا إلى كتف . ولم يكن علما جامداً محصوراً في إطار خاص ، بل كان مادة حيوية تتحرك وتتكامل حسب تكامل العقول ، والأفهام ، وحسب توارد الشبهات والاسئلة التي بها ينمو كل علم ، وبها يتكامل .

فإذا كانت هذه هي وظيفتهم الرسالية أمام الأمة الإسلامية والمسلمين في سبيل صيانة دينهم وشريعتهم ، فهذه الرسالة بعدُ باقية في أجيالنا وأعصارنا ، فيجب على علماء العقائد والأخصائيين في علم الكلام ، إقتفاء أثرهم ، ورصد الحركات الإلحادية الهدامة المتوجهة إلى الإسلام من معسكرات الغرب والشرق ، بصورها الخداعة ، وباسم العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية والاقتصادية ، بل باسم التاريخ وتحليل الأديان الكبرى . ففيها من السموم القتالة ما يهدم عقيدة المسلمين ، ويزعزع كيانهم ، وهم جعلوها في متناول عقولهم وأفكارهم بشتى الطرق والوسائل ، فطفقوا يديفون السم بالعلل ، حتى يذوقه غير الواعين من المسلمين ، وينهموه باشتهاء .

إن الحركات الإلحادية الهدامة إبتدأت دورها منذ ظهرت طلائع الحضارة

المادية في الغرب ، وتَدَيّن مفكروها بالمادية في عطاء المسيحية وواجهته اليهودية ، ووقفوا على أن التغلب على الشرق يتوقف على تضعيف عنائنا الشرقيين وإبعادهم عن ديانتهم ، فصار ذلك مبدء لتأسيس علم باسم الإستشراق ، له واجهة الإستطلاع والتحقيق والتنقيب ، وواقعية هي الإصلااح والتحريف ، وإضعاف عقائد الشبان . وليس هذا شيئاً مكتوماً على من سبر كتب هؤلاء حتى من اشتهر بالوعي والموضوعية .

هذا ، ولو أردنا أن نسلح خطى من تقدم من علمائنا الكلاميين في الدفاع عن الدين والشرعية ، فلا مناص لنا إلا رصد الحركات الإلحادية التي تظهر في كل زمن وجيل باسم وصورة وواجهة ، وهذا يقتضي تطوير علم الكلام الموروث وإكماله حتى يفي بحاجات العصر ، ويقف موقف المعلم الرؤوف بالنسبة إلى المستعلم الواعي فيجيب عن الشبهات المستحدثة في كل عصر وجيل باسم العلم والتاريخ . ولأجل ذلك لا مناص في تطوير علم الكلام من البحث في أمور يقتضي الزمان ضرورة طرحها وتحليلها :

الاول : فصل الدين عن العلم

إن فصل الدين عن السياسة من الخطط الإلحادية التي لم تزل تروج في الغرب منذ كُيّرت شوكة الكنائس ، فاتخذوها سنداً وثيقاً لإبعاد الدين عن السياسة ، فطفق السياسيون يلعبون بكل شيء سواء أوافق الدين أم لا ، قائلين بأن للدين مجالاً ، وللسياسة مجالاً آخر ، ولكل رجاله : (وللحرب والقصة والثريد رجالها) .

وقد لعب السياسيون بهذا الحبل أدواراً ، فخصصوا الدين بالكنائس والبيع ، وخارجهما بالسياسة التي لا تفارق الخدعة والدغل .

وجاء بعد هذه الفكرة أو معها فصل الدين عن العلم ، وصار هذا أصلاً رصيناً في العلوم الجامعية ، تُدرّس العلوم الطبيعية والانسانية على هذا الأصل ، فإذا شاهدوا في مورد تناقضاً وتضاداً ، فأقصى ما عندهم أن للدين

مجالاً وللعلم مجالاً آخر ، ولا يصح لواحد منهما التدخل في حدود الآخر . وهذا من الحبال الإلحادية التي يصطاد بها كثير من الشبان بلا مشقة وشدة ، وهي تدعوهم إلى الاعتقاد بأمرين متضادين : أحدهما يدعو إلى شيء والآخر إلى ما يضاده ، وبما أن الطالب يمارس العلم كل يوم بالأدوات الحسية ، فلا يزال يتباعد عن الدين إلى أن يرفضه ويتركه ويصير ملحداً محضاً ، وأقصى حاله ، أن يكون مسيحياً أو مسلماً بالهوية لا بالحقيقة .

إن الدين المعتمد على الوحي النازل من خالق الكون وصانع نواميسه لا يمكن أن يفترق عن العلم قيد شعرة . فإذا كانت العلوم البشرية كاشفة عن حقائق الكون مع أنها غير مصونة عن الخطأ ، فالوحي الذي لا يأتيه الباطل أولى بأن يكون كاشفاً عن الكون وسننه ونواميسه . ولأجل ذلك يجب في تطوير علم الكلام البحث عن الدين وتبيين مفاده وتعيين حدوده وتشريح موقفه من العلم ، وأنهما هل يمشيان في طريقين مختلفين أو في طريق واحد ، وهل الدين أمر فردي أو اجتماعي . وهل هو يتلخص في الأوراد والأذكار ، أو يعم جميع الشؤون ، وأنه هل يُحكّم ويُبرم بلا سند قاطع ، أو يعتمد على أوثق المصادر وأقوى المدارك التي لا تقبل الخطأ .

الثاني : النسبية أو نفي الحقائق المطلقة

كان الشك والترديد في وجود الكون وما فيه ، والعلوم التي يتبناها الإنسان ، منهجاً رائجاً في الفلسفة الإغريقية حتى قضى عليها أرسطو وأستاذه أفلاطون وغيرهما . إلى أن ظهرت طلائع الحضارة الإسلامية ، فقام فلاسفة الإسلام بدحض شبهاتهم ومحوها عن بساط البحث ، فلا تجد بين المسلمين من ينتمي إلى السفسطة ويكون له شأن ومقام بينهم . وفي النهضة الصناعية الأخيرة ، عادت السفسطة إلى الأوساط العلمية بصورة أخرى ، خادعة هدامة . وهؤلاء ، مع أنهم يدعون أنهم من أصحاب الجزم اليقين ، ويكافحون الشك والترديد ، يعتقدون بأن ما يدركه الإنسان من القضايا بالأدوات المعروفة صادق صدقاً نسبياً لا صدقاً مطلقاً ، صدقاً مؤقتاً لا صدقاً دائماً ، وذلك لأن للظروف

الزمانية والمكانية والأجهزة الدماغية تأثير في الإدراكات الإنسانية ، فليس في وسع الإنسان أن ينال الواقع على ما هو عليه ، وأن ترد على ذهنه صورة مطابقة له ، مطابقة الفرع للأصل ، بل كل ما يحكيه الإنسان بتصوراته وتصديقاته عن واقع الكون ونفس الأمر ، فإنما يحكيه بمفاهيم ذهنية تأثرت بأمور شتى خارجية وداخلية ، فالإنسان في مبصراته ومسموعاته أشبه بمن نظر إلى الأشياء بمنظار ملون ، فكما أنه يرى ألوان الأشياء على غير ما هي عليه ، فهذه الظروف الزمانية والمكانية ، وما في داخل المدرك وخارجه من الخصوصيات كهذا المنظار ، تُري الأشياء على غير ما هي عليه ، ولكن لا تباينها ، بل تطابقها مطابقة نسبية فالإنسان عند هؤلاء أشبه بمن ابتلي بمرض البرقان ، فكما أنه يرى الأبيض والأسود صفراوين ، لأجل خصوصية في جهازه الإبصاري ، فهكذا الإنسان في كل ما يدرك ويقضي ، فإنما يتوصل إلى الواقع بأجهزته التي يتأثر العلم الوارد إليها من الخارج بها ، ومع ذلك كله فليس ما يدركه خطأ محضاً ، ولا صدقاً محضاً ، بل هو صحيح في ظروف خاصة .

هذا إجمال ما يذهب إليه النسيون من الفلاسفة ، غير أنه أصبح أساساً للمناهج الفلسفية الغربية منذ عصر ديكارت إلى زماننا هذا ، والإنسان المتبع في كلماتهم ونظرياتهم يقف على أنهم لا يعتقدون بالفضايا الصادقة المطلقة الدائمة الكلية ، خصوصاً في فلسفة « جان لوك » (ت ١٦٣٢ - م ١٧٠٤) وفلسفة « كانت » (ت ١٧٢٤ - م ١٨٠٤) فهؤلاء - بإضفاء النسبية على القضايا ، وتأثر الإدراكات الإنسانية في جميع الموارد بالخصوصيات الداخلية والخارجية - أعادوا حديث السفسطة ولكن بثوب جديد ، وغطاء علمي خادع . ومن سبر دلائل السوفسطائيين في الفلسفة الإغريقية ، يقف على أن ما ذكره الغربيون وجهاً لنسبية العلوم ، هو نفس ما ذكره رئيس الشكاكين اليونانيين « بيهون » في إثبات السفسطة وأن ما يدركه الإنسان من الخارج لا ينطبق عليه لأن الأجهزة الإدراكية تتأثر بالظروف الزمانية والمكانية والحالات النفسانية ، وبذلك لا يمكن أن نعتبر العلوم علماً حقيقياً كاشفاً عن الواقع .

ولو صدق حديث النسبية وأن الأجهزة الادراكية لم تزل خاضعة لشرائط

خاصة ، فعلى العلم وكشفه السلام ، وعلى ذلك يصبح الدين ومعارفه وشرائعه علوماً صادقة نسبياً ، ولو تغيرت الظروف لتغيرت مفاهيم الدين ومعارفه وتشريعاته ، الى غيرها . فاي قيمة لدين هذا اساسه ، وأي وزن لمعارف إلهية لا تزال متزلزلة متغيرة بتغير الظروف .

إن نظرية النسبية من أخطر الحبال التي طرحت أمام المتدينين والواقعيين ونحن لانأتى عليها - هنا - بكلمة غير أنا نسأل أصحاب هذه الفكرة - ويا للأسف تحملها فلاسفة الغرب وأصحاب المناهج منهم ، لا سيما الحسين - هل أن القول بامتناع اجتماع النقيضين وارتفاعهما ، واجتماع الضدين ، ومسألة العلية والمعلولية ، وانقسام المفاهيم إلى الممكن والواجب والممتنع ، من العلوم النسبية ؟ أهمل يحتمل هؤلاء أن للظروف الزمانية والمكانية ، والخصوصيات العالقة بذهن الإنسان ، تأثيراً في هذه القضايا بحيث لو خرج الإنسان عن هذه القيود لتصور هذه القضايا بشكل آخر ، فيجوز اجتماع النقيضين أو ارتفاعهما ، أو يجوز وجود المعلول بلا علة ؟ .

والعجب أن هؤلاء عندما يضيفون على عامة الإدراكات لون النسبية وينكرون كل قضية صادقة على وجه الكلية والإطلاق والدوام - إن هؤلاء أنفسهم بذلك يشتون قضية كلية دائمة الصدق غير متلونة بلون ولا محدودة بخصوصية خارجية أو ذهنية حيث يقولون ليس لنا قضية صادقة مطلقة كلية ، فإن هذا القول منهم قضية مطلقة لا نسبية ، ولو كان هذا النفي ، نفياً نسبياً لاصبحت سائر القضايا مطلقة لا نسبية .

إن التركيز على أن للإنسان علوماً مطلقة ، مضافاً إلى أن له علوماً نسبية يقتضي التركيز على نظرية المعرفة قبل كل شيء في علم الكلام ، فإن لتلك النظرية تأثيراً هاماً في جميع الأبحاث الكلامية ، وقد كان القدماء من المتكلمين يبحثون عنها في مقدمات كتبهم فهذا هو الإمام الأشعري ، كتب بحثاً مطولاً عن السوفسطائيين في مقدمة مقالات الإسلاميين ، وتبعه البغدادي في كتاب أصول الدين ، وغيرهما من المتكلمين ، حتى أن الامام البزدوي رئيس الماتريدية في عصره ، خصّ فصلاً خاصاً من كتابه في هذه النظرية .

إن علماء الغرب قد بلغوا القمة في البحث عن هذه النظرية ، فبحثوا عن أدوات المعرفة ، حسنها وعقليتها ، كما بحثوا عن قيمة العلوم الإنسانية مضافاً إلى تحديد مجاري العلم والمعرفة ، فإن لهذه المباحث أثراً خاصاً في الأبحاث الكلامية ورصد الحركات الإلحادية ، ولم يزل الإلحاد يدب بين السذج من الشباب من هذه الطرق ، فمن قائل باختصاص أدوات المعرفة بالحس ، إلى قائل بلزوم الإيمان بما تثبته التجربة ورفض غيرها ، إلى ثالث يحدّد معرفة العلوم الإنسانية بشؤون المادة وأعراضها ، ويركز على أن ما وراء المادة خارج عن مجال الإدراك الإنساني وأنه ليس للإنسان فيها القضاء والإبرام نفعياً وإثباتاً .

وهذه الأفكار الفلسفية ، أخطر على حياة الدين من الحملات العسكرية على كيان المسلمين .

الثالث : إنكار الفطريات .

إن التعلّل بمعرفة النفس أصبح في هذه الأزمان أداة طيعة في يد الإلحاد ، خصوصاً الجامعين المؤمنين بفروض «فرويد» ومنهجه فجعلوا علم النفس أساساً لإنكار الفطريات ، التي يقوم عليها دين التوحيد ، يقول سبحانه : ﴿وَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١) .

وقد عادت علاقة الدين بالإنسان عندهم وليد الميول الجنسية للإنسان ، بل أصبحت المعنويات عند أصحاب هذا المنهج ظاهرة طفولية ، واستبقاء لعلاقة الطفل في يوم عجزه ، بأمه وأبيه ، فإذا كبر الإنسان وأحس بمعجز الأب والأم تجاه الاخطار الكبرى مضى يبحث عن قوة أكبر وأقدر على حمايته نجاة الحوادث حتى يُحلّها محل أبيه ، وهكذا نشأت عندهم فكرة الإله .

فالعالم الكلامي الذي يريد الدفاع عن حياض الإسلام والمسلمين لا

(١) سورة الروم : الآية ٣٠ .

مناحس له إلا التركيز على معرفة الإنسان ، معرفة تامة ، بنفس الطرق التي يستعملها علماء النفس في معرفته .

الرابع : الغرور بالعلم .

إن الإنغراس بالعلم الحديث - مع الاحترام التام للعلم وأهله - صار سبباً لإنكار المعاجز ، ونحو أرق العادات ، وتسرب الشك إلى الوحي والإدراك الخارج عن إطار الحس والعقل ، كما تسرب الشك إلى العصمة في الأنبياء ، وبكلمة قصيرة ، في أكثر ما يرجع إلى عالم الغيب والخارج عن الشهادة ، وصار هذا مدء لنزوح كثيرة من الباحثين عن القرآن والسنة إلى تأويل ما لا يلائم قوانين الشهادة . ولأجل أن يكون القارئ الكريم على بصيرة من اغترار هؤلاء بالعلم ، نذكر نماذج من أفكارهم .

فهذا هو شيخ الأزهر محمد عبده (ت ١٣٢٣) - وقد خدم الأزهر بفكره وقلمه وورث عن أستاذه السيد جمال الدين الأسد ابادي ، أفكاره وأراءه - يؤول الآيات الدالة على إحياء الموق في هذه النشأة ، تأويلاً يناسب روح العصر الإلحادي^(١) .

كما أنه بطبيعته العلمية يحاول أن يفسر الملائكة بالقوى الطبيعية ، ومن المعلوم أن الحافظ إلى هذا التوجه ليس إلا الإغترار بالأساليب العلمية التجريبية والخوف من المتدرعين بالعلم الحديث ، والانهزام أمامهم . وإلا فقد كان اللائق بشيخ الأزهر الصمود أمام التيارات الإلحادية وأن يقول - رافعاً عقيرته - إن أقصى ما للعلم من الحق هو الإثبات لا النفي ، فالعلوم التجريبية مهما بلغت من القمة ، ليس لها شأن إلا تحليل الموجودات المادية فقط ، وأما نفي ما وراء الطبيعة وإنه ليس هناك ملك ولا جن ولا وحي ولا لوح ولا قلم ، فلا شأن له فيه ، ولو تدخل فيه فقد تطلع إلى ما هو أقصر منه .

وهذا هو الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي ، يرى أن التشريع الإسلامي غير

(١) سفف على نماذج من تأويلاته في بحث المعاد من هذا الجزء .

صالح للتطبيق على هذه الظروف ، وإنه يختص بالعصور الغابرة يقول : إن من ينظر في كتب الشريعة الأصلية بعين البصيرة والحدق ، يجد أنه من غير المعقول أن تضع قانوناً أو كتاباً أو مبدء في القرن الثاني من الهجرة ثم يجيء بعد ذلك ، فتطبق هذا القانون في ١٣٥٤ هجرية (١) .

وهذا فريد وجدي - كاتب دائرة معارف القرن الرابع عشر - تجده يرقص لافلات الحكومات من سلطان رجال الدين ويمدح ثمرات العلوم مغمزاً بثمرات الدين ، يقول : « تقدم الزمان وأفلتت الحكومات من سلطان رجال الدين واقتصر سلاح الدين على ما كان لديه من قوة الإقناع ، ففي هذه الأثناء كان العلم يؤتي ثمرات من استكشاف المجهولات ، وتخفيف الويلات ، ونزق الصناعات ، وابتكار الأدوات والآلات ، ويعمل على تجديد الحياة البشرية تجديداً ، رفعها عن المستوى ، فشر الناس بفارق جسيم ، بين ما انتهوا إليه في عهد الحياة الحرة وتحت سلطان العلوم المادية ، وبين ما كانوا عليه أيام خضوعهم لحفظة العقائد (٢) .

وليس هذا الداء مخصوصاً بهؤلاء ، بل هناك رجالات آخرون تأثروا بالفلسفة المادية الغربية فأخذوا ينظرون إلى منطق الدين باستصغار .

فهذا أحمد أمين المصري الطائر الصيت ، يقول في كتابه : « إن قانون التناقض الذي يقول به المنطق الشكلي القديم والذي يقرر أن الشيء يستحيل أن يكون وأن لا يكون في آن واحد ، يجب عليه الآن أن يزول من أجل حقيقة « هيجل » العليا التي تنسجم فيها المتناقضات والتي تذهب إلى أن كل شيء يكون موجوداً وغير موجود » (٣) .

(١) مجلة الأهرام ، ٢٨ فبراير ، عام ١٩٣٦ ، لاحظ موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعنده المرسلين ، تأليف مصطفى صبري ، شيخ الإسلام في الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٢) مجلة الأزهر ، المجلد الثاني ، الجزء التاسع ، لاحظ موقف العقل والعلم والعالم ، ج ١ ، ص ٥٧ .

(٣) قصة الفلسفة الحديثة ، كما في موقف العقل والعلم والعالم ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

وقد عزب عن المسكين أن ما يدّعيه « هيجل » من الجمع بين النقيضين لا يمت إلى النقيضين المبحوث عنهما في المنطق الشكلي ، بصلة . وإنما هو عبارة عن العناصر المتضادة في الطبيعة التي يحصل من تفاعلها شيء ثالث ، ولو أردنا أن نعبر عنه باصطلاح صحيح ، فيجب أن نقول : يريد المتضادين في مصطلح الفلسفة ، لا النقيضين ، ولا الضدين في مصطلح المنطق .

ثم نسأل الأستاذ ، إذا كانت أبده القضايا ، أعني امتناع اجتماع النقيضين ، واقعة في إطار الشك والترديد ، بل الردّ والإنكار ، فأنت له أن يثبت قضية يقينية طاردة للشك واليقين ، إذ المفروض عنده أن النقيضين يجتمعان ، وأنه لا مانع من أن تهدف قضية « قرأ أرسطو على أفلاطون » ونقيضها « لم يقرأ أرسطو على أفلاطون » .

وأسوأ من ذلك قوله الآخر ، مندداً بعلم الكلام الذي نرى جذوره في القرآن والسنة ، ثم العقل : « أما علم التوحيد فبرهان لمن يعتقد ، لا لمن لا يعتقد ، برهان لصاحب الدين ، لا لمخالفه ، ولهذا لم نر في التاريخ أن عام الكلام كان سبباً في إيمان من لم يؤمن ، أو إسلام من لم يسلم إلا نادراً ، وإنما كان سبباً في إيمان الكثير وإسلام الجم الغفير ، الدعوة من طريق القلب لا من طريق المنطق »^(١) .

نقول : إذا لم يكن علم الكلام سبباً لإيمان من لم يؤمن ، فما معنى هذه البراهين التي يسوقها القرآن حول دحض الشرك ودعم التوحيد ، وإذا كان العقل غير مفيد في الهداية ، بل المفيد هو الكشف والشهود ، الذي يعبر عنه بطريق القلب ، فما معنى دعوة الوحي إلى التعقل والتدبر .

والعجب أن كل ما يقوله هو ، هو برهنة واستدلال بالعقل ، وهو يريد أن يرد العقل بالعقل ، فما هذا التناقض ؟ اللهم إلا أن يلتجئ الأستاذ إلى فرضية « هيجل » وأنه يصح الجمع بين النقيضين !! .

(١) موقف العقل والعلم والعالم ، ج ١ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨

وفي مؤخر القوم ، كاتب « حياة محمد » ، محمد حسين هيكل ، فإنه
يبث سمومه في مقدمة كتابه وثناياه ، ويرفع عقيرته بأن المسائل الدينية لا تخضع
 للمنطق ، يقول :

« إنصرف هؤلاء الشبان عن التفكير في الأديان وفي الرسالة الإسلامية ،
 وصاحبها . وزادهم انصرافاً ما رأوا العلم الواقعي والفلسفة الواقعية (الوضعية)
 يقررانه من أن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق ولا تدخل في حيز التفكير
 العلمي ، وأن ما يتصل بها من صور التفكير التجريدي ، الميتافيزيقي ، ليس هو
 أيضاً من الطريقة العلمية في شيء »^(١) .

ماذا يريد من قوله : إن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق . فهل يريد من
 المنطق ، الإستدلال عليها ، كما يستدل عليها بالبرهنة العقلية التي تقوم على
 أساس إرجاع النظريات إلى البديهيات ، فهذا عدوان وظلم ، فإن أصول
 المسائل الدينية إنما تثبت بالبرهان العقلي ، ومن سبّر كتب الإلهيات للمعتزلة
 والأشاعرة والإمامية يجد مقدرتهم العلمية على إثبات ما يتبنونه .

وإن أراد أنه لا يخضع للأساليب التجريبية التي هي من شؤون العلوم
 المادية ، فهو مسلم ، لكن ذلك الترقب ، ترقب في غير محله ، لخروجه عن نطاق
 التجربة .

والعجب أن ما ذكره الأستاذ ليس أمراً تجريبياً بل هو برهنة عقلية استنتجها
 من المشاهدات ، حسب زعمه .

هذه نماذج من الاغترار بالعلم وتسرب المادية إلى الاوساط الدينية ، فإذا
 كان هذا حال هؤلاء الذين يعدون في الجبهة والسنام من الشخصيات الدينية في
 مصر العزيزة ، فما حال البسطاء الذين ينهلون من مشاريعهم ومشارع من يتظاهر
 بالمادية ويرفع عقيرته بأنه قد مضى سلطان الدين وبدأ سلطان العلم .

(١) حياة محمد ، ص ١٥ .

هذه وتلك وغيرها مما لم نذكر يفرض علينا رسالة جديدة في علم الكلام وهي التركيز على الموضوعات التي يتخذها الإلحاد منصة لإذاعة الإلحاد وإطلاقه . ولا نكتفي بعلم الكلام السابق ، والموضوعات المحدودة ، بل نماشى حاجات العصر بتطوير خاص لنجابه بذلك ضوضاء الإلحاد ، بالمنطق الرصين والعظات البالغة النافذة .

دواء يزيد داءً .

وهناك رسالة أخرى لعامة المسلمين وهي ادلاء النصح للوهابية الذين بدعوا أنهم يتبنون عقيدة السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان فقابلوا هذا السبيل الإلحادي الجارف بنشر ما ألف بيد المحدثين في العصور السابقة ، ثم نشر ما ألفه ابن تيمية وتلميذه ابن قيم ومقلده في العصور الأخيرة « محمد بن عبد الوهاب » . زاعمين بأنهم يوصدون بذلك الباب أمام تطرق الإلحاد إلى قلوب الشباب المسلم .

ولكنه أشبه بمداواة العجوز ، ينفع مرة ويضر مرات ، فإن ما كتب بيد السلف يحتوي على كل رطب ويابس وصحيح وسقيم ورصين وزائف ، وإن دلّ على كونه سبحانه جسمًا ذا أعضاء بشرية وأنه يجلس فوق العرش ويستوي عليه وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا ، وغيره مما نستعيد بالله منه ، ونُجِّلُه تعالى عنه ، وقد اتخذها بعض السلف عن اليهود ومستسلمة أهل الكتاب فأودعوها كتبهم الحديثية إلى أن جاء الخلف ونظر إليها بتقدير واحترام وحسبها حقائق راهنة سمعها المسلمون من النبي الأكرم .

يشهد الله - وإنه لقسم لو تعلمون عظيم - أنّ في بث هذه الكتب آثاراً سيئة في أفكار الشبان وفيها حط لمقام نبي العظمة بل إنها حلقات بلاء تجر الويل على الإسلام ، والدمار للمسلمين ، فيجب أن يكون هناك نظارة على نشر هذه الكتب حتى يميز الصحيح من غيره ، ويعلق على غير الصحيح .

هذه نصيحتي للسلفيين أسأتذتهم وأبنائهم ، « أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي

وَنَصَحْتُ لَكُمْ^(١) ولعل بينكم من لا يجب الناصحين ، غير أن ذلك لا يؤثر في عزمي ، ودعوتي في الله سبحانه .

إذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضباناً علي لثامها

الآن حصحص الحق ، وأسفر الصبح لذي عينين ، وأقدم شكري الجزيل ، وثنائي العاطر لولدنا العلامة المحقق فضيلة الشيخ حسن مكي العاملي ، دامت إفاضاته ، فقد بلغ النهاية ، وبذل مبلغ جهده في تدوين هذه المحاضرات وضبطها وتنسيقها وتنظيمها ، والرجوع إلى مصادرها ، فجاء هذا الجزء كالجزء السابق ، كسبيكة واحدة ، تعلو عليه جودة البيان ، وإحكام السبك ، وروعة التنظيم ، فحياء الله سبحانه ووفقه لما يحبه ويرضاه في مستقبل أيامه ، وإنه - دام فضله - ممن عقدت عليه آمال الخير والسعادة وأن يكون أحد أعلام المحققين والخبراء في علم العقائد والكلام ، ومن المدافعين المتحمسين عن حياض العقيدة ومناهل الشريعة ، وأشكر الله سبحانه على هذه النعمة الجزيلة ، وهو خير مسؤول وخير معين .

حرّره صبيحة يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر شوال
المكرم من شهور عام ١٤٠٩ هـ ق في قم المشرفة
جعفر السبحاني
عفي عنه

(١) اقتباس من سورة الأعراف : الآية ٧٩ .

الفصل السابع

النبوة العامة

✽ البحث الأول : لزوم بعثة الأنبياء

- أدلة لزوم البعثة .

- أدلة منكري البعثة

✽ البحث الثاني : ما تثبت به دعوى النبوه

- الإعجاز

- تنصيب النبي السابق

- جمعُ القرائن والشواهد

✽ البحث الثالث : الوحي واقسامه

- الوحي في اللغة

- الوحي في القرآن

- حقيقة الوحي في النبوة

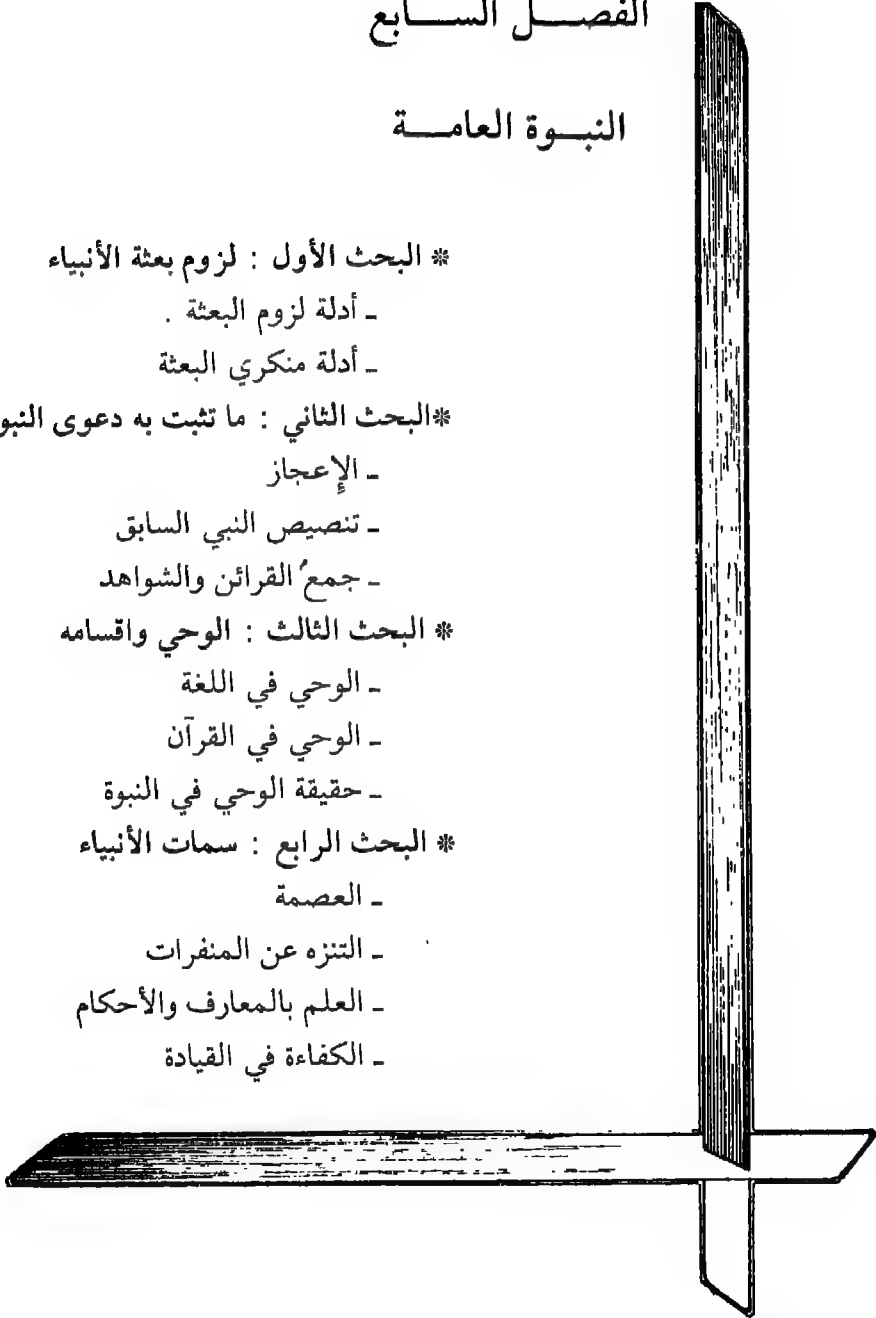
✽ البحث الرابع : سمات الأنبياء

- العصمة

- التنزه عن المنفرات

- العلم بالمعارف والأحكام

- الكفاءة في القيادة



النبوة العامة

مقدمة

النبوة سفارة بين الله وبين ذوي العقول من عباده ، لازاحة علتهم في أمر معادهم ومعاشهم .

والنبي هو الإنسان المُخْبِر عن الله تعالى بإحدى الطرق المعروفة .
والبحث في النبوة يقع على صورتين :

الأولى - البحث عن مطلق النبوة ، من دون تخصيص بنبيّ دون نبي .

الثانية - البحث عن نبوة نبي خاص ، كنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

والأبحاث التي طرحها المتكلمون في النبوة العامة تتمحور في أربعة أمور ، هي :

١ - البحث عن حسن بعث رجال الغيب والوحي لهداية الناس وإرشادهم إلى الغاية المتوخاة من خلقهم ، أو لزومه .

٢ - إذا ثبت حسن البعثة ، فما هي الطرق التي يُعرف بها النبي الصادق من المتنبئ الكاذب ؟ وهل هي منحصرة بالإعجاز ، أو هناك طرق أخرى ؟

٣ - إذا كان النبي هو الإنسان المتصل بالله سبحانه ، فما هو ذاك الطريق الذي يتصل به عبّره ، ويتلقى من خلاله تعاليم الخالق سبحانه ؟

٤ - ما هي الصفات المميزة للنبي عن غيره ؟

ويرجع البحث في الأول إلى تحليل أدلة مثبتة لزوم البعثة ومنكره ، كما يرجع البحث في الثاني إلى الطرق التي تثبت بها نبوة الأنبياء . ويرجع البحث في الثالث إلى الوسيلة التي يتلقى بها النبي تعاليمه من الغيب ، أعني الوحي والإلهام . ويرجع البحث في الرابع إلى التعرف على صفات الأنبياء ، كعصمتهم من الخطأ والزلل وتنزههم عن الصفات المنقورة .

ويأشباع البحث في هذه المجالات الأربعة ، يكتمل البحث في النبوة العامة ، ويقع الكلام بعده في النبوة الخاصة ، بإذنه تعالى .

مباحث النبوة العامة (البحث الأول)

لزوم بعثة الأنبياء

إتفق أهل الملل قاطبة على لزوم بعثة الأنبياء إلى الناس ، بمعنى أن
حكمة الخالق البالغة تقتضي إرسال الرسل لهداية الناس وإرشادهم إلى سبل
السعادة .

وخالفهم في ذلك البراهمة ، فقالوا بأن المجتمع الانساني بفطرته
وعقليته ، يصل إلى تلك الغاية ، من دون حاجة إلى معلم غيبي ..

والتعرف على الحق في ذلك يتوقف على تحليل أدلة الطائفتين ، ونقدم
أولا أدلة المثبتين ، مختارين القليل من الكثير منها^(١) ، ثم نتبعها بأدلة النافين
فنذكرها ونحلّلها .

(١) - استدلل المتكلمون بأدلة تقارب العشر على لزوم البعثة ، فلاحظ تجريد الاعتقاد وشروحه .

أدلة لزوم البعثة

١

حاجة المجتمع إلى القانون الكامل

وبيان هذا الدليل يستدعي رسم أمور :

الأمر الأول : نزعة الإنسان إلى الحياة المدنية .

لا يشك احد من الفلاسفة والباحثين في الحياة الإنسانية ، في أن للإنسان ميلاً إلى الاجتماع والتمدن ، فهو يفر من حياة الأفراد في الغابات والصحاري وكهوف الجبال ، ويتجه إلى التشكل مع أبناء نوعه في اطار المجتمعات الكبرى ، وكلما تكاملت الحضارة الإنسانية ، انحسرت تلك الحياة الفردية وازدادت التشكلات المدنية والاجتماعية .

وهناك نظريتان في تفسير هذه النزعة الانسانية :

الاولى : أن الإنسان « مدني بالطبع » فهو بدافع فطري محص يهر من الحياة الفردية إلى الحياة الاجتماعية .

والثانية : أن الإنسان « مستخدم بالطبع » ، يميل إلى استخدام كل شيء في الطبيعة لصالح غرائزه ومتطلبات فطرته ، ولا يمكنه تحقيق هذا الدافع إلى الاستخدام إلا بالتشكل في إطار الحياة الاجتماعية . ولولا وفاء التعاون مع أبناء نوعه - المستلزم للحياة الاجتماعية - بإشباع ميله للاستخدام ، لظل حليف الغابات والكهوف .

وعلى كل تقدير ، لا مفر للإنسان عن الحياة الإجتماعية سواء لكونه مدنياً بالطبع أو مستخدماً بالطبع .

الأمر الثاني : الحياة الإجتماعية رهن القانون

إن حاجة المجتمع إلى القانون مما لا يُرتاب فيه ، وذلك لأن الانسان مجبور على حب الذات ، وهذا يجره إلى تخصيص كل شيء بنفسه من دون أن يراعي لغيره حقاً . ومن المعلوم أن الحياة الإجتماعية بهذا الوصف تنتهي إلى التنافس والتشاجر بين أبناء المجتمع ، وتؤدي بالتالي إلى عقم الحياة وتلاشي أركان المجتمع .

فلاجل ذلك لا يقوم للحياة الإجتماعية أساس إلا بوضع قانون دقيق ومحكم ومتكامل ، يقوم بتحديد وظائف كل فرد وحقوقه ، ويشرّع الحدود والقيود التي يجب تحرك الجميع من خلالها .

الأمر الثالث : شرائط المَقْنَن

إن وضع قانون ولو للقضايا والمشاكل الجزئية ، يعدّ من أصعب الأمور في مقام التحقيق ، ولا يقوم به إلا أمثال رجال المجتمع الذين تجتمع فيهم مؤهلات عالية من العلم والخبرة . ولكي تقف على حقيقة ما ذكرنا نضرب مثالا لبعض القضايا :

إن مشكلة أزمة السير من أعسر المشكلات التي تعاني منها المجتمعات المدنية الحديثة ، ويُعدّ حلّها من الأمنيات الكبرى لسكانها والقائمين عليها . فلو قامت مدينة تعاني من هذه الأزمة بتشكيل لجنة مهمتها وضع قانون وضوابط كفيلة بحلّها ، فلا بد أن تتوفر لدى أعضاء هذه اللجنة ، المعرفة والخبرة اللازمين لتحقيق هذه الغاية ، فلا بد أن تكون مطلعة على عدد شوارع المدينة ومقدار سعتها ، وكيفية ارتباطها ، وعدد الوسائط النقلية التي تجوبها ، وكذلك المراكز الاقتصادية والحيوية في المدينة ، ومراكز الكثافة السكانية ، ومراكز

المواقف العامة للسيارات ، ومقدار سعتها وضيقها ، وكذلك الوعي الثقافي لدى الناس الداعي إلى رعاية النظم والتخطيطات ، والتعرف ايضاً على خبرات السابقين والمخططات التي طبقت في المدن الاخرى الى غير ذلك من الشروط اللازمة لوضع قانون وخطة وافية بحل الإزمة . والجهل بواحد منها فضلاً عن جميعها ، موجب للفشل وعدم نجاح القانون .

فإذا كان هذا الموضوع الجزئي بحاجة إلى علم وخبرة بهذا الحد حتى يُجعل له قانون كافل لحل أزمتة ، فكيف يجعل القانون للمجتمعات البشرية المنتشرة في أصقاع الأرض ، والتي تتباين من حيث الظروف الجغرافية والعادات والتقاليد ، يكون متناولاً لجميع جوانب الحياة ؟!

لا ريب أن جعل قانون كهذا يحتاج إلى توفر شروط وشروط ، تخرج قطعاً عن طاقة الإنسان مهما ترقى في درجات العلم . واليك ثلاثة من أمهات تلك الشروط .

الشرط الأول : أن يكون المقتن عارفاً بالإنسان .

إنّ أول وأهم خطوة في وضع القانون، معرفة المقتن بالموارد الذي يضع له القانون ، كما أشرنا إليه في المثال المتقدم . وعلى ضوء هذا ، لا بد أن يكون المقتن عارفاً بالإنسان : جسمه وروحه ، غرائزه وفطرياته ، وما يصلح لهذه الامور أو يضُر بها ، وكلما تكاملت هذه المعرفة بالإنسان ، كلما كان القانون ناجحاً وناجعاً في علاج مشاكله وإبلاغه إلى السعادة المتوخاة من خلقه ووجوده في هذا الكون .

ومثل المقتن في هذا المقام ، مثل الطبيب ، كلما كانت معلوماته حول المريض ، جسمه وروحه وظروفه المحيطة به ، كاملةً ، كلما كانت الوصفة مفيدة وناجعة في قلع المرض .

وهناك وجهة أخرى لاقتضاء طبيعة التقنين ، المعرفة الكاملة بالانسان ، وهي أن الانسان خُلِقَ مع غرائز جامحة لا تعرف لإرضائها قاعدة ولا حداً . ومن

المعلوم أن تعطيل هذه الغرائز بالكلية ينتهي إلى الفناء ، كما أن إطلاق عنانها يؤدي نفس النتيجة . فالطريق الأوسط ، كبح جماحها على حد يتم لصالح الإنسان الفرد أولاً ، وصالح المجتمع ككل ثانياً .

ومن هذا يتبين أن من يريد أن يقنن لصالح المجتمع ، يجب أن يكون عارفاً بالإنسان عرفاناً كاملاً ، واقفاً على زوايا روحه وأعماق ضميره وخصوصيات بدنه وطاقاته ، وما يرجع إليه بالصالح أو الفساد .

الشرط الثاني : أن لا يكون المقنن منتفعاً بالقانون .

وهذا الشرط بديهي ، فإن المقنن إذا كان منتفعاً من القانون الذي يضعه ، سواء كان النفع عائداً إليه أو إلى من يمت إليه بصلة خاصة ، فإن هذا القانون سيتم لصالح المقنن لا لصالح المجتمع ، ومثل هذا القانون ناكب عن الحق ، مترد في مهاوي التفرقة والتمييز ، ونتيجته الحتمية الظلم والإجحاف .

فالقانون الكامل لا يتحقق إلا إذا كان واضعُهُ مجرداً عن حب الذات وهوى الإنتفاع الشخصي .

الشرط الثالث : إصلاح الباطن

إن للعقيدة دورها وأثرها في اختيار الفعل وانتخابه ، وكل ما يصدر من الإنسان من فعل أو ترك فهو وليد عقيدته وتفكيره ، فالمؤمن بالله وشرائعه يسعى للإتيان بأعمال يرضي بها ربّه ، كما أن الملحد والكافر به وبشرائعه يسعى إلى الأعمال التي فيها رضى غرائزه ومتطلبات نفسه .

والقانون مهما بلغ في درجات التكامل ، لا يكون ناجحاً ومفيداً إلا إذا كان في جوهره وصميم ذاته ، ضمانات لأجرائه وتجسيده في الحياة .

وبضم هاتين المقدمتين إلى بعضهما يتضح أن الضمان الكامل لأجراء القانون لا يتحقق إلا بتوجه المقنن إلى إصلاح الباطن مع إصلاح الظاهر ، ولا يكون نظره محصوراً بوضع الضوابط المادية الجافة .

فالقانون الكامل يبتني على إيجاد عقيدة وإيمان بالغيب ، وبقوة قاهرة كبرى ، تراقب الإنسان في ليلة ونهاره وفي حياته الشخصية وعلاقاته الإجتماعية ، بالإضافة إلى إيجاد التنظيمات المادية لمراقبة أعمال الفرد الظاهرية .

واجتماع هذين الأمرين يصنع من الفرد إنساناً إجتماعياً يعيش في ظل القانون مراعيًا له ولا ينقضه إلا شاذاً ونادراً .

ولو كان المقنن ناظرًا إلى الجهات الظاهرية فقط ومكتفيًا في ضمانات الإجراء بالتنظيمات الرائجة ، لكان خاسرًا في تقنيته ، ولن يرى له تجسّدًا إلا في وضوح النهار وأمام أعين القوى البشرية المُجرية .

هذه أبرز الجهات الوافية بكمال القانون فهل نرى أين تتحقق هذه الشرائط ، وعند مَنْ ؟ .

أما الشرط الأول ، فإننا لن نجد في صفحة الوجود موجوداً أعرف بالإنسان من خالقه ، فإن صانع المصنوع أعرف به من غيره . يقول سبحانه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) .

وأما الشرط الثاني ، فلن نجد أيضا موجوداً مجرداً عن أي فقر وحاجة وانتفاع سواء سبحانه ، ووجه ذلك أن الإنسان مجبول على حب الذات ، فهو مهما جرد نفسه من تبعات غرائزه ، لم يستطع التخلص من هذه النزعة ، وإلا لزم أن ينسى نفسه ، ويخرج بالتالي من عداد البشر .

وأما الشرط الثالث ، أي تشريع القانون على صرح الإيمان والإعتقاد بصحة التشريع ، فلن نجده أيضاً في غيره سبحانه ، لأنه يدعو إلى ربوبية نفسه وعبودية غيره ، ويبين للناس أن صلاحهم في إطاعته وشأنهم في مخالفته وبهذا يسرى قانونه وتشريعُه في الحياة والمجتمعات البشرية سريان الماء في الشجر والنبات ، ويكون مضمون الإجراء والتطبيق .

(١) سورة الملوك : الآية ١٤ .

أضف إلى ما ذكرنا ، أن التبدل الدائم في القوانين ، والنقض المستمر الذي يورد عليها ، بحيث تحتاج في كل يوم إلى استثناء بعض التشريعات وزيادة أخرى ، إضافة إلى تناقض القوانين المطروحة في العالم من قبل البشر ، كل ذلك دالٌّ على قصورها عن الوفاء بحاجة المجتمعات إليها ، وما ذلك إلا لقصورهم عن معرفة الإنسان حقيقة المعرفة ، وانتفاء سائر الشروط في واضعها .

فتلخص من هذا الدليل أمور :

الأول : أنَّ الإنسان يميل إلى الحياة المدنية ، إما لكونه « مدنياً بالطبع » ، أو لكونه « مستخدماً بالطبع » .

الثاني : أنَّ الحياة الاجتماعية لا تستقر إلا بتعرف أعضاء المجتمع على وظائفهم وحقوقهم ، وهذا لا يتسنى إلا بالتقنين .

الثالث : أنَّ مهمة التقنين الشاقة لا يقوم بها إلا من اجتمعت فيه عدّة شروط أهمها : معرفته الكاملة بالإنسان ، وعدم انتفاعه من القانون الذي يجعله ، وأن يبني قانونه على صرّح الإيمان .

الرابع : أنَّ تلك الشروط لا توجد على وجه الكمال إلا في الله سبحانه خالق البشر .

فإذا كان استقرار الحياة الاجتماعية للبشر متوقفاً على التقنين الإلهي ، فالواجب في حكمته تعالى إبلاغ تلك القوانين إليهم عبر واحد منهم يرسله إليهم ، ليوقفهم على ما فيه سعادتهم . والحامل لرسالة الله سبحانه هو النبي المنبئ عنه والرسول المبلغ إلى الناس ، ويثبت بذلك أنَّ بُعث الأنبياء واجب في حكمته تعالى حفظاً للنظام المتوقف على التقنين الكامل .

إشارة إلى هذا الدليل في الذكر الحكيم .

إنَّ في الكتاب الحكيم ما يشير إلى هذا الدليل ، وهو قوله تعالى :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ . . . ﴾^(١) .

فجعل القِباس بالقسط الذي هو عبارة أخرى عن ضبط المجتمعات بالنظم والقوانين لبُحصول التآزر والتآلف المطلوبين لتأمين الأرضية الصالحة لسلوك الإنسان إلى معين السعادة ، جعله علةً وغايةً لإرسال الرسل ، فالقسط لا يتحقق إلا بالتسنيين الصحيح والتقنين الكامل الذي لا يقوم به إلا خالق الإنسان وبارئته .

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

أدلة لزوم البعثة

(٢)

حاجة المجتمع الى المعرفة

كل انسان عاقل إذا جال ببصره فيما يحيطه من أرض وسماء ، يقف على أن الكون لم يخلق عبثاً ، بل له غاية وهدف تتفاعل كل أجزائه في سبيله .

وليس معنى كونه ذا غاية أن الفاعل قام بإيجاده لسد حاجته كما هو المتعارف في أفعال غيره سبحانه ، بل المراد أن الفعل ليس فعلاً عبثياً فاقداً للغاية ، التي ترجع إلى غيره ، فكون الفاعل ذا غرض يفارق كون الفعل ذا غاية ، والمنفي عن ساحته سبحانه هو الأول دون الثاني - وقد أوضحنا حاله في الجزء الأول فلاحظ .^(١)

إن النظام السائد على العالم ، والإنسجام الموجود بين أجزائه يعرب عن أن الهدف من إيجاده هو استقرار الحياة في كوكبنا هذا . وهذه الغاية إن لم تكن هي الوحيدة فهي على الأقل - إحدى الغايات فكأن سير النجوم والكواكب والشمس والقمر ، ونزول الأمطار والثلوج ، وحركة الرياح والسحب ، وجزر البحار ومدّها، واخضرار المزارع وتفتح الازهار وو . . . مما لا يعدّ ولا يحصى من الآثار الطبيعية، كلها لاجل تكوّن الحياة واستقرارها وتهيئة الأرضية الصالحة لتكامل الموجودات الحية .

(١) الآلهيات ، ج ١ ، ص ٢٦٣ - ٢٧١ .

وتتضح حاجة الانسان إلى المعرفة بالوقوف على أمور :

الأمر الأول - الهداية التكوينية .

إن الموجودات الحية تصل إلى الغايات التي خلقت لها ، في ظل الهداية التكوينية والغرائز المودعة في ذواتها ، ولا تحتاج في بلوغها ذلك الكمال إلى عامل خارج عن ذواتها ، سوى الإنسان .

إن الإنسان ، وإن كان مجهّزاً بغرائز ذاتية ، إلا أنها غير وافية في إبلاغه الغاية التي خلق لها ، ولا تعالج إلا القليل من حاجاته الضرورية . ولأجل ذلك ضمّ خالق الإنسان إلى تلك الغرائز ، مصباحاً يضيء له السبيل في مسيرة الحياة ، وفي حاجاته التي تقصر الغرائز عن إيفائها ، وهو العقل .

ومع ذلك كله فإن العقل والغرائز غير كافيين أيضاً في إبلاغ الانسان إلى السعادة المتوخاة ، بل يحتاج معهما إلى عامل ثالث يعينه في بلوغ تلك الغاية .

ووجه ذلك أن العقل الإنساني غير مصون عن الخطأ والزلل والإشتباه ، وذلك لأن عمل العقل إختياري ، فإنه يرى أمامه طرقاً متعددة وخطوطاً متفاوتة ، عليه أن يسلك إحداها ويتجنب بقيتها ، وكثيراً ما يركب الخاطيء منها ويحيد عن الصائب .

الأمر الثاني - قصور العلم الإنساني في مجال المعارف الإلهية

إذا كان العقل والغرائز غير وافيين بحلّ عامة مشاكل الإنسان ، فالعلم الإنساني أيضاً غير كاف فيه ، وذلك أن الإنسان رغم التقدم الذي أحرزه في العلوم الطبيعية ، لا يزال في بدايات سلّم هذا العلم ، وما أحرزه ضئيل جداً أمام أسرار الكون العظيم . ورغم أن الإنسان تمكّن من معرفة قسم من لمعادلات والقوانين التي تسير عليها الظواهر الطبيعية والقوى الكونية ، إلا أنه لا يعلم أي شيء هي ، وما حقيقتها وماهيتها^(١) .

(١) وقف مرة ايشتاين العالم الكبير ، عند درج صغير أسفل مكتبته ، وقال : « إن نسبة ما أعلم إلى ما

ومما يوضح قصور العلم البشري في العلوم الالهية ، أن هناك الملايين من البشر يقطنون بلدان جنوب شرق آسيا على مستوى راق في الصناعات والعلوم الطبيعية ، إلى حد أوقعوا العالم في اسارة استهلاك مصنوعاتهم ، ومع ذلك فهم في الدرجة السفلى في المعارف الالهية . فجلّهم - إن لم يكن كلّهم - عبّاد الأصنام والأوثان ، وأسراء الأحجار والاختشاب .

وقد بلغ الحد في بلاد اليابان أن جعلوا لكل حادثة ربّاً ، حتى أن هناك ربّاً باسم « رب الزواج » ، يتوسل إليه البنات الذين تأخروا في الزواج ، ليؤمن لهم الأزواج المناسبين .

وبابك بلاد الهند الشاسعة ، وما يعتقده مئات الملايين من أهلها من قداسة وتألّه في « البقر » . وليست بعيدة عنا أيام أصاب الجوع تلك البلاد ، وأصدر المجلس العام إجازة بذبح قسم من الأبقار لسدّ الجوع ورفع الموت عن أبناء الشعب ، فقد ثارت ثائرة الجماهير إلى الحدّ الذي أجبر الحكومة على إلغاء القانون . فرضوا أن يموت الإنسان بجوعه ، ويعيش البقر بأطيب عيشه ، يأكل محاصيلهم ويتلف ممتلكاتهم .

فإذا كان هذا هو حال المعارف الإلهية في عصر الفضاء والذرة ، وبعد ما جاءت الرسل تترى لهداية البشر ، فما هو حالها في غابر القرون والأزمان ؟ ! . بل بأي صورة يا ترى كان وضعنا الآن لولا الهداية الإلهية عن طريق الرسل ؟ ! .

نعم ، هناك نوابغ في التاريخ عرفوا الحق وتعرفوا عليه عن طريق التفكير والتعقل ، كسقراط وأفلاطون وأرسطو . ولكنهم أناس استثنائيون ، لا يعدون معياراً في البحث ، ولا ميزاناً في نفي لزوم البعثة . وكونهم عارفين بالتوحيد ، لا يكون دليلاً على مقدرة الآخرين عليه . على أنه من المحتمل جداً أن يكون

= لا أعلم كنسبة هذا الدرج إلى مكتبي . ولو أنصف لقال : أقل من هذه النسبة ، لما ذكرناه من جهل الإنسان حقائق القوى التي يكتشف معادلاتها . لاحظ مجلة رسالة الإسلام ، الصادرة عن دار التقريب بالقاهرة ، العدد الأول ، السنة الرابعة ، ص ٢٤ ، تحت مقاله بعنوان ما نعلم وما لا نعلم للدكتور أحمد أمين .

وقوفهم على هذه المعارف في ظل ما وصل اليهم من التعاليم السماوية عن طريق رسله سبحانه وأنبيائه .

الأمر الثالث - ضالة العلم الأنساني في التعرف على المصالح والمفاسد .

ربما يتصور أن الهدف الوحيد من بعثة الأنبياء ، هو هداية الناس إلى المبدأ والمعاد ، وما في المبدأ من صفات جمال وجلال ، ولكن هذه الفكرة نصرانية بحتة ، فإن هدف الأنبياء أوسع من ذلك ، فإنهم قد بعثوا - مضافاً إلى ما مرّ - لهداية الناس إلى وسائل السعادة والشقاء ، فلأجل ذلك حثوا على الأخلاق والمثل العليا في الحياة ، كما بينوا مصالح العباد ومفاسدهم الفردية والإجتماعية ، ولذا كانت برامجهم تتسع وتتكامل بتكامل المجتمعات البشرية ، حتى ختم التشريع بخاتم الأنبياء ، وتبينت معالم الهداية في كافة الجوانب .

والذي يحتم ضرورة هذا الهدف قصور العلم الأنساني عن تشخيص منافع البشر والمجتمعات ومضارّها ، ويدل على ذلك :

أولاً - إن المجتمع الأنساني - مع ما بلغه من الغرور العلمي - لم يقف بعد على ألفباء الاقتصاد . فقد انقسم العالم الحديث إلى طائفتين : واحدة تزعم أن سعادة البشرية في نظام الرأسمالية والاقتصاد الحر المطلق ، وانه هو العامل الوحيد لرفاه المجتمعات وتفجّر الطاقات . والأخرى تدّعي أنّ سعادة البشر في النظام الاشتراكي بدءً والشيوعي غايةً ، فالسعادة كلها في سلب الملكية عن أدوات الإنتاج وتفويضها إلى الدولة الحاكمة .

فلو كان الإنسان قادراً بحق على تشخيص المصالح والمفاسد ، وما ينفعه وما يضره ، لما حصل هذا الاختلاف ، الذي انجر إلى انقسام خطير بين دول العالم .

ثانياً - وكما أن الإنسان لم يصل إلى النظام الإقتصادي النافع له ، فهو كذلك

لم يصل إلى وفاق في مجال الأخلاق وقد تعددت المناهج الأخلاقية في العصر الأخير إلى حد التضاد فيما بينها .

ونضرب مثالا بأحدها : الشيوعية . إنها تدعى لنفسها منهجاً أخلاقياً من أصوله أن الإنسان لا يكون شيوعياً إلا بالتضحية بكل شيء لبناء صرح حكومة العمال في العالم ، وكل ما كان يصبّ في هذا المنحى فهو من الأخلاق الفاضلة ، وإن كان ذلك إعداماً ، وتدميراً وسرقة واختلاساً . ولأجل تبرير هذه الآراء الشاذة اعتنقوا الأصل المعروف : « الغايات تبرر الوسائل » .

يقول لينين - أحد زعماء الشيوعية بعد ماركس وانجلز - : « إن الشيوعي هو من يتحمل كل التضحيات ويلجأ إلى أنواع الحيل والأفعال غير المشروعة ، ليجد لنفسه موضعاً ، وموطيء قدم في الإتحاديات التجارية »^(١) .

فإذا كان هذا حال الإنسان في معرفة المسائل الابتدائية في الاقتصاد والأخلاق ، فما ظنك بحاله في المسائل المبنية على أسس تلك العلوم . أفبعد هذا الجهل المطبق يصح لنا أن نقول إن الإنسان غني عن الوحي في سلوك طريق الحياة .

ثالثاً - إن التعرف على عوامل السعادة والشقاء له صلة وطيدة بسلوك الإنسان في الحياة ، ومع الأسف إن الإنسان - مع ما يدّعيه من العلم والمعرفة - لم يدرك بعد تلك العوامل ، بشهادة أنه يشرب المسكرات ، ويستعمل المخدرات ، ويتناول اللحوم الضارة . كما يقيم إقتصاده على الربا ، الذي لا يشك إنسان عطوف على المجتمع بأنه عامل إيجاد التفاوت الطبقي بين أبناء المجتمع .

هذه الوجوه وأمثالها ترشدنا إلى أن الإنسان ليس - ولم يكن - غنياً عن تعاليم الأنبياء ، وتدعم بوضوح لزوم بعثهم لنشر المعرفة بين الأمم الإنسانية .

قال القاضي عبد الجبار : « إنه قد تقرر في عقل كل عاقل ، وجوب دفع

(١) موسوعة نيقولاى لينين ، ج ١٧ ، ص ١٤٢ ، طبعة ١٩٢٣ .

الضرر عن النفس ، وثبت أيضاً أن ما يدعو الى الواجب ويصرف عن القبيح فإنه واجب لا محالة . إذا صحَّ هذا ، وكنا نجوز أن يكون في الافعال ما إذا فعلناه كنا عند ذلك أقرب إلى أداء الواجبات ^(١) وأجتناب المقبّحات ، وفيها ما اذا فعلناه كنا بالعكس من ذلك ، ولم يكن في قوة العقل ما يعرف به ذلك ويفصل بين ما هو مصلحة ولطف ، وبين ما لا يكون كذلك ، فلا بد من أن يعرفنا الله حال هذه الأفعال كي لا يكون عائد بالانقاص على غرضه بالتكليف . وإذا كان لا يمكن تعريفنا ذلك إلا بأن يبعث إلينا رسولاً مؤيداً بالمعجز الدالّ على صدقه ، فلا بُدّ من أن يفعل ذلك ، ولا يجوز له الإخلال به ^(٢) .

إشارة إلى هذا الدليل في الكتاب .

قد جاء في الكتاب العزيز والسنة الشريفة إشارة الى هذا الدليل نذكر منها :

قوله سبحانه : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اَخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِأُذُنِهِ ... ﴾ ^(٣) .

فإن الاختلاف - إن كان عن نوايا صادقة - آية عجز البشر عن الوصول إلى الحقيقة .

وقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل ... » ^(٤) .

وقول أمير المؤمنين عليه السلام : « فبعث الله محمداً صلى الله عليه وآله

(١) - المراد من الواجبات ليس الفرائض الشرعية بل ما يقابل المقبّحات ، وهي الامور التي يحكم العقل بحسنها ولزوم الإتيان بها .

(٢) - شرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ، ص ٥٦٤ .

(٣) - سورة البقرة : الآية ٢١٣ .

(٤) - الكافي ، ج ١ ، كتاب العقل والجهل ، الحديث ١١ .

ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته ، ومن طاعة الشيطان إلى طاعته»^(١) .

وقوله عليه السلام : « . . . إلى أن بعث الله محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله لانجاز عده ، وتمام نبوته . . . وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة ، وأهواء منتشرة ، وطوائف متشتتة ، بين مشبه لله بخلقه ، أو ملحد في أسمائه ، أو مشير به إلى غيره ، فهداهم به من الضلالة . . . »^(٢) .

وفي هذا الحديث اشار إلى قصور الانسان في التعرف على المبدأ والمعاد .

وقول الإمام الكاظم عليه السلام لتلميذه هشام : « يا هشام ، ما بعث الله أنبيائه ورسله إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله ، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة . وأعلمهم بأمر الله ، أحسنهم عقلاً . وأكملهم عقلاً ، أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة »^(٣) .

وقول الامام الرضا عليه السلام : « لم يكن بدّ من رسول الله بينه وبينهم ، يؤدي اليهم امره ونهيه وأدبه ، ويقفهم على ما يكون به من إحراز منافعهم ودفع مضارهم إذ لم يكن في خلقهم ما يعرفون به ما يحتاجون اليه . »^(٤) .

* * *

(١) - نهج البلاغة ، الخطبة ١٤٧ .

(٢) - نهج البلاغة الخطبة الاولى .

(٣) - الكافي ، ج ١ ، كتاب العقل والجهل ، الحديث ١٢ .

(٤) - بحار الانوار ، ج ١١ ، ص ٤٠ .

أدلة لزوم البعثة

٣

هداية الفطريات وتعديل الغرائز

وتقرير هذا الدليل يحتاج إلى تقديم أمرين :

الأمر الأول - الإنسان مجبول على فطرياته وغرائزه .

لا تكتمل وتتوازن حياة الإنسان إلا إذا عاش على مقتضى متطلبات الفطرة ومتوخيات الغرائز ، بل العيش على خلاف هذه المقتضيات يؤدي بالحياة البشرية إلى الهلاك ، وما مثل هذا إلا كالسباح في عكس تيار الماء ، لن تكون عاقبته إلا الإرهاق وانهيار القوى فيتوقف عن السباحة وبيتلعه الماء .

فحاجة الخلايا إلى الغذاء ، والبدن إلى الراحة والنوم ، حاجة ضرورية لا بد من تلبيتها . كما أن الحاجة إلى أطفاء الشهوة بالزواج حاجة فطرية لا يمكن إهمالها ، وإلا صار الإنسان موجوداً عصيباً ، وكانت الحياة كالعلقم في فمه .

ومن جملة الفطريات المودعة في وجود الإنسان ، والمكتوبة على جبينه بقلم القضاء والخلقة ، والتي تتفجر في أوائل بلوغ الإنسان عمر الشباب ، معرفة الله سبحانه ، والميل إلى الأمور الحسنة ، والإنزجار عن الأمور السيئة ، ولأجل ذلك ترى إنساناً - لم يقع تحت تأثير الأهواء وعوامل الانحراف - يعضد رذالة الامانة قبيحاً ، والخيانة بها كرامة ، كما لا يعد العمل بالعهد أمراً سيئاً ، ونقضه أمراً حسناً ، وهكذا الكثير من الأمور كالميل إلى العفة والعدالة والإنزجار عن

الدناسة والخيانة . وكل ذلك مما يلمسه الإنسان في حياته ويعايشه في وجدانه ، وقد كشف عنه العلم الحديث وأيّده^(١) .

الأمر الثاني - حاجة الفطريات إلى الهداية والغرائز إلى التعديل .
إن أعمال الغرائز والفطريات - وإن كان به قوام الحياة - إلا أنه لا يصح في المقابل تركها وحالها وإفساح المجال لها ، وإلا أدى ذلك بالحياة البشرية إلى الفناء والهلاك . وإنما تتحقق سعادة الإنسان بهداية فطرياته هداية صحيحة وتعديل غرائزه على وجه يفي بحاجاته ولا يخرجها عن طور إنسانيته .

بيان ما ذكرنا : إن الثلوج المتراكمة على قمم الجبال إنما يمكن الانتفاع بها إذا كان هناك جداول وقنوات تمتد من رأس كل جبل إلى السهول المحيطة به ، فتسيل فيها مياه الثلوج الذائبة بالتدرّج . وفي غير تلك الصورة يسيل الماء كيف كان ، جارفاً في طريقه الأحجار والصخور ، وربما أنقلب إلى سيل جارف يدمر كل شيء أمامه .

وكذلك الفِصل المغروسة ، أو البذور المنثورة على الأرض ، تحمل في ذواتها قوى واستعدادات ، إلا أن تفجّر تلك الطاقات يحتاج إلى من يتعهدها حراسة وسقاية وعناية على النحو المأنوس ، وعندما تصبح الفصيلة شجرة مثمرة ، والبذور سنابل ذهبية .

ثم نقول : إذا كانت الاستفادة من الثلوج المتراكمة على الجبال ، والفصل المغروسة والبذور المنثورة على الأرض ، متوقفاً على هداية خاضة ، حتى تصب في مجراها الصحيح ، وتُرشد على نهجها الطبيعي ، فكذلك الأمر في السجاي الإنسانية والغرائز البشرية الكامنة في وجود الإنسان ، فإنها لن تعود عليه بالنفع والصلاح إلا في ظل هداية تمنعها من الإفراط والتفريط ، وتسيرها في ما هو صالح البدن والروح .

(١) - تقدم التعرض لذلك في مقدمات الجزء الأول : الالهيات ، ج ١ ، ص ١١ - ١٣ .

وخذ على ذلك مثلاً ، معرفة الله والميل إلى عوالم الغيبية ، فان لها جذوراً في عمق وجود الانسان ، ولم يزل كل انسان من صباه إلى كهولته ميّالاً إلى تلك العوالم ، شغوفاً بحب الاطلاع عليها ، والخضوع لها .

ولكن هذا الميل إذا لم يقع في إطار الهداية والتوجيه الإلهي ، يسفّ بالإنسان إلى الحضيض ، ويصنع منه عابداً للحجر والخشب والعجماوات ، خاضعاً للشمس والقمر والنار . ألا ترى صانعي الآلات ومخترعي العقول الالكترونية كيف طفقوا يخضعون للأصنام والأبقار ؟ !

ولكنها إذا كانت تحت ظل هداية إلهية ، تتجلى بمظهر التوحيد ، وأنّ للعالم بأسره إلهاً واحداً عالماً ، قادراً ، محيطاً بكل شيء ، جامعاً لكل صفات الكمال والجمال .

إن المنيول الطبيعية ، كالميل إلى الزواج والتسلط على المناصب والتكاثر في الأموال ، مما حُمر عليه الإنسان ، ولا بقاء لحياته إلا به ، ولو سلبت عنه لصار موجوداً مهملاً خاملاً طالباً للموت وجانحاً إلى الفناء .

ولكن لو تركت هذه الغرائز ومجالها ، لآل الإنسان إلى حيوان ضار ، مدمر لكل شيء بغية تحصيل المال والاستبداد بالمناصب .

وأما لو كبح جماحها ، وعدّلت ميولها بهداية تحدد مجاريها وترشد صاحبها إلى كيفية الاستفادة منها ، لصار موجوداً عاقلاً متكاملاً سعيداً في حياته ، متآلفاً ومتآزراً مع سائر بني نوعه ، لبناء المجتمع الصالح .

وهكذا ، فقد عُلِم من هاتين المقدمتين أن وجود الفطريات والغرائز في الإنسان ، وحاجتها إلى الهداية والتعديل أمر لا ينكر ، وإنما الكلام كلّهُ في تعيين من يقوم بهذه المهمة :

فهل المحاسبات العقلية كافية في حمل الإنسان على هداية فطرياته وكبح جماح غرائزه عن الإفراط والتفريط ؟

أم هل الشخصيات الممتازة في عالم الاجتماع ، الموصوفة بالعقل

والدراية والتجربة قادرة على القيام بهذه المهمة ؟

أم أنّ المرّجعين المتقدمين - مع تقدير عملهما والإعتراف بانتفاع الإنسان من هدايتهما في مسير حياته - قاصران عن القيام بهذه المهمة ، ولا بدّ من مرجع ثالث له الإحاطة الكاملة بالفطريات والغرائز البشرية وما يصلحها ويقومها ، وهم الأنبياء والرسل الإلهيون المعصومون من الخطأ والزلل ، والمؤيدة هدايتهم بضمانات إجرائية قاهرة ؟ .

نحن نعتقد أن الأمر الثالث هو المتعين ، وأن المرجعين الأوّلين غير وافيين بمعالجة المشكلة .

أما العقل ، فمع الإعتراف بأنه يضيء الطريق أمام الإنسان ، ويأخذ بيده في المزلّات والمزالق ، إلا أنه قاصر عن مصارعة الغرائز المتفجرة وكبح ثورانها . فإن كلّ إنسان يعلم من نفسه أن غرائزه وميوله الشهوية إذا تفجرت ، لم تترك للعقل ضياء ولا للفكر نوراً ، بل كان مثل العقل حينذاك مثل الإنسان المبصر إذا وقع في مهب الرياح والزواجع الرملية ، فإنها تكفّ بصره عن الرؤية وتُعرقل مسيره .

وفي تلك الحالات ، لا ينفك العقل عن خداع صاحبه وإراءة المحاسبات الكاذبة لتبرير عمله ، وإيجاد الذرائع لارتكابه ، بحيث لو كان هذا الإنسان في موقف عادي خالٍ عن ذلك الثوران في العواطف والغرائز لما اعتنى بشيء من تلك التسيولات ، ولذلك لا تجد مجرمًا يقوم بجناية إلّا وهو يلقي لنفسه الأعذار والتبريرات حين إقدامه عليها .

وكثيراً ما يستسهل الإنسان في تلك الحالات - على فرض إلتفاته إلى خطورة وقبح ما يقوم به - يستسهل ما يترتب عليه من الذم واللوم والعقاب ، قضاءً لوّطره منه ، وإشباعاً لشهوته مما يناله من اللذائذ المادية .

وأما رجالات الأخلاق والإجتماع ، فمع أنّ لهم دوراً في تهذيب النفوس ، ودفعها إلى الكمال ، وكبح جماح غرائزها على الإجمال ، إلا أنّ عملهم لا يخلو عن نقائص ربما تذهب بأعمالهم أدراج الرياح .

أما أولاً ، فلأن شرط التربية ، الوقوف على رموز الخلقة ، والتعرف على خصوصيات من ترجى تربيته . وليس لهذه الشخصيات ، العلم المحيط بخصوصيات الإنسان ، لا لقلة عملهم وضيق أفكارهم ، بل لعظمة الإنسان في روحه ومعنوياته ، وغرائزه وفطرياته ، وهو أشبه ببحر كبير لا يرى ساحله ، ولا يضاء محيطه . وقد خفيت كثير من جوانب حياته ورموز وجوده ، حتى لُقّب بـ « الموجود المجهول » .^(١)

ويُصدّق ضالة هذه المعرفة ، تزايد الفساد وارتفاع نسبته في أقطار العالم عبر نفس المناهج التربوية التي تصوها تلك الشخصيات المرموقة في عالم التربية .

وأما ثانياً ، فلأن الحجر الأساس لتأثير التربية ، أن يكون المربي إنساناً كاملاً وموجوداً مثالياً ، يتمتع بسمو الأخلاق والملكات ، فيجذب بها القلوب ، ويشد إليها النفوس .

ومن المعلوم أن واضعي المناهج التربوية في العالم ، وإن كانوا خبراء في مجال تخصصهم ، إلا أنهم فاقدون لهذا الشرط الأساس . ألا ترى أنهم يوصون ببسط العدل ، وحماية المستضعف ، وترك الخمر والقمار و . . . ومع ذلك فهم مرتكبون لها ، واقعون فيها .

ولا يشذ عنهم إلا من كان مراعيًا للدين متمسكاً بأهدابه ، ولكن الفضل حينئذ لا يعود إليه بل إلى صاحب الشريعة الذي سنّ تلك البراميج والمناهج .

وأما ثالثاً ، فلأن المناهج التربوية لا تؤتي ثمارها إلا إذا كانت متسبة إلى الخالق سبحانه ، فإن هذا يمنحها ضمان الإجراء والتجسد في المجتمع لارتباطها بعوامل التشويق إلى الثواب والتحذير من العقاب ، وإلا فلن تعدو مجموعة نصائح شخصية أو مدرسية ، ما أسرع ما تنهوى أمام ضربات معاول الشهوة الشائرة .

(١) وقد ألف الفيلسوف الفرنسي الكسي كارل ، كتاباً خاصاً حول الإنسان وغرائزه وفطرياته ، أسماه « الإنسان ذلك الموجود المجهول » .

ومجموع ما ذكرناه يدلنا على أن مهمة هداية الغرائز والفطريات ، التي تصنع من الإنسان موجوداً عارفاً بالنظم ، مؤمناً بالمناهج ، مجرباً لها في ليلة ونهاره ، وسرّه وإعلانه ، لا تتم إلا بيد رسل مبعوثين من جانب خالق البشر ، بمناهج كاملة أنزلها إليهم ، وحققها بدوافع الطاعة من المغريات بالشواب والمحذرات من العقاب .

قال الشيخ الرئيس في بيان ما يلزم أن تشتمل عليه الأفعال التي يسنها النبي للبشر ، أفرادهم ومجتمعاتهم حتى تأخذ لنفسها طريقاً إلى التطبيق ومسلكاً إلى البقاء :

« ويجب أن تكون هذه الأفعال مقرونة بما يذكر الله تعالى والمعاد لا محالة ، وإلا فلا فائدة فيها .

والتذكير لا يكون إلا بالفاظ تقال أو نيات تنوى في الخيال ، وأن يقال لهم : إن هذه الأفعال يتقرب بها إلى الله ويستوجب بها الخير الكريم إلى أن قال : « وبالجملّة يجب أن يكون فيها منبهات »^(١) .

الأنبياء والفطرة في الحديث

إن الإمام أمير المؤمنين علياً عليه السلام يصوّر الإنسان موجوداً يجمع في ذاته صفات العقول وأنوار العرفان .
غير أن إثارة تلك المعارف الكامنة ، وإبراز تلك الأسرار الدفينة ، يحتاج إلى إنسان كامل يقوم بتلك المهمة وهو النبي .

فدور الأنبياء دور التذكير والتنبيه ، لا دور التعليم والتأسيس ، لأن كل ما يلقيه الأنبياء من أصول ومعارف مختمر في وجود الإنسان بعلم فطري وقضاء خلقي ، لكنه لا يلتفت إليها إلا بفضل من يوجهه .

(١) « النجاة » في الحكمة الإلهية ، للشيخ الرئيس ، ص ٣٠٦ ، الطبعة الثانية ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .

يقول عليه السلام : « فبعث فيهم رُسُلَه ، وواتر إليهم أنبيائه ، ليستأدوهم ميثاق فطرته ، ويذكروهم مَنَسِيَّ نعمته ، ويحتجوا عليهم بالتبليغ ، ويشيروا لهم دفائن العقول . . . » (١) .

فمثل الانبياء على هذا التقدير ، مثل المهندس الزراعي ، فكما أنه ليس له دور في خلق الثمار على الأشجار وإظهارها على الأغصان ، وانما ينحصر دوره في إخصاب الأرض وتهيتها لتُظهر الشجرة ثمارها وفواكهها ، فهكذا الأنبياء بتعاليمهم السماوية ، فإن دورهم تهيئة الإنسان ليبرز ما تعلّمه في مدرسة الفطرة من الأصول والمعارف التي تدعو إلى العدل والقسط ، ونبذ الظلم والتعدي وغيرها .

نعم ، للأنبياء - على تقدير آخر - دور التعليم ، وذلك في الوظائف الفرعية في مجال العبادات والمعاملات إذ لولاهم لما وقف الإنسان على طرق عبادة الله تعالى ، وكيفية سلوكه مع بني نوعه في مقام المعاملة .



(١) - نهج البلاعة ، الخطبة الاولى .

أدلة لزوم البعثة

(٤)

بعثة الأنبياء أولى من الكماليات

يعتمد هذا الدليل بنحو رئيسي على مشاهدة النعم التي أودعها الخالق في وجود الإنسان وما يحيط به لِيُسَهِّلَ عليه معيشته وتكامله في الحياة . وليست كل هذه النعم دخيلة في ضروريات حياته ، بحيث ينعدم وجوده بدونها ، بل إن كثيراً منها مما يدخل في الكماليات ، وتسهيل مجاري الحياة . وكثير من هذه الكماليات أمور جزئية بسيطة لا يلتفت إليها الإنسان إلا بالتأمل والتدبر . ولأجل زيادة التوضيح نمثل ببعض الأجهزة في بدن الإنسان .

إن الصانع الحكيم جهّز العين بأجهزة مختلفة ، منها ما هو دخيل في أصل تحقق الرؤية ، ومنها ما هو دخيل في سهولتها وتيسرها .

١ - فجعل العين في أعلى أجزاء بدن الإنسان حتى يتسلط بنحو كامل على ما أمامه .

٢ - وجعل العين بمختلف طبقاتها في إطار جسم شحمي صلب أبيض اللون ، حفظاً لها مما قد يصيبها .

٣ - وجعل العين بإطارها وجميع طبقاتها في حفرة عظمية ، زيادة في صيانتها من الصدمات الطارئة .

٤ - وجعل فوق العين حاجباً يمنع من نزول العرق إليها ، وأوجد في

ناصية الإنسان خطوطاً ليسهل إنحراف العرق يميناً ويساراً .

٥ - وجعل لكل عين جفنين حافظين لها ، وخلق فيهما أشفاراً وأهداباً ، صيانة لها عن الدخان والأغبرة . وهما ، مع أنهما يمنعان بضمهما دخول ما يؤذي العين ، لكنهما لا يمنعان من الرؤية . فهما في هذا المجال أشبه بالستائر الحديدية تسمح للنور بالدخول من دون دخول أشعة الشمس .

٦ - وجعل في باطن كل جفن غدداً يترشح منها سائل لزج يصون أنسجة العين من الاحتكاك بما يحيطها ، ويسهل دوران كرة العين في جميع الجهات .

٧ - وأحاط عدسية العين بمجموعة من الأنسجة العضلية ، تجعلها تنقبض أمام الأنوار القوية وتنبسط أمام الضعيفة منها ، صيانة للعين عن دخول أزيد مما تتحملة أو أقل مما تحتاج إليه من النور .

هذا بعض يسير مما يرجع الى العين ، وفي الأجهزة الأخرى بدائع وفوائد لا تحصى نذكر نذراً منها :

إنَّ يد الخلقة جعلت تحت قدم الإنسان ، أخصاً حتى يسهل عليه الوقوف والسير .

وجعلت في اليد أصابع ، ثم فاوتت بينهما في الطول ، ليسهل على الإنسان القيام بأعماله ، وليكون بذلك صانعاً فناً مبدعاً .

وجعلت في بواطن الأنامل خطوطاً وتعاريج ليسهل عليه الإمساك بالأجسام .

وهكذا إذا درسنا خلقة الإنسان وجدنا أنها مشتملة على أجهزة مختلفة بين داخلية في أصل الحياة ودخيلة في كمالها وسهولتها . وكل ذلك يدفعنا إلى التساؤل : هل يمكن لخالق الإنسان أن يسهل له كل طرق التكامل الظاهرية ، ثم يترك ما هو دخيل في تكامله الروحي والمعنوي ؟ .

وهل يمكن لأحد أن ينكر دور الأنبياء في تكامل الإنسان ، ولو على وزان دور الخطوط في بواطن الأنامل على الأقل ؟ .

أو يصح من الخالق الحكيم أن يهب له تلك الأجهزة المؤثرة في كمالته المادية ، ويترك ما هو مؤثر في تكامل روحه وفكره ؟ .

ولقد ألهمنا هذا البرهان مما ذكره الشيخ الرئيس في إلهيات الشفاء حيث قال :

« الحاجة إلى هذا (بعث النبي) في أن يبقى نوع الإنسان ويتحصّل وجوده ، أشدّ من الحاجة إلى نبات الشعر على الأشفار وعلى الحاجبين ، وتقصير الأخمص من القدمين ، وأشياء أخرى من المنافع التي لا ضرورة إليها في البقاء فلا يجوز أن تكون العناية الأولى تقضي تلك المنافع ، ولا تقضي هذه التي هي أسها »^(١) .

وإلى هذا يشير صدر المتألهين بقوله : « إن ذاته سبحانه منبع الخيرات ومنشأ الكمالات ، فيصدر منه كل ما يصدر على أقصى ما يتصور في حقه من الخير والكمال ، والزينة والجمال ، سواء أكان ضرورياً له ، كوجود العقل للإنسان والنبي للامة . وغير ضروري ، كإنبات الشعر على الأشفار والحاجبين ، وتقصير الأخمص من القدمين »^(٢) .



(١) إلهيات الشفاء ، بحث النبوة ، ص ٥٥٧ طبعة طهران . وأورده بعينه في كتاب النجاة ، ص ٣٠٤ ، طبعة ١٣٥٧ هـ .

(٢) - المبدأ والمعاد ، لصدر المتألهين ، ص ١٠٣ ، طبعة طهران .

أدلة لزوم البعثة

(٥)

اللُّطف الإلهي

استدلوا على لزوم بعث الرسل بقاعدة اللطف . وبما أن هذه القاعدة تطرح دليلاً في مواضع مختلفة من المسائل الكلامية ، فلا بد لنا من بسط الكلام فيها بشكل عام ، حتى يتبين حالها في كل مقام يستدل بها ، سواء فيما له صلة ببعث الرسل أو غيره ، فنقول :

إن اللطف ، في اصطلاح المتكلمين ، يوصف بوصفين :

١ - اللطف المُحَصِّل .

٢ - اللطف المُقَرَّب .

وهناك مسائل تترتب على اللطف بالمعنى الأول ، ومسائل أخرى تترتب على اللطف بالمعنى الثاني ، وربما يؤدي عدم التمييز بين المعنيين إلى خلط ما يترتب على الأول بما يترتب على الثاني . ولأجل الإحتراز عن ذلك نبحث عن كل منهما ، بنحو مستقل .

أ - اللُّطف المحصِّل .

اللُّطف المحصِّل عبارة عن القيام بالمباديء والمقدمات التي يتوقف عليها تحقق غرض الخلقة ، وصونها عن العبث واللغو ، بحيث لولا القيام بهذه

المبادئ والمقدمات من جانبه سبحانه ، لصار فعله فارغاً عن الغاية ، وناقض حكمته التي تستلزم التحرز عن العث . وذلك كبيان تكاليف الإنسان ، وإعطائه القدرة على إمتثالها .

ومن هذا الباب بعث الرسل لتبيين طريق السعادة ، وتيسير سلوكها . وقد عرفت في الأدلة السابقة ، أن الإنسان أقصر من أن ينال المعارف الحقة ، أو يهتدي إلى طريق السعادة في الحياة ، بالإعتماد على عقله ، والإستغناء عن التعليم السماوي . ووجوب^(١) اللطف بهذا المعنى ، ليس موضع مناقشة لدى القائلين بحكمته سبحانه ، وتنزيهه عن الفعل العبثي الذي اتفق عليه العقل والنقل^(٢) . وإنما الكلام في « اللطف المقرب » ، واليك البيان فيه .

ب : اللطف المقرب

اللطف المقرب عبارة عن القيام بما يكون محصلاً لغرض التكليف بحيث لولاه لما حصل الغرض منه وذلك كالوعد ، والوعيد ، والترغيب والترهيب ، التي تستتبع رغبة العبد إلى العمل ، وبعده عن المعصية^(٣) . وهذا النوع من اللطف ليس دخيلاً في تمكين العبد من الطاعة ، بل هو

(١) سيوافيك معنى الوحوب على الله سبحانه .

(٢) لاحظ سورة الذاريات : الآية ٥٦ ، وسورة المؤمنين : الآية ١١٥ .

(٣) عرّف اللطف المقرب بأنه هيئة مقربة إلى الطاعة ومبعدة عن المعصية من دون أن يكون له حظ في التمكين وحصول القدرة ، ولا يبلغ حد الإلجاء . فخرج بالقيد الأول (لم يكن له حظ . .) اللطف المحصل ، فإن له دخالة في تمكين المكلف من الفعل ، بحيث لولاه لانتفت القدرة .

وخرج بالقيد الثاني (لا يبلغ حد الإلجاء) ، الإكراه والإلزام على الطاعة والاجتناب عن المعصية ، فإن ذلك ينافي التكليف الذي يتطلب الحرية الاختيار في المكلف (لاحظ كشف المراد ، ص ٢٠١ ، ط صيدا)

وقال القاضي عبد الجبار : اللطف هو كل ما يختار عنده المرء الواجب ويتجنب القبيح ، أو ما يكون عنده أقرب إما إلى اختيار (الواجب) أو ترك القبيح . (شرح الاصول الخمسة ، ص ٥١٩) .

قادر على الطاعة وترك المخالفة سواء أكان هناك وعد أم لا ، فإن القدرة على الإمتثال رهن التعرف على التكليف عن طريق الأنبياء - مضافاً إلى إعطاء الطاقات المادية . والمفروض حصول هذا - المباديء والمقدمات ، غير أن كثيراً من الناس لا يقومون بواجبهم بمجرد الوقوف على التكليف ما لم يكن هناك وعد ووعد وترغيب وترهيب ، فهذا النوع من اللطف قد وقع موقع النقاش بين المتكلمين .

والحق هو القول بوجوب اللطف إذا كان غرض التكليف (لا غرض الخلقة) ، موقوفاً عليه عند الأكثرية الساحقة من المكلفين .

مثلاً : لو فرضنا أن غالب المكلفين ، لا يقومون بتكاليفهم بمجرد سماعها من الرسل - وإن كانوا قادرين عليها - إلا إذا كانت مقرونة بالوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، وجب على المكلف القيام بذلك صوناً للتكليف عن اللغو . ولو أهملها المكلف ترتب عليه بطلان غرضه من التكليف ، وبالتالي بطلان غرضه من الخلقة .

وفي الكتاب والسنة إشارات إلى هذا النوع من اللطف . يقول سبحانه : ﴿ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾^(١) .

والمراد من الحسنات والسيئات ، نعماء الدنيا وضراؤها وكان الهدف من ابتلائهم بهما هو رجوعهم إلى الحق والطاعة .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴾^(٢) . وفي الآية إشارة إلى كلا القسمين من اللطف ، ومفاد الآية أن الله تعالى أرسل رسله لإبلاغ تكاليفه تعالى إلى العباد وإرشادهم إلى طريق الكمال (اللطف المحصل) ، غير أن الرفاء والرخاء والتوغل في النعم المادية ، ربما يسبب الطغيان وغفلة الإنسان عن هدف الخلقة

(١) سورة الاعراف : الآية ١٦٨ .

(٢) سورة الاعراف : الآية ٩٤ .

وإجابة دعوة الأنبياء ، فاقتضت حكمته تعالى أخذهم بالبأساء والضراء ، لعلمهم بضرعون وينهلون إلى الله تعالى^(١) .

ولاجل ذلك نشهد أن الأنبياء لم يكتفوا بإقامة الحجة والبرهان ، والإتيان بالمعاجز ، بل كانوا - مضافاً إلى ذلك - مبشرين ومنذرين . وكان الترغيب والترهيب من شؤون رسالتهم ، قال تعالى : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾^(٢) . والإنذار والتبشير دخيلان في رغبة الناس بالطاعة وابتعادهم عن المعصية .

وفي كلام الإمام علي عليه السلام إشارة إلى هذا ، قال عليه السلام : « أنها الناس ، إن الله تبارك وتعالى لما خلق خلقه أراد أن يكونوا على آداب رفيعة وأخلاق شريفة ، فعلم أنهم لم يكونوا كذلك إلا بأن يعرفهم مالهم وما عليهم ، والتعريف لا يكون إلا بالأمر والنهي^(٣) . والأمر والنهي لا يجتمعان إلا بالوعد والعيد ، والوعد لا يكون إلا بالترغيب ، والعيد لا يكون إلا بالترهيب . والترغيب لا يكون إلا بما تشنّيه أنفسهم وتلذّه أعينهم ، والترهيب لا يكون إلا بضد ذلك . . . الخ »^(٤) .

وقوله عليه السلام : « والأمر والنهي لا يجتمعان إلا بالوعد والعيد » ، إشارة إلى أن امثال الأمر والنهي ونفوذهما في نفوس الناس يتوقف على الثواب والعقاب ، فلولاهما لما كان هناك حركة إيجابية نحو التكليف إلا من العارفين الذين يعبدون الله تعالى لا رغبة ولا رهبة ، بل لكونه مستحقاً للعبادة .

فتحصّل من ذلك أن ما هو دخيل في تحقيق الرغبة بالطاعة ، والابتعاد عن المعصية ، في نفوس الأكثرية الساحقة من البشر ، يجب على الله سبحانه القيام به صوناً للتكليف عن اللغو ، وبالتالي صوناً للخلقة عن العبث .

(١) لاحظ الإلهيات ، ج ١ ، بحث البلايا والمصائب والشُرور وكونه حكيمًا ، ص ٢٧٣ - ٢٨٦ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٦٥ .

(٣) هذا إشارة إلى اللطف المحصل .

(٤) بحار الأنوار ، ج ٥ ، كتاب العدل والمعاد ، الباب الخامس عشر ، الحديث ١٣ ، ص ٣١٦ .

نعم إذا كانت هذه المبادئ كافية في تحريك الأكثرية ، نحو الطاعة ، ولكن القليل منهم لا يمثلون إلا في ظروف خاصة ، كاليسر في الرزق ، أو كثرة الرفاه ، فهل هو واجب على الله سبحانه ؟ .

الظاهر لا ، إلا من باب الجود والتفضل .
وبذلك يعلم أن اللطف المقرب إذا كان مؤثراً في رغبة الأكثرية بالطاعة وترك المعصية يجب من باب الحكمة .

وأما إذا كان مؤثراً في آحادهم المعدودين ، فالقيام به من باب الفضل والكرم .

وبذلك تقف على مدى صحة ما استدل به بعضهم على اللطف في المقام ، أو سقمه .

استدل القاضي عبد الجبار على وجوب اللطف بقوله : « إنه تعالى كلف المكلف ، وكان غرضه بذلك تعريضه إلى درجة الثواب ، وعلم أن في مقدوره ما لو فعل به لاختار عنده الواجب ، واجتنب القبيح ، فلا بد من أن يفعل به ذلك الفعل وإلا عاد بالنقض على غرضه ، وصار الحال فيه كالحال في أحدنا إذا أراد من بعض أصدقائه أن يجيبه إلى طعام قد اتخذ ، وعلم من حاله أنه لا يجيبه ، إلا إذا بعث إليه بعض أعزته من ولد أو غيره ، فإنه يجب عليه أن يبعث ، حتى إذا لم يفعل عاد بالنقض على غرضه . وكذلك ها هنا »^(١) .

وقال العلامة الحلي : « إن المكلف (بالكسر) إذا علم أن المكلف لا يطيع إلا باللطف ، فلو كلفه من دونه كان ناقضاً لغرضه ، كمن دعا غيره إلى طعام ، وهو يعلم أنه لا يجيبه إلا أن يستعمل معه نوعاً من التأدب ، فإن لم يفعل الداعي ذلك النوع من التأدب كان ناقضاً لغرضه ، فوجوب اللطف يستلزم تحصيل الغرض »^(٢) .

(١) شرح الاصول الخمسة ، ص ٥٢١ .

(٢) كشف المراد ، الفصل الثاني ، المسألة الثانية عشرة ، ص ٣٢٥ ، ط قم ١٤٠٧ .

وقال الفاضل المتداد : « إنا بيّنا أنه تعالى مرید للطاعة وكاره للمعصية ، فإذا علم أن المكلف لا يختار الطاعة ، أو لا يترك المعصية ، أو لا يكون أقرب إلى ذلك إلا عند فعل يفعله به ، وذلك الفعل ليس فيه مشقة ولا غضاضة ، فإنه يجب في حكمته أن يفعله ، إذا لو لم يفعله لكشف ذلك ؛ إما عن عدم إرادته لذلك الفعل ، وهو باطل لما تقدم ، أو عن نقض غرضه ، إذا كان مریداً له ، لكن ثبت كونه مریداً له فيكون ناقضاً لغرضه .

ويجري ذلك في الشاهد مجرى من أراد حضور شخص إلى وليمة ، وعرف أو غلب على ظنه أن ذلك الشخص لا يحضر إلا مع فعل يفعله ، من إرسال رسول أو نوع أدب أو بشاشة أو غير ذلك من الأفعال ، ولا غضاضة عليه في فعل ذلك فمتى لم يفعل عدّ ناقضاً لغرضه .

ونقض الغرض باطل ، لأنه نقص ، والنقص عليه تعالى محال ، ولأن العقلاء يعدونه سفهاً وهو ينافي الحكمة » (١) .

وهذه البيانات تدل على أن اللطف واجب من باب الحكمة .

هذا كلام القائلين بوجوب اللطف ، وهو على إطلاقه غير تام ، بل الحق هو التفصيل بين ما يكون مؤثراً في تحقق التكليف بشكل عام بين المكلفين ، فيجب من باب الحكمة ، والأو فيرجع إلى جوده وتفضله من دون إيجاب عليه . واستدل القائل بعدم وجوبه بقوله : « لووجب اللطف على الله تعالى لكان لا يوجد في العالم عاصٍ ، لأنه ما من مكلف إلا وفي مقدور الله تعالى من الألفاف ما لو فعله به لاختار عنده الواجب واجتنب القبيح ، فلما وجدنا في المكلفين من أطاع وفيهم من عصى ، تبين أن الألفاف غير واجبة على الله تعالى » (٢) .

يلاحظ عليه : إن هذا وجوده ، وعدم وجوده دليلاً على عدم وجوبه ،

(١) ارشاد الطالبين ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٢) شرح الاصول الخمسة ، ص ٥٢٣ .

المستدل لم يقف على حقيقة اللطف ، ولذلك استدل بوجود العصاة على عدم وجوبه ، فهو تصور أن اللطف عبارة عما لا يتخلف معه المكلف عن الإتيان بالطاعة وترك المعصية ، فنتيجته كون وجود العصيان دليلاً على عدم وجوده ، وعدم وجوده دليلاً على عدم وجوبه ، مع أنك قد عرفت في أدلة القائلين به بأنه ما يكون مقرباً إلى الطاعة ومبعداً عن المعصية من دون أن يبلغ حد الإلجاء .

يقول القاضي عبد الجبار بأن العباد على قسمين ، فإن فيهم من يعلم الله تعالى من حاله أنه إن فعل به بعض الأفعال كان عند ذلك يختار الواجب ويتجنب القبيح ، أو يكون أقرب إلى ذلك . وفيهم من هو خلافة حتى إن فعل به كل ما فعل لم يختر عنده واجباً ولا اجتناب قبيحاً ^(١) .

ويؤيده ما ورد في الذكر الحكيم من أن هناك أناساً لا يؤمنون ابداً ولو جاءهم نبيهم بكل أنواع الآيات والمعاجز .

قال سبحانه : ﴿ وما تُغْنِي الآياتُ والنُّذُرُ عن قوم لا يؤمنون ﴾ ^(٢) .

وقال سبحانه : ﴿ ولئن أُتيت الذين أُوتوا الكتابَ بكل آيةٍ ما تبعوا قبلتك ﴾ ^(٣) .

وفي الختام ، نقول : إن اللطف سواء أكان المراد منه اللطف المحصل أو اللطف المقرب ، من شؤون الحكمة ، فمن وصفه سبحانه بالحكمة والتنزه عن اللغو والعبث ، لا مناص له عن الاعتقاد بهذه القاعدة ، غير أن القول بوجوب اللطف في المحصل أوضح من القول به في المقرب .

ولكن يظهر من الشيخ المفيد أن وجوب اللطف من باب الجود والكرم ، قال : « ان ما اوجبه أصحاب اللطف من اللطف ، إنما وجب من جهة الجود

(١) شرح الاصول الخمسة ، ص ٥٢٠ .

(٢) سورة يونس : الآية ١٠١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٤٥ .

والكرم ، لا من حيث ظنوا أن العدل أوجبه ، وأنه لو لم يفعل لكان ظالماً»^(١)

يلاحظ عليه : إن إيجابه من باب الجود والكرم يختص باللطف الراجع إلى آحاد المكلفين ، لا ما يرجع إلى تجسيد غرض الخلقة أو غرض التكليف عند الأكثرية الساحقة من المكلفين ، كما عرفت .

ثم إن المراد من وجوب اللطف على الله سبحانه ، ليس ما يتبادر إلى اذهان السطحيين من الناس ، من حاكمية العباد على الله ، مع أن له الحكم والفصل ، بل المراد إستكشاف الوجوب من أوصافه تعالى ، فإن أفعاله مظاهر لأوصافه تعالى ، كما أن أوصافه مظاهر لذاته تبارك وتعالى .

فإذا علمنا - بدليل عقلي قاطع - أنه تعالى حكيم ، استتبع ذلك واستلزم العلم بأنه لطيف بعباده ، حيثما يبطل غرض الخلقة أو غرض التكليف ، لولا اللطف .

* * *

(١) اوائل المقالات ، ص ٢٥ - ٢٦

أدلة منكري بعثة الأنبياء

الدليل الاول .

إن الرسول إما أن يأتي بما يوافق العقول أو بما يخالفها . فإن جاء بما يوافق العقول ، لم يكن إليه حاجة ، ولا فائدة فيه . وإن جاء بما يخالف العقول ، وجب ردّ قوله .

وبعبارة أخرى : إنّ الذي يأتي به الرسول لا يخلو من أحد أمرين : إمّا أن يكون معقولاً ، وإمّا أن لا يكون معقولاً .

فإن كان معقولاً ، فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول اليه ، فأبي حاجة لنا إلى الرسول . وإن لم يكن معقولاً ، فلا يكون مقبولاً . إذ قبول ما ليس بمعقولٍ ، خروجٌ عن حدّ الإنسانية ودخولٌ في حريم البهيمية .

والجواب :

إن حصر ما يأتي به الرسول بموافق العقول ومخالفها ، حصر غير حاصر . فإن ها هنا شقاً ثالثاً وهو إتيانهم بما لا يصل إليه العقل بالطاقات الميسورة له . فإنك قد عرفت فيما أقمنا من الأدلة على لزوم البعثة ، أن عقل الإنسان وتفكيره قاصر عن نبيل الكثير من المسائل ، فلاحظ .

الدليل الثاني :

قد دلّ العقل على أن الله تعالى حكيم ، والحكيم لا يتعبد الخلق إلا بما تدل عليه عقولهم ، وقد دلت الدلائل العقلية على أن للعالم صانعاً عالماً قادراً حكيماً ، وأنه أنعم على عباده نعماً توجب الشكر . فننظر في آيات خلقه بعقولنا ، ونشكره بآلائه علينا . وإذا عرفناه وشكرنا له ، إستوجبنا ثوابه . وإذا أنكرناه وكفرنا به ، إستوجبنا عقابه . فما بالناس نتبع بشراً مثلنا ؟ ! .

والجواب :

إن قسماً من هذا الدليل تكرر للدليل الأول . وأما ما أُفيد في ذيله من وقوف الإنسان على حسن الشكر وقبح الكفر ، فهو وإن كان صحيحاً ، غير أنه يلاحظ عليه أمران :

الاول : إن كثيراً من الناس لا يعرفون كيفية الشكر . فربما يتصورون أن عبادة المقربين نوع شكر لله سبحانه . فلأجل ذلك ترى عبدة الاصنام والاوثن يعتقدون أن عبادتهم للمخلوق شيئاً موجباً للتقرب^(١) .

الثاني - إن تخصيص برامج الأنبياء بالأمر بالشكر والنهي عن كفران النعمة ، غفلة عن اهدافهم السامية . فإنهم جاؤوا لإسعاد البشر في حياتهم الفردية والاجتماعية ، ولا تختص رسالتهم بالأوراد والأذكار الجافة ، كتلك التي يرددها أصحاب الديانات أيام السبت والأحد في البيع والكنائس . وإنك لتقف على عظيم أهداف رسالة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إذا وقفت على كلمته المأثورة :

« إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة »^(٢) .

(١) قال تعالى حكاية عن المشركين : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى ﴾ (سورة الزمر : الآية ٣)

(٢) - تاريخ الطبري ج ٢ ، ص ٦٣ قاله النبي عند دعوة اقاربه إلى الاسلام ، طبعة بيروت .

الدليل الثالث :

قد دلّ العقل على أن للعالم صانعاً حكيماً ، والحكيم لا يتعبدّ الخلق بما يُقْبَح في عقولهم . وقد وردت أصحاب الشرائع بمستقبّحات من حيث العقول ، كالتوجه إلى بيت مخصوص في العبادة ، والطواف حوله ، والسعي ، ورمي الجمار ، والإحرام ، والتلبية ، وتقبيل الحجر الأصمّ . وكذلك ذبح الحيوان ، وتحريم ما يكون غذاءً للإنسان ، وتحليل ما يُنقص من بنيته .

والجواب :

ان هذا الدليل مبني على الجهل بمصالح الأحكام ومفاسدها . ولذلك زعم هذا المنكر أن ما جاء في شريعة الإسلام من حج بيت الله الحرام بأدابه الكثيرة ، أمر على خلاف العقل . ولكن الدارس لفلسفة الحج ، يقف على عظيم المصالح والمنافع التي يتضمنها ، والمجال لا يسمح باستقصائها ، إلاّ انا نشير بايجاز إلى بعضها .

فالتوجه الى البيت ، رمز الوحدة بين المسلمين في جميع أقطار المعمورة ، ولو تعددت وجهاتهم في أداء مراسمهم العبادية ، لسادت الفوضى فيهم ووقع الإنشقاق بينهم في القطر الواحد فضلاً عن سائر الأقطار .

والسعي بين الصفا والمروة تجسيد لعمل تلك المرأة البارّة التي سعت بين الجبلين سبع مرات طلباً للماء لطفلها الظمآن ، حتى حصّلته . فجعل الباري سبحانه مواطياً أقدامها محلاً للعبادة .

ورمي الجمار تجسيد لرمي الشيطان ، فبما أن الشيطان لا يقع في أفق الحسّ حتى نرجمه ، فنجد وجوده في نقاط خاصة تمثّل فيها لإبراهيم عليه السلام ، فنرجمها ظاهراً ، ولكن الهدف رمي الشيطان باطناً ، إبعاده عن حريم النفس والروح .

واستلام الحجر الأسود ، تعاهد مع إبراهيم عليه السلام في السعي على خطاه لإقامة التوحيد وهدم أركان الوثنية . فبما أن إبراهيم قد لبّى دعوة ربّه ،

وليس بين ظهرانيها حتى نباعه على ذلك مباشرة ، نباعه بآثاره . وهذا أشبه ما يكون بتقبيل الجيوش راية بلادها - مع أنه ليس إلا كسائر الأقمشة - وما هو إلا إبرازٌ للتعهد على حفظ البلاد ، وضمان أمنها واستقلالها .

وهكذا الحال في بقية المراسم العبادية ، والواجبات والمنهيات الشرعية . وقد كشف العلم الحديث عن الفوائد العظيمة التي تشتمل عليها بعض الواجبات الشرعية كالصوم . والمضار الكبيرة التي تشتمل عليها بعض المنهيات الشرعية كأكل لحم الخنزير وشرب الخمر وغيرها .

قال القاضي عبد الجبار في ردّ هذا الدليل : « إن مجرد الفعل لا يمكن أن يُحكم عليه بالقبح ، الحسن ، حتى لو سألنا سائل عن القيام هل يقبح أم لا ، فإنه مما لا يمكننا إطلاق القول في الجواب عن ذلك ، والجواب أن نقيد ، فنقول : إن حصل فيه غرض وتعرّى عن سائر وجوه القبح ، حسنٌ ، وإلا كان قبيحاً ، هذا .

وإذا كان هكذا ، وكنا قد علمنا بقول الرسول المصدق بالمعجز أن لنا في هذه الأفعال مصلح والطافاً ، فكيف يجوز أن يحكم فيها بالقبح ؟ .

وبين ذلك ويوضحه أنا نستحسن القيام في كثير من الحالات ، نحو أن يكون تعظيماً لصديق أو يتضمن غرضاً من الأغراض ، وكذلك القعود إذا تضمن انتظار الرفيق ، وكذلك الركوع ، والسجود ، والمشي ، والكلام ، والطواف ، وغير ذلك ، فما من شيء من هذه الأفعال إلا ولها وجه في الحسن إذا تعلق به أدنى غرض ^(١) .

الدليل الرابع :

إن أكبر الكبائر في الرسالة ، اتباع رجل هو مثلك في الصورة والنفس

(١) شرح الأصول الخمسة - ص ٥٦٦ .

والعقل ، يأكل مما تأكل ، ويشرب مما تشرب فأي تميّز له عليك ؟ وأي فضيلة أوجبت استخدامك ؟ وما دليله على صدق دعواه ؟^(١)

والجواب :

ليس هذا المذكور في الدليل بشيء مستحدث ، بل هذا ما كان المشركون يكررونه على ألسنتهم معترضين على رسلهم ، كما ذكره تعالى في الكتاب الكريم .

قال تعالى : ﴿ . . . وَأَسْرَوْا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا : هل هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ . . . ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا : ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ ، وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾^(٣) .

ولكن الرسل قابلتهم بالجواب ، وصدقتهم بأنهم مثلهم في الجسم والصورة ، لكنهم غيرهم في المعرفة والكمال الروحي ، لصلتهم بالله سبحانه دونهم ، واطلاعهم على الغيب بإذنه سبحانه .

قال عزّ من قائل :

﴿ قَالَتْ هُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾^(٤) .

(١) انظر للوقوف على مدارك أدلة البراهمة ، الملل والنحل للشهرستاني ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ، طبعة مصر ، وكشف المراد ، للعلامة الخلي ، ص ٢١٧ ، طبعة صيدا . رشح التجريد ، لنظام الدين القوشجي ، ص ٤٦٣ ، طبعة إيران .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٣ .

(٣) سورة المؤمنون : الآيتان ٣٣ و ٣٤ .

(٤) سورة ابراهيم : الآية ١١ .

وقد أمر الله تعالى رسوله أن يواجه هذا المنطق بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ، يُوحَى إِلَيَّ ﴾^(١)

فالجملة الأولى ، وهي الإتحاد في البشرية ، إشارة إلى أحد ركني الرسالة ، وهو لزوم المسانحة التامة بين المرسل - بالفتح - والمرسل إليه .

وقوله : ﴿ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ ، إشارة إلى وجه الفرق بينهما ، وأنه لأجل نزول الوحي عليه يجب اتباعه وإطاعته .

وبذلك يظهر تميز الأنبياء وفضيلتهم وتقدمهم على غيرهم .

وأما دليلهم على صدق ادعاءاتهم ، فسيوافيك في البحث الثاني أن هناك طرفاً ثلاثة لتمييز النبي الصادق عن المتنبي الكاذب .

وإلى هنا يتم الكلام في البحث الأول وهو تحليل حسن بعثة الأنبياء ولزومها ، ونقض ما يثار حولها من الشبهات . وقد حان وقت الشروع بالبحث الثاني ، وهو بيان الطرق التي يعرف بها صدق مدّعي النبوة .

* * *

(١) سورة فصلت : الآية ٦ .

مباحث النبوة العامة (البحث الثاني)

ما تثبت به دعوى النبوة

لا نجد إنساناً سالماً في نفسه وفكره ، يقبل ادعاءات الآخرين بلا دليل يثبتها . وهذا أمر بديهي فطري جبل الإنسان عليه . وفي هذا الصدد يقول الشيخ الرئيس في كلمته المشهورة :

« من قبل دعوى المدعي بلا بينة وبرهان ، فقد خرج عن الفطرة الإنسانية » .

وعلى هذا ، يجب أن تقترن دعوى النبوة بدليل يثبت صحتها ، وإلا كانت دعوى فارغة ، غير قابلة للإذعان والقبول .

طرق التعرف على صدق الدعوى

إنّ هنا طرقاً ثلاثة للوقوف بنحو قاطع على صدق مدّعي النبوة في دعواه ، وهي :

أ - الإعجاز .

ب - تصديق النبي السابق نبوة النبي اللاحق .

ج - جمع القرائن والشواهد من حالات المدّعي ، وتلامذته ، ومنهجه ، بحيث تفيد العلم بصدق دعواه - وهذا الطريق من أحسن الطرق في عصرنا هذا .

ولنبداً باستعراض هذه الطرق الواحدة تلو الأخرى .

طرق إثبات النبوة

(١)

الإعجاز

إنفق المتكلمون قاطبة على أنَّ الإعجاز دليل قطعي على صدق مدَّعي النبوة، وصلته بالخالق تعالى. ولما كان الإعجاز من المسائل المهمة في باب النبوة، استدعى ذلك بسطاً في الكلام، فيقع البحث عن الجهات التالية:

- الجهة الأولى - ما هي حقيقة الإعجاز وكيف نعرفه ؟ .
- الجهة الثانية - هل الإعجاز يخالف القوانين العقلية ؟ .
- الجهة الثالثة - ما هي العلة المحدثه للمعجزة ؟ .
- الجهة الرابعة - هل الإعجاز يضعضع أصول التوحيد ؟ .
- الجهة الخامسة - كيف يفسر المتجددون من المسلمين معجزات الأنبياء ؟ .
- الجهة السادسة - كيف يعدّ الإعجاز دليلاً على صدق دعوى النبوة ؟ .
- الجهة السابعة - هل حرم الإنسان المعاصر من المعاجز والكرامات ؟ .
- الجهة الثامنة - بماذا تميّز المعجزة عن سائر خوارق العادات كالسحر والكهانة ؟ .

هذه رؤوس المطالب المهمة في هذا البحث، وإذا وقف الباحث على أجوبتها، تتجلى عنده المعجزة بصورة دليل قاطع على صدق مدَّعي النبوة، كما

يتبين له أنَّ القول بالإعجاز مَّا يؤيده العلم والفلسفة ، وليس وليد الوهم والجهل . وإليك فيما يلي البحث عنها ، الواحدة تلو الأخرى .

* * *

الجهة الأولى

تعريف المعجزة

المشهور في تعريف المعجزة أنها^(١) : « أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، مع عدم المعارضة »^(٢) .

وبما أن الإعجاز يفارق الكرامة في أن الأول يكون مقروناً بدعوى النبوة بخلاف الكرامة ، فيجب أن يضاف قيد : « مع دعوى النبوة » إلى التعريف ، ولعلمهم استغنوا عنه بقيد « التحدي » . وإليك توضيح هذا التعريف .

١ - الإعجاز خارق للعادة وليس خارقاً للعقل

إنّ هناك من الأمور ما تعدّ خارقة للعقل ، أي مضادة لحكم العقل الباتّ ، كاجتماع النقيضين وارتفاعهما ، ووجود المعلول بلا علّة ، وانقسام الثلاثة إلى عددٍ صحيحين . . . فإنّ هذه أمور يحكم العقل باستحالتها وامتناع تحققها .

(١) شرح التجريد ، لنظام الدين القوشجي ، ص ٤٦٥ .

(٢) وقد عرف المحقق الطوسي الإعجاز بقوله : « هو ثبوت ما ليس بمعتاد ، أو نفي ما هو معتاد ، مع خرق العادة ومطابقة الدعوى » ، (كشف المراد ص ٢١٨ ، طبعة صيدا - ١٣٥٣ هـ) . ولا تخفى المناقشة في هذا التعريف لزيادة قوله مع « خرق العادة » ، للاستغناء عنه بقوله : « ما ليس بمعتاد ، أو نفي ما هو معتاد » . أضف إلى ذلك أنّه ترك بعض القيود اللازمة فيه . والتعريف الذي ذكرناه أكمل منه .

وهناك أمور تخالف القواعد العادية ، بمعنى أنها تعدّ محالاً حسب الأدوات والأجهزة العادية ، والمجاري الطبيعية ، ولكنها ليست أمراً محالاً عقلاً لو كان هناك أدوات أخرى خارجة عن نطاق العادة ، وهي المسماة بالمعاجز . ولأجل تقريب ما ذكرنا تمثّل ببعض الأمثلة :

مثال أول : جرت العادة على أنّ حركة جسم من مكان إلى مكان آخر تتحقق في إطار عوامل وأسباب طبيعية بدائية أو وسائل صناعية متحضرة . ولكن لم تعرف العادة أبداً حركة جسم كبير من مكان إلى مكان آخر بعيد عنه ، في فترة زمنية لا تزيد على طرفة العين ، بلا تلك الوسائط العادية . ولكن هذا غير ممتنع عقلاً ، إذ لا يمتنع أن تكون هناك أسباب أخرى لتحريك هذا الجسم الكبير ، لم يقف عليها العلم بعد .

ومن هذا القبيل قيام من أوتي علماً من الكتاب بإحضار عرش بلقيس ، ملكة سبأ ، من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ، في طرفة عين ، بلا توسط شيء من الأجهزة المادية المتعارفة ، بل بأسباب غيبية كان مطلعاً عليها . فعمله هذا الخارق للعادة ، غير خارق للعقل لما ذكرنا ، وهو معجزة .

مثال ثان : إنّ معالجة الأمراض الصعبة كالسّل والعمى ، أمر ممكن لذاته عقلاً ، ولكنه كان أمراً محالاً عادة في القرون السالفة ، لقصور علم البشر عن الوقوف على الأجهزة والأدوية التي تعيد الصحة إلى المسلول ، والبصر إلى الأعمى . ومع تقدم العلم تذللّت الصعاب أمام معالجة هذه الأمراض ، فصار بإمكان الطبيب الماهر القيام بالمعالجة عن طريق الأدوية والعمليات الجراحية .

وفي المقابل هناك طريقة أخرى للعلاج ، وهي الدعاء والتوسّل إلى الخالق تعالى .

والعلاج - بكلا الطريقتين - يشترك في كونه أمراً ممكناً عقلاً ، غير أنّه يختلف في الطريقة الأولى عن الثانية ، بالطريق والسبب ، فالطبيب الماهر يصل إلى غايته بالأجهزة العادية ، فلا يعد عمله معجزة ولا كرامة ، والنبي - كال مسيح وغيره - يصل إلى نفس تلك الغاية عن طريق غير عادي ، فيسمى معجزة .

فالعقل في كلتا الصورتين غير خارق لأحكام العقل ، إلا أنه موافق للعادة في الأولى دون الثانية .

وقس على ما ذكرنا كثيراً من الأمثلة يتميز فيها خارق العادة عن خارق العقل .

٢ - الإعجاز يجب أن يكون مقترناً بالدعوى

هذا هو القيد الثاني لتحديد حقيقة الإعجاز ، ويهدف إلى أن خرق العادة لا يسمى إعجازاً إلا بالإتيان به لأجل إثبات دعوى السفارة والنبوة ، فإذا تجرد عنها يسمى كرامة .

وقد نقل سبحانه في الذكر الحكيم كرامة لمريم عليها السلام ، في قوله عز من قائل : ﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(١) .

وهذا الأمر (حضور الرزق بلا سعي طبيعي) لم يكن مقترناً بدعوى المقام والمنصب الرسالي ، فلا يوصف بالإعجاز بل بالكرامة . وهكذا الحال فيما يقوم به الأولياء والصلحاء من عظام الأمور الخارقة للعادة ، فإنها توصف بالكرامة .

٣ - عجز الناس عن مقابله

هذا هو القيد الثالث في تحديد حقيقة الإعجاز ، وهو ينحل إلى أمرين :

الأول - دعة الناس إلى المقابلة والمعارضة ، وطلب القيام بمثله .

الثاني - عجز الناس كلهم عن الإتيان بمثله .

وإلى كلا الأمرين أشير في التعريف بلفظ « التحدي » . ويترتب على هذا أن

(١) سورة آل عمران : الآية ٣٧ .

ما يقوم به كبار الأطباء والمخترعين من الأمور المعجبة ، خارجٌ عن إطار الإعجاز ،
لانتفاء الأمرين فيهما . كما أنَّ ما يقوم به السحرة والمرتاضون من الأعمال المدهشة ،
لا يُعدّ معجزاً لانتفائها أيضاً ، خصوصاً الأمر الثاني ، لقيام المرتاض الثاني بمثل
ما قام به المرتاض الأول ، بل بأعظم منه .

٤ - أن يكون عمله مطابقاً لدعواه

لا بدّ من هذا القيد في صدق الإعجاز على فعل المدعي . فلو خالف ما
ادّعاه لما سُمّي معجزة ، وإن كان أمراً خارقاً للعادة . وذلك كما حصل مع مسيلمة
الكذاب عندما ادّعى أنّه نبي ، وآية نبوته أنّه إذا تفل في بئر قليلة الماء ، يكثر
ماؤها : فتفل فغار جميع مائها .

وقد كان من أفاعيله - الدالّة على كذب دعواه - أنّه أمرّ يده على رؤوس
صبيان بني حنيفة ، وحنّكهم ، فأصاب القرع كلّ صبيٍّ مَسَحَ على رأسه ، وَلَثَغَ
كُلُّ صَبِيٍّ حَنَكُهُ^(١) .

* * *

(١) لاحظ تفصيل هذه الوقائع في تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٥٠٧ .

الجهة الثانية

هل الإعجاز يخالف أصل العلية ؟

إنّ بديهية العقل تحكم بأنّ كلّ ظاهرة إمكانيّة ، تحتاج في تحقّقها إلى علّة ، وهذا أمر لم يختلف فيه إثنان ، وعليه أساسُ التجربة والبحث العلمي ، فإنّ العلماء - في المختبرات وغيرها - يبحثون عن علل تكوّن الظواهر ، وموجداتها ، فشأنهم كشفُ الروابط بين العلل المادية ومعاليها ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر ، إنّ الكتب السماوية ، والسير التاريخية ، تنسبُ إلى الأنبياء ، أموراً لا تتفق بظاهرها مع هذا الأصل ، فتنسبُ إلى موسى عليه السلام : أنّه ألقي عصاه الخشبية الصماء ، فانقلبت حيّة تسعى . وأنّ المسيح عليه السلام كان يمسح بيده على المرضى فيبرؤن . وأنّ الحصى سبّحت في كفّ النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ، وغير ذلك من المعاجز . والإعتقاد بهذه لا يجتمع مع قبول الأصل العقلي المذكور ، لأنّ الثعبان يتولد من البيضة بعد مرورها بمراحل عديدة من الإنفعالات الداخلية . وإزالة المرض وعود الصحة ، رهن استعمال الأدوية وإجراء العمليات الجراحية ، والتسبيح نوع تكلم يحتاج إلى حنجرة وفم وهوات ، يقوم به العاقل . وهكذا .

وعلى الجملة ، فظهور المعاجز على مسرح الوجود ، مع عدم علل مادية تُظهرها ، يُعدّ خرقاً لقانون العلية ، وقول بتحقيق المعلول بلا علّة .

الجواب

إنَّ المعارض خَلَطَ بين عدم وجود العلة المادية التي اعتاد عليها الإنسان في حياته ، وعدم العلة على الإطلاق . فالذي يناقض قانون العلية هو القول بأنَّ المعجزة ظاهرة إتفاقية لا تستند إلى علة أبداً . وهذا مما لا يقول به أحد من الإلهيين .

وأما القول بعدم وجود علة مادية متعارفة للمعجزة ، فليس هو إنكار لقانون العلية على الإطلاق ونفيًا لليلة من الأساس ، وإنما هو نفي دور وتأثير قسم خاص من العلل ، ونفي الخاص لا يكون دليلاً على نفي العام .

وهذا القسم الخاص من العلل ، المنفي في مورد المعجزة ، هو العلل المادية المتعارفة التي أنس بها الذهن ، ووقف عليها العالم الطبيعي ، واعتاد الإنسان على مشاهدتها في حياته . ولكن لا يمتنع أن يكون للمعجزة علة أخرى لم يشاهدها الناس من قبل ، ولم يعرفها العلم ، ولم تقف عليه التجربة ، وبعبارة أخرى ، كون المعجزة معلولاً بلا علة شيء ، وكونها معلولة ليلة غير معروفة للناس والعلم شيء آخر . والباطل هو الأول ، والمُدعى هو الثاني ، وسيوافيك الكلام فيه في الجهة ' ثة .

* * *

الجهة الثالثة

ما هي العلةُ المحدثَةُ للمعجزة ؟

قد وقفت في الجهة السابقة على أنّ القولَ بالمعاجز لا يضعضع أصلَ العِلِّيَّةِ ، وأنّ عدم العِلَّةِ العاديةِ في موردِها لا يدلّ على تحقّق المعاجز بلا عِلَّةٍ أصلاً ، بل لها عِلَّةٌ غير معروفة بين العلل التي يشاهدها الإنسان . والكلام في هذه الجهة يقع في تعيين تلك العلة ، وفيها أقوال واحتمالات :

القول الأول - إنّها الله سبحانه

ربما يحتمل أن تكون العِلَّةُ هي الله سبحانه ، وأنّه يقوم بإيجاد المعاجز والكرامات مباشرة من دون توسط علل وأسباب . فكما هو أوجد المادة الأولى وأجرى فيها عللاً وأنظمة ، قام في فترات خاصة بخلقِ الشعبان من العصا الخشبية ، وتفجير الماء من الصخور الصّماء . . . وغير ذلك من خوارق الطبيعة والعادة .

ولكن هذا - وإن كان أمراً ممكنًا ، لعموم قدرته تعالى على كل شيء ممكنٍ بذاته - إلّا أنّه على خلاف ما عرفناه من الرّبِّ تعالى من سنته التي أجراها في الكون ، وهي أن يكون لكل شيءٍ سبباً وعِلَّةً . ومن البعيد أن يخالف تعالى سنته في مجال المعاجز^(١) .

(١) هذا ، على أنّ انتساب الحوادث المتجددة المتقضية بلا واسطة علل وأسباب ، إلى الله تعالى المتّزه عن =

القول الثاني - إنها علل مادية غير متعارفة

وهنا احتمال ثان ، وهو أن تكون العلة المحدثة للمعجزة ، علة مادية غير متعارفة ، اطلع عليها الأنبياء في ظل اتصالهم بعالم الغيب . ولا بُدَّ في أن يكون للشيء علتان ، إحداهما يعرفها الناس ، والثانية يعرفها جمع خاص فيهم . ويمكن تقريب ذلك بملاحظة إثثار الأشجار ، فإنَّ له علة مادية يعرفها الزارع العادي ، فتثمر في ظل تلك العلة بعد عدة أعوام . وهناك خبراء من مهندسي الزراعة واقفون على خصوصيات في التربة والأشجار والبيئة والمياه وغير ذلك ، توجب إثثار الأشجار في نصف تلك المدة مثلاً . فإذا كان هذا ملموساً لنا في الحياة ، فلا نستبعد أن يقف الأنبياء المتصلون بخالق الطبيعة . على أسرار ورموز فيها ، يقدرُون بها على إيجاد المعاجز .

ولكنه قول لا يدعمه دليل .

القول الثالث - إنها الملائكة والموجودات المجردة

وهنا احتمال ثالث وهو أنَّ المعاجز تتحقق بفعل الملائكة - التي يعرفها القرآن بـ « المدهرات »^(١) ، بأمر منه سبحانه ، عند إرادة النبي إثبات نبوته بها^(٢) .

= التجرد والحدوث ، بما لا تتقبله الأصول الفلسفية المبتنية على لزوم وجود السخية بين العلة والمعلول ، سنخية ظليلة لا توليدية . وهذا مفقود بينه سبحانه ، والزمان والزمانيات التي طبعَت على التجرد والتقصي . وهذا هو البحث الذي طرحه الفلاسفة عند بحثهم عن ارتباط الحادث بالقديم ، وهو من مشكلات البحوث الفلسفية .

ولا ينافي هذا عموم القدرة ، فإنَّ عمومها أمر ثابت ومسلم ، إلَّا أنَّ الشيء ربما لا يقبل الوجود إلَّا عن طريق أسباب وعلل مادية ، أي يكون وجوده على نحو لا يتحقق إلَّا في ظل علل مادية . وهذا - من باب التقريب - كالأرقام الرياضية ، فإنَّ العدد خمسة - بوصف أنه خمسة - لا يتحقق إلَّا بعد تحقق الأربعة ، ويستحيل تحقيقه - بهذا الوصف - استقلالاً بلا تحقق آحاد قبله . وهذا كصدور الأكل من إنسان معين ، فإنَّ الأكل يتوقف على وجود أسباب وأدوات مادية ، كالقلم واللسان والأسنان ، وعملية المضغ ثم البلع . وهذا النوع من الفعل لا يمكن أن ينسب إلى الله سبحانه نسبة مباشرة ، وإنَّما ينسب إليه دائماً نسبه تسيبئية ، لأنَّ ماهيته محاطة بالأمور المادية .

(١) وهو قوله تعالى في سورة النازعات : ﴿ فَاَلْمُدْبِرَاتُ أَمْرًا ﴾ الآية ٥ .

(٢) ولعلَّ من هذا القليل تمثل الروح الأمين على السيدة مريم ، كما في قوله سبحانه : ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (سورة مريم : الآية ١٧) .

القول الرابع - إنها نفس النبي وروحُه

وذهب إلى هذا جمع من الفلاسفة والمحققين ، وإدراك صحته يتوقف على معرفة القدرة العظيمة التي تمتلكها النفس البشرية ، فنقول :

إنَّ الإنسان كلما ازداد توجهاً إلى باطنه ، وانقطاعاً عن الظواهر المادية المحيطة به ، كلما تفجّرت مكان من قدرات نفسه وتأجّج أوار طاقاتها ، وبالعكس ، كلما ازداد انغراساً في دركات الملذات ، وإشباع الغرائز ، كلما خمدت طاقاتها وانطفأت قدراتها .

ويدلُّنا على ذلك عياناً ، ما يقوم به المرتاضون^(١) من حوارق الأفعال وعجائبها : فيرفعون الأجسام الثقيلة التي لا يتيسر رفعها إلا بالرافعات الآلية ، بمجرد الإرادة . ويستلقون على المسامير الحادة ثم تكسر الصخور الموضوعة على صدورهم ، بالمطارق ، ويدفنون في الأرض أياماً ، ليقوموا بعدها أحياء . وغير ذلك مما يراه السائح في بلاد الهند وغيرها ، وتواتر نقله في وسائل الإعلام كالجرائد والمجلات والإذاعات . وكل ذلك دليل قاطع على أنَّ في باطن الإنسان قوى عجيبة لا تظهر إلا تحت شرائط خاصة .

وبعبارة واضحة ، إنَّ نفس الإنسان كما تسيطر على أعضاء البدن ، فتتقاد لإرادتها ، وتتحرك قياماً وجلوساً بمشيئتها ، فكذلك تسيطر - في ظل تلك الظروف الخاصة - على موجودات العالم الخارجي ، فتقودها بإرادتها ، وتخضعها لمشيئتها ، وتقديرُ ، بمجرد الإرادة ، على إبطال مفعول العلل المادية في مقام التأثير ، وغير ذلك من الأفعال .

وليس القيام بعجائب الأمور من خصائص المرتاضين ، بل إنَّ هناك أناساً مثاليين ، أفنوا أعمارهم في سبل العبادة ومعرفة الربِّ ، بلغوا إلى حدِّ قدروا معه على خرق العادة والمجاري الطبيعية .

(١) والرياضة هي التوجُّه إلى الباطن والانقطاع عن الظاهر .

يقول الشيخ الرئيس في هذا المجال : « إذا بلغك أن عارفاً أطاق بقوته فعلاً ، أو تحريكاً ، أو حركة تخرج عن وسع مثله ، فلا تتلقه بكل ذلك الإستنكار ، فلقد تجدد إلى سببه سبيلاً في اعتبارك مذاهب الطبيعة . . . وإذا بلغك أن عارفاً حدث عن غيب فأصاب ، متقدماً ببشرى أو نذير ، فصديق ولا يتعسر عليك الإيمان به ، فإنّ لذلك في مذاهب الطبيعة أسباباً معلومة »^(١) .

ويقول صدر المتألهين : « لا عجب أن يكون لبعض النفوس قوة إلهية ، فيطيعها العنصر في العالم المادي ، كإطاعة بدنه إياها . فكلما ازدادت النفس تجرداً وتشبهاً بالمباديء القصوى ، ازدادت قوة وتأثيراً فيما دونها .

فإذا صار مجرّد التصوّر سبباً لحدوث هذه التغيرات (طاعة البدن للنفس) في هيولى البدن ، لأجل علاقة طبيعية وتعلّق جبليّ لها إليه ، لكان ينبغي أن يؤثر في هيولى العالم مثل هذا التأثير ، لأجل اهتزاز علويّ للنفس ، ومحبة إلهية لها ، فتؤثر نفسه في الأشياء »^(٢) .

ويدلّ على أنّ خوارق العادة رهن فعل النفس الإنسانية ، ما ينقله تعالى من أفعال السحرة الواقعة بإذنه تعالى ، وذلك في قوله عزّ من قائل : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا مَا يُمِرُّونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرءِ وَرَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾^(٣) .

وهناك من الآيات ما هو أصرح منها في نسبة الخوارق إلى أصحاب النفوس القوية ، كما ورد في أحوال سليمان النبي عندما طلب من الملأ إحضار عرش ملكة سبأ من اليمن إلى فلسطين قبل أن يأتوه مسلمين . فقال عفريت من الجن إنّهُ قادر على حمله والإتيان به قبل انفضاض مجلس سليمان ، ولكن مَنْ كان عنده عِلْمٌ من الكتاب قال إنّهُ قادر على الإتيان به قبل أن يرتد طَرْفُ سُلَيْمَانَ إليه ، وبالفعل ، بأسرع من لمح البصر ، كان العرش ماثلاً أمامه .

(١) الإشارات والتنبيهات ، مع شرح المحقق الطوسي ج ٣ ص ٣٩٧ . ويعدها أخذ الماتن والشارح بيان قدرة النفس على الأمور الخارقة للعادة .

(٢) المبدأ والمعاد ، ص ٣٥٥ - بتصرف .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٠٢ .

يقول سبحانه : ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ * قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ الْجَنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي . . . ﴿ (١) .

بعد هذا كله نقول : إذا كان هذا حال الإنسان العادي الذي لم يطرق إلا باب الرياضة ، أو العارف الذي قام بالفرائض واجتنب المحرمات ، فكيف بمن وقع تحت عناية الله سبحانه ورعايته الخاصة ، وتعليم ملائكته ، إلى أن بلغت نفسه أعلى درجات القوة والمقدرة ، إلى حدٍّ يقدر - بإرادة ربانية - على خلع الصور عن المواد واللباسها صوراً أخرى ، وَيَصِيرُ عَالَمُ الْمَادَّةِ مطيعاً له ، إطاعة أعضاء بدن الإنسان له .

وفي الذكر الحكيم إشارات إلى هذا المعنى حيث ينسب تعالى الإتيان بالمعجزة إلى نفس الرسول بقوله : ﴿ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (٢) . فإن الفاعل في « يأتي » هو الرسول المتقدم عليه .

وقد يؤيد هذا الاحتمال بما ورد في توصيف الأنبياء بأنهم جند الله ، وأنهم منصورون في مسرح التحدي ومقابلة الأعداء . قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ * إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَنَصُّرُونَ * وَإِنْ جُنَدُنَا هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٣) . وكون النبي منصوراً في جميع المواضع ، ومنها مواضع التحدي ، يدل على أن له دوراً ودخالة في الإتيان بخوارق العادات .

ونظير ذلك قوله سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ (٤) ، فوصف النبي صلى الله عليه وآله بكونه غالباً ، ولا معنى للغالبية إلا لدخالته في مواضع التحدي .

(١) سورة النمل : الآيات ٣٨ - ٤٠ .

(٢) سورة غافر : الآية ٧٨ .

(٣) سورة الصافات : الآيات ١٧١ - ١٧٣ .

(٤) سورة المجادلة : الآية ٢١ .

ولا دليل على اختصاص الآيتين بالمغازي والحروب ، بل إطلاقهما يدل على كونهم منصورين وغالبين في جميع مواقع المواجهة ، سواء أكانت محاجة أو تحدياً بالإعجاز ، أو حرباً وغزواً .

وهذا الفعل العظيم للنفوس ، إنما يقع بأمره تعالى وتأنيده ، ولذا كانت تحصل لهم الغلبة في موارد المجابهة ؛ قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُطْلِعُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) .

فهذه الآيات العامة المتقدمة ، تدلّ بظهورها على كون الفاعل للمعاجز والكرامات ، نفوس الأنبياء وأرواحهم ، بإذن الله سبحانه .

وهناك آيات أخرى خاصة ، تسند إلى خصوص بعض الأنبياء خوارق العادة ، بل ائتمار الكون بأمرهم .

قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ (٢) .

وأنت إذا أمعنت في قوله : ﴿ بأمره ﴾ ، ينكشف لك الستار عن وجه الحقيقة ، ويظهر لك أن إرادته كانت نافذة في لطائف أجزاء الكون .

وقال تعالى في المسيح عيسى بن مريم : ﴿ إِنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَابْرَأُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ ، وَأُخِيي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (٣) .

ويقول تعالى أيضاً : ﴿ إِذْ نَخَلُّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي ، فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ، وَتَبْرِءُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ نُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴾ (٤) .

فترى أن الآية تنعش على أن نفخ الروح في الهيكل الطيني للطير ، رهن طاقة

(١) سورة يونس : الآية ٨١ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٨١ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٤٩ .

(٤) سورة المائدة : الآية ١١٠ .

المسيح البشرية ، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى ، وكل ذلك بإذن الله تعالى ومشيتته .

ويعد هذا كله ، أبقى شئك في قدرة الأنبياء الشخصية على خرق العادة ، وتكييف الطبيعة حسب ما يريدون ؟ .

بل ماذا يفهم الإنسان إذا قرأ هذه الآية - التي تنقل مخاطبة يوسف عليه السلام إخوته - : ﴿ إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ... ﴾ (١) .

والآية التالية تبين نتيجة أمره : ﴿ فَلَمَّا أَنَّ جَاءَ الْبَشِيرُ الْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ... ﴾ (٢) .

فما هو العامل المؤثر في استرجاعه بصره ، بعدما ابيضت عيناه من الحزن ؟ .

هل هو قميص الملطخ بالدم ؟ أو حامل البشارة والقميص ؟ (٣) .

ليس هذا ولا ذاك ، بل هو نفس إرادته الزكية المؤثرة بإذن الله ، وعندما تقتضي المصلحة الإلهية ذلك . وإنما توصل بالقميص ليعلم أنه هو القائم بذلك .

فاتضح من جميع ما ذكرناه من الآيات والشواهد أن للمعجزة علة إلهية متمثلة في نفوس الأنبياء وإرادتهم القاهرة . وليست إرادتهم هذه فوضوية ، وإنما لظهورها ظروف وشرائط خاصة سيأتي بيانها بإذنه تعالى .

* * *

(١) سورة يوسف : الآية ٩٣ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٩٦ .

(٣) في الروايات ، أن حامله كان أحد إخوته .

الجهة الرابعة

هل الإعجاز يضعضع برهان النظم ؟

إنَّ برهان النُّظم من أوضح الأدلة على أنَّ العالم مخلوق لصانع عالم قادر . حيث إنَّ النظام الدقيق السائد على كل ظاهرة وجزء من ظواهر الكون وأجزائه كاشف عن دخالة قدرة كبرى وعلم عظيم في تحقيقه وتكوُّنه . هذا من جانب .

ومن جانب آخر ، إنَّ المعجزات - كما تقدَّم - خارقة للعادة والسنن السائدة في هذا النظام ، فهي تعدُّ استثناء فيه ونوع مخالفة له . فالوليد الإنساني - مثلاً - يتكوَّن بعد التقاء نطفة الرجل وبويضة المرأة ، فتتشكل منها الخلية الإنسانية ، ثم تمرُّ بعد ذلك بمراحل التفاعل والتكامل ، ليخرج بعدها من بطن الأم موجوداً سويّاً متكاملأ .

والقول بأنَّ المسيح - عليه السلام - ولد بلا سيادة هذا النظام ، بل بمجرد نفخ المَلَك في رحم مريم - عليها السلام خرق لذاك النظام ، وهو كاشف عن عدم كليته واطراده . أفبعد ذلك يمكن أن يستدلَّ ببرهان النظم على وجود الصانع ؟ .

وبعبارة ثانية : إنَّ النظم السائد على العالم كاشف عن دخالة المحاسبة والتقدير في تكوُّن كل شيء إنساناً كان أو حيواناً ، أرضياً كان أو أثرياً . ولكن خلق الشعبان فجأة من الخشب اليابس ، وخروج الناقة من الجبل الصخري الأصم ، وما شابه ذلك ، ينفي وجود المحاسبة في تكوُّن تلك الظواهر .

والجواب

إنَّ المعترض لم يقف على أساس برهان النظم أولاً ، كما لم يقف على حقيقة الإعجاز وماهيته ثانياً . ولذلك اعترض بأنَّ القول بالإعجاز يخالف برهان النظم .

أمَّا الأول ، فلأنَّ المعترض تصوّر أنَّ برهان النظم يبتني على وجود نظم واحد بالعدد سائد على الجميع ، وقائم بمجموع الأشياء في العالم ، بحيث لو شوهه خلاف النظم في جزء من أجزائه لبطل البرهان ، بحكم كونه واحداً بالعدد غير قابل للانقسام .

ولكن الحقيقة خلاف ذلك ، فإنَّ برهان النظم واحد بالنوع كثير بالعدد . فهو يتمثل ويتجسد في كل ذرة خاضعة في ذاتها للنظام . فتكون كل ذرة باستقلالها حاملةً لبرهان النظم والدلالة على وجود الصانع القادر العليم ، من دون توقف في دلالتها على سيادة النظم في الذرات الأخرى .

وفي الحقيقة ، إنَّ برهان النظم يتكرر عدداً بتكثر الذرات والأجزاء والظواهر الخاضعة للنظام ، ولو فرض فقدان النظم في جزء وظاهرة ، أو أجزاء وظواهر - كما يدعيه المعترض في مجال الإعجاز - لكفى وجود النظم في سائر الأجزاء والظواهر ، في إثبات الصانع ، وإلى هذا يهدف القائل :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ففي كل خلية وعضو من الإنسان الواحد يتجسد برهان النظم ، ويتكرر بتكررها . فكيف إذا لاحظنا مجموع البشر والمخلوقات والكواكب والمجرات . وكما أنَّ طغيان عُدة من النظام السائد على سائر الغدد في بدن الإنسان ، كما هو الحال في السرطان ، لا يضرُّ ببرهان النظم القائم بهذا الإنسان ، فكذلك الخروج عن النظام في مجال الإعجاز ، لأغراض تربوية ، ولهداية الناس إلى اتصال النبي بعالم الغيب ، فإنَّه لا يؤثر شيئاً في برهان النظم من باب أولى .

وأمَّا الثاني ، فلأنَّ الإعجاز ليس من الأمور المتوفرة في حياة الأنبياء ، بحيث يكون النبي مصدراً له في كل لحظة وساعة ويوم ، ويكون خرق العادة وهدم

النظام شغله الشاغل . وإنما يقوم به الأنبياء في فترات خاصة ر حساسة لغايات تربوية .

ثم إنَّ النبي إذا أراد الإتيان بالمعجزة ، أطلَعَ الناس مُسَبِّقاً على أنَّه سيقوم بخرق العادة في وقت خاص . وهذا دالٌّ على وجود قوة قاهرة مهيمنة على العالم ، تقوم كلما شاءت واقتضت الحكمة والمصلحة القدسية ، بخرق بعض النظم والتخلّف عنها . فالعالم ، قَبْضُهُ وَبَسْطُهُ ، وَسَنُّ أَنْظَمَتِهِ وَخَرْقُهَا ، بيد خالقه ، يفعل ما يشاء حسب المصالح .

وخلاصة البحث أنَّ الإعجاز ليس خرقاً لجميع النظم السائدة على العالم ، وإنما هو خرق في جزء من أجزائه غير المتناهية الخاضعة للنظام والدالّة ببرهان النظم على وجود الصانع . وأيضاً ، إنَّ قيام الأنبياء بالإعجاز إنما يحصل بعد فترانه بالإعلام المسبق ، حتى يقف الناظرون على أنَّ خرق العادة وقع بإرادة ومشئته القوة القاهرة المسيطرة على الكون والمجربة للسنن والأنظمة فيه .

هذا كلّهُ ، مع أنَّ الإعجاز ، وإن كان خرقاً للسنن العادية ، إلّا أنَّه ربما يقع تحت سنن أخرى مجهولة لنا معلومة عند أصحابها ، فهي تخرق النظام العادي ، وتجرى نظاماً آخر غير عادي ، لا يقلّ في نظمه عنه .

* * *

الجهة الخامسة

الإعجاز والمتجددون من المسلمين

الإيمان بالغيب عنصرٌ أساسيٌّ في جميع الشرائع السماوية ، ولو انتزع هذا العنصر عن الدين الإلهي ، لأصبح دستوراً عادياً شبيهاً بالدساتير والأيدولوجيات المادية البشرية التي لا تمت إلى الخالق والمُدبّر لهذا الكون بصلة . ولأجل ذلك نرى أنه سبحانه يُعَدُّ الإيمان بالغيب في طليعة الصفات التي يتّصف بها المتّقون إذ يقول - عزّ من قائل - : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (١) .

وقد كان أصحاب الشرائع وأنصارها ، وفي مُقدّمَتهم علماء الإسلام ، محتفظين بهذا الأصل ، معتصمين به أشدّ الإعتصام ، مؤكّدين عليه غاية التأكيد ، باعتبار أنه الفارق الجوهرى بينها ، وبين الأنظمة البشرية .

ولكن ، من جانب آخر ، إنّ الحضارة المادية الحديثة ، اعتمدت على الحسّ والتجربة ، وأعطت كل القيمة والوزن لما أيّدته أدوات المعرفة المادية .

وقد أدهشت هذه الحضارة ، جماعة من المفكرين المسلمين ، فوجدوا أنفسهم في صراع عنيف بين الإيمان بالغيب ، باعتباره عنصراً أساسياً في الدين ، ومبادئ الحضارة المادية التي لا تُعْتَبَرُ إلّا ما كان قائماً على الحسّ والتجربة ، فمن

(١) سورة البقرة : الآية ٣ .

الجهة الأولى لم يجرؤوا على إنكار ما هو خارج عن إطار أدوات المعرفة المادية - كالمعاجز - لأنهم مسلمون ، ومن الجهة الثانية لم يتجرؤوا على التصريح بوجود الملائكة والجن ، وبخرق المعاجز للسنن الطبيعية والأسباب المادية ، تحرزاً من رمي الماديين إياهم بالخرافة ، والإيمان بما لا تؤيده التجربة ولا يشتهه الحس .

ولأجل ذلك سلكوا طريقاً وسطاً ، وهو تأويل بعض ما جاء في مجال الغيب ، خصوصاً المعاجز والكرامات ، حتى يستريحوا بذلك من هجمة الماديين ، ويرضوا به طائفة المتدينين .

ومن سلك هذا الطريق الشيخ محمد عبده^(١) في مناره ، والطنطاوي^(٢) في جواهره ، وتلامذة منهجهما . فمن وقف على كلا التفسيرين في المواضع التي يُحدث القرآن فيها عن معاجز الأنبياء وخوارق العادات ، يقف على أنّ الرجلين يسعيان بكل حول وقوة إلى تصوير الحوادث الإعجازية ، وكأنها جارية على المجاري الطبيعية ، غير مخالفة أصول الحس والتجربة^(٣) .

بل ربما نرى أنّ بعض مُقتفي منهجهما ينكرون أن يكون للنبي الأعظم صلى الله عليه وآله معجزة غير القرآن الكريم ، وقد تبعوا في نفي معاجزه ، قساوسة النصراني الذين يحاولون إنكار معاجز النبي الكريم ليتسنى لهم بذلك تفضيل سيدنا المسيح عليه السلام عليه أولاً ، وإنكار نبوته لكونه فاقداً للمعاجز ، ثانياً^(٤) .

(١) توفي سنة ١٣٢٣ هـ ق .

(٢) توفي سنة ١٣٥٨ هـ ق .

(٣) لاحظ مثلاً ما جاء في المنار ، ج ١ ، ص ٣٢٢ ، تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَخْتَلِفُ أُولَٰئِكَ فِي أَمْرِ الْكَلْبِ الْأَعْيُنِيِّ ﴾ (سورة البقرة : الآية ٥٦) .

وفيه أيضاً ، ج ١ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ ، تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ . (سورة البقرة : الآية ٦٥) .

وفيه أيضاً ، ج ١ ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ ، تفسير قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِعَصَاكَ كَذَلِكَ نُبَيِّنُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ . (سورة البقرة : الآية ٧٣) .

وغير ذلك من الموارد .

(٤) راجع للوقوف على كلمات القساوسة في هذا المجال ، كتاب « أنيس الأعلام » ، ج ٥ ، ص ٣٥١ .

وهم يتمسكون في هذا المجال بعدة آيات^(١) خفي عليهم المراد منها ، ونحن نكتفي في المقام بتفسير واحدة منها ، لم يزل يتمسك بها كل بر وفاجر منهم ، وهي :

قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما رعمت علينا كسفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى إلى السماء ، ولن نؤمن لرقبك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي . هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴿^(٢) .

وقد استدلل بها بعض القساوسة قائلًا : إن نبي الإسلام لما طُوب بالمعجزة ، أظهر العجز بقوله إنه ليس إلا بشراً رسولاً .

إن تحليل هذا الاستدلال ونقده ، يتوقف على دراسة كل واحدة من المقترحات المذكورة في الآيات المتقدمة ، وهي :

- ١ - أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً .
- ٢ - أن يكون للنبي جنة من نخيل وعنب ، وتجري الأنهار خلالها بتفجير منه .
- ٣ - أن يسقط السماء عليهم كسفاً .
- ٤ - أن يأتي بالله والملائكة قبيلاً .
- ٥ - أن يكون للنبي بيت من زخرف .
- ٦ - أن يرقى النبي في السماء ، ولا يكفي ذلك في إثبات نبوته حتى ينزل عليهم كتاباً من السماء يقرؤه .

(١) هي ثمانية عشرة آية ، تعرض لها الأستاذ ، دام ظله ، في موسوعته التفسيرية مفاهيم القرآن ، ج ٤ ، ص ٩٥ إلى ١٥٤ .
(٢) سورة الإسراء : الآيات ٨٩ - ٩٣ .

هذه هي مقترحات القوم ، ونحن نجيب عليها بجوابين : إجمالي وتفصيلي :

إجمال الجواب عن هذه المقترحات ، أن النبي صلى الله عليه وآله إنما لم يأت بها لعدم استجتماعها لشرائط الإعجاز ، إذ ليس القيام بالمعجزة من الأمور الفوضوية التي لا تخضع لشرط عقلي أو شرعي . وهذه المقترحات فاقدة لها .

تفصيل الجواب

أما الأول ، فإن سنة الله الحكيمة في الحياة البشرية إستقرت على أن يصل الناس إلى معاشهم ومآكلهم ومشاربهم عن طريق السعي والجد ، تكميلاً لنفوسهم وتربية لعزائمهم .

فإذا كان مطلوب القوم أن يُفَجَّر لهم النبي ينبوعاً وعيناً لا ينضب ماؤها ، ليستريحوا بذلك من عناء تحصيل الماء ، فهو على خلاف تلك السنة الحكيمة .

نعم ، ربما تقتضي بعض الظروف - كإبقاء حياة القوم - قيام النبي بذلك ، كما فعل موسى عندما شكى إليه قومه الظلم ، فاستسقى الله تعالى لهم ، فأوحى إليه أن يضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً^(١) ، ولكن مثل هذا لا يعد نقضاً للسنة العامة ، كما أن الظروف في مكة لم تكن ظروفًا إضطرارية .

وأما الثاني ، وهو كون النبي مالكاً لجنة من نخيل وعنب يفجر الأنهار خلالها ، فليس هو طلباً للإعجاز ، وإنما كانوا يستدلون بوجود الثروة على عظمة الرجل ، وبالفقر وفقدان المال والإملاق على حقارته ، ولذا قالوا ، كما يحكيه عنهم تعالى : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٢) .

وعلى هذا ، فإجابة هذا الطلب يكون نوع اعتراف بهذه المزعمة ، إذ ليس هناك رابطة ، عقلية بين كون الرجل صاحب ثروة ، وكونه متصلاً بالغيب . وإلا

(١) لاحظ سورة البقرة : الآية ٦٠ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ٣١ .

لوجب أن يكون أصحاب الثروات ، أنبياء إذا ادَّعوا النبوة .

وأما الثالث ، وهو إسقاط السوء عليهم ، فإنه يضاد هدف الإعجاز^(١) لأن الغاية من خرق الطبيعة هداية الناس لا إبادتهم وإهلاكهم .

وأما الرابع ، وهو الإتيان بالله والملائكة ، فقد حكاه عنهم سبحانه في آية أخرى ، بقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾^(١) .

ومن المعلوم أن هذا المقترح ، أمر محال عقلاً ، وممتنع بالذات ، فكيف يقوم به النبي ١٢ .

وأما الخامس ، وهو كونه صاحب بيت من زخرف ، فيردُّ بما ردُّ به الاقتراح الثاني .

وأما السادس ، وهو طلب رُقبته إلى السماء وإنزال كتاب ملموس يقرؤونه ، فإنَّ لحن هذا السؤال يدلُّ على عنادهم وتعتتهم إذ لو كان الهدف هو الإهتداء ، لكفى طلبهم الأول - أعني رُقبته إلى السماء - ولم تكن حاجة إلى الثاني ، ومن المعلوم أنَّ النبيَّ إنما يقوم بالإعجاز لأجل الهداية والإرشاد إلى نبوته واتصاله بعالم الغيب .

ومجموع هذه الأجوبة يوقفنا على أنَّ النبيَّ لم يجب مطالبتهم إمَّا لأجل فقدان مقتضي أولوجود المانع . وعلى ذلك أجاب بما أمره سبحانه أن يجيبهم به ، قائلاً : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ .

وهو في هذا الجواب يعتمد على لفظين : « بَشَرًا » و« رَسُولًا » . والمراد أنَّ هذه الطلبات التي طلبتموها مني إمَّا لكوني بشراً ، أو لكوني رسولاً . وعلى الأول ففقدرة البشر قاصرة عن القيام بهذه الأمور ، وعلى الثاني ، فهو موقوف على إذنه سبحانه ، لأنَّ الرسول لا يقوم بشيء إلا بإذن مُرْسِله ، وليس ها هنا إذن ، لعدم استجماع هذه الطلبات شرائط الإجابة^(٢) .

(١) سورة الفرقان : الآية ٢١ .

(٢) وإذا أردت التفصيل ، فلاحظ « الميزان » ، ج ١٣ ، ص ٢١٧ - ٢١٨ .

وبالإجابة التي ذكرناها عن هذه الآيات ، تقدر على الإجابة عن كثير من الآيات التي اتخذها نفاة المعجزة ذريعة لنظريتهم .

أضف إلى ذلك أنه كيف يمكن لأحد أن ينكر معاجز النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، مع أن القرآن الكريم يخبر عن بعضها أولاً^(٣) ، والسنة متواترة بها ، ثانياً .

وليس إنكار المعاجز وغيرها مما يرتبط بالغيب - كالملائكة والجن - إلا لفقدان الهوية الإسلامية ، واتخاذ موقف الهزيمة في مقابل الهجمات المادية ، التي أصبحت بحمد الله تعالى ، وبفضل بحوث العلماء الغيارى ، سراباً في صحراء .

* * *

(١) لاحظ في ذلك الآيات التالية :

سورة آل عمران : الآيتان ٦١ و ٨٦ ، سورة الأنعام : الآية ١٢٤ ، سورة الإسراء : الآية ١ .
سورة الروم : الآيات ١ - ٣ ، سورة الصافات : الآيتان ١٤ - ١٥ ، سورة القمر :
الآيات ١ - ٤ ، ولاحظ في تفصيل هذه الآيات ، مفاهيم القرآن ج ٤ ص ٧٥ .

الجهة السادسة

دلالة الإعجاز على صدق دعوى النبوة

صفحات التاريخ تشهد على وجود أناس ادّعوا السفارة من الله والأنبياء عنه ، عن كذب واقتراء ، ولم يكن لهم متاع غير التزوير ، ولا هدف سوى السلطة والرئاسة .

ومن هنا كان لا بدّ من معايير وضوابط لتمييز النبي عن المتنبّيء ، ومن جعلتها تُجَهِّز المدّعي بالإعجاز ، وإتيانه بخوارق العادة ، متحدياً بها غيره على وجه لا يقدر أحد على مقاومته ، حتى نوابغ البشر .

ويظهر من الآيات الواردة في القرآن الكريم أن طلب الإعجاز دليلاً على صدق المدّعي ، كان أمراً فطرياً ، يطلبه الناس من الأنبياء عند دعواهم النبوة والسفارة الإلهية ، ولأجل ذلك لما ادّعى « صالح » عليه السلام ، النبوة ، قوبل بجواب قومه : ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾ ^(١) .

وقد يخبر الأنبياء الناس بتجهزهم بالمعاجز عند طرحهم دعوى النبوة ، قبل أن يطلبها الناس منهم ، كما قال موسى مخاطباً الفراعنة : ﴿ حَقِیْقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَٰئِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة الشعراء : الآية ١٥٥ .

(٢) سورة الأعراف : الآيتان ١٠٥ و ١٠٦ .

وكما جاء في عيسى المسيح عليه السلام ، من قوله تعالى : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (١) .

ولكن الكلام في وجه دلالة الإعجاز على صدق قول المدعي ، فهل هو دليل برهاني بحيث يكون بين المعجزة وصدق المدعي رابطة منطقية ، تستلزم الأولى معها ، وجود الثانية ؟ أو هو دليل إقناعي ، يرضي عامة الناس وسوادهم فيجلب اعتقادهم بصدق دعوى المدعي ؟ .

هناك من يتخيل أن دلالة المعجزة على صدق دعوى النبي ، دلالة إقناعية لا برهانية ، ويستدل هؤلاء المتوهمون ، على مقالتهم ، بأن الدليل البرهاني يتوقف على وجود رابطة منطقية بين المدعى والدليل ، وتلك الرابطة غير موجودة في المقام . إذ كيف يكون خرق العادة وعجز الناس عن المقابلة ، دليلاً على صدق المدعي في كونه نبياً وحاملاً لشريعة إلهية . إذ لو صحَّ ذلك لصحَّ أن يقال : إن قيام الطبيب بعملية جراحية بديعة ، دليل على صدق مقاله في المسائل النجومية والفلكية . أو صدق تخطيطاته السياسية والاجتماعية . ومن المعلوم ، انتفاء الرابطة المنطقية بينها .

ولأجل ذلك - يضيف المتوهم - لا يدل قيام المسيح بإحياء الموتى وإبراء المرضى ، على صدق ما يدعيه ، بدلالة برهانية . وإنما يكفي به ، لأن مشاهدة هذه الأعمال العظيمة تجعل للقائم بها في نفوس الناس مكانة عالية ، بحيث يأخذ مجامع قلوبهم ويستولي على ألبابهم ، فيقنعهم ، ويجلب يقينهم بصدق دعواه .

هذا ، ولكن الحق وجود الرابطة المنطقية بين الإعجاز ودعوى النبوة ، ويمكن إثبات ذلك ببيانين :

* البيان الأول لوجود الرابطة المنطقية

ويتضح بملاحظة الأمور التالية ، التي يسلمها الخصم أيضاً :

(١) سورة آل عمران : الآية ٤٩ .

- الأول : أنّ الخالق عادلٌ لا يجهور ، وحكيمٌ لا يفعل ما يناقض الحكمة .
- الثاني : أنّه سبحانه يريد هداية الناس ، ولا يرضى بضلالتهم وكفرهم .
- الثالث : أنّ المعجزة إنما تعدّ سنداً لصدق دعوى النبوة إذا كان حاملها واجداً لشرطين :
- ١ - أن تكون سيرته نقية الثوب ، ويضاء الصحيفة ، لم يُسودّها شيء من الأعمال المشينة .
- ٢ - أن تكون شريعته مطابقة للعقل ، وموافقة للفطرة . أو على الأقل ، لا يرى فيها ما يخالف العقل والفطرة .
- فلو أنقضى الشرط الأول ، بأن كانت سوابقه سيئة ، لكفى ذلك في تنفير الناس عنه .
- وكذا لو انتفى الشرط الثاني ، بأن كانت شريعته مخالفة للعقل والفطرة ، لما تقبّلها أصحاب العقول السليمة .
- وأما لو توقّر الشرطان فيه ، فتتطاول إليه الأعناق ، وتنقاد له القلوب ، ولشرعه العقول ، فيسلمون ما يقول ، ويطيعون ما أمر .
- وهنا نقول : لو كانت دعوة هذا المدّعي ، صادقة ، فإعطاؤه القدرة على الإتيان بالعجائب والخوارق ، مطابق للحكمة الإلهية .
- وأما لو كانت دعواه كاذبة ، فإعطاؤه تلك القدرة ، وتسخير عالم التكوين له ، في تلك الظروف ، على خلاف الحكمة ، وعلى خلاف الأصل الثاني المتقدم . أعني أنّه تعالى يريد هداية الناس ، ولا يرضى بإضلالهم ، وذلك لأنّه تعالى يعلم أنّ الظروف تُوجّد في الناس خضوعاً لهذا الشخص ، فيكون إقداره على الإعجاز ، مع كونه كاذباً ، إغراءً بالضلالة ، وصدّاً عن الهداية ، والله تعالى حكيم لا يفعل ما يناقض غرضه وينافي إرادته ، فأبي دلالة منطقية أوضح من ذلك ؟

ولك أن تصب هذا الإستدلال في قالب القياس المنطقي ، فتقول :
إنه سبحانه حكيم ، والحكيم لا يجعل الكون ولا بعضه مُسَخَّرًا للكاذب ،
الله سبحانه لا يجعل الكون ولا بعضه مسخرًا للكاذب . ولكن المفروض أن هذا
المدعي مُسَخَّرٌ للكون ، فينتج أنه ليس بكاذب بل صادق .

ولا بُدَّ من الإشارة هنا إلى أن دلالة المعجزة على صدق دعوى النبوة يتوقف
على القول بالحسن والقبح العقليين ، وأما الذين أعدموا العقل ومنعوا حكمه
بهما ، فيلزم عليهم سد باب التصديق بالنبوة من طريق الإعجاز ، لأن الإعجاز إنما
يكون دليلاً على صدق النبوة ، إذا قُبِحَ في العقل إظهار المعجزة على يد الكاذب ،
فإذا توقف العقل عن إدراك قبحه ، واحتمل صحة إمكان ظهوره على يد
الكاذب ، لا يُقَدَّرُ على التمييز بين الصادق والكاذب^(١) .

وفي بعض كلمات المتكلمين إشارة إلى ما ذكرنا . يقول القوشجي : « إنما
كان ظهور المعجزة طريقاً لمعرفة صدقه لأن الله تعالى يخلق عقيها العلم الضروري
بالصدق^(٢) ، كما إذا قام رجل في مجلس مَلِكٍ بحضور جماعة ، وأدعى أنه رسول
هذا الملك إليهم ، فطالبوه بالحجة ، فقال : هي (الحجة) أن يخالف هذا الملك
عادته ، ويقوم على سريرته ، ثلاث مرّات ويقعد ، ففعل . فإنه يكون تصديقاً له ،
ومفيداً للعلم الضروري بصدقه من غير ارتياب »^(٣) .

وقال المحقق الخوئي : « إنما يكون الإعجاز دليلاً على صدق المدعي ، لأن
المعجز فيه خرقٌ للنواميس الطبيعية ، فلا يمكن أن يقع من أحد إلا بعناية من الله
تعالى وإقدار منه . فلو كان مدّعي النبوة كاذباً في دعواه ، كان إقداره على المعجز

(١) وإن للفضل بن رزيهان الأشعري كلاماً في الخروج عن هذا المأزق ، غير تام ، فمن أراد فليرجع
إلى دلائل الصدق ، ج ١ ، ص ٣٦٦ ، وقد أوردناه في الجزء الأول من الكتاب وأجبت عليه لاحظ
ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٢) هذا التعبير صحيح على منهج الأشاعرة من أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى ، ولكن الحق أن
هذا العلم يوجد في الإنسان بعد عدّة عوامل .

(٣) شرح القوشجي على التجريد ، ص ٤٦٥ . الطبعة الحجرية ، إيران .

من قِبَل الله تعالى إغراءً بالجهل وإشادةً بالباطل ، وذلك محال على الحكيم تعالى ، فإذا ظهرت المعجزة على يده كانت دالةً على صدقه وكاشفة عن رضا الحق سبحانه بنبوته .

وهذه قاعدة مطردة يجري عليها العقلاء من الناس فيما يشبه هذه الأمور ، ولا يشكون فيها أبداً . فإذا ادعى أحد من الناس سفارة عن ملك من الملوك في أمور تختص برعيته ، كان من الواجب عليه أولاً أن يقيم على دعواه دليلاً يعضدها ، حين تشك الرعية بصدقه ، ولا بد من أن يكون ذلك الدليل في غاية الوضوح ، فإذا قال لهم ذلك السفير : الشاهد على صدقي أن الملك غداً سيحييني بتحيته الخاصة التي يحبي بها سفراء الآخرين ، فإذا علم الملك ما جرى بين السفير وبين الرعية ثم حيّاه في الوقت المعين بتلك التحية ، كان فعلُ الملك هذا تصديقاً للمدعي في السفارة .

ولا يرتاب العقلاء في ذلك ، لأنَّ الملك القادر المحافظ على مصالح رعيته يقبح عليه أن يصدّق هذا المدعي إذا كان كاذباً ، لأنه يريد إفساد الرعية» (١) .

القرآن والدّعوى الكاذبة

يخبر القرآن الكريم عن أنه سبحانه فرض على نفسه معاقبة النبي وإهلاكه إذا كذب على الله تعالى ، قال عز وجل : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ (٢) .

قال المحقق الخوئي : « المراد من الآية الكريمة أن محمداً الذي أثبتنا نبوته ، وأظهرنا المعجزة لتصديقه ، لا يمكن أن يتقوّل علينا بعض الأقاويل ولو صنع ذلك ، لأخذنا منه باليمين ، ولقطعنا منه الوتين ، فإن سكوتنا عن هذه الأقاويل ،

(١) البيان في تفسير القرآن ، ص ٣٥ - ٣٦ ، الطبعة الثامنة ، ١٤٠١ هـ - بيروت .

(٢) سورة الحاقة : الآيات ٤٤ - ٤٧ .

إمضاء منّا لها ، وإدخال للباطل في شريعة الهدى ، فيجب علينا حفظ الشريعة في مرحلة البقاء ، كما وجب علينا في مرحلة الحدوث ^(١)

إنّ هذه الآيات تحكي عن سنّة إلهية جارية في خصوص من ثبتت نبوتهم بالأدلة القطعية ودلّت معاجزهم على أنّهم تحت رعايته سبحانه ، الذي أقدرهم بها على التصرف في الكون . فالإنسان الذي يصل إلى هذا المقام ، يستولي على مجامع القلوب ، ويسخر الناس بذلك لمتابعته ، فكل ما يلقيه ، ويشرّعه ، يأخذ طريقه إلى التنفيذ في حياة الناس والمجتمع . فلو افتعل هذا الإنسان - في مثل هذه الظروف - كذباً على الله تعالى ، اقتضت حكمته سبحانه إهلاكه وإبادته ، لما في إبقائه وإدامة حياته ، من إضلال الناس ، وإبعادهم عن طرق الهداية ، الأمر الذي يناقض مقتضى الحكمة الإلهية التي شاءت هداية الناس وإبعادهم عن وسائل الضلالة .

والتدبّر في مفاد هذه الآيات يرشدنا إلى وجود الرابطة المنطقية بين كون النبي محقاً في دعواه ، وإتيانه بالمعجزة وأنّه يتصرف في الكون برضى مبدعه . وبقاؤه على وصف التصرف كاشف عن رضاه تعالى ، وصدق النبي فيما يأتي به .

وبما ذكرنا يعلم أنّ الآيات لا تهدف إلى أنّ دعوى النبوة كافية في صدق المدّعي ، وأنّ المدّعي لو كان كاذباً في دعواه لشملتة نقمة الله سبحانه وإماتته ، بحجة أنّه لو تقوّل عليه بعض الأقاويل لقطع منه الوتين ، فاستمرار المدّعي للنبوة على الحياة - وإن لم يأت بأية معجزة ولم يُقم برهاناً على صدق دعواه - هو ، بحدّ نفسه ، كاشفٌ عن صدق دعواه ^(٢) .

إذ لا ريب أنّ هذه الدعوى أوهن من بيت العنكبوت ، ولو صحت ، للزم تصديق كل متنبّيء في العالم - وإن ثبت كذبه - لمجرّد عدم إهلاك الله تعالى له . إلى هنا وقفت على البيان الأول الذي يُثبت أنّ بين دعوى النبوة والإتيان بالمعجزة ، رابطة منطقية .

(١) البيان في تفسير القرآن ، ص ٣٦ ، الطبعة الثامنة ، ١٤٠١ هـ - بيروت .

(٢) ادّعى ذلك الكاتب البهائي ، أبو الفضل الجرفادقاني ، في كتابه الفرائد ، ص ٢٤٠ ، طبعة مصر .

* البيان الثاني لوجود الرابطة المنطقية

إنَّ نَفْيَ الرابطة المنطقية بين الإتيان بالمعجزة وصدق الدعوى ، أمر يحتاج إلى التحليل ، فهو باطل على وجهه وصحيح على وجه آخر ، وذلك بالبيان التالي :

إن كان المراد من قلب العصا ثعباناً - مثلاً - أنه كأوسط في القياس ، دليل على صدق ما يدّعيه النبي من أنه سبحانه واحدٌ ، عالمٌ قادرٌ ، ليس كمثله شيء . . فلا ريب في عدم صحته . إذ لا يمكن الاستدلال على صحّة هذه الأصول بالتصرف في الكون .

ولأجل ذلك لم يطرح القرآن أصول الإسلام مجردةً عن البرهنة ، بل قرّنها بلطائف الدلائل والإشارات ، يقف عليها كل متدبّر في الذكر الحكيم .

فَيَسْتَدِلُّ في البرهنة على وجوده سبحانه بقول : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (١) .

وفي البرهنة على وحدة المدير ، بقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (٢) .

وفي البرهنة على إبطال ألوهية الأصنام ، بقوله : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يُخْلِقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً ، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا تَشَوُّراً ﴾ (٣) .

وفي إبطال ألوهية المسيح ، بقوله : ﴿ مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ﴾ (٤) .

إلى غير ذلك من عشرات الآيات التي تَطْرَحُ الأصول والعقائد ، بالبراهين

(١) سورة إبراهيم : الآية ١٠ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٢٢ .

(٣) سورة الفرقان : الآية ٣ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٧٥ .

الدقيقة . فالمعجزة غير دالة بالدلالة المطابقة على صحة المعارف والأصول التي يأتي بها صاحبها ، بمعنى أنها ليست الحد الأوسط في صحة المدعى ، كالتغيير في قولنا : العالم متغير ، وكل متغير حادث ، فالعالم حادث .

وإن كان المراد أن خرق العادة الملموسة - أعني قلب العصا حية - دليل على أنهم قادرون على خرق عادة أخرى غير ملموسة - وهي الاتصال بعالم الوحي وكون إدراكات النبي خارجة عن إطار الإدراكات العادية المتعارفة - فهو صحيح ، وإليك بيانه :

إن الأنبياء عليهم السلام ، كانوا يواجهون في تبليغ رسالاتهم إشكاليين عظيمين في أعين الناس :

الإشكال الأول - إنهم كانوا يتخيلون أن النبي المرسل من عالم الغيب ، يجب أن يكون من جنس الملائكة ، ولا يصح أن يكون إنساناً مثلهم .

والقرآن الكريم يحكي عنهم هذا الاعتراض ، بقوله : ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ (١) .

وكان الأنبياء يجيبون سؤالهم بأن الملائكة أساس التبليغ ، والوحدة النوعية غير مانعة منه ، لإمكان أن يتفضل فرد من نوع على فرد من ذاك النوع ، فيكون الفاضل مُرسلاً ، والمفضول مُرسلاً إليه .

والقرآن الكريم يحكي هذا الجواب ، بقوله : ﴿ قَالَتْ هُمْ رَسُولُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ (٢) .

الإشكال الثاني - إن الأنبياء عليهم السلام كانوا يدعون أنهم يتلقون الأصول والمعارف والأحكام والفروع من الله سبحانه عن طريق الوحي ، وهو إدراك خاص يوجد فيهم ولا يوجد في غيرهم ، وليس من قبيل الإدراكات العادية

(١) سورة إبراهيم : الآية ٩ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ١٠ .

التي يجدها كل إنسان في صميم ذاته من طريق الإبصار بالعين ، والسمع بالأذن ، والتفكر والاستدلال بالعقل .

وهذه الدعوى كانت تثير السؤال التالي :

إنّ ادّعاء الإدراك عن طريق الوحي ، إدعاء أمرٍ خارقٍ للعادة ، فإنّ الإدراكات الإنسانية لا تخرج عن إطار الحسيّات والخياليات والعقليّات . فنحن لا نؤمن بقولكم هذا إلّا إذا شاهدنا خرقاً للعادة يماثل ما تدّعون ، حتى نستدلّ بخرق عادة مرثية ، على وجود نظيرها في باطن وجودكم ، وصميم حقيقتكم .

ومن منطلق إجابة هذا السؤال ، كان الأنبياء يفعلون الخوارق ، ويأتون بالمعاجز ، حتى يدلّلوا بذلك على تمكّنهم من خرق العادة مطلقاً ، سواء أكانت مرثية - كقلب العصا إلى الثعبان ، وتسبيح الحصى - أو غير مرثية - كالإدراك غير المشابه للإدراكات العادية ، الذي هو الوحي .

وإن شئت قلت : كانوا يستدلّون بخرق العادة الملموسة ، على غير الملموسة منها .

وإلى ما ذكرنا يشير العلامة الطباطبائي رحمه الله بقوله : « إنّ دعوى النبوة والرسالة من كل نبي ورسول - على ما يقصه القرآن - إنّما كانت بدعوى الوحي والتكليم الإلهي بلا واسطة ، أو بواسطة نزول ملك ، وهذا أمر لا يساعده الحس ولا تؤيّد التجربة ، فيتوجه عليه الإشكال من جهتين : إحداهما من جهة عدم الدليل عليه ، والثانية من جهة الدليل على عدمه . فإنّ الوحي والتكليم الإلهي وما يتلوه من التشريع والتربية الدينية ممّا لا يشاهده البشر في أنفسهم ، والعادة الجارية في الأسباب والمسبّبات تنكره ، وقانون العلّة العامة لا يجوزه ، فهو أمر خارق للعادة .

فلو كان النبي صادقاً في دعواه النبوة والوحي ، لكان لازمه أنّه متصل بما وراء الطبيعة ، مؤيّد بقوة إلهية تقدر على خرق العادة ، وأنّ الله سبحانه يريد بنبوته والوحي إليه ، خرق العادة . فلو كان هذا حقاً ، ولا فرق بين خارق وخارق ، كان من الممكن أن يصدر من النبي خارق آخر للعادة من غير مانع ، وأن يخرق

الله العادة بأمر آخر يصدّق النبوة والوحي من غير مانع عنه ، فإنّ حكم الأمثال واحد ، فلئن أراد الله هداية الناس بطريق خارق للعادة وهو طريق النبوة والوحي ، فليؤيدها وليصدقها بخارق آخر وهو المعجزة .

وهذا هو الذي بعث الأمم إلى سؤال المعجزة على صدق دعوى النبوة ، كلما جاءهم رسول من أنفسهم^(١) .

* * *

(١) الميزان ، ج ١ ، ص ٨٦ .

الجهة السابعة

هل حرم الإنسان المعاصر من المعاجز والكرامات ؟

لا شك أنَّ للإعجاز أثراً بالغاً في إيجاد الإيمان بدعوى المدَّعي ، وربما يكون أثر الإعجاز في نفوس عامة الناس أبلغ من تأثير البراهين العقلية .

فلماذا كان للإعجاز هذا الأثر البالغ ، فلما ذا حرم منه إنسان ما بعد عصر الرسالة ؟ ولماذا لا تظهر يد من الغيب تقلب العصا ثعباناً وتبريء الكُفَّه والبرص والمصابين بالسرطان ؟ مع أنَّ إنسانَ القرنِ المعاصر أشدُّ حاجةً إلى مشاهدة المعجزة ، لذيوع بذور الشك والترديد بين الناس عامة والشباب خاصة ، أفليس هذا حرماناً من الفيض المعنوي ؟ .

الجواب : إنَّ الإنسان المعاصر ، بل من قبله ممن جاؤوا بعد عصر الرسالة ، ليس ولم يكونوا محرومين من المعجزة ، بل إنَّ هناك معجزتين ساطعتين ، خالدتين على مرِّ الدهور .

الأولى - القرآن الكريم

إنَّ القرآنَ الكريم ، معجزةُ النبي الأكرم الخالدة ، المشرقة على جبين الدهر ، تتحدَّى المعاندين ، وتواجه المشكِّكين ، بقولها : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(١)

(١) سورة البقرة : الآية ٢٣ .

وهذا النداء القرآني يكرّره المسلمون في تلاواتهم وإذاعاتهم وأنديتهم الدينية ، فلم يُجِبْ إلى الآن أحد من العرب والعجم ، بل كلّهم انحنوا - مذهولين - أمام عظمة القرآن في فصاحته وبلاغته ونظمه وأسلوبه ، كما سيأتي الكلام فيه مفصلاً .

على أن القرآن الكريم أخبر بأن هذه المعجزة خالدة إلى يوم القيامة ، ولن يقدر أحد من البشر على مقابلتها ، بقوله : ﴿ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾^(١) .

الثانية - المباهلة

روى أهل السير والتاريخ أنه قديم وفد نصارى نجران على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فدارت بينه وبينهم أسئلة وأجوبة حول نبوته عليه الصلاة والسلام . فدعاهم الرسول إلى قبول الإسلام ، فامتنعوا ، فدعاهم إلى المباهلة فاستنظروهم إلى صبيحة اليوم التالي :

فلما رجعوا إلى رجالهم ، قال لهم الأسقف : « أنظروا محمداً ، فإن خرج يؤلده وأهله ، فاحذروا مباهلته ، وإن خرج بأصحابه فباهلوه » .

فلما كان الغد ، خرج النبي الأكرم ويده في يد علي بن أبي طالب ، والحسن والحسين يمشيان أمامه ، وفاطمة ابنته تمشي خلفه .

وخرج النصارى يتقدمهم أسقفهم ، فلما رأى النبي قد أقبل بمن معه ، سأل عنهم فقليل له : هذا ابن عمه ، وهذان ابنا بنته ، وهذه الجارية بنته فاطمة ، أعزّ الناس عليه .

وتقدم رسول الله صلى الله عليه وآله فجثا على ركبتيه ، فقال أبو حارثة الأسقف : « جثا والله كما جثا الأنبياء للمباهلة » ، فرجع ولم يُقدم على المباهلة .

(١) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

وقال : « أنا أخاف أن يكون صادقاً ، ولئن كان صادقاً ، لم يَحُلْ والله علينا الحول ، وفي الدنيا نصراني » .

فصالحوا رسول الله صلى الله عليه وآله على ألف حُلّة من حُلل الأواقي ، وقال النبي : « والذي نفسي بيده ، لولا عنوني ، لُسَخُوا قردة وخنازير ، ولاضطرم الوادي عليهم ناراً ، ولما حال الحول على النصارى حتى يهلكوا »^(١) .

وفي هذا المجال ورد قوله سبحانه : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾^(٢) .

والمباهلة معجزة إسلامية خالدة ، يقوم بها الأمثل فالأمثل من الأمة في مقام محاجة المخالفين من اليهود والنصارى وغيرهم ، ولا تختص بالنبي الأكرم .

إنّ بإمكان أصحاب النفوس الكاملة ، في مراتب التقوى والورع واليقين ، أن يباهلوا أعداء الدين ، ويدعوا عليهم بالدمار والهلاك ، ولن يمضي زمن إلّا وقد شملهم العذاب الإلهي .

وقد كان سيدنا العلامة الطباطبائي رحمه الله يرى هذا الرأي ويقول : « إنّ المباهلة معجزة خالدة للمسلمين يحتجون بها على صحّة عقائدهم وأصولهم فمن يريد المباهلة فيما جاء به النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ، فأتنا على أئمة الأئمة والإستعداد لمباهلته ، فليُقدّم المخالف إذا شاء » .

ولعلّ الأستاذ الراحل أخذه من كلام الإمام الصادق عليه السلام ، حينما قال له أحد أصحابه : « إنّنا نكلّم الناس فنحتجّ عليهم بقول الله عزّ وجل : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾^(٣) فيقولون : نزلت في أمراء السرايا . فنحتجّ عليهم بقوله عزّ وجل : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ - إِلَى آخِرِ

(١) مجمع البيان ، ج ١ ، ص ٤٥٢ ، طبعة صيدا .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٦١ .

(٣) سورة النساء : الآية ٥٩ .

الآية ﴿^(١)﴾ فيقولون نزلت في المؤمنين . ونحتج عليهم بقول الله عز وجل : ﴿ قُلْ لَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ ^(٢) فيقولون نزلت في قُربى المسلمين . قال
فلم أدع مما حضرني ذِكْرُهُ من هذه وشبهها إلا ذكرته .

فقال عليه السلام : إذا كان ذلك فادعهم إلى المباهلة . . . إلى آخر
الحديث «^(٣)» .

* * *

(١) سورة المائدة : الآية ٧٨ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٣٣ .

(٣) أصول الكافي ، ج ٣ ، باب المباهلة ، الحديث الأول ، ص ٥١٣ ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠١ هـ ،
بيروت .

الجهة الثامنة

بماذا تُمَيِّزُ المعجزةُ عن السحر ؟

لا ريب في أن هناك جماعة من الناس لهم القدرة على القيام بأعمال مذهشة وعجيبة لا يمكن تفسيرها عن طريق العلوم المتعارفة وهؤلاء كالمرتاضين الهنود وغيرهم ، الذين تقدم نقل شطر من أعمالهم . وكالسحرة والمشعوذين .

وكأستاذة التنويم المغناطيسي ، الذي كشفه « مسمر » الألماني في القرن الثامن عشر ، وبه يتمكن الأستاذ من السيطرة على الوسيط الذي فيه استعداد خاص للتأثر ، وكيفية ذلك أن الأستاذ ينظر في عين الوسيط نظرات عميقة ويجري عليه حركات يسمونها « سحبات » ، فما تمضي لحظة إلا ويغط الوسيط غطيط النوم ، على وجه لوقام أحد يَحْزُهُ بالإبرة وَخَزَاتٍ عديدة ، لا يبدي الوسيط حراكاً ، ولا يُظهر أي شيء يدل على شعوره وإحساسه . فعند ذلك يقوم الأستاذ بسؤاله أسئلة ربما يقتدر معها على كشف المغيبات ، ويستطيع أن يتصرف فيه بنحو يقنعه معه بتغيير اسمه ، وغير ذلك^(١) .

وهنا يطرح السؤال التالي : مع وجود هذه الأمور المدهشة والعجيبة والخرافة للقوانين المتعارفة ، التي تحصل بالرياضة وسحر السحرة ، والأعيب المشعوذين ، فكيف نتمكن من تمييزها عن المعجزة والآية الإلهية ؟ .

(١) لاحظ مناهل العرفان ، ج ١ ، ص ٦١ .

وهذا من المباحث الحساسة في النبوة العامة ، إذ به تتبين حدود المعجزة التي تميّزها وتفصلها عن سائر خوارق العادة .

والجواب : إنّ هناك مجموعة من الضوابط والحدود التي تمتاز بها المعجزة عن سائر خوارق العادة وهي :

الأول : إنّ السّحر ونحوه رهن التعليم دون الإعجاز

إنّ ما تنتجه الرياضة والسحر والشعوذة من آثارٍ خارقة للعادة ، جميعها خاضعة لمناهج تعليمية ، لها أساتذتها وتلامذتها ، وتحتاج إلى الممارسة المتواصلة والدؤوبة حتى يصل طالبها إلى النتائج المطلوبة ، فينام على مسامير مُحدّدة ، وتكسر الصخور بالمطارق على صدره ، من دون أن يصاب بجراح في صدره أو ظهره ، أو يقوم بحركات توجب تأثيراً نفسياً على إنسان آخر ، فيذهب وعيه ويتصرف فيه ، أو يقوم بالألعاب خفية يبهّر بها العيون ، ويستولي بها على القلوب ، فيصوّر غير الواقع واقعاً متحققاً . وكل هذا أثر التعليم والتعلّم وكثرة الممارسة والمجاهدة .

وأما الإعجاز الذي يقوم به الأنبياء فإنّه منزّه عن هذه الصّفة ، فإنّ ما يأتونه من الأعمال المدهشة الخارقة للعادة ، لم يدرسوه في منهاج ، ولا تلقوه على يد أستاذ ، ولا قضوا أعمارهم في التدرّب والتمرّن عليه .

ولأجل ذلك نرى أنّ الكليم عليه السلام عندما رجع من مدين إلى مصر : ﴿ نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ، فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِهِ . . . ﴾ (١) .

فكان هذا عملاً إبداعياً غير مسبوق بتعلّم ولا تمرّن ، ولذلك استولى عليه

(١) سورة القصص : الآيات ٣٠ - ٣٢ .

الخوف في بداية الأمر ، فوافاه الخطاب من جانبه تعالى : ﴿ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾^(١) .

قال القاضي عبد الجبار : « إِنَّ الحيلةَ بِمَا يمكن أن تتعلم وتُعلِّم ، وهذا غير ثابت في المعجزة »^(٢) .

الثاني - إنَّ السَّحْر ونحوه قابل للمعارضة دون المعجزة

إنَّ عمل المرتاضين والسَّحْرَ بما أَنه نتاج التعليم والتعلُّم ، يكثر وقوعه ويسهل الإتيان بمثله على كل من تلقى تلك الأصول وتدرَّب عليها ، ولذا قال القاضي عبد الجبار : « إِنَّ الحيل مما يقع فيها الإشتراك وليس كذلك المعجزة »^(٣) .

الثالث - إنَّ السحر ونحوه لا يقترن بالتحدي بخلاف الإعجاز

إنَّ السَّحْرَ والمُرتاضين ، وإن كانوا يأتون بالعجائب ويفعلون الغرائب ، إلَّا أنَّ واحداً منهم لا يجرؤ على تحدِّي الناس ، ودعوتهم إلى مقابلته ، لعلمهم بأنَّ الدعوة إلى التحدي لن تتم لصالحهم ، إذ ما أكثر السحرة وأهل الرياضة من أمثالهم .

وهذا بخلاف أهل الإعجاز ، فإنَّهم لا يأتون بمعجزة إلَّا ويقرنها بالتحدي ، ولذلك أمر النبي بأن يقول :

﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾^(٤) .

(١) سورة النمل : الآية ١٠ .

(٢) شرح الأصول الخمسة ، ص ٥٧٢ .

(٣) شرح الأصول الخمسة ، ص ٥٧٢ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

الرابع - إنَّ السحر ونحوه محدود من حيث التنوع دون المعاجز

إنَّ عمل أهل الرياضة والسحر ، لما كان رهن التعليم والتعلُّم ، متشابه في نوعه ، متَّحد في جنسه ، يدور في فلك واحد ، ولا يخرج عن نطاق ما تعلمه أهله ومارسوه ، ولذا لا يأتون بما يريده الناس والمتفرجون ، بل بما تدربوا عليه ، وافق طلب الناس أو لا .

بخلاف إعجاز الأنبياء ، فإنَّه على جانب عظيم من التنوع في الكيفية إلى حدٍّ قد لا يجد الإنسان بين المعجزات قدراً مشتركاً وجنساً قريباً . فشتان ما بين قلب العصا إلى الثعبان الحي^(١) ، وضربها على الأحجار ليتفجر منها الماء^(٢) ، وضربها على البحر لينفلق شطرين ، كل فرق كالطُود العظيم^(٣) ، وإخراج اليد من الجيب بيضاء تلالاً^(٤) ، وغير ذلك من معاجز موسى عليه السلام .

وكذلك الحال في آيات المسيح البيِّنات ، المُبْهَرة للعقول والمدهشة للقلوب ، فتارة ينفخ في هيئة الطير المجسَّمة من الطين فتدب الحياة فيها ، وتنبض بالدماء عروقها ، فتكون طيراً يأذن الله . وأخرى يبريء الأكمه والأبرص ، وثالثة يحيي الموتى ، ورابعة ينبيء الناس بما يأكلون في بيوتهم ويُدْخرون فيها^(٥) ، ولذلك يصفها تعالى بالجلال والتقدير بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾^(٦) .

وهذا التنوع في الكيفية ، نتيجة كون قدرتهم مستندة إلى القدرة الإلهية .

نعم إنَّ الحكمة الإلهية اقتضت أن تكون معاجز الأنبياء مناسبة للفنون

(١) قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (سورة الأعراف : الآية ١٠٧) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ الْخَبَرَ فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْخَبَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا ﴾ (سورة البقرة : الآية ٦٠) .

(٣) قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحَرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ ﴾ (سورة الشعراء : الآية ٦٣) .

(٤) قال تعالى : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ (سورة الأعراف : الآية ١٠٨) .

(٥) اقتباس من الآية ٤٩ من سورة آل عمران المباركة .

(٦) سورة آل عمران : الآية ٤٩ .

الرائجة في عصورهم ، حتى يتسنى لخبراء كل فن تشخيص المعاجز وإدراك استنادها إلى القدرة الغيبية ، وتمييزها عن الأعمال الباهرة المستندة إلى العلوم والفنون الرائجة . وتتضح حقيقة ما ذكرناه ، في السحرة الذين بارزوا موسى عليه السلام ، فلأنهم - لكونهم من أهل الخبرة والمعرفة بحقيقة السحر وفنونه - أدركوا فوراً ، بعدما ألقى موسى عصاه وانقلبت ثعباناً حياً التقف حبالهم وعصيهم أدركوا أنه ليس من جنس السحر ، وأنه معجزة خارقة متصلة بالقدرة الإلهية ، ولذلك سرعان ما خضعوا للحق كما يحكيه عنهم تعالى بقوله : ﴿ وَالْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ * قالوا آمناً برب العالمين ﴿ (١) .

قال القاضي عبد الجبار : « إِنَّ الْمُشْعُودَ وَالْمُحْتَالَ إِنَّمَا يَنْفُذُ حِيلَتَهُ عَلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ صِنَاعَتِهِ ، وَلَا يَكُونُ لَهُ دَرَايَةٌ وَمَعْرِفَةٌ ، وَلَيْسَ هَذَا حَالُ الْمَعْجِزَةِ ، فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَعْجِزَةً كُلِّ نَبِيٍّ عَمَّا يَتَعَاظَاهُ أَهْلُ زَمَانِهِ ، حَتَّى جَعَلَ مَعْجِزَةً مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَلْبَ الْعَصَا حَيَّةً ، لَمَّا كَانَ الْغَالِبُ عَلَى أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ ، السَّحَر . وَجَعَلَ مَعْجِزَةَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِبْرَاءَ الْأَكْمَةِ وَالْأُبْرَصِ ، لَمَّا كَانَ الْغَالِبُ عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ الطَّب . وَجَعَلَ مَعْجِزَةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ « الْقُرْآن » ، وَجَعَلَهُ فِي أَعْلَى طَبَقَاتِ الْفَصَاحَةِ ، لَمَّا كَانَتِ الْغَلْبَةُ لِلْفَصَاحَةِ وَالْفَصَحَاءِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، وَبِهَا كَانَ يَفَاخِرُ أَهْلُهُ وَيَتَبَاهَى » (٢) .

الخامس - الإختلاف من حيث الأهداف والغايات

إن أصحاب المعاجز يبتنون أهدافاً عالية ، ويتوسلون بمعاجزهم لإثبات أحقية تلك الأهداف ، ونشرها . وهي تتمثل في الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده ، وتخليص الإنسان من عبودية الأصنام والحجارة والحيوانات ، والدعوة إلى الفضائل ونبذ الرذائل ، واستقرار النظام الاجتماعي للبشر ، وغير ذلك .

وهذا بخلاف المرتاضين والسحرة ، فغايتهم إما كسب الشهرة والسمعة بين

(١) سورة الأعراف : الآيتان ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) شرح الأصول الخمسة ، ص ٥٧٢ .

الناس ، أو جمع المال والثروة ، وغير ذلك مما يناسب متطلبات القوى البهيمية ، وإنك لا ترى مرتاضاً أو ساحراً يقوم بنشر منهج أخلاقي أو اجتماعي فيه إنقاذ البشر من الظلم والإضطهاد ، ويدعو إلى التقوى والعفة وما شابه .

والسبب في ذلك واضح ، فإنّ الأنبياء خريجوا مدرسة إلهية تزخر بالدعوة إلى الفضائل والإجتناب عن الرذائل ، فلا يقومون بالإعجاز إلّا لنشر أهداف مدرستهم . وأما غيرهم ، فهم خريجوا المدرسة المادية التي لا همّ لها إلّا إرضاء ميولها الحيوانية ، وإشباع لذاتها وشهواتها .

السادس - الاختلاف في النفسانيات

إنّ أصحاب المعاجز - باعتبار كونهم خريجي المدرسة الإلهية - متحلّون بأكمل الفضائل والأخلاق الإنسانية والمتصفح لسيرتهم لا يجد فيها أيّ عملٍ مشينٍ ومنافٍ للعفة ومكارم الأخلاق .

وأما أصحاب الرياضة والسحر ، فهم دونهم في ذلك ، بل تراهم غالباً متحللين عن المثل والفضائل والقيم .



فبهذه الضوابط الستّ يتمكن الإنسان من تمييز المعجزة عن غيرها من الخوارق ، والنبّي عن المرتاض والساحر ، والحق عن الباطل . وهذه المميزات ، وإن كانت تهدف إلى أمر واحد ، إلّا أنّها تختلف في الحثيات :

فالأول منها يهدف إلى الفرق بين المعجزة وغيرها من حيث المبادئ .

والثاني إلى الفرق من حيث تحديد القدرة ، فقدرة السّحرة في حدّ القدرة البشرية ، وقابلة للمعارضة ، بخلاف إعجاز الأنبياء .

والثالث إلى الفرق في كيفية الإتيان بالعمل ، فالمعجزة تقتزن بالتحديّ دون غيرها .

والرابع إلى قلّة التنوع في عمل السحرة ، وكثرته في عمل الأنبياء .

والخامس إلى الفرق من حيث الغاية .

والسادس إلى الفرق من حيث صفات وروحيات أصحاب المعاجز ،
وغيرهم .

ولإى هنا يتم البحث في الطريق الأول من الطرق الثلاثة التي يُعرف بها النبي
من المتنبئين ، بجهاته الثمان . ويقع البحث فيما يلي في الطريق الثاني وهو تصديق
النبي السابق نبوة النبي اللاحق .

* * *

طرق إثبات النبوة

(٢)

تنصيب النبي السابق على نبوة اللاحق

إذا ثبتت نبوة نبي بدلائل مفيدة للعلم بنبوته ، ثم نصّ هذا النبي على نبوة نبي لاحق يأتي من بعده ، كان ذلك حجة قطعية على نبوة اللاحق ، لا تقل في دلائلها عن المعجزة .

وذلك لأن النبي الأول ، إذا ثبتت نبوته ، يثبت كونه معصوماً عن الخطأ والزلل ، لا يكذب ولا يسهو ، فإذا قال - والحال هذه - : سيأتي بعدي نبي اسمه كذا ، وأوصافه كذا وكذا ، ثم ادّعى النبوة بعده شخص يحمل عين تلك الأوصاف والسمات ، يحصل القطع بنبوته .

ولا بدّ أن يكون الاستدلال بعد كون التنصيب واصلًا من طريق قطعي ، وكون الأمارات والسمات واضحة ، منطقاً تمام الإنطباق على النبي اللاحق ، وإلا يكون الدليل عقيماً غير منتج .

ومن هذا الباب تنصيب المسيح على نبوة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله ، كما يحكيه سبحانه بقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ ﴾ (١) .

(١) سورة الصف : الآية ٦ .

ويظهر من الذكر الحكيم أنَّ السلف من الأنبياء وصفوا النبي الأكرم بشكل واضح ، وأنَّ أهل الكتاب كانوا يعرفون النبي كمعرفتهم لأبنائهم . قال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) .

بناءً على رجوع الضمير إلى النبي ، المعلوم من القرائن ، لا إلى الكتاب .
وقال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ^(٢) .
وقد آمن كثير من اليهود والنصارى بنبوّة النبي الخاتم في حياته وبعد مماته ، لصراحة التبشير الواردة في العهدين .

هذا ، وإنَّ الإعتماد على هذا الطريق في مجال نبوة النبي الخاتم ، في عصرنا هذا ، يتوقف على جمع البشائر الواردة في العهدين وضمّهما إلى بعضها ، حتى يخرج الإنسان بنتيجة قطعية على أنَّ المراد من النبي المُبَشَّر به فيهما هو النبي الخاتم . وقد قام بهذا المجهود لفيف من العلماء وألّفوا فيه كتباً ^(٣) ، وسيوافيك بحثه في النبوة الخاصّة ، بإذنه تعالى .

* * *

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٦ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

(٣) لاحظ منها كتاب « أنيس الأعلام » ، ومؤلفه كان قسيساً محيطاً بالعهدين وغيرهما وقد تشرف بالإسلام ، وألف كتباً كثيرة ، منها ذاك الكتاب وقد طبع في ستة أجزاء .

طرق إثبات النبوة

(٣)

جمع القرائن والشواهد

هذا هو الطريق الثالث لتمييز النبي الصادق عن المتنبئ الكاذب وهذا الطريق ضابطة مطردة في المحاكم القانونية ، معتمداً عليه في حلّ الدعاوى والنزاعات ، يسلكه القضاة في إصدار أحكامهم ، ويستند إليه المحامون في إبراء موكلهم خاصة في المحاكم الغربية ، التي تفتقد إلى القضاء على الأيمان والبيّنات ، وتقضي هذه الطريقة بجمع كلّ القرائن والشواهد التي يمكن أن تؤيد دعوى المدّعي ، أو إنكار المنكر ، وضمّها إلى بعضها حتى يحصل القطع بصحة دعواه أو إنكاره .

ويمكن تطبيق هذه الطريقة بعينها في مورد دعوى النبوة ، فنتحرى جملة القرائن التي يمكن أن نقطع معها بصدق الدعوى ، ومن هذه القرائن :

١ - نفسيات النبي

تأمّ يدلّ على كون مدّعي النبوة صادقاً في دعواه ، تحلّيه بروحيات كمالية عالية ، وأخلاق إنسانية فاضلة ، غير منكب على الدنيا وزخرفها ، ولا طالب للرئاسة والزعامة ، لم ير له في حياته منقصة ، ودناسة ، بل عرف بكل خلق كريم ، واشتهر بالنزاهة والطهارة .

فجميع هذه الصفات تدلّ على صفائه في روحه وباطنه ، وبالتالي صدقه في دعواه .

٢ - سمات بيئته

إنَّ ظهور مدَّعي النبوة في مجتمع أمِّيٍّ ، لا يعرف الكتابة ، بعيد عن مظاهر الحضارة والتمدن ، ومجيشه بشريعة تحمل سمات مناقضة بالكلية لهذا الظرف السائد ، قرينة على نبوة هذا المدَّعي .

فإنَّ مجيء إنسان بشريعة تُحمِلُ الدعوة إلى التعلُّم ونبذ الأمية ، وتشريع القوانين الإجتماعية ، والإقتصادية بل تحمل في تعاليمها نظام الدولة والتقنين والقضاء والروابط السياسية ، أقول : إنَّ إتيانه بهذه المظاهر الحضارية في مجتمع قبلي لم يسمع بشيء من تلك النظم ، لدليل على ارتباط هذا الإنسان بمبدء أعلى ، غير خاضع لمقتضيات تلك البيئة . بل إنَّ ظاهرة كهذه هي بحدِّ نفسها نوع من الإعجاز وخروج عن المألوف .

٣ - مضمون الدعوة

من جملة القرائن التي ترشد إلى صدق المدَّعي أو كذبه في دعواه ، مضمون العقيدة التي يحملها ، والدعوة التي يدعو إليها ، ومقدار التوافق بينهما .

فإذا كانت العقيدة التي يحملها ، والمعارف التي يدعو إلى اعتناقها ، معارف إلهية تبحث في خالق الكون وصفاته وأفعاله ، وكانت دعوته العملية مرشدة إلى التحليِّ بالمثُل الأخلاقية ، والفضائل الإنسانية ، وناهيةً عن الرذائل النفسية وركوبِ الشهوات المنحرفة والفسقِ والمجونِ ، كانت هذه قرائن على اتصال دعوته بخالق الكون ، ومبدء الخير والجمال .

٤ - ثباته في طريق دعوته

إنَّ آية كون الدعوى إلهية ، لا يبتغي صاحبها شيئاً من الأعراض المادية ، المناصب الدنيوية ، ثباته في طريق دعوته ، وتضحيته بنفسه وأعزِّ أقربائه في ذاك السبيل .

وفي المقابل ، إنّ انهزامه أمام المصاعب ، وتعلّقه بحفظ حياته ، دليل عدم إيمانه بما يدعو إليه ، وبالتالي عدم ارتباط دعوته بمبدءٍ إلهي .

٥ - الأدوات التي يستفيد منها في دعوته

من القرائن التي تدلّ على صدق المدّعي في دعوى النبوة والسفارة الإلهية ، اعتماده في دعوته على أساليب إنسانية ، موافقة للفطرة والطهارة ، فإنّ لذلك دلالات على إلهية دعواه .

وأما لو اعتمد في نشر وتبليغ ما يدّعيه على وسائل إجرامية ، وأساليب وحشية غير إنسانية ، متمسكاً بقول مكيافلي : « الغاية تبرر الوسائل »^(١) ، كان هذا دليلاً على كون دعواه شخصية محضة ، لا صلة لها بالعالم الربوبي .

٦ - المؤمنون به

إنّ لنفسيات المؤمنين بمدّعي النبوة وحواريه ، دلالة خاصة على صدقه فيما يدّعيه ، وذلك أنّ أقرباء المدّعي وبطانته إذا آمنوا به ، وآتبوا دعوته ، وبلغوا فيها مراتب عالية من التقوى والورع ، كان هذا دالاً على صدق المدّعي في ظاهره وباطنه ، وعدم التوائه وكذبه ، لأنّ الباطن لا يمكن أن يخفى عن الأقرباء والبطانة .

هذه القرائن وما يشابهها إذا اجتمعت في مدّعي النبوة ، ودعواه التي

(١) نيكولو مكيافلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) . سياسي ومؤرخ إيطالي ، أحد أعلام عصر النهضة في أوروبا ، شارك في الحياة السياسية في إيطاليا ثم اعتزلها عام (١٥١٢ م) متفرغاً للتأليف . وعرف في تاريخ الفكر السياسي بمؤلفه الشهير « الأمير » ، حيث أيد فيه نظام الحكم المطلق ، وأحلّ فيه للحاكم اتخاذ كل وسيلة تكفل استقرار حكمه واستمراره ، ولو كانت منافية للدين والأخلاق وذلك على أساس أن الغاية تبرر الوسيلة . ومن هنا صار لفظ « المكيافلية » وصفاً لكل مذهب ينادي بأنّ الغاية تبرر الوسيلة أو الوسيلة .

غير أنّ مكيافلي عاد في كتابه « المحاضرات » ، فأيد النظام الجمهوري الذي يقوم على سيادة الشعب ، وعدد مزايا هذا النظام وقضله على النظام الملكي .

يدّعيها ، كانت دليلاً قاطعاً على صدقه ، فإنّ كلّ واحدة من القرائن ، وإن كانت قاصرة عن إفادة اليقين ، إلّا أنّها بمجموعها تفيد .

أول من طرق هذا الباب

إنّ أوّل من طرق هذا الباب ، وجعل القرائن المفيدة للمقطع بصدق المدّعي ، دليلاً على صحة الدعوى ، هو قيصر الروم ، فإنّه عندما كتب إليه الرسول محمد صلى الله عليه وآله ، رسالة يدعوه فيها إلى اعتناق دينه الذي أتى به ، أخذ - بعد استلامه الرسالة - يتأمّل في عبارات الرسول ، وكيفية الكتابة ، حتى وقع في نفسه احتمال صدق الدعوى ، فأمر جماعة من حاشيته بالتجول في الشام والبحث عمّن يعرف الرسول عن قرب ، ومطلع على أخلاقه وروحياته ، فأنتهى البحث إلى العثور على أبي سفيان وعدّة كانوا معه في تجارة إلى الشام ، فأحضروا إلى مجلس قيصر ، فطرح عليهم الأسئلة التالية :

* قيصر : كيف نسبه فيكم ؟ .

- أبو سفيان : محض ، أوسطنا نسباً^(١) .

* قيصر : أخبرني ، هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقول ، فهو يتشبه به ؟ .

- أبو سفيان : لا ، لم يكن في آبائه من يدّعي ما يقول .

* قيصر : هل كان له فيكم ملكك فاستلبتموه إيّاه ، فجاء بهذا الحديث لتردّوا عليه ملكه ؟ .

- أبو سفيان : لا .

* قيصر : أخبرني عن أتباعه منكم ، من هم ؟ .

- أبو سفيان : الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء . وأمّا ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد .

* قيصر : أخبرني عمّن تبعه ، أيجبه ويلزمه ؟ أم يقلبه ويفارقه ؟ .

(١) أي أغلانا نسباً .

- أبو سفيان : ما تبعه رجل ففارقه .
 * قيصر : أخبرني كيف الحرب بينكم وبينه ؟ .
 - أبو سفيان : سجال ، يدال علينا وندال عليه .
 * قيصر : أخبرني هل يغدر ؟ .
 - أبو سفيان : (لم أجد شيئاً مما سألني عنه أغمره فيه غيرها فقلت) : لا ،
 ونحن منه في هدنة . ولا نأمن غدرة . (وأضاف أبو سفيان بأن قيصر ما التفت إلى
 الجملة الأخيرة منه) .
 ثم إن قيصر أبان وجه السؤال عن الأمور السابقة وأنه كيف استتج من
 الأجوبة التي سمعها من أبي سفيان أنه نبي صادق ، بقوله :
 « سألتك كيف نسبه فيكم ، فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً ، وكذلك
 يأخذ الله النبي إذا أخذه ، لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً .
 وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله ، فهو يشبه به ، فزعمت
 أن لا .
 وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه ، فجاء بهذا الحديث يطلب
 به ملكه ، فزعمت أن لا .
 وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء ،
 وكذلك اتباع الأنبياء في كل زمان .
 وسألتك ممن يتبعه ، أيحبه ويلزمه ، أم يقلبه ويفارقه . فزعمت أن لا يتبعه
 أحد فيفارقه ، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه .
 وسألتك هل يغدر ، فزعمت أن لا . فلئن صدقتني عنه ليغلبني على ما تحت
 قدمي هاتين ، ولوددت أني عنده فأغسل قدميه . إنطلق لشأنك » .
 قال أبو سفيان : فقامت من عنده وأنا أضرب إحدى يدي بالأخرى وأقول :
 إي عباد الله ، لقد أمر أمر ابن أبي كبشة . أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه في

سلطانهم بالشام^(١) .

ومن المأسوف عليه أنّ هذا الطريق الذي سلكه قيصر ، ووجده وسيلة كافية لكشف الحقيقة بذكائه ، قد تُرك بين المسلمين قرون عديدة .

وسلوك هذا الطريق ، وجمع القرائن والشواهد الدالة على صدق دعوى المدّعي ، أكثر ملائمة لروح أبناء هذا العصر من التركيز على المعاجز المدوّنة في كتب الحديث ، التي مضت عليها قرون . نعم ، المعاجز أشدّ تأثيراً ، وأسرع في جلب القلوب لمن شاهدها بأمر عينيه . ولأجل ذلك كان عامة الأنبياء مجهزين بها بالنسبة إلى أبناء زمانهم .

ومن طرق هذا الباب في القرن الثالث عشر أحد مشايخ الشيعة في مدينة إسطنبول ، فقد ألف كتابه « ميزان الموازين » ، وأوعز إلى هذا الطريق عند البحث عن نبوة خاتم الأنبياء^(٢) . ويعده الكاتب السيد محمد رشيد رضا ، مؤلف المنار ، في كتابه « الوحي المحمدي » ، فقد بلغ الغاية في جمع الشواهد والقرائن . وسنسلك نحن هذا الطريق عند البحث في النبوة الخاصة .

وفي الختام نركّز على نقطة ، وهي أنّ الإعتماد على الطريقتين الأخيرتين ، لا يعني الإكتفاء بهما ورفض ما ثبت بالتواتر من المعجزات والبيّنات ، بل لكل موقعه الخاص يعرفه الكاتب القدير ، والخطيب البار ، ويستفيد من كل حسب ما يناسبه الحال .

* * *

(١) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ . حوادث السنة السادسة للهجرة .

(٢) طبع الكتاب عام ١٢٨٨ .

مباحث النبوة العامة

(البحث الثالث)

الوحي وأقسامه

إن تحديد حقيقة الوحي ، وتبيين ماهيته والفرق بينه وبين سائر الإدراكات البشرية ، من المواضيع الحساسة في أبحاث النبوة العامة التي لم يستوف حقها في الكتب الكلامية ، فأهمل في الكثير منها ، وبحث في الأخرى على وجه الإجمال . هذا مع أنه أساس النبوات والتكاليف والشرائع ، لأن الأنبياء يتلقون التعاليم السماوية من هذا الطريق ، ولولاه لانقطعت أخبار السماء^(١) ، وصلة الأنبياء بالله سبحانه .

ولكن لأجل اختصاص الوحي بالأنبياء ، وحرمان غيرهم من الناس منه ، يصعب تحديده وبيان كلفيته ، ويُعَدُّ كشف الستر عن حقيقته ، تطلُّعاً إلى شيء ليس في اختيار الباحث ، ومع ذلك كلّه ، فإلقاء الضوء عليه بوجه إجمالي ، ممكن ببيان الأمور التالية :

الأمر الأول - الوحي في اللغة

قال ابن فارس في المقاييس : « الوحي أصلٌ يدلّ على إلقاء علمٍ في إخفاء

(١) هذا اقتباس من قول الإمام علي عليه السلام وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتجهيزه : « بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك ، من النبوة والإنشاء وأخبار السماء (نهج البلاغة ، الخطبة ٢٣٥) .

(أوغیره) ^(١) ، إلى غيرك . فالوحي : الإشارة ، والوحي : الكتابة والرسالة وكل ما ألقته إلى غيرك حتى عِلِمَهُ ، فهو وحي كيف كان » . . . إلى أن قال : « والوحي : السريع . وَالْوَحْيُ : الصوت » ^(٢) .

وقال الراغب : « أصل الوحي الإشارة السريعة ، وَلِتَضْمِنِ السَّرْعَةَ قيل « أَمْرٌ وَحِي » . وقد يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة ببعض الجوارح ، وبالكتابة ، وقد مُلِحَ على ذلك قوله تعالى عن زكريا : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ ^(٣) » ^(٤)

وقال ابن منظور : « الوحي : الإشارة ، والكتابة ، والرسالة ، والإلهام ، والكلام الخفي ، وكل ما ألقته إلى غيرك . ويقال : وحيت إليه الكلام ، وأوحيت ، ووحي وَحِيًّا ، وأوحى أيضاً ، أي كتب » ^(٥) .

والمستنبط من هذه النصوص وغيرها مما أورده أهل اللغة في معاجهم ، أن الوحي هو الإعلام بخفاء ، بطريق من الطرق ^(٦) .

الأمر الثاني - الوحي في القرآن الكريم

جاء استعمال « الوحي » في القرآن الكريم في موارد متعددة ، ومختلفة ، يجمعها المعنى اللغوي الكلي وهو الإعلام بخفاء ، وهذا المعنى الجامع موجود في بعضها حقيقة ، وفي البعض الآخر مجازاً وادعاءً ، كما لو كان الموحى إليه جماً أو حيواناً لا يعقل . ويظهر ذلك بالتدبر في الموارد التالية :

(١) كذا في نسخة الأصل ، والظاهر زيادته ويحتمل أن يكون عطفاً على العلم .

(٢) معجم مقاييس اللغة ، ج ٦ ص ٩٣ . الطبعة الأولى - القاهرة - ١٣٧١ .

(٣) سورة مريم : الآية ١١ .

(٤) المفردات : ص ٥١٥ .

(٥) لسان العرب : ج ١٥ ، ص ٣٧٩ .

(٦) لاحظ تصحيح الاعتقاد للشيخ المفيد ، ص ٥٦ .

١ - تقدير الخلق بالسنن والقوانين

قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ، فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا فالتا اتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ، وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١﴾ .

القضاء : فَصَّلُ الأمر . وضمير : « هُنَّ » ، يرجع إلى السماء . وبما أنَّ السماء كانت دُخَانًا ، كان أمرها مبهمًا غير مشخص من حيث الغاية والفعلية . ففَصَّلَ تعالى أمرها ، فجعلها سبع سموات في يومين ، وأخرجها بذلك عن الإبهام .

وأما قوله : ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ ، فالمراد أنه سبحانه أودع في كل سماء السنن والأنظمة الكونية ، وقَدَّرَ عليها دوامها .

فإذا كان إيجاد السنن والنُّظُم في بواطن السموات ومكامنها ، على وجه لا يقف عليه إلا المتدبر في عالم الخلق ، أشبه ذلك الإلقاء والإعلام بخفاء بنحو لا يقف عليه إلا الملقى إليه ، وهو الوحي . فكان هذا كافيًا في استعارة لفظ الوحي إلى مثل هذا التقدير والتكوين للسنن ، فقال : ﴿ فَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ .

ومن هذا القسم ، قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَآءَا ﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٢﴾ .

٢ - الإدراك بالغريزة

قال سبحانه : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ، وَمِنَ الشَّجَرِ ، وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ

(١) سورة فَصَّلَتْ : الآيتان ١١ و ١٢ .

(٢) سورة الزلزلة : الآيات ١ - ٥ .

دُلِّلًا . . . ﴿١﴾ .

فكُلُّ الأعمال العجيبة والمدهشة التي يقوم بها النحل ، في صنع بيوته بتلك الأشكال الهندسية المتقنة ، وإدارتها وتديرها وحراستها ، ثم الحركة الدؤوبة في التنقل بين البساتين والحقول ، ومَصُّ رحيق الأزهار ، وتحويلها إلى عسل ، ثم إيداعها في صفائح الشهد ، وغير ذلك ، فإنما يقوم به عن غريزة إلهية مودعة في مكان خلقته ، وصميم وجوده ، لا يتوان معها عن عمله ولا يختار معه عملاً آخر .

وحيث إنَّ هذا الإيداع للغرائز في مكان الخلقة أشبه بالإلقاء الخفي ، وتلقّي النحل له بلا شعور وإدراك ، أطلق عليه سبحانه الوحي فقال : ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ .

٣- الإلهام والإلقاء في القلب

قال سبحانه : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢) .
وحيث إنَّ تفهيم أُمِّ موسى مصير ولدها كان بإلهام وإعلام خفي ، عبّر عنه بالوحي .

ومثله قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي . . .﴾ (٣) .

وأيضاً ، قوله تعالى في شأن يوسف عليه السلام : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤) .

(١) سورة النحل : الآيتان ٦٧ و ٦٨ .

(٢) سورة القصص : الآية ٧ .

(٣) سورة المائدة : الآية ١١٠ .

(٤) سورة يوسف : الآية ١٥ .

وأيضاً قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴾ (١) .

٤ - الإشارة

قال سبحانه حكاية عن زكريا : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ، قَالَ آتِنَاكَ الْأَثَرَ نَتَكَلَّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (٢) .

والمعنى : أشار إليهم من دون أن يتكلم ، لأمروهم سبحانه إياه أن لا يكلم الناس ثلاث ليالٍ سويًا ، فأشبه فعله ، إلقاء الكلام بخفاء ، لكون الإشارة أمراً مبهماً .

٥ - الإلقاءات الشيطانية

قال سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ شِيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ . . ﴾ (٤) .

ويعلم وجه استعمال الوحي هنا كما ذكرناه فيما سبقه .

٦ - كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه

قال سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ

(١) سورة الأنفال : الآية ١٢ .

(٢) سورة مريم : الآيتان ١٠ و ١١ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١١٢ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١٢١ .

الحكيم ﴿١﴾ .

وقد غلب استعمال الوحي في هذا القسم ، فكلما أطلق الوحي وجُرد عن القرينة يراد منه ما يُلتقى إلى الأنبياء من قِبَل الله تعالى .

الأمر الثالث - حقيقة الوحي في النبوة

إن الإدراكات العادية التي يحصلها الإنسان عن طريق الحسّ أو عن طريق التفكير والاستدلال ، هي نتاج أدوات المعرفة الحسية والعقلية ، فإدراك المبصرات والمسموعات وغيرها ، رهنُ أعمال الحواس . كما أنّ الوقوف على الأصول الفلسفية والعلمية ، نتاج أعمال الفكر والعقل ، فإنّ قولنا : « كلُّ ممكن ، فهو زوج تركيبى له ماهية وجود » ، أو : « إنّ كلُّ معلولٍ يحتاج إلى علة » ، لم نقف عليه إلا بالرياضات الفكرية ، وهكذا الحال في القوانين العلمية .

كما أنّ هناك إدراكات تنبع من صميم الذات ويطلق عليها الوجدانيات ، أو الفطريات . كإدراك حسن الأشياء وقبحها ، وإدراك الإنسان جوعه وعطشه ، فإنّ الجميع من ومضات الفطرة والغريزة ، ونظير ذلك ما يبدعه الذوق من الفنون والآداب والرسوم والأعمال اليدوية الظرفية ، فإنّها كلّها من وحي الذوق والغريزة إذا وقعت في إطار التربية والتوجيه .

وبالجملّة ، فإنّ كلّ ما يدركه الإنسان ، نتاج أدوات المعرفة بأشكالها المختلفة ، حسية كانت أو عقلية أو وجدانية .

وأما الوحي الذي يختص به الأنبياء ، فإنّه إدراك خاص متميز عن سائر الإدراكات ، فإنه ليس نتاج الحسّ ولا العقل ولا الغريزة ، وإنّما هو شعور خاص ، لا نعرف حقيقته ، يوجدّه الله سبحانه في الأنبياء . وهو شعور يغيّر الشعور الفكري المشترك بين أفراد الإنسان عامة ، لا يغلط معه النبي في إدراكه ، ولا يشبهه ، ولا يختلجه شك ولا يعترضه ريب في أنّ الذي يوحى إليه هو الله

(١) سورة الشورى : الآية ٣ .

سبحانه ، من غير أن يحتاج إلى إعمال نظر ، أو التماس دليل ، أو إقامة حجة ، ولو افتقر إلى شيء من ذلك ، لكان اكتساباً عن طريق القوة النظرية ، لا تلقياً من الغيب ، من غير توسط القوة الفكرية .

قال سبحانه : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ (١) .

فهذه الآية تشير إلى أن الذي يتلقى الوحي من الروح الأمين هو نفس النبي الشريفة (قلبك) ، من غير مشاركة الحواس الظاهرة ، التي هي الأدوات المستعملة في إدراك الأمور الجزئية . فالنبي يرى ويسمع حينما يُوحى إليه ، من غير أن يستعمل حاستي البصر والسمع .

قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا : ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ . قُلْ : مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴾ قُلْ : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

فالأنبياء كلهم يُسندون تعاليمهم وتنبؤاتهم إلى هذا النوع من الإدراك ، الذي لا مصدر له إلا عالم الغيب ، وخالق الكون ، ومثل هذا لا يمكن أن يُدرك كُنْهه ، بل يجب الإيمان به كما هو شأن كل أمر غيبي لا يحيط الإنسان المادي بحقيقته ، وإنما يدعن به عن طريق المخبر الصادق . قال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ (٣) .

وعلى هذا ، فالوحي حصيلة الإتصال بعالم الغيب ، ولا يصح تحليله بأدوات المعرفة ولا بالأصول التي تُجهز بها العلم الحديث . ولما كان العالم المادي غير مدعٍ بعالم الغيب ، ويرى أن الوجود مساوٍ للمادة والطاقة ، فيشكل عليه الإذعان بهذا الإدراك الذي لا صلة له بعالم المادة وأصوله .

(١) سورة الشعراء : الآية ١٩٣ .

(٢) سورة يونس : الآيتان ١٥ و ١٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٣ .

قال الشيخ محمد عبده ، معرضاً بأولئك المنكرين للوحي :

« إِنَّ انكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم ، لمن يختصه الله بذلك ، لا أراه مما يصعب إدراكه ، إلا على من يريد أن لا يدرك ، ويجب أن يرغم نفسه النّهامة على أن لا تفهم . نعم ، يوجد في كلّ أمة وفي كل زمان أناس يقذف بهم الطيش ، والنقص في العلم ، إلى ما وراء سواحل اليقين ، فيسقطون في غمرات من الشك في كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس ، بل يدركهم الرب فيما هو من متناولها ، فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا إلى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان ، فينسبون النقل وشؤونه ، ويجدون في ذلك لذّة الإطلاق عن قيود الأوامر والنواهي . فإذا عرض عليهم شيء من الكلام في النبوات والأديان ، وهم من أنفسهم هامّ بالإصغاء ، دافعوه بما أوتوا من الاختيار في النظر ، وانصرفوا عنه ، وجعلوا أصابعهم في آذانهم ، حذروا أن يخالط الدليل أذهانهم ، فيلزمهم العقيدة ، وتتبعها الشريعة ، فيحرموا لذّة ما ذاقوا ، أو ما يحبون أن يتذوقوا ، وهو مرض في الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم إنشاء الله . »

ثم أضاف : « قلت : أي استحالة في الوحي ، وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره ، من غير فكر ولا ترتيب مقدمات ، مع العلم أنّ ذلك من قبل واهب الفكر ومناح النظر ، حتى حَقَّت العناية من مِيزَتُهُ هذه النعمة . »

فما شهدت به البديهة ، أن درجات العقول متفاوتة ، يعلو بعضها بعضاً ، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الإجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم ، بل لا بدّ معه من التفاوت في الفطر التي لا تدخل فيها ، لاختيار الإنسان وكسبه .

فمِنْ ضَعْفِ العقول ، والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول إليها ، أن لا يسلم بأنّ من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الإلهي لأن تتصل بالألق الأعلى وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان ، ما لم يصل غيرها إلى تعقّله أو تحسسها بعضا الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحاً

على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعليم . ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت ، ودعوة الناس إلى ما مُحلت على إبلاغه إليهم ، وأن يكون ذلك سنة الله في كل أمة وفي كل زمان حسب الحاجة ، يظهر برحمته من يختصه بعنايته ، ليفي للإجتاع بما يضطر إليه من مصلحته ، إلى أن يبلغ النوع الإنساني أشدّه وتكون الأعلام التي نصبها هدايته إلى سعادته ، كافية في إرشاده ، فتختتم الرسالة ، ويغلق باب النبوة»^(١) .

ثم إن هؤلاء الذين اتَّخذوا لأنفسهم موقفاً مسبقاً في سعة الوجود وضيقه ، وسعة أدوات المعرفة وضيقها ، فعجزوا عن إدراك الوحي كنوع متميز عن الإدراكات البشرية ، حاولوا تحليله بأصول مادية حتى يسهل عليهم تصديق الأنبياء وعدم اتهامهم بتعمد الكذب . فمالوا يميناً وشمالاً في بيان حقيقته : فتارة يرون الوحي نوعاً من النبوغ الخاص بالأنبياء ، وأخرى نتيجة ظهور الشخصية الباطنية للرسول ، فتلهمهم بما ينفعه وينفع قومه . ونحن فيما يلي نعرض إلى هاتين النظريتين ونحللها الواحدة بعد الأخرى ، ثم نعرِّج على بيان نظرية الفلاسفة في حقيقة الوحي :

النظرية الأولى - الوحي نتيجة النبوغ

إنّ هناك أناساً يفسرون النبوات والرسالات ونزول الوحي على العباد الصالحين بنحو يجمع بين تصديق الأنبياء من جانب ، والأصول العلمية الحديثة المادية من جانب آخر. ومن هذا الباب تفسير بعضهم النبوة بالنبوغ ، والوحي - الذي هو المصدر الوحيد للتسنين والتشريع - بلمعات ذاك النبوغ .

وحاصل مذهبهم أنّه يتميز بين أفراد الإنسان المتحضر ، أشخاص يملكون فطرة سليمة ، وعقولاً مشرقة ، تهديهم إلى ما فيه صلاح الإجتاع وسعادة الإنسان ، فيضعون قوانين فيها مصلحة المجتمع ، وعمران الدنيا . والإنسان

(١) رسالة التوحيد . ص ١٠٩ - ١١١ .

الصالح الذي يتميز بهذا النوع من النبوغ ، هو النبي . والفكر الصالح المترشح من مكان من عقله وومضات نبوغه هو الوحي . والقوانين التي يستلزمها لصالح الاجتماع هي الدين . والروح الأمين (جبرائيل) ، هو نفسه الطاهرة التي تفيض هذه الأفكار إلى مراكز إدراكه . والكتاب السماوي ، هو كتابه الذي يتضمن سننه وقوانينه . والملائكة التي تؤيده في حلّه وترحاله ، هي القوى الطبيعية . والشيطان الذي يقاومه ويقاوم أتباعه هو النفس الأمارة بالسوء ، أو سائر القوى الحيوانية الداعية إلى الشرّ والفساد . ومع ذلك كلّ ، فالله سبحانه من وراء الجميع .

تحليل نظرية النبوغ

إنّ تفسير النبوة بالنبوغ ليس تفسيراً جديداً ، وإن صيغ في قالب علمي جديد ، فإن جذوره تمتد إلى عصر ظهور الإسلام حيث كان العرب الجاهليون يحسّون بجذبات القرآن وبلاغته الخلابة ، فينسبونه إلى الشعر الذي كان الحرفة الرائجة عندهم ، ويتبارز فيه النوابغ منهم ، فكانوا يقولون : ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾^(١) .

ويرد عليهم القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾^(٢) .

وبقوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشَّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾^(٣) .

ومع ذلك يلاحظ عليه :

أولاً : إنّ العودة إلى هذه النظرية ينبع من الإحساس بالصغار أمام الحضارة المادية المدهشة ، المقترنة بأنواع الاكتشافات والإختراعات في مجال

(١) سورة الأنبياء : الآية ٥ .

(٢) سورة الحاقة : الآية ٤١ .

(٣) سورة يس : الآية ٦٩ .

الطبيعة ، والقائلون بها جماعة من متجدي المسلمين ، انسحبوا أمام هذه الحضارة ناسين شخصيتهم الإسلامية ، فلجأوا إلى تفسير عالم الغيب والنبوة والدين والوحي بتفسيرات ملائمة للأصول المادية ، حتى يجربوا مركب النقص في أنفسهم من هذه الزاوية ، ويصيخوا على رؤوس الأشهاد بأن أصول الدين لا تخالف الأصول العلمية الحديثة .

ولو صحت هذه النظرية ، لم يبقَ من الاعتقاد بالغيب إلا شيء واحد ، وهو الاعتقاد بوجود الخالق الباري ، وأما ما سوى ذلك ، فكله بأجمعه نتاج الفكر الإنساني الخاطيء وبالنتيجة ، لا يبقى إذعان بشيء مما أتى به الأنبياء من الأصول والمعارف في الدنيا والآخرة . وهذا في الواقع نوع إنكار للدين ، لكن بصورة لا تخدش العواطف الدينية .

وثانياً : إن قسماً مما يقع به الوحي ويخبر به النبي ، الإنباء عن الحوادث المستقبلية ، إنباء لا يخطيء تحققه أبداً .

أفترى هل يجرؤ نابعة من نوايغ المجتمع على الإنباء بنزول العذاب قطعاً بعد أيام ثلاثة ، ويقول : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴾ (١) .

أو يخبر بهزيمة جيوش دولة عظمى في مدة لا تزيد على تسع سنين ويقول : ﴿ أَلَمْ غَلِبَتْ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ . . . ﴾ (٢) .

إن النوايغ وإن سموا في الذكاء والفطنة ، لا يخبرون عن الحوادث المستقبلية إلا مع الإحتياط والترديد ، لا بالقطع واليقين وأما رجالات السياسة ، اللاعبين بعجلها لمصالحهم الشخصية ، سواء صدقت تنبؤاتهم أم كذبت ، فإن حسابهم غير حساب النوايغ .

(١) سورة هود : الآية ٦٥ .

(٢) سورة الروم : الآيات ١ - ٤ . والبضع من العدد من ثلاثة إلى تسعة .

وثالثاً : لو كان لهذه النظرية مسحة من الحق أولسة من الصدق ، فما لنا لا نرى حملة الوحي ومدعي النبوة ينبثون بشيء من ذلك ، بل نراهم على العكس ، ينسبون تعاليمهم وسنتهم إلى الله سبحانه ، ولا يدعون لأنفسهم شيئاً .

هذا هو القرآن الكريم - الذي جاء به النبي الخاتم - يصرّح بأن ما حوى من الحقائق والقوانين ، مما أوحى به الله سبحانه ، وليس هو من تلقاء نفسه :

﴿ إِن آتَيْتُكَ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾^(١)

﴿ إِن هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحَى ﴾^(٢) .

ولا يشك أحد في أنّ الأنبياء عبادٌ صالحون ، صادقون لا يكذبون ولا يفترون ، فلو كانت السنن التي أتوا بها من وحي أفكارهم ، فلما ذا يغفرون المجتمع بنسبتها إلى الله تعالى . فهذه النسبة ، إن دلّت على شيء ، فإنما تدلّ على أنهم كانوا يجدون في أنفسهم أنّ إدراك هذه السنن والمعارف ، إداركٌ وراء الشعور الفكري المشترك بين جميع أفراد الإنسان ، وأنّ الطريق الذي يصلون به إليها ، غير طرق الإدراك المألوفة

وبكلمة جامعة ، إنّنا نرى في المجتمع الإنساني طائفتين من رجال الإصلاح والصلاح ، كلّ يدّعي سَوْقَ المجتمع إلى السعادة :

طائفة - ولهم جذور عريقة في التاريخ - ينسبون تعاليمهم وسنتهم إلى عالم الغيب ، ويثبتون لأنفسهم مقام الرسالة والسفارة وأنهم ليس لهم شأن سوى كونهم وسائط لإبلاغ أمر الله ونهيه .

وطائفة أخرى - مع أنّصافهم بالصلاح والسادات والسعي وراء الصالح العام - ينسبون تعاليمهم إلى قرائحهم وبدائع أفكارهم ، ويعلّلون مبادئهم ببراهين اجتماعية أو تاريخية أو عقلية ، ولا يتجاوزون هذا الحدّ قدر شعرة .

(١) سورة الأنعام : الآية ٥٠ .

(٢) سورة النجم : الآية ٤ .

فلو كانت الطائفتان صادرتين عن أصل واحد ، وتستقيان من عين واحدة ،
فلماذا لم تدع ثانيتهما ما ادعته الأولى ؟ .

ثم إن علماء النفس الذين بحثوا عن النبوغ ، ذكروا لبروزه وتفجّره في
الإنسان عوامل ، هي :

١ - العشق .

٢ - انهضام الحقوق .

٣ - العزلة .

٤ - كثرة السكوت .

٥ - التربية والتوجيه الأولي الذي يتلقاه الإنسان في صغره .

فإن هذه العوامل توجد في الإنسان استغراقاً في نفسه ، وتوقّداً في أفكاره ،
وتميّزاً في فطنته وذكائه . ولكن تفسير النبوات والرسالات ، والقوانين والشرائع
التي جاء بها الأنبياء بهذا الطريق ، أشبه بتفسير علّة تفجر البركان وثورانه ،
بسقوط طائر على فوهته .

هذا ، ولو كانت شريعة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله ، والكتاب المجيد
الذي جاء به ، وليدني النبوغ والعبقريّة ، فلماذا عجز عن مقابلته ومقارعته ،
النوابغ والعباقرة طرّاً في جميع القرون إلى عصرنا هذا ، كما سيوافيك تفصيله في
النبوة الخاصة ؟ .

* * *

النظرية الثانية - الوحي النفسي

إن تفسير الوحي بصورة الوحي النفسي ، منشؤه قساوسة المسيحيين الذين
لا هدف لهم إلا تنفيذ رسالة النبي الخاتم ، وتخطئتها ، فتشبّث هؤلاء بكل وجه
خادع ، يوهّم في ظاهره الملائمة لروح العصر وآخر ما توصلت إليه الحضارة من
النظريات الفكرية ، والإبداعات العلمية ، ثم طبقوه بعبارات وقوالب متجددة
على حياة النبي الأكرم ، والوحي المنزل عليه .

وإرجاع الوحي الإلهي إلى الوحي النفسي هو الجامع بين النظريتين المتقاربتين التاليتين اللتين طرحتا في زماننا هذا . .

الأولى - الوحي نتيجة تجلّي الأحوال الروحية

هذه النظرية مأثورة عن المستشرق « مونتيه » وفصلها « إميل درمنغام » ، وحاصلها أنّ الوحي إلهام يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج . وذلك أنّ منازع نفسه العالية ، وسريته الطاهرة ، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته ، وترك ما سواها من عبادة وثنية ، وتقاليد وراثية رديئة ، يكون لها في جملتها من التأثير ما يتجلّى في ذهنه ، ويحدث في عقله الباطن ، الرؤى والأحوال الروحية فيتصور ما يعتقد وجوبه ، إرشاداً إلهياً نازلاً عليه من السماء بدون وساطة . أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك ، يعتقد أنّه ملك من عالم الغيب ، وقد يسمعه يقول ذلك ولكنه إنّما يرى ويسمع ما يعتقد في اليقظة ، كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي ، عند جميع الأنبياء . فكلّ ما يُخبر به النبي أنّه كلام القي في روعه ، أو ملك ألقاه على سمعه ، فهو خبر صادق عنده .

ويقول أصحاب هذه النظرية : لا نشك في صدق الأنبياء في إخبارهم عمّا رأوا وسمعوا ، وإنّما نقول إنّ منبع ذلك من نفسه وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذي يقال إنّ وراء عالم المادة والطبيعة^(١) .

ويقولون في نفس النبي الأكرم أنّه توصّل إلى الوحي بالإنقطاع إلى عبادة الله تعالى والتوجه إليه في خلوته بغار جراء ، وقويّ هنالك إيمانه ، وسما وجدانه ، فاتّسع محيط تفكيره ، وتضاعف نور بصيرته ، فاهتدى عقله الكبير إلى الآيات البيّنات في ملكوت السموات والأرض ، الدالّة على وحدانية مبدع الوجود ، وسرّ النظام الساري في كل موجود ، بما صار به أهلاً لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وما زال يفكر ويتأمل ، وينفعل ويتململ ، ويتقلّب بين الآلام والآمال ، حتى أيقن أنّه النبي المنتظر الذي يبعثه الله لهداية البشر . فتجلّى

(١) لاحظ الوحي المحمدي ، صفحة ٦٦ ، الطبعة السادسة ، ١٩٦٠ م .

له هذا الاعتقاد في الرؤى المنامية ، ثم قوي حتى صار يتمثل له الملك ، يلقنه الوحي في اليقظة .

وأما المعلومات التي جاءته في هذا الوحي فهي مستمدة الأصل من تلك الينابيع التي ذكرناها ، ومما هداه إليه عقله وتفكره في التمييز بين ما يصحّ منها وما لا يصحّ ، ولكنها كانت تتجلّى له نازلة من السماء ، وأنها خطاب الخالق عزّ وجلّ ، بواسطة الناموس الأكبر وملك الوحي ، جبرئيل روح القدس^(١) .

وبكلمة أدقّ : إنّ معلوماته وأفكاره وآماله ، ولدت له إلهاماً ، فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية الروحانية العالية ، على تخيلته السامية ؛ وانعكس اعتقاده على بصره : فرأى الملك ماثلاً له ، وعلى سمعه : فوعى ما حدثه الملك به^(٢) .

تحليل هذه النظرية

أ - نبوة أو أضغاث أحلام

هذه النظرية التي جاء بها بعض الغربيين ، وإن كانت تنطلي على السذج من الناس وتأخذ بينهم رونقاً ، إلّا أنّ رجال التحقيق يدركون تماماً أنّها ليست بشيء جديد قابل للذكر ، وإن هي إلّا تكرار لمقالات العرب الجاهليين في النبوة والوحي ، غير أنّ الغربي أخذ يديف السم في الدسم ، ويعرض ما أكل الدهر عليه وشرب ، بصورة نظرية حديثة براقّة تتمحور في أنّ رجال الوحي أناس مخبطون ، استغرقوا في التفكير في أمنياتهم عقوداً من الدهر حتى رأوها ماثلة في خيالهم وأمام حسّهم .

إنّ الذكر الحكيم ينقل لنا أنّ من جملة مقالات العرب وافترائهم على النبي الأكرم ، وصّم شريعته بأنّها نتاج الأحلام العذبة التي كانت تراود خاطره ، ثم تتجلّى على لسانه وبصره .

(١) المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٥ .

قال تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾^(١) أي قالوا : إن النبي ليس مختاراً فيها جاء به من الكتاب ، وشرعه من الأحكام ، وإنما هو وحي الأحلام ، وطوارق الرؤى تجري على لسانه .

وقد ردّ تعالى مزعمتهم هذه في موضع آخر من كتابه - من دون أن يذكر تهمتهم - بقوله : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُنَارُوهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ، لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾^(٢) .

فهذه الآيات تركّز على صدق الوحي ، وكونه أمراً واقعياً مفاضاً من الله سبحانه . وأنت إذا لاحظت منها الآيتين التاليتين ، يتجلى لك بوضوح حقيقة ذلك .

أ - قوله : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ .

والمعنى لم يكذب فؤاد محمد ما أدركه بصره ، أي كانت رؤيته صحيحة غير كاذبة ، وإدراكاً على الحقيقة .

وهذا ، سواء قُرِءَ « كذب » بالتشديد ، فالموصول مفعوله ، أو قُرِءَ بالتخفيف ، كما هو القراءة المعروفة ، فهو يتعدى إلى مفعول ، قال الشاعر :

(١) سورة الأنبياء : الآية ٥ .

(٢) سورة النجم : الآيات ١ - ١٨ . والمراد من « شديد القوى » هو ملك الوحي والضميران في « فاستوى » و « وهو بالأفق الأعلى » ، يرجعان إلى شديد القوى وكذلك الضمير في قوله : « أوحى » ، وأما الضمير في عبده فيرجع إلى الله سبحانه .
وقد اشتهى الأمر على كثير من المفسرين في تفسير هذه الآيات فزعموا أن النبي رأى الله سبحانه وتعالى .

مَذَّبَتْكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظُّلَامَ مِنَ الرِّبَابِ خِيَالاً

وعلى كل تقدير ، فالآية بصدد بيان أنه لم يكن هناك اختلاف بين تصديق القلب ورؤية العين ، فإذا صدّق القلب ، تكون الرؤية حقيقةً .

ب - قوله : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ .

أي ما زاغ بصر محمد وما طغى . وهو كناية عن صحة رؤيته وأنه لم يُبصر ما أبصره على غير صفته الحقيقية ، ولا أبصر ما لا حقيقة له . بل أبصر غير خاطيء في إبصاره .

والآيتان بصدد بيان مصونية قلبه وبصره عن الخطأ ، في مقام الأخذ والتلقي ، ولا تتم الصيانة إلا بمصونية كل جوارحه إذا كانت في خدمة الوحي . فهو صلى الله عليه وآله يُبصر بعينه ، ويسمع بأذنه ، ويدرك بقلبه الأشياء والحقائق على ما هي عليه من دون خطأ .

ب - نُبُوَّةٌ أَوْ جُنُونٌ

ولك أن تقول ، إن مقالة هؤلاء المتجددين ، ليست بعيدة ولا غريبة عن اتّهام الأنبياء بالجنون الذي هو في حقيقته مرتبة عالية وشديدة من تجلّي النزعات الخيالية . هذه التهمة التي افترهاها العرب على النبي الخاتم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَجُنُونٌ ﴾^(١) . وأشار إليها القرآن في موارد عديدة أخرى^(٢) ، وافترها أعداء الأنبياء المتقدمين عليهم ، كما يقول تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ * اتَّوَاصُوا بِهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾^(٣) ، ثم افترها هؤلاء القساوسة والمستشرقون

(١) سورة الحجر : الآية ٦ .

(٢) قد جاءت هذه الفرية في المواضع التالية من الذكر الحكيم :

سورة سبأ : الآية ٨ ، سورة الصافات : الآية ٣٦ . سورة الدخان : الآية ١٤ . سورة الطور :

الآية ٢٩ . سورة القلم : الآية ٢ . سورة التكويد : الآية ٨٢ .

(٣) سورة الذاريات : الآيتان ٥٢ و ٥٣ .

بصياغة أدبية وقوالب علمية ، تحت إسم « تجلّي الأحوال الروحية » . والمغزى والجوهر واحد .

سبحانك يا رب ، ما أعظم جناية الإنسان على أوليائك والصالحين من عبادك ، البالغين القمة في العقل والدراية والفكر والحكمة ، حتى وسمهم هؤلاء المفترون نارة بالخطب وأخرى بالجنون .

الثانية - الوحي نتيجة ظهور الشخصية الباطنة

وقد أسهب الأستاذ فريد وجدي الكلام فيها في موسوعته ، نأتي منه بما يكفي في بيان المراد منها :

كان الغربيون إلى القرن السادس عشر - كجميع الأمم المتدينة - يقولون بالوحي ، لأنّ كتبهم مشحونة بأخبار الأنبياء . فلما جاء العلم الجديد بشكوكه ومادياته ، ذهبت الفلسفة الغربية إلى أنّ مسألة الوحي من بقايا الخرافات القديمة ، وغالت حتى أنكرت الخالق والروح معاً . وعلّت ما ورد عن الوحي في الكتب القديمة بأنّه إمّا اختلاق من المتنبئة أنفسهم لجذب الناس إليهم وتسخيرهم لمشيئتهم ، وإمّا هذيان مَرَضِيّ يعتري بعض العصبيين ، فيخيل إليهم أنّهم يرون - أشباحاً تكلمهم ، وهم لا يرون في الواقع شيئاً .

وقد راج هذا التعليل في العالم الغربي حتى صار مذهب العلم الرسمي . وظلّ الأمر على هذا المنوال حتى العام ١٨٤٦ عندما ظهرت في أمريكا آية الأرواح وسرت منها إلى أوروبا كلها ، وأثبتت الناس بدليل محسوس وجود عالم روحانيّ أهل بالعقول الكبيرة والأفكار الثاقبة ، فتغير وجه النظر في المسائل الروحانية ، وأحييت مسألة الوحي بعد أن كانت في عداد الأضاليل القديمة ، وأعاد العلماء البحث فيها على قاعدة العلم التجريبي المقرر ، لا على أسلوب التقليد الديني ، ولا من طريق الضرب في مهامه الخيالات .

فقد تألفت في لندرة سنة ١٨٨٢ جمعية دعيت باسم « جمعية المباحث النفسية » ، برئاسة السير « جويك » المدرس في جامعة كمبريدج ، وهو من أكبر

العقول في انكلترا ، وعضوية السير « أوليفر لودج » الملقب بـ « داروين علم الطبيعة » - أي أنه لعالم الطبيعة ، كداروين للتاريخ الطبيعي - مع عدّة من الأساتذة المتخصصين في صنوف العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية . وكان الغرض من هذه الجمعية البت في المسألة الروحية ، وتحقيق حوادثها بأسلوب النقد الصارم ، والحكم بقبولها نهائياً في العلم إن كانت حقيقةً ، أو تقرير إبعادها عن العلم والفلسفة إن كانت من الأمور الوهمية .

وفي خلال مدّة تربو على خمس وأربعين سنة ، حققت هذه الجمعية الوفاً من الحوادث الروحية ، وعملت من التجارب في النفس وقواها ما لا يكاد يدرك ، لولا أنه مُدوّن في محاضر تلك الجمعية في نحو خمسين مجلداً ضخماً ، فكان من ثمرات جهادها :

١ - إثبات شخصية ثانية للإنسان أي إننا أحياء مدركون في حياتنا الحاضرة ، لا بكل قوى الروح التي فينا ، بل بجزء من تلك القوى ، سمحت لنا بها حواسنا الخمس القاصرة . ولكن لنا فوق ما تعطيه لنا حواسنا هذه ، حياة أرقى من هذه الحياة ، لا تظهر بشيء من جلالها إلّا إذا تعطلت فينا هذه الشخصية العادية بالنوم العادي ، أو بالنوم المغناطيسي .

وقد جرّبوا ذلك على المتوهمين تنويماً مغناطيسياً ، فوجدوا أنّ النائم يظهر بمظهر من الحياة الروحية والعلم ، لا يكون له وهو يقظان ، فيعلم الغيب ، ويخبر عن البعيدين ، يبصر ويسمع ويحسّ بغير حواسه الجسمية ويكون - وهو على تلك الحالة - على جانب كبير من التعقل والإدراك .

قالوا : وتكون هذه حالة الإنسان في نومه العادي . والدليل على ذلك ، ما يأتيه المصابون بمرض الانتقال النومي من الأفعال المعجزة ، والمدارك السامية .

٢ - ثبت لديهم وجود شخصية راقية للإنسان وراء شخصيته العادية . وعلموا أنّها هي التي كوّنّت جسمه في الرحم . وهي التي تحرّك جميع أعضائه التي ليست تحت حكم إرادته ، كالكبد ، والقلب ، والمعدة ، وغيرها . . . فهو إنسان بها ، لا بهذه الشخصية العادية المكتسبة من الحواس القاصرة .

قالوا : وهي التي تهديه بالخواطر الجيدة من خلال حُجُبِهِ الجسمية الكثيفة ، وهي التي تعطيه الإلهامات الطيبة الفجائية في الظروف الحرجة . وهي التي تنفث في روع الأنبياء ما يعتبرونه وحيّاً من الله ، وقد تظهر لهم متجسدة فيحسبونها من ملائكة الله هبطت عليهم من السماء .

قالوا : وهذه الشخصية الباطنة أصبحت مُدْرَكَةً بالحسّ ، فإنّ ظهور النائم نوماً مغناطيسياً ، بهذا المظهر من العقل الراجح ، والفكر الشاقب ، والنظر البعيد ، واكتشافه لخفايا الأمور ، وجولانه في الأقطار البعيدة ، بينما يكون هو جاهلاً غيباً في حالاته العادية ، أدلّ دليل على أنّ للإنسان شخصية تحجبها هذه الحياة الجسدية ، ولا تظهر إلّا إذا وقع جسمه في نوم طبيعي أو صناعي .

وهناك أمور أخرى تدلّ بالحس على وجود تلك الشخصية ، درستها الجمعية وحققت تجارب الدين درسوها :

فقد كتب الأستاذ الدكتور « ميرس » ، فصولاً ضافية في التنويم المغناطيسي ، والعبقرية ، والوحي ، والشخصية الباطنة ، فذكر الحاسبين على البدئية ، وهم طائفة من الناس ، تلقى عليهم أعوص المسائل الرياضية التي تحتاج إلى زمن طويل في الحساب والعمل ، فيجيبون عليها على الفور ، وهم لا يدرون كيف وجد هذا الحلّ في نفوسهم . وهذا الأمر يثبت وجود الشخصية الباطنة بدليل محسوس ، لأنّ الجواب الصحيح عن المسائل الرياضية العويصة ، إن لم تأت به هذه الشخصية العادية ، فلا بدّ أن تكون ثمرة قوى باطنة أخرى لا تنكشف للإنسان إلّا بآثارها هذه .

وحكى العلامة « ميرس » قول العالم الفرنسي « ترودم » : « حدث لي في بعض الأحيان أنّي كنت أجده فجأة برهان نظرية هندسية القيت إليّ منذ سنة ، وذلك من دون أن أعيرها أقلّ التفات . لعلّه يقال في تعليل ذلك إنّ المعلومات المختزنة في عقلي من مطالعاتي قد نضجت من نفسها ، ولّدت في عقلي البراهين عليها ، من نفسها أيضاً » .

وقال « ميرس » : لقد كتب الشاعر المشهور « موسيه » عن نفسه يقول :

« أنا لا أعمل شيئاً ، بل أسمع ، فأنقل ، فكأن إنساناً مجهولاً يناجيني في أذني » !! .

هذه خلاصة هذه النظرية وتاريخ نشأتها^(١) ويمكن تحريرها بكلمتين :

الأولى : إنّ الشخصية الظاهرية العادية للإنسان ، أسيرة قواه الظاهرية (الخواص الخمس) .

الثانية : إنّ الشخصية الباطنة للإنسان إنما تتجلى ، وتظهر آثارها ، إذا تعطلت القوى الظاهرية ، وتحدّرت فعاليتها ، كما في حالات النوم العادي أو المغناطيسي .

ثم بلحاظ هاتين النكتتين ، يفسّر الوحي في الأنبياء ، فإنّ كل ما يحدثون به من التعاليم والإخبارات ليس إلّا إفاضات شخصياتهم الباطنة وإيجاءاتها عند تعطل قواهم الظاهرية .

تحليل نظرية الشخصية الباطنة

إنّ هذا التفسير للوحي - الناتج عن الغرور العلمي وحصر جميع ما في الكون ضمن إطار الأصول التجريبية - فاشل من جهات شتى :

الجهة الأولى : إنّ الفرضية التي جاءت بها هذه النظرية - لو سلّمت - ليست دليلاً ولا برهاناً على كون خصوص الوحي عند الأنبياء من سنخ إفاضة الشخصية الباطنة وتجليها عند تعطل القوى الظاهرية . بل قد تكون هذه الفرضية صحيحة ، ومع ذلك يكون للوحي في الأنبياء عاملاً إلهياً ، يفيض تلك المعارف والأصول والإنباءات الغيبية إلى عقول الأنبياء وقلوبهم فيعرفونها للبشر .

الجهة الثانية : إنّ الذي تفيده هذه النظرية ، هو أنّ الشخصية الباطنة للإنسان إنما تتجلى وتجد مجالاً للظهور بآثارها المختلفة ، عند تعطل القوى

(١) لاحظ فيما نقلناه ، دائرة معارف القرن الرابع عشر ، ج ١٠ ، ص ٧١٢ - ٧١٦ .

الظاهرة ، فلذا يقوى ظهورها في المرضى والسكران والنائمين والمُرَهَقين وتبقى مندثرة ومغمورة في طوايا النفس عندما تكون القوى الظاهرية والحواس البشرية في حالة الفعالية والجذّ والسعي .

هذا ، وإنّ المعلوم من حالات الأنبياء عليهم السلام أنّ الوحي الإلهي كان ينزل عليهم في أقصى حالات تُنبّههم واشتغالهم بالأمور السياسية والدفاعية والتبليغية ، فكيف يكون ما تجلّى للنبي وهو يخوض غمار الحرب ، تجلياً للشخصية الباطنة ، والضمير المخفي ، أو ما شئت فعبر ، ممّا لا يرى النور ، إلّا في حالات الغفلة والغيوبة وما شابه ذلك ، كما يصرّح به هؤلاء ؟ .

وأين الأنبياء من الخمول والإنعزال عن المجتمع ، وهم أولو الجهاد ، والصبر والثبات في مواجهة الأعداء وتبليغ رسالاتهم السماوية ؟ .

فما ذكرناه دليل قاطع على بطلان تفسير الوحي بما ذكره .

الجهة الثالثة : لا شك أنّ الشخصية الباطنة للإنسان لا تملك تلك المعلومات التي تفيضها في حالات تعطل الحواس ، من ذاتها وصميمها من دون أن تتلقى شيئاً من خارجها . وإن دعوى ذلك ، باطل ، لا قيمة له في سوق العلوم النفسية . فإنّ الذي توصّل إليه علماء النفس قبل « فرويد » وبعده ، هو أنّ الشخصية الباطنة للإنسان تُحفظ فيها المعارف التي تردّها عبر القوى والشخصية الظاهرية ، وذلك عندما لا ترغب الشخصية الظاهرية في إبقائها في مجال نشاطها وتفكرها ، فتسحب تلك الأفكار والمعارف إلى أعماق ضميره وشخصيته الباطنة ، فتكمن في زواياها ، وتختبئ بين طواياها ، مُتَحَيِّنة فرصة تعطيل الشخصية الظاهرية ، حتى تنبعث من مكانها ، وتجري على لسان صاحبها من دون إرادة منه ولا ميل ، كما عرفت في حالات التنويم المغناطيسي ، وكما يقع غالباً في حالات السهو والغفلة ، من تلفظ الإنسان بما لا يرغب ، أو يتحاشى إنهاره ممّا أضمره في نفسه ، ولا يُظهره قطعاً عند التفاته وانتباهه . وفي هذا المجال يقول علي عليه السلام : « ما أضمرَ أحدٌ شيئاً إلّا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه »^(١) .

(١) نهج البلاغة باب قصار الحكم ، الحكمة ٢٦ .

وعلى ما ذكرنا يمتنع أن تكون تلك المعارف العليا ، والشرائع والقوانين الاجتماعية التي جاء بها الأنبياء ، نتاج الشخصية الباطنة ، والضمير المخفي وكيف يكون ذلك ، والمصدر الوحيد للمعارف الموجودة في الضمير المخفي هو الشخصية الظاهرية وما تأخذ الحواس من خارج الذهن والمحيط والبيئة . والمحيط الذي عاش فيه الأنبياء ، وترعرعوا في أحضانه ، في واد آخر من هذه المعارف والشرائع ، لم يسمع ولم يجربها .^١

فلا يبقى بالنتيجة إلا أن يكون لها مصدر ومنبع آخر ، غير ما يدعون .

إن هذه المعلومات التي يعطيها هؤلاء المحللون لمسألة الوحي ، قليلة المواد ، ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحى مثل القرآن الكريم . فإن ما جاء في هذا الكتاب من الأحكام والمعارف العليا لا يمكن أن تكون مستمدة من الوحي بهذا المعنى .

وأنى يكون ليتيم فقير ، نشأ بين الأُميين ، ليس عنده كتاب يرشده ، ولا أستاذ ينهيه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، أن يأتي ولو بمجشاة ما في هذا الكتاب من السنن والنظم والمعارف والعقائد . فلا يبقى إلا القول بأنه فائض من نور الله الأعظم على رسوله وخاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وآله ، كما يقول البوصيري :
الله أكبرُ إنَّ دينَ محمدٍ وكتابه أقوى وأقومُ قِيلاً
لا تذكرُوا الكُتُبَ السَّوَالِفَ عنده طَلَعَ الصُّبْحُ فَاطْفَاقَ الْقُنْدِيلِ^(١)

(١) في الختام نعاتب الأستاذ فريد وجدي بما أنه رجل موحد مؤمن بعوالم الغيب ورسالة السهء إلى الأرض ، التي تلقاها الأنبياء عن طريق الوحي ، نعاتبه كيف نقل هذه النظرية الساقطة حول الوحي بإسهاب ، وأوضحها ، ولم يعلق عليها شيئاً ، وكأنه بها راض ، ولها مُتَبْنٍ ١١ . وهذا الذي وقع منه ، ربما يؤيد ما ذكره مصطفى صبري ، شيخ الإسلام في الدولة العثمانية ، من أن الأستاذ المذكور كان منكراً لمعجزات الأنبياء ، ومضيفاً إليه عند النقاش إنكار البعث بعد الموت ، وقد نقل عنه هذه العبارات :

« ولد العلم الحديث ، وما زال يجاهد القوى التي كانت تساوره ، فتغلب عليها ، ودالت الدولة إليه في الأرض ، فنظر نظرة في الأديان وسرى عليها أسلوبه ، فقذف بها جملة في عالم الميتولوجيا (أي الأساطير) . ثم بحث في اشتقاق بعضها عن بعض ، واتصال أساطيرها بعضها ببعض ، فجعل

الثالثة - نظرية الفلاسفة المشائين في الوحي

سلك المشائيون من فلاسفة الإسلام ، في تحليل الوحي ، مسلكاً خاصاً لم يمت إلى ما سبق من التحليلات بصلة ، وتبني نظريتهم على أصول لا مجال لذكره هنا ، وإنما نأتي بمجمل معتقدتهم ونبيّنه في أمور :

الأول : قد أثبتوا بفضل قاعدة الواحد لا يصدر منه إلا الواحد^(١) ، إن الصادر الأول من الواجب سبحانه شيء واحد وهو العقل الأول ، ثم أفاض الوجود ، فأوجد العقل الثاني ، ثم أوجد الثاني الثالث إلى أن انتهى الفيض بإيجاد العقل العاشر ، وهو المسمى عندهم بالعقل الفعّال . وليست العقول عندهم منحصرة على وجه القطع بالعشرة ، بل لم يجدوا دليلاً على أزيد منها^(٢) .

= ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديساً ، ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التي كان يستعبد لها الإنسان نفسه ، ويقف على صيانتها جهوده ، غير مدّخر في سبيلها روحه وماله . وقد اتّصل الشرق الإسلامي بالغرب منذ أكثر من مائة سنة ، فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ، ويقتبس من مدنيته المادية ، فوقف فيما وقف على هذه « الميتولوجيا » ، ووجد دينه مائلاً فيها ، فلم ينبث بكلمة ، لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ، ولكنه استبطن الإلحاد ، متيقناً أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية .

وقد نبع في البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية ، فسحرتهم ، فأخذوا يهثون الأذهان لقبولها ، دساً في مقالاتهم وقصائدهم ، غير مصاحرين بها غير أمثالهم ، تضادياً من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض .

لاحظ موقف العقل والعلم والعالم من ربّ العالمين ، ج ١ ، ص ٢٤ . وفي الكتاب نصوص من مشاهير أساتذة مصر حول معجزات الأنبياء وخوارق العادات ، وكأنهم كانوا منكرين لها ، محاولين توجيهها وتأويلها على نحو يلائم روح العصر بزعمهم . ونحن لا نذكر هنا أسماء أولئك الأساتذة الذين اتهمهم صبري بالشذوذ عن الكتاب والسنة ، ولكن نوصي طلاب الحقيقة بمطالعة هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة حتى يقفوا على كيفية زعزعة العلم الحديث لأركان الأزهر الشريف ، والضجة الكبيرة التي أوجدها في مفكره حول الغيب والمعجز والوحي والملائكة والجن ، وكل ما لا يصل إليه الإنسان بأدوات المعرفة المادية ١١ .

(١) المراد قاعدة : « لا يصدر من الواحد إلا الواحد » ، وعكسها : « لا يصدر الواحد ، إلا من الواحد » . وقد برهنوا عليها ببرهان فلسفي ، لا ينافي صدور ما في الكون جليله ودقيقه من الله سبحانه على نحو ترتب الأسباب والمسببات .

(٢) لأن طريق الاستكشاف هو الأفلاك التسعة المحسوسة الكاشفة عن النفوس التسع والعقول العشرة ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى محله .

الثاني : إنّ ما يقوم به العقل العاشر من الفعل والإفاضة ، هو تكميل النفوس الإنسانية أولاً ، وإفاضة الصور الجوهرية على عالم المادة ثانياً .

فالمخرج للنفوس الإنسانية من القوة إلى الكمال ، ومفيضُ المعارف على قلوب الأولياء ، والصور الحيوانية والشجرية والمعدنية على المادة الأولى ، هو العقل الفعّال ، بإذنه سبحانه .

الثالث : إنّ الإنسان مجهز بالحواس الظاهرية الخمس المعروفة ، كما هو مجهز بحواس باطنية خمس ، هي :

١ - الحس المشترك : وهو القوة المدركة لما يرد العقل عبر الحواس الخمس الظاهرية .

٢ - الخيال : وهو مخزن الصور المحسوسة المأخوذة من الحسّ المشترك .

٣ - الواهمة : وهي القوّة المدركة للمعاني الجزئية ، كالعداوة والصدقة .

٤ - الحافظة : وهي مخزن المعاني الجزئية المرسلّة من الواهمة .

٥ - العاقلة : وهي القوّة المدركة للمفاهيم الكلية والحقائق المطلقة عن المادة وآثارها ، ولها شؤون أخرى ، كتركيب الأقيسة والأدلة وغير ذلك .

الرابع : إنّ النفوس الضعيفة غير الكاملة ، أسيرة القوى الباطنة في مدارجها المختلفة ، من القوّة العاقلة إلى الحسّ المشترك ، ومنه إليها .

وأما النفوس القوية الصافية ، فإنّ بإمكانها الخروج عن هذا الإطار والاتصال بالعقل الفعّال ، إتصلاً روحانياً معنوياً ، وتلقّي الحقائق والمعارف من ذلك الموجود النوراني .

وهكذا ، فإنّ المعارف العليا المفاضة من العقل الفعّال ، تنعكس على القوّة العاقلة ، ثم تفاض منها إلى القوة الخيالية ، ومنها إلى الحسّ المشترك ، وتأخذ كل قوة ما هو المناسب لحالها وذاتها : فالحقائق المفاضة من العقل الفعّال إلى النفوس الكاملة الإنسانية في مرحلة القوة العاقلة ، علومٌ ومعارف . وفي مرتبة القوة الخيالية ، صور وتمثّلات . وفي مرحلة الحسّ المشترك ، كلام فصيح ومنظوم .

فالنبي إذا تمّ استعدادده ، وصفت نفسه ، يجد في نفسه استعداداً للإتصال بذلك العالم الأعلى ، فتفاض عليه الحقائق والدقائق ، من معارف المبدأ والمعاد ، والكون والحياة ، والإنسان والمجتمع ، كلّها بصورة معارف كلية .

ولكن هذه المعارف إذا تنزّلت إلى الدرجة التالية ، أعني القوة الخيالية ، تتمثل في خياله ملكاً نورانياً يكلمه ويخاطبه بتلك المعارف والأحكام والسنن .

كما أنّها إذا تنزّلت إلى الدرجة الثالثة ، أعني الحسّ المشترك ، قرع أسماعه صوت وكلام تلتد به نفسه ، وتحفظه مصوناً عن كل تغير وتبدّل .

فليس للوحي حقيقة إلّا انعكاس ما في العقل الفعّال من المعارف والعلوم على عقل النبي ، ثم تنزله منه إلى خياله ، ومنه إلى حسّه . وليس هذا الإتصال والتنزل وتلقّي المعارف الكلية ، وتمثل الملك ومشاهدته ، وسماع الصوت والكلام المنظوم ، أشياء وهمية لا واقعية لها ، بل لكلّ منها درجة واقعية أحقّ من الواقعية الظاهرية المادية .

يقول صدر المتألهين : « إنّ سبب إنزال الكلام وتنزيل الكتاب ، هو أنّ الروح الإنسانية إذا تجرّدت عن البدن ، مهاجرة إلى ربّها لمشاهدة آياته الكبرى ، وتطهّرت عن المعاصي والشهوات والتعلّقات ، لاح لها نور المعرفة والإيمان بالله وملكوته الأعلى . وهذا النور إذا تأكّد وتجوّهر ، كان جوهرًا قدسيًا يسمى عند الحكماء في لسان الحكمة النظرية بالعقل الفعّال ، وفي لسان الشريعة النبوية بالروح القدسي .

وهذا النور الشديد العقلي ، يتلأّأ فيها (أي الروح الإنسانية) أسرار ما في الأرض والسماء ، ويتراءى منها حقائق الأشياء ، كما يتراءى بالنور الحسيّ البصري ، الأشباح المثالية في قوّة البصر إذا لم يمنعها حجاب ، والحجاب ها هنا هو آثار الطبيعة وشواغل هذا الأدنى . وذلك لأنّ القلوب والأرواح - بحسب أصل فطرتها - صالحة لقبول نور الحكمة والإيمان إذا لم يطرق عليها ظلمة تفسدها كالكفر ، أو حجاب يحجبها كالمعصية وما يجري مجراها .

وبعبارة أخرى : إذا أعرضت النفس عن دواعي الطبيعة وظلمات الهوى

والإشتغال بما تحتها من الشهوة والغضب والحسّ والخيال وولّت بوجهها شطر الحق ، وتلقاء عالم الملكوت ، اتّصلت بالسعادة القصوى ، فلاح لها سرّ الملكوت وانعكس عليها قدس اللاهوت ، ورأت عجائب آيات الله الكبرى .

ثم إنّ هذه الروح ، إذا كانت قدسية شديدة القوى ، قوية الإنارة لما تحتها ، لقوة اتّصالها بما فوقها ، فلا يشغلها شأن عن شأن ، ولا يمنعها جهة فوقها عن جهة تحتها ، فتضبط للطرفين ، وتسع قوتها الجانبين (الملك والملكوت) ، لشدة تمكّنها في الحدّ المشترك بين الملك والملكوت . لا كالأرواح الضعيفة ، التي إذا مالت، إلى جانب غاب عنها الجانب الآخر ، وإذا ركنت إلى مشعر من المشاعر ، ذهلت عن المشعر الآخر .

فإذا توجهت هذه الروح القدسية التي لا يشغلها شأن عن شأن ، ولا بصـر، فيها نشأة عن نشأة ، وتلقّت المعارف الإلهية بلا تعلّم بشري ، بل من الله ، يتعدى تأثيرها إلى قواها ، ويتمثل لروحه البشري ، صورة ما شاهده بروحه القدسي وتبرز منها إلى ظاهر الكون ، فيتمثل للحواس الظاهرة ، لا سيما السمع والبصر ، لكونها أشرف الحواس الظاهرة ، فيرى ببصره شخصاً محسوساً في غاية الحُسْن والصباحة ، ويسمع بسمعه كلاماً منظوماً في غاية الجودة والفصاحة ، فالشخص هو الملك النازل بإذن الله ، الحامل للوحي الإلهي ، والكلام هو كلام الله تعالى ، ويده لوح فيه كتاب .

وهذا الأمر المتمثل بما معه أو فيه ، ليس مجرد صورة خيالية لا وجود لها في خارج الذهن والتخيّل ، كما يقوله من لا حظ له من الباطن ، ولا قدّم له في أسرار الوحي والكتاب ، ك بعض أتباع المشائين ، معاذ الله عن هذه العقيدة الناشئة من الجهل بكيفية الإنزال والتنزيل^(١) .

(١) الأسفار الأربعة ، ج ٧ ، ص ٢٤ - ٢٥

تحليل نظرية الفلاسفة

أُعتُرض على هذه النظرية باعتراضات عديدة ، غير واردة عند من أمعن النظر وتدبّر فيها ، نذكر بعضاً منها :

الإعترض الأول : إنّ نتيجة هذه النظرية أنّه لا واقعية للملك ولا للصوت في مرتبة الحسّ ، لأنّ القوّة التخيلية في ذهن النبي هي التي توجد الصوت وصورة الملك في تلك المرتبة ، ثمّ ينعكس من الخيال إلى مرتبة الحسّ .

الجواب : إنّ ما ذكر من الإعترض يرد على عقيدة بعض المشائين في الوحي ، كما صرّح به صدر المتألهين نفسه في كلامه المتقدم . وأمّا عند غيرهم ، فللوحي درجات واقعية حسب مراتب وجوده . فله وجود عقلي وخيالي وحسيّ ، وليس أيّ منها مصنوع ذهن النبي ونفسه ، تلك النفس الصافية الصقيلة التي ينعكس فيها كل ما في عالم العقل الفعّال . وما ذكرناه من عبارات صدر المتألهين أوضح شاهد على ذلك .

الإعترض الثاني : إنّ هذا التصوير للوحي ، مقلوب ما نأمنه الإدراكات في هذه الحياة ، فإنّ الترتيب الطبيعي للإدراك هو الحسيّ ثمّ الخيالي فالعقلي . ولكن على هذه النظرية ، ينقلب الأمر ويشعر الإدراك من العقل وينتهي بالحسّ .

الجواب : إنّ ما ذكره المعترض حقّ في الإدراكات المعادية ، وأمّا الإدراكات المتجاوزة حدّ العادة ، فهي على عكس المأنوس . والوحي النازل على الأنبياء إدراك خارق للعادة بدليل عظمة المعارف والقوانين التي يأتي بها الوحي إليه .

وغير ذلك من الإعترضات القابلة للجواب .

والملاحظة الصحيحة على هذه النظرية ، هي أنّ ما ذكره من أنّ حقيقة واحدة تتجلّى في نفس النبي بصور ثلاث ، وإن كان غير ممتنع ، إلّا أنّه لا دليل على أنّ الوحي هو خصوص ذاك . إذ ربّ وليّ من الأولياء الذين صفت ضمايرهم ، وطهرت قلوبهم ، نالوا المعارف والحقائق المفاضة من ذاك العالم

بالإشراق ومع ذلك لا يصحّ تفسيره بالوحي المصطلح وإلا كان كل إنسان يدرك في عقله حقيقة عليا ثم تتجلى في خياله ثم في حسّه ، نبياً أو رسولاً .

وقد بلغ الحواريون درجةً راقيةً من المعرفة والإدراك حتى خاطبهم الباري عزّ وجلّ ، كما يشير إلى ذلك بقوله : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ، قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١) . ومع ذلك لم يُسمَّهم القرآن رسلاً ، ولا أنبياء ، ولا الكلام المنزل عليهم وحياً نبوياً ، رسالياً ، وإنما كان إلهاماً قوياً .

فحق المقال في الوحي ما ذكرناه في صدر البحث ، من أنه مجهول الكنه ، معلوم الآثار ، يجب الإيمان به كالإيمان بالغيب على الإطلاق .

* * *

(١) سورة المائدة . الآية ١١١ .

مباحث النبوة العامة (البحث الرابع)

سِمَاتُ الْأَنْبِيَاءِ

إنَّ أخطر المناصب وأكبرها مسؤولية ، قيادة المجتمع البشري وهدايته إلى السعادة ، فإنَّها تتطلب في المتصدي لها مؤهلات وامتيازات خاصة يتفرد بها عن سائر الناس .

ولتقريب عظمة تلك المؤهلات المطلوبة في هكذا إنسان ، نلاحظ جانباً واحداً من الجوانب الحيوية ، كإدارة الشؤون الاقتصادية ، أو السياسية ، أو العسكرية أو التربوية ، فإنَّ القيادة في واحد منها تتطلب درجة عالية من الخبرة والمعرفة والتدبير ، فكيف إذا كانت دائرة القيادة واسعة النطاق ، تدير دفة كافة جوانب الحياة ، كما هي وظيفة رسل السماء لا سيما خاتمهم الذي به سُدَّ باب الوحي والنبوة ؟ فلا بد ، والحال هذه ، أن يتصفوا بفضائل روحية ، ومُثُلْ خُلُقِيَّة ، تُمَيِّزُهُمْ عن غيرهم من البشر ، وتجعلهم في قِمَّة الأخلاق والتزكية وحسن السيرة ، ثم في الإدارة والقيادة ، وتجتمع هذه الصفات في الأمور التالية :

١ - الْعِصْمَةُ ، ولها مراتب ثلاث :

المرتبة الأولى - المصونية عن الذنب ومخالفة الأوامر المولوية .

المرتبة الثانية - المصونية في تلقي الوحي ، ووعيه ، وإبلاغه إلى الناس .

المرتبة الثالثة - المصونية من الخطأ والإشتباه في تطبيق الشريعة والأمر الفردي والاجتماعية .

- ٢ - التنزه عن كل ما يوجب نفرة الناس عنه وعقم التبليغ .
 - ٣ - الإطلاع على أصول الدين وفروعه وكل ما أُلقي إبلاغه على عاتقه .
 - ٤ - التحلي بكفاءة خاصة في القيادة والإدارة مقترنة بحسن التدبير^(١) .
- وإليك البحث فيما يلي عن هذه السمات الواحدة تلو الأخرى .



(١) هذه الصفة تختص بالنبوات التي تقود المجتمع في جميع المجالات ولا تشترط في كل نبي ، إذ رُبَّ نبي لا تتجاوز نبوته نفسه ، ولا تعدو قيادته إطاراً خاصاً ، وما أكثر الأنبياء عدداً ، وما أكثر غاياتهم وأهدافهم اختلافاً ، سعة وضيقاً .

سمات الأنبياء

(١)

العصمة

قد عرفت أن للعصمة مراتب ثلاث : العصمة عن المعصية ، والعصمة في تبليغ الرسالة ، والعصمة عن الخطأ في تطبيق الشريعة والأمور الفردية والاجتماعية .

ونحن نقدم البحث في عصمة الأنبياء عن المعصية ، على عصمتهم في مقام تبليغ الرسالة ، مع أن أكثر المتكلمين يقدمون الثاني على الأول باعتبار كونه أمراً متفقاً عليه بين المسلمين إلا من شذ . وإنما خالفنا الترتيب ، لأن العصمة عن المعصية تؤول إلى العصمة في مقام العمد ، بينما العصمة في تبليغ الرسالة ترجع إلى العصمة عن السهو والخطأ ، فطبيعة البحث تقتضي ما نقوم به .

* * *

المرتبة الأولى للعصمة

العصمة عن الذُّنُوب

ويقع البحث في مقامات ثلاثة :

الأول - بيان حقيقة العصمة عن المعاصي والذنوب .

الثاني - بيان مبدأ ظهور فكرة العصمة .

الثالث - بيان الدليل على لزوم اتِّصاف الأنبياء بها .

ثم نختم البحث بالإجابة عن سؤاليْن هامَّين .

* * *

المقام الأول - حقيقة العصمة عن المعاصي

قال ابن فارس : « عَصَمَ : أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِمْسَاكِ وَمَنْعٍ وَمِلَازِمَةٍ ، وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ كُلُّهُ وَاحِدٌ . مِنْ ذَلِكَ « الْعَصْمَةُ » : أَنْ يَعْصِمَ اللَّهُ عَبْدَهُ مِنْ سُوءٍ يَقَعُ فِيهِ . وَاعْتَصَمَ الْعَبْدُ بِاللَّهِ تَعَالَى : إِذَا تَمَنَّعَ . وَاسْتَعَصَمَ : التَّجَأَ ، وَتَقُولُ الْعَرَبُ : أَعْصَمْتُ فَلَانًا ، أَيِ هَيَّأْتُ لَهُ شَيْئًا يَعْتَصِمُ بِمَا نَالَتْهُ يَدُهُ ، أَيِ يُلْتَجَىءُ وَيَتَمَسَّكُ بِهِ »^(١) .

(١) المقاييس ، ج ٤ ، ص ٣٣١ .

هذا في اصطلاح أهل اللُّغة .

وفي اصطلاح المتكلمين : «العصمة قوة تمنع الإنسان عن اقتراف المعصية ، والوقوع في الخطأ»^(١) .

وربما تُعرّف أيضاً بأنها : « لطف يفعلهُ الله في المكلف بحيث لا يكون له مع ذلك داعٍ إلى ترك الطاعة ، ولا إلى فعل المعصية ، مع قدرته على ذلك »^(٢) .

ومن العجب تفسير الأشاعرة العصمة بأنها عبارة عن أنه سبحانه لا يخلق في المعصومين ذنباً^(٣) . فإنه تعريف وإِسْخِيف على الأصول التي سلكتها من أن فاعل الذنب وموجده هو العبد مباشرة ، بقوة منه سبحانه . نعم هو صحيح على أصولهم القائمة على إنكار السببية والعلية بين الأشياء .

وفيما ذكرناه من التعاريف كفاية في المقام ، وإنما المهم بيان حقيقة العصمة بنحو يرفع الغموض عنها ، وهو يحصل ببيان الوجوه التالية :

الوجه الأول : العصمة غصن من دوحة التقوى

إنَّ التقوى في العاديين من الناس ، كيفية نفسانية تعصم صاحبها عن اقتراف كثير من القبائح والمعاصي ، ولأجل ذلك نرى البون الشاسع بينهم وبين المجرمين ، المليئة حياتهم بالجرائم وقبائح الأعمال ، بينما حياة المتقين خلو منها إلا ما شذَّ .

فإذا كان هذا أثر التقوى العمومية ، فما بالك بالتقوى ، إذا تركزت في مدارجها وعلت في مراتبها ، إنها حينذاك تبلغ بصاحبها درجة العصمة الكاملة ، والإمتناع المطلق عن ارتكاب أي قبيح من الأعمال ، أو ذميم من الأفعال ، بل يمتنع معها حتى عن التفكير في خلاف أو معصية .

(١) الميزان ، ج ٨ ، ص ١٤٢ .

(٢) إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين ، ص ٣١٠ .

(٣) إبطال نهج الباطل ، للفضل بن روزبهان ، على ما في ذيل دلائل الصدق ، ج ١ ، ص ٣٧٠ .

وعلى هذا ، فالعصمة ملكة نفسانية راسخة في النفس ، لها آثار خاصة كسائر الملكات النفسية مثل الشجاعة والعفة والسخاء : فإنَّ الإنسان إذا كان شجاعاً وصبوراً ، سخيّاً وباذلاً ، عفيفاً ونزيهاً ، تراه يتطلب في حياته معالي الأمور ، ويتجنب سفاسفها ، فيطرد عن نفسه الخوف والجبن والبخل والإمساك ، والقبايح والمساويء ، ولا ترى لها أثراً في حياته .

وهكذا نقول في العصمة ، فإنَّ الإنسان إذا بلغ درجة قصوى من التقوى ، يصل إلى حدٍّ من الطهارة لا يُرى معه في حياته أثر من آثار المعصية والتمرد على أوامر الله تعالى . وأما كيف تحصل فيه هذه الكيفية النفسية ، فهو ما نبهته في الوجه الثاني .

وعلى ما ذكرنا ، تنقسم العصمة إلى عصمة مطلقة وعصمة نسبية ، والأولى تختص بطبقة خاصة من الناس ، والثانية تعمّ كثيراً منهم . فكم من الناس يتورعون عن السرقة والقتل ونحو ذلك ، وإن عُرِضت عليهم المكافآت المادية الكبيرة ، وما ذلك إلا لانتفاء الخوافز إلى هذه الأفاعيل ، في قرارة أنفسهم ، إمّا نتيجة للتقوى أو غيرها من العوامل . وتصديق العصمة النسبية الملموسة لنا ، يُقَرَّبُ تصوُّرُ العصمة المطلقة إلى الأذهان ، والتي هي كون الإنسان في مرتبة شديدة من التقوى تمنعه عن اقتراف جميع أنواع القبائح ، طُرّاً .

الوجه الثاني : العصمة نتيجة العلم القطعي بعواقب المعاصي

إنَّ العلم القطعي بعواقب الأعمال الخطيرة ، يخلق في نفس الإنسان وازعاً قوياً يصدّه عن ارتكابها ، وأمثاله في الحياة كثيرة . فلو وقف أحدها على أنَّ في الأسلاك الكهربائية طاقة من شأنها أن تقتل من يمَسُّها عارية من دون عائق ، فإنه يحجم من تلقاء نفسه عن مسّ تلك الأسلاك والإقتراب منها . ونظير ذلك ، الطبيب العارف بعواقب الأمراض وآثار الجراثيم ، فإنه إذا صادف ماءً اغتسل فيه مصاب بالجذام أو البرص ، أو إناء شرب منه مصابٌ بالسُّلِّ ، لا يقدم على الإغتسال فيه أو شربه ، مهما اشتدت حاجته إليه ، لعلمه بما يجرّ عليه الشرب والإغتسال بذاك الماء الموبوء ، من الأمراض ، وقسّ على ذلك سائر العواقب

الخطيرة ، وإن كانت من قبيل السقوط في أعين الناس ، وفقدان الكرامة وإراقة ماء الوجه بحيث لا ترغد الحياة معه .

فإذا كان العلم القطعي بالعواقب الدنيوية لبعض الأفعال يوجد تلك المصونية عن الإرتكاب ، في نفس العالم ، فكيف بالعلم القطعي بالعواقب والأخروية للمعاصي وذائل الأفعال ، علماً لا يداخله ريب ولا يعتريه شك ، علماً تسقط دونه الحُجُب فيرى صاحبه رأي العين ، ويلمس لمس الحِس ، تبعات المعاصي ولو آثرها وآثارها في النشأة الأخرى . ذاك العلم الذي قال تعالى فيه : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾^(١) ، فمثل هذا العلم يخلق من صاحبه إنساناً مثالياً ، لا يخالف قول ربه قيد أنملة ، ولا يتعدى الحدود التي رسمها له في حياته قدر شعرة ، ولن تنتفي المعصية من حياته فحسب ، بل إن مجرد التفكير فيها ، لن يجد سبيله إليه . وكأن الإمام علياً يصف هؤلاء في قوله : « هم والجنة كمن قد رآها ، فهم فيها مُنعمون »^(٢) .

إن الإنسان إذا وصل إلى المقام الذي يرى فيه بالعيون البرزخية تبدل الكنوز المكتنزة من الذهب والفضة ، إلى جمرات ملتهبة تُكوى بها جباه الكانزين وجنوبهم وظهورهم ، بمنع - شهد الله - عن كنزها . يقول سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ، هَذَا مَا كُنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ فَدُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتِزُونَ ﴾^(٣) .

إن قوله سبحانه : ﴿ هَذَا مَا كُنْتُمْ ﴾ ، يعرب عن أن النار التي تكوى بها جباه الكانزين وجنوبهم وظهورهم ليست شيئاً غير الذهب والفضة ، وإنها هي تلك البياض والصفراء التي تتجلى بوجودها الأخروي في تلك النشأة ، فإن لها صورتان ، صورة دنيوية معروفة ، وصورة أخروية هي النيران المحمأة .

(١) سورة التكاثر : الآيتان ٦و٥ .

(٢) نهج البلاغة ، خطبة المتقين ، الخطبة ١٩٣ .

(٣) سورة التوبة : الآيتان ٣٤ و ٣٥ .

فالإنسان العادي اللامس لهذه المعادن المكتنزة ، لا يحسّ فيها بالحرارة ، ولا يرى فيها الناس واللهيب ، لأنّه يفقد حين المسّ ، الحسّ المناسبٍ لدرك نيران النشأة الآخرة . وأمّا الإنسان الكامل ، المالك لهذا الحسّ إلى جانب بقية حواسه العادية ، فإنّه يدرك الوجه الآخر لهذه الفلزات ، ويحسّ أيما إحساس بنارها وهيبها ، فلذلك هو يجتنبها كاجتنابه النيران الدنيوية ، ولن يقدم أبداً على جمعها وتكديسها .

وهذا البيان الثاني الذي ذكرناه ، يفيد أنّ للعلم مرحلة قوية ، راسخة ، تُغلب الإنسان على الشهوات وتصدّه عن فعل المعاصي والآثام . ونجد هذا البيان في كلمات جمال الدين الفاضل مقداد بن عبد الله السيوري الحلبي في كتابه القيم « اللوامع الإلهية » ، يقول : « العصمة ملكة نفسانية تمنع المتصف بها من الفجور مع قدرته عليه . وتتوقف هذه الملكة على العلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات . لأنّ انعفة متى حصلت في جوهر النفس وانضاف إليها العلم التام بما في المعصية من الشقاء وفي الطاعة من السعادة ، صار ذلك العلم موجباً لرسوخها في النفس ، فتصير ملكة »^(١) .

وليس المدعى أنّ كل علم بعواقب الأفعال يصد الإنسان عن ارتكابها ، وأنّ العلم بمجردة يقوم مقام التكليف الإلهي ، فإنّ ذلك باطل بلا ريب ، لأنّا نرى الكثيرين من ذوي العلوم بمضرات المخدرات والمسكرات والأعمال الشنيعة لا يتورعون عن ارتكابها ، استسهالاً للذم في مقابل قضاء وطهرهم منها . فلو كان العلم بعواقب المعاصي من قبيل ما نتعارفه من أقسام الشعور والإدراك ، لتسرب إليه التخلف ، لكنّ سنخ العلم الذي يصير الإنسان معصوماً ، ليس من سنخ هذه العلوم والإدراكات المتعارفة ، بل علم خاص فوقها ، ربما يعبر عنه بشهود العواقب وانكشافها كشفاً تاماً لا يبقى معه ريب .

وإن شئت تقريب ذلك أكثر ، فلنفترض أنّ إنساناً يرى أمام ناظريه بركاناً عظيماً يقذف بكتل هائلة من الحميم الملتهب ، ووقف على أنّ اقتراف عمل ما

(١) اللوامع الإلهية ، ص ١٧٠ .

يوجب رمية في جوف هذا البركان الهائل ليبقى محبوساً في أحشائه مدة من الزمن يناله عذاب الحريق الرهيب ولا يموت . فهل يقدم إنسان يمتلك شيئاً من العقل على اقتراف هذا العمل ؟ .

يقول سبحانه : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ ^(١) .

وعلى ضوء هذا البيان ، فشهود نتائج المعاصي وعواقبها ، شهوداً لا يُبقي في النفس أي ريب وشك ، يصد الإنسان عن اختيار ارتكابها ، صداً قاطعاً ، ومع ذلك لا يتنافى مع اختياره ولا يسلب حريته ، كما سيوافيك .

الوجه الثالث : الإستشعار بعظمة الربّ وكماله وجماله

وإنّ هنا بياناً ثالثاً للعصمة لا يخالف البيانين السالفين ولبّ هذا البيان يرجع إلى أنّ استشعار عظمة الخالق والتفاني في معرفته ، وحُبّه وعشقه ، صاّد عن سلوك ما يخالف رضاه ، وهذه الدرجة من الحبّ والعشق ، أحد عوامل حصول تلك المرتبة من التقوى المتقدمة ، وهي لا تحصل إلّا للكاملين في المعرفة الإلهية .

إنّ الإنسان إذا عرف خالقه كمال المعرفة الميسورة ، واستغرق في شهود كماله وجماله وجلاله ، وجد في نفسه انجذاباً نحوه ، وتعلّقاً خاصاً به ، على نحو لا يستبدل برضاه شيئاً . ويدفعه شوق المحبة إلى أن لا يبتغي سواه ، ويصبح كل ما يخالف أمره ورضاه منغوراً لديه ، مقبوحاً في نظره أشدّ القبّح ، وتلك هي درجة العصمة الكاملة ، ولا ينالها إلّا الأَوْحِدِيُّ من الناس .

وإلى هذا يشير الإمام عليّ عليه السلام بقوله : « ما عبدتُك خوفاً من نارك ، ولا طمعاً في جنتك ، إنّما وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك » ^(٢) .

* * *

(١) سورة المرسلات : الآيات ٢٨ - ٣٣ .

(٢) حديث معروف مروي عن الإمام عليه السلام .

هذه التحليلات والبيانات الثلاثة التي ذكرناها في حقيقة العصمة ، نظريةً واحدةً ، تُعَرِّبُ مجموعها عن أَنَّ العصمةَ قُوَّةٌ في النفس تعصم الإنسان عن مخالفة الرَّبِّ سبحانه وتعالى ، وهي معجونةٌ في ذات الإنسان الكامل وهُوِيَّتُهُ الخارجية .

نعم ، كل ما ذكرناه يرجع إلى العصمة بأحد معانيها ، وهو المصونية عن المعصية والتمرد على أوامر المولى ، وأما العصمة في مقام تلقِّي الرُّوحِ أَوَّلًا ، والتَّحَفُّظِ عليه ثانيًا ، وإبلاغه إلى الناس ثالثًا ، والعصمة عن الخطأ في الأمور الفردية والاجتماعية ، فلا بدَّ لها من عاملٍ آخر ، نتعرض له في الأبحاث الآتية ، بإذنه تعالى .

* * *

المقام الثاني - مبدأ ظهور فكرة العصمة

إنَّ الكتب الكلامية ، قديمها وحديثها مشحونة بالبحث عن العصمة ، فيقع السؤال في مبدأ ظهور هذه الفكرة بين المسلمين ، ومن يقف وراء طرحها في الأوساط الكلامية .

لا ريب في أنَّ علماء اليهود ليسوا هم المبدعين لهذه الفكرة ، لأنَّهم يصفون أنبياءهم بأقبح الذنوب وأفظع المعاصي وهذا العهد القديم يسجِّل لداود وسليمان وقبلهما يعقوب ، ما يندى له الجبين ويحجل القلم عن نقله^(١) ، فكيف يمكن بعد هذا أن يكون أحبار اليهود المظهرين للإسلام ، هم المبدعون لهذه الفكرة .

ولا شك أيضًا في أنَّ علماء النصارى ليسوا هم كذلك ، فإنَّهم وإن كانوا ينزهون المسيح عن كلِّ عيب وشين ، إلَّا أنَّ ذلك ليس بملاك أنَّه بشريُّ أُرسِل لتعليم الإنسان وإرشاده ، بل بما هو « إلهٌ متجسِّد » ، أو « ثالثُ ثلاثة » .

وبعد هذا فاعلم ، أنَّ بعض المستشرقين من رماة القول على عواهنه ، لما

(١) سنتعرض لذلك مفصلاً عند البحث في الشاهد الرابع من شواهد إعجاز القرآن ، وهو هيمنته على الكتب السماوية ، من مباحث النبوة الخاصة .

حار في تحديد زمن ومصدر نشوء فكرة عصمة الأنبياء في الإسلام ، ذهب إلى أن هذه الفكرة مرجعها إلى تطور علم الكلام عند الشيعة ، وأنهم أول من تطرق إلى بحثها في العقائد . ومرد ذلك - يضيف هذا المستشرق - إلى أن الشيعة لكي يثبتوا أحقية إمامة أئمتهم وصحة دعوتهم في مقابل الخلفاء السنيين ، أظهروا عصمة الرسل بوصفهم أئمة أو هداة^(١) .

هذا ، والحق أن العصمة بمفهومها العام قد وردت أوساط المسلمين من خلال الإمعان في الآية القرآنية التي يصف فيها الله تعالى ملائكته بقوله : ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾^(٢) . ولن يجد الإنسان كلمة أوضح في العصمة من قوله : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ . كما أن الله سبحانه يصف الذكر الحكيم بقوله : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾^(٣) ، فإن هذا الوصف للقرآن عبارة أخرى عن المصونية من كل خطأ وتحريف .

بل إن الله سبحانه يصف منطق نبيه بالعصمة إذ يقول عز من قائل : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾^(٤) .

ويقول : ﴿ مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ رَأَى ﴾^(٥) . ويقول : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَفَى ﴾^(٦) .

فالعصمة بمفهومها الواسع - مع قطع النظر عن موصوفها - مسألة ألفت القرآن الكريم نظر الناس إليها ، فلا يحتاج معه علماء المسلمين إلى الأحبار والرهبان أو إلى نضاجة علم الكلام في عصر الإمام الصادق عليه السلام ، لينتقلوا إلى هذا الوصف .

(١) عقيدة الشيعة ، تأليف المستشرق رونالدسون ، ص ٣٢٨ .

(٢) سورة التحريم : الآية ٦ .

(٣) سورة فصلت : الآية ٤٢ .

(٤) سورة النجم : الآيتان ٣ و ٤ .

(٥) سورة النجم : الآية ١١ .

(٦) سورة النجم : الآية ١٧ .

وأي عتب بعد هذا على الشيعة إذا اقتفوا في كلامهم أثر كتاب الله ، فوصفوا رُسل الله وأنبياءه بما وصفهم به ربُّ الجلال والعزة في كتابه .

ولا يمكن لأحد إنكار عناية الشيعة بتنزيهه سبحانه عن وصمة الحدوث والجسمية ، وأنبياءه عن وصمة الذنوب والخلاف . بل إنك لن تجد في الأمة الإسلامية طائفة تهتم بالتنزيه والتقدّيس مثل الشيعة ، سواء فيما يرجع إلى الخالق عز وجل ، أو أنبيائه عليهم الصلاة والسلام .

* * *

المقام الثالث : دليل لزوم عصمة الأنبياء عن الذنوب

اختلف المتكلمون في حدود عصمة الأنبياء على أقوال :

١ - قالت الأزارقة من الخوارج : يجوز على الأنبياء الكفر ، أخذاً بمبدئهم من أن كل ذنب كُفْرٌ^(١) .

٢ - قالت الحشوية : « يجوز ارتكاب الكبائر على الأنبياء قبل البعثة وبعدها » . وتمسكوا في ذلك بأباطيل لا أصل لها^(٢) .

٣ - والمعتزلة ، منهم من قال : « يجوز على الأنبياء الكبيرة قبل البعثة ولا يجوز بعدها » ، وهو أبو علي الجبائي . ومنهم من قال : « إن الأنبياء لا يجوز عليهم الكبيرة ، لا قبل البعثة ولا بعدها ، وتجوز عليهم الصغيرة إذا لم تكن

(١) المواقف ، ص ٣٥٩ ، ومن عجيب النسب ما عزاه القاضي الإيجي إلى الشيعة من تجويزهم إظهار الكفر من الأنبياء تقيّة ، ثم رده بأن ذلك يفضي إلى إخفاء الدعوة ، إذ أولى الأوقات بالتقية وقت الدعوة ، للضعف وكثرة المخالفين .

ولكنها فرية باطلة ، الشيعة منها براء ، فإن ذلك لا يجوز عندهم على الأنبياء ولا الأئمة بل لا يجوزونه لأعظم الأمة من الفقهاء إذا كان في إظهار الكفر مظنة تزعزع عقائد الناس وتزلزلهم عن دينهم .

(٢) شرح الأصول الخمسة ، للقاضي عبد الجبار ، ص ٥٧٣ .

مُنْفَرَّة ، لَأَنَّ قَلَّةَ الثَّوَابِ^(١) مِمَّا لَا يَقْدَحُ فِي صَدَقِ الرِّسْلِ وَلَا فِي الْقَبُولِ مِنْهُمْ » ،
وهو القاضي عبد الجبار^(٢) .

٤ - وَأَمَّا الْأَشَاعِرَةُ ، فَقَدْ قَالَ الْقَوْشَجِيُّ : « الْمَذْهَبُ عِنْدَ مُحَقِّقِي الْأَشَاعِرَةِ
مَنْعُ الْكِبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ الْخَسِيسَةِ بَعْدَ الْبُعْثَةِ مُطْلَقاً ، وَالصَّغَائِرُ غَيْرُ الْخَسِيسَةِ عَمْداً لَا
سَهْواً »^(٣) .

وَأَمَّا قَبْلُهَا ، فَقَدْ نَقَلَ الْقَاضِي الْإِيْمِيُّ - وَهُوَ مِنَ الْأَشَاعِرَةِ - أَنَّ الْجُمْهُورَ
قَالَ : « لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُمْ كَبِيرَةٌ »^(٤) .

٥ - وَقَالَتِ الْإِمَامِيَّةُ : « لَا يَجُوزُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ ، لَا قَبْلَ الْبُعْثَةِ
وَلَا بَعْدَهَا »^(٥) .

هَذِهِ هِيَ عَمْدَةُ الْأَقْوَالِ الْمَطْرُوحَةِ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَهَنَّاكَ أَقْوَالُ أُخَرَ ضَرْبِنَا عَنْ
نَقْلِهَا صَفْحاً . وَالْأَوَّلَى لَنَا أَنْ نَتَّبِعَ الدَّلِيلَ ، وَنُعْمِلَ مَعَهُ كَيْفَمَا يُعْمِلُ ، وَالْأَدْلَةُ الْعَقْلِيَّةُ
تَثْبِتُ الْقَوْلَ الْأَخِيرَ ، وَإِلَيْكَ فِيمَا يَلِي بَيَانُ أَهْمِهَا .

(١) لَمْ يَعْلَمْ كُنْهَ قَوْلِهِ « قَلَّةُ الثَّوَابِ » ، فَإِنَّ ارْتِكَابَ الصَّغِيرَةِ مُوجِبٌ لِلْبُعْدِ عَنْ قَرَبِ الرَّبِّ ، وَبِالتَّالِيِ فَلَا
يُخْلُو مِنَ الْعِقَابِ الْمُنَاسِبِ ، فَكَيْفَ يَنْحَصِرُ أَثَرُهُ فِي قَلَّةِ الثَّوَابِ .

قَالَ الشَّرِيفُ السَّيِّدُ الْمُرْتَضَى رَحِمَهُ اللَّهُ : « وَاعْلَمْ أَنَّ الْخِلَافَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُعْتَزِلَةِ فِي تَجْوِيزِهِمُ الصَّغَائِرَ
عَلَى الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، يَكَادُ يَسْقُطُ عِنْدَ التَّحْقِيقِ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَجُوزُونَ مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَا
يَسْتَقِرُّ لَهُ اسْتِحْقَاقُ عِقَابٍ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ حَظُّهُ تَنْقِيسُ الثَّوَابِ ، عَلَى اخْتِلَافِهِمْ أَيْضاً فِي ذَلِكَ ، لِأَنَّ
أَبَا عَلِيٍّ الْجُبَّائِيَّ يَقُولُ : إِنَّ الصَّغِيرَ يَسْقُطُ عِقَابُهُ بِغَيْرِ مُوَازَنَةٍ . فَكَأَنَّهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ لَا يَقَعُ مِنْهُمْ مَا
يَسْتَحِقُّونَ بِهِ الذَّمَّ وَالْعِقَابَ . وَهَذِهِ مُوَافَقَةٌ لِلشَّيْعَةِ فِي الْمَعْنَى ، لِأَنَّ الشَّيْعَةَ إِنَّمَا تَنْفِي عَنِ الْأَنْبِيَاءِ
عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، جَمِيعَ الْمَعَاصِي ، حَيْثُ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهَا يَسْتَحِقُّ بِهِ فَاعِلُهُ الذَّمَّ وَالْعِقَابَ
فَإِذَا كَانَ اسْتِحْقَاقُ الذَّمِّ وَالْعِقَابِ مُنْفِياً عَنِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَجِبَ أَنْ يَنْفَى عَنْهُمْ سَائِرُ الذُّنُوبِ » . (تَنْزِيهِ
الْأَنْبِيَاءِ ، لِلشَّرِيفِ الْمُرْتَضَى ، ص ٢) .

(٢) شَرْحُ الْأُصُولِ الْخَمْسَةِ ، لِلْقَاضِي عَبْدِ الْجُبَّارِ ، ص ٥٧٣ - ٥٧٥ .

(٣) شَرْحُ التَّجْرِيدِ لِلْقَوْشَجِيِّ ، ص ٤٦٤ .

(٤) الْمَوَاقِفُ ، صَفْحَةُ ٣٥٩ .

(٥) كَشَفُ الْمَرَادِ ، ص ٢١٧ ، طَبْعَةُ صَيْدَا . وَالْمَوَاقِفُ ، ص ٣٥٩ .

الدليل الأول - الوثوق فرع العصمة

إنَّ ثقة الناس بالأنبياء ، وبالتالي حصول الغرض من بعثتهم ، إنما هو رهن الاعتقاد بصحة مقالهم وسلامة أفعالهم ، وهذا بدوره فرع كونهم معصومين عن الخلاف والعصيان في السرّ والعلن من غير فرق بين معصية وأخرى ، ولا بين فترة من فترات حياتهم وأخرى .

وذلك لأنّ المبعوث إليه إذا جَوَّز الكذب على النبي ، أوجَّز المعصية على وجه الإطلاق ، جَوَّز ذلك أيضاً في أمره ونهيهِ وأفعاله التي أمره باتّباعه فيها . ومع هذا الإحتمال لا ينقاد إلى امتثال أوامره ، فلا يحصل الغرض من البعثة ، لأنّه - بحكم عدم عصمته - يحتمل أن يكون كاذباً في أوامره ونواهيهِ ، وأن يتقول على الله ما لم يأمر به . ومع هذا الإحتمال ، لا يجد المبعوث إليه في قرارة نفسه حافزاً إلى الإمتثال .

ومثّل قوله فعله ، فإنّ الأمة مأمورة باتّباع أفعاله ، قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾^(١) . فإذا احتملنا كون عمله على خلاف رضاه سبحانه ، فكيف نجد في أنفسنا الباعث على اتّباعه .

وبالجملة ، بما أنّ النبيّ ، قوله وفعله ، حجّتان ، فيجب اتّباعه فيهما ، وهذا لا يحصل إلّا عند الوثوق بصحتهما ، ومع عدم حصول هذا الوثوق تنتفي بواعث الاتّباع ، فلا يحصل الغرض .

قال المحقق الطوسي في التجريد : « ويجب في النبي العصمة ليحصل الوثوق ، فيحصل الغرض »^(٢) .

ثم إنّ هنا أسئلة حول هذا الدليل نطرحها ، واحداً بعد الآخر :

* السؤال الأول - يمكن أن يقال : يكفي في الإعتماد على قول النبي ، مصونيته عن معصية واحدة ، هي الكذب ، دون سائر المعاصي .

(١) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

(٢) كشف المراد ، ص ٢١٧ ، طبعة صيدا .

والجواب : إنّ التفكيك بين المعاصي فرضية محضة لا تصحّ أن تقع أساساً للتربية العامة ، لما فيها من الأشكالات .

أمّا أولاً - فلأنّ المصونية عن المعاصي نتيجة إحدى العوامل التي أوعزنا إليها عند البحث عن حقيقة العصمة ، فإنّ تمّ وجودها أو وجود بعضها ، حصلت المصونية عن المعاصي برمتها ، ولا يعقل معها التفكيك بين الكذب وسائر المعاصي ، بأنّ يجتنب الكذب طيلة حياته ، بينما هو في الحين ذاته يسرح في سائر المعاصي ويمرح ، فإنّ العوامل التي تسوق الإنسان إلى اقترافها ، تسوقه أيضاً إلى اقتراف الكذب .

وأمّا ثانياً - فلأنّ التفكيك بينهما لو صحّ في عالم الثبوت ، فلا يمكن إثباته في حقّ مدّعي النبوة بأنّ يثبت أنّه لا يكذب أبداً مع ركوبه سائر المعاصي ، فمن أين يحصل للامة العلم بأنّ مدّعي النبوة مع اقترافه لأنواع الفجور والمآثم لا يكذب أبداً ، بل حتى لو صرّح الداعي إلى الإصلاح بنفس هذا التفكيك ، لم يذعن له أحد ، لسريان الريب إلى نفس هذا التصريح .

* السؤال الثاني - إنّ أقصى ما يشته هذا الدليل ، هو لزوم نزاهة النبي عن اقتراف المعاصي في الظاهر وبين الناس ، وهذا لا يخالف عصيانه في الخلوات ، فإنّ ذاك القدر من النزاهة كافٍ في جلب الثقة .

والجواب : إنّ نسبة هذا الأمر (ركوب المعاصي في السرّ دون العلن) إلى مدّعي النبوة ، يهدم الثقة به من أساسها إذ - حينذاك - ما الذي يمنعه من أن يكذب ولا يعلم كذبه ، فإذا تطرّق هذا الإحتمال إلى جميع أقواله ، انتفت الثقة فيه بالكلية .

أضف إلى ذلك ، أنّ من كانت هذه حاله ، وإنّ أمكنه خداع الناس بتزيين الظاهر مدّة من الزمن ، إلّا أنّه لن يتمكن من البقاء على ذلك أبداً ، بل لن ينقضي زمان إلّا وترتفع الأستار وتكشف البواطن ، فتظهر سوأته ويبدو عيبه .

* السؤال الثالث - إنّ هذا الدليل لا يثبت أزيد من عصمة الأنبياء بعد البعثة لحصول الوثوق في تلك الفترة ، ولا يثبت لزوم عصمتهم قبلها .

والجواب من وجهين :

الأول : إنّ العصمة كما عرفت غصن من دوحة التقوى ، ونتيجة العلم القطعي بعواقب المعاصي ، واستشعار عظمة الرب . وهذه ليست وليدة ساعتها ، فينقلب غير المعصوم معصوماً بنزول جبرائيل عليه وإكسائه ثوب الرسالة ، بل هي ملكة نفسانية لا تحصل إلّا بعد رياضات ومجاهدات . فلا معنى حينئذٍ لجعل البعثة حداً في حياة النبي ، لأنّا إذا قلنا بعصمته - وهي ملكة نفسانية - وجب أن تمتد جذورها إلى ما قبل البعثة بزمان مديد .

الثاني : لو كانت سيرة الداعي إلى الله ، قبل بعثته مخالفة لما هو عليه بعدها ، بأن يكون قبلها إنساناً سافلاً مرتكباً لقبائح الأعمال ، لا يحصل الوثوق بقوله وإن صار إنساناً مثالياً ، بل يتسرب الريب إلى كل ما يتفوّه به من أمر ونهي وإرشاد ، بحجة أنّه كان في طرف من حياته متهتكاً ، ملقياً جلباب الحياء ، فكيف انقلب إلى رجل مثالي معصوم ؟

لا شك أن لكل صفحة من صفحات عمر الإنسان الداعي تأثيراً في جلب ثقة الناس وانقيادهم إليه ، ولو كانت ملطخة بالسواد في بعضها ، لما سكنت إليه النفوس . فتَحَقَّقَ الغرض الكامل من البعثة رهن عصمته في جميع فترات عمره . يقول السيد المرتضى - رحمه الله - في الإجابة عن هذا السؤال :

« إنّنا نعلم أنّ من نجوّز عليه الكفر والكبائر في حال من الأحوال ، وإن تاب منها ، وخرج من استحقاق العقاب به ، لا نسكن إلى قبول قوله مثل سكوننا إلى من لا يجوّز عليه ذلك في حال من الأحوال ، ولا على وجه من الوجوه . ولهذا لا يكون حال الواعظ لنا ، الداعي إلى الله تعالى ، ونحن نعرفه ، مقارناً للكبائر ، مرتكباً لعظيم الذنوب ، وإن كان قد فارق جميع ذلك وتاب منه عندنا وفي نفوسنا ، كحال من لم نعهد منه إلّا النزاهة والطهارة . ومعلوم ضرورة الفرق بين هذين الرجلين فيما يقتضي السكون النفور ، ولهذا كثيراً ما يعبر الناس من يعهدون منه القبائح المتقدمة ، بها ، وإن وقعت التوبة منها ، ويجعلون ذلك عيباً ونقصاً وقادحاً . وليس إذا تجويز الكبائر قبل النبوة منخفضاً عن تجويزها في حال النبوة

وناقصاً عن رتبته في باب التنفير ولأجل ذلك وجب أن لا يكون فيه شيء من التنفير ، لأنَّ الشَّيْئين قد يشتركان في التنفير ، وإن كان أحدهما أقوى من الآخر»^(١) .

* * *

الدليل الثاني - التربية رهن عمل المربي

إنَّ الهدف العام الذي بعث لأجله الأنبياء ، هو تزكية الناس وتربيتهم ، يقول سبحانه حاكياً عن لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٢) .

وإنَّ التربية عن طريق الوعظ والإرشاد وإن كانت مؤثرة ، إلا أن تأثير التربية بالعمل أشدَّ وأعمق وأكد . وذلك أنَّ التطابق بين مرحلتي القول والفعل هو العامل الرئيسي في إذعان الآخرين بأحقِّية تعاليم المصلح والمربي . ولو كان هناك انفكاك بينها لانفض الناس من حوله ، وفقدت دعوته أي أثر في القلوب .

ولأجل ذلك يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾^(٣) .

ولذلك أيضاً ، نرى في الحكِّم أنَّ العالم إذا لم يعمل بعلمه ، زُلَّتْ موعظته عن القلوب ، كما يَزِلُّ المطرُ عن الصفا^(٤) .

وهذا الأصل التربوي يجرنا إلى القول بأنَّ التربية الكاملة المتوخاة من بعثة الأنبياء ، وترسخها في نفوس المتربين ، لا تحصل إلاَّ بمطابقة أعمالهم لأقوالهم .

(١) تنزيه الأنبياء ، ص ٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٢٩ .

(٣) سورة الصف : الآيتان ٢ و ٣ .

(٤) لاحظ أصول الكافي ، ج ١ ، ص ٤٤ ، باب استعمال العلم ، الحديث ٣ .

قال القاضي عبد الجبار : « إِنَّ النفوس لا تسكن إلى القبول ممن يخالف فعله قوله ، سكونها إلى من كان منزهاً عن ذلك . فيجب أن لا يجوز في الأنبياء عليهم السلام ، إلا ما نقوله من أنهم منزهون عما يوجب العقاب والاستخفاف والخروج من ولاية الله تعالى إلى عداوته .

يبين ذلك أنهم لو بعثوا للمنع من الكبائر والمعاصي ، بالمنع والردع والتخويف ، فلا يجوز أن يكونوا مقدمين على مثل ذلك ، لأن المعلوم أن المقدم على شيء ، لا يقبل منه منع الغير منه بالنهي والزجر والتكفير ، وأن هذه الأحوال منه لا تؤثر . . . ولو أن واعظاً انتصب يخوف من المعاصي من يشاهده مقدماً على مثلها ، لاستخف به وبوعظه » (١) .

وقال في موضع آخر : « إِنَّ الواعظ والمذكر ، وإن غلب على ظننا من حاله أنه مقلع تائب لما أظهره من أمارات التوبة والندامة ، حتى عرفنا من حاله الإنهاك في الشرب والفجور من قبل ، لم يؤثر وعظه عندنا ، كتأثير المستمر على النظافة والزهادة في سائر أحواله » (٢) .

وهذا كما يوجب العصمة بعد البعثة ، يقتضيها قبلها أيضاً ، لأن لسوابق الأشخاص ، وصحائف أعمالهم الماضية تأثيراً في قبول الناس كلامهم وإرشاداتهم وهداياتهم (٣) .

ثم إن هنا سؤالان مهمان يطرحان حول العصمة ، نفردهما بالذكر ، ونجيب عليهما قبل أن ننتقل إلى بيان العصمة عن المعصية والمخالفة المولوية ، في الذكر الحكيم .

* * *

(١) المغني ، ج ١٥ ، ص ٣٠٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠٥ .

(٣) وقد أقام المتكلمون ، على عصمة الأنبياء ، دلائل كثيرة ، فذكر المحقق الطوسي ثلاثة ، وأضاف إليها القوشجي دليلين آخرين ، وذكر الإيجي تسعة أدلة . غير أن بعض ما ذكره ليس دليلاً عاماً لجميع الأحوال والفترات ، بل يختص بعصر النبوة . ومن أرادها فليلاحظ المواضع التالية : كشف المراد ، ص ٢١٧ . شرح التجريد للقوشجي ، ص ٤٦٤ . المواقف ، ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

سؤالان هامان

السؤال الأول : هل العصمة تسلب الإختيار ؟

ربما يتوهم أن العصمة تسلب من المعصوم الحرية والإختيار ، وتقهره على ترك المعصية ، لتكون النتيجة انتفاء كل مكرمة ومحمدة ربما تنسب إليه لاجتنابه المعاصي والمآثم . وقد أُشير في أمالي السيد المرتضى إلى ما ذكرنا ، عند إيراد السؤال التالي :

« ما حقيقة العصمة التي يعتقد وجوبها للأنبياء والأئمة ، وهل هي معنى يضطرّ معه إلى الطاعة ، ويمنع عن المعصية ، فكيف يجوز الحمد لتارك المعصية ، والذمّ لفاعلها . وإن كان معنى يضاهي الإختيار ، فاذكروه ودلّوا على صحّة مطابقته له »^(١) .

جوابه

إنّ العصمة لا تسلب الإختيار عن المعصوم بأيّ من التحاليل التي مضت ، ويتّضح ذلك بالنظر في العصمة النسبية المتحققة في العاديين من الناس ، فقد تقدم أنّ العالم بوجود الطاقة الكهربائية في الأسلاك العارية ، لا يمّسها ، والطبيب لا يشرب سؤر المجذومين والمسلولين ، لعلمهما بعواقب فعلهما . ومع ذلك ، فكلّ منها - في حال اجتنابه عن الفعل - قادر على الفعل لو غصّ طرفه عن حياته وخاطر بها ، ولكنهما لا يقومان به لحبّ كلّ منهما صحته وسلامته .

إنّ كلّ واحد من العاملين المزبورين ممكن الصدور بالذات منها ، غير أنّه ممتنع الصدور بالعرض والعادة ، لا ذاتاً وعقلاً ، وكم فرق بين المحالين . ففي المحال العادي يكون الصدور من الفاعل ممكناً بالذات ، غير أنّه يرجّح أحد الطرفين على الآخر بالدواعي الموجودة في ذهنه ، بخلاف الثاني ، فإنّ أصل الفعل ممتنع بذاته ، فلا يصدر لذلك ، لا لعدم الدواعي . وهذا نظير صدور القبيح من

(١) أمالي السيد المرتضى ، ج ٢ ، ص ٣٤٧ .

الله سبحانه ، فإنه ممكن بالذات ، فيقع تحت إطار قدرته ، فيإمكانه تعالى إخلاد المطيع في نار جهنم ، لكنه لا يصدر منه ، لكونه مخالفاً للحكمة ، ومبائناً لما وعد به .

وعلى ذلك فامتناع صدور الفعل من الإنسان ، حفظاً للأغراض والغايات ، لا يكون دليلاً على سلب الاختيار والقدرة .

وهكذا ، فالنبي المعصوم قادر على اقتراف المعاصي ، بمقتضى ما أعطي من القدرة والحرية ، غير أن تقواه العالية وعلمه بآثار المعاصي ، واستشعاره عظمة الخالق ، يصده عن ذلك ، فهو كالوالد العطوف الذي لا يقدم على ذبح ولده ولو أعطي ملء الأرض ذهباً ، وإن كان مع ذلك قادراً على قطع وتينه ، كما يقطع وتين عدوه .

يقول العلامة الطباطبائي : إن ملكة العصمة لا تغير الطبيعة الإنسانية المختارة في أفعالها الإرادية ، ولا تخرجها إلى ساحة الإجبار والإضطرار . كيف ، والعلم من مبادئ الاختيار ، ومجرد قوة العلم لا يوجب إلا قوة الإرادة . كطالب السلامة إذا أيقن بكون مائع ما سمّاً قاتلاً من حينه ، فإنه يمتنع باختياره من شربه ، ويشهد على ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَاجْتَنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ * ذلك هدى الله ، يهدي به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴿^(١)﴾ ، والضمير في ﴿ وَاجْتَنِبْنَاهُمْ ﴾ يرجع إلى الأنبياء . وفي الوقت نفسه تفيد الآية أن في إمكانهم أن يشركوا بالله ، غير أن الإجتباء والهداية الإلهية ، يمنعان من ذلك .

ومثله قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾^(٢) .

(١) سورة الأنعام : الآيتان ٨٧ - ٨٨ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

إلى غير ذلك من الآيات الصريحة في قدرة الأنبياء على المخالفة»^(١) .

* * *

السؤال الثاني - العصمة موهبة فلا تكون مفخرة

الظاهر من كلمات المتكلمين أن العصمة موهبة إلهية يتفضل بها سبحانه على من يشاء من عباده بعد وجود أرضيات صالحة في نفس المعصوم وقابليات مصححة لإفاضتها عليهم .

قال الشيخ المفيد : « العصمة تَفَضُّلٌ من الله على من علم أنه يتمسك بعصمته »^(٢) .

وقال السيد المرتضى : « العصمة لطف الله الذي يفعله تعالى ، فيختار العبد عنده الإمتناع عن فعل القبيح »^(٣) .

وفي الآيات القرآنية تلميحات وإشارات إلى ذلك ، مثل :

قوله سبحانه : ﴿ وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ * وَأَذْكُرْ أَصْحَابَ الْكَلْبِ وَذَا الْكَلْبِ وَكُلَّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿^(٤) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ، فَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴾^(٥) والضمير يرجع إلى أنبياء بني إسرائيل .

فإن قوله : ﴿ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ، يدلان على أن النبوة والعصمة وإعطاء الآيات

(١) لاحظ الميزان ، ج ١١ ، ص ١٧٩ .

(٢) تصحيح الاعتقاد ، ص ٦١ .

(٣) أمالي المرتضى ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

(٤) سورة ص : الآيات ٤٥ - ٤٨ .

(٥) سورة الدخان : الآيات ٣٢ و ٣٣ .

لأصحابها ، من مواهب الله سبحانه للأنبياء وَمَنْ يقوم مقامهم من الأوصياء .
وإذا كانت موهبة منه ، فلا تُعَدُّ كمالاً ومفخرة للمعصوم ، فتعود كصفاء اللؤلؤ ،
لا يستحق اللؤلؤ عليه حمداً وتحسيناً ، لأنَّ الحمد والثناء إنما يصحَّحان للفعل
الإختياري ، لا لما هو خارج عن الإختيار ، والفرص أنَّ المعصوم وغيره في هذ
المجال سواء ، لأنَّ ذاك الكمال لو أُفيض على فرد آخر غيره لكان مثله .

جوابه

إنَّ العصمة الإلهية لا تفاض على المعصوم إلّا بعد وجود أرضيات صالحة في
نفسه ، تقتضي إفاضة تلك الموهبة إليه ، وأمّا ما هي تلك الأرضيات ،
والقابليات ، فخرج عن موضوع البحث ، غير أننا نشير إليها إجمالاً .

إنَّ القابليات التي تسوغ نزول الموهبة الإلهية على قسمين :

قسم خارج عن اختيار المعصوم ، وقسم واقع في إطار إرادته واختياره .

أمّا الأول - فهو عبارة عمّا ينتقل إلى النبي من آبائه وأجداده عن طريق
الوراثه ، فإنَّ في ناموس الطبيعة والخلقة أنَّ الأبناء يرثون ما في الآباء من الصفات
الظاهرية والباطنية ، فالشجاع يلد شجاعاً ، والجبان جباناً .

وإضافة إلى ذلك ، فإنَّ هناك عاملاً آخر لتكوُّن تلك القابليات في النفوس
هو عامل التربية ، والأنبياء يتلقون الكمالات الموجودة في بيوتاتهم في ظل هذين
العاملين ، فيكوُّن ذلك في أنفسهم الأرضية الصالحة لإفاضة المواهب عليهم ،
ومنها العصمة والنبوة .

وأمّا الثاني - فهو عبارة عن المجاهدات الفردية والاجتماعية التي يقوم بها
رجال الوحي من أوائل شبابهم إلى أواخر كهولتهم ، من العبادة والرياضات
النفسية إلى مقارعة الطغاة والظالمين^(١) .

(١) أنظر إلى ما قام به إبراهيم على صغر سنه ، ويوسف في بيت من تملكه ، وموسى في مصر الفراعنة ،
والمسيح في بني إسرائيل ، والنبي الأكرم (ص) في عامة فترات حياته .

فهذه العوامل الداخلة بعضها في الاختيار ، والخارج بعضها الآخر عنه ، أوجدت مجتمعة في الأنبياء القابلية لإفاضة وصف العصمة عليهم ، فتكون العصمة عند ذاك مفخرة للمعصوم ، يستحق عليها التحسين والتبجيل .

يقول العلامة الطباطبائي : « إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ خَلَقَ بَعْضَ عِبَادِهِ عَلَى اسْتِقَامَةِ الْفِطْرَةِ وَاعْتَدَالَ الْخَلْقَةَ ، فَنَشَأَ مِنْ بَادِيءِ الْأَمْرِ بِأَذْهَانٍ وَقَادَةٍ ، وَإِدْرَاكَاتٍ صَحِيحَةٍ ، وَنَفُوسٍ طَاهِرَةٍ ، وَقُلُوبٍ سَلِيمَةٍ ، فَنَالُوا بِمَجْرَدِ صِفَاءِ الْفِطْرَةِ وَسَلَامَةِ النَّفْسِ ، مِنْ نِعْمَةِ الْإِخْلَاصِ ، مَا نَالَهُ غَيْرُهُمْ بِالْإِجْتِهَادِ وَالْكَسْبِ ، بَلْ أَعْلَى وَأَرْقَى ، لَطَهَارَةٍ دَاخِلِهِمْ مِنَ التَّلَوُّثِ بِأَوْسَاخِ الْمَوَانِعِ وَالْمَزَاحِمَاتِ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُخْلِصُونَ (بِالْفَتْحِ) لِلَّهِ فِي مِصْطَلَحِ الْقُرْآنِ .

وقد نصَّ القرآن على أَنَّ اللَّهَ اجْتَبَاهُمْ أَيَّ خَلْقِهِمْ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ^(١) ، وَقَالَ : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ^(٢) « ^(٣) .

وما جاء في كلامه يشير إلى القابليات الخارجة عن الاختيار ، ولكنك عرفت أَنَّ هناك مقدمات واقعة في اختيارهم فإذا انضمت تلك إلى هذه ، تتحقق الصلاحية المقتضية لإفاضة الموهبة الإلهية .

إجابة أخرى عن السؤال

وهناك إجابة أخرى وهي أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَقَفَ عَلَى ضَعَائِرِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ ، وَمُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِمْ ، وَمَصِيرِ حَالِهِمْ ، وَعَلِمَ أَنَّهُمْ ذَوَاتُ مَقْدَسَةٍ لَوْ أَفِضْتُ إِلَيْهِمْ تِلْكَ الْمَوْهَبَةَ لَاسْتَعَانُوا بِهَا فِي طَرِيقِ الطَّاعَةِ وَتَرَكَ الْمَعْصِيَةَ بَحْرِيَّةً وَاخْتِيَارَ . وَهَذَا الْعِلْمُ كَافٍ فِي تَصْحِيحِ إِفَاضَةِ تِلْكَ الْمَوْهَبَةِ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعْمَةِ أَظْفَارِهِمْ إِلَى أَنْ أُدْرَجُوا فِي أَكْفَانِهِمْ ، بِخِلَافِ مَنْ يَعْلَمُ مِنْ حَالِهِ خِلَافَ ذَلِكَ .

(١) سورة الأنعام : الآية ٨٧ .

(٢) سورة الحجج : الآية ٧٨ .

(٣) الميزان ، ج ١١ ، ص ١٧٧ .

وهذا الجواب يستفاد من كلمات الشيخ المفيد والسيد المرتضى .

قال الشيخ المفيد : « العصمة تفضل من الله تعالى على من علم أنه يتمسك بعصمته »^(١) .

وقال السيد المرتضى : « كل من علم الله تعالى أن له لطفاً يختار عنده الإمتناع من القبائح ، فإنه لا بد أن يفعل به ، وإن لم يكن نبياً ولا إماماً ، لأن التكليف يقتضي فعل اللطف على ما دل عليه في مواضع كثيرة ، غير أنه لا يمتنع أن يكون في المكلفين من ليس في المعلوم أن شيئاً متى فعل اختار عنده الإمتناع من القبيح ، فيكون هذا المكلف لا عصمة له في المعلوم ولا لطف . وتكليف من لا لطف له يحسن ولا يقبح ، وإنما القبيح منع اللطف فيمن له لطف ، مع ثبوت التكليف »^(٢) .

وحاصل ما أفاد هو أن الملاك في إفاضة هذا الفيض هو علمه سبحانه بحال الأفراد في المستقبل ، فكل من علم سبحانه أنه لو أفيض عليه وصف العصمة لاختار عنده الإمتناع من القبائح ، فعندئذ تفاض عليه العصمة وإن لم يكن نبياً ولا إماماً وأما من علم أنه متى أفيضت إليه تلك الموهبة لما اختار عندها الإمتناع عن القبيح ، فلا يفيضها عليه لعدم استحقاقه لها .

وعلى ضوء ذلك فوصف العصمة موهبة إلهية تفاض على من يعلم من حاله أنه باختياره ينتفع منها في ترك القبائح ، فيعدّ مفعلة قابلة للتحسين والتكريم ، وقد شبه الشيخ المفيد العصمة بالحبيل الذي يعطى للغريق ليتشبث به فيسلم ، فالغريق يختار في التقاط الحبيل والنجاة ، أو عدمه والغرق^(٣) .

ويترتب على ما ذكره السيد عدم انحصار العصمة بالنبي والوحي المنصوص عليه ، بل تشمل كل من علم الله سبحانه أنه ينتفع منها في طريق كسب رضاه .

* * *

(١) شرح عقائد الصدوق ، ص ٦١ .

(٢) أمالي المرتضى ، ج ٢ ، ص ٣٤٨ ، طبعة إحياء دار الكتب العربية .

(٣) لاحظ أوائل المقالات ، ص ١١ .

العصمة في الكتاب العزيز

يصف الذكر الحكيم الأنبياء بالعصمة بلطائف البيان ودقائقه ، مما يحتاج في الوقوف عليه إلى التدبر بامعان ، ولأجل إيقاف الباحث على نماذج من هذه التوصيفات مع مراعاة ما يقتضيه المقام ، نكتفي بالبحث عن آيتين منها^(١) .

الآية الأولى : قال عز وجل : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . . . أولئك الذين هَدَى اللَّهُ فَبِهَدَاهُمْ آفَتِهِ * قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾^(٢) .

وجه الدلالة

إن الآية الأخيرة تصف الأنبياء بأنهم مهديون بهداية الله سبحانه ، على وجه يجعلهم القدوة والأسوة ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر ، نرى أنه سبحانه يُصرِّح بأن من شملته الهداية الإلهية لا مُضِلُّ له ، يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ، وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ . . . ﴾^(٣) .

وفي آية أخرى يُصرِّح بأن حقيقة العصيان ، الضلالة والانحراف عن الجادة الوسطى ، يقول عز من قائل : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ جِبِلًّا

(١) راجع في الوقوف على سائر الآيات ودلالاتها ، مفاهيم القرآن ، ج ٤ ص ٤٢٣ - ٤٣١ .

(٢) سورة الأنعام : الآيات ٨٤ - ٩٠ .

(٣) سورة الزمر : الآيتان ٣٦ و ٣٧ .

كثيراً أَقْلَمَ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ .

وبملاحظة هذه الطوائف الثلاث من الآيات ، تُسْتَنْجُ العصمة بوضوح ،
وذلك كما يلي :

إنَّ اللَّفِيفَ الأول من الآيات يصف الأنبياء بأنَّهم القُدوة والأسوة ،
والمهديّون من الأمة .

وَاللَّفِيفَ الثاني يصرّح بأنَّ من شملته العناية الإلهية لا ضلالة ولا مُضِلٌّ له .
وَاللَّفِيفَ الثالث يصرّح بأنَّ العصيان نفسُ الضلالة ، حيث قال :
﴿ وَلَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ ﴾ . وما كانت ضلالتهم إلّا لأجل عصيانهم ومخالفتهم
لأوامره تعالى ، ونواهيهِ .

فإذا كان الأنبياء مهديون بهداية الله ، وَمَنْ هداه الله لا تَتَطَرَّقُ إليه
الضلالة ، وكانت المعصية نفس الضلالة ، فينتج أنَّ المعصية لا سبيل لها إلى
الأنبياء .

وإن أردت أن تفرغ ما تفيده هذه الآيات في قالب الشكل المنطقي فقل :

* النبي قد شملته الهداية الإلهية .

* ومن شملته الهداية الإلهية ، لا تتطرق إليه الضلالة .

* فينتج : النبي لا تتطرق إليه الضلالة .

وبما أنَّ الضلالة والمعصية متساويان ، فيصحَّ أن يقال في النتيجة : إنَّ النبي
لا تتطرق إليه المعصية .

الآية الثانية - قال عزَّ وجل : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ
أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ

(١) سورة يس : الآيات ٦٠ - ٦٢ .

رَفِيقًا ﴿١﴾ .

ففي هذه الآية المباركة يَعُدُّ الله تعالى الأنبياء من الذين أنعم عليهم ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر يصف سبحانه من أنعم عليهم بأنهم غير مغضوب عليهم ولا ضالّين ، في قوله : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (٢) .

فيستنتج من ضمّ هاتين الآيتين إلى بعضهما ، عصمة الأنبياء بوضوح ، لأنّ العاصي يشملُه غضب الربّ ، ويكون ضالّاً بقدر عصيانه . فإذا كان الأنبياء ممن أنعم الله عليهم ، والذين أنعم الله عليهم لا يشملهم غضب الربّ (غير المغضوب عليهم الخ) ، فيكون الأنبياء منزّهين عن المعصية ، ويريثين عن المخالفة .

وإن شئت إفراغ الإستدلال في قالب الشكل المنطقي ، فقل :

* إنّ الأنبياء ، قد أنعم الله عليهم .

* وكل من أنعم الله عليه ، فهو غير مغضوب عليه ولا ضالّ .

* فينتج : إنّ الأنبياء غير مغضوب عليهم ولا ضالّين .

ولما كان العصيان يلزم الغضب والضلال بمقداره ، فمن كان بعيداً عن جلب غضب الربّ إليه ، والضلالة ، يكون بريئاً عن المعصية .

وستعرف فيما يأتي أنّ جميع الأمة ليسوا شهداء ، وإنّما عبّر بالجمع وأريد منه لفيف من الأمة قد دلّ الدليل على عصمتهم .

وأما استلزام هذا الإستدلال ، عصمة غير الأنبياء والشهداء من الصديقين والصالحين ، فلا إشكال فيه كما عرفت عند نقل كلام السيد المرتضى فيما تقدم .

(١) سورة النساء : الآية ٦٩ .

(٢) سورة الحمد : الآية ٧ .

ونظن أنّ الآيتين كافيتين في إذعان الباحث بعصمة الأنبياء من جهة النقل أيضاً^(١) .

نعم ، إنّ هناك لفيماً من الآيات ربما يُستظهر منه عدم عصمة الأنبياء على الإطلاق أولاً ، وعدم عصمة عدّة منهم كـ « آدم » و « يونس » ثانياً . غير أنّ دراسة هذه الأصناف من الآيات خروج عن طور البحث ، فإنّها أبحاث قرآنية تُطلّب من مظانّها^(٢) .

والى هنا يتّم البحث في المرحلة الأولى من مراحل العصمة ، أعني العصمة عن المعصية والمخالفة المولوية ، ويقع الكلام بعدها في المرحلة الثانية ، وهي العصمة في مقام تبليغ الرسالة .

* * *

(١) ومن أراد البسط فليرجع إلى المصدر الذي أشرنا إليه .

(٢) قد بحث الأستاذ - أطال الله بقاءه - عن مجموع هذه الآيات في موسوعته القرآنية « مفاهيم القرآن » ، ج ٤ ، ص ٤٠٠ - ٤٥٠ وج ٥ ، ص ١٩ - ١٣٤ فلاحظ .

المرتبة الثانية للعصمة

عصمة النبي في تبليغ الرسالة

ذهب جمهور المتكلمين من السنّة والشيعة إلى عصمة الأنبياء في هذه المرحلة ، ونُسب إلى أبي بكر الباقلاني (المتوفى سنة ٢٠٣) تجويز الخطأ في إبلاغ الرسالة سهواً ونسياناً ، لا عمدأ وقصدأ .

قال صاحب المواقف : « أجمع أهل الملل والشرائع على عصمتهم عن تعمّد الكذب فيما دلّت المعجزة على صدقهم فيه ، كدعوى الرسالة وما يبلغونه عن الله . وفي جواز صدوره عنهم على سبيل السهو والنسيان خلاف ، فمنعه الأستاذ وكثير من الأئمة ، لدلالة المعجزة على صدقهم ، وجوّزه القاضي مصيراً منه إلى عدم دخوله في التصديق المقصود بالمعجزة »^(١) .

هذا رأي الأشاعرة ، وأمّا المعتزلة فإليك رأيهم بلسان القاضي عبد الجبار ، قال :

« إنّنا لا نجوز عليه (النبي) السهو والغلط فيما يؤدّيه عن الله تعالى ، وإنّما نجوز عليه أن يسهو في فعل قد بيّنه من قبل ، وأدّى ما يلزم فيه حتى لم يغيّر منه شيئاً . فإذا فعله مرة لمصالحه ، لم يمتنع أن يقع فيه السهو والغلط . ولذلك لم يشتبه على أحد الحال في أنّ الذي وقع منه من القيام في الثانية هو سهو ، وكذلك ما وقع

(١) المواقف ، ص ٣٥٨ .

منه في خبر ذي الـيدين إلى غير ذلك» (١) .

أقول : نظر القاضي في الإستثناء هو أنّ النبي لا يسهو في التبليغ ، ولكن يعرض له السهو في عالم التطبيق . وقد نسبوا إليه السهو في الصلاة حيث سلّم في الركعة الثانية ، فاعترض عليه ذو الـيدين : « أَقْصَرْتَ الصَّلَاةَ أَمْ نَسِيتَ » ، وسيوافيك الحال في هذا الإستثناء عند البحث في المرحلة الثالثة .

ثم إنّا نقول : إنّ العصمة في مرحلة تبليغ الرسالة على وجهين :

أ - العصمة عن الكذب ، وهو داخل في العصمة عن المعصية ، التي تقدم البرهان عليها .

ب - العصمة عن الخطأ سهواً في تلقّي الوحي وتحملّه (وعيه) وأدائه ، وهذا هو الذي نركز البحث عليه .

إنّ الدليل الأول ، أعني كون حصول الوثوق مرهوناً بالعصمة ، كما يثبت عصمة الأنبياء عن المعصية ، فكذلك يثبت عصمتهم في هذا المجال . ولأجل ذلك اكتفى به المحقق الطوسي في إثبات العصمة على الإطلاق ، إنّ في مقام الفعل والعمل ، أو في مقام التبليغ والرسالة .

توضيح ذلك : إنّ الهدف الأسمى من بعث الأنبياء ، هو هداية الناس إلى التعاليم الإلهية التي ترشدكم إلى طريق السعادة ، ولا تحصل هذه الغاية إلاّ بإيمان الناس بصدق المبعوثين وإذعانهم بكونهم مرسلين من جانبه سبحانه وأنّ كلامهم وأقوالهم ، كلامه وقوله سبحانه . وهذا الإذعان لا يحصل إلاّ بعد إذعان آخر ، وهو اعتقاد مصونيتهم عن الخطأ في المراحل الثلاث من مراحل تبليغ الرسالة ، أعني : التلقّي ، والتحمّل ، والأداء .

القرآن وعصمة الأنبياء في تبليغ الرسالة

إنّ في الذكر الحكيم آيات تدلّ على مصونية النبي الأعظم في مجال تبليغ

(١) المغني ، ج ١ ، ص ٢٨١ .

الرسالة بجوانبها المختلفة ، من تلقي الوحي فوعيه وحفظه ، إلى إبلاغه .

* الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَاتَّزَلَّ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

إنَّ هذه الآية تصرِّح بأنَّ من أهداف بعثة الأنبياء ، القضاء بين الناس فيما اختلفوا فيه . وليس المراد من القضاء إلا القضاء بالحق ، وهو فرع وصول الحق إلى القاضي بلا تغيير ولا تحريف .

ثم إنَّ نتيجة القضاء هي هداية من آمَنَ مِنَ النَّاسِ إِلَى الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، كما هو صريح قوله : ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ . والهادي وإن كان هو الله سبحانه في الحقيقة ، لكن الهداية تتحقق عن طريق النبي بوساطته . وتحقق الهداية منه ، فرع كونه واقفاً على الحق بكماله وتماحه . من دون تحريف ولا زيادة أو نقصان . وكل ذلك يستلزم عصمة النبي في تلقي الوحي وتحمله وإبلاغه إلى الناس .

والحاصل أنَّ الآية تدلُّ على أنَّ النبي يقضي بالحق أولاً ، ويهدي المؤمنين إليه ثانياً . وهذا يستلزم كونه واقفاً على الحق على ما هو عليه ، ومبلغاً له على نحو ما تلقاه ووعاه .

* الآية الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (٢) .

فالآية تصرِّح بأنَّ النبي لا يتكلم بداعي الهوى ، والمراد منه إمَّا جميع ما يصدر عنه من القول في مجالات الحياة على اختلافها ، كما هو مقتضى إطلاقها ، أو

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٣ .

(٢) سورة النجم : الايتان ٣ و٤ .

خصوص ما يحكيه عن الله سبحانه . وعلى كلا التقديرين فهي تدلّ على صيانتها وعصمته في مجال تبليغ الرسالة : تلقّي الوحي ووعيه وإبلاغه .

* الآية الثالثة - قال تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ، فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ أُبْلِغُوا بِرِسَالَاتٍ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ (١) .

وموضع الدلالة من الآية :

أ - قوله : ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ .

ب - قوله : ﴿مِنْ خَلْفِهِ ﴾ .

ج - قوله : ﴿أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ .

فبالإمعان في هذه النقاط الثلاث ، يظهر أنّ مشيئة الله تعالى الحكيمة ، تعلّقت على حفظ الوحي من لدن أخذه إلى زمن تبليغه ، وإليك توضيح الدلالة بتوضيح مفردات الآية .

١ - قوله : ﴿فَلَا يُظْهِرُ ﴾ . الإظهار من باب الإفعال بمعنى الإعلان ، كما في قوله سبحانه : ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ . . . ﴾ (٢) .

٢ - لفظ « مِنْ » في قوله : ﴿مِنْ رَسُولٍ ﴾ ، بيانية . تبين المرضي عند الله . فالرسول هو الذي ارتضاه الله تعالى واختاره ليُعرّفه على الغيب .

٣ - الضمير في قوله : ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ ﴾ ، يرجع إلى الله تعالى . كما أنّ الضمير المستتر في قوله : ﴿يَسْلُكُ ﴾ ، يرجع إليه سبحانه أيضاً . و« يسلك » بمعنى يجعل .

(١) سورة الحن : الآيات ٢٦ - ٢٨ .

(٢) سورة التحريم : الآية ٣ .

٤ - الضمير في قوله : ﴿ يَبَيِّنُ يَدَيْهِ وَخَلْفَهُ ﴾ ، يرجع إلى الرسول ، والمراد من الأول ما بيّنه وبين الناس ، وهم المرسل إليهم ، فإن النبي يواجه الناس ، وهم في مواجهته وبين يديه ، كما أنّ المراد من الثاني ، ما بين الرسول ومصدر الوحي الذي هو الله سبحانه . وإنما عبّر بالخلف ، لأنّ النبي بُعث من الله إلى الناس ، فالله خَلْفَهُ والناس أمامه بهذا الاعتبار .

٥ - قوله : ﴿ رَصَدًا ﴾ الرصد هو الحارس الحافظ ، يطلق على الجمع والمفرد .

والتدبّر في مفاد الآية يثبت بأنّ الوحي مصون ومحفوظ من لدن إفاضة من الله سبحانه ، إلى وصوله إلى الناس ، فإنّها تُعتبر الوحي فيضاً متصلاً من المرسل (بالكسر) إلى المرسل إليهم .

إنّ الآية تصف طريق بلوغ الوحي إلى الرسل ، ومنهم إلى الناس ، بأنّه محروس بالحفظة يمنعون تطرق أي خلل وانحراف فيه ، حتى يبلغ الناس كما أنزل من الله تعالى . ويعلم هذا بوضوح مما تذكره الآية من أنّ الله سبحانه يجعل بين الرسول ومن أرسل إليهم (من بين يده) وبيّنه ومصدر الوحي (ومن خلفه) ، رصداً مراقبين ، هم الملائكة . وليس الهدف من جعلهم في هذه المواضع إلّا الحفاظ على الوحي من كل تخليط وتشويش ، بالزيادة والنقصان ، التي ربما يقع النبي فيها من ناحية الشياطين بلا واسطة ، أو معها . فإذا كان الوحي بهذه المشابة من الحراسة والمصونية في كلا المرحلتين ، أعني المتقدمة - وهي من حين الإفاضة من المرسل إلى حين البلوغ إلى النبي - والمتأخرة - وهي إبلاغه إلى الناس - كان كذلك فيما بينهما ، أعني مرحلة الحفظ والوعي ، فالنبي فيها مصون عن النسيان أو تدخل الواهمة لتغييره وتبديله . ولولا ذلك لما كان لحفظ الوحي بين يديه أي معنى .

ثم إنّ سبحانه يؤكد ذلك بجملتين أُخريين :

الأولى ، قوله : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ ، فإنّها علّة لجعل الرصد بين يدي الرسول وخلفه . والمراد من العلم ، التحقق الخارجي ، على حدّ قوله سبحانه : ﴿ . . . فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ

الكاذبين ﴿١﴾ ، أي ليتحقق إبلاغ رسالات الله على ما هي عليه من غير تبديل ولا تغيير ، وهو - أي تحقق الإبلاغ على ما هو عليه - يتوقف على جعل الرصد والحفظه عليه في المراحل الثلاث جميعها : الأخذ والوعي والإبلاغ .

والثانية ، قوله : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ . فإنها أيضاً جملة مؤكدة لجعل الحراسة ، ومعناها أنه سبحانه يحيط بما لدى الأنبياء من الوحي ، فيكون في أمان من تطرق التحريف .

وأما قوله : ﴿ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ ، فَمَسْوقٌ لإفادة عموم علمه بكل شيء ، من غير فرق بين الوحي الملقى إلى الرسول وغيره .

وخلاصة الكلام : إنَّ الوحي كلماء الصافي الزلال ، المنحدر من معينه ، ينزل من مصدره وهو خزائن علم الله تعالى ، إلى النبي ، ومنه إلى الناس ، من دون أن يتطرق إليه التحريف والتبديل من جانب الشياطين أو القوى النفسانية في النبي ، بل يصل كما صدر بلا أدنى تغيير .

قال العلامة الطباطبائي ، بعد بحثه في مفردات الآية على غرار ما ذكرناه : « إنَّ الرسول مؤيَّدٌ بالعصمة في أخذ الوحي من ربِّه ، وفي حفظه ، وفي تبليغه إلى الناس ، مصوَّبٌ من الخطأ في الجهات الثلاث جميعاً . لما مرَّ من دلالة الآية على أنَّ ما نزل الله من دينه على الناس من طريق الوحي ، مصوَّبٌ في جميع مراحلها إلى أن ينتهي إلى الناس . ومن مراحلها ، مرحلة أخذ الوحي وحفظه وتبليغه ، والتبليغ يعمُّ القول والفعل ، فإنَّ في الفعل تبليغاً ، كما في القول . فالرسول معصوم عن المعصية باقتراف المحرمات وترك الواجبات الدينية ، لأنَّ في ذلك تبليغاً لما يناقض الدين . فهو معصوم من فعل المعصية ، كما أنه معصوم من الخطأ في أخذ الوحي وحفظه وتبليغه قولاً » (٢) .

وفي ضوء هذه الآية الكريمة يمكن القول بأنَّ مصونية الأنبياء عن الخطأ

(١) سورة العنكبوت : الآية ٣ .

(٢) الميزان في تفسير القرآن ، ج ٢٠ ، ص ١٣٣ .

والإشتباه فيما يرجع إلى الرسالة والوحي ، لا يرجع إلى ذواتهم وكيانات وجودهم ، بل إلى عامل أو عوامل ، خارجة عن ذواتهم ، كالملائكة الرُّصد ، الحافظين لهم من كل خطأ وزلَّة ، والآخذين بأيديهم في مظانِّ مزالقِ الألسن والأيدي والأقدام وسائر الجوارح .

* * *

المرتبة الثالثة للعصمة

العصمة عن الخطأ في تطبيق الشريعة والأمر العادي

إنَّ صيانة النبي عن الخطأ والإشتباه في مجال تطبيق الشريعة والأمر العادي الفردية المرتبطة بحياته الشخصية ، ممَّا طرح في علم الكلام ، وطال البحث فيه بين المتكلمين . والخطأ في تطبيق الشريعة ، مثل أن يسهو في صلاته ، أو يغلط في إجراء الحدود . والخطأ في الأمور العادية مثل خطئه في مقدار دينه للناس ، كما لو اقترض ديناراً وظنَّ أنه ديناران أو نصف دينار .

والحقُّ في هذه المسألة واضح غايته ، ذلك أنَّ الدليل العقلي الدالُّ على لزوم عصمة النبي في مجال تلقِّي الوحي وتحملِه وأدائه إلى الناس ، دالٌّ - بعينه - على عصمته عن الخطأ في تطبيق الشريعة وأمره الفردية ، حرفاً بحرف . ولكن زيادة في البيان ، نقول :

إنَّ الغاية المتوخاة من بعث الأنبياء هي هداية الناس إلى السعادة . ولا تحصل هذه الغاية إلَّا بكسب اعتمادهم وثقتهم المطلقة بصحة ما يقوله الأنبياء ويحكونه عن الله تعالى . ولكن ما قولك فيما لو شاهد الناس نبيَّهم يسهو في تطبيق الشريعة التي أمرهم بها ، أو يغلط في أمره الفردية والاجتماعية ؟ . هل من ريب في أنَّ الشكَّ سيجد طريقاً رحبة للتسرب إلى أذهان الناس في ما يدخل في مجال الوحي والرسالة ؟ بل لن يبقى شيء ممَّا جاء به هذا النبي إلَّا وتطرُّقُ علامات الإستفهام ، ولسان حال الناس يقول : « هل ما يحكيه عن الله تعالى من

الوظائف ، هي وظائف إلهية حقاً ؟ أم أنها مزيج من الأخطاء والإشبهات ؟ وبأي دليل هو لا يخطيء في مجال الوحي ، إن كان يخطيء ويسهو في المجالين الآخرين ؟ . وهذا الحديث النفسي والشعور الداخلي ، إذا تعمق في أذهان الناس ، سوف يسلب اعتمادهم على النبي ، وتنتفي بالتالي النتيجة المطلوبة من بعثه .

نعم إن التفكير بين صيانة النبي في مجال الوحي ، وصيانتة في سائر المجالات ، وإن كان أمراً ممكناً عقلاً ، لكنه كذلك بالنسبة إلى عقول الناصحين في الأبحاث الكلامية ، وأما عامة الناس ورعاؤهم الذين يشكلون أغلبية المجتمع ، فإنهم غير قادرين على التفكير بين تينك المرحلتين ، بل يجعلون السهو في إحداهما دليلاً على إمكان تسرب السهو إلى المرحلة الأخرى .

فلا بدّ - لسدّ هذا الباب الذي ينافي الغاية المطلوبة من إرسال الرسل - من أن يكون النبي مصوناً عن الخطأ في عامة المراحل ، سواء في حقل الوحي أم تطبيق الشريعة أم في الأمور الفردية والاجتماعية . وهذا الذي ذكرناه مقتضى الدليل العقلي القائم في المقام . والقرآن الكريم يدعم ذلك ببيان خاص ، نورده فيما يلي .

القرآن وعصمة النبي عن الخطأ

تستفاد عصمة الأنبياء عن الخطأ في مجال تطبيق الشريعة والأمور الفردية من عدة من الآيات نكتفي في المقام بالبحث في آيتين منها . ولأجل توضيح دلالتها ، نذكر كلا منها ، مع ما يرتبط بها من الآيات .

الآية الأولى - قال سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ (١) .

وقال سبحانه أيضاً : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ

(١) سورة النساء : الآية ١٠٥ .

يُضِلُّوكَ ، وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١﴾ .

الإستدلال بهاتين الآيتين وإن كان لا يتوقف على معرفة أسباب نزولهما ، إلا أنَّ الإحاطة بأسباب النزول توجب ظهورهما في مفادهما .

إنَّ مجموع ما ورد حول هاتين الآيتين وغيرهما ، من أسباب النزول ، متفق على أنَّها نزلت في شكوى رُفعت إلى النبي صلى الله عليه وآله ، وكان كلُّ من المتخاصمين يسعى ليعبر نفسه ويلقي التهمة على الآخر . لكن كان إلى جانب أحدهما رجل طليق اللسان حاول أن يخدع النبي الأكرم بإثارة عواطفه على المتهم البريء ، ليقضي على خلاف الحق ، فعند ذلك نزلت الآيات وَرَفَعَتِ النُّقَابَ عَنْ وَجْهِ الْحَقِيقَةِ ، وَعَرَفَ الْحَقُّ مِنَ الْمُبْطِلِ ﴿٢﴾ .

والدقة في فقرات الآية الثانية ، يوقفنا على مدى صيانة النبي الأكرم وعصمته عن السهو والخطأ ، فإنَّها مؤلفة من فقرات أربع كلُّ منها يشير إلى أمر خاص .

١ - ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

٢ - ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ .

٣ - ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ .

٤ - ﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .

وإليك فيما يلي بيان ما تهدف إليه هذه الآيات وكيفية استنتاج العصمة منها .

الفقرة الأولى تدلُّ على أنَّ نفس النبي بمجردَها لا تصونه من الضلال ، أي من القضاء على خلاف الحق ، وإنَّما الصائن له هو الله سبحانه ، فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ

(١) سورة النساء : الآية ١٠٥ .

(٢) راجع في الوقوف على مجموع ما نقل من أسباب النزول ، تفسير الطبري ، ج ٥ ، ص ١٦٩ .

ورحمته لَهْمَتْ طائفة أن يرضوه بالدفاع عن الخائن ، غير أن فضله العظيم على النبي هو الذي صدّه عن فعل ذلك ، وأبطل أمرهم الذي كان سيؤدّي إلى إضلاله .

وبما أن رعاية الله سبحانه وفضله الجسيم على النبي ليسا مقصورين على حال دون حال ، أو وقت دون آخر ، بل هو مشمول لهما ومحاط بهما في جميع لحظات حياته ، فلن يصيبه من إضلالهم شيء ، وإنما يضرّون بذلك أنفسهم ، كما قال عز وجل : ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

والفقرة الثانية تشير إلى مصادر حكمه ومدارك قضائه ، وأنه لا يصدر في هذا المجال إلا عن التعليم الإلهي .

ولما كان هذا النوع من العلم الكلّي أحد ركني القضاء ، وهو لوحده لا يفي بالقضاء بالحق ، وإنما يتمّ القضاء بالحق بتميز الصغريات ، وهو تشخيص الحق من المَبْطَل ، والخائن من الأمين ، والزاني من العفيف ، أتى بالفقرة الثالثة ، فقال : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ . ومقتضى العطف ، مغايرة المعطوف (وَعَلَّمَكَ . .) للمعطوف عليه (وأنزل . .) فإذا كان المعطوف عليه ناظراً إلى تمكّنه من الركن الأول - وهو العلم بالإحكام الكلية الواردة في الكتاب والسنة - يكون المعطوف ناظراً إلى الركن الثاني للقضاء الصحيح وهو العلم بالموضوعات والجزئيات .

فالعلم بالحكم الشرعي أولاً ، وتشخيص الصغريات وتمييز الموضوعات ثانياً ، جناحان للقاضي يخلّق بهما في سماء القضاء بالحق ، من دون أن يجنح إلى جانب الباطل أو يسقط في هوة الضلال . والفقرة الأولى تشير إلى الجانب الأول ، والثانية إلى الثاني .

ومجمل ما تقدم أن الآية الأولى تدلّ على أن الهدف من إنزال الكتاب ، القضاء بين الناس بما أراه الله سبحانه ، ولا يمكن أن يكون ما أراه سبحانه أمراً خاطئاً ، بل هو صواب على الإطلاق ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر إن القضاء بالحق - الذي هو الغاية المتوخاة من إنزال

الكتاب - تتوقف على العلم بالكبريات والصغريات ، وهو ما أشارت إلى تحقيقه في النبي ، الفَقَرَتان الثانية والثالثة من الآية الثانية .

قال العلامة الطباطبائي* : « المراد من قوله سبحانه : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ ، ليس علمه بالكتاب والحكمة ، فَإِنَّ مورد الآية قضاء النبي في الحوادث الواقعة ، والدعاوى المرفوعة إليه ، برأيه الخاص ، وليس ذلك من الكتاب والحكمة بشيء ، وإن كان متوقفاً عليهما ، بل المراد رأيه ونظره الخاص » (١) .

فَيَنْتِجُ كُلُّ ذَلِكَ أَنَّ النبي - لأجل عميم فضله سبحانه - مصون في مقام القضاء عن الخطأ والسهو .

ولما كان هنا موضع توهم وهو أَنَّ رعاية الله لِنَبِيِّه تَخْتَصُّ بموردٍ دون مورد ، دفع ذلك التوهم بالفقرة الرابعة وقال : ﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ حتى لا يتوهم اختصاص فضله عليه بواقعة دون أخرى ، بل مقتضى عظمة الفضل سعة شموله لكل الوقائع والحوادث ، سواء أكانت من باب المرافعات أم من الأمور العادية الشخصية .

ولا كلام أعلى وأغزر عاطفة من قوله سبحانه في حق حبيبه : ﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ .

الآية الثانية - قال سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً . . ﴾ (٢) .

إِنَّ الشهادة الواردة في الآية ، من الحقائق القرآنية التي تكرر ورودها في الذكر الحكيم .

قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ (٣) .

(١) الميزان ، ج ٥ ، ص ٨١ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

(٣) سورة النساء : الآية ٤١ .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ... ﴾^(٢) .

وهذه الشهادة يتحملها الشهداء في الدنيا ويؤدونها في الآخرة ، ويدل على ذلك :

قوله سبحانه : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾^(٣) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾^(٤) .

فمجموع هذه الآيات يدل على أن في كل أمة شهداء على أعمالها ، وأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله على رأسهم ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر ، إن الشهادة هنا ليست على صور الأعمال والأفعال ، فإنها غير كافية في القضاء الأخروي ، بل المشهود عليه هو حقائق أعمال الأمة : الإيمان والكفر والنفاق ، والرياء والإخلاص . . . ومن المعلوم أن هذه المشهودات لا يمكن تشخيصها والشهادة عليها عن طريق الحواس الخمس ، لأنها لا يمكنها أن تستكشف حقائق الأعمال ، وما يستبطنه الإنسان . فيجب أن يكون الأنبياء بمجهزين بحسّ خاص يقدرّون معه على الشهادة على ما لا يُدرك بالبصر ولا بسائر الحواس ، وهذا هو الذي نسميه بحبل العصمة ، وكل ذلك بأمر من الله سبحانه وإذنه ، والمُجهَّز بهذا الحس لا يخطيء ولا يسهو .

وإن شئت قلت : إن الشهادة هنا ، لو كانت خاطئة ، للزم عقاب المطيع أو إثابة المجرم ، وهو قبيح عقلاً ، لا سيما الأول ، فيجب أن تكون شهادة الشاهد

(١) سورة النحل : الآية ٨٤ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٦٩ .

(٣) سورة المائدة : الآية ١١٧ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٥٩ .

مصونة عن الخطأ والإشتباه حتى تكون منزهة عما يترتب عليهما من القبيح .
وهذه الآيات ، وإن كانت لا تثبت إلا مصونيته فيما يرتبط بالشهادة ، ولكن
التفصيل غير موجود في كلمات القوم .
تبيين إلى هنا أن الأنبياء - بحكم العقل والكتاب - مصونون عن الخطأ ،
والزلل في تطبيق الشريعة أولاً ، وجميع أمورهم الفردية والاجتماعية ثانياً .

* * *

أدلة المجوزين للخطأ على الأنبياء

جوز جماعة من المتكلمين الخطأ والإشتباه على الأنبياء ، واستندوا في ذلك
إلى آيات ، غفلوا عن أهدافها . ونحن نذكرها على وجه نفي الستر عنها .
١ - قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ
حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

فقد استدلل بها المخطئة بأن الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله ، فالنتيجة أن
النبي ربما يطرأ عليه النسيان ، وهو لا يجتمع مع المصونية من الخطأ .
إلا أنهم غفلوا عن أن وزن الآية وزان كثير من الآيات الأخر التي يخاطب
فيها النبي ولكن يكون المقصود من الخطاب أبناء الأمة .

ومن هذا القبيل ، قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) . فإن هذه الآية
- ونظائرها - تركز على الجانب التربوي من الشريعة ، والغاية منها تعريف الناس
بوظيفتهم وتكليفهم تجاه الباري سبحانه ، ببيان أن نبي الأمة إذا كان محكوماً بهذه

(١) سورة الأنعام : الآية ٦٨ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٦٥ .

التكاليف ومخاطباً بها ، فغيره أولى بأن يكون محكوماً بها . وهذه الآيات تجري مجرى قول القائل : « يَاكَ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةَ » .

فالمراد من الآية المستدل بها هو حث المؤمنين على اجتناب الحضور في المجالس التي يخاض فيها في آيات الله سبحانه . فالنهي عن الخوض تكليفاً عام يشترك فيه النبي وغيره ، وكون الخطاب للنبي لا ينافي كون المقصود هو الأمة . ويدل على ذلك قوله سبحانه في سورة النساء : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا ، وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ﴾ (١) .

فإن هذه الآية مدنية ، والآية المستدل بها مكية ، وإذا قورنت إحداها بالأخرى يستنتج منه أن الحكم النازل سابقاً متوجه إلى المؤمنين ، وأن الخطاب فيه وإن كان للنبي ، إلا أن المقصود إنشاء حكم كلي شامل لجميع المكلفين من غير فرق بين النبي وغيره . ومع ما ذكرناه ، لا يكون في الآية دلالة على تحقق النسيان من النبي ، لأنها إنما تدل لو كان الخطاب مختصاً بالنبي لا يتعداه .

٢ - قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ * وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ (٢) .

المراد من النسيان الإستثناء ، وهو قول « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . والآية استدلالاً وجواباً - كسابقها .

٣ - قال سبحانه : ﴿ سَتَقَرُّوْكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ (٣) .

ومعنى الآية : إنا سنجعلك قارئاً بإلهامك القراءة ، فلا تنسى ما تقرؤه .

(١) سورة النساء : الآية ١٤٠ .

(٢) سورة الكهف : الآيتان ٢٣ و ٢٤ .

(٣) سورة الأعلى : الآيتان ٧ و ٦ .

استدلّت المخطئة بالإستثناء الوارد بعدها على إمكان النسيان ، غير أنهم غفلوا عن نكتة الإستثناء ، وهي عين النكتة في الإستثناء الوارد في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾^(١) .

إنّ قوله سبحانه : ﴿ عطاءٌ غير مجذوذ ﴾ ، يدلُّ على أنّ الخلود في الجنة لا يقطع ولا يُجَزَّ ، بل هو عطاءٌ موصول من الربِّ ، ما دامت الجنة باقية ، ومع ذلك استثنى سبحانه الخلود بقوله : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ ﴾ . وليس ذلك لأنّ الخلود يُقطع ، بل للإشارة إلى أنّ قدرة الله سبحانه بعد إدخالهم الجنة باقية بعدد ، فالله سبحانه - مع كونهم مخلّدين في الجنة - قادر على إخراجهم منها .

وعلى ما ذكرنا يعلم وجه الإستثناء في الآية التي وقعت مورد الإستدلال ، فإنّه يفيد بقاء القدرة الإلهية على إطلاقها ، وأنّ عطية الله (جعل النبي قارئاً لا ينسى) لا تسلب القدرة عن الله سبحانه على إنسانه ، بل هو عليه قادر متى شاء ، وإن كان لا يشاء ذلك .

وبدراسة هذه الآيات التي قدمناها ، تقف على تحليل كثير من الآيات التي تُسبب فيها النسيان إلى غير النبي الأعظم من الأنبياء ، مثل قوله سبحانه :

أ - ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ قَنَسِي وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾^(٢) .

ب - ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا نَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حَوَّتُهُمَا . . ﴾^(٣) الوارد في موسى وفتاه .

ج - ﴿ . . . لا تؤاخذني بما نسيت . . ﴾^(٤) وهو قول موسى للخضر .

وغير ذلك من الآيات^(٥) .

(١) سورة هود : الآية ١٠٨ .

(٢) سورة طه : الآية ١١٥ .

(٣) سورة الكهف : الآية ٦١ .

(٤) سورة الكهف : الآية ٧٣ .

(٥) قد أجهل الأستاذ - دام ظلّه - الكلام هنا في هذه الآيات ، فنحن نستدرك البحث فيها بما يرفع الستار عن وجهها ، ونجعله في ملحق خاص آخر الكتاب .

الرأي السائد بين المتكلمين حول سهو النبي

الظاهر من المتكلمين الأشاعرة والمعتزلة ، تجويزهم السهو على الأنبياء إجمالاً ، إمّا في مقام إبلاغ الدين ، كالباقلائي^(١) ، وإمّا في غيره كما عليه غيره . قال الإيجي في المواقف .

« أمّا الكبائر عمدًا ، فمنعه الجمهور ، والأكثر على امتناعه سمعًا . وقالت المعتزلة - بناءً على أصولهم - يمتنع ذلك عقلاً . وأمّا سهوًا فجوزه الأكثرون .

. وأمّا الصغائر عمدًا ، فجوزه الجمهور إلّا الجبائي . وأمّا سهوًا فهو جائز إتفاقًا ، إلّا الصغائر الخسيسة ، كسرقة حبة أو لقمة »^(٢) .

وجوّز القاضي عبد الجبار صدور الصغائر منهم عمدًا ، قال في شرح الأصول الخمسة : « وأمّا الصغائر التي لا حظّ لها إلّا في تقليل الثواب دون التنفير ، فإنّها مجوّزة على الأنبياء ولا مانع يمنع منها »^(٣) .

فلذا كانت الكبائر من الذنوب جائزة عليهم سهوًا عند الأكثر ، أو كان صدور الصغائر منها جائزاً عليهم سهوًا بالإتفاق ، بل عمدًا عند القاضي عبد الجبار كما تقدم في كلامه ، فمن الأولى أن يجوزوا عليهم السهو في غير الذنوب ، أعني في مجال تطبيق الشريعة أو أعمالهم الفردية والاجتماعية ، كيف لا وقد روى الجمهور في الصحاح والمسانيد وقوع السهو من النبي ، كما يجيء بيانه ونقاشه .

وأمّا الإمامية ، فالمحققون منهم متفقون على نفي السهو عن الأنبياء مطلقاً حتى في تطبيق الشريعة كالصلاة ، وإليك فيما يلي نقل نصوصهم في هذا الشأن .

(١) قد مرّ نصّ كلام صاحب المواقف في هذا المحال عند البحث في المرحلة الثانية من مراحل العصمة ، وهي عصمة الأنبياء في تبليغ الرسالة ، فلاحظ .

(٢) المواقف ، ص ٣٥٩ .

(٣) شرح الأصول الخمسة ، ص ٥٧٥ .

قال الشيخ المفيد^(١) في رسالته التي يرد فيها على مَنْ ذَهَبَ إلى تجويز السهو على النبي والأئمة في العبادة ما هذا لفظه :

« الحديث الذي روته الناصبة والمقلدة من الشيعة أَنَّ النبي سهى في صلاته فسَلَّمَ ركعتين ناسياً ، فلما نُبِّه على سهوه أضاف إليهما ركعتين ثم سجد سجدي السهو ، من أخبار الأحاد التي لا تثمر علماً ولا توجب عملاً »^(٢) .

وقال الشيخ الطوسي^(٣) بعدما روى حديث أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله ما سجد سجدي السهو قط ، قال بأنَّ الذي يفتي به هو ما تضمنه هذا الخبر ، لا الأخبار التي قَدَّم ذكرها وفيها أَنَّ النبي سهى فسجد^(٤) .

وقال المحقق^(٥) في المختصر النافع : « والحقُّ رفع منصب الإمامة عن السهو في العبادة »^(٦) ورفع منصب الإمامة عنه السهو يقتضي رفع منصب النبوة عنه .

وقال المحقق الطوسي^(٧) في التجريد : « ويجب في النبي العصمة ليحصل الوثوق فيحصل الغرض . . . (يجب) كمال العقل ، والذكاء والفطنة ، وقوَّة لرأي ، وعدم السهو »^(٨) .

وقال العلامة^(٩) في التذكرة ما هذا لفظه : « وَخَبَرُ ذِي الْيَدَيْنِ عِنْدَنَا باطل ، لأنَّ النبي المعصوم لا يجوز عليه السهو »^(١٠) .

(١) هو الشيخ محمد بن محمد بن النعمان البغدادي ، ت ٣٣٨ - م ٤١٣ .

(٢) التنبيه بالمعلوم من البرهان ، تأليف الشيخ الحرَّ العاملي ، ص ٧ .

(٣) محمد بن الحسن الطوسي ، ت ٣٨٥ - م ٤٦٠ .

(٤) التهذيب ، ج ٢ ، ص ٣٥١ .

(٥) أبو القاسم جعفر بن الحسن الحلبي ، ت ٦٠٢ - م ٦٧٦ .

(٦) المختصر النافع ، ص ٤٥ .

(٧) نصير الدين محمد بن محمد الحسن الطوسي ، ت ٥٩٧ - م ٦٧٢ .

(٨) شرح التجريد ، ص ١٩٥ .

(٩) الحسن بن يوسف الحلبي ، ت ٦٤٨ - م ٧٢٦ .

(١٠) تذكرة الفقهاء ، ج ١ ، ص ١٣٠ ، في مسألة وجوب ترك الكلام بحرفين فصاعداً عما ليس بقرآن ولا دعاء .

وقال أيضاً في الرسالة السَّعْدِيَّة : « لو جاز عليه السهو والخطأ ، لجاز ذلك في جميع أقواله وأفعاله ، فلم يبق وثوق بإخباراته عن الله تعالى ، ولا بالشرائع والأديان ، لجواز أن يزيد فيها وينقص ، فتنتفي فائدة البعثة ، ومن المعلوم بالضرورة أنَّ وصف النبي بالعصمة أكمل وأحسن من وصفه بضعدها ، فيجب المصير إليه ، لما فيه من دفع الضرر المظنون بل المعلوم »^(١) .

وقال الشهيد الأول^(٢) في الذكرى ، بعد ذكره خبر ذي اليمينين : « وهو متروك بين الإمامية لقيام الدليل العقلي على عصمة النبي عن السهو »^(٣) .

وقال الفاضل المقداد^(٤) : « لا يجوز على النبي صلى الله عليه وآله السهو مطلقاً ، أي في الشرع وغيره . أمّا في الشرع ، فلجواز أنَّ لا يؤدي جميع ما أمر به ، فلا يحصل المقصود من البعثة . وأمّا في غيره ، فإنه يُنْفَرُ »^(٥) .

وقال الشيخ بهاء الدين العاملي^(٦) - عندما سأله سائل عن قول ابن بابويه إنَّ النبي قد سهى - : « بل ابن بابويه قد سهى ، فإنه أولى بالسهو من النبي »^(٧) .

وقد ألّف غير واحد من الأصحاب كتباً ورسائل في نفي السهو عن النبي منها : رسالة الشيخ المفيد^(٨) ، ورسالة إسحاق بن الحسن الأقراشي^(٩) ، ورسالة الحر العاملي^(١٠) المُسمّاة بـ « التنبيه بالمعلوم من البرهان على تنزيه المعصوم عن السهو النسيان » . وقد فصل العلامة المجلسي (م ١١١١) في البحار ، الكلام في

(١) الرسالة السَّعْدِيَّة ، ص ٧٦ ، طبعة النجف .

(٢) محمد بن مكي العاملي ، ت ٧٣٤ - م ٧٨٦ .

(٣) الذكرى ، ص ١٣٤ .

(٤) أبو عبد الله المقداد بن عبد الله الأسدي السيوري الحلبي ، م ٨٢٦ .

(٥) إرشاد الطالبين ، ص ٣٠٥ .

(٦) محمد بن الحسين بهاء الدين العاملي ، ت ٩٥٣ - م ١٠٣٠ .

(٧) التنبيه على المعلوم من البرهان ، ص ١٣ .

(٨) أدرجها العلامة المجلسي في البحار ، لاحظ ج ١٧ ، ص ١٢٢ - ١٢٩ .

(٩) رجال النجاشي ، رقم الترجمة ١٧٨ .

(١٠) محمد بن الحسن الحر العاملي ، المحدث المعروف ، م ١١٠٤ .

المسألة ، واطنب في بيان شدوذ تلك الأخبار التي استند إليها القائلون بالسهو^(١) وناقشها بأدلة متعددة السيد عبد الله شبر (ت ١١٨٨ - م ١٢٤٢) في كتابه : حق اليقين^(٢) ومصابيح الأنوار^(٣) .

نعم هناك من الإمامية من جَوَّز السهو على النبي ، وإليك نصوصهم :

١ - قال محمد بن الحسن بن الوليد^(٤) : « أول درجة في الغلو ، نفي السهو عن النبي صلى الله عليه وآله ، فلو جاز أن تُردَّ الأخبار الواردة في هذا المعنى ، لجاز أن تردَّ جميع الأخبار ، وفي ردّها إبطال الدين والشرعة ، وأنا أحتسب الأجر في تأليف كتاب منفرد في إثبات سهو النبي والردُّ على منكريه إن شاء الله تعالى »^(٥) .

٢ - قال الصدوق^(٦) : « إنَّ الغلاة والمفوضة - لعنهم الله - ينكرون سهو النبي ، ويقولون : لو جاز أن يسهو في الصلاة ، لجاز أن يسهو في التبليغ ، لأنَّ الصلاة عليه ، فريضة ، كما أنَّ التبليغ عليه فريضة » .

ثم ردَّ عليه بأنَّ سهو النبي ليس كسهونا ، لأنَّ سهوه من الله عز وجل ، وإنَّما أسهأه ليعلم أنه بشر مخلوق ، فلا يتخذ رباً معبوداً دونه . وليعلم الناس بسهوه حُكَم السهومي سها . وسهونا من الشيطان ، وليس للشيطان على النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام سلطان ، ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾^(٧) و^(٨) .

٣ - وقال الطبرسي^(٩) في تفسير قوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّمَا يَنسِيْنَكَ

(١) البحار ، ج ١٧ ، الباب ١٦ ، ص ٩٧ - ١٢٩ .

(٢) حق اليقين ، ج ١ ، ص ١٢٤ - ١٢٩ .

(٣) مصابيح الأنوار ، ج ٢ ، ص ١٣٣ .

(٤) محمد بن الحسن بن الوليد القمي ، من مشايخ الصدوق ، متوفى عام ٣٤٣ .

(٥) من لا يحضره الفقيه ، ج ١ ، ص ٣٦٠ .

(٦) محمد بن علي بن الحسين بن بابويه ، ت ٣٠٦ - م ٣٨١ .

(٧) سورة النحل : الآية ١٠٠ .

(٨) من لا يحضره الفقيه ، ج ١ ، ص ٣٦٠ .

(٩) الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي ، ت ٤٧٠ - م ٥٣٨ .

الشَّيْطَانُ . . ﴿ : » نُقِلَ عَنِ الْجَبَائِي أَنَّهُ قَالَ : فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى بَطْلَانِ قَوْلِ الْإِمَامِيَّةِ فِي أَنَّ النِّسْيَانَ لَا يَجُوزُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ .

ثُمَّ أَجَابَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : « وَهَذَا الْقَوْلُ غَيْرُ صَحِيحٍ ، لِأَنَّ الْإِمَامِيَّةَ لَا يَجُوزُونَ السَّهْوَ عَلَيْهِمْ فِيمَا يُؤَدُّونَهُ عَنِ اللَّهِ ، فَأَمَّا مَا سِوَاهُ ، فَقَدْ جَوَّزُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْسُوهُ أَوْ يَسْهَوْا عَنْهُ ، مَا لَمْ يُوَدِّ ذَلِكَ إِلَى إِخْلَالِ بِالْعَقْلِ »^(١) .

إِلَى هُنَا وَقَفْتُ عَلَى أَنَّ الْمَشْهُورَ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْإِمَامِيَّةِ هُوَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ دُونَ الثَّانِي الَّذِي هَجَرَ بَعْدَ الطَّبْرَسِيِّ ، وَلَمْ يَنْبُثْ بِهِ أَحَدٌ ، إِلَّا بَعْضَ الْمَشَائِخِ الْمَعَاصِرِينَ^(٢) ، فَعَمِدَ إِلَى جَمْعِ الرِّوَايَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى طَرْوِ السَّهْوِ وَالنِّسْيَانِ عَلَى النَّبِيِّ وَالْأَئِمَّةِ . وَلَعَلَّهُ جَامِعٌ غَيْرُ مَعْتَقَدٍ بِهِ .

وَالْقَضَاءُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ يَتَوَقَّفُ عَلَى نَقْلِ بَعْضِ مَا أَثَرُ مِنَ الرِّوَايَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى سَهْوِ النَّبِيِّ وَمُنَاقَشَتِهَا :

١ - رَوَى الشَّيْخَانُ (الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ) وَأَبُو دَاوُدَ - وَاللَّفْظُ لِلْأَخِيرِ - عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حَصِينٍ (رَضِيَ) : « إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ فِي مَسِيرِهِ ، فَنَامُوا عَنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، فَاسْتَيْقَظُوا بِحَرِّ الشَّمْسِ ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : تَنَحَّوْا عَنْ هَذَا الْمَكَانِ ثُمَّ أَمْرٌ بِلَا لَأَفَأَذِّنُ ثُمَّ تَوَضَّؤُوا وَصَلُّوا رَكْعَتِي الْفَجْرِ »^(٣) . ثُمَّ أَمْرٌ بِلَا لَأَفَأَقَامَ الصَّلَاةَ ، فَصَلَّى بِهِمْ صَلَاةَ الصُّبْحِ »^(٤) .

وَرَوَى الشَّيْخُ الصَّدُوقُ نَحْوَهُ^(٥) .

(١) مَجْمَعُ الْبَيَانِ ، ج ٧ ، ص ٣١٧ .

(٢) وَهُوَ الْعَلَمَةُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ تَقِي التَّسْتَرِي مُؤَلِّفُ قَامُوسِ الرِّجَالِ . وَقَدْ أَدْرَجَ الرِّسَالَةَ فِي الْجُزْءِ الْخَادِي عَشَرَ مِنْ كِتَابِهِ .

(٣) الْمُرَادُ نَافِلَةٌ فَرِيضَةُ الصُّبْحِ .

(٤) النَّجَاحُ الْجَامِعُ لِلْأَصُولِ فِي أَحَادِيثِ الرِّسُولِ ، ج ١ ، ص ١٢٠ .

(٥) مِنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيهَ ، ج ١ ، ص ٣٦٠ ، رَقْمُ الْحَدِيثِ الْمَتَسَلِّسِلِ ١٠٣١ وَفِي السَّنَدِ « الرِّبَاطِيُّ » . فَإِنَّ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ عَلِيُّ بْنُ رِبَاطِ الْبُجَلِيِّ الْكُوفِيِّ ، لَقَرِينَةُ رَوَايَةِ الْحَسَنِ بْنِ مَحْبُوبٍ عَنْهُ ، فَهُوَ ثِقَةٌ وَارْوَايَةُ مَعْتَبَرَةٌ .

٢ - روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة قال : « صَلَّى لنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) صلاة الفجر ، فسَلَّم في ركعتين . فقام ذو اليمين فقال : أقصرت الصلاة يا رسول الله أم نسيت ؟ » .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : كلُّ ذلك لم يكن .

فقال : قد كان بعض ذلك يا رسول الله ! .

فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله على الناس فقال : أصدق ذو اليمين ؟ .

فقالوا : نعم ، يا رسول الله .

فأتى رسول الله ما بقي من الصلاة ، ثم سجد سجدتين وهو جالس بعد التسليم « (١) »

وروى نحوه الكليني بسند معتبر (٢) .

وبعد تقديم هذين النموذجين من الروايات نقول : إنَّ الحق هو نفي السهو عن النبي ، وعدم الإعتداد بهذه الروايات لوجه :

الوجه الأول - إنَّ هذه الروايات معارضة لظاهر القرآن الدالَّ على أنَّ النبي مصونٌ عن السهو ، على ما عرفت .

الوجه الثاني - إنَّ هذه الروايات معارضة لأحاديث كثيرة تدلُّ على صيانة النبي عن السهو . وقد جمعها المحدث الحرَّ العاملي في كتابه (٣) .

الوجه الثالث - إنَّ ما روته الإمامية من أخبار السهو ، أكثر أسانيده ضعيفة ، وأمَّا النقي منها فهو خبر واحد لا يصحَّ الإعتداد عليه في باب

(١) التاج ، ج ١ ، ص ١٩٦ ، ولاحظ جامع الأصول ، ج ٦ ، ص ٣٥٠ ، الرقم المتسلسل ٣٧٦٢ .

(٢) الكافي ، ج ٣ ، ص ٣٥٥ ، باب من تكلم في صلاته ، الحديث الأول .

(٣) لاحظ التنبيه بالمعلوم من البرهان ، ص ٢٦ - ٤٤ .

لأصول^(١)

الوجه الرابع - إنها معارضة للأدلة العقلية التي تقدم ذكرها .

وأما ما رواه أصحاب الصحاح ، فمع غرض النظر عن أسناده ، فإنه مضطرب جداً في متونه ، وذلك :

١ - فقد روى البخاري : صَلَّى رسول الله (صلى الله عليه وآله) الظهر ركعتين فقليل صَلَّى ركعتين . فصلَّى ركعتين . . . الخ .

٢ - وفي رواية أخرى له : صَلَّى بنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) الظهر والعصر ركعتين ، فسَلَّمَ . فقال له ذو اليدين : الصلاة يا رسول الله ، أنقصت ؟ . . . الخ .

٣ - وروى مسلم عن أبي هريرة ، يقول : صَلَّى لنا النبي (صلى الله عليه وآله) صلاة العصر ، فسَلَّمَ في ركعتين ، فقام ذو اليدين فقال : أقصرت الصلاة يا رسول الله أم نسيت ؟ . فقال : كل ذلك لم يكن . . . الخ .

٤ - وفي رواية أخرى له : إِنَّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) صَلَّى ركعتين من صلاة الظهر ثم سَلَّمَ ، فأتاه رجل من بني سُلَيْم ، فقال : يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت . . . الخ .

٥ - وروى البخاري وأبو داود ومسلم عن عمران بن حصين أَنَّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) صَلَّى العصر وسَلَّمَ في ثلاث ركعات ودخل منزله فقام له رجل يقال له الخرباق وكان في يده طول . . . الخ .

٦ - أخرج أبو داود ، قال : صَلَّى بنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) أحد صلاتي العشاء - الظهر أو العصر - قال فصلَّى بنا ركعتين ثم سَلَّمَ ، فقام إلى خشبة في مقدم المسجد فوضع يده عليها ، إحداهما على الأخرى ، يعرف في وجهه

(١) وقد قام الشيخ الحرّ العاملي - قدس سرّه - بتحقيق لمسانيد تلك الروايات وبيان ضعفها . لاحظ ص ٦٤ - ٦٦ من المصدر السابق نفسه .

الغضب ، ثم خرج سرعان الناس وهم يقولون : قصرت الصلاة ، قصرت الصلاة . وفي الناس أبو بكر وعمر ، فهابا أن يكلماه . وقام رجل كان رسول الله يسميه ذا اليمين ، فقال : يا رسول الله ، أنسيت أم قصرت الصلاة ؟ فقال : لم أنس ولم تقصر الصلاة . قال : بل نسيت يا رسول الله ! فأقبل رسول الله على القوم فقال : أصدق ذو اليمين . فأومأوا : أي نعم . فرجع رسول الله إلى مقامه ، فصلّى الركعتين الباقيتين ثم سلّم . الخ .

٧ - وأخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال : « صلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فزاد أو نقص - شك بعض الرواة - والصحيح أنه زاد ، فلما سلّم قيل له يا رسول الله ، أحدث في الصلاة شيء ؟ قال : وما ذاك ؟ قالوا : فإنك صليت خمسا . فانفتل ثم سجد سجدين ثم سلّم » .

وفي أخرى لمسلم قال : « صلى بنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) خمسا ، فقلنا يا رسول الله ، أزيد في الصلاة ؟ قال : وما ذاك ؟ قالوا : صليت خمسا ، فقال : إنما أنا بشر مثلكم ، أذكر كما تذكرون وأنسى كما تنسون . الخ .

وروى الترمذي نحوها مع قوله : « صلى الظهر خمسا » . وأخرجه أبو داود والترمذي .

فيلاحظ فيما ذكرناه ما يلي :

أولاً - اضطراب الروايات في تعيين الصلاة التي سهى فيها رسول الله ، فهي بين معينة للظهر (الرواية الأولى والرابعة) أو معينة للعصر (الثالثة والخامسة) ، أو مُرددة بينهما (الثانية والسادسة) .

وثانياً - إن الرواية الخامسة تدلّ على نسيانه ركعة واحدة ، بخلاف السابعة فتدلّ على زيادته ركعة ، وبخلاف بقية الروايات فتدلّ على نسيانه ركعتين .

وثالثاً - قوله : « لم أنس ولم تقصر الصلاة » ، في الرواية الخامسة . أو قوله في الثالثة : « كل ذلك لم يكن » ، غير لائق بالرسول ، لأنّه لو كان يجوز على نفسه السهو لما نفاه عن نفسه بنحو القطع ، بل لقال : أظنّ أنّه لم يكن كذلك .

ورابعاً - إن إنكاره قول ذي اليمين مستلزم لتجوز سهوين عليه ، مكان تجوز سهو واحد ، وهو أيضاً عجيب في مورد واحد .

وخامساً - الظاهر أن سهو الرسول في الصلاة ، واقعة واحدة ، فاختلف السهويين ، الزيادة والنقصية ، واختلاف الاعتراض بين قولهم : « أَقْصَرَتِ الصَّلَاةُ أَمْ نَسِيتَ ؟ » ، وقولهم « أَزِيدَ فِي الصَّلَاةِ ؟ » ، كما في رواية الترمذي من القسم السابع من الروايات ، تناقض واضح .

وسادساً - اضطراب الروايات في بيان زمن التذكير ، فإن في بعضها أنه كان بعد الصلاة بلا فصل ، وفي أخرى بعد قيامه من الصلاة واستناده إلى خشبة في المسجد ، وفي ثالثة بعد دخوله حجرته . فما هذا التناقض مع كون الواقعة واحدة كما يظهر من مجموع ما تهدف إليه الروايات .

وسابعاً - في ذيل الرواية الخامسة ، أنه بعدما ذكر ذو اليمين صنع رسول الله من السهو : فخرج غضبان يجرّ رداءه حتى انتهى إلى الناس فقال : أصدق هذا ، قالوا : نعم . فصلّى ركعة ثم سجد سجدين .

ففي هذه الرواية ذكر الغضب بعد تنبيه ذي اليمين ، بينما في الرواية التي أخرجها أبو داود أن الغضب كان متقدماً على تنبيهه .

وثامناً - ما منشأ غضب رسول الله ؟ هل هو تنبيه ذي اليمين ؟ لا وجه له . مع أن الغضب لهذا الشأن لا يناسب قوله سبحانه في حق نبيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خُلِقْتَ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

وَيُجْمَلُ الْمَقَالُ إِنَّ هَذِهِ الرِّوَايَاتُ (٢) مَعَ مَا فِيهَا تَمَّا ذَكَرْنَاهُ وَلَمْ نَذْكُرْهُ ، لَا يَصَحُّ أَنْ تَقَعَ سَنَاداً لِلْعَقِيدَةِ .

* * *

(١) سورة القلم : الآية ٤ .

(٢) لاحظ مجموع ما نقلناه من مقاطع الروايات ، جامع الأصول ، ج ٦ ، ص ٣٤٦ - ٣٥٧ .

سمات الأنبياء

(٢)

التنزّه عن المنفّرات

قد وقفت فيما تقدم على أنّ قيادة الناس وهدايتهم ، من الأمور الصعبة التي تتطلب في المدير والقائد أن يتمتع بصفات عالية تسهّل توفيقه للغرض الذي بعث له ، أو نهض لتحقيقه . وقد عرفت أنّ مسؤولية هداية البشر في جميع النواحي ملقاة على عاتق الأنبياء ، وأنّ العصمة - بمراتبها - إحدى الصفات اللازمة فيهم . وهناك صفات أخرى يجب اتصاف الأنبياء بها تحصيلاً لغرضهم ، التي لولاها لما وصلوا إليه . ويجمعها التنزّه عن كل ما يوجب تنفر الناس ، والتحلي بكلّ ما يوجب انجذابهم إليهم . ونحن نشير إلى بعض عناوين هذه الصفات مع تفسيرها إجمالاً .

١ - التنزّه عن دناءة الآباء وعهر الأمهات

لا شك أنّ القائد إذا كان وليد بيت طيب طاهر ، مغرورٍ بالعفاف والتقى ، فإنّ ذلك يكون له تأثيره الخاص في انسياق الناس وميلهم إليه . بخلاف ما إذا كا وليد بيت صفرٍ من القيم الأخلاقية سواء في جانب الآباء أو الأمهات ، فإنّ أفئدة الناس تنفض من وليده بحجة أنّ الأبناء يرثون صفات الآباء والأمهات .

٢ - سلامة الخُلُقَة

ومن العوامل الباعثة على اجتماع الناس حول القائد ، سلامته في بدنه من التشوّه ، ومن الأمراض التي يستوحش الناس معها من التعاطي مع المصاب بها ، كالجدام والبرص .

٣ - كمال الخُلُق

إنّ لحسن الخُلُق وكماله تأثيراً خاصاً في جذب الناس ، كما أنّ لِقَسْوَةِ القلب وفظاظة المعاملة تأثيراً في تنفير الناس ، فلهذا يلزم أن يكون الأنبياء في القمة من صفاء النفس ولين الطباع ، والتواضع والنزاهة عن الحسد والتجبر وما شاكل ذلك .

قال سبحانه : ﴿ فِيهَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١) .

٤ - كمال العقل

كما أنّ للعقل سهماً وافراً في حقل القيادة ، فيجب أن يكون الأنبياء على درجة عالية من الذكاء والفطنة والرأي القاطع لا يترددون في أمورهم بعد تبينها . وقد ذكرنا سابقاً قوله عليه السلام . « ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل ، ويكون عقله أفضل من عقول أمته » (٢) .

٥ - حُسْنُ السِّيرَةِ

إنّ البسطاء من الناس - وما أكثر وجودهم في الأمم - ينظرون إلى البواطن

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

(٢) الكافي ، ج ١ ، كتاب العقل والجهل ، الحديث ١١ .

من خلال الظواهر ، فيستكشفون سرائر الأنبياء من ظواهر أفعالهم . ولذلك يجب أن يكون الأنبياء في معاشراتهم مجانبين للأراذل والسفلة وأرباب الهزل ، مبرئين عن المشاحنات والمشاجرات التافهة وغير ذلك مما يسقط شأن القائد في أعين الناس .

وما عددناه من الصفات هنا ، نماذج من الأصل الكلي الذي صدّرنا به البحث وهو اتّصاف الأنبياء بكل ما يوجب توفيقهم في هداية الناس ، الذي هو الغرض من بعثهم . ولعلّ هناك مصاديق أخرى لها دخالة في هذا المضمار ، لم نذكرها فيها ذكرناه .



سمات الأنبياء

(٣)

علم النبي بالمعارف والأحكام

إنَّ الهدف الأسمى من بعث الأنبياء ، هداية الناس إلى المعارف العليا الراجعة إلى المبدأ والمعاد ، وما يضمن سعادتهم في حياتهم الدنيوية والأخروية بالعمل بالأحكام الشرعية . ولأجل تحقق تلك الغاية يشترط أن يكون النبي على كمال المعرفة بتلك المعارف والأحكام ، مُسْتَقِيماً لها من معيها ومصدرها ، معرفة لا جهل فيها ، ولا شك ولا شُبْهة .

وعلى ذلك ليس الأنبياء مجتهدين في استنباط المعارف والأحكام والوظائف العملية ، فإنَّه أمر لا يخلو عن الجهل والإشتباه والخطأ . فما أوهن ما ذكره القوشجي في تصحيح تحريم المتعتين من جانب الخليفة عمر تجاه تحليل النبي لها ، بقوله : « إنَّ ذلك ليس ممَّا يوجب قَدْحاً فيه (الخليفة) ، فإنَّ مخالفة المجتهد لغيره في المسائل الاجتهادية ليس ببدع !! »^(١) .

فيلاحظ عليه

أولاً - إنَّ النصوص القرآنية تضافرت على أنَّ ما يحكم به النبي ، عن وحي إلهي لا يتطرق إليه السهو والخطأ ، كما قال عزَّ من قائل : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ

(١) شرح التجريد للقوشجي ، ص ٤٨٤ .

الهُوى * إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحَى ﴿١﴾

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ (٣) .

وقد حظر الله تعالى على نبيه العجل ولو بحركة لسان ، فقال عز وجل : ﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (٤)

فحينئذ لا يسوغ لأحد مخالفته ولا الاجتهاد في مقابل قضائه وحكمه أصلاً . كيف يكون ذلك ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (٥) .

وقال سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٦) .

إلى غير ذلك من الآيات التي تبعث على طاعة النبي والأخذ بما أتى به ، والإنتهاء عما نهى عنه ، قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (٧) .

فإن كل ذلك يكشف عن أن كل ما يؤدّيه النبي لا يؤدّيه من تلقاء نفسه ،

(١) سورة النجم : الآيتان ٣ و ٤ .

(٢) سورة يونس : الآية ١٥ .

(٣) سورة الأحقاف : الآية ٩ .

(٤) سورة القيامة : الآيات ١٦ - ١٩ .

(٥) سورة الأحزاب : الآية ٣٦ .

(٦) سورة النساء : الآية ٦١ .

(٧) سورة الحشر : الآية ٧ .

ولا دخالة لفكره وشعوره فيه ، وإنما هو إفاضة من ربّ العالمين إلى ذهنه ولوح عقله ليؤدّيه إلى الأمة بلا تصرف ولا تدخّل .

وثانياً - إنّ الإجتهد عبارة عن استفراغ الوسع في فهم حكم الله تعالى من الحجج الأربع ومنها السنّة ، وهي قول النبي وفعله وتقريره . فإذا كان هذا معنى الإجتهد ، فما معنى مخالفة الحجة باسم الاجتهاد . إن هو إلّا اجتهد في مقابل الوحي ، وهو ساقط قطعاً .

* * *

سمات الأنبياء

(٤)

الكفاءة في القيادة

إنَّ القيادة والحكم يقتضيان اعتبار سلسلة من الشروط في القائد والحاكم ، وبدونها تنحرف القيادة عن طريق الحق وتنتهي بالأمّة إلى أسوء مصير .

وقد كانت قيادة الأنبياء على نوعين :

الأول - القيادة المعنوية المحضة ، وهي هداية الأمّة إلى عبادة الله سبحانه وإبعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان ، وإرشادهم إلى وظائفهم أمام الله سبحانه . وهذا القسم لا يشترط فيه من المؤهلات أزيد ممّا أسلفنا سوى الإستقامة في طريق الدعوة والصبر على النائبات ومعاداة المخالفين وأذاهم .

الثاني - القيادة بجميع شؤونها ، وهي هداية الأمّة في حياتها الفردية والاجتماعية ، الدنيوية والأخروية ، كما كان الحال في نبوة الكليم ودّاود وسليمان ، فلم تقتصر دعوتهم على الجهات المعنوية بل قاموا بتشكيل الممالك والدول ونشر دعوتهم بالجهاد بالنفس والنفيس ، ويكفي في ذلك مراجعة ما جاء حولهم في القرآن الكريم .

قال سبحانه : ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ ۚ ﴾ (١) .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥١ .

ومن المعلوم أن القيادة في هذا الإطار الواسع لا تتسنى إلا لمن كان ذا مواهب كثيرة في الإدارة والتدبير وحسن الولاية ، يقدر معها على القيام بتلك المسؤولية .
ويجمعها ما يسميه السياسيون في مصطلح اليوم بالنضج العقلي والرشد السياسي ، وبدونه لن يقوم للحكومة عمود ، ولن يُخَضَّرَ لها عود . ولأجل ذلك أثار عن النبي الأكرم أنه قال : « لا تُصلح الإمامة إلا لرجل فيه ثلاث خصال :

- ١ - ورع يحجزه عن معاصي الله .
- ٢ - وجأء يملك به غضبه .
- ٣ - وحسن الولاية على من يلي حتى يكون كالأب الرحيم »^(١) .

وقال الإمام علي عليه السلام : « أيها الناس إنَّ أحقَّ الناس بهذا الأمر أقومهم » (وفي رواية أقواهم) وأعلمهم بأمر الله ، فإنَّ شَغَبَ شَاغِبٍ اسْتُعْتِيبَ ، وإنَّ أبا قَتِيلٍ »^(٢) .

* * *

ثم إنَّ جمعاً من المتكلمين التزموا بوجود سمات أخرى في الأنبياء وراء ما ذكرنا ، تكوهم أشجع الناس وأعلمهم بالعلوم كافة ، وأزهدهم وأعبدتهم ونحو ذلك .

ولعلَّ هذه الأوصاف من سمات من بعث لكافة الناس وهم على المشهور خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، والنبي الأعظم عليهم السلام . وعلى التحقيق هو نبي الإسلام صلى الله عليه وآله^(٣) .

إلى هنا تمَّ البحث عن النبوة العامة التي تختص أبحاثها بنبوة نبي معين ، وحن وقت البحث عن النبوة الخاصة ، المختصة بمباحثها بنبوة نبي الإسلام ، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله .

* * *

(١) الكافي ، ج ١ ، ص ٤٠٧ .

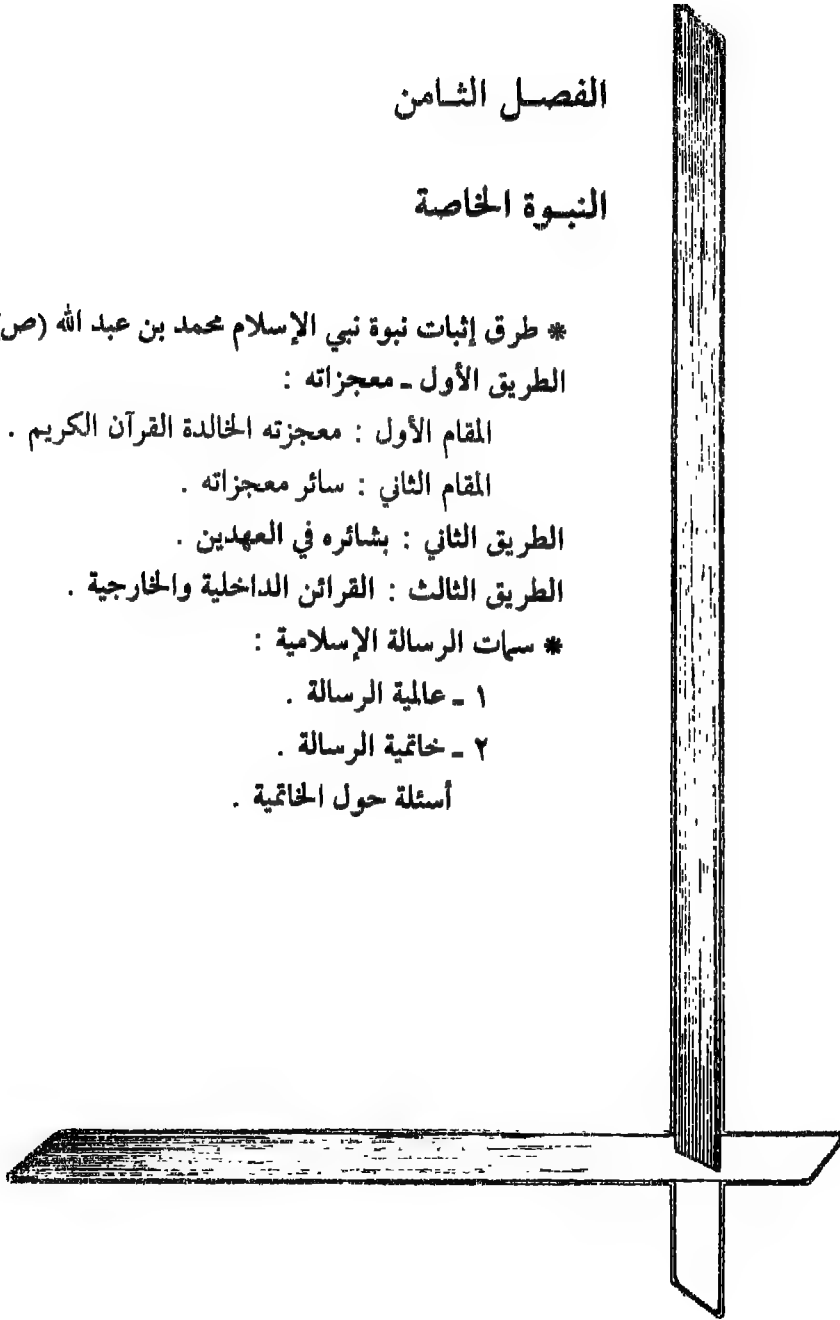
(٢) نهج البلاعة ، الخطبة ١٧٢ .

(٣) لاحظ مفاهيم القرآن ، ح ٣ ، ص ٧٧ - ١١٦ .

الفصل الثامن

النبوة الخاصة

- * طرق إثبات نبوة نبي الإسلام محمد بن عبد الله (ص)
- الطريق الأول - معجزاته :
- المقام الأول : معجزته الخالدة القرآن الكريم .
- المقام الثاني : سائر معجزاته .
- الطريق الثاني : بشائره في العهدين .
- الطريق الثالث : القرائن الداخلية والخارجية .
- * سمات الرسالة الإسلامية :
- ١ - عالمية الرسالة .
- ٢ - خاتمية الرسالة .
- أستلة حول الخاتمية .



الدعوة الإسلامية

١ - ظروفها :

في الوقت الذي عمت سيادة الشرك وعبادة الأصنام أكثر ربوع المعمورة ، وكانت الشعوب المتحضرة في بلاد الفرس والروم تعاني ألوان المظالم والتمييزات الطبقيّة ، وكان العُمال والفلاحون يرزخون تحت ثقل الضرائب المجحفة ، وكان اليأس ملقياً بظلاله السوداء على عامة الشعوب والمَلَل ، وعاد رجال الإصلاح يعيشون مرارة اليأس من كل ثورة منجية .

في هذه الظروف ، قام رجل بين أمة متقهقرة ، تقطن أراض جدداء قاحلة ، ومعشر ليس لهم من الحضارة أي سهم يذكر ، يسفكون دماءهم ويقطعون أرحامهم ، فادّعى النبوة والسفارة من الله الخالق ، على أساس نشر التوحيد ، ورفض الوثنية وعبادة الأصنام ، وإقامة العدل وبسط القسط ، ورفض التمييز وحماية المضطهدين والمظلومين .

٢ - اسم الداعي ونسبه

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، من قبيلة قريش ، وُلِدَ بِمَكَّةَ عام (٥٧٠ م) في بيت عريق في العربية ، مشهور بالكرم والسخاء والستر والعفاف ، أعني به أسرة بني هاشم .

٣ - تاريخ الدعوة

وقد قام بالدعوة في أوائل القرن السابع الميلادي (٦١٠) . وأول ما بدأ به ، دعوة أقربائه وعشيرته ، وقال في دعوتهم : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، والله لَتَمُوتَنَّ كما تنامون ، وَلَتُبْعَثَنَّ كما تستيقظون ، وَلَتَحَاسِبُنَّ بما تعملون ، وإنها الجنة أبدأ ، والنار أبدأ » . ثم قال : « يا بني عبد المطلب ، إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئكم به ، إني قد جئكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله عز وجل ، أن أدعوكم إليه »^(١) .

وبعد سنوات من بدء دعوته - استطاع في أثنائها هداية جمع من عشيرته - وجه دعوته إلى عموم الناس من غير خصوصية بين قبيلته وغيرها ، ووقف على صخرة عند جبل الصفا ، ونادى بصوت عال : « واصباحاه » ، وهي كلمة كانت العرب تطلقها كلما أحسّت بخطر أو بلغها نبأ مرعب ، فكانت هذه الكلمة بمثابة جرس الإنذار بتعميم الدعوة ، فالتفت عندها حوله جموع الناس من أبناء القبائل المختلفة وقالوا له : « مالك ؟ » .

فقال : « رأيتمكم ، إن أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ العدو مصبحكم أو ممسيكم ، ما كنتم تصدقوني ؟ » .
قالوا : « بلى » .

قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .
ثم قال : « إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَى الْعَدُوَّ انْطَلَقَ يَرِيدُ أَهْلَهُ ، فَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ إِلَى أَهْلِهِ ، فَجَعَلَ يَهْتَفُ ، وَاصْبَاحَاهُ »^(٢) .

ثم استمر في رسالته ، يدعو قومه إلى التوحيد ورفض الأصنام ، وأن وراء هذه الحياة ، حياة دائمة غير دائرة ، والناس بين مؤمن به مفاد بنفسه ونفيسه ،

(١) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٦٢ - ٦٣ . والكامل ج ٢ ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٢) السيرة الدحلانية ، بهامش السيرة الحلبية ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

عدو يناديه ويتحين الفرص للفتك به وقتله ، فلما أحسَّ بالخطر ، غادر موطنه مكة إلى مدينة يثرب ، فأقام هناك سنين عشرة ، لقي فيها من أهل يثرب عطفاً ومودة والتفافاً حوله ، وإيماناً به وتفانياً دون دعوته بأموالهم وأنفسهم ، فصار ذلك سبباً لنشر دعوته في شبه الجزيرة العربية وخارجها عبر بعث رسله وموفديه ، فكان النجاح حليفه ، إلى أن أجاب داعي الموت تاركاً أمة كبيرة مؤمنة ، موحدة ، وشريعة ذات نظم وسنن وطقوس ، وذلك في العام ٦٣٣ ميلادية .

ولم تنكمش دعوته بعد وفاته ، بل سرعان ما انتشرت في أكثر ربوع المعمورة ، بفضل اتقان دينه ، وجهاد معتنقي دعوته .

٤ - سمات الدعوة

يمكن تقسيم سمات وعلامات هذه الدعوة إلى قسمين :

أ - قسم جاء في كتابه الذي جعله دليلاً على رسالته وبرهانا ساطعاً على صدق نبوته .

ب - وقسم يقف عليه المتبع في حاله وحال دعوته وما تركته من آثار في المجتمعات الإنسانية .

أ - سمات دعوته في كتابه المعجز

يعرفه كتابه بصفات ، ويصف دعوته بسمات عديدة ، منها :

(١) - أنه رسول أرسل إلى العالمين جميعاً ، من دون فرق بين قوم وآخرين ، وإقليم دون إقليم ، وجيل دون جيل ، بل رسالته موجهة إلى كل من يصدق عليه « يا أيها الناس » ، ويقول :

- ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ (١) .

(١) سورة الأعراف : الآية ١٥٨ .

- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) .

- ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^(٢) .

(٢) - وأن رسالته خاتمة الرسالات ، وأن كتابه خاتم الكتب ، وأنه خاتم الأنبياء ويقول :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾^(٣) .

(٣) - وأنه نبي قد بشر بنبوته في الكتب السماوية الماضية ، ويقول :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾^(٤) .

ويقول : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾^(٥) .

والضمير في « يعرفونه » يرجع إلى النبي بقرينة قوله : ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ .

ويقول بأن المسيح قد بشر بنبوته في إنجيله :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا يَتْلُونَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾^(٦) .

(١) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٩ .

(٣) سورة الأحزاب : الآية ٤٠ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

(٥) سورة البقرة : الآية ١٤٦ .

(٦) سورة الصف : الآية ٦ .

(٤) - ويعرفه رابعاً بأنّ دعوته دعوة مكملّة للشرائع السابقة ، وأنّ كتابه وشريعته مصدّقة لها ، لا مبائنة ولا مخالفة ويقول :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾^(١) .

(٥) - ويعرفه بأنّه جاء بمعجزات وآيات ، وأنّ معجزته الخالدة على جبين الدهر هي كتابه ، لا يمكن لأحد من الخلق مقابله ولا الإتيان بمثله ، ويقول :

﴿ وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٢) .

ويقول : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْجُنُ وَالْإِنْسُ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾^(٣) .

(٦) - وأنّ كتابه كتاب فاصل بين الحق والباطل ومهيمن على الكتب السالفة ، ويقول : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ . . . ﴾^(٤) . وأنّ كتابه يفصل ما اختلف فيه بنو إسرائيل ويقول : ﴿ إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ يَقْضِي عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾^(٥) .

(٧) - وأنّ أصوله واضحة ، وتعاليمه سهلة ، فإذا سئل عن أصول عقيدته في الله سبحانه ، يقول : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصّمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾^(٦)

(١) سورة البقرة : الآية ٨٩ .

(٢) سورة القرة . الآية ٢٣ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

(٤) سورة المائدة . الآية ٤٨ .

(٥) سورة الممل : الآية ٧٦ .

(٦) سورة الإحلاص . ويعرف وصوح العقيدة اذا قيسست هذه الايات إلى التثلبت الذي تتدين به المسيحية الحاصرة ، وعبره من العقائد التي اتفق البطارقة على أنّها من الرمور التي لبس في مذهب .

كما يقول : في تعاليمه وتكاليفه : ﴿ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾^(١) .

ويقول : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾^(٢) .

(٨) - أن شريعته كافلة للسعادة الدنيوية والأخروية ، ويقول : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾^(٣) .

(٩) - أن دينه وتعاليمه تكافح الأساطير والخرافات وكل عقلية متخلفة ويقول : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾^(٤) .

والمراد من الأغلال ، الأوهام التي كانت تسود أفكار الشعوب آنذاك .

(١٠) - أن هذا الداعي أمي لم يقرأ ولم يكتب ، ومع ذلك جاء بأصول ومعارف وقوانين لإدارة المجتمع ، ويقول : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾^(٥) .

ويقول : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾^(٦) .

ب - سمات دعوته من خلال التدبر في آثارها

إن الإمعان في الآثار التي تركتها هذه الدعوة بين الأمم البشرية ، يدفع

= الإنسان فهمها وحلها . وليس معنى ذلك أن القرآن لم يأت بأصول ومعارف عميقة فلما يتفق لبشر أن يكشف مغزاها ، بل المراد أن الحكم بإسلام الفرد لا يتوقف على التوغل فيها ، بل يكفي فيه الاعتقاد بأصلين واضحين هما : التوحيد والشهادة بالرسالة .

(١) سورة الحج : الآية ٧٨ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

(٤) الآية السابقة .

(٥) الآية السابقة .

(٦) سورة العنكبوت : الآية ٤٨ .

الإنسان إلى الانتقال إلى سمات أخرى لدعوته ، منها :

١ - سرعة انتشارها في أقطار العالم جميعاً لا سيما بين الأمم المتحضرة ، سرعة لم ير التاريخ لها مثيلاً . فطفق المعتنقون به ، المجهزون بسلاح الإيمان والإخلاص ، يغلبون الأمم القوية المتحضرة المجهزة بأرهب أنواع السلاح المادي وأفتكه . ولم يمض قرن ونصف من رحيل صاحب الدعوة ، إلّا وقد ملأ الإسلام مشارق الأرض ومغاربها ، وانتشر انتشاراً حير النّبي والعقول .

٢ - إنّ الأُمَّة المؤمنة ، وإن غلبت أصحاب الحضارات ، وأزالت عروشهم ، لكنها ما عَفَّت على حضاراتهم العلمية والصناعية ، بل حفظت الصالح منها ، وقامت بتأسيس حضارة جديدة تشتمل على الأصلح من السابقة ، وما أبدعته هي . وبذلك افترقت عن سائر الثورات البشرية التي كثيراً ما تنجر إلى تخريب البلدان وتدمير الحضارات . فأصبح التمدن الإسلامي ، حضارة إنسانية مكتملة الأبعاد ، بلغت في العظمة إلى حدٍّ شكّلت معه الأساس الذي بنيت عليه الحضارة الغربية الحديثة ، بحيث لولا الحضارة الإسلامية لزالّت الحضارات السابقة عليها ، ولما لحقها أيّ تمدن ، لأنّها صانّت السالف من الحضارات عن الإندثار والضياع ، وطورته وأبدعت فيه . فالحضارة الإسلامية - بلا تحفظ - جسر بين الحضارات اليونانية والرومانية والفارسية ، والتمدّن الصناعي الحديث .

٣ - تضحية المعتنقين لدينه ، وتفانيهم في سبيله بالنفس والنفيس ، وذلك في ظلّ تحقق شعور ديني عميق وإيمان قوي به وبشريعته ، حتى قدّموا كلّ دقيق وجليل مما يملكون في سبيل نصرته وإعرازه ، وهذا لودلّ على شيء لدلّ على إيمانهم بفضائله وكمالاته ، وإيقانهم بأنّه رجل إلهي ساوي ، بعث لإنقاذ البشر ، وأنّ اجتماعهم والتفافهم حوله لم يكن طلباً لشيء من الزخارف الدنيوية . وهذا وإن كان لا يصدق على جميع أصحابه وحواريه ، لكنه صادق على الكثيرين ممن تربوا في أحضانها ، واستنارت ألبابهم واستقامت فطرهم في ظلّ تعاليم شريعته .

وبعد جميع ما ذكرناه ، فاللزام على المنصف المتحري للحقيقة ، أن يبحث عن حقيقة هذه الدعوة ، وصحة دلائلها ، حتى يجيب الداعي النفساني للمعرفة

أولاً ، ويقوم بوظيفته - إذا وجدها صالحة للاعتناق - ثانياً^(١) .

الطرق الثلاثة للتعرف على صدق المدّعي

قد وقفت عند البحث عن النبوة العامة على أن للتعرف على صدق مدّعي النبوة طُرقاً ثلاثة :

- ١ - إتيانه بالمعجز ، بشروطه المذكورة .
 - ٢ - تصديق النبي السابق عليه ، وتنصيبه على نبوته .
 - ٣ - جمع القرائن والشواهد القاضية بالضرورة بصدق دعواه .
- ونحن نسلك في التعرف على صدق ادعاء نبي الإسلام النبوة ، هذه الطرق ، الواحدة بعد الأخرى .

* * *

(١) وهذا هو الذي نستهدفه في هذا البحث . فنطرح هذه الدعوة الجديدة ، بعد المسيح ، على بساط البحث ، بنحو الاستهداء وتحري الحقيقة وتمييز الحق عن الغثاء ، على ضوء التحليلات المنطقية ، ومن دون تأثر بعقيدة مسبقة ، أو نزول على نزعة عاطفية ، وبصورة يقتنع معها المنصف ، ويتنزل المتعصب على الإسلام عن تعصبه ، وتقوم الحجة على المعاند . فنسأله تعالى أن يوفقنا لبيان الحق وتجنب القضاء الباطل والفصل الممقوت ، إنه على ذلك لقدير .

الطريق الأول لإثبات نبوة نبي الإسلام

الإستدلال بمعجزاته

قد عَرَفْنَا المعجز عند البحث في النبوة العامة بالنحو التالي :

المعجز أمر خارق للعادة ، مقرون بالدعوى ، والتحدّي ، مع عدم المعارضة ، ومطابقته للدعوى .

فعلينا أن نبحث عن انطباق هذا التعريف على دلائله التي أقامها مدّعي النبوة إثباتاً لصحة دعواه .

إنّ التعريف المذكور ينطوي على أمور :

- ١ - دعوى النبوة .
 - ٢ - الإتيان بأمر خارق للعادة .
 - ٣ - التحدي على الإتيان بمثله .
 - ٤ - العجز عن مقابله .
 - ٥ - مطابقة المعجزة للدعوى .
- وهذه القيود التي ذكرناها للمعجز تنطبق على ما جاء به نبي الإسلام ،
وإليك بيانها إجمالاً :

١ - دعوى النبوة

لا شك أنه ادعى النبوة ، بضرورة التاريخ ، ونصّ كتابه :
﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾^(١) .

٢ - خرق العادة

قد ضبط التاريخ أنه كانت لنبي الإسلام معاجز كثيرة في مواقف حاسمة ، غير أنه كان يركّز على معجزته الخالدة وهي القرآن الكريم . ونحن نقدم البحث في هذه المعجزة الخالدة ، ثم نتبعه بالبحث في سائر معجزاته .

٣ - التحدي

ولا شك أنه تحدى - بما ادّعى أنه أمر معجز - الإنس والجن ، وقال بنصّ كتابه : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٢) .

٤ - المعجز عن مقابله

إن من ألم بتاريخ تحدي النبي الأكرم : من زمن نزول القرآن إلى عصرنا هذا ، يقف على أنه لم يتمكن فرد ، ولا لجنة علمية من الإتيان بمثل معجزته . ويعرف تفصيل ذلك عند البحث عن إعجاز القرآن ، فانظر .

٥ - مطابقة المعجزة للدعوى

إن هذا القيد ، يبحث عنه في سائر معاجزه التي له فيها مورد ، كما في إناطة

(١) سورة الأعراف : الآية ٥٨ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٣ . وفي آيات أخرى تأتي الإشارة إليها .

قريش إيمانها بنبوته ، بشقه القمر ، وتسبيح الحصى ، وغير ذلك ، فقام بما اقترحوا عليه ، بإذن الله سبحانه ، وكانت المعجزة مطابقة لدعواه ، كما سيوافيك في الفصل الخاص ببيان سائر معجزاته .

إذا وقفت على تعريف الإعجاز وانطباقه على ما أتى به ، إجمالاً ، فيقع الكلام في مقامين :

المقام الأول - في معجزته الكبرى الخالدة على جبين الدهر وهي القرآن الكريم ، وإثبات أنه كتاب خارق للعادة وخارج عن طور الطاقة البشرية .

المقام الثاني - في سائر معجزه التي ضبطها التاريخ والحديث .

المقام الأول

المعجزة الخالدة

ويقع البحث فيها عن أمور :

* الأمر الأول : ما هو سبب التحدي بالكلام ؟ . فيه وجهان ، نذكرهما ، ثم نلحقه ببيان بعض مزايا القرآن من حيث هو معجز .

* الأمر الثاني : وجه كون القرآن خارقاً للعادة . وللقوف عليه مسلكان :

المسلك الأول : إقرار بلغاء العرب بإعجازه .

المسلك الثاني : تحليل إعجازه مباشرة . وإعجاز القرآن يقوم على دعائم

أربع :

- الدعامة الأولى : الفصاحة . ويراد منها جمال اللفظ وأناقة الظاهر .

- الدعامة الثانية : البلاغة . ويراد منها جمال العرض وسمو المعنى .

- الدعامة الثالثة : النظم . ويراد منه رصانة البيان واستحكام التأليف .

- الدعامة الرابعة : الأسلوب . ويراد منه بداعة المنهج وغرابة السبك .

ويلحق بهذا الأمر تنبيهات ثلاثة :

التنبيه الأول ، نطرح فيه آيتين على منضدة التشريع .

التنبيه الثاني ، نشير فيه إلى بعض مزايا القرآن البيا . . .
التنبيه الثالث ، نتطرق فيه إلى بيان مذهب الصرفة ، من مذاهب
إعجاز القرآن .

* الأمر الثالث : عجز البشر عن معارضته والإتيان بمثله .

* الأمر الرابع : الشواهد الدالة على كون القرآن كتاباً سماوياً ، وهي :

- ١ - أمية حامل الرسالة .
- ٢ - عدم اختلافه في الأسلوب .
- ٣ - عدم اختلافه في المضمون .
- ٤ - هيمنته على الكتب السماوية .
- ٥ - إتقانه في التشريع والتقنين .
- ٦ - إخباره عن الغيب .
- ٧ - إخباره عن الظواهر والقوانين الكونية .
- ٨ - الأخلاق .

الأمر الأول

سبب التحدي بالكلام

لا شك أن الكليم موسى ، تحدّى بمعجزات خاصة ، يعبر عنها القرآن الكريم بتسع آيات بينات ، في قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ (٢) .

كما أن المسيح تحدّى بمعجزات خاصة ، تباين من حيث الماهية بمعجزات الكليم ، ويحكي ذلك القرآن بقوله : ﴿ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ، فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ ، وَأُحْيِي الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

فعند ذلك يطرح السؤال نفسه : لماذا آختص الكليم بهذه المعاجز ، والمسيح بتلك الخوارق ، وجاء نبي الإسلام بمعجزة الكلام ؟ .

(١) سورة الإسراء : الآية ١٠١ .

(٢) سورة النمل : الآية ١٢ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٤٩ . ولاحظ سورة المائدة : الآية ١١٠ .

والإجابة عن ذلك بوجهين :

الوجه الأول - أَصْدَقُ المعجزات ما شابه أرقى فنون العصر

إذا كان المعجز عبارة عما يخرج نواميس الطبيعة ، فلا شك أن معرفة ذلك يختصّ بعلماء الصنعة التي يشابهها ذلك المعجز ، فإنّ علماء أيّ صنعة أعرف بخصوصياتها ، فهم يميّزون بين ما يعجز البشر عن الإتيان بمثله ، وبين ما يمكنهم . ولذلك فالعلماء أسرع تصديقاً بالمعجز من غيرهم ، وأمّا الجاهل فباب الشكّ عنده مفتوح على مصراعيه ما دام جاهلاً بمباديء الصنعة ، وما دام يحتمل أن المدّعي قد اعتمد على مباديء معلومة عند الخاصة من أهل تلك الصنعة .

ولذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن يُخصّص كلّ نبي بمعجزة تشابه الصنعة المعروفة في زمانه ، والتي يكثر العلماء بها من أهل عصره ، فإنّه أسرع للتصديق ، وأقوم للحجة . فكان من الحكمة أن يُخصّص موسى عليه السلام بالعصا ، واليد البيضاء ، لما شاع السحر في زمانه وكثر الساحرون . ولذلك كانت السحرة أسرع الناس إلى تصديق برهانه لعلمهم بأنّ ما أتى به موسى ، خارج عن حدود السحر ، فتيقنوا من كونه معجزة إلهية .

وشاع الطب اليوناني في عصر المسيح وأتى الأطباء في زمانه بالعجب العجائب ، وكان للطب رواج باهر في سوريا وفلسطين ، إذ كانتا مستعمرتين للرومان ، فشاعت الحكمة الإلهية ، أن تجعل برهان المسيح شيئاً يشبه الطب ، فقام بإحياء الموتى ، وإبراء الأكفم والأبرص ، ليُعَلِّم أهل زمانه أنّ ما أتى به خارج عن قدرة البشر .

وأما نبيّ الإسلام ، فقد ادّعى النبوة بين العرب ، وكان الفن الرائج بينهم هو الشعر والخطابة ، فقد برعوا في البلاغة ، وامتازوا بالفصاحة ، وبلغوا الدُرّة في فنون الأدب . وكانوا يعقدون النوادي ويقىمون الأسواق لإلقاء الخطابة والشعر ، وكان المرء يُقدّر على حسب ما يحسنه من إلقاء الخطب الرنانة ، والأشعار البليغة .

وقد بلغ تقديرهم للأدب والشعر إلى حدّ عمدوا إلى قصائد سبع ، من خيرة

أشعارهم ، فعلقوها على جدار الكعبة ، بعد ما كتبوها بماء الذهب ، فكان يقال هذه مذهب امرئ القيس إذا كانت أجود شعر .

كما بلغ اهتمام رجال العرب ونسائهم بالخطابة والشعر إلى أنهم كانوا يحتفلون كل عام في موسم الحج إحتفالات كبيرة لإلقاء الخطب والأشعار . وكان النابغة الذبياني هو الحَكَم في تمييز الراجح من المرجوح ، فيأتي سوق عكاظ وتضرب له فيه قبة حمراء من الأدم ، فيأتيه الشعراء ، فيعرض كل أبياته التي صاغها طيلة السنة المتقدمة^(١) .

وفي هذا الأجواء ، كانت المناسبة تقتضي أن تكون معجزة المدعي مشابهة للفن الرائج في ذلك الظرف ، ولذلك جاء بمعجزة البيان وبلاغة الكلام ، حتى يعرف كل عربي أو الأخصائي منهم ، أن قرأه بعدوبته وحلاوته ، وسمو معانيه وعمقها ، وروعة نظمه وبداعة أسلوبه^(٢) ، خارج عن إطار الكلام الرائج بين فصحاء العرب ، وبلغائهم أولاً ، وخارج عن طاقاتهم ومقدرتهم ثانياً . وسيوافيك تصديق أكابرهم وفحولهم المعاصرين للنبي الأعظم ، بكون كلامه خارجاً عن طوق البشر ومقدرته ، كما سيوافيك تحليله بوجه علمي ملموس .

وهناك كلام لأحد أئمة الشيعة - قِيمَ جَدّاً - نأتي به :

روى الكليني عن أبي يعقوب البغدادي قال : قال ابن السكيت^(٣) ، لأبي الحسن^(٤) : « لماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السلام بالعصا ، ويده

(١) شعراء النصرانية ، ج ٢ ، ص ٦٤٠ ، ط بيروت .

(٢) سيوافيك أن الإعجاز البياني للقرآن يقوم على أسس أربعة هي التي أشرنا إليها في المتن .

(٣) أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الدورقي ، أحد أئمة اللغة والأدب ، وكان حامل لواء علم العربية ، وله تصانيف منها : كتاب تهذيب الألفاظ ، وكتاب إصلاح المنطق ، قتله المتوكل في خامس شهر رجب عام ٢٤٤ هـ ، بحجة أنه قال إن قنبراً - خادم علي - خير منه ومن ابنه . فقال المتوكل للأتراك ، سلوا لسانه من قفاه ، ففعلوا ، فمات . لاحظ تاريخ الخلفاء للسيوطي ، ص ٣٧٦ .

(٤) الإمام الهادي أبو الحسن ، علي بن محمد بن علي الرضا ، المدفون بسامراء ، الشهيد بيد المعتز بالله عام ٢٥٢ هـ .

البيضاء ، وآلة السحر ؟ وبعث عيسى بآلة الطب ؟ وبعث محمداً (صلى الله عليه وآله وعلى جميع الأنبياء) بالكلام والخطب ؟ » .

فقال أبو الحسن (عليه السلام) : « إِنَّ الله لما بعث موسى (عليه السلام) كان الغالب على أهل عصره السحر ، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله ، وما أبطل به سحرهم ، وأثبت به الحجة عليهم .

وإنَّ الله بعث عيسى (عليه السلام) في وقت قد ظهرت فيه الزُّمانات (١) ، واحتاج الناس إلى الطب ، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله ، وبما أحصى لهم الموت ، وأبرء الأكمة والأبرص بإذن الله وأثبت به الحجة عليهم .

وإنَّ الله بعث محمداً (صلى الله عليه وآله) في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام - وأظنه قال : الشعر - فأتاهم من عند الله من مواعظه وحكمه ما أبطل به قلوبهم ، وأثبت به الحجة عليهم .

قال : فقال ابن السكيت : « تالله ما رأيتُ مثلك قَطَّ » (٢) .

الوجه الثاني - الدين الخالد رهن المعجز الخالد

وهناك وجه ثانٍ لاختصاص النبي بهذه المعجزة وهو الفرق الواضح بين دعوته ، ودعوة سائر الأنبياء ، فإنَّ دعوتهم وشريعتهم كانت محدودة زماناً ومكاناً ، أو من حيث الزمان فقط . ولأجل ذلك كانوا يبشرون بمجيء نبي آخر ينسخ بشريعتهم شرائع مَنْ قَبْلَهُ . ومثل تلك الدَّعَوَات يكفي في إثباتها وجود معاجز تنقلها الأجيال المعاصرة للأنبياء إلى الأجيال التالية لهم بصورة الأمر المتواتر ، ومثل هذه المعاجز لا تكفي للدعوة الخالدة ، لأنَّ الإيمان بالمعاجز والإذعان بصحتها من خلال نقلها بالتواتر يزول بمضي الزمان ، إلى حدٍّ تصبح معه أموراً ظنية ، غير قابلة لاتِّمام الحجة ، للأجيال المتلاحقة .

(١) الزُّمانات : الآفات الواردة على بعض الأعضاء فتمنعها من الحركة كالفالج واللقوة .

(٢) الكافي ، ج ١ ، كتاب العقل والجهل ، الحديث ٢٠ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

فلأجل ذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الدين الخالد مقروناً بالمعجزة الخالدة ، حتى تتم الحجة على جميع الأجيال والقرون إلى أن تقوم الساعة ، وهذا لا يمكن إلا بأن يكون للإعجاز وجودٌ خالدٌ وثابتٌ عبر القرون ، وليس ذلك إلا أن يكون مثل القرآن .

وهذا لا يعني أنه لم يكن للنبي الأكرم معجزة سوى القرآن ، فإن ذلك باطل كما سنفصل البحث عنه في المقام الثاني ، بل يعني أنه صلى الله عليه وآله اختص بهذه المعجزة دون غيره ، وأنه كان يركز عليها دون غيرها من سائر معاجزه .

وبعبارة أخرى : إنَّ لدعوته سمة الشمول وسمة الخاتمة ، أما الشمول ، فَبَعَثَهُ إلى البشر كلهم ، وأما الخاتمة فادعاؤه بأنه خاتم النبيين وأن كتابه خاتم الكتب وشريعته خاتمة الشرائع ، فمثل هذه الدعوة التي تَعُمُّ جميع الأجيال والأمكنة ، لا تتم إلا باقترانها بمعجزة ساطعة على مرّ الدهور وتعاقب الأجيال أولاً ، وفي جميع الأمكنة ثانياً ، حتى يتم الإحتجاج على المتحرّري ، في جميع الأمكنة والأزمنة . وقد عرفت أنَّ مرور الزمان يضيف على سائر المعاجز ، ثوب الظنّ والشك ، إلى أن تصبح في أعين الناس ، خصوصاً الذين هم في منأى عن الأجواء الدينية ، كالأساطير التي تقرأ في الكتب . فعند ذلك لا يتمكن المسلم المحتج من إقامة الحجة على مخالفه ومعانده ، بل لا تتم الحجة في حدّ نفسها على المخالف . فاقترضت مشيئته سبحانه أن يبرهن دعوة نبيه الخاتم بمعجزة ناطقة بالحق ، في جميع الأمكنة والأزمنة تكون كفيلاً بإتمام الحجة على البشر إلى قيام الساعة : ﴿ لَيْتَ لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾^(١) ، بل تكون ﴿ اللَّهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَى النَّاسِ ﴾^(٢) في كل مكان وزمان .

* * *

(١و٢)، اقتباس من آيتين إحداهما في سورة النساء : الآية ١٦٥ والثانية في سورة الأنعام : الآية ١٤٩ .

مزايا أخرى لهذه المعجزة

١ - القرآن كتاب الهداية والتربية

إنّ الكتاب الذي جاء به نبي الإسلام سنداً لنبوته ، يؤدّي مهمّتين :

١ - يثبت أنّه مبعوث من جانبه سبحانه ، وفي هذا يتساوى مع معاجز المتقدمين عليه من الأنبياء .

٢ - يهدي الناس إلى أصول المعارف والعقائد ، يتكفّل بتربية البشر وسوقهم إلى الفضائل الأخلاقية ، وهذه مزية تختص بمعجزته الخالدة ، ولا توجد في معجزة أخرى . فإن ما جاء به الكليم والمسيح من المعاجز كانقلاب العصا إلى الثعالب ، وإحياء الموتى ، لا يؤدّي سوى مهمة واحدة وهي إثبات أنّ الجائي بها مبعوث من جانب الله سبحانه . وأمّا المعجزة الخالدة ، فهي تهدي - مضافاً إلى ذلك - إلى المعارف العليا ، وكرائم الأخلاق ، والفرائض والمنهيات . فهي بمفردها : برهان نبوته ، وهادي أُمته إلى ما يجب عليهم الإعتقاد به أو العمل به .

وبعبارة أخرى : إنّ معاجز الكليم والمسيح معاجز جسمانية ، لا تثبت إلاّ صلتها بالله سبحانه ، وأمّا القرآن الكريم فهو معجزة معنوية ، تصقل العقول والأرواح ، وتُرشد إلى طريق الخير والصلاح . والنبي الأكرم قام - بفضل هذه المعجزة - بصنع أمة ، بلغت من الفضل والكمال كل مبلغ بعدما كانت غارقة في الجهل والأمية .

٢ - استقلالها في إثبات الرسالة

إنّ لهذا الكتاب مزية ثانية تفتقدها سائر المعاجز ، حتى المعجزات الأخرى للنبي الأكرم ، وهي أنّ سائر المعاجز لا تثبت شيئاً إلاّ أن يكون معها مدّعي النبوة ، فيدّعي ويسأل البيّنة ، فيأتي بالمعجز ، ويتحدّى به ، إلى آخر ما ذكرنا من شروط المعجز .

وأمّا القرآن الكريم ، فإنّه بنفسه يقوم بكل هذه الأمور ، فيطرح بنفسه

الدعوى ، ويتساءل - هو - عن برهانها ، ثم يشتبهها بنفسه ، ويتحدّى الناس على الإتيان بمثله ، ويعجزهم ويدينهم . وهذه خصيصة لهذه المعجزة لا توجد في سائر المعاجز .

٣ - التحدي بأبسط الأشياء وأوفرها

قد تعرفت في مباحث الإعجاز - من النبوة العامة - على الفروق الواضحة بين المعجزة وغيرها ، وقلنا إنّه ربما يصل العلم والصنعة إلى الغاية التي وصلت إليها معاجز الأنبياء ، ومع ذلك كلّ لا تتجاوز الصنعة عن كونها صنعة بشرية ولا تدخل في إطار الإعجاز .

مثلاً : إنّ سليمان بن داود ، أول من فتح أبواب الفضاء على عُيون المجتمع الإنساني ، فهو كان رائد الفضاء الأول بفضل الريح المسخرة له ، يقول سبحانه : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾^(١) .

ولم تتوفّق الحضارة البشرية إلى إرسال الإنسان إلى الفضاء إلّا بعد آلاف السنين ، حتى تمكّنت أخيراً من إنزاله على سطح القمر ، والركب بعد مستمر ، ومع ذلك كلّهما أنجزته هذه الحضارة لا يخرج عن إطار الصنعة ، لوجود الميز الجوهري بين العاملين ، وإن اتحدوا في النتيجة . وذلك أنّ سليمان بدأ عمله بأبسط الأشياء ، وأكثرها شياعاً ، وهو الجلوس على بساط ، يحركه الريح ، تجري بأمره حيث شاء ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ ﴾^(٢) .

وأما ما قامت به الحضارة الصناعية من إرسال الرّواد إلى الفضاء ، فهو صنعة بحتة ، لأنّها قامت بهذا الفعل بأعقد الصناعات وأخفها . فالسفينة الفضائية الحاملة لعدّة من الرّواد ، والتي هبطت على سطح القمر ، اشترك في

(١) سورة ص : الآية ٣٦ .

(٢) سورة سبأ : الآية ١٢ .

صنعها مجموعة هائلة من الصناعيين وخبراء العلوم الطبيعية من علماء الفيزياء والكيمياء والفلك والرياضيات والطب ، حتى علماء النفس وغيرهم ممن خدموا هذه السفينة والصواريخ الحاملة لها . فلأجل ذلك كلما ازدادت الصناعة عمقاً وتعقيداً ، اتضح كونها نتيجة حضارة بشرية بحثة ، لا صلة لها بأمر سواي .

ونفس هذه القاعدة تنطبق على معجزة النبي الأكرم بوضوح ، فإنه تحدّى بشيء مؤلف من مواد يعرفها كل الناس وفي متناولهم ، حيث إنه لا يتجاوز عن كونه حروفاً وألفاظاً تشكل لغة العرب ومفردات كلامهم وجلهم . فلو كان هذا القرآن مصنوعاً نفس من جاء به ، فهو وسائر الناس في هذه الحلبة سواء ، لأنّ موادّه في متناول الناس واختيارهم ، فليقم خبراًؤهم وعلماءؤهم وبلغاؤهم وفصحاءؤهم بصنع كتاب ، أو عشر سُور ، أو سورة واحدة مثله . .

ومع أنّ كل المعاجز تشترك في هذا المضمار ، غير أنّ القرآن يمتاز عنها بمزية ثالثة وهي أنّ الإذعان بكون ما جاء به الكليم والمسيح من المعاجز ، يحتاج إلى معلومات خاصة حتى يتميز في ظلّها السحر والطب من الإعجاز ، ولكن الإذعان بكون القرآن معجزة إلهية لا يحتاج إلى شرائط في السامع أزيد من كونه عربياً صميماً عارفاً بأساليب الكلام ، فإنّ ذلك كافٍ في تمييز ما هو داخل في حدود الطاقة البشرية عمّا هو خارج عنها ، ولأجل ذلك كان النبي يتحدّى بالقرآن ويدعو كلّ الناس إلى المقابلة والمنازلة ، وقلماً يتفق أن يسمع إنسان كلامه ولا يتأثر منه ، وإن كان أغلبهم يعارض ما يجده حقّاً في فطرته وعمق ضميره ، بأساليب شيطانية ، كما سيوافيك في قصة الوليد بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ومجمل سيرة رؤساء قريش .

هذه المزايا الثلاث تختص بمعجزته الخالدة . ولها مزايا أخرى ستقف عليها خلال المباحث الآتية .

* * *

الأمر الثاني

وجه إعجاز القرآن وكونه كتاباً خارقاً للعادة

إنَّ إعجاز القرآن في عصر الرسالة ، كان يتمثل في فصاحة ألفاظه ، وبلاغة معانيه ، وروعة نظمه ، وبداعة أسلوبه الخاص . فَعَرَبَ عَصْرُ الرسالة وبلغاؤهم وحدائقهم في الخطابة والشعر ، لمسوا أنَّ القرآن في ظل عذوبة ألفاظه وسحر معانيه وجمال تأليفه ونظمه ، وبداعة سبكه ، لا يشبه الشعر ولا النثر ، وأنَّه كتاب جاء في قالب ، لم يسبق له نظير فله جذابية خاصة ، وهيبة رائعة تهتز بها النفوس تارة ، وتقشعر منها الجلود أخرى . فأحسوا بضعف الفطرة عن معارضته ، ولمسوا أنَّه جنس من الكلام غير ما هم فيه ، ووجدوا منه ما يغمر القوة ، ويخاذل النفس ، مصادمةً ، لا حيلةً ولا خدعةً ، مع أنَّه مؤلف من نفس الحروف التي هي المادة الأولى لكلماتهم وكلمهم .

إنَّ المحققين في علوم القرآن ، ومبيني وجوه إعجازه ، وإن ذكروا وجوهاً كثيرة لكون هذا الكتاب معجزاً ، وسنمر على تلك الوجوه ، غير أنَّ جهة إعجازه في عصر الرسالة كان متمركزاً في جانبه البياني الذي يتمثل في لفظه الجميل ، ومعناه البليغ ، ونظمه المعجب ، وأسلوبه الرائق . ولذلك أدهش عُقول الفصحاء والبلغاء في عصر النبي ، ولم يزل يدهش كلُّ عربي مُلمٍّ بلغته ، أو غير عربي عارف باللغة العربية ، من غير فرق بين جيل وجيل .

إنَّ للقرآن في مجالي اللفظ والمعنى كيفية خاصة يمتاز بها عن كل كلام سواه ،

سواء أصدر من أعظم الفُصحاء والبُلغاء أو من غيرهم ، وهذا هو الذي لمسّه العرب المعاصرون لعصر الرسالة . ونحن نعيش في بدايات القرن الخامس من هجرة النبي ، ونَدَّعي أنَّ القرآن لم يزل معجزاً إلى الآن ، وأنَّه أرقى من أن يعارض أويبارى ويؤق بمثله أبداً . غير أنَّ لإثبات تلك الدعوى مسلكين .

الأول : المراجعة إلى أهل الخبرة ممَّن يعدُّون من صميم أهل اللغة العربية ، وفي الجبهة والسنام منهم .

الثاني : التعرّف عليه بالمباشرة والتحليل .

ونحن نسلك كلا الطريقتين في هذا البحث وإن طال بنا الموقف والكلام ، وإليك البيان :

المسلك الأول في إثبات إعجاز القرآن

إعتراف بُلغاء العرب بإعجاز القرآن البياني

إنَّ السيرة النبوية قديمها وحديثها ، ضبطت إعتراف مجموعة كبيرة من فصحاء العرب بهذا الأمر ، ونحن نأتي ببعض ما ظهرنا عليه .

١ - إعتراف الوليد بن المغيرة ريحانة العرب

كان رسول الله لا يكف عن الخط من آلهة المشركين ، وكان الوليد بن المغيرة شيخاً كبيراً ومن حُكَّام العرب^(١) ، يتحاكمون إليه في أمورهم ، وينشدونه الأشعار ، فما اختاره من الشعر كان مقدماً ومختاراً . وقد كان من المستهزئين بالرسول (صلى الله عليه وآله) .

ويروي التاريخ أنَّ الوليد - الذي يصفه العرب بريحانتهم وحكيمهم - سمع الآيات التالية من النبي الأكرم : ﴿ حَمَّ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ، شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرِ * مَا يَجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ ، لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ

(١) وهو عمُّ أبي جهل بن هشام .

رَبَّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿١﴾ . فلما سمع ذلك قام حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال : « والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإنَّ له لحلاوة ، وإنَّ عليه لطلاوة ، وإنَّ أعلاه لمثمر ، وإنَّ أسفله لمغدق ، وإنَّه ليعلوما يُعلى عليه » .
ثم انصرف إلى منزله (٢) .

ولعلَّ الوليد أول من تنبَّه إلى عظمة القرآن وآي الذكر الحكيم ، وهو من بلغاء عصر الوحي وزمن نزوله ، ومن شيوخ قُريش وعوارف العرب في الأدب الجاهلي ، والخبراء بصناعة الإنشاء ، ومن هذه المنطلقات جاءت كلمته الماثورة تلك ، سبيكة مرصعة ، تعدَّ أول تقرير ناله القرآن من خبراء عصره ومصره ، وإنَّ حمله المحدثون إلينا عارياً عن التفسير . ولعمري إنها شهادة من الخبير العدو ، الذي التجأ إلى الإعتراف بدافعٍ من ضميره ، وإن أثر عنه تفسير آخر للقرآن الكريم دفعه إليه تعلقه بدين آبائه وسنن قومه ، سيوافيك نقله . ولأجل كون هذه الكلمة من أستاذ البلاغة ، كلمةً شارحةً لوجهة إعجاز القرآن في عصر الرسالة ، نشرح بعض جملها .

١ - قوله : « ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن » . معناه أنَّ المعروف من كلام الإنس المنشور ، سبك العبارات غير مقيدة بالأسجاع والقوافي ، فإذا أتوا بها على عفو الخاطر ، لم يلتزموا بها متقاربة قصيرة الخطوات ، بخلاف كلمات الجن التي سمعوها على ألسنة الكهنة كعبارات مجملة صغيرة الحجم ، كثيرة المقاطع مقرونة بأسجاع وقوافي ، وعليها مسحة من غرابة الألفاظ ومجانسة الحروف وغموض المعاني (٣) .

فَلَوْحُ الْوَلِيدِ إِلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ؛ لَا هُوَ عَلَى أَسَالِيبِ

(١) سورة غافر : الآيات ١ - ٦ .

(٢) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٣٨٧ .

(٣) سنذكر فيما يأتي نماذج من كلمات سطحي الكاهن الذي كان يتكلم عن لسان الجن .

كلام الناس ، ولا على أساليب كلام الكهنة المترجمة للغة الجن والشياطين ، ولا مزيجاً من هذا وذاك .

٢ - قوله : « إِنَّ لَهُ لِحَلَاوَةً » : يريد أنه شهى جَذَابَ للنفوس ، جَلَابَ للميول ، خَلَابَ للعقول ، ترتاح إليه الأرواح .

٣ - قوله : « وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً » ، أي إنه محَلَّى بالفاظ جميلة وأنغام مقبولة .

٤ - قوله : « إِنَّ أَعْلَاهُ لِمُثْمَرٍ وَأَسْفَلُهُ لِمُغْدِقٍ » ، يريد أن القرآن كشجرة كبيرة ، غصونها زاخرة بالشمار وجذورها مستحكمة واسعة الإنتشار في أعماق الأرض^(١)

٢ - إِعْتِرَافُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ

حين أسلم حمزة بن عبد المطلب ، ورأت قريش أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرُونَ ، قام عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ يوماً في نادي قريش ، ورسول الله حينها جالس في المسجد وحده ، وقال : « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمُهُ ، وَأَعْرِضُ عَلَيْهِ أُمُوراً ، لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضُهَا ، فَنُعْطِيهِ أَيُّهَا شَاءَ ، وَيَكْفَى عَنَّا ؟ » .

فقالوا : « بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ ، قُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمَهُ » .

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ، فقال : « يَا بَنِي أَخِي ، إِنَّكَ مَنَا حَيْثُ عَلِمْتَ ، مِنَ السَّطَةِ^(٢) فِي الْعَشِيرَةِ ، وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ ، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرِ عَظِيمٍ ، فَرَّقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ ، وَسَفَّهْتَ بِهِ أَحْلَامَهُمْ ، وَعَبَّيْتَ بِهِ أَلْهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ ، وَكَفَّرْتَ بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُوراً تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضُهَا » .

فقال له رسول الله : « قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ، أَسْمَعْ » . فاقترح عليه أموراً^(٣)

(١) يقال غدق المطر ، إذا كثر قطره . وأغدقت الأرض ، إذا أخضبت . وأغدق العيش ، إذا اتسع . وفي بعض المنقولات : « مُغْدِقٌ » بالذال .

(٢) السطة : الشرف .

(٣) منها أن يتنازل عن دعوتِهِ فتتخذهُ العرب ملكاً ، وتجمع إليه أموال طائلة ، وغير ذلك .

فلما فرغ عتبة من كلامه ، قال رسول الله : « أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ » .
 قال : « نعم » .
 قال : « فاسمع مني » .
 قال : أفعل » .

فقال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حَمَّ * تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ *
 كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ
 فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَمِنْ
 بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ، فَاغْمَلْ إِنَّا غَامِلُونَ * . . . ﴾^(١) .

ثم مضى رسول الله فيها يقرأها عليه ، و « عتبة » منصت لها ، ملقياً يديه
 خلف ظهره ، معتمداً عليها ، مذهولاً ، إلى أن انتهى رسول الله إلى آية السجدة
 منها^(٢) فسجد . .

ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأت ذاك » .
 فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : « نحلف بالله ، لقد
 جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به » .
 فلما جلس إليهم ، قالوا : « ما وراءك يا أبا الوليد ؟ » .

قال : « ورائي أي قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو
 بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي ،
 وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي
 سمعت منه نبأ عظيم . فإن تصبه العرب فقد كُفِّيتموه بغيركم . وإن يظهر على
 العرب ، فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به » . .

قالوا : « سَحَرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه » .

(١) الآيات من أوائل سورة فصلت .

(٢) سورة فصلت : الآية ٢٨ .

قال : « هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم »^(١) .

٣ - تأثير آيتين

إنَّ حلاوة القرآن كانت بمكانة ربما يؤثر سماع آيتين أو أكثر في نفس السامع ، بحيث يخضع له وللجائي به غبَّ سماعه منه ، ويرفض الوثنية ، وينخرط في صفوف الموحدين ، ويتنظم في عدادهم ، وما ذاك إلاَّ لأنَّه يجد من صميم ذاته أنَّه كلام سماوي لا غير . ويدلُّ على ذلك ما نسرده عليك من تاريخ دخول الخزر جيئيين في الإسلام .

كان بين الأوس والخزرج حروب طاحنة ، وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار ، وكانت آخر حرب سجلت بينهم يوم « بعث » ، وكان النصر حليف الأوس على الخزرج ، ولأجل ذلك خرج أسعد بن زرارة وزكوان الخزر جيئيين ، إلى مكة في عمرة رجب ، يسألون الحلف على الأوس ، وكان أسعد بن زُرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة ، فنزل عليه ، فقال له :

« إنَّه كان بيننا وبين قومنا حرب ، وقد جئناكم نطلب الحلف عليهم » .

فقال عتبة : « بعدت دارنا عن داركم ، ولنا شغل لا نتفرغ لشيء » .

قال : « وما شغلكم وأنتم في قومكم وأمنكم » .

قال له عتبة : « خرج فينا رجل يدَّعي أنَّه رسول الله ، سَفَّه أحلامنا ، وسَبَّ آلهتنا ، وأفسد شبابنا ، وفرَّق جماعتنا » .

فقال له أسعد : « من هو منكم » ؟ .

قال : « ابن عبد الله بن عبد المطلب ، من أوسطنا شرفاً ، وأعظمنا بيتاً » .

فلما سمع ذلك أسعد ، قال : « فأين هو » ؟ .

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

قال : « جالس في الحجر ، وإنهم لا يخرجون من شِعْبِهِمْ إِلَّا في الموسم ، فلا تسمع منه ولا تكلِّمه ، فإنه ساحر يسحر بكلامه » .

وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب .

فقال له أسعد : « فكيف أصنع وأنا معتمر ، لا بُدَّ لي أن أطوف بالبيت » .

فقال : « ضع في أذُنَيْكَ القُطْن » .

فدخل أسعد المسجد ، وقد حشا أذنيه من القُطْن ، وطاف بالبيت ، ورسول الله جالس في الحجر ، مع قوم من بني هاشم . فنظر إليه نظرة ، فجاهه . فلما كان في الشوط الثاني ، قال في نفسه : « ما أجد أجْهَلَ مني . أَيْكون مثل هذا الحديث بمكة فلا أعرفه ، حتى أرجع إلى قومي فأخبرهم » ، ثم أخذ القُطْن من أذنيه ورمى به . فلما وصل إلى رسول الله ، قال له : « أنعم صباحاً » .

فرفع رسول الله رأسه إليه ، وقال : « قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا ، تحية أهل الجنة : السلام عليكم » . .

فقال له أسعد : « إنَّ عهدك بهذا القريب . إلى مَ تدعوا يا محمد ؟ » .

قال : « إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله » .

ثم قرأ هاتين الآيتين :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَلِكَمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبٍ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَلِكَمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

(١) سورة الأنعام : الآيتان ١٥١ - ١٥٢ .

فلما سمع أسعد ، قال : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأَنَّكَ رسولُ الله . بأبي أنت وأُمِّي ، أنا من أهل يثرب ومن الخزرج ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا مِنَ الْأَوْسِ حِبَالُ مَقْطُوعَةٍ ، فَإِنْ وَصَلَهَا اللهُ بِكَ ، فَلَا أَجْدَ أَعَزَّ مِنْكَ ، وَمَعِيَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِي ، فَإِنْ دَخَلَ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، رَجَوْتُ أَنْ يُتِمَّ اللهُ لَنَا أَمْرَنَا فَيْكَ . . . فالحمد لله الذي ساقنا إليك ، والله ما جئت إلا لنطلب الحلف على قومنا ، وقد آتانا الله بأفضل ما أتيت له » .

ثم أقبل زكوان ، فقال له أسعد : « هذا رسول الله الذي كانت اليهود تبشرنا به ، وتخبّرنا بصفته ، فَهَلُمَّ فَاسْلَمْ » .

فأسلم زكوان . ثم قال : « يا رسول الله ، إبعث معنا رجلاً يعلمنا القرآن ، ويدعو الناس إلى أمرك » .

فأمر رسول الله مصعب بن عمير - وكان فتي حدثاً مُتَرَفّاً بين أبويه ، يكرمانه ويفضلانه على أولادهم ، ولم يخرج من مكة ، فلما أسلم جفاه أبواه ، وكان مع رسول الله في الشعب حتى تغير وأصابه الجهد ، وقد كان يعلم من القرآن كثيراً - أمره بالخروج مع أسعد وزكوان ، فخرج معهما إلى المدينة ، وقدا على قومهما وأخبراهم بأمر رسول الله وخبره ، فأجاب من كل بطني ، الرجل والرجلان^(١) .

ترى أن سماع الآيتين يصنع من الكافر الوثني مسلماً موحّداً ، شهماً هماماً ، يفدي بنفسه وماله في طريق دينه ، وما ذاك إلا لتيقنه من أن القرآن كلام سماوي خارج عن طوق قدرة البشر . وقد كان النصر حليف بعث رسول الله ، وما كان ذاك ، إلا لأنه كان يقرأ ما نزل من القرآن وَحَفِظَهُ ، حتى أن أسيد بن الحضير رئيس الخزرجين - لما سمع منه قوله سبحانه : ﴿ حَمَّ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . . ﴾^(٢) ، ظهرت أمارات الإيمان في وجهه ، فبعث إلى منزله من يأتيه بثوبين طاهرين ، واغتسل ،

(١) أعلام الوري لأعلام الهدى ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) الآيات من أول سورة فصلت .

وشهد الشهادتين ، ثم قام وأخذ بيد مُصعب وقال : « أَظْهَرَ أَمْرَكَ وَلَا تَهَابَنَّ أَحَدًا » .

* * *

ولما كان للقرآن تأثيره العجيب في نفوس الشباب ، إحتالت قريش في اللبس على الناس باللجوء إلى جملة من الأعمال الوقائية ، لِتَصُدَّ تأثير القرآن في النفوس المتهتئة لقبول الحق ، تعرّض لها التاريخ والسير النبوية ، أهمها :

١ - منع الناس ، وخاصةً الشخصيات والوجهاء ، من سماع القرآن ومقابلة الرسول .

٢ - عزو القرآن إلى السحر .

٣ - دعوة القصاصين لسرد أخبار الأمم .

وكلُّ ذلك يدلُّ على أنَّ القرآن كان كلاماً ممتازاً فائقاً كلام البشر ، له تأثير فريد في النفوس بحيث يجذب إليه الناس بمجرد سماعهم ، بلا اختيار . وفيما يلي بيان هذه الأعمال :

١ - منع سماع القرآن

يحكي لنا القرآن أنَّ المشركين تواصلوا بترك سماع القرآن والإلغاء عند قراءته في قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾^(١) . أي عارضوه باللغو بما لا يُعْتَدُّ به من الكلام ، حتى لا يصل كلامه إلى أسماع الآخرين .

ومع ذلك كله فأولئك الذين كانوا مبدئاً لردع الشباب عن سماع القرآن ، قد نقضوا عهدهم ، لشدة التذاذهم من سماعه .

(١) سورة فصلت : الآية ٢٦ .

فهؤلاء ثلاثة من بُلغاء قريش وأشرافهم وهم أبو سفيان بن حرب ، وأبو جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق ، خرجوا ليلة ليستمعوا كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر ، تفرّقوا ، فجمعهم الطريق فتلاقوا وقال بعضهم لبعض : « لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً » ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثلما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : « لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود » ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرّقوا^(١) .

فلو كان القرآن كلاماً ، يشبه كلام الإنس ويوازنه ويعادله ، لم يكن هناك أي وازع لهؤلاء الصناديد الذين يعدّون في الطليعة والقمة من أعداء النبي ، أن يهجروا فرشهم ، ويقلّوا دفء دُثرهم ، ويبيتوا في الظلام الحالك على التراب ، حتى يستمعوا إلى كلامه ومناجاته في أحشاء الليل في صلاته ونسكه ، وما هذا إلّا لأنّ القرآن كان كلاماً خلّاباً ، لعذوبة ألفاظه وبلاغة معانيه ، رائعاً في نظمه وأسلوبه ، ولم يكن له نظير في أوساطهم ، ولا في كلمات بُلغائهم وفُصحائهم ، وهم الفُصحاء والبُلغاء ومن يشار إليهم في تلك العُصور .

ومن الخبائل التي سلكوها لصدّ تأثير القرآن ، منع متشخصي المشركين من لقاء الرسول ، خصوصاً من كان لإسلامه تأثير خاص في إيمان قومه بدين الرسول .

ومن تلك الشخصيات الطفيل بن عمر الدوسي ، فقد قدم مكة ورسول الله

(١) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

بها ، فمشي إليه رجال من قريش وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً ، فقالوا له : « يا طفيل إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وقد فَرَّقَ جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرِّق بين الرجل وأبيه ، وبينه وأخيه وزوجته ، وأنا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا ، فلا تكلمْهُ ، ولا تَسْمَعْ مِنْهُ شَيْئاً » .

يقول الطفيل : فوالله ما زالوا بي حتى أَجْمَعْتُ أَنْ لا أسمع منه شيئاً ولا أَكَلِّمُهُ ، حتى حشوت في أُذُنِي حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفاً ، فَرَقاً مِنْ أَنْ يَبْلُغَنِي شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِ ، وأنا لا أريد أَنْ أَسْمَعَهُ .

قال : فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله قائم يصلي عند الكعبة .

قال : فقمْتُ مِنْهُ قَرِيباً فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِهِ فَسَمِعْتُ كَلَاماً حَسَناً ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « وَائْكُلْ أُمِّي ، وَاللَّهِ إِنِّي لَرَجُلٌ لَبِيبٌ ، شَاعِرٌ ، مَا يَخْفَى عَلَيَّ الْحَسَنَ مِنَ الْقَبِيحِ ، فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَسْمَعَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ . فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَأْتِي بِهِ حَسَناً قَبْلَتَهُ وَإِنْ كَانَ قَبِيحاً تَرَكْتُهُ . فَمَكِّثْتُ حَتَّى انصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى بَيْتِهِ ، فَاتَّبَعْتُهُ ، حَتَّى إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ ، دَخَلْتُ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ :

« يَا مُحَمَّدُ إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ قَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا ، فَوَاللَّهِ مَا بَرَحُوا يَخَوْفُونَنِي أَمْرَكَ حَتَّى سَدَدْتُ أُذُنِي بِكُرْسُفٍ ، لئَلَّا أَسْمَعَ قَوْلِكَ ، ثُمَّ أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَسْمِعَنِي قَوْلَكَ ، فَسَمِعْتُهُ قَوْلًا حَسَنًا ، فَأَعْرَضَ عَلَيَّ أَمْرَكَ » .

قال : فعرض عليَّ رسول الله صلى الله عليه وآله الإسلام وتلا عليَّ القرآن . فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه .

قال : فأسلمت وشهدت شهادة الحق^(١) .

ومما نقل في هذا المجال أَنَّ الْأَعْشَى ، أَحَدَ شُعْرَاءِ الْعَرَبِ ، الطَّائِرُ الصَّيْتُ ، بَلَغَ إِلَيْهِ الْإِسْلَامَ ، فَخَرَجَ يَرِيدُهُ ، فَمَدَحَ النَّبِيَّ بِقَصِيدَةٍ أَدْرَجَ فِيهَا كَثِيرًا مِنْ تَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ ، مَسْتَهْلَهَا .

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ١ ، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

ألم تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَبِتَ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدَا
إِلَى أَنْ قَالَ :

نَبِيًّا يَرَى مَا لَا تَرُونَ ، وَذَكَرَهُ أَغَارَ لِعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدَا
فِيَاكَ وَالْمَيْتَاتِ لَا تَقْرِبْنَهَا وَلَا تَأْخُذْنَ سَهْمًا حَدِيدًا لَتَفْصِدَا
وَذَا النُّصَبِ الْمَنْصُوبَ لَا تَنْسَكُنَّهُ وَلَا تَعْبُدِ الْأَوْثَانَ ، وَاللَّهُ فَاعْبُدَا
وَلَا تَقْرِبْنَ حَرَّةَ كَانَ سِرُّهَا عَلَيْكَ حَرَامًا ، فَاَنْكُحْنَ أَوْ تَأْبُدَا
وَذَا الرَّحِمِ الْقَرْبَى فَلَا تَقْطَعْهُ لِعَاقِبَةٍ وَلَا الْأَسِيرِ الْمُقَيَّدَا
وَسَبِّحْ عَلَى حَيْنِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى وَلَا تَحْمَدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهُ فَاَحْمَدَا

فلما ورد الأعشى مكة ، اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن أمره ، فأخبره أنه جاء يريد رسول الله ليسلم فقال له : يا أبا بصير ، إنه يحرم الزنا .

فقال الأعشى : والله إن ذلك لأمر مالي فيه أرب .

فقال له : يا أبا بصير ، فإنه يحرم الخمر .

فقال الأعشى : أمّا هذه فوالله إن في النفس منها لعلالات ، ولكني منصرف فأتروى منها عامي هذا ثم آتية فأسلم ، فانصرف . فمات في عامه ذلك ، ولم يعد إلى رسول الله^(١) .

٢ - عزو القرآن إلى السحر

أدرك فصحاء قريش وبلغاؤهم أن القرآن لا يشبه كلام الإنس ، وهو فوق كلامهم ، ولما كان مقتضى العجز ، اعتناق الدين الذي كان النبي يدعو إليه ، خدعوا عقولهم وعقول قومهم بتفسيره بالسحر ، بحجة أن السحر يفرق ، والقرآن

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ص ٣٨٦ وأضاف الشهرستاني في كتابه « المعجزة الخالدة » ، ص ٢١ : واجتمعت عليه قريش لما سمعت خبره وبمدحه النبي الأُمِّي في قصيدة دالية ، جاء بها ليجعلها مقدمة إيمانه وإذعانه ، وقالوا للأعشى : « إن أنشدته هذه القصيدة لم يقبلها منك » . ولم يزالوا يخدعونهم ويمعنونه حتى سافر إلى البهامة ، وقال : « أقضي أياماً هناك ثم أعود إليه » .

أيضاً فرّق بينهم . وهذا هوريجانة قريش ، الوليد بن المغيرة ، وقد اجتمع مع رؤساء قريش في دار الندوة ، فقال لهم : «إنكم ذوو أحساب وذوو أحلام ، وإن العرب يأتونكم ، فينطلقون من عندكم على أمر مختلف ، فأجمعوا أمركم على شيء واحد . ما تقولون في هذا الرجل ؟ » .

قالوا : « نقول :

١ - إنه شاعر » .

فعبس عندها ، وقال : « قد سمعنا الشعر ، فما يشبه قوله الشعر » .

فقالوا :

٢ - « إنه كاهن » .

قال : « إذا تأتونه فلا تجدونه يحدث بما تحدث به الكهنة » . قالوا :

٣ - « إنه لمجنون » .

فقال : « إذا تأتونه ، فلا تجدونه مجنوناً » . قالوا :

٤ - « إنه ساحر » .

قال : « وما الساحر ؟ » .

قالوا : « بشر يحبون بين المتباغضين ، ويبغضون بين المتحابين » .

قال : « فهو ساحر » .

فخرجوا لا يلقي أحد منهم النبي إلا قال :

يا ساحر ، يا ساحر » .

واشتد على النبي ذلك ، فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَدْتُ لَهُ نَمِيمًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأْرِيقُهُ ضَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قَبِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَفَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ * إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ (١) .

(١) سورة المدثر : الآيات ١٢ - ٢٦ .

وفي روايةٍ ، بعدما وصف الوليد ما سمع من كلام محمد ، بقوله : « ما هو من كلام الإنس الخ . . »^(١) . ذهب إليه أبو جهل ، فقعد إلى جنبه حزينا ، فقال له الوليد : « ما لي أراك حزينا يابن أخي » .

قال : « هذه قريش يعيبونك على كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد » .

فقام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه ، فقال : « أتزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يخفق ؟ » .

فقالوا : « اللهم لا » .

قال : « أتزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتم عليه شيئاً من ذلك » ؟ .

قالوا : « اللهم لا » .

قال : « أتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه أنه ينطق بشعر قط » ؟ .

قالوا : « اللهم لا » .

قال : « أتزعمون أنه كذاب ، فهل جربت عليه شيئاً من الكذب » ؟ .

قالوا : « اللهم لا » .

فقال قريش للوليد : « ما هو ؟ » .

فتفكر في نفسه ، ثم نظروا عيس ، فقال : « ما هو إلا ساحر . ما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ، وولده ومواليه ؟ . فهو ساحر ، وما يقوله سحر يُؤثر »^(٢) .

إن تفسير القرآن بالسحر ، وتوصيف الداعي بالساحر - كما نقله القرآن في غير واحد من آياته - أدل دليل على أن فصحاء العرب وجدوا العجز في أنفسهم

(١) تقدم كلامه في الصفحة السابقة .

(٢) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ .

ورأوا أنّ الهزيمة في حلبة السباق معقودة بنواصيهم ، فما وجدوا مخلصاً لتعمية من يفد على مكة في أيام الحج من عرب الجزيرة إلا بتفسيره بشيء ينطلي على طباع السفهاء وأذهان السذج من الناس ، وهو أنّه سحر والجائي به ساحر ، بحجة الإشتراك في الأثر .

وعلى ضوء ذلك تعود كلُّ الشرائع السايوية سحراً والأنبياء سحرة ، بحجة أنهم كانوا يفرّقون بشرائعهم بين أفراد الأمة الواحدة^(١) .

وكيف يكون القرآن سحراً ، والسحر لا يبقى بعد موت الساحر ، ولا يؤثّر في أقوياء النفوس ، وها هو القرآن قد مرَّ عليه حتى اليوم أربعة عشر قرناً ، ولما يزل غصّاً طرياً كما كان ، لم يتضاءل نوره وأثره بمرور الزمان ، وتوالي الأعقاب في الأحقاب ، كما خضع له أعظم أهل الفكر والتعلقل من البشر .

٣- دعوة القصاص لسرد الأساطير

وقد عمد رؤساء قريش ، لإحباط تأثير القرآن الكريم - بعد أن رأوا أنّ الناس يدركون بفراستهم وفطنتهم أنّ للقرآن جاذبية غريبة لم يسبقه كلام في الخلاوة ، ولا حديث في العذوبة ، ولا عبارات في العمق ، يتقبّله كل قلب واع ، وتسكن إليه كل نفس مستعدة - عمدوا إلى تخطيط تدبير آخر ، ظناً منهم بأنّ تنفيذه سيصرف الناس عنه ، ألا وهو معارضة القرآن الكريم ، بدعوة النضر بن الحارث ليسرد للناس أخبار ملوك الفرس وقصصهم وحكايتهم وأساطيرهم ، وما طلبوا منه القيام بهذا العمل إلاّ ليلهي به الناس عن الإصغاء إلى القرآن الكريم .

فقام بهذا العمل ولكن كانت خطتهم ، خطة حمقاء إلى درجة أنها لم تدم إلاّ عدّة أيام ، لأنّ قريشاً سئمت من أحاديث النضر ، وتفرّقت عنه^(٢) .

* * *

(١) قد ورد تفسير القرآن بالسحر ، والداعي بالساحر ، في عدّة آيات منها في الأول الصافات : الآية ١٥ ، الأحقاف : الآية ٧ ، سبأ : الآية ٤٣ . وفي الثاني : يونس : الآية ٣ ، ص : الآية ٤ .

(٢) لاحظ السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٣٥٨ و ٣٥٠ .

المسلك الثاني

في إثبات إعجاز القرآن

تحليل إعجاز القرآن الكريم

المتسالم عليه بين العلماء أنّ القرآن كتاب سماوي معجز ، لا يقدر الإنسان - مهما عظمت طاقاته - على الإتيان بمثله . ولكن عندما يُتساءل عن سرّ إعجازه ، يتوقف الكثير منهم في ذلك ولا يأتون بكلمة شافية تغني السائل .

فمنهم من ذهب إلى أنّ شأن الإعجاز عجيب ، يُدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن ، تُدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحاة . وأضافوا : « إنّ مدرك الإعجاز هو الذوق ليس إلّا ، وطريق اكتساب الذوق ، طول خدمة علميّ المعاني والبيان . نعم ، للبلاغة وجوه مثلثة ، وربما تيسرت إمطاة اللثام عنها لتتجلى عليك . أمّا نفس الإعجاز ، فلا »^(١) .

ومنهم من يميل سبب الإعجاز إلى فرط الفصاحة والبلاغة ، من دون أن يشرح السبب ، ويطرح آيات من القرآن على منضدة التشرّيح ، ويقارنها بكلام من كلم فصحاء العرب وبلغائهم وأقصى ما عندهم هو التصديق بكونه معجزاً بحجة أنّ أساطين البلاغة وأساتذتها عجزوا عن الإتيان بمثله في عصر نزول القرآن . ولكن هذا دليل إقناعي ، ورجوع إلى أهل الخبرة .

إلّا أنّ هناك جماعة من المحققين لم يقنعوا بهذا القدر دون البحث عن حقيقة

(١) مفتاح العلوم ، للسكاكي ، قسم البيان ، ص ١٧٦ .

إعجازه ، فبحثوا ونقبوا حتى رفعوا اللثام عن وجه إعجازه ، وبينوا الدعائم والأركان التي يقوم عليها تفوقه على كلام البشر ، قائلين :

هل يمكن أن يُعرّف سبحانه كتابه النازل على نبيّه ، معجزاً وخارقاً ، ويباري الناس ويدعوهم إلى مقابلته والإتيان بمثله ، ثم لا يوجد فيه حتى إشارات إلى ملاك إعجازه ووجه تفوقه ؟! إن مثل هذا لا يصدر عن الحكيم تعالى .

فعلى ضوء ذلك ، لا بُدّ لنا من الإمعان في آيات القرآن الكريم حتى نلمس ونستكشف ملاك إعجازه وخرقه للعادة ، وهذا هو ما نتعاطاه في هذا التحليل والذي تبيّن لنا بعد دراسة ما كتبه المحققون حول إعجاز القرآن ، وبعد الإمعان في نفس آيات الذكر الحكيم ، أن ملاك تفوقه هو الأمور الأربعة - الآتي ذكرها - مجتمعة .

أجل ، إن ما نركّز البحث عليه في المقام راجع إلى الإعجاز البياني للقرآن ، الذي كان هو محور الإعجاز في عصر النزول وعند فصحاء الجزيرة ، وبلغائهم ، وبه وقع التحدي . وأمّا إعجازه من جهات أخرى ، ككون حامله أمياً ، وكونه مبيناً للعلوم الكونية التي وصل إليها البشر بعد أحقاب من الزمن ، أو إخباره عن المُغيّبات ، أو كونه مصدراً لتشريع مُتّقن ومتكامل ، أو غير ذلك من الجهات ، فلا يمكن أن نعدّها أركاناً للإعجاز ، ووجه ذلك أنّ القرآن سَحَرَ العرب من اللحظة الأولى لنزوله ، سواء منهم في ذلك من شرح الله صدره للإسلام ومن جعل على بصره غشاوة . وكان القرآن هو العامل الحاسم في أوائل أيام الدعوة ، يوم لم يكن للنبي حول ولا طول ، ولم يكن للإسلام قوة ولا منعة .

فلا بُدّ أن نبحت عن منبع السحر في القرآن ، قبل التشريع المُحكّم ، وقبل النبوة الغيبيّة ، وقبل العلوم الكونية ، وقبل أن يصبح القرآن وحدة مكتملة تشتمل على هذه المزايا . فقليل القرآن الذي كان في أيام الدعوة الأولى ، كان مجرداً عن هذه الأشياء التي جاءت فيما بعد ، وكان مع ذلك محتوياً على هذا النبع الأصيل الذي تذوقه العرب ، فقالوا إنّ هذا إلّا سحر يُؤثّر .

إننا نقرء الآيات الكثيرة في هذه السور فلا نجد فيها تشريعاً محكماً ، ولا

علوماً كونية ، ولا نجد إخباراً بالغيب يقع بعد سنين ، ومع ذلك سحر عقول العرب وتحدث عنه ابن المغيرة بعد التفكير والتقدير ، بما تحدث .

لا بدّ إذن أنّ السحر الذي عناه ، كان كامناً في مظهر آخر غير التشريع والغيبيات . العلوم الكونية ، لا بدّ أنّه كامن في صميم النسق القرآني ذاته ، وكان هذا يتجسّ من خلال التعبير الجميل المؤثر المعبر المصوّر .

وسل ذلك فالجمال الفني الخالص ، عنصر مستقل في إثبات إعجاز القرآن^(١) ، ويتجلى ذلك في أمور أربعة تضيف على القرآن - مجتمعة - إعجازه وتفوّقه ، وهي :

١ - فصاحة ألفاظه وجمال عباراته .

٢ - بلاغة معانيه وسموها .

٣ - روعة نظمه^(٢) وتأليفه . ويراد منه : ترابط كلماته وجمله ، وتناسق آياته ، وتآخي مضامينه ، حتى كأنّها بناء واحد ، متلاصق الأجزاء ، متناسب الأشكال ، لا تجد فيه صدعاً ولا انشقاقاً .

٤ - بداعة أسلوبه الذي ليس له مثيل في كلام العرب ، فإنّ لكل من الشعر والنثر بأقسامه ، أسلوباً وسبكاً خاصاً ، والقرآن على أسلوب لا يماثل واحداً من الأساليب الكلامية والمناهج الشعرية .

وهذه الدعائم الأربع إذا اجتمعت ، تخلق كلاماً له صنع في القلوب ، وتأثير في النفوس . فإذا قرع السمع ، ووصل إلى القلب ، يحسّ الإنسان فيه لذّة وحلاوة في حال ، وروعة ومهابة في أخرى ، تقشعر منه الجلود ، وتلين به القلوب ، وتنشرح به الصدور ، وتغشى النفوس خشية ورهبة ووجد وانبساط ، ويحسّ البليغ بعجزه عن المباراة والمقابلة . ولأجل ذلك ، كم من عدو للرسول من

(١) لاحظ التصوير النبي في القرآن الكريم سيد قطب فصل سحر القرآن ، ص ١١ - ٢٣ .

(٢) ربما يطلق النظم في كلماتهم ويراد منه الأسلوب والسبك الذي هو الأمر الرابع ، ولأجل ذلك نردفه بالتأليف حتى لا يشتبه المراد .

رجال العرب وفَتَّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبسوا حين وقعت في مسامعهم ، أن تَحَوَّلُوا عن رأيهم الأول ، وركنوا إلى مسالته ، ودخلوا في دينه ، وانقلبت عداوتهم موالاةً ، وكفرهم إيماناً .

يقول سبحانه : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (١)

ويقول سبحانه : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ (٣)

هذا ما يثبت التحليل الآتي لكل من هذه الدعائم . فليس المدعى كون كل واحدة منها ، وجهاً مستقلاً للإعجاز ، وإنما المراد أن كل واحدة منها توجد أرضية خاصة ، ليتشكل باجتماعها كلامٌ معجزٌ خارق ، مُبهر للعقول ، ومدهش للنفوس . فيجد الإنسان في نفسه العجز عن المباراة . والضعف عن التحدي .

هذا ، وقد نقل السيوطي عن عدّة من المحققين في مسألة إعجاز القرآن أقوالاً كثيرةً ، غير أن بعضها خارج عن الإطار البياني ، الذي نحن بصدد تشريحه ، مثل انطواء القرآن على الإخبار بالمُغَيَّبَاتِ ، الذي سنذكره في عداد الشواهد الدالة على أن القرآن كتاب إلهي لا بشري ، ولكن لبّ هذه الأقوال - التي ترجع إلى الإعجاز البياني - يتلخص في الدعائم الأربع التي اخترناها أساساً للإعجاز .

ولأجل توضيح هذه الدعائم الأربع نأتي بمقدمة نبين فيها معنى الفصاحة والبلاغة ، حتى يتبين نسبة كل واحدة من هذه الدعائم إلى الأخرى .

(١) سورة الحشر : الآية ٢١ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٢٣ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٨٣ .

(٤) لاحظ الإنتقان في علوم القرآن ، ج ٤ ، ص ٦ - ١٧ ط مصر ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

تعريف الفصاحة

الفصاحة يوصف بها المفرد كما يوصف بها الكلام .

والفصاحة في المفرد عبارة عن خلوصه من تنافر الحروف ، والغرابية ، ومخالفة القياس اللغوي المستنبط من استقراء اللغة العربية .

وقد ذكر القوم للتنافر وجهاً أو وجوهاً ، والحق أنه أمر ذوقي ، وليس رهن قرب المخارج ، ولا بعدها دائماً .

وأما الفصاحة في الكلام ، فهي خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد ، مع فصاحتها ، أي يشترط مضافاً إلى الشرائط المعتبرة في فصاحة المفرد ، الأمور الثلاثة الواردة في صدر التعريف .

ثم إنَّ التعقيد تارة يحصل بسبب خلل في نظم الكلام ، بمعنى تقديم ما حقه التأخير وبالعكس ، وأخرى بسبب بُعد المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الكناي المقصود .

والتكفل لبيان الخلل في النظم هو النحو . والتكفل لبيان الخلل في الإنتقال هو علم البيان ، فبما أنه علم يبحث فيه عن إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه وخفائه ، يشرح لنا التعقيد المعنوي ومراتبه ، فإن لكل معنى لوازم ، بعضها بلا واسطة ، وبعضها بواسطة ، فيمكن إيراده بعبارات مختلفة في الوضوح والخفاء^(١) .

(١) وبعبارة أخرى : إنَّ إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في الوضوح ، لا يتأتى بالدلالة المطابقة ، لأنَّ السامع إن كان عالماً بوضع الألفاظ ، لم يكن كل واحد منها دالاً عليه ، وإن كان عالماً لم يكن بعضها أوضح دلالة عليه من بعض آخر ، وإنما يتأتى في الدلالة العقلية ، لجواز أن تختلف مراتب اللزوم في الوضوح . ويتضح ذلك في الدلالة ، الإلزامية مثل دلالة قولنا : « زيد كثير الرماد » و« زيد جبان الكلب » ، و« زيد مهزول الفصيل » ، على لازمه ، أعني كون زيد جواداً فالكل يدلُّ على ذلك اللازم ، لكن يختلف في الوضوح والخفاء ، لقلة الوسائط أو كثرتها .

وبما أنَّ الخفاء والوضوح في الإنتقال إلى المعنى اللازم يتأتى في الدلالة الإلزامية ، انحصر المقصود من علم البيان في التشبيه والمجاز ، والكنائية ، لكون المقصود من الجميع هناك هو المعنى الخارج عن المدلول اللغوي للفظ ، فالمراد من المجاز هو المعنى غير الموضوع له بادعاء كونه من مصاديق

تعريف البلاغة

البلاغة في الكلام عبارة عن مطابقتها لمقتضى الحال ، أي مطابقتها للغرض الداعي إلى التكلم على وجه مخصوص . مثلاً : كون المخاطب منكراً للحكم ، حال يقتضي تأكيده ، والتأكيد مقتضى الحال . كما أنّ كون المخاطب مستعداً لقبول الحكم ، يقتضي كون الكلام عارياً عن التأكيد ، والإطلاق مقتضاها ، وهكذا في سائر الأبواب .

هذا كله مع لزوم اعتبار فصاحة الكلام في تحقق البلاغة ، فالبلاغة لها عمادان . أحدهما مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، والثاني فصاحة الكلام .

وها هنا نكتة وهي أنّ القوم حصروا معنى البلاغة في هذا المعنى ، وحاصله كون عرض المعنى موافقاً للغرض الداعي إلى التكلم (مع فصاحة الكلام) ، وجعلوا للبلاغة بهذا المعنى طرفين :

أحدهما : أعلى ، وهو حدّ الإعجاز ، وهو أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته .

والثاني : ما لا يبلغ إلى هذا الحدّ .

ولكل واحد درجات ومراتب .

ولا يخفى أنّ جعل البلاغة بهذا المعنى (أي العرض الصحيح المطابق للغرض) لا يكون ركن الإعجاز وإن بلغ الكلام إلى نهاية الإتقان في العرض ، ما لم يضمّ إليه شيء آخر ، وهو إتقان المعاني وسمو المضامين . وإلاّ فالمعاني المبتذلة ، والمضامين المتوفرة بين الناس إذا عرضت بشكل مطابق للغرض الداعي إلى التكلم ، لا يصير الكلام معها معجزاً خارقاً للعادة .

= الموصوع له ، كما أنّ المراد من الكناية هو المعنى المكّن عنه لا المكّن به . وأما التشبيه فهو وإن كان حالياً عن الدلالة الالتزامية ، لكنه يبحث عنه مقدمة للإستعارة التي هي من أقسام المحاز . وبذلك يعلم أن الأولى تفديم علم البيان على علم المعاني ، لكون الأول متكفلاً بتفسير التعقيد المعنوي الدخل بالفصاحة ، وأما علم المعاني فهو يرجع إلى البلاغة ، كما سيظهر .

ولأجل ذلك كان على القوم الذين جعلوا الفصاحة والبلاغة ركنين للإعجاز ، وملاكين له ، إضافة قيد آخر ، وهو كون المعاني والمضامين عالية وسامية ، تسرح فيها النفوس ، وتغوص فيها العقول .

ومن هنا نرى أن بعض أساتذة هذا الفن المعاصرين ، عرفوا البلاغة بشكل آخر ، قالوا : هي تأدية المعنى الجليل واضحاً بعبارة صحيحة فصيحة ، مع ملائمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه ، والأشخاص الذين يخاطبون^(١) .

فترى أنه أضيف في التعريف وراء ملائمة كل كلام للموطن (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) ، كون المعنى جليلاً .

وسيوافيك أن هذا المقدار من التعريف أيضاً غير واف للراقي بالكلام إلى حد الإعجاز ، بل يحتاج إلى دعامة أخرى وهي بداعة الأسلوب ورقية ، كما سيوافيك .

نكتة مهمّة

إنّ ها هنا نكتة تلقي الضوء على سبب حصر فصاحة القرآن - كما سيأتي - في خلوه عن تنافر الحروف والكلمات ، وتركنا البحث عن كل ما ذكره في فصاحة المفرد والكلام من الشرائط المتعددة ، فهل هذا يعني إنكار دخالة غيره في الفصاحة ، أو له معنى آخر ؟ .

والجواب : إنّ كون الكلمة متلائمة الحروف في فصاحة المفرد ، وكون الكلام متلائم الكلمات في فصاحة الجملة ، له القسط الأوفر في تحقيق الفصاحة ، لأنّ الفصاحة تعتمد على مقاطع الحروف والكلمات أكثر من كل شيء . وأمّا غير ذلك ، بما ذكره في تعريفهما ، فكأنّها معدّات لخروج الكلام عذباً حسناً ، بهيئاً نظيراً ، له وقع في القلوب . ولأجل ذلك ركزنا على حديث تلاؤم الحروف والكلمات ، وخلوها عن التنافر ، هذا .

(١) البلاغة الواضحة ، ص ٨ .

على أنّ البحث عن اشتغال القرآن على مخالفة القياس في فصاحة المفرد ،
 وضعف التأليف في فصاحة الكلام ، بحث زائد ، لأنّ القواعد تُعرّض على
 القرآن ، ولا يعرض القرآن عليها ، لأنّه إمّا هو كلام إلهي فهو فوق القواعد ،
 وإمّا كلام بشري ، فهو صَدَرَ من عربي صميم في أعرق بيت من العرب ، ترحل
 إليه المواكب وتحطّ رحالها عنده . والمؤمن والملحد يعترفان بكون القرآن في درجة
 عالية من الكلام الذي ينبغي أن يُحتذى ويُقتدى .

* * *

دعائم إعجاز القرآن

(١)

الفَصَاحَةُ : جمال اللفظ وأناقة الظاهر

اعتمد علماء المعاني والبيان في تعريف فن الفصاحة على أمور ، وقد عرفت في المقدمة السابقة - نصوصهم على تلك الأمور .

لكن المهم في الفصاحة ، كون الكلمة عذبة مألوفة الإستعمال ، جامعة لنعوت الجودة وصفات الجمال ، كما أنّ المهم في فصاحة الكلام تلاؤم الكلمات في الجمل ، فإنّ التلاؤم يوجب حسن الكلام في السمع ، وسهولته في اللفظ ، وتقبل النفس معناه بوجه مطبوع ، لما يرد عليها المعنى بصورة حسنة ودلالة واضحة .

وأما غير العذوبة والتلاؤم من الشرائط فهو في الدرجة الثانية من تحقيق معنى الفصاحة ، وقد عرفت عدم اعتبار البعض - كمخالفة القياس في فصاحة المفرد ، وضعف التأليف بمعنى كونه على خلاف القانون النحوي المشتهر - في الفصاحة القرآنية ، لأنّ القرآن هو المقياس لهما .

والذوق السليم هو العُمْدَةُ في معرفة حسن الكلمات وسلاستها وتمييز ما فيها من وجوه البشاعة ومظاهر الإستكراه . لأنّ الألفاظ أصوات ، فالذي يطرب لصوت البلبل ، وينفر من أصوات البوم والغربان ، ينبو سمعه عن الكلمة إذا كانت غريبة متنافرة الحروف . ألا ترى أنّ كلمتي « المُرْنة » ، و « الديمة » للسحابة الممطرة ، كلتاهما سهلة عذبة ، يسكن إليهما السمع بخلاف كلمة « البعاق » التي في معناها ، فإنّها قبيحة ، تصكّ الأذان . وأمثال ذلك كثير في مفردات اللغة ،

تستطيع أن تدركه بذوقك . وهذا نظير الخط الحسن ، فإنه يوجب إقبال الناس على قراءته ، وإمعان النظر في معناه ، بخلاف ما إذا كتب نفس ذلك الكتاب بخط رديء غير واضح .

يقول الإمام يحيى بن حمزة العلوي : « إن الفصاحة راجعة إلى الألفاظ ، والبلاغة راجعة إلى المعاني » . ويشرحه في مكان آخر بقوله : « إن المزايا الراجعة إلى الألفاظ ، تارة ترجع إلى مفردات الحروف ، وأخرى إلى تأليفها من تلك الحروف ، وثالثة إلى مفردات الألفاظ ، ومرة إلى مركباتها . فهذه أوجه أربعة لا بدّ من اعتبارها في كون اللفظ فصيحاً »^(١) .

ولأجل أن لتلاؤم الحروف والكلمات دوراً عظيماً في الفصاحة ، نركّز في هذا البحث ، على الخلو من تنافر الكلمة والكلمات ، بأن لا تكون نفس الكلمة ثقيلة على السمع ، كما لا يكون اتصال بعضها ببعض مما يسبب ثقلها على السمع وصعوبة أدائها باللسان . وبما أن مخارج الحروف مختلفة ، فمنها ما هو من أقصى الحلق ، ومنها ما هو من أدنى الفم ، ومنها ما هو بين ذلك ، فلا بدّ في حصول التلاؤم من مراعاة تلك الصفات ، بأن لا يكون بين الحروف بُعدٌ شديد ، أو قُربٌ شديد ، فعندها تظهر الكلمة أو الكلام سهلاً على اللسان ، وحسنًا في الأسماع ، ومقبولاً في الطباع . وهذا إن لم يكن ملاكاً كلياً لتمييز المتلائم عن المتنافر ، إلا أنه ميزان غالبي ، فلاحظ البيتين التاليين ترى الكلام في أحدهما في نهاية التنافر ، وفي الآخر في كمال التلاؤم .

قال الشاعر :

وَقَبْرٌ حَرْبٌ بِمَكَانٍ قَفْرٌ وَلَيْسَ قُرْبٌ قَبْرٍ حَرْبٍ قَبْرٌ
فقل ، إن هذا البيت يعسر لأحد أن ينشده ثلاث مرات متواليات دون أن يتتبع ، لأن اجتماع كلماته ، وقرب مخارج حروفها يحدثان ثقلًا ظاهرًا ، وإن كانت كل واحدة منها غير مستكرهة ولا ثقيلة .

وقال شاعر آخر :

(١) الطراز : ص ٢١٤ و ٢٢٠ .

رَمَتْني وَسِئْرُ الله بَيْنِي وَبَيْنَهَا عَشِيَّةَ آرَامِ الْكِنَاسِ رَمِيمٌ^(١) .
ولأجل دخالة عذوبة الكلمة وتلاؤم الكلمات في تحقق الفصاحة ، أدرك
صيافة الكلام ، ومشاهير الفصحاء في عصر النبي ما عَبَّرَ عنه الوليد بن المغيرة
بقوله : « إِنَّ لَهُ حَلَاوَةً وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَاوَةً » .

يقول الإمام يحيى بن حمزة في شأن تركيب مفردات الألفاظ العربية ، الذي
له دور كبير في فصاحة الكلام : « وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ مِرَاعَاةِ أَمْرَيْنِ :

أَمَّا أَوَّلًا : فَانْ تَكُونُ كُلُّ كَلِمَةٍ مَنْظُومَةً مَعَ مَا يَشَاكِلُهَا وَيَمَازِلُهَا ، كَمَا يَكُونُ
فِي نِظَامِ الْعَقْدِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَحْسُنُ إِذَا كَانَ كُلُّ خَرَزَةٍ مُؤْتَلَفَةٍ مَعَ مَا يَكُونُ إِشْكَالًا لَهَا .
لأنَّه إِذَا حَصَلَ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ كَانَ لَهُ وَقَعٌ فِي النُّفُوسِ وَحُسْنٌ مَنْظَرٍ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ .
وَأَمَّا ثَانِيًا : فَإِذَا كَانَتْ مُؤْتَلَفَةً ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَقْصِدَ مَا وَضَعَ لَهَا بَعْدَ إِحْرَازِ
تَرْكِيبِهَا .

والمثال الكاشف عما ذكرناه ، العقد المنظوم من اللثالي ونفائس الأحجار ،
فإنَّه لَا يَحْسُنُ إِلَّا إِذَا أُلْفَ تَأْلِيفًا بَدِيعًا ، بحيث يجعل كل شيء من تلك الأحجار
مع ما يلائمه . ثم إذا حصل ذلك التركيب على الوجه الذي ذكرناه ، فلا بُدَّ من
مطابقته لما وضع له ، بأن يجعل الإكليل على الرأس ، والطوق في العنق ،
والشنف في الأذن ، ولو أُلْفَ غير ذلك التأليف ، فلم يجعل كل شيء في موضعه ،
بَطَلَّ ذَلِكَ الْحُسْنُ . وزال ذلك الرونق «^(٢) .

مثلاً : قوله سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾^(٣) .

إنَّ هذه الآية تَمِيزًا ذاتيًا عن كلام البشر ، لا يتهاوى فيه منصف ، ولا يشبهه
على من له ذوق في معرفة فصاحة الكلام . وذلك التميز رهن فصاحة أبنيتها ،

(١) هذا البيت لأبي حبة النُمَيْرِي من شعراء الحِمْيَاسَةِ ، لاحظ شرح الحِمْيَاسَةِ للتبريزي ، طبع
عَمِي الدِّين ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ .

(٢) الطراز ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٣) سورة الشورى : الآية ٣٢ .

وعذوبة تركيب أحرفها ، وكونها مجانبية للوحشي الغريب ، وبعدها عن التركيب المسترذل ، مضافاً إلى سلاسة صيغها .

فإنه سبحانه قال : ﴿ الْجَوَارِ ﴾ ، ولم يقل : « الفُلُك » ، لما في الجَرِّي من الإشارة إلى باهر القدرة حيث أجراها بالريح ، وهي أرق الأشياء وألطفها ، فحرك ما هو أثقل الأمور ، وأعظمها في الجرم . (والفُلُك ، وإن كان مثل الجوار في العذوبة ، لكنه يفقد النكتة التي يشملها الآخر) .

وقال سبحانه : ﴿ فِي الْبَحْرِ ﴾ ، ولم يقل : « في الطمطم » . ولا : « في العُباب » . والكل من أسماء البحر ، لأن البحر أسهل وأسلس ، وبالتالي أعذب وأجمل .

وقال سبحانه : ﴿ كَالْأَغْلَامِ ﴾ ، ولم يقل : « كالروابي » ، ولا : « كالأكام » ، إيثارةً للأخف الملتذ به ، وعدولاً عن الوحشي المشترك^(١) .

من عجائب القرآن أنه يعتمد إلى ألفاظ ذات تركيب يغلب عليه الثقل والخشونة ، فيجمعها في معرض واحد ، ثم ينظم منها آياته ، فإذا هي وضيفة مشرقة ، متعانقة متناسقة . ومن نماذج ذلك ، قوله سبحانه :

﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتُوْا تَذْكُرُ يُوْسُفَ حَتّٰى تَكُوْنَ حَرَضًا اَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْهَالِكِيْنَ ﴾^(٢) .

إسمعها ، هل تجد نبرةً تחדش أذنك ؟ . واقرأها ، فهل تجد لفظاً يتعثر على شفتيك ، أو يضطرب في لسانك ، فيا لها من سلاسة وعذوبة واتساق ، مع أن فيها كلمات ثقيلة بمفردها ثقلاً واضحاً في الأذن وعلى اللسان ، أعني قوله : « تالله . . . تفتؤ . . . حرضاً » . ولكنها حين اجتمعت في نظم قرآني ، خفت ثقلها ، ولأن يابسها . وسلس جامعها ، وانقاد وذلّ نافرها ، فإذا هي عرائس مجلوة ، تختال في روض نصير . فهذه ثلاث كلمات من أثقل الكلام ، قد انتظمت

(١) الطراز ، ج ٣ ، ص ٢١٥ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٨٥ .

مع خمس كلمات أخرى ، فكان من ثنائيتها عقد تنظيم يقطر ملاحظة وحسناً .
وأيضاً ، من بدائع القرآن وغرائبه أنه يكرر الحرف الثقيل في آية واحدة ،
ولكنه يلطفه بحروف خفيفة بنحو يعلو مجموع العذوبة والخفة ، مكان الثقل
والخشونة ، ومن هذا النوع قوله سبحانه : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا
وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴾ (١) .

فقد جمعت هذه الآية ثمانية عشر ميماً ، مثورة بين كلماتها ، حتى كأن الآية
مشكلة كلها من ميمات ، كما ترى في « أمم ممن معك . . . وأمم ستمتعهم » ،
ومع هذا فإنك إذ تترتل الآية الكريمة على الوجه الذي يُرْتَلُّ به القرآن ، لا تحس أن
هنا حرفاً ثقیلاً قد تكرر تكراراً غير مألوف ، بل تجد الآية قد توازنت كلماتها
وتناغمت مقاطعها في أعدل صورة وأكملها فلا تنافر بين حرف وحرف ، ولا
تباغض بين كلمة وكلمة .

ونظير هذا قوله سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تَوْتِي الْمُلْكِ مَنْ
تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، يَدُوكَ الْخَيْرُ ،
إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

ففي الآية عشر ميمات ، قد جاءت في مطلعها ، ولكنها مع ذلك كأنها ميم
واحدة ، ولو أن حرفاً آخر دخل في نظم الآية لما انبعث منها هذا الصوت القوي
المجلجل ، الذي يقتضيه المقام هنا ، ولتفككت أوصال النظم وتحاذلت قواه .

وهكذا ، إن القاف من أثقل الحروف نطقاً ، تستنفر طاقة الحلق واللسان
ليشتركا في حملها وإخراجها مخرج الأصوات . ومع هذا الثقل ، فقد جاءت في
بعض الآيات مكررة بصورة مأنوسة لا يلتفت قارئها إلى التكرار ، ولا يجد فيها
الجهد والعناء .

(١) سورة هود : الآية ٤٨ . والميم المشددة عند القراءة تحسب اثنين .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٢٦ .

قال سبحانه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ، قَالَ : لَأَقْتُلَنَّكَ . قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

. فقد جاء فيها أحد عشر قافاً ، لو نثرت هذه القافات في كلام أبسط من هذا ، لظهر عليه الثقل ، ولكنها جاءت في هذه الآية من غير أن تحدث قلقاً واضطراباً . وإنما حصل هذا ، لكثرة الباءات واللامات في الآية ، فإن الباء مخرجها الشفة ، فهي أخف الحروف ، وتليها اللام في الخفة ، فإن مخرجها اللسان . وقد بلغت عدة الباء أحد عشر ، واللام خمس عشر ، فأوجب كثرة دوران هذين الحرفين ، تلطيفاً في الثقل الذي توجهه القاف في كيان الآية .

ومثل ذلك ، قوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنَاءُ . سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ، وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٢) .

فقد اجتمعت فيها عشر قافات ، وتكررت فيها اللام أحد عشر مرة ، فكسرت حدة الثقل في القاف ، فترى ماء الحسن يتفرق على محياها ، والملاحاة تقطر من جبينها .

هذه هي الدعامة الأولى للإعجاز ، وليست هي سبباً تاماً له . ولأجل ذلك ربما يوجد في كلام البشر ما هو مشتمل على هذه الدعامة بصورة رفيعة ، مع أنه ليس بكلام معجز ، لإمكان مقابله والإتيان بمثله ، لمن تبخر في تلك الصنعة ، ولأجل ذلك تعلو عليه سياء الصنع البشري ، وما ذلك إلا لأن الإعجاز البياني يبتني على الدعائم الأربع مجتمعة ، وليس ذاك الكلام مستجمعاً لها ليكون معجزاً فإنه يفقد الأسلوب القرآني ، أعني الأسلوب الذي لا يشبه أسلوب المحاورة ولا أسلوب الخطابة ولا الشعر ، كما سيوافيك شرحه . وإليك من ذلك نموذجاً :

إن من أفصح كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام - الذي أصفقت

(١) سورة آل عمران : الآية ٢٧ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨١ .

جهايزة الأدب على أنه فارس ميدان البيان ، وبطل حلبته - قوله في وصف الإنسان :

« أم هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام ، وشُغف الأستار ، نُطفة دهاقا ، وعَلَقَةٌ حِجَاقاً ، وجنيناً ، وراضعاً ، ووليداً ، ويافعاً . ثم منحه قلباً حافظاً ، ولساناً لافظاً ، وبصراً لاحظاً ، ليفهم معتبراً ، ويقصر مُردجراً . حتى إذا قام اعتداله ، واستوى مثاله ، نَفَرَ مُستَكبراً ، وَخَبَطَ سادِراً ، ماتحاً في غَرْبِ هواه ، كادحاً سعيًا لدُنياه ، في لذات طَرَبِه ، وبَدَوَاتِ أَرِيهِ »^(١) .

فإن هذه القطعة من خطبه عليه السلام سبيكة مرصعة بواقيت الكلم ، ومعالي معاني الحكم ، معدودة من مدهشات كلامه ، وقد توفرت فيها جوامع وجوه الحسن . ومع ذلك ، فأين هي من الكلام الإلهي المعجز ، الذي إذا جعلته إلى جنب هذا الكلام ، ظهر بكل وضوح أنه ليس من كلام البشر .

لاحظ قوله تعالى : ﴿ وَاللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(٢) .

أو قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ، ثُمَّ لِنَبْلُوَكُمْ أَشَدُّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتَّقِ ، وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدِّ إِلَىٰ أَزْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنَبِّتُ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٣) .

هذا فيما يرجع إلى الدعامة الأولى لإعجاز القرآن . ويشير النبي الأعظم في كلمة له في تعريف القرآن إلى هذه الدعامة والدعامة التالية :

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ٨٣ .

(٢) سورة النحل : الآية ٧٨ .

(٣) سورة الحج : الآيتان ٥ و ٦ .

قال صلى الله عليه وآله : « إذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم ، فعليكم بالقرآن » . . . إلى أن يصفه بقوله : « ظاهرة أُنِيق ، وباطنه عميق »^(١) .

* * *

(١) الكافي ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

دعائم إعجاز القرآن

(٢)

البلاغة : جمال العرض وسمو المعنى

قد وقفت ، في التعريف الفني للبلاغة على أنها عبارة عن خروج الكلام مطابقاً لمقتضى الحال . فلو كان المقام مقتضياً للتأكيد أو الإطلاق ، وذكر المسند والمُسند إليه أو حذفهما ، والإيجاز أو الإطناب ، وغير ذلك ، جاء الكلام مطابقاً له . وقد أسهب علماء المعاني في تبين مقتضيات الأحوال ، على وجه لم يدعوا لقائل مقالاً .

وقد اهتم بعض من كتب في الإعجاز ، بأمر البلاغة أزيد من غيرها . حتى أنّ الخطابي قال : « وذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أنّ وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة ، ولكن صعب عليهم تفصيلها »^(١) .

غير أننا ركّزنا على أنّ البلاغة بهذا المعنى ، ترجع إلى عرض المقصود بشكل مطلوب ، ومفيد في تحقق غرض المتكلم ، ولكنه لا يكفي في توصيف الكلام بالبلاغة ما لم يضم إليه قيد آخر ، وهو كون المعنى سامياً ورفيعاً ، وقابلاً للذكر والإفادة ، وإلاّ فالمعاني المبتذلة ، وإن ألبست أجمل الحلي ، وعرضت بشكل يقتضيه الداعي إلى التكلم ، لا توصف بالبلاغة ، وعلى فرض صحة التوصيف ، لا يكون مثل ذلك الكلام أساساً للإعجاز ، ولا دعامة له . ولأجل ذلك قلنا إنّ

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، الرسالة الأولى للخطابي ، ص ٢١ .

التعريف الصحيح للبلاغة هو عبارة عن تأدية المعنى الجليل بعبارة صحيحة
صحيحة ، مع ملائمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه .

وعلى ضوء ذلك ، فالكلام الساقط عن الاعتبار من حيث المضمون ، لا
يتَّصف بالبلاغة ، مثل ما حكى عن مسيلمة الكذاب حيث أقسم بالطاحنات ،
وقال « والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجنناً ، والخابزات خبزاً » . فأين هذه
المفاهيم الساقطة السوقية الركيكة الفاقدة لأيّة قيمة ، من المعاني العالية السامية
الواردة في قوله سبحانه : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ﴾ * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ
ضُبْحاً ﴿ (١) .

فاللزام في البحث عن فصاحة القرآن ، التركيز على أمرين :

١ - مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

٢ - سمو المعاني وعلو المضامين .

* * *

الأمر الأول - مطابقة الكلام لمقتضى الحال

إنَّ استقصاء جميع الأحوال التي يقع الكلام مطابقاً لها ، راجع إلى علم
المعاني ، من علمي الفصاحة والبلاغة فذكروا مقتضيات الأحوال في أبواب الإسناد
الخبري ، والمسند إليه ، والمسند ، ومتعلقات الفعل ، والإنشاء ، والفصل
والوصل ، والإيجاز ، والإطناب والمساواة ، فذكروا الأحوال الطارئة على الكلام
ومقتضياتها ، من ذكر المسند إليه وحذفه ، وتنكيره ، وتقديمه وتأخيرها ، وتوصيفه
وتأكيد ، إلى غير ذلك من الأحوال الطارئة على المسند إليه ، وبشكلٍ على
المسند ، ولكل مقام . كما أنَّ لكل من الإيجاز والإطناب والمساواة مقام .

ثم إنَّ دراسة القرآن من حيث كونه مطابقاً للأحوال المقتضية ، يحتاج إلى

(١) سورة العاديات : الآيات ١ - ٣ .

تفسير حافل ، يفسر القرآن من هذا الجانب ، ولعل « الكشاف » أحسن ما كتب في هذا الموضوع ، فقد ذكر الزمخشري فيه ، النكات البلاغية ، في تفسير الآيات ، وبذلك أثبت للقرآن إعجازاً بيانياً خاصاً ، وأن كل آية بل كل كلمة واردة موردها .

ولما كانت الإحالة على مثل هذا الكتاب وغيره ، عن المحذور غير خالية ، نأتي بنماذج تثبت بلاغة القرآن ، وورود آياته وفق مقتضى الحال ، ونختار لذلك سورتين قصيرتين ، من السور المكية ، النازلة في أوائل البعثة .

١ - بلاغة سورة الكوثر

روى المفسرون أن العاص بن وائل السهمي رأى رسول الله صلى الله عليه وآله يخرج من المسجد ، فالتقيا عند باب بني سهم ، وتحدثا ، وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد ، فقالوا : من الذي كنت تتحدث معه . قال : ذلك الأبر ، وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله بن رسول الله وهو من خديجة ، وكانوا يسمون من ليس له ابن أبر ، فسمته قريش عند موت ابنه أبر ، ومبتوراً^(١) ، فأنزل الله سبحانه هذه الآيات :

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾^(٢) .

قال الزمخشري ، في رسالته حول إعجاز سورة الكوثر : « أنظر ، كيف نُظمت النظم الأنيق ، ورُتبت الترتيب الرشيق ، حيث قَدّم منها ما يدفع الدعوى ويرفعها ، وما يقطع الشبهة ويقلعها (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) ، ثم لما يَجِبُ أَنْ يكون عنه مسبباً وعليه مرتباً (فصل لربك وانحر) ، ثم ما هو تمة الغرض من وقوع

(١) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٥٤٩ .

(٢) سورة الكوثر .

العدو في مُغَوَّاتِهِ^(١) التي حفر ، وصَلَّيه بحر ناره التي سَعَر (إنَّ شائتك هو الأَبتر) .

وإليك بيان نكات آياته الثلاث :

﴿ إِنَّا ﴾ .

تأمل كيف من أسند إليه إسداء هذه العطية والموهبة السنية (الكوثر) ، هو ملك السموات والأرض ، ومالك البسط والقبض . فدلَّ بذلك على عظمة المعطي والمُعْطَى ، من المعلوم أنه إذا كان المعطي كبيراً ، كان العطاء كثيراً .
وجمع ضمير المتكلم ، فأعلم بذلك عظم الربوبية .

﴿ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .

استعمل لفظ الماضي مكان المستقبل ، مع أنَّ الكوثر كما يتناول عطاء العاجلة ، يتناول عطاء الآجلة ، وذلك لأنَّ المُتَوَقَّع من سيب الكريم ، تحقَّقه على وجه القطع والبت .

وجاء بالكوثر محذوف الموصوف ، لأنَّ المثبت ليس فيه ما في المحذوف من فرط الإبهام والشياع .

واختار الصفة المؤذنة بإفراط الكثرة ، المبيِّنة عن المعطيات الوافرة ، وصدَّرها باللام لتكون كاملة في إعطاء معنى الكثرة .

والمراد من الكوثر ، أولاده حسماً للشبهة ، وقطعاً لدعوى الخصم .

﴿ فَصَلَّ ﴾ .

عَقَّبَ إبهامه الكوثر ، بالفاء ، ليكون دليلاً لمعنى التسبيب ، فالعطاء الأكثر ، يستلزم الشكر الأوفر .

(١) حفرة كالزبية ، تحفر للذئب ، ويجعل فيها جدي إذا نظر إليه سقط عليه يريده . ومنه قيل لكل مهلكة مغوَّاة . (لاحظ النهاية ، ج ٣ ، ص ٣٩٨ ، مادة غوي) .

﴿لِرَبِّكَ﴾ .

وقصد بذلك ، التعريفَ بدين « العاصي » وأشباهه ، مَن كانت عبادته ونحره لغير إلهه ، وبالتالي لتثبيت قدمي رسول الله على صراطه المستقيم ، وإخلاصه العبادة لوجهه الكريم .

وقال : « لربك » ولم يقل « لنا » ، فصرف الكلام عن لفظ المضمر إلى لفظ المظهر ، إظهاراً لكبرياء شأنه ، وإنافهً لعزّ سلطانه . ومنه أخذ الخلفاء قولهم : يأمرُك أمير المؤمنين بالسمع والطاعة ، وينهاك أمير المؤمنين عن مخالفة الجماعة .

وعلم ، بالأمر بالصلاة للرب ، أن من حقّ العبادة أن يُخصَّصَ بها العبادُ ربَّهم ومالكهم ، ومن يتولى معاشهم ومهالكهم . وعرض بخطأ من سقّه نفسه ، ونقض لبّه ، وعبد مربوباً ، وترك عبادة ربّه .

﴿وَانْحَرْ﴾ .

أشار بالأمر بالنحر ، بعد الأمر بالصلاة ، إلى قسمين من العبادات ، فالقسم الأول عمل بدني ، والصلاة إمامها . والثاني عمل مالي ، ونحر البدن سنامها .

ونبه على ما لرسول الله من الإختصاص بالصلاة التي جعلت لعينه قرّة ، وينحر البدن التي كانت همته متطولة إليها .

قال : « وانحر » ، ولم يقل « وانحر له » ، رعايةً لفواصل الآيات ، وهو أمر مطلوب إذا سيق المتكلم ، إليه ، بلا تكلف .

﴿وَأِنْ شَاءَ ثُكَّ﴾ .

عنى بالشائي : « السهمي » . وإنما ذكره بوصفه لاباسمه ، ليتناول كل من كان مثل حاله . وأعرب بذلك عن أنّ عدوه لم يقصد بوصفه بالأبتر ، الإفصاح بالحق ، ولم ينطق إلاّ عن الشنآن الذي هو توأم البغي والحسد ، وعن البغضاء التي هي نتيجة الغيظ ، فبذلك وسّمه بما ينبيء عن المقت الأشدّ ، ويدلّ على حق الخصم الألدّ .

﴿هُوَ﴾ .

أقحم الفصل لبيان أنه المَعِينُ لهذه النقيصة (الأَبتر) ، وأنه المُشَخَّصُ لهذه الغميصة (١) .

﴿الْأَبْتَرُ﴾ .

عرّف الخبر ، ليتّم له البتر .

فسبحان من أعجز فصحاء العرب والعجم ، عن الإتيان بمثل هذه السورة على وجازة ألفاظها ، مع تحدّيه إياهم بذلك ، وحرصهم على بطلان أمره ، منذ بعث النبي إلى أمرنا هذا .

وسبحان من لو أنزل هذه الواحدة وحدها ، ولم ينزل ما قبلها وما بعدها ، لكفى بها آية تغمر الأذهان . ومعجزة توجب الإذعان ، فكيف بما أنزل من السبع الطوال (٢) .

٢ - بلاغة سورة « والضحي »

جرت حكمته سبحانه على نزول الوحي تدريجياً ، لحكمة صرّح بها سبحانه في قوله : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (٣) .

ولأجل وقوع الفترة بين نزول الوحي ، عابه المشركون على النبي الأكرم ، فقالوا : إنّ محمداً قد ودعه ربّه وَقَلَاهُ ، ولو كان أمره من الله لتتابع عليه ، فنزلت السورة التالية :

﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ

(١) يقال اغتمصت فلاناً اغتمصاصاً : احتقرته (لسان العرب ، مادة غمص ، ج ٧ ، ص ٦١) .

(٢) ما ذكرنا من النكات البانية لسورة الكوثر مقتبسة من رسالة الزغشري ، في إعجازها ، التي طبعت في مجلة « تراثنا » ، ومع ذلك كله ، لم يأت بجميع النكات الموجودة في هذه الآيات الثلاث

(٣) سورة الفرقان : الآية ٣٢ .

خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى *
وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا
السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١﴾ .

إنَّ في هذه السورة من أنواع البلاغة ما يَبْهَرُ العقول ، وفي الدراسة التالية
نشير إلى بعض منها .

﴿ وَالضُّحَى ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿ .

الواو في الموضعين للقسم . والضحى ، والليل حال السجى ، هو المقسم
به . وقوله سبحانه فيما يأتي : ﴿ مَا وَدَّعَكَ ﴾ هو المقسم له ، بمعنى جواب
القسم .

وقد ورد في القرآن الكريم ، ثمان وثلاثون قَسَمًا ، أفرد بها ابن القيم
بالتصنيف في كتاب أسماه « التبيان في أسماء القرآن » . وقد وقع القَسَمُ فيها على
أشياء مختلفة كالملائكة والنبي الأكرم والقرآن والقيامة ، والنفس الإنسانية ،
والقلم ، والكتاب والشمس ، وضوئها، والليل وغير ذلك . واهتمَّ المفسِّرون ببيان
سرِّ القسم بهذه الأمور ، ولكنهم غفلوا عن مهمة أخرى في هذه الأقسام ، وهي
المناسبة بين المُقْسَمِ به والمُقْسَمَ له ، أي بيان الصلة بين الشيء الذي وقع الحلف
عليه ، كالنَّهَارِ والليل ، وما رتب عليه من الجواب . وهذا من الأمور المهمة التي
إذا كشفها المُفَسِّرُ ، لأدرك أنَّ تخصيص شيء معين بالقَسَمِ في هذا المجال دون
غيره ، ليس إلاَّ لرابطة بينه وبين جوابه ، وليس هو أمرًا إعتباطيًا فاقدًا للمناسبة .
ولذلك البيان في المقام .

إنَّ المُقْسَمَ به في آيتي « والضحى » ، صورة مادية ، وواقع حسيَّ يشهد به
الناس تألَّقَ الضوء في صحوة النهار ، ثم يشهدون من بعده فتور الليل إذا سَجَى
وَسَكَنَ ، يشهدون الحالين معًا في اليوم الواحد دون أن يختل نظام الكون أو يكون
في توارده الحالين عليه ما يبعث على إنكار . بل دون أن يخطر على بال أحد ، أنَّ

(١) سورة « والضحى » ، وآياتها ١١ .

السماء قد تَحَلَّتْ عن الأرض ، وأسلمتها إلى الظلمة ، والوحشة بعد تألَّق الضوء في ضحى النهار .

فإذا كان هذا حال الفيض المحسوس ، الذي به حياة البشر ، فهكذا حال الفيض المعنوي ، فينزل الوحي ويغرق المجتمع في بهاء نوره ، ثم يسكن ، فلا عجب في أن يجيء - بعد أنس الوحي ، وتَحَلَّى نوره على النبي الأكرم - فترة سكون يفتر فيها الوحي على نحو ما نشهد من الليل الساجي ، يوافي بعد الضحى المتألَّق .

فإذن ، القَسَم بالضحي ، وبالليل إذا سجي ، بيان لصورة حسية ، وواقع مشهود ، يمهد لموقف مماثل لكن غير حسي ولا مشهود ، وهو فتور الوحي بعد إشرافه وتجليه .

فعند ذلك ، يتجَلَّى تخصيصهما بالقسم دون غيرهما بما ورد في القرآن من الأمور المقسم بها . كما يتضح أن نزول الوحي تدريجاً ، ليس دليلاً على أنه سبحانه ترك نبيه أو قلاه . وذلك لأن فتور الوحي ، كنزول الليل بعد الضحى ، فكما هو ليس دليلاً على تحلِّي السماء عن الأرض ، وتسليمها إلى الظلمة ، فهكذا نزول الوحي نجومًا ، ليس دليلاً على أنه سبحانه تحلَّى عن رسوله ، وتركه بين أعدائه أو قلاه .

وبذلك يظهر إتقان جواب القسم أعني قوله سبحانه :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ .

ومن لطائف ما ورد في الجواب هو أنه حذف المفعول من قوله : ﴿ وما قلى ﴾ ، ولم يقل : « قَلَاكَ » . وليس ذلك رعاية للفاصلة ، لأنه عدل عن رعايتها في آخر سورة الضحى ، حيث قال : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ إذ ليس في السورة ، حرف الثاء على الإطلاق ، وكان بوسعه أن يقول مكان حَدَّثْ ، فَخَبَّرْ ، لتتفق الفواصل على مذهب أصحاب الصنعة . فهذا دليل على أن الحذف لوجه آخر ، كما أن العناية بذكر بلفظة « حَدَّثْ » ، مكان « خَبَّرْ » ، لنكتة موجودة في الأولى دون الثانية .

والظاهر أنّ حذف المفعول هو لتحاشي خطابه تعالى حبيبه المصطفى في مقام الإيناس ، بقوله : « ما قلاك » ، لما في القلي من الطرد ، والإبعاد وشدة البغض . وهو في الوقت نفسه أظهر المفعول في « ودّعك » ، إذ ليس فيه شيء يُكرّه ، بل هو يؤذن بالفراق على كُره ، مع رجاء العود .

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ .

إنّ الآخرة إذا قرنت بالأولى ، يراد منها اليوم الآخر ، كما في قوله سبحانه : ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾^(١) . وقوله سبحانه : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾^(٢) .

ولكن يرجح أن يكون المراد من الآخرة في الآية ، هو الغد المرجو من أيام بعثته ، لتخصيص كونها خيراً في الآية بالنبي الأكرم ، حيث قال : ﴿ خَيْرُ لَّكَ ﴾ فالآية تبشّر بالمستقبل الزاهر للنبي الأكرم ، وبهذا يتم تأكيد نفي التوديع والقلي ، ليذهب عن الأذهان أثر فتور الوحي .

والصلة بين هذه الآية وبين ما تقدمها ، واضح على هذا البيان ، والكلّ كسبيكة واحدة .

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ .

اللام لتأكيد لزوم العطاء ، وأنّه أمر محقق . ﴿ وسوف ﴾ للتراضي . والجمع بين التوكيد مع التسويف الصريح ، لبيان أنّه موضع عناية ربّه في أمسه وغده ، وأولاه ، وآخره .

وأما العطاء الذي يحصل به رضا النبي ، فغير محدّد بشيء . وليس وراء الرضا مطمح ، ولا بعده غاية ، ولا حاجة لتحديد هذا الذي يُرضي الرسول ، حتى تقلّل من روعة ذاك البيان المعجز الذي يتجلّى سرّه في إطلاقه العام وانتهائه إلى الرضا .

(١) سورة النجم : الآية ٢٥٠ .

(٢) سورة النازعات : الآية ٢٥ ، ولاحظ سورة القصص : الآية ٧٠ ، وسورة الليل : الآية ١٣ .

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ .

هذه الآيات تبث في نفس الرسول الطمأنينة ، وثبت قلبه ، بإلفاته إلى ما أسبغه الله عليه في أولاه ، من نعم : كان يتيمًا ، فأواه ، ووقاه مسكنة اليتيم ، وكان ضالًّا ، فهداه تعالى إلى دين الحق^(١) وكان عائلًا فأغناه الله بفضله وكرمه . أفما يكفي هذا ليطمئن كلُّ أحد إلى أن الله غير تاركه ولا قاليه ؟ وهل تركه حين كان صبيًّا يتيمًا متعرضًا لما يتعرض له اليتامى من قهر وضياح ؟ وهل قلاه حين كان ذا عيلة ؟ كلا ، لا .

واليتيم مظنة الضياح والقهر ، قال سبحانه : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾^(٢) . وقد وجه الله محمداً يتيمًا عائلًا ، فأعفاه سبحانه من تلك الآثار البغيضة ، وحفظ جوهره من الآفات التي كان معرضاً لها بحكم يتمه وعيلته ، وبذلك تمَّ فيه الإستعداد النفسي لتلقي الرسالة الكبرى ، التي بعث بها ليقى الناس من المذلَّة والضلال .

﴿ وَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

أتى بكلمة : « فلا تقهر » ، مع أن في وسعه أن يستخدم كلمة أخرى ، نحو : « فلا تظلم » ، « فلا تمنع حقه » وغيرهما ، وذلك لأنَّ في عبارة : « فلا تقهر » ، معنى أعمق وأدق مما يفيد ذاك اللفظان ومشابههما ، إذ يجوز أن يقع

(١) المراد من الضلال ، هو الضلال الطبيعي العام ، فكل إنسان ضال بالطبع ، ويخرج منه هداية من الله سبحانه ، فليست الآية دليلاً على أنه صلى الله عليه وآله كان ضالًّا غير عارف بالله في فترات من عمره ، ثم هداه الله سبحانه . وليس الضلال مرادفًا للكفر . بل هو بمعنى عدم الإهتمام إلى الصواب . وقد رموا يعقوب بالضلال كما في قوله سبحانه : ﴿ تَا نَا إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ سورة يوسف : الآية ٩٥ . وليس الضلال هناك كفرًا ، وإنما هو الشغب بيوسف . وقالت النسوة في امرأة العزيز ويوسف ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ سورة يوسف : الآية ٣٠

(٢) سورة النساء : الآية ٩ .

القهر مع إنصاف اليتيم وإعطائه ماله ، وعدم التسلّط عليه بالأذى ، لأنّ حساسية اليتيم إلى حدّ أنّه يتأثّر بالكلمة العابرة ، واللفتة الجارحة من غير قصد . والنبرة المؤلّة بلا تنبه ، وإن لم يصحبها تسلّط بالأذى ، أو غلبة على ماله وحقّه .

ويحتمل أن يكون المراد من النعمة هو الرسالة التي أكرمه الله تعالى بها ، وتفضل بها عليه ، وعند ذلك يكون المراد من التحدّث بها هو إبلاغ رسالة ربّه .

ثم في الآيات الثلاث الأخيرة نكتة بديعة ، فإننا نرى أنّه سبحانه قدّم النهي عن قهر اليتيم ونهر السائل ، على التحدّث بنعمته تعالى ، فأخّر حقّ نفسه وهو التحدّث بالنعمة ، وقدّم حقّ اليتيم والسائل . وما هذا إلّا لأنّه غنيّ وهما محتاجان ، وتقديم حقّ المحتاج أولى .

وهناك نكتة أخرى ، وهي أنّه تعالى لم يرض في حقهما إلّا بالفعل ، ورضى في نفسه بالقول^(١) .

* * *

فهاتان السورتان المتقدمتان أوقفنا على نموذج من بلاغة القرآن - بمعنى المطابقة لمقتضى الحال - وزيادة في بيان هذا الجانب البلاغي ، تأتي بنماذج أخرى من آياته ، حصل فيها تقديم وتأخير وعكس في العبارات ، ممّا قد يتخيل معه أنّه تنويع وتفنن في الكلام ، ولكن بالتأمّل فيها يتضح أنّه ليس كذلك ، وإنّما اختلاف التعبير نشأ من اختلاف المقتضيات .

١ - يقول سبحانه في سورة الأنعام : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾^(٢) .

ويقول سبحانه في سورة الإسراء : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ

(١) ما ذكرناه في هذا العرض ، اقتبسناه من كتاب « التفسير البياني للقرآن الكريم » ، ج ١ ، ص ٢٣ - ٥٥ . بتلخيص وتصرف .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٥١ .

نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴿١﴾ .

والنهي في كلتا الآيتين متوجه إلى الوالدين . ووجه الاختلاف بينهما أن الداعي إلى القتل في الآية الأولى هو الْفَقْرُ الْمَحَقَّقُ ، السائد في حياة الوالدين ، بدلالة قَوْلِهِ : ﴿ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ . وفي الثانية هو الْفَقْرُ الْمَتَوَقَّعُ ، بدلالة قَوْلِهِ : ﴿ خَشْيَةِ إِمْلَاقٍ ﴾ . فاختلفت حال الوالدين .

ففي الآية الأولى ، الخطاب متوجه إلى الوالدين الفقيرين ، حال الخطاب ، فناسب أن يبدأ وعده بالرزق بهما ثم بأولادهما .

وهذا بخلاف الآية الثانية ، فإن الخطاب فيها متوجه إلى الوالدين الميسورين المرزوقين بالفعل ، ويخافان العيلة والعجز عن رزق أولادهم ولأجل ذلك كانوا يرتكبون ذلك العمل الأسود الويل (قتل أولادهم) ، فناسب أن يبدأ وعده بالرزق ، بالأولاد أَوَّلًا ، وبالوالدين ثانيًا .

٢ - يقول سبحانه في عرض مشهد من مشاهد يوم القيامة وما يكون الناس عليه من فزع وكره : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (٢) .

وفي سورة أخرى ، في عرض مشهد من هذا اليوم ، يقول : ﴿ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْقَدُ مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بَنِيهِ ، وَصَاحِبَتَهُ وَأَخِيهِ ، وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴾ (٣) .

ففي الآيتين ألفاظ مشتركة ، مثل « بنيه » و« صاحبه » و« أخيه » . لكن قَدَّمَ في الأولى الأخ ، فالأم ، فالأب ، فالصاحبة ، فالبنين ، مبتدئًا بالعزیز فالأعز .

وفي الثانية عَكَسَ قَدَّمَ البنين ، فالصاحب ، فالأخ ، فالفصيلة ، فسائر

(١) سورة الإسراء : الآية ٣١ .

(٢) سورة عبس : الآيات ٣٤ - ٣٧ .

(٣) سورة المعارج : الآيات ١١ - ١٤ .

وَأَمْوَالُهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدَاً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴿١﴾ . فقدم هنا الأنفس على الأموال ، مع أنها واردة أيضاً في مجال الجهاد .

فهل هذا للتفنن في العبارة ؟ أو أنّ الحال يقتضي في الآية الأولى ونظائرها ، تقديم الجهاد بالأموال على الأنفس ، وفي الآية الثانية العكس .

التحقيق هو الثاني ، بل هو المتعين ، لأن الآية الأولى بصدد بيان جهاد المؤمنين بالأموال والأنفس ، ومن المعلوم أنّ الإنسان يتبدى في الجهاد بالعزیز فالأعز ، فيجاهد بماله أولاً ثم بنفسه . وأما الآية الثانية فهي بصدد بيان شراء الله سبحانه من المؤمنين ، ومن المعلوم أنّ المشتري يتغى الأعزّ فالعزیز ، ويختار لنفسه الأغلى فالغالي . والنفوس أغلى من الأموال .

والعجب أنّ القرآن راعى هذه النكتة في جميع الموارد التي ذكر فيها الجهاد بهما (٢) .

٤ - يقول سبحانه حاكياً عن لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣) فقدم فيها التعليم على التزكية .

ولكن في موضع آخر عكس وقدم التزكية على التعليم ، فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٤) . فعكس في هذه الآية وقدم فيها التزكية على التعليم .

(١) سورة التوبة : الآية ١١١ .

(٢) لاحظ الآيات التالية : الأنفال : ٧٢ ، التوبة : ٢٠ و ٤١ و ٤٤ و ٨١ و ٨٨ ، الحجرات : ١٥ ، الصف : ١١٠ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٢٩ .

(٤) سورة الجمعة : الآية ٢ .

ونحن نترك للباحث الكريم استكشاف وجه الاختلاف بين الآيتين ،
ليستنبطه على ضوء ما ذكرنا . وكم لهذا من نظير في كتاب الله المجيد .

* * *

الأمر الثاني - سمو المعاني

إنَّ التَّالي لآيات الذكر الحكيم - إذا كان معنًى في تلاوته - يرى في كل سورة
وآية عظة وتنبهً ، وإعلاماً وتذكيراً ، وترغيباً وترهيباً ، وتشريعاً وتقنيناً ،
وقصصاً ، وعبراً ، وبراهين وحُجج ، ترقى بروح الإنسان وتخلُق بها في سماء
المعنويات . فهذه المعاني العالية السامية الدقيقة ، إذا حَمَلَتْهَا ألفاظ فصيحة ،
وَصِيغَتْ في نُظْم رصينة ، وَرُصِّعَتْ بأسلوب بديع ، وأُلْقِيَتْ على مقتضى الحال ،
بهرت العقول ، وَخَلَبَتْ النفوس ، وَسَلَّمَتْ بعجزها عن معارضته والإتيان بمثله .

وقد ركَّز النبي الأعظم في حديثه عن القرآن ، على هذا الأمر ، حيث قال :
« وباطنه عميق » . كما اعترف به عدوّه اللدود ، الوليد بن المغيرة ، حيث قال :
« إنَّ أعلاه لمُثَمَّر ، وإنَّ أسفله لمُغْدَق » .

إنَّ النظرة الفاحصة ، في آثار الكُتَّاب والمؤلفين ، تدفعنا إلى القول بأنهم لا
يخرجون عن طائفتين : طائفة تهتم بتزيين الألفاظ دون العناية بسمو المعنى .

وطائفة أخرى تهتم بإبداع المعاني من دون عناية بتحسين اللفظ .
وقلما يتفق من يراعي كلا الأمرين ، والجمع بينهما مشكل . لأنَّ الألفاظ
والجَمَل الخَلَابَة لا تطابق الموضوعية والواقعية . فالذين يرغبون في إفهام المعاني لا
يفتشون عن الألفاظ والعبارات الخَلَابَة . فالجمع بين الجمالين ، رهن عبقرية ونُبوغ
قادرين على تحمُّل عبثهما .

والقرآن الكريم أَبرَزُ نَمُودَجٍ للقسم الثالث . فالفاظه في منتهى العُدوبة ،
ومقاطع الآيات وفواصلها في غاية الأنافة ، والأسلوب في منتهى البداعة ، وقد
ضَمَّ إلى هذا الجمال الظاهر ، عمقاً في المعنى ، لا تجد له مثيلاً في زبر الأولين وكتب
الآخرين .

إن التصوير الدقيق لسمو معاني القرآن لا يتأتى إلا بذكر نماذج من الآيات في مجالات مختلفة .

١ - المعارف العُلُيا

يتجلى سمو معاني القرآن في مجال المعارف بشكل واضح . فقد جاء هذا الكتاب بأسمى المطالب ، وأغزر المضامين ، في الدعوة إلى التوحيد ورفض الأصنام ، ونفي الشرك والإثنيّة ، بل في باب إثبات الصانع ، وصفاته . مضافاً إلى ما جاء من المضامين الدقيقة الفلسفية في الدعوة إلى عالم الغيب ، وبقاء الروح بعد فناء البدن ، وحشر الإنسان وعوده إلى الحياة ، إلى غير ذلك مما ذكرنا بعضاً منه في الجزء الأول ، ونذكر بعضاً آخر فيما يأتي من المباحث . ولكن لأجل عرض نموذج منه تأتي في هذا المقام بآيات :

أ - يقول سبحانه : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُسَيْطِرُونَ ﴾ (١) .

أنظر إلى هذا البيان الجزل ، كيف يشير إلى برهان الإمكان بصورة موجزة مستحكمة لم يكن العرب ولا حكماءهم عارفين به . وتنتضح حقيقة سمو المعنى إذا أمعنت النظر في كل شقّ من هذه الشقوق الأربعة .

ب - يقول سبحانه : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٣) .

(١) سورة الطور : الآيات ٣٥ - ٣٧ . وقد تعرضنا إلى مفاد الآيات في الجزء الأول من الكتاب .

(٢) سورة المؤمنون : الآية ٩١ .

(٣) سورة الأنبياء : الآيتان ٢١ و ٢٢ .

فترى أنه يستدلّ في هذه الآيات على التوحيد في التدبير ، وأنّ النظام الجملي يدار بمبدّر واحد لا غير .

ج - إنّ القرآن يستدلّ على إمكان المعاد وعود الإنسان إلى الحياة ثانياً بطرق مختلفة ، بشكل يقنع المتحري للحقيقة ، المتجرّد عن العناد . وإليك نظرة عابرة عليها .

فتارة يستدلّ عن طريق عموم القدرة على كل شيء ، على إمكان المعاد ، ويقول : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

وأخرى عن طريق قياس الإعادة على الحياة الأولى ، ويقول : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ (٢) .

وثالثة عن طريق قياس إمكان إحياء الموتى بإحياء الأرض - بعد موتها - بالمطر والنبات ، ويقول : ﴿ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (٣) .

ورابعة عن طريق قياس قدرة الإعادة ، على القدرة على إخراج النار من الشجر الأخضر ، ويقول : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (٤) .

وخامسة عن طريق الاستدلال بالوقوع على إمكان العود . فإن أدلّ دليل على إمكان الشيء وقوعه ، ولأجل ذلك نقل سبحانه قصة بقرة بني إسرائيل (٥) وحديث عَزِيزٍ (٦)

(١) سورة الأحقاف : الآية ٣٣ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ١٠٤ .

(٣) سورة الروم : الآية ١٩ .

(٤) سورة يس : الآيتان ٧٩ و ٨٠ . وسيوافيك مفاد الآية بشكل لطف مما ذكر كثير من المفسرين .

ورائدنا فيه التدبير في ذيل الآية .

(٥) سورة البقرة : الآيات ٦٧ - ٧٣ .

(٦) سورة البقرة : الآية ٢٥٩ .

وسادسة عن طريق الإستدلال بالتَّوَمَّات الطويلة التي امتدت أكثر من ثلاثمائة سنة ، فإنَّ النوم أخو الموت ، ولا سيما الطويل منه ، والإستيقاظ منه يشبه تطور الحياة وتجدها^(١) .

فهذا النوع من البرهنة على عقيدة هي كالعمود الفقري في باب العقائد ، ممَّا لا ترى له مثيلاً في كتب الأقدمين ، فإنَّ هذه المعاني البديعة إذا انضمَّ إليها الإستحكام في البيان ، تبهر العقول وتدهش النفوس .

وهذا النوع من العمق وافر في الآيات الواردة حول المعارف والعقائد ، وقد اكتفينا بما ذكرناه .

* * *

٢ - سطوع براهينه

إنَّ القرآن الكريم كتاب الهداية ، نزل للناس أجمعين ، ليبقى خالداً على جبين الدهر ، يرجع إليه كل من تحرَّى الحقيقة ، وارتاد الواقع ، ولأجل ذلك اعتمد على البراهين اللامعة ، لا على الأساليب المعقَّدة التي كانت ولم تزال ، رائجة بين الفلاسفة . فآخذ من المسلَّات برهاناً على النظريات ، ومن المشاهدات دليلاً على الحقائق غير المحسوسة ، كل ذلك ببيان واضح ، لا يقبل الخدش والشك : ويستلذُّ به الذوق ، وتستسلم له العقول . وإليك نماذج من هذه البراهين :

١ - قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ ، فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾^(٢) .

فلاحظ ما أحلى استدلاله على نفي الولد ، بأنَّه لو كان له وَلَدٌ كما يقول هؤلاء ، فاللائق للأنحاذ ولداً ، هم الأنبياء والمرسلون ، الذين عبدوه ، وخضعوا له ، وأئتمروا بأمره .

(١) سورة الكهف : الآيات ٩ - ٢٩ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ٨١ .

٢ - وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾^(١) . إذا كان الخصم معترفاً بأن الله هو الذي بدأ الخلق . . . إذن فالإعادة أهون من البداية ، لأنها من شيء ، وتلك لا من شيء .

٣ - وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾^(٢) . فقد رتب دخولهم الجنة على ولوج الجمل في خرم الأبرة . ولما كان ذلك أمراً ممتنعاً ، كان ذاك أيضاً مثله . فقد أبدى امتناع دخولهم الجنة بهذا الشكل القياسي بكناية بديعة .

٤ - وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾^(٣) . فقد رتب النتيجة على صغرى القياس مع حذف الكبرى لظهورها ، وهي : أن من أعطاه الله الكوثر - وهي مجموعة المكرمات - فينبغي له أن يؤدي شكره الواجب ، بالإبتهال إلى الله والمثول لديه بكل الوجود .

٥ - وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾^(٤) . قياس استثنائي مركب من قضية شرطية مضمونها : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً ﴾^(٥) . وأخرى حملية استثنائية مضمونها : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾^(٦) .

(١) سورة الروم : الآية ٢٧ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٤٠ .

(٣) سورة الكوثر : الآيتان ١ و ٢ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٧٦ .

(٥) سورة الإسراء : الآية ١٩ .

(٦) سورة طه : الآيات ١٢٤ - ١٢٦ .

٦ - وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَفْلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾^(١) . الكبرى مطوية ،
أي وكُلُّ آفلٍ غير مستحق للعبادة .

* * *

٣ - بداعة التصوير والتعبير

إنَّ للقرآن طريقة موحدة في التعبير يتخذها في أداء جميع الأغراض على
السواء ، حتى أغراض البرهنة والجدل ، وتلك طريقة صوغ المعاني العالية في قالب
التجسيم والتمثيل . ونحب أن نزيد المسألة إيضاحاً بالنماذج ، وأنه كيف يصوّر
المعاني السامية والحالات النفسية ويبرزها في صور حسية ، من غير فرقٍ بين
المشاهد الطبيعية ، والحوادث الماضية والقصص المروية ، ومشاهد القيامة ، وصور
النعيم والعذاب ، فيعبر عن الكلِّ كأنها حاضرة شاخصة ، ولا شك أن هذه
الطريقة تتفوق على نقل المعاني والحالات النفسية في صورها الذهنية التجريدية ،
ونقل الحوادث والقصص أخباراً مروية ، والتعبير عن المشاهد والمناظر تعبيراً لفظياً
لا تصويراً خيالياً . وإليك الأمثلة .

١ - معنى النفور الشديد من دعوة الإيمان ، يعبر عنه بوجهين : أحدهما
تجريدي ، والآخر تصويري .

فيقال في الأول : « إِنَّهُمْ لَيَنْفِرُونَ أَشَدَّ النَّفَرَةِ مِنْ دَعْوَةِ الْإِيمَانِ » . فيتملئ
الذهن وحده معنى النفور في برود وسكون .

ويقال في الثاني : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ * كأنهم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ *
فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿^(٢) فتشترك مع الذهن حاسة النظر ، وملكة الخيال ، وانفعال
السخرية من هؤلاء الذين يفرون ، كما تفر حُمُر الوحش من الأسد ، لا لشيء إلا

(١) سورة الأنعام : الآية ٧٦ .

(٢) سورة المدثر : الآيات ٤٩ - ٥١ .

لأنهم يدعون إلى الإيمان . فتأخذ النفس روعة الجمال الذي يرتسم فيه صورة شرود هذه الحمر يتبعها قسورة المهروب .

٢ - معنى عجز الآلهة التي يعبدونها المشركون من دون الله يُعبر عنه بوجهين : أحدهما ذهني مجرد ، والآخر تصويري .

ففي الأول يقال : « إِنَّ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَأَعْجَزُ عَنْ خَلْقِ أَحَقَرِ الْأَشْيَاءِ » . فَيَصِلُ المعنى إلى الذهن مجرداً باهتاً .

وفي الثاني يقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمُطْلُوبِ ﴾ (١) .

ففي الثاني أبرز هذا المعنى بِصُورٍ متحركة متعاقبة .

« لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً » ، هذه درجة .

« وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ » ، هذه أخرى .

« وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » ، وهذه الثالثة .

ففيها تصوير للضعف المزري ، والتدرج في تصويره بما يشير في النفس السخرية اللاذعة والإحتقار المهيب .

٣ - يُعبر عن حالة تخلي الأولياء عن تابعيهم أمام هول القيامة بصورتين ، كالسابقتين . في إحداها ، يقال : لَا لَقَدْ تَنَكَرَّ الْأَصْفِيَاءُ وَتَخَلَّى الْمُتَّبِعُونَ عَنِ التَّابِعِينَ حينما شاهدوا الهول يَوْمَ الدِّينِ » .

وفي ثانيتهما ، يقال : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً ، فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالُوا : لَوْ هَدَانَا اللَّهُ هَدَيْنَاكُمْ ، سِوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ

(١) سورة الحج : الآية ٧٣ .

مُحِصٌ ﴿١﴾ .

ففي هذا الإستعراض يتجسم للخيال مشهذان :

الضعفاء الذين كانوا ذيولاً للأقوياء ، وهم ما يزالون في ضعفهم يلجئون إلى الذين استكبروا في الدنيا ، يسألونهم الخلاص من هذا الموقف ، ويعتبون عليهم إغواءهم في الحياة ، متمشين في هذا مع طبيعتهم الهزيلة ، وضعفهم المعروف .

والذين استكبروا ، وقد ذلت كبرياؤهم وواجهوا مصيرهم ، وهم لا يملكون لذات أنفسهم خلاصاً ، فضلاً عن تابعيهم ، فما يزيدون على أن يقولوا لهم : « لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ » .

٤ - يُعَبَّرُ عَنْ بطلان أعمال الكافرين بأنّها : « لَا وَزْنَ لَهَا وَلَا تَنْفَعُ » . كما يعبر عن ضلالتهم الدائمة ، بأنهم : « لَا تُخْرِجُ لَهُمْ مِنْهَا وَلَا هَادِيٍّ لَهُمْ فِيهَا » . ولكن في هذا التعبير ركود وسكون لا تَتَنَعَّشُ النفس به أبداً .

وأين هو من التعبير القرآني في كلا الموردين (بطلان أعمالهم ، وإحاطة الضلالة بهم) الذي تحيا فيه النفس وتتحرك ، وينتعش فيه الحس والخيال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ، مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ ، مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (٣) .

ففي التعبير الثاني - في كلا الموردين - صور متينة ساحرة فيها روح القصة ، والخيال العميق .

(١) سورة إبراهيم : الآية ٢١ .

(٢) سورة النور : الآية ٣٩ .

(٣) سورة النور : الآية ٢٠ .

وأين للريشة في ترسيم هذه الصور لو أريد تصويرها بالألوان ، وإلى أين للعدسة لو أريد تصويرها بالحركات .

بل أين هي الريشة ، وأين هي العدسة ، التي تستطيع أن تبرز هذه الظلمات : ﴿ فِي بَحْرِ لَحْيِي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَأَاهَا ﴾ ؟ . أو تصور الظلمان يسيرا وراء السراب : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ ، ووجد مفاجأة عجيبة لم تكد تخطر له على بال ، وجد الله عنده ، وفي سرعة خاطفة تناوله ، فوقاه حسابه .

٥ - وَمِنْ هَذَا الْوَادِي تَصَوِّرُ مَعْنَى الضلال بعد الهدى . وضياح الجهد معه سدى ، تلك الصور المتتابعة التي يجيش بها الحس والخيال ، وتحسب بها النفس ، يقول سبحانه :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ ، فَأَمْ رَیَحْتَ نَجَارَتَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمُّ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصِيبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

إن هنا مشهداً من الصور المتتابعة في شرائط متحركة ؛ هؤلاء هم قد أوقدوا النار فأضاءت ، وفجأة يذهب الله بنورهم ويُخَيِّمُ حولهم الظلام . أوها هي ذي العاصفة صَيَّبَ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ، هؤلاء هم مذعورون يتوقعون الصاعقة ، ويخافون الموت ، فيجعلون أصابعهم في آذانهم ، وما تغني الأصابع في الأذان ، ولكنها حركة الغريزة في هذا الأوان . وها هو ذا البرق يخطف الأبصار ولكنه ينير الطريق لحظة ، فهم يخطون على ضوئه خطوة ، وها هو ذا ينقطع فيظلمون واقفين لا يدرون كيف يخطون .

(١) سورة البقرة : الآيات ١٦ - ٢٠ .

لون آخر من التصوير الفني

هذه نماذج من التصوير الفني في القرآن الكريم وهناك لون آخر من التصوير يضيف على المعاني الذهنية والحالات المعنوية صوراً حسية . مثلاً :

١ - الصبح مشهدٌ مألوف متكرر ، ولكنه في تعبير القرآن حيٌّ لم تشهده من قبل عينان ، وأنه ﴿ الصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسُ ﴾^(١) .

٢ - والليل آن من الزمان معهود ، ولكنه في تعبير القرآن ، حي جديد ، ﴿ والليل إِذَا يَسِرُّ ﴾^(٢) ، وهو يطلب النهار في سباق جبار ﴿ يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِثًا ﴾^(٣) .

٣ - والظلُّ ظاهرة تُشهد وتُعرف ، ولكنه في تعبير القرآن نفْسٌ تُحسُّ وتتصرّف ، ﴿ وَظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾^(٤) .

٤ - والجدار بُنيةٌ جامدة كالجلمود ، ولكنه في تعبير القرآن يحسُّ ويريد : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ ﴾^(٥) .

٥ - والطير أبنية حية ، ولكنها مألوفة لا تلفت الإنسان ، أمّا في تعبير القرآن فمشهد رائع ، يثير الجنان : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ ، مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمُنُ ﴾^(٦) .

٦ - والأرضُ والسماءُ ، والشمسُ والقمرُ ، والجبال والوديان ، والدُّورُ العامرة ، والآثار الدائرة ، والنبات والأشجار والأفنان ، أمواتٌ عند الناس ، لكنها في القرآن أحياء ، أو مشاهد تخاطب الأحياء ، فليس هناك جامد ولا ميت بين الجوامد والأشياء^(٧) .

(١) سورة التكوين : الآية ١٨ .

(٢) سورة الفجر : الآية ٤ .

(٣) سورة الاعراف : الآية ٥٤ .

(٤) سورة الواقعة : الآية ٤٤ .

(٥) سورة الكهف : الآية ٧٧ .

(٦) سورة الملوك : الآية ١٩ .

(٧) ما ذكرناه اقتبسناه من « التصوير الفني في القرآن » ، للسيد قطب ، ص ١٩٣ - ٢٠٣ .

٤ - الأمثال

يشتمل القرآن الكريم على أكثر من خمسين مثلاً في مجال هداية الناس . وهذه الأمثال مع بسطاتها غزيرة المعاني ، عالية المضامين . ونحن نذكر في المقام نموذجاً منها يتبلور فيه عمق المعنى بشكل آخر .

الصراع بين الحق والباطل

يصور القرآن الكريم الصراع القائم بين الحق والباطل بصورة مثل بديع ، يشتمل على نكات بعيدة الأغوار ، عميقة الإشارات ، في ألفاظ قليلة ، وعبارات متناسقة ، ويقول :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (١) .

إن هذه الآية من أعمق الآيات القرآنية ، فهي - بلباس المثل - تطرح معاني سامية تبين فيها مكانة الباطل من الحق . ففي هذا المثل ، تشبه الآية كلا من الحق والباطل بأمرين :

الأول : إن الحق كالماء النازل من السماء ، المتجمع في أعماق الأرض ، أو الجاري جداول وأنهاراً ، بعد انحداره من سفوح الجبال إلى الأودية والسهول .

والباطل كالزبد والرغوة التي تعلو وجه الماء حال سيلانه واندفاعه ، التي لا تلبث أن تتلاشى كأن لم تكن شيئاً مذكوراً .

الثاني : إن الحق كرواسب الأتربة المعدنية المذابة في الأفران ، فإنها خالص المعادن والفلزات .

(١) سورة الرعد : الآية ١٧ .

والباطل كالزبد والفقاعات التي تعلو هذه الأتربة حال غليانها ، التي سرعان ما تنفجر وتتبخّر .

فالصورة العامة التي يعطيها هذا المثل ، ترسيم ثبات الحق ودوامه بتشبيهه ، بالماء النازل من السماء ، الجاري في الأودية والوهاد ، الغائر في أعماق الأرض ، ثم الظاهر ، بصورة العيون والينابيع ، التي تستفيد المخلوقات منها في دوام حياتها . وبالمعادن المذابة ، الراسب خالصها في أعماق الأفران ، التي يستفيد منها الناس في زينتهم وأمتعتهم .

وكذلك ترسيم سرعة أفول الباطل بعد نجومه بتشبيهه بالزبد الذي يرغب فوق الماء ، والمعادن المنصهرة ، الذي يتصوره الجاهل شيئاً ثابتاً قائماً ، ولكن ما أسرع اختفائه وزواله ، فلا يرى منه عين ولا أثر .

وعلى ذلك فللحق ثبات ودوام ، وللباطل جولة وزوال .

ومع هذا ، ففي هذا المثل معانٍ عميقة ، وإشارات دقيقة إلى مكانة كل من الحق والباطل ، نشير إلى بعضها . .

١ - إنّ الحق والباطل يتمثلان في مجال العقيدة ، في الإيمان والكُفر ، والعدل والظلم .

فبالإيمان بالله تبارك وتعالى تحيا القيم الإخلاقية ، كما أنّ بالكفر موت المثل والفضائل وانعدام الكمالات الإنسانية .

ومثل ذلك العدل والظلم ، ففي ظلّ العدل تتفجّر الطاقات وترقى المجتمعات ، وينال كل إنسان الغاية التي يليق بها ، كما أنّ في الظلم كبت الاستعدادات ، وتقديم المفضول وتأخير الفاضل ، ولن يزال المجتمع الظالم يتدهور إلى أن لا يرى له أثر .

فأشبه الإيمان والعدل ، الماء الذي به حياة كل شيء ، وخالص المعادن المترسب في قعر أفران الصُّهر ، إذ عليها تعتمد حياة الإنسان الدنيوية ، وترتب المنافع الكثيرة ، قال سبحانه : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ

لِلنَّاسِ ﴿١﴾ . فالحديد وأضرابه ، هو الذي يدير عجلة الحضارة ، وبفقدانه شللها التام .

وأشبه الكفر والظلم ، الزبد الذي يرغو على وجه الماء والمعادن المنصهرة ، لا يستفاد منه ولا يعتمد عليه في شيء .

٢ - إنَّ الباطل ربما يصير حجاباً عن الحق ، فيكون مانعاً بينه وبين طالبه ولكن هذا الحجاب سرعان ما يزول ويتجلى وجه الحقيقة بصورته الواقعية ، تماماً كما أنَّ الزبد يعلو وجه الماء ويوجب برغوته حدوث غشاوة ساطرة لما تحته ، والإنسان الجاهل يحسب أن لا شيء تحته سوى العفن والطين والتراب ، ولكن سرعان ما تتمد رغوته ، وتنقشع غشاوته ، ويتجلى الماء صافياً زلالاً ، أو الأتربة المنصهرة ، معادن وفلزات نفيسة ونافعة .

فالأفكار الإلحادية ربما تستر وجه الحق ، وتحول بينه وبين طالبه ، لكن تعلقت مشيئته سببانه على إحقاق الحق ومحو الباطل .

قال سبحانه : ﴿ وَيَمْحُوا اللَّهُ الْبَاطِلَ ، وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ (٣) .

٣ - إنَّ الوجود النازل من عنده تعالى على الموجودات ، خال في نفسه عن الصور والأقدار ، وإنَّما يَتَقَدَّرُ من ناحية الأشياء ، أنفسها ، كهاء المطر النازل من السحاب على ساحة الأرض ، خال في نفسه عن الصور والأقدار ، وإنَّما يحتمل من القدر والصورة ما يطرق عليه من ناحية قوالب الأودية ، ومجاري الأنهار ، والسواقي ، والأحواض والبرك والمستنقعات ، المختلفة في الأقدار والصور .

فالحق فيض إلهي ، يأخذ منه كل إنسان بحسب لياقته وسعة ذهنه . فمن

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٢٤ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٨١ .

الناس من يكون واسع الصدر ، كامل الاستعداد فيأخذ منه القسط الأكبر ، ومنهم من لا يزيدون عن معشار ذلك .

وَيُلَوِّحُ إِلَى مَا ذَكَرْنَا آيَاتَ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ ^(١) .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ ، فَخَيْرُهَا أَوْعَاها » ^(٢) .

٤ - إِنَّ الْبَاطِلَ فِي ثَوْرَانِهِ وَجَوْلَانِهِ فِي أَمَدِهِ الْقَصِيرِ ، فَرَعَ اعْتِمَادَهُ عَلَى الْحَقِّ ، وَاتَّخَذَهُ وَاجِهَةً لِأَعْمَالِهِ . فَلَمَّا تَجَرَّدَ عَنِ الْحَقِّ بِالْكُلِيَّةِ ، لَمَّا كَانَ لَهُ حَتَّى هَذَا السَّهْمِ الْقَصِيرِ ، كَالزَّبْدِ لَا يَتَجَلَّى إِلَّا بِرُكُوبِهِ الْمَاءِ ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَاحْتَمِلِ السَّيْلَ زَبْدًا ﴾ ^(٣) .

٥ - إِنَّ الْبَاطِلَ لَا يَظْهَرُ إِلَّا فِي الْأَجْوَاءِ الصَّاخِبَةِ وَالْمَجْتَمَعَاتِ الْمُتَضَارِبَةِ . كَالزَّبْدِ الَّذِي لَا يَظْهَرُ إِلَّا عِنْدَ تَدْفُقِ الْمَاءِ وَاجْتِيَا حِهَا الْقَنَوَاتِ الضَّيْقَةِ ، فَإِذَا انْتَهَتْ إِلَى السَّهُولِ الْفَسِيحَةِ ، زَالَ الزَّبْدُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَلَا يَبْقَى بَعْدَهُ إِلَّا الْمَاءُ الزَّلَالُ . وَكَذَلِكَ الزَّبْدُ النَّاجِمُ عِنْدَ عَمَلِيَّةِ الصَّبْرِ ، فَطَالَمَا أَنَّ الْمَعَادِنَ فِي حَالَةِ الْغَلْيِ وَالْفُورَانِ يَكُونُ الزَّبْدُ عَلَى وَجْهِهَا ، فَإِذَا هَدَأَتِ النَّارَ وَتَوَقَّفَ الْغَلْيَانُ لَمْ يَبْقَ إِلَّا الْمَعَادِنُ الْخَالِصَةُ .

فهذه بعض التصويرات للمفاهيم القيمة العميقة التي جاءت بها هذه الآية المباركة على وجازتها ، وكلما تعمق الإنسان فيها انفتحت له أبواب من المعارف

(١) سورة الحجر : الآية ٢١ .

(٢) نهج البلاغة ، قصار الكلم ، رقم ١٤٧ .

(٣) خذ على ذلك شاهداً ما يستربه الرأسماليون في نهبهم لثروات بلدانهم من الأقنعة الحقنة ، كإنشاء النقابات لعمالهم ، والضمان الاجتماعي وضمان الشيخوخة والتقاعد ، وغير ذلك الكثير . وما تستر به الحكومات الإستعمارية من عناوين حقنة ، كحماية حقوق الإنسان ، ونبذ التمييز العنصري ، ومكافحة الإرهاب ، وحرية الرأي والتعبير ، وغير ذلك ، وكله لتغطية الوجه القبيح للإرهاب . وامتصاصهم لثروات الشعوب المستضعفة ، وتضعيف عقائدهم ، والمس بمقدساتهم . . .

العليا ، والحقائق السامية ، وأقر بأن هذا القرآن : « باطنه عميق » ، وأن « أعلاه لثمر ، وأسفله لمُغْدق » .

* * *

٥ - آية تختم مليوناً ومائتين وستين ألف احتمال

هناك نمط آخر من عمق المعنى ، يغير النمط السابق منه ، وهو أنه يوجد في القرآن آيات يتردد المقصود منها بين احتمالات تدهش العقول وتحير الألباب ، وهي بعد معتمدة على أريكة حسنها ، متجملية في أجل جمالها ، متحلية بحلي بلاغتها وفصاحتها . ونذكر من هذا النمط نموذجاً واحداً ، ونشير في آخر الكلام إلى نموذج آخر :

قال سبحانه : ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ، يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ، هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ، فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

إن هذه الآية تختم من المعاني الكثيرة ما يدهش الإنسان ويشير إعجابه ، وهي ناشئة من كيفية تبين مفرداتها وجمالها . وهذه الاحتمالات يراها المتبع في كتب التفاسير ، وهي :

١ - ما هو المراد من الضمير في قوله : « اتبعوا » ، أهم اليهود الذين كانوا في عهد سليمان ، أو الذين في عهد رسول الله ، أو الجميع ؟ .

(١) سورة البقرة : الآيتان ١٠٢ و ١٠٣ .

٢ - ما هو المراد من قوله: ﴿تتلو﴾، فهل هو بمعنى تتبع ، أو بمعنى تقرأ ، أو بمعنى تكذب ؟ .

٣ - ما هو المراد من الشياطين : فهل هم شياطين الجن أو شياطين الإنس أو كلاهما ؟ .

٤ - ماذا يراد من قوله: ﴿على ملك سليمان﴾، فهل هو بمعنى : « في ملك سليمان » ، أو : « في عهد ملك سليمان » ، أو : « على ملك سليمان » ، بحفظ ظاهر الإستعلاء الموجود في معنى على ، أو بمعنى : « على عهد ملك سليمان » ، كذلك ؟ .

٥ - ما هو المراد من قوله: ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ . أهو بمعنى : « كفروا بما أخرجوه من السحر إلى الناس » ، أو بمعنى : « إنهم كفروا بما نسبوه إلى سليمان من السحر » ، أو بمعنى : « إنهم سحروا » ، فعبر عن السحر بالكفر ؟ .

٦ - ماذا يراد من قوله: ﴿يَعْلَمُونَ الناس السحر﴾، فهل هو بمعنى : « ألقوا السحر إليهم فتعلموه » ، أو بمعنى : « إنهم دَلَّوا الناس على استخراج السحر » ، وكان مدفوناً تحت كرسي سليمان فاستخرجوه وتعلموه ؟ .

٧ - ما هو المراد من « ما » في قوله: ﴿ما تتلو﴾. فهل هي موصولة عطفت على قوله : « السحر » ، أي « يعلمونهم ما أنزل على الملكين » . أو نافية ، والواو استئنافية ، أي « ولم ينزل على الملكين سحرٌ كما يدَّعيه اليهود » ؟ .

٨ - ماذا يراد من قوله: ﴿أنزل﴾. فهل المراد « إنزال من السماء » ، أو : « من نجود الأرض وأعاليتها » ؟ .

٩ - ماذا يراد من قوله: ﴿الملكين﴾ . فهل كانا من ملائكة السماء ، أو كانا إنسانين ملكين (بكسر اللام) ، كما في بعض القراءات ، أو مَلَكَيْنِ (بفتح اللام) أي صالحين ، أو متظاهرين بالصلاح ؟ .

١٠ - ما هو المراد من قوله: ﴿ببابل﴾ ، فهل هي بابل العراق ، أو بابل دماوند ، أو من نصيين إلى رأس العين ؟ .

فإنَّكَ لو تفحصت الإِحتِمالات التي ذكرها المفسِّرون لمفرداتها وجملها ،
لوقفت على أنَّ الآية تحتل من المعاني ما يدهش العقول .

قال العلامة الطباطبائي : « وأمرُ الآية فيما يحتمله مفردات ألفاظها وضماؤها
عجيب ، فلو ضرب بعضها في بعض يرقى عدد الإِحتِمالات إلى ألوف منها ،
بعضها صحيح وبعضها غير صحيح »^(١) .

وقد ذكر هو قدس سره أصول الإِحتِمالات في تفسيره ، فمن أرادَه فليرجع
إليه .

* * *

(١) الميران ، ج ١٢ ، ص ١٤٢ ، طبعة طهران .

دعائم إعجاز القرآن

(٣)

النظم : رصانة البيان واستحكام التأليف

تعريف النظم

- ١ - النظم هو لجام الألفاظ ، وزمام المعاني ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضها ببعض ، فتقوم له صورة في النفس ، يتشكل بها البيان .
- ٢ - النُّظْمُ هو وضع كل لفظ في موضعه اللائق به ، بحيث لو أُبدل مكانه غيره ، ترتب عليه إمّا تبدل المعنى ، أو ذهاب رونقه وسقوط البلاغة معه .
- ٣ - النظم هو رعاية قوانين اللغة وقواعدها ، على وجه لا يكون الكلام خارجاً عما هو المرسوم بين أهل اللغة .

هذه تعاريف ثلاثة للنظم ، غير أنّ المقصود منه هنا هو تماسك الكلمات والجمل ، ووضع كل كلمة مكانها . وأمّا رعاية القوانين ، فهي وإن كانت دخيلة في تحقق النظم - فإنّ الكلام الخارج عن إطارها متخلخل - غير أنّ القرآن أرفع شأنًا من أن يعرض على القواعد ، بل هي تعرض عليه ، كما تقدم . ولأجل ذلك نركّز في النظم على الأمرين الأولين ، الإنسجام أولاً ، ووضع كل كلمة مكانها ، ثانياً .

وقد أعطى الشيخ عبد القاهر الجرجاني للنظم القسط الأوفر من إعجاز القرآن ، بل جعله السبب الوحيد فيه ، وقال - بعد ردّ كل ما يمكن أن يكون وجهاً

لإعجاز-: « فلم يَبْقَ إلَّا النظم ، وليس هو شيئاً غير توخي معاني النحو ، وأحكامه . وإنّا إن بقينا الدهر نجهد أفكارنا حتى نعلم للكلم المفردة سلكاً ينظمها ، وجامعاً يجمع شملها ، ويؤلفها ، ويجعل بعضها بسبب من بعض ، غير توفي معاني النحو وأحكامه فيها ، طلبنا ما كلُّ محال دونه »^(١) .

وكلامه هذا لا ينافي ما ذكرناه ، لأنّه يرمي إلى أنّ الإنسجام التام بين جمل الآية حصل في ظل تحقيق هذه القواعد ورعايتها فيها .

وقال الزمלקاني : « إنّ وجه الإعجاز يرجع إلى التأليف الخاص به ، بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزناً ، وعلت مركباته معنىً ، بأن يوقع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى »^(٢) .

ثم ليعلم أنّ الكلام يقوم على ثلاثة أشياء :

١ - لفظ حامل .

٢ - معنى قائم باللفظ .

٣ - ورباط لهما .

وهذه الأمور الثلاثة توجد في القرآن على الوجه الأحسن ، فالألفاظ عذبة ، (الدعامة الأولى) ، والمعاني سامية وراقية (الدعامة الثانية) ، والكلمات والجمل مترابطة ومتلاحمة أشدّ التلاحم والتشاكل ، وهذه هي الدعامة الثالثة التي نبحت فيها .

ونحن نبحت في تبين النظم القرآني في مقامين :

الأول : إنسجام الجمل والكلمات ، وتعانقها .

الثاني : وضع كل كلمة موضعها .

* * *

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٣٠٠ . وثلاث رسائل ، الرسالة الشافية لعبد القاهر الجرجاني ، ص ١٨٤ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ، ج ٤ ، ص ٨ .

١ - تجاذب الكلمات وتعانق الجمل

إنّ القرآن بلغ من ترابط أجزائه ، وتماسك كلماته وجمله وآياته ، مبلغاً لا يدانيه فيه أي كلام آخر ، مع طول نفسه ، وتنوع مقاصده ، وافتنانه وتلوينه في الموضوع الواحد . وآية ذلك أنك إذا تأملت في القرآن الكريم ، وجدت منه جسماً كاملاً ، تربط الأعصاب والأغشية بين أجزائه ، ولمحت فيه روحاً عاماً يبعث الحياة ، والحسن ، على تشابك وتساند بين أعضائه .

فبين كلمات الجملة الواحدة من التأخي والتناسق ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب . وبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط ما جعلها وحدة متأخدة الأجزاء ، متعانقة الآيات . ولأجل ذلك يقول سبحانه : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾^(١) .

والآيات القرآنية ، وإن كانت كلّها مظاهر لهذا الإنسجام ، كما يلاحظه التالي لها ، غير أننا نختار من بينها آية تشع نوراً بين الآيات في حسن الإنسجام وروعة النظم ، كأنها سبيكة واحد ، مع طولها ، وكثرة جملها ، وغزارة معانيها .

يقول سبحانه : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾^(٢) .

وبما أنّ مسألة الترابط والتأخي في الآيات القرآنية واضحة لمن أمعن فيها ، فلذلك نطوي الكلام عن الإكثار فيها ، ونعطف نظر الباحث إلى نمط خاص من النظم :

(١) سورة الزمر : الآية ٢٨ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

نمط خاص من النظم في بعض الآيات

إنَّ الأهرام التي أقامها فراعنة مصر ، فكانت إحدى عجائب الدنيا ، قد بنيت حجراً على حجر دون أن تتناسك أحجارها بأية مادة غريبة دخلت بينها ، وإنما كان تماسكها تماسكاً ذاتياً ، وتجاذباً أحكمته هندسة البناء ، فاستدعى الحجر صاحبه إليه ، واعتنقه في تآلف وترابط . وإنه بقدر ما كان بين هذه الأحجار من روابط ذاتية ، بقدر ما يكون لها من ثبات وروعة على الزمن ، ولكنها - مع هذا - صنعة إنسان ، مقدور عليه الفناء ، وإذن فلا خلود لها ، لأنَّ الفاني لا يخلق إلّا فانياً .

فكان من إعجاز القرآن أن أقام أبنية من النظم الكلامي غير مستندة إلّا على ما بينها من تناسق هندسي ، وتجاذب روحي ، وترابط الكلمات ، وتعانق الآيات ، أحكمه الحكيم العليم ، وقدره اللطيف الخبير .

وإليك نماذج من هذا النوع من النظم :

١ - يقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ * ذَلِكَ الْكِتَابُ ، لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ^(١) .

هذه جمل أربع لم يتوسط فيها حروف العطف ، حتى تعطف بعضها على بعض وتجعل منها كياناً واحداً . ومع ذلك نرى فيها من التلاحم والتناسق ما يجعلها تبدو جملة واحدة ، بل كلمة واحدة .

٢ - يقول سبحانه : ﴿ أَلرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ ^(٢) .

فهذه الآيات تراها كأنها جملة واحدة في اتساقها وتجاذبا ، وتعانقها لفظاً ومعنى . فإنها تساوقت ألفاظها ، وتناغمت حروفها في هذا النغم العلوي ، كما

(١) سورة البقرة : الآيات ١ - ٣ .

(٢) سورة الرحمن : الآيات ١ - ٥ .

تأخت معانيها وتناسبت فكانت نبعا سماويا يتدفق في تسلسل وترابط ، لا ترى العين منه إلا كياناً واحداً من منبعه إلى مصبه .

٣ - يقول سبحانه : ﴿ سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ (١) .

فليس في هذه الآيات حرف عطف يجمع كلمة إلى كلمة ، أو آية إلى آية . وهي مع هذا يسودها التلاحم والتآخي والتساند ، يجذب بعضها بعضاً . فهناك سائل يسأل ، وموضوع سؤاله عذاب واقع ، والذين وقع بهم العذاب هم الكافرون ، وهو عذاب لا يدفع ، لأنه عذاب من الله ذي المعارج .

* * *

٢ - وضع كل كلمة في موضعها

إن لكل نوع من المعنى ، نوعاً من اللفظ هو به أولى وأصلح ، وضروباً من العبارة ، هي بتأديته أقوم ، ومأخذاً إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب وبالقبول أليق ، وكان السمع له أوعى ، والنفس إليه أميل .

إن في لغة العرب ألفاظاً متقاربة في المعاني ، ربما يحسب غير المطلع ترادفها ، وتساويها في إفادة المقصود ، كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ، والقعود والجلوس ، حتى بين الحروف كـ « بلى » و « نعم » ، وغير ذلك من الأسماء والأفعال . فإن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبته في بعض معانيها ، وإن كانا يشتركان في بعضها .

وقد اهتم القرآن ، باستعمال كل كلمة في موضعها بحيث لو أزيلت الكلمة وأقيمت مكانها ما يظن كونه مرادفاً لها ، لفسد المعنى ، وزال الروق .

ولأجل إيقاف الباحث على هذا النوع من النظم ، تأتي بنماذج :

(١) سورة المعارج : الآيات ١ - ٣ .

١ - نرى أنه سبحانه يأمر عبده بحمده ، ويقول : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾^(١) .

وفي موضع آخر يأمر بالشكر ويقول : ﴿ إِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾^(٢) .

وما هذا إلا لأنَّ الحمد هو الثناء على الجميل ، والشكر هو الثناء في مقابل المعروف ، فالحمد ضد الذم ، والشكر ضد الكفران . وبما أنه سبحانه يصف نفسه في الآية الأولى ، بقوله : « الذي لم يتخذ ولداً » ، فناسب الأمر بالحمد . وبما أنه يذكر معروفه وإحسانه على آل داود في الآية الثانية ، ناسب الأمر بالشكر على المعروف .

٢ - نرى أنه سبحانه يستعمل كلمة السهو تارة بلفظة « في » ، ويقول : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾^(٣) .

وأخرى بلفظة « عن » ويقول : ﴿ قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾^(٤) .

وما هذا إلا لأنَّ المراد من الآية الأولى أنَّ الغفلة تعلوهم وتغمرهم ، وأنهم في ضلالتهم متهادون ، فناسب لفظه « في » الدالة على الظرفية . ولكن المراد من الآية الثانية هو السهو عن نفس الصلاة وعدم الإتيان بها في مواقيتها فناسب لفظه « عن » ، ولو كان المراد السهو في نفس الصلاة ، كأن لا يدري المصلي أنه في شفع أو وتر ، لقال « في صلاتهم » .

٣ - يقول سبحانه عن لسان إخوة يوسف : ﴿ فَأَكَلَهُ الذُّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾^(٥) . مع أنَّ الرائج في فعل السباع هو الإفتراس لا

(١) سورة الإسراء : الآية ١١١ .

(٢) سورة سبأ : الآية ١٣ .

(٣) سورة الذاريات : الآيتان ١٠ و ١١ .

(٤) سورة الماعون : الآيتان ٤ و ٥ .

(٥) سورة يوسف : الآية ١٧ .

الأكل ، وما هذا إلا لإفادة أن الذئب أقى على جميع أجزاء يوسف وأعضائه ، فلم يترك منه شيئاً ، حتى لا يطالبهم والدهم بالإتيان ببقية أجزاء بدنه .

٤ - يقول سبحانه عن لسان عبدة الأصنام : ﴿ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾^(١) . ولم يقل : « ان امضوا وانطلقوا » ، وذلك لإفادة أن الدفاع عن الآلهة أمر يطابق سجيبتهم ، كالشيء وراء الحوائج .

٥ - يقول سبحانه : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(٢) ، مع أن الله سبحانه ما سكن فيها وما تحرك . وما ذلك إلا لأنه ليس المراد من السكون ما يضاد الحركة ، وإنما المراد من السكون هو الاستقرار في نظام العالم ، سواء كان متنقلاً عن موضعه أو ساكناً فيه .

فالسكون في الآية ، نظيره في قوله سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾^(٣) . فليس المراد من السكون فيها الاستقرار بلا حراك ، بل الطمأنينة الروحية .

ولأجل ذلك لو وضعت مكان « سَكَنَ » أي كلمة أخرى ترادفها ، مثل « تَحَدَّ » ، « اسْتَقَرَّ » ، « وَقَفَ » ، تخرج الآية من روعتها ، وربما يفسد المعنى .

وبذلك يفتح باب واسع للدقة في نظم القرآن ، فنأتي بنموذجين مع إحالة الإجابة عنهما إلى الباحث الكريم ، ليقف على جوابهما بالإمعان .

٦ - يقول سبحانه : ﴿ وَجَنَّا الْجَحَّتَيْنِ دَانٍ ﴾^(٤) ولم يقل « قريب » ، « حاضر » أو « عتيد » ، لماذا ؟

٧ - يقول سبحانه - حاكياً عن زكريا - : ﴿ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾^(٥)

(١) سورة ص : الآية ٦ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٣١ .

(٣) سورة الروم : الآية ٣١ .

(٤) سورة الرحمن : الآية ٥٤ .

(٥) سورة مريم : الآية ٤ .

يقول « فتر » ، « ضعف » أو « تخاذل » ، لماذا ؟ .

وبعد هذا ، تقف على سبب ما اشتهر بين أئمة البلاغة من أن الكلمة في نظم القرآن ، تأخذ أعدل مكان في بناء هذا البنيان ، ولا يصلح للحلول مكانها أي كلمة أخرى ، لاستلزامه إما فساد المعنى ، أو عدم إفادة المقصود ، وإن اشتهر في وضع اللغة قيام المترادفات مقام بعضها .

* * *

هل في القرآن سجع ؟

من الملاحظ ، أن كثيراً من آيات القرآن الكريم ، تختتم بفواصل فيها حروف متشاكلة في المقاطع ، فهل هو من السجع أو لا ؟ .

ربما يرى بعض الأساتذة عدم اشتغال القرآن على السجع ، بحجة أن الفواصل غير الأسجاع ، لأن شأن القرآن أرفع من أن يسجع فيه ، فإن السجع مأخوذ من سجع الحمامة ، وليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة^(١) .

يلاحظ عليه : إن إنكار السجع في بعض السور القصار ، خلاف الإنصاف ، غير أن السجع على قسمين ، ونربأ بالقرآن عن اشتغاله على السجع الذي يكون المعنى فيه تابعاً له ، دون السجع الذي يكون تابعاً للمعنى .

فالأول مردود ، وهو السائد في الخطب الرائجة أيام الأمويين والعباسيين .

وأما الثاني فهو يوجب حسناً في الكلام ، لأنه على عفو الخاطر ، يأتي به المتكلم مرتجلاً بلا تكلف ، كما هو الملموس في خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

وقد نبه ابن سنان الخفاجي على هذه النكتة حيث قال ، ردّاً على الرماني : « إنه إن أراد بالسجع ، ما يكون تابعاً للمعنى ، - وكأنه غير مقصود - فذلك

(١) لاحظ النكت في إعجاز القرآن ، ص ٨٩ - ٩٠ .

بلاغة ، وفواصل الآيات مثله ، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعة له ،
فذلك عيب ، وأظن أنّ الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل ،
ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً ، هو رغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف
اللاحق بغيره من الكلام المروي عند الكهنة وغيرهم»^(١) .

* * *

⁼ (١) سرّ الفصاحة ، ص ٢٤٧ .

دعائم إعجاز القرآن

(٤)

الأسلوب : بداعة المنهج و غرابة السبك

الأساليب السائدة في كلام العرب عصر نزول القرآن ، كانت تتردد بين أسلوب المحاوراة ، وأسلوب الخطابة ، وأسلوب الشعر ، وأسلوب السجع المتكلف الموجود في كلام العرّافين والكُهان .

فالأسلوب المحاورى ، هو الأسلوب المتداول في المكالمات اليومية في رفع الخواثج ، وتيسير الأمور المعيشية . وهذا الأسلوب دارج في كل لغة ، ولم يكن في العرب بدعاً منهم ، فلم يكن كلامهم عند البيع والشراء ، والمعاشرة مثل كلامهم في مقام الخطابة ، وإظهار المناقب والفضائل .

والأسلوب الخطابي ، هو الأسلوب الرائج بين خطباء العرب وبلغائهم . ويكفيها مؤنة بيانه ، التأمل في النموذجين التاليين لأشهر خطباء الجاهلية .

١ - وقف قس بن ساعدة في سوق عُكاظ ، وخطب : « أيّها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . ليل داج ، ونهار ساج ، وساء ذات أبراج ، ونجوم تزهّر ، وبحار تزخر ، وجبال مُرساة ، وأرض مُدحاة ، وأنهار مُجرّاة ، إنّ في السماء لخبراً ، وإنّ في الأرض لعبراً ، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟ ^(١) » .

(١) صح الأعشى ، ج ١ ، ص ٢١٢ . وإعجاز القرآن ، ص ١٢٤ . البيان والتبيين ، ج ١ ،

٢ - وخطب المأمون الحارثي في قومه ، فقال : « أرفعوني أسماكم ، وأصغوا إليّ قلوبكم ، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد؛ طمح بالأهواء الأشهر ، وران على القلوب الكدر ، وطخطخ^(١) الجهل النظر ، إن فيما ترى لمُعْتَبَرًا لمن اعتبر ، أرض موضوعه وساء مرفوعة ، وشمس تَطْلُعُ وتَغْرُبُ ، ونجوم تسرى فتَعْرُبُ ، وقمر تطلعه النور ، وتَمَحُّقُهُ أدبار الشهور^(٢) .

ويرى هذا الأسلوب في خطب النبي وعليّ عليها السلام في مواقف مختلفة .
والأسلوب الشعري ، هو الأسلوب المعروف المبني على البحور المعروفة في العروض .

وأما أسلوب السجع المتكلف ، فقد كان يتداوله الكهنة والعرفاء ، كما تراه في قول ربيع الذئبي الشهير بسطيح لابن اخته عبد المسيح حول علامات ظهور النبي العربي : « يسبح عبد المسيح ، على جمل مشيح ، أقبل إلى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بني ساسان ، لارتجاج الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا المؤبدان ، رأى إبلا صعبا ، تقود خيلا عربا ، حتى اقتحمت الواد ، وانتشرت في البلاد^(٣) .

ولكن القرآن جاء بصورة من صور الكلام على وجه لم تعرفه العرب ، وخالف بأسلوبه العجيب وسبكه الغريب ، جميع الأساليب الدارجة بينهم ، ومناهج نظمهم ونثرهم .

ولأجل ذلك لم تتعامل معه العرب معاملة شعر أو نثر ، بل أنصف المنصفون منهم بأنه واحد نفسه في أسلوبه وسبكه .

= ص ١٦٨ . الأغاني ، ج ١٤ ، ص ٤٠ . العقد الفريد ج ٢ ، ص ١٥٦ . ومجمع الأمثال للميداني ، ج ١ ، ص ٧٤ .

(١) أي غلب .

(٢) الأماي ، لأبي علي القالي ، ج ١ ، ص ٢٧٦ .

(٣) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣٢ . والعقد الفريد ، ج ١ ، ص ١٠٨ . والسيرة الحلبية ، ج ١ ، ص ٧٠ . والمختصر في أخبار البشر ، لأبي الفداء ، ج ١ ، ص ١١٠ .

كان العرب يعرفون الأساليب الأربعة السالفة ، ولكنهم لم يعرفوا الأسلوب القرآني الذي يأخذ فيه الكلام صورة خاصة ، تأتي فيها الآيات ، وتختتم كل واحدة منها بفاصلة ذات نظم ورنين ، فيجد الصدر لذلك راحة عند الوقوف على الفاصلة .

إنّ الأسلوب القرآني الذي تفرّد به ، كان أبين وجه من وجوه الإعجاز ، في نظر الباحثين عن إعجازه ، وإن جعلناه أحد الأسس الأربعة التي يبنى عليها صرح الإعجاز القرآني .

ولأجل أهمية الأسلوب في رفع القرآن إلى درجة الإعجاز ركّز القاضي الباقلاني عليه وحصر وجه إعجازه فيه ، وقال : « وجه إعجازه ما فيه من النظم والتأليف والترصيف^(١) وأنه خارج عن وجوه جميع النظم المعتاد في كلام العرب ومبائن لأساليب خطاباتهم ، ولهذا لم يمكنهم معارضته » .

وأضاف : « ولا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من أصناف البديع التي أودعوها في الشعر ، لأنّه ليس ممّا يخرق العادة ، بل يمكن استدراكه بالعلم والتدريب والتصنع به ، كقول الشعر ، ورصف الخطب ، وصناعة الرسالة ، والحدق في البلاغة ، وله طريق تسلك . فأما شأون نظم القرآن ، فليس له مثال يحتذى ، ولا إمام يقتدى به ، ولا يصحّ وقوع مثله اتفاقاً »^(٢) .

ومن حصر وجه إعجاز القرآن بأسلوبه الراقي هو الأصفهاني - على ما حكاه السيوطي - فإنّه بعدما أشار إلى أقسام الكلام من المخاورة ، والنثر المسجع ، والشعر ، قال : « ولكل من ذلك نظم مخصوص ، والقرآن جامع لمحاسن الجميع ، على نظم غير نظم شيء منها ، يدلّ على ذلك أنّه لا يصح أن يقال له : « رسالة » ، أو « خطابة » ، أو « شعر » ، أو « سجع » . كما يصح أن يقال هو كلام . والبليغ إذا قرع القرآن سمعه ، فصل بينه وبين ما عداه من النظم ، ولهذا

(١) مراده من النظم والتأليف والترصيف هو الأسلوب الذي اصطللنا عليه في الدعامة الثالثة ، كما يظهر من القرائن

(٢) الإتقان في علوم القرآن ، ج ٤ ، ص ٨ .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾^(١) ، تنبيهاً على أن تأليفه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشر ، فيمكن أن يغير بالزيادة والنقصان كحال الكتب الأخرى^(٢) .

ومما يدلّ على أنّ القرآن ليس كلام النبي الأعظم هو وجود البون الشاسع بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي . فمن قارن آية من القرآن الكريم مع الأحاديث القطعية الصادرة منه صلى الله عليه وآله ، أحس مدى التفاوت، البعيد بين الأسلوبين ، وآمن بأنّ أسلوب التنزيل يغيّر أسلوب الحديث . وهذا يدلّ على أنّ القرآن ينزل من عالم آخر على ضمير النبي ، بينما الحديث يتكلم به النبي من إنشاء نفسه .

وعلى الجملة ، جاء القرآن في ثوب غير الأثواب المعروفة للكلام عند العرب ، وفي صورة غير الصور المألوفة ، جاء نسيج وحده ، وصورة ذاته ، لا يشبه غيره ، ولا يشبهه غيره . فلا هو شعر ، ولا هو نثر ، ولا هو من قبيل سجع الحكماء أو العرافين والكهّان .

والذي يمكن أن يقال إنّهُ قرآن فصّلت آياته ، وكل آية لها مقطع تنتهي به ، وهو الفاصلة ، وهذه هي الظاهرة المحسوسة فيه ، يقف عليها من يتصل بالقرآن الكريم ، قارئاً كان أو مستمعاً ، مؤمناً كان أو غير مؤمن .

وأنت إذا أردت أن تلمس الأسلوب القرآني عن كثب ، وتقف عليه وقوف لاس للحقيقة ، ومستكشف لها عن قرب . فلاحظ موضوعاً واحداً ورد في القرآن المجيد ، وفي كلام النبي الأعظم أو الوصي . فكلاهما يهدفان إلى أمر واحد ، ولكن لكل أسلوبه الخاص لا يختلط أحدهما بالآخر .

يقول الرسول صلى الله عليه وآله في وصف الغفلة عن الآخرة : « وكأنّ

(١) سورة فصلت : الآيتان ٤١ و ٤٢ .

(٢) الإتيقان ، ج ٤ ، ص ١١ . وهو يشير إلى أنّ التغيير في القرآن يوجب التغيير في تأليفه أولاً ، وأسلوبه ثانياً .

الموت فيها على غيرنا كُتِبَ ، وكأنَّ الحق فيها على غيرنا وَجَبَ ، وكأنَّ الذي نُشَيِّع من الأموات سَفَرٌ ، عما قليل إلينا يرجعون » .

وأنت إذا قارنته بما ورد في الذكر الحكيم في هذا المضمار ترى التفاوت بينهما بينا .

يقول سبحانه : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾^(١) .

فهما قد اتَّفقا على وصف معنى واحد ، وهو الموت والعود إلى الآخرة ، وتصرَّم الدنيا وانقضاء أحوالها ، وطَّيَّها ، والورود إلى الآخرة ، ولكن القرآن متميز في تحصيل هذا المعنى وتأديته بأسلوب خاص ، تميِّزاً لا يدرك بقياس ، ولا يعتوره التباس .

وهكذا ، لاحظ قول علي عليه السلام : « أمَّ هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام ، وشَغَفَ الأستار ، نطفة دهاقا ، وعلقة محاقا ، وجنينا ، ووليدا ، ويافعا »^(٢) .

ثم قارنه إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ، لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقَرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لِنَبْلُوَكُمْ أَشَدُّكُمْ ﴾^(٣) .

فإنك ترى الأسلوبين يتغايران جوهرأ ، ولا يجتمعان في شيء .

نوع آخر من المقارنة

وهناك نوع آخر من المقارنة يتجلى فيها التفاوت بوضوح بين الأساويين ، وهو ملاحظة خطب الرسول الأعظم وأمير المؤمنين عليهما السلام ، عندما يخاطبان

(١) سورة العنكبوت . الآية ٦٤ .

(٢) سجع البلاغة ، الخطبة ٨٣ .

(٣) سورة الحج : الآية ٥ .

ويعظان الناس بأفصح العبارات وأبلغها ، ثم يستشهدان في ثانيا كلامهما بأي من الذكر الحكيم ، فعندها يلمس البون الشاسع بين الأسلوبين ، من دون مداخلة شك وريب .

خطب النبي الأكرم يوم فتح مكة في المسجد الحرام ، فقال : يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وادم خلق من تراب ؛ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام ، في خطبته المعروفة بالشقشقية : « فما راعني إلا والناس كعُرف الضبع إليّ ، ينثالون عليّ من كل جانب ، حتى لقد وُطيء الحسنان ، وشُقَّ عطفائي ، مجتمعين حولي كرياضة الغنم . فلما نهضت بالأمر ، نكتت طائفة ، ومرت أخرى ، وقسط آخرون ، كأنهم لم يسمعون كلام الله حيث يقول : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ » .

وقال عليه السلام في كلام له لأصحابه في بعض أيام صفين : « وطيّبوا عن أنفسكم نفساً ، وامشوا إلى الموت مشياً سُججاً ، وعليكم بهذا السواد الأعظم ، والرواق المطّب ، فاضربوا ثُبَجَه ، فإن الشيطان كامن في كِسْرِه ، قد قدّم للوثبة يداً ، وآخر للنكوص رجلاً ، فصمّداً صمداً ، حتى ينجلي لكم عمود الحق ؛ ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ، وَاللَّهُ مَعَكُمْ ، وَلَنْ يَتْرَكَ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٢) .

وقال عليه السلام في خطبة له عند ذكر المشبهة : « لم يعقد غَيْبُ ضَمِيرِهِ على معرفتِك ، ولم يُبَاشِر قَلْبُهُ اليقينُ بأنّه لا نِدَّ لك ، وكأنّه لم يسمع تَبَرُّاً التابعين من المتبوعين ، إذ يقولون : ﴿ تَا اللَّهُ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ . تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ١٢٠ .

(٢) نهج البلاغة ، بتعليق محمد عبده ، ص ١١٥ .

(٣) نهج البلاغة ، بتعليق محمد عبده ، ص ١٦٤ .

وقال عليه السلام في خطبة له عند ذكر أهل القبور : « وكأن صرتم إلى ما صاروا إليه ، وارتهنكم ذلك المضجع ، وضمكم ذلك المستودع ، فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور ، وبعثت القبور : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ »^(١) .

وأخيراً ، يجب التنبيه على أن الأسلوب وحده لا يكفي لجعل الكلام فوق كلام البشر ، ما لم ينضم إليه الدعائم الثلاث الأخر ، خصوصاً سمو المعاني وعلو المضامين ، فإن له القسط الأكبر في جعل الأسلوب ممتازاً ، تمتد إليه الأعناق ، وإلا فمحاكاة الأسلوب القرآني ملموس في كلام المدعين للمعارضة مثل مسيلمة وغيره ، كما سيوافيك ، ولكنه يفقد المضمون الصحيح ، والمعنى المتزن ، وقد عرفت أن إعجاز القرآن بمعنى كونه خلاصاً للعقول ، ومبهرراً للنفوس رهن أمور أربعة توجب حصول تلك الحالات للإنسان فلا يجد في نفسه أمام القرآن إلا السكوت والسكون .

وهناك من خفي عليه دور الأسلوب في رفع شأن القرآن ، وزعم أن إعجاز القرآن ينحصر في الدعائم الثلاثة الأول قال : « إن الأسلوب لا يمنع من الإتيان بأسلوب مثله ، لأن الإتيان بأسلوب يماثله ، سهل ويسير على كل واحد ، بشهادة أن ما يحكى عن مسيلمة الكذاب من قوله : « إنا أعطيناك الجواهر ، فصلّ لرَبِّك وجاهر » ، يشبه أسلوب القرآن »^(٢) .

ولكنه غفل عن أن الأسلوب أحد الدعائم لا الدعامة المنحصرة ، حتى أن ما ادعاه من أن إعجاز القرآن لأجل الفصاحة ، والبلاغة ، وجودة النظم وحسن السياق ، ليست دعائم كافية لإثبات الإعجاز ، إذ في وسع البشر صياغة كلام في غاية الفصاحة والبلاغة مع حسن السياق وجودته ، ومع ذلك لا يكون معجزاً لإمكان منافحته ومقابلته والإتيان بمثله ، فيلزم على ذلك عدم كون القرآن من تلك الجهة معجزاً . والذي يقلع الإشكال أن الإعجاز رهن هذه القيود الأربعة ، وأن

(١) المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(٢) الطراز ، ص ٣٩٦ .

الإتيان بكلام فصيح غايتها ، وبلغ نهايتها ، منضمّاً إلى روعة النظم ، في هذا الأسلوب الخاص المعهود من القرآن ، أمر معجز . ولذلك لم تجد طيلة هذه القرون حتى يومنا هذا كلام يناضل القرآن في آياته وسوره .

ونضيف ، أنه ليس هنا مقياس ملموس كالأوزان الشعرية لتبيين حقيقة أسلوب القرآن ، وإنما هو أمر وجداني يدركه كل من له إلمام بالعربية .

ولأجل تقريب المطلب نذكر آية ، ثم نذكر مضمونها بعبارة أخرى ، فترى أن العبارة الثانية بشرية ، والأولى قرآنية .

قال سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ، إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوقِعْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ ^(١) .

هذا هو الكلام الإلهي .

فلو أراد إنسان أن يصب هذا المعنى بصورة أخرى ، يتغير الأسلوب ، مهما بلغ في الفصاحة والبلاغة من العظمة ، فيقال مثلاً :

« ومن أعظم علاماته الباهرة ، جري السفن على الماء ، كالأبنية العظيمة ، إن يرد هبوب الريح تجري بها ، وإن يرد سكون الريح فتركد على ظهره ، أو يرد إهلاكها بالإغراق بالماء فيهلكهم بسيئات أعمالهم . وفي ذلك آيات للمؤمنين » .

فانظر الفرق بين الأسلوبين ، والاختلاف في السبكين ، مضافاً إلى افتقار الثانية بعض النكات الموجودة في الآية .

* * *

إلى هنا تمّ الكلام حول الدعائم الأربع التي بني عليها صرح الإعجاز ، وشيدت أركانه . غير أنه بقي هنا أمور لا غنى عن الإشارة إليها والتنبيه عليها ، لأنها تقع في طريق تكميل مباحث إعجاز القرآن البياني ، وفيما يلي بيانها .

* * *

(١) سورة الشورى : الآيات ٣٢ - ٣٤ .

التنبيه الأول

آيتان على منضدة التشريح

بعد أن وقفت على الدعائم الأربع التي يتحقق معها إعجاز القرآن ، فهلم إلى تحليل آيتين من آياته ، نستجلي فيهما حقيقة الإعجاز ، ونقف على المزايا الفريدة الموجودة فيهما - مضافاً إلى اشتغالهما على الدعائم الأربع - فسترى أن كل واحدة منهما كافية في إثبات أنها أعلى من أن تكون مصنوعة للبشر ، وإن بلغوا في الفصاحة والبلاغة كل مبلغ .

١ - آية ﴿ يَا أَرْضُ أَبْلَيْي ﴾

قال - عَزَّ مِنْ قَائِلٍ - : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ أَبْلَيْي مَاءَكِ ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلَيْي ، وَغِيْضَ الْمَاءِ ، وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ، وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾^(١) .

هذه الآية الكريمة من بدائع آيات القرآن الكريم ، وهي التي أنزلت ، فَأَنْزَلَتْ فُرِيْشُ مَعْلَقَاتِهَا السَّبْعَ عَنْ جِدْرَانِ الْكَعْبَةِ ، وهي التي شغلت بال باقعة الأدباء ، عبد الله بن المقفع^(٢) ، وهي التي شغلت بال أساتذة البديع ، لأنها

(١) سورة هود : الآية ١٤٤ .

(٢) روى هشام بن الحكم ، قال : اجتمع ابن أبي العوجاء وأبو شاعر الديصاني ، وعبد الملك البصري ، =

اشتملت على عشرات الأنواع من المحسنات البديعية ، بينما هي لا تتجاوز سبعة عشر لفظاً . وإليك الإشارة إلى بعضها :

١ - المناسبة التامة بين « إِبْلَعِي وَأَقْلَعِي » .

٢ - الإستعارة فيهما .

٣ - الطباق بين الأرض والسماء .

٤ - المجاز في قوله : « يا سماء » . فَإِنَّ الْحَقِيقَةَ يَا مَطَرَ السَّمَاءِ .

وابن المقفع ، عند بيت الله الحرام يستهزئون بالحاج ، ويطعنون بالقرآن فقال ابن أبي العوجاء : « تعالوا نقض كل واحد منا ربع القرآن وميعادنا من قابل في هذا الموضع ، نجتمع فيه وقد نقضنا القرآن كله ، فإن في نقض القرآن إبطال نبوة محمد ، وفي إبطال نبوته إبطال الإسلام ، وإثبات ما نحن فيه » . فاتفقوا على ذلك وافترقوا .

فلما كان من قابل ، اجتمعوا عند بيت الله الحرام ، فقال ابن أبي العوجاء : « أمّا أنا فمتفكر منذ افترقنا في هذه الآية : ﴿ قُلْنَا اسْتَبِأْ سِوَا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ (سورة يوسف: الآية ٨٠) ، فما أقدر أن أضم إليها في فصاحتها وجميع معانيها شيئاً ، فشغلتنني هذه الآية عن التفكير في سواها » . وقال عبد الملك : « أنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (سورة الحج : الآية ٧٣) ، ولم أقدر على الإتيان بمثلها » .

فقال أبو شاكر : « أنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (سورة الأنبياء : الآية ٢٤) ، ولم أقدر على الإتيان بمثلها .

فقال ابن المقفع : « يا قوم إن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر ، وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ اقْلَعِي ، وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ، وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة هود : الآية ١٤٤) ، لم أبلغ غاية المعرفة بها ، ولم أقدر على الإتيان بمثلها » .

قال هشام بن الحكم : فبينما هم في ذلك إذ مر بهم جعفر بن محمد الصادق (ع) فقال : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُواْنَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (سورة الإسراء : الآية ٨٨)

منظر القوم بعضهم إلى بعض ، وقالوا لئن كان للإسلام حقيقة لما انتهى أمر وصية محمد إلا إلى جعفر بن محمد ، والله ما رأينا قط إلا هيناه ، واقتشعرت حلودا لهيبته . ثم تفرقوا مقرين بالعجز . (الإحتجاج للطبرسي ، ج ٢ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ، ط الجف الأشرف) .

- ٥ - الإشارة في : ﴿وغيضَ الماء﴾ ، فإنه عَبَّرَ به عن معان كثيرة ، لأنَّ الماء لا يغيض حتى يُقْلِعَ مَطَرُ السماء وتبلغ الأرض ما يخرج منها من عيون الماء .
- ٦ - الإرداف في قوله : ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ فإنه عَبَّرَ عن استقرارها في المكان بلفظ قريب من لفظه الحقيقي .
- ٧ - التمثيل في قوله : ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ . فإنه عَبَّرَ عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ بعيد عن المعنى الموضوع .
- ٨ - التعليل ، فإنَّ : ﴿وغيضَ الماء﴾ ، علة الإستواء .
- ٩ - صَحَّةُ التقسيم ، فإنه استوعب أقسام الماء حالة نقصه ، إذ ليس إلَّا احتباس ماء السماء ، والماء النابع من الأرض ، وغيض الماء الذي على ظهرها .
- ١٠ - الإحتراس في قوله : ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ، إذ الدعاء يشعر بأنَّهم مستحقوا الهلاك احتراساً من ضعيفٍ يتوهم أن الهلاك لعمومه ، ربما يشمل غير مستحقه .
- ١١ - المساواة ، لأنَّ لفظ الآية لا يزيد على معناها .
- ١٢ - حسن النسق ، فإنه تعالى قصَّ القِصَّةَ وعطف بعضها على بعض بحسن الترتيب .
- ١٣ - ائتلاف اللفظ مع المعنى ، لأنَّ كل لفظة لا يصلح معها غيرها .
- ١٤ - الإيجاز ، فإنه تعالى أمر فيها ونهى ، وأخبر ونادى ، ونعت وسمى وأهلك وأبقى ، وأسعد وأشقى ، وقصَّ من الأنباء ما لو شرح لاستغرق كتاباً مفرداً .
- ١٥ - التفهيم ، لأنَّ أوَّل الآية يدلُّ على آخرها .
- ١٦ - التهذيب ، لأنَّ مفرداتها موصوفة بصفات الحُسن ، إذ كل لفظة عليها رونق الفصاحة ، سليمة عن التنافر ، بعيدة عن البشاعة وتعقيد التركيب .

١٧ - حُسْنُ البيان ، لأنَّ السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه .

١٨ - الإعراض ، وهو قوله : ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ .

١٩ - الكناية ، فإنه لم يُصَرِّحْ بَمِنْ أَغْضِ الْمَاءِ ، ولا بَمِنْ قُضِيَ الْأَمْرُ ، ولا بَمِنْ سَوَى السَّفِينَةِ وَأَقْرَبَهَا فِي مَكَانِهَا ، ولا بَمِنْ قَالَ : ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ . كما لم يَصَرِّحْ بِقَائِلٍ : ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي﴾ ، و﴿يَا سَمَاءُ أَقْلَعِي﴾ في صدر الآية ، سالكا في كل واحد من ذلك سبيل الكناية ، لأنَّ تلك الأمور العظام لا تتأقُّ إِلَّا مِنْ ذِي قُدْرَةٍ قَهَّارَةٍ لَا يَغَالِبُ . فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره سبحانه قائل : ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي﴾ ، و﴿يَا سَمَاءُ أَقْلَعِي﴾ ، ولا أن يكون غائص ما غاض ، ولا قاضي مثل ذلك أمر الهائل ، غيره .

٢٠ - التعرُّض ، فإنه تعالى عرَّضَ بِكُلِّ مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ فِي تَكْذِيبِ الرُّسُلِ ظُلْمًا ، وَأَنَّ الطُّوفَانَ وَتِلْكَ الْأُمُورَ الْهَائِلَةَ مَا كَانَتْ إِلَّا لِأَجْلِ ظُلْمِهِمْ .

٢١ - التمكين ، لأنَّ الفاصلة مستقرة في محلِّها ، مطمئنة في مكانها غير قلقة ولا مستدعاة .

٢٢ - الإنسجام ، لأنَّ الآية بجملتها منسجمة ، كالماء الجاري في السلاسة .

٢٣ - اشتغالها على بعض البحور الشعرية ، إذ قوله : ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ﴾ ، على وزن « مستفعِلن مستفعِلن فاعل » . و﴿يَا سَمَاءُ أَقْلَعِي﴾ على وزن « مفاعلن مفاعلن » .

٢٤ - تنزيل من لا يعقل منزلة من يعقل في النداء والمخاطبة .

٢٥ - الإيهام في قوله : ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ وهو إسم الجبل الصغير ، والزرق المنفوخ الذي تستقر عليه السُّفُنُ المائتة .

٢٦ - المحافظة على فواصل الآيات فإنَّ الرويَّ في قوله : ﴿بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ مطابق للآيات المتقدمة والمتأخرة .

٢٧ - التكرار ، كما في « الماء » ، معرّفًا باللام تارة وبالإضافة أخرى .

٢٨ - تخيل مالكية الأرض ، بحيث لها سلطة في إرجاع الماء .

إلى غير ذلك من المحاسن البديعية التي يدركها الممعن في الآية .

فهذه بعض الميزات الواردة في الآية الكريمة ، وليس كل واحد منها ولا جميعها أمراً معجزاً ، ولكن المجموع أعطى للآية نظاماً خاصاً ، وأسلوباً بديعاً ، يعرف الذوق العربي أنه يغاير سائر الأساليب والنظم الكلامية . وهذا الجمال الطبيعي ، يخلق في النفس جذبة روحية خاصة ، كأنها كهرباء القلوب ومغناطيس الأرواح ، ولأجل ذلك يقول الكرمانلي في كتاب « العجائب » :

« أجمع المعاندون على أنّ طَوْقَ البشر قاصرٌ عن الإتيان بمثل هذه الآية ، بعد أن فتّشوا جميعَ كلام العرب والعجم ، ولم يجدوا مثلاً في فخامة ألفاظها ، وحسن نظمها ، في تصوير الحال مع الإيجاز من غير إخلال »^(١) .

ويقول العلامة الشهرستاني بأنه أفرد بلاغة هذه الآية بالتأليف^(٢) .

٢ - آية ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾

قال تبارك وتعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ ، وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٣) .

وهذه الآية الكريمة من بدائع آيات القرآن ، وهي على وجازتها ، قد جمعت فعلين من الماضي (أوحينا ، وخفّت) ، وفعلين من الأمر (أرضعيه ، وألقيه) ، وفعلين من النهي (لا تخافي ولا تحزني) ، ووزنين من اسم الفاعل (رادّوه ،

(١) العجائب ، نقلاً عن المعجزة الخالدة للشهرستاني ، ص ٦٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) سورة القصص : الآية ٧ .

جاءلوه) ، ووزنين من إسم المفعول (موسى ، مرسل) ، وإسمين خاصين (موسى ، وأُمّه) .

ثم قد تكررت فيها « فاء الجواب » مرتين (فإذا ، فألقيه) ، وحرف « إلى » مرتين (إلى أم موسى ، إليك) . ثم قد كرر الخوف مرتين ، وعبر عن أم موسى باسم مزدوج بدل أن يسميها باسمها .

وفيها نبأ غيبي وهو الإخبار برّد موسى إلى أمّه ، وفيها وعدان : الرّد ، والنبؤة .

فاجتماع هذه الأمور في الآية يوجد في الإنسان عند سماعها ، لذّة وانجذاباً واستغراقاً ، وتطرأ عليه الحالة التي طرأت على عتبة بن ربيعة عندما سمع من رسول الله آيات من سورة فصلت ، فألقى يديه خلف ظهره ، معتمداً عليهما مذهولاً مبهوراً ، كما تقدّم .

* * *

التنبيه الثاني

مزايا القرآن البيانية

قد تعرفت على الدعائم الأربع المحققة لإعجاز القرآن ، وكفى بذلك عظمة لهذا الكتاب . غير أن هذه المعجزة الخالدة مزايا أخرى يناسب ذكرها هنا ، وترجع جميعها إلى المزية البيانية التي نحن بصدد بيانها . وحيث إنه لا يسع المقام الإتيان بجميع ما ذكره المحققون ، فنأتي ببعضه ، الذي يتجلى معه هذا الكتاب السماوي بمزاياه البيانية المنفردة .

١ - الصراحة في بيان الحقائق

إن الصراحة إحدى الميزات التي يتصف بها القرآن الكريم ، وتظهر بوضوح في آياته . فمن ذلك صراحته في التنديد بالوثنية ، والظعن في الأصنام المعبودة يومذاك ، ودعوته إلى تحطيمها .

يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (١) .

إن الصراحة وليدة الشجاعة المختمرة بالإيمان ، في حين أن السكوت عن

(١) سورة الحج : الآية ٧٢ .

الحق ، أو التلّون والتحفظ في الحديث ، دليلٌ على جُبْنِ القائل وعدم اعتقاده بالقول الذي يلقيه على الناس ، وتخوّفه من المستمعين .

غير أنّ هذا الكتاب المعجز ، منزّه عن هذه الوصايات . فهذا هتافه في أذن الكافرين ، يقول : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ ﴾ (١) .

هذه هي سيرة الأنبياء العظام ، فهم يمتلكون الصراحة في البيان ، ويمتازون بها عن غيرهم ، فيعلنون الحقائق ، بلا تتعصّب ولا تحفّظ . هذا هو إبراهيم الخليل - بطل التوحيد - يندد بعمل عبدة الأصنام بقوله : ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ، أَفَ لَكُمْ مِنْهُ عِلْمٌ وَلَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

قل لي برّبك ، هل تجدُ كلاماً أصرح وأمتن وأبلغ في التنديد بمن يتخذ ولياً غير الله من قوله سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وليست الصراحة ميزة القرآن في مجال المعارف والعقائد فحسب ، بل هي سارية أيضاً في مجال العلاقات السياسية فيها هو يقول : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٤) .

هذه الإمامة عابرة في تبيين هذه الميزة ، تُعرب عن إيمان القائل وإدعائه بما يقول وي طرح في مختلف المجالات والأصعدة .

(١) سورة الكافرون .

(٢) سورة الأنبياء : الآيتان ٦٦ و ٦٧ .

(٣) سورة العنكبوت : الآية ٤١ .

(٤) سورة التوبة : لاحظ الآيات ١ - ١٦ .

٢ - علو الجهة المنزل منها القرآن

ومن مزايا بيان القرآن ، تَكَلُّمُهُ من موقع الإستعلاء وتحَدُّثُهُ بلسان من يملك الأمر كُلَّهُ ، ومن بيده ملكوت السموات والأرض ، وفي قبضته كُلُّ شيء . فهو في مخاطباته ومجادلاته وأوامره ونواهيه ، وفي وعده ووعيده ، وفي أمثاله وقصصه ، وفي مواعظه ونُذْرِهِ ، يتَّسَمُّ بالعلو الشامخ ، ويتصدر المقام الرفيع الذي لا يُنال ، ويتحدث إلى الناس حديث من يملك كل شيء ، ومن يقوم على كل شيء ، ومن يُدَبِّرُ ويُقَدِّرُ ، دون أن يقف أحد أمام سلطانه ، فاستمع لقوله سبحانه :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ، مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (١) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَسِيرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢) .

وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنِّي تُصَرِّفُونَ ﴾ (٣) .

٣ - العفة والإحتشام

إمتاز القرآن المجيد في تعابيره بالنزاهة والعفة ، مع أنه ظهر في بيئة لا تعرف للعفة مفهوماً ، فلا تجد فيه تعبيراً سيئاً ، ومنهجاً ركيكاً ، يخالف الأدب حتى في

(١) سورة الملك . الآيات ١ - ٤ .

(٢) سورة الملك . الآيتان ١٣ و ١٤ .

(٣) سورة يونس : الآيتان ٣١ و ٣٢ .

سرده لقصة غرامية ، هي قصة يوسف وزليخاء ، قصّة عشق امرأة حسن فاتنة ، لفتى طاهر جميل ، يُجِلُّ وجهه القمر .

إنّ الكاتب في حقل القصص عندما يسرد أمثال هذه القصة الغرامية ، لا يملك زمام قلمه ، ويخرج عن النزاهة والعفة ، ولكن القرآن قد شرح تلك القصة وصوّرها ووضع خطوطها الغرامية بدقة فائقة في البيان ، مع وافر الإحتشام والإتزان .

فعندما يعرض اجتماع هذه المرأة الجميلة ، مع ذاك الشاب الطاهر ، واختلاهما في بيتها ، وتعلّقها به ، يشرح تلك الواقعة من غير أن يشير الغريزة الجنسية الحيوانية ، لئلا يناقض هدفه الذي لأجله جاء بها ويقول :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ، وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾^(١) .

ففي هذه الآية تتجلى عفة القرآن واحتشامه من جهات :

أولاً : استعمل كلمة « راود » ، وهي تستعمل في الإصرار على الطلب مع اللين والعطف ، فكأنّ زليخا طلبت من يوسف ما طلبت بإصرار وحنان .

وثانياً : لم يصرّح باسم المرأة ، حفظاً لكرامتها ، وإنما عبّر عنها بقوله : « التي هو في بيتها » ، مشيراً - إضافة إلى ذلك - إلى قوة الضغط وشدة سيطرتها على يوسف ، فزمام أمره بيدها ، ولا مجال للهروب والتخلّص منها ، لأنّه في بيتها .

وثالثاً : قالت الآية : ﴿ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ ، إعراباً عن أنّ يوسف لم يجد باباً للفرار ، وكانت مقدمات الإستسلام مهينة .

ورابعاً : وقالت الآية : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، وهذه كناية عن دعوتها إيّاه إلى التلذذ الجنسي ، لكن بكناية فائقة ، فإنّ هَيْتَ لك ، اسم فعل بمعنى هَلَمْ .

(١) سورة يوسف : الآية ٢٣ .

خامساً : أجب يوسف طلبها بقوله : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنُ مَثْوَايَ ﴾ ، أي أعوذ بالله معاذاً . فيعرب عن أن يوسف لم يعرف خيانه ، ولم يَدْرُ بخلده أن يخون صاحبه (العزيز) وَمُنْعِمَهُ ومربيّه ، في امرأته . والضمير في « إِنَّهُ » ، يرجع إلى « العزيز » . ولأجل ذلك بعدما اتّضحت الحقيقة ، وبانت خيانة الإمراة ، أرسل يوسف من أعماق زنزانه إلى الملك ، ووزير « العزيز » ، بقوله : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ (١) .

وفي القصة مسرحية غرامية أخرى هي دعوة إمراة العزيز ، نِسْوة أشراف المدينة ، إلى مأدبة ليقتن على بهاء جمال هذا الفتى ، وأنّ التعلق به ليس أمراً اختيارياً ، بل كل من رآه يتعلق فؤاده به في أول لقاء . ويحكيه القرآن بقوله :

﴿ وَقَالَ نِسْوةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تِرَاوُدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَنّاً ، وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِيناً ، وَقَالَتْ أَخْرِجْنَ عَلَيَّهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ اللَّهُ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢) .

أنظر إلى العفة والإحتشام في التعبير عن جمال يوسف حيث قال : ﴿ أَكْبَرْنَهُ وَقُلْنَ حَاشَ اللَّهُ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

كل ذلك يعرب عن أن القصة سُردت على أساس الدعوة إلى العفة والعبرة ، والإنصراف عن الإتهام في الشهوات . فهل يستطيع إنسان أمي ، غير متعلم ، ترعرع بين شعب متوحش ، أن يعرض تلك المسرحية الغرامية ، ولا يخرج عن حدود العفة ونطاق النزاهة ؟ كلا ، لا (٣) .

(١) سورة يوسف : الآية ١٩٩ . لاحظ الميزان ، ج ١١ ، ص ٢١٥ .

(٢) سورة يوسف : الآيتان ٣١ و ٣٢ .

(٣) أصف إلى ذلك أنّ القرآن يستمد في بيان ما يستقيح التصريح به ، بالكلمات الكنائية ، ككلمات « الفرج » (لاحظ المؤمنون : الآية ٥) و« الغائط » (المائدة : الآية ١٦) فإنّ الفرج ليس علماً للموضع الخاص من المرأة ، وإنما يراد منه الخلل بين الشيتين . كما أنّ الغائط ، بمعنى الموضع المنخفض ، وقس على ذلك غيرها من الكلمات التي جاءت في بيان المسائل الراجعة إلى الزوج -

هذه بعض الميزات الموجودة في بيان القرآن الكريم ، والممعن في الذكر الحكيم يجد له ميزات كثيرة سامية يستتج من مجموعها أن هذا الكتاب ليس نتاج وإبداع إنسان أمي ولد ونشأ في أمة متفهمرة ، بل هو كتاب إلهي نزل على ضميره وقلبه ؛ ﴿ لِيَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾^(١) .

= والزوجة كقوله تعالى : ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ (النساء : الآية ٢١) ، وغيره ، فكلها كنايات .
(١) اقتباس من قوله سبحانه : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ (سورة الشعراء : الآيتان ١٩٣ و ١٩٤) .

التنبیه الثالث

مذهب الصَّرْفَة (١)

اهتمّ المسلمون من الصدر الأول بالبحث عن وجه إعجاز القرآن ، وكان الرأي السائد بينهم في إعجازه هو كونه في الطبقة العليا من الفصاحة ، والدرجة القصوى من البلاغة ، مع ما له من النظم الفريد ، والأسلوب البديع . وهذه الأمور الأربعة أضفت على القرآن وصف الإعجاز حتى صار معجزة القرون والأعصار .

نعم نَجَم في القرن الثالث مذهب اشتهر بمذهب الصَّرْفَة ، وإليه ذهب جماعة من المتكلمين ، وهو يقوم على أساس أنّ العرب لم يقدروا على الإتيان بمثل القرآن ، لا لإعجازه بحد ذاته ، وأنّ القرآن بلغ في فرط الفصاحة والبلاغة ، وروعة النظم وبداعة الأسلوب شأواً لا تبلغه الطاقة البشرية ، بل لأجل أنّه سبحانه صرّف بُلْغَاء العرب وفصحاءهم عن المعارضة بطريق من الطُّرق الآتي ذكرها .

وقد حُكي هذا المذهب عن أبي إسحاق النُّظام ، وهو أقدم من نسب إليه هذا القول . وتبعه أبو إسحاق النصيبي ، وعَبَاد بن سليمان الصِّيمري ، وهشام بن عمرو الفوطي ، وغيرهم .

(١) التاء في الصَّرْفَة ، تاء المصدرية التي تلحق كثيراً من المصادر مثل : الرحمة ، والرأفة ، وغيرهما .

واختاره من الإمامية الشيخ المفيد (ت ٣٣٨ - م ٤١٣) في أوائل المقالات ، وإن حُكي عنه غيره . والسيد المرتضى (ت ٣٥٥ - م ٤٣٦) في رسالته الخاصة بهذا الموضوع التي أسماها بـ « الموضح عن جهة إعجاز القرآن » . والشيخ الطوسي (ت ٣٨٥ - م ٤٦٠) في شرحه لجمال السيد ، وإن رجع عنه في كتابه « الإقتصاد » . وابن سنان الخفاجي (م ٤٦٤) في كتابه « سِرّ الفصاحة » .

ولما كان هذا المذهب قد أحاط به الإيهام ، واضطربت في تفسيره الأذهان ، فأقرب ما يمكن اعتماده في الوقوف على حقيقته ، الرجوع إلى نفس عبارات المتمسكين به .

حقيقة الصِّرفة

إنَّ القائلين بأنَّ القرآن معجز من حيث الفصاحة ، والبلاغة ، وروعة النظم وجماله ، وبداعة الأسلوب والسُّبك ، يقولون بأنَّ القرآن وصل من فرط كماله فيها إلى حدٍّ تقصر القدرة البشرية عن الإتيان بمثله ، من غير فرق بين السابقين على البعثة واللاحقين عليها .

وأما القائلون بمذهب الصِّرفة ، فإنهم يعترفون بفصاحة القرآن وبلاغته ، وروعة نظمه وبداعة أسلوبه ، لكنهم لا يرونه على حدِّ الإعجاز ، بل يقولون : ليس الإتيان بمثله خارجاً عن طوق القدرة البشرية ، فهي كافية في مقام المعارضة ، وإنَّما العجز والهزيمة في حلبة المبارزة لأمر آخر ، وهو حيلولته سبحانه بينهم وبين الإتيان بمثله .

وبعبارة أخرى : إنَّ القائلين بكون إعجاز القرآن من جهة فصاحته وبلاغته ونظمه وأسلوبه ، يقولون إنَّ الإعجاز إنما يتعلق بأمر ممكن بالذات ، لأنَّه لو كان محالاً بالذات - كاجتماع النقيضين وارتفاعهما - فلا تتعلق به القدرة مطلقاً ، سواء أكانت قدرة إلهية أو قدرة بشرية . وعلى ضوء ذلك ، فالإتيان بكتاب مثل القرآن ، أمر ممكن بالذات ، وليس أمراً محالاً بالذات ، غير أنَّه لا تكفي لذلك القدرة البشرية العادية . فالإتيان بمثله محال عادي ، لا تزول استحالاته إلاَّ أن يتجهز الآتي بمثله بقدرة فوق القدرة العادية .

وأما القائلون بالصرفة ، فيقولون إن معارضة القرآن والإتيان بمثله ليس محالاً عادياً حتى يحتاج فيه وراء القدرة العادية إلى قدرة خارقة . ولأجل ذلك كان يوجد في كلام السابقين على البعثة من فصحاء العرب وبلغائهم ، ما يضاهي القرآن في تأليفه ، غير أنه سبحانه لأجل إثبات التحدي ، حال بين فصحاء العرب وبلغائهم ، وبين الإتيان بمثله بأحد الأمور الثلاثة التالية :

١ - صرّف دواعيهم وهمهم عن القيام بالمعارضة ، فكلموا هموا بها وجدوا في أنفسهم صارفاً ودافعاً يصرفهم عن منازلته في حلبة المعارضة . ولم يكن ذلك لعدم قدرتهم على الإنصداق لهذا الأمر ، بل إن المقتضي فيهم كان تاماً غير أن الدواعي والههم صارت مصروفة عن الإلتفات إلى هذا الأمر ، بصرف الله سبحانه قلوبهم عنه ، ولولا ذلك لأتوا بمثله .

٢ - سلبهم سبحانه العلوم التي كانت العرب مالكة لها ، ومتجهزة بها ، وكانت كافية في مقابلة القرآن . ولولا هذا السلب - وكان وضع العرب حال البعثة كوضعهم بعدها - لأتوا بمثله .

٣ - أنهم كانوا قادرين على المعارضة ، ومجهزين بالعلوم الوافية بها ، مع توفر دواعي المعارضة وعدم صرف همهم عنها ، ولم يمنعهم عنها إلا الجأؤه تعالى ، فتقهقروا في حلبة المعارضة لغلبة القوة الإلهية على قواهم . وهذا نظير من يريد أن يتحرك نحو المطلوب ، فيحال بينه وبين مقصده بقاهر يصده عن التقدم .

وفي خلال عبارات أصحاب هذا القول ، إيماءات إلى هذه الوجوه المختلفة^(١) ، التي يجمعها قدرة العرب على معارضة القرآن .

١ - قال النظام : « الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب ، فأما التأليف والنظم ، فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله

(١) وقد أشار إلى هذه الوجوه الثلاثة الإمام يحيى بن حمزة العلوي في كتابه « الطراز » ، ج ٣ ، ص ٣٩١ - ٣٩٥ ، ط مصر سنة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م .

منعهم بمنعٍ وعجزٍ أحدثهما فيهم»^(١) .

وقال أيضاً في إعجاز القرآن : « وإنَّه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية ومنع العرب عن الإهتمام به جبراً وتعجزاً ، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله ، بلاغةً وفصاحةً ونظماً »^(٢) .

٢ - وقال أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٢٩٦ - م ٣٨٦) : « أمَّا الصِّرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة ، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة ، وذلك خارج عن العادة ، كخروج سائر المعجزات التي دلَّت على النبوة ، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول »^(٣) .

٣ - وقال أبو سليمان حمد بن محمد إبراهيم الخطابي (ت ٣١٩ - م ٣٨٨) : « وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصِّرفة أي صرف الهمم عن المعارضة ، وإن كانت مقدوراً عليها ، غير معجوز عنها ، إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات ، صار كسائر المعجزات فقالوا : ولو كان الله عز وجل بعث نبياً في زمان النبوات ، وجعل معجزته في تحريك يده أو مدَّ رجله في وقت قعوده بين ظهري قومه ، ثم قيل له ما آيتك فقال أيتي أن أخرج يدي أو أمدَّ رجلي ولا يمكن أحداً منكم أن يفعل مثل فعلي ، والقوم أصحاب الأبدان ، لا آفة بشيء من جوارحهم ، فحرك يده أو مدَّ رجله فراموا أن يفعلوا مثل فعله ، فلم يقدرُوا عليه ، كان ذلك آيةً دالةً على صدقه . وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي ، ولا إلى فخامة منظره ، وإنما تعتبر صحتها خارجاً عن مجرى العادات ناقضاً لها ، فمهما كانت بهذا الوصف ، كانت آية دالة على صدق من جاء بها . وهذا أيضاً وجه قريب »^(٤) .

(١) نقله الأشعري في : « مقالات الإسلاميين » ج ١ ، ص ٢٢٥ . ولاحظ « الطراز » ، ج ٣ ،

ص ٣٩١ - ٣٩٥ ، ط مصر سنة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م .

(٢) نقله الشهرستاني في « الملل والنحل » ، ج ١ ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(٣) النكت في إعجاز القرآن ، ص ١٠١ .

(٤) بيان إعجاز القرآن ، للخطابي ، ص ٢١ . غير أنه يشير في ذيل كلامه إلى أن هذه النظرية يخالفها قوله سبحانه : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ ﴾ الآية . وسيافاً فيك نصّه عند نقد النظرية .

٤ - وقال الشيخ المفيد في جهة إعجاز القرآن : « إنّ جهة ذلك هو الصرف من الله تعالى لأهل الفصاحة واللسان عن معارضة النبي صلى الله عليه وآله بمثله في النظام عند تحديده لهم ، وجعل انصرافهم عن الإتيان بمثله - وإن كان في مقدورهم - دليلاً على نبوته . واللطف من الله تعالى مستمر في الصرف عنه إلى آخر الزمان . وهذا أوضح برهان في الإعجاز ، وأعجب بيان . وهو مذهب النظام ، وخالف فيه جمهور أهل الاعتزال »^(١) . هذا .

وقد نقل القُطب الراوندي (م ٥٧٣) في كتاب « الخرائج » ، قولاً آخر للشيخ المفيد ، ولا نعلم أياً من الرأيين هو المتقدم . قال في بيان وجوه إعجاز القرآن : « ما ذهب إليه الشيخ المفيد ، وهو أنّه إنّما كان معجزاً من حيث اختصّ برتبة في الفصاحة خارقة للعادة ، قال : لأنّ مراتب الفصاحة إنّما تتفاوت بحسب العلوم التي يفعلها الله في العباد ، فلا يمتنع أن يجري الله العادة بقدر من المعلوم ، فيقع التمكين بها من مراتب في الفصاحة محصورة متناهية ، ويكون ما زاد على ذلك غير معتادة ، معجزاً خارقاً للعادة »^(٢) .

٥ - وقال السيد المرتضى : « إنّ الله تعالى سلب العرب العلوم التي كانت تتأقّ منهم بها الفصاحة التي هي مثل القرآن متى راموا المعارضة ، ولو لم يسلبهم ذلك لكان يتأقّ منهم »^(٣) .

٦ - قال الشيخ تقي الدين أبي الصلاح الحلبي (ت ٣٧٤ - م ٤٤٧) بعد استعراضه الوجوه المحتملة لإعجاز القرآن : « وإذا بطلت سائر الوجوه ، ثبت أنّ جهة الإعجاز كونهم مصروفين » . ثم قال : « معنى الصرف هو نفي العلوم بأضدادها أو قطع إيجادها في حال تعاطي المعارضة التي لولا انتفاؤها لصحّت المعارضة ، وهذا الضرب مختصّ بالفصاحة والنظم معاً ، لأنّ التحدي واقع بهما ، وعن الجمع بينهما كان الصّرف »^(٤) .

(١) أوائل المقالات ، ص ٣١ .

(٢) البحار ، ج ٩٢ ، ص ١٢٧ .

(٣) الإقتصاد ، ص ١٧٢ .

(٤) تقريب المعارف ، ص ١٠٧ ، ط ١٤٠٤ هـ .

٧ - وقال الشيخ الطوسي : « القرآن معجز سواء كان معجزاً خارقاً للعادة بفصاحته فلذلك لم يعارضوه ، أو لأنّ الله تعالى صرفهم عن معارضته ، ولولا الصرف لعارضوه » .

وقال : « إنّ التحدي إنّما وقع لعجزهم عن معارضته في المستقبل ، لا لأنّه ليس في كلامهم مثله ، ولو كان في كلامهم مثله لكان ترك المعارضة أبلغ وأعظم في باب العجز » .

وقال : « إنّ القائلين بالصرف يقولون إنّ مثل ذلك كان في كلامهم وخطبهم ، وإنّما صرّفوا عن معارضته في المستقبل ، فلا معنى لكونه أفصح »^(١) .

وقال : « وأما قولهم إنّ كان في كلامهم ما هو مثل القرآن ، فلا يتوجه على أصحاب الصرف لأنّهم يسلمون ذلك ، لكنهم يقولون إنّهم منعوا من مثله في المستقبل فلا ينفع بأن ذلك فيما مضى منهم موجود ، بل ذلك يؤكّد الحجة عليهم »^(٢) .

وقال : « إنّ من قال بالصرف لا ينكر مزية القرآن على غيره بالفصاحة والبلاغة ، وإنّما يقول هذه المزية ليست ممّا تخرق العادة ويبلغ حدّ الإعجاز . فليس في طرب الفصحاء وشهادتهم بفصاحة القرآن وفرط براعته ، ما يوجب بطلان القول بالصرف »^(٣) .

(١) الإقتصاد ، ص ١٦٦ ، وص ١٧٠ ، وص ١٧١ .

(٢) تمهيد الأصول في علم الكلام ، ص ٣٣١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨ ، وهذا الكتاب شرح على كتاب « مجل العلم والعمل » ، للسيد المرتضى ، فإنّه يشتمل على قسمين :

قسم يختص بالعقائد ، وهو الذي شرحه الشيخ الطوسي وأسماه : « تمهيد الأصول في علم الكلام » ، نشرته جامعة طهران ، وقد جعل المتن في أول الكتاب والشرح بعده ، وليس المتن متميزاً في الشرح عمّا علّق عليه .

وقسم يختص بالأحكام ، وهو الذي شرحه تلميذ السيد ، القاضي ابن الرّاج المتوفى عام ٤٨١ ، وطبع باسم : « شرح مجل العلم والعمل » .

ثم إنّ للسيد نفسه شرحاً على هذا الكتاب أملاه على بعض تلامذته ، وهو بعد مخطوط لم ير النور ، وستقوم مؤسسة الإمام الصادق بنشره تحقيقاً لإنشاء الله تعالى .

وقد كان الشيخ الطوسي قائلًا بالصرفة ، ولكنه عدل عنه بعد ذلك ، كما يعترف به هو نفسه في كتابه « الإقتصاد » ، قال : « وأقوى الأقوال عندي قول من قال إنما كان معجزاً خارقاً للعادة لاختصاصه بالفصاحة المفرطة في هذا النظم المخصوص ، دون الفصاحة بانفرادها ، ودون النظم بانفراده ، ودون الصرفة . وإن كُنْتُ نصرتُ في شرح الجمل القولَ بالصرِّفة على ما كان يذهب إليه المرتضى رحمه الله ، من حيث شرحت كتابه فلم يحسن خلاف مذهبه »^(١) .

٨ - وقال ابن سنان الخفاجي : « إذا عدنا إلى التحقيق وجدنا إعجاز القرآن ، صرف العرب عن معارضته ، بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك » .

ثم قال : « إنَّ الصحيح أنَّ إعجاز القرآن هو صرف العرب عن معارضته ، وأنَّ فصاحته كانت في مقدورهم لولا الصرف » .

وقال في موضع آخر : « متى رجع الإنسان إلى نفسه ، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار ، وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه »^(٢) .

٩ - وبسط ابن حزم (م ٥٤٨) الكلام في إعجاز القرآن ، وذكر لإعجازه خمسة وجوه وردّها ، ومّا قاله :

« والنحو الرابع : ما قالت طائفة : وجهُ إعجازه ، كونه في أعلى مراتب البلاغة . وقالت طوائفٌ إنّما وجه إعجازه أنَّ الله منع الخلق من القدرة على معارضته .

فأمّا الطائفة التي قالت إنّما إعجازه لأنّه في أعلى درج البلاغة ، فإنّهم شغبوا في ذلك بأن ذكروا آيات منه مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ .

وموّه بعضهم بأن قال : « لو كان كما تقولون من أنَّ الله تعالى منع من

(١) الإقتصاد ، ص ١٧٣ .

(٢) سرّ الفصاحة ، ص ٨٩ ، وص ٢١٧ .

معارضته فقط ، لوجب أن يكون أغث ما يمكن أن يكون من الكلام ، فكانت تكون الحجة بذلك أبلغ » .

ثم ردّ على هذين الدليلين بوجه تافه غير قابل للنقل ، وقال في آخر كلامه : « فإنّها معجزة لا يقدر على المجيء بمثلها أبداً ، لأنّ الله تعالى حال بين الناس وذلك »^(١) .

١٠ - قال المحقق الطوسي : « وإعجاز القرآن قيل : الفصاحة ، وقيل : الأسلوب وفصاحته معاً ، وقيل : للصرفة ، والكلّ محتمل »^(٢) .

هذه حقيقة نظرية الصرفة ، ذكرناها على وجه رفعنا عن وجهها الغشاوة والإيهام .

* * *

مناقشة نظرية الصرفة

إنّ نظرية الصرفة ، نظرية قاصرة وسقيمة من جهات :

أما أولاً : فلأنّه لو كان القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة وروعة النظم وبداعة الأسلوب ، غير بالغ حدّ الإعجاز ، وكان العرب قبل البعثة متمكنين من إلقاء الخطب والأشعار على هذا النمط من الكلام ، فيجب أن ينتشر ما يضاهي القرآن في البلاغة ، والفصاحة بين أوساطهم وأندية شعرهم وأدبهم ، ويكون مثله متوفراً بينهم ، فعندئذ نسأل : أين هذه الخطب والجمل المضاهية للقرآن الكريم ، الرائجة بينهم ؟ وهل يمكن لأصحاب مذهب الصرفة إراءة نماذج منها ١٩ ونحن مع ما بذلنا من الفحص والتتبع عنها في مظانها من مجاميع الكتب الأدبية ، لم نجد حتى النزر اليسير منها .

وثانياً : فإنّ مذهب الصرفة يبتني على حصول الحيلولة بين العرب

(١) الفصل ، ج ٣ ، ص ١٧ وص ٢١ .

(٢) كشف المراد ، ص ٢٢٣ ، ط صيدا .

والمقابلة ، بعد البعثة ، بما تقدم ، لا قبلها ، فعندئذ كان في وسع العرب القاء كلم وجمل وخطب مضاهية للقرآن الكريم من دون أن يتحملوا عبء المقابلة بإنشاء مثله ، حتى يقال بأنهم صرفوا عن المقابلة بسلب الهمم والعلوم والقدرة ، لأنّ الإتيان بما هو دارج بين العرب لا يتوقف على مؤنة . إلا أن يقال إنهم صرفت همهم حتى عن هذا المقدار ، وهو كما ترى .

وثالثاً : فلو كان العرب قبل البعثة قادرين على الإتيان بكلام يشبه القرآن ويضاهيه ، فلماذا اندهش الوليد بن المغيرة عندما سمع آيات من سورة فصلت وقال : « لقد سمعت من محمد كلاماً لا يشبه كلام الإنس والجن »^(١) . ولماذا ارتقى عتبة بن ربيعة مدهوشاً مبهوراً ملقياً يديه وراء ظهره متكياً عليهما ، مشدقاً بفيه مصعوقاً عندما سمع بعض آيات القرآن من النبي الصادع بالحق . فلو كانت فصاحة القرآن وبلاغته أو نظمه وسُلو به من حيث العذوبة والأناقة على نمط كلام الآخرين من فصحاء العرب وبلغائهم ، فلم اهتزوا وتأثروا بسماع آية أو آيات منه ، ولم تكن لهم هذه الحالة في سماع شعر امرئ القيس ، ولا عنتره ، ولا غيرهما من أصحاب المعلقات ، ولا من سماع خطب قس بن ساعدة وسحبان بن وائل وغيرهما من أصحاب الخطب والكلام .

وإلى هذا الوجه يشير الإمام يحيى بن حمزة العلوي في نقد هذا المذهب ، ويقول : « لو كان الوجه في إعجازه هو الصرفة كما زعموا ، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن ، فلما ظهر منهم التعجب لبلاغته وحسن فصاحته ، كما أثر عن الوليد بن المغيرة حيث قال : « إنّ أعلاه لمورق ، وإنّ أسفله لمُعْدِق ، وإنّ له لطلاوة ، وإنّ عليه لحلاوة » ، فإنّ المعلوم من حال كل بليغ وفصيح سمع القرآن يتلى عليه فإنّه يدهش عقله ويحير لبّه ، وما ذاك إلا لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف وحسن موانع التصريف في كل موعظة ، وحكاية كل قصة ، فلو كان كما زعموه من الصرفة ، لكان العُجب من غير ذلك ، ولهذا فإنّ نبياً لو قال : إنّ معجزتي أن أضع هذه الرمانة في كفي . وأنتم لا تقدرّون على ذلك ، لم يكن

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، ح ١ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

تعجب القوم من وضع الرمانه في كفه ، بل كان من أجل تعذره عليهم ، مع أنه كان مألوفاً لهم ، ومقدوراً عليه من جهتهم . فلو كان كما زعمه أهل الصرفه ، لم يكن للتعجب من فصاحته وجه . فلما علمنا بالضرورة إعجابهم بالبلاغة ، دلّ على فساد هذه المقالة «^(١) .

وما أجاب به الشيخ الطوسي عن هذا الدليل بأن من قال بالصرفه لا ينكر مزيه القرآن على غيره بالفصاحة والبلاغة ، وإنما يقول هذه المزيه ليست مما تحرق العادة ويبلغ حدّ الإعجاز ، فليس في طرب الفصحاء وشهادتهم بفصاحة القرآن وفرط براعته ما يوجب بطلان القول بالصرفه^(٢) ، غير تام ، إذ لو كان مثل القرآن متوفراً في الأوساط الأدبية قبل البعثة ، لما كان لهذا الطرب والإهتزاز والإنبهار والتضعف ، وجه وجيه ، لأنّ المفروض أنّ القرائح العربية لم تكن قاصرة قبل البعثة عن إبداع أمثاله ، وسمعت آذانهم كثيراً من هذا النمط من الكلام وإن قصرت من بعد . ولو كانت قرائحهم قادرة قبل البعثة على إنشاء كلام مثل القرآن ، فلماذا جمع الوليد صناديد قريش وقال لهم : « إنّ العرب يأتونكم فينطلقون من عندكم على أمر مختلف ، فأجمعوا أمركم على شيء واحد ، ما تقولون في هذا الرجل ؟ الخ^(٣) » . فلو كانت قرائحهم كافية قبل صرف هميمهم ، أو سلب علومهم ، أو لجائهم على الإنقباض في مقام معارضته - لكان الجواب عن قرآن الرجل واضحاً ، وهو أنه كلام عادي ما أكثره بيننا ، وأكثر مثله في كلام خطباء العرب وشعرائهم .

ورابعاً : فإنّ القول بالصرفه نجم من الإغترار بما روي من رشيق الكلمات ، وبلغ العبارات ، عن العرب ، فزعم هؤلاء أنّ كل من قدر على تلك الأساليب البلاغية ، يقدر على المعارضة ، إلاّ أنّه سبحانه عرقلهم عنها وثبطهم فيها .

ولكن أين الثرى من الثريا ، وأين المدر من الدرر ، وليس إعجاز القرآن

(١) الطراز ، ص ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٢) تمهيد الأصول ، ص ٣٣٨ .

(٣) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٣٨٦ .

رهن العذوبة والأناقة فقط ، وإنما هورهن حلاوة ألفاظه وسمو معانيه ، ورصانة نظمه - على وجه لو غُيِّرَت كلمة أو جملة منه ، لم يمكن أن يؤق بدلها بلفظة هي أوفق من تلك اللفظة - وبداعة أسلوبه ، مجتمعة . فهذه الأمور بجملتها ، أضفت على الكلام جمالاً رائعاً لا يجد الإنسان له مثيلاً في كلام مَنْ غَبَرُ وَسَبَقَ ، أَوْ تَبَعَ وَحَلَّقَ . فهو بنظمه العجيب ، وأسلوبه الغريب ، وملاحته وفصاحته الخاصة ، ومعانيه العميقة ، تحدّى الإنس والجن ، ولأجل ذلك لم يجد العرب لإغراء البسطاء ، إلا تفسيره بالسحر ، لأنه يأخذ بمجامع القلوب ، كما يأخذ السحر بها .

وخامساً : فإن المتبادر من آيات التحدي أنها تعرف القرآن بأنه فوق قدرة الإنس والجن ، وأنه مصنوع لا تصل إليه يد المخلوق ، وهذا لا يجتمع مع مذهب الصرفة الذي لا يضيفي على القرآن ذاك الجمال الرائع الذي يجعله متفوقاً على القدرة البشرية ، وإنما يضعه في عداد كلام عامة الفصحاء والبلغاء ، غاية الأمر أنه سبحانه - كلما همت العرب بمباراته - صرف عنهم الهمة والقوة ومنعهم من الإتيان بما اقترحه عليهم .

وبعبارة أخرى : إن المتبادر من ظواهر الآيات ، أن القرآن في ذاته متعال ، حائز أرقى الميزات ، وكمال المعجزات ، حتى يصح أن يقال في حقه بأنه لو اجتمع الجن والإنس الخ . .

يقول الخطابي بأن قوله سبحانه : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ﴾ الآية ، يشهد بخلاف هذه النظرية ، لأنها تشير إلى أمر ، طريقه التكلف والإجتهاد ، وسيله التأهب والإحتشاد ، وما فُسرَّت به الصرفة لا يلائم هذه الصفة^(١) .

وسادساً : فلو كان وجه الإعجاز في نكتة الصرفة ، لكفى في ذلك أن يكون القرآن كلاماً مبذولاً ومرذولاً للغاية ، وركيكاً حدّ النهاية ، لكن كلما أراد سفلة الناس وأوباشهم ، الذين يقدرّون على صنع مثل تلك الكلم ، الإتيان بمثله ، حال سبحانه بينهم وبين مباراته . وهو كما ترى ، لا يتفوّه به من له إلمام بهذه المباحث .

(١) بيان إعجاز القرآن ص ٢١ .

وسابعاً : فلو كان عجز العرب عن المقابلة ، لطاريء مبالغتٍ أبطل قواهم البيانية ، لأثر عنهم أنهم حاولوا المعارضة ففوجئوا بما ليس في حسابهم ، ولكان ذلك مثار عجب لهم ، ولأعلنوا ذلك في الناس ، ليلتمسوا العذر لأنفسهم وليقللوا من شأن القرآن في ذاته ^(١) .

وقد أشار إلى هذا الوجه علي بن عيسى الرماني في نكت الإعجاز ، كما أشار إليه الإمام يحيى بن حمزة العلوي ، قال : « إنهم لو صرّفوا عن المعارضة مع تمكنهم منها ، لوجب أن يعلموا ذلك من أنفسهم بالضرورة ، وأن يميزوا بين أوقات المنع والتخية . ولو علموا ذلك ، لوجب أن يتذكروا في حال هذا المعجز على جهة التعجب . ولو تذكروه ، لظهر وانتشر على حدّ التواتر . فلمّا لم يكن ذلك ، دلّ على بطلان مذهبهم في الصرفة » ^(٢) .

وثامناً : فإنّ القول بالصرفة ، يستلزم القول بأن العرب قد تراجعت حالها في الفصاحة والبلاغة ، وفي جودة النظم وشرف الأسلوب وأن يكونوا قد نقصوا في قرائحهم وأذهانهم ، وعدموا الكثير ممّا كانوا يستطيعون ، وأن تكون أشعارهم التي قالوها ، والخطب التي قاموا بها من بعد أن أوحى الله إلى النبي ، قاصرة عما سمع منهم من قبل ذلك ، القصور الشديد ، وأن يكون قد ضاق عليهم في الجملة مجال كان يتسع لهم ، ونضبت عنهم موارد قد كانت تغزر ، وخذلتهم قوى كانوا يصولون بها ، وأن تكون أشعار شعراء النبي التي قالوها ، في مدحه عليه السلام ، وفي الردّ على المشركين ، ناقصة متقاصرة عن شعرهم في الجاهلية ، وأن يكون شعر حسان بعد الإسلام دون شعره قبله ، والكل كما ترى .

وتاسعاً : فإنّ الظاهر من مذهب الصرفة أنّ النقصان حدث فيهم من غير أن يشعروا به ، ولازمه أن لا تتم الحجة عليهم ، لأنهم وإن عدموا فضلهم في مجال الفصاحة والبلاغة ، لكنهم غير شاعرين بهذا النقصان . وإذا كانوا لا يعلمون أنّ كلامهم الذي يتكلمون به بعد التحدي ، قاصر عن الذي تكلموا به أمس ،

(١) لاحظ مناهل العرفان في علوم القرآن ، للزرقاني ، ج ٢ ، ص ٣١٤ .

(٢) الطراز ، ج ٣ ، ص ٣٩٣ .

إستحال أن يعلموا أن لنظم القرآن فضلاً على كلامهم الذي يسمع منهم . وإذا لم يتصوروا للقرآن تلك المزية ، كان كلامهم بعد التحدي عندهم مساوياً للقرآن . فلازم ذلك أن يعتقدوا أن في جملة ما يقولونه في الوقت ويقدرّون عليه ، ما يشبه القرآن ويوازيه ، فعندئذ لا تتم الحجة عليهم ، إذ لهم أن يقولوا بأنّ أشعارنا وخطبنا لا تقصر عن قرآنك ، لأنّ المفروض أنهم غير واقفين على نزول كلامهم عن الذروة والقمة السالفة ، ومتصورين أنه بعد التحدي كما كان قبله . ومن كانت له هذه الحالة ، لا يتصور للقرآن مزية .

وعاشراً : فإنّ القائل بدخول النقصان على قرائح العرب ، إمّا أن يستثني النبي من ذلك ، أو لا . فعلى الأوّل يجب أن يقول بأنّ النبي عندما كان يتلو عليهم قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ، عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾^(١) كان يستطيع أن يأتي بمثل القرآن ، ويقدر عليه .

وعلى الثاني يلزم أن النبوة صارت وسيلة لنقصان مرتبة النبي في حلبة الفصاحة والبلاغة ، اللهم إلا أن يقولوا بأنّ النبي كان دونهم في الفصاحة والبلاغة قبل التحدي ، مع أنّ الأخبار تحكي عن أنّه كان أفصح العرب^(٢) .

ولأجل وُهن هذه النظرية ، صار السائد بين المسلمين عامّة ، وأكابر الشيعة خاصة ، كون القرآن معجزاً من حيث الفصاحة المفرطة والبلاغة السامية ، والنظم المخصوص ، والأسلوب البديع ، الذي جعله - مجتمعاً - كلاماً خارقاً للعادة . وزيادة في إيضاح الحال نورد ما ذكره الشيخ الطبرسي (ت ٤٧١ - م ٥٤٨) في تفسير قوله سبحانه : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾^(٣) ، قال :

(١) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

(٢) الإشكالات الثلاثة الأخيرة ، ذكرها الرماني في كتابه « النكت في إعجاز القرآن » ، ص ١٣٣ - ١٥٥ ، وقد نقلناها بتلخيص وتصرف .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

« المراد أنه لئن اجتمعت الجن والإنس متعاونين متعاضدين ، على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في فصاحته وبلاغته ونظمه على الوجوه التي هو عليها من كونه في الطبقة العليا من البلاغة ، والدرجة القصوى من حسن النظم ، وجودة المعاني وتهذيب العبارة ، والخلو من التناقض ، واللفظ المسخوط ، والمعنى المدخول على حدّ يشكل على السامعين ما بينهما من التفاوت ، لعجزوا عن ذلك ، ولم يأتوا بمثله ، ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ ، أي معيناً على ذلك مثلما يتعاون الشعراء على بيت شعر» (١) .

وقال العلامة الحلي في كشف المراد : « أما إعجاز القرآن ، فقد تحدّى به فصحاء العرب بقوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ ، ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مَفْتَريات ﴾ ، ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ . والتحدّي مع امتناعهم عن الإتيان بمثله ، مع توقّر الدواعي عليه ، إظهاراً لفضلهم ، وإبطالاً لدعواه ، وسلامة من القتل ، يدلّ على عجزهم وعدم قدرتهم على المعارضة » (٢) .

وعلى أيّ حال ، فإنّ القائلين بالصرقة ، وإن كانوا من أعلام العلماء ، لكن الحق لا يعرف بالرجال ، وإنّما يعرف بسلامة الاستدلال ، وقد خفّت هذه النظرية في ميزان النصفة والبرهنة ، والحق أنّها ليست بنظرية قيّمة قابلة للإعتماد ، وخلافاً صالحاً للاحتجاج .

وليس كلّ خلاف جاء معتبراً إلاّ خلاف له حظٌّ من النّظر

* * *

(١) مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ٤٣٨ .

(٢) كشف المراد ، ص ٢٢١ ، ط صيدا ومن أفاض الكلام في وجوه إعجاز القرآن ، ولم يعتمد على مذهب الصرقة ، السيد عبد الله شبر في كتابه حق اليقين في أصول الدين (ج ١ ، ص ١٥٠ - ١٥٤) .

وأما المقاريين لعصرنا فممن كتبوا فيه ، الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في كتابه الدين والإسلام (لاحظ كلامه في مجلة رسالة الإسلام ، العدد الثالث من السنة الثالثة ، ص ٢٩٨) والعلامة الكبير السيد هبة الدين الشهرستاني (المعجزة الخالدة ، ص ٣٢ - ٤٣) ، والزرقي في مناهل العرفا (ج ٢ ، ص ٣١٠) .

الأمر الثالث

عجز البشر عن الإتيان بمثله^(١)

قد عرفت أنَّ الرسول الأكرم تحدَّى العالمين أجمع على الإتيان بكتاب مثل القرآن أ، وتنزَّل حتى تحدَّاهم على الإتيان بعشر سُور ، بل سورةٍ من مثله .

وإنَّ تحليل التاريخ المسطور يكشف لنا عجز العرب أمام هذا التحدي ، وذلك أنَّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، قد بقي يطالب العرب بالإتيان بمثل هذا القرآن مدَّة عشرين سنة ، مظهرًا لهم النكير ، زارياً على أديانهم ، مسفِّهاً آراءهم وأحلامهم ، وهم أهل البلاغة والفصاحة ، وفيهم أساطينها وأركانها ، ولكنهم مع ذلك لم يبنثوا ببنت شفة ، ولم يجزء أحد منهم على إبداع كلام يعارض فيه القرآن ، وأنما سلَّكوا مسلكاً آخر ، فنابذوه وناصبوه الحرب ، حتى هلكت فيه النفوس ، وأريقَت المَهْج ، وقطعت الأرحام ، وذهبت الأموال .

ولو كان ذلك في وسعهم وتحت إقذارهم ، لم يتكلَّفوا هذه الأمور الخطيرة ، ولم يتركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل . هذا ما لا يفعله عاقل ، ولا يختاره ذولب . وقد كانت قريش موصوفين برزانة الأحلام ووفرة العقول والألباب . وقد كان فيهم الخطباء المصاقع ، والشعراء المُقلِّقون^(٢) .

(١) قد عرفت أنَّ إعجاز القرآن يتقوم بأمور ثلاثة : التحدي . وخرق العادة ، وعجز البشر عن الإتيان بمثله .

(٢) لاحظ بيان إعجاز القرآن ، لأبي سليمان الخطابي ، ص ٩ .

قال الشيخ عبد القاهر : « إِنَّ المتعارف من عادات الناس التي لا تختلف وطبائعهم التي لا تبدل ، أن لا يسلّموا لخصومهم الفضيلة ، وهم يجدون سبيلاً إلى دفعها ، ولا ينتحلون العجز وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم . كيف ، وإنّ الشاعر أو الخطيب أو الكاتب ، إذا بلغه أنّ بأقصى الإقليم من يباهي بشعره ، أو بخطبته أو برسالته التي يعملها ، يَدْخُلُهُ من الأنفة والحمية ما يدعوه إلى معارضته ، وإلى أن يُظهر ما عنده من الفضل . هذا فيما لم يرد ذلك الإنسان قطّ ، ولم يكن منه إليه ما يهزّ ويحرك ، فكيف إذا كان المدعي بمراى ومسمع منه ، فإنّ ذلك أدعى له إلى مباراته ، وأن يُعرّف الناس أنّه لا يقصر عنه ، أو أنّه منه أفضل ، فإن انضاف إلى ذلك أن يدعوه الرجل إلى مباراته ، فذلك الذي يُسهر ليله ويسلبه القرار ، حتى يتفرّغ مجهوده في جوابه ، ويبلغ أقصى الحدّ في مناقضته .

هذا ، فكيف إذا ظهر في صميم العرب وفي مثل قريش ، ذوي الأنفس الأبية ، والهمم العلية ، من يدّعي النبوة ويخبر أنّه مبعوث من الله تعالى إلى الخلق ، ثم يقول وحجتي أنّ الله تعالى قد أنزل عليّ كتاباً عربياً مبيناً ، تعرفون ألفاظه ، وتفهمون معانيه ، إلّا أنّكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله ، ولا بعشر سُور منه ، ولا بسورة واحدة ولو جمعتم جهدكم واجتمع معكم الجن والإنس . فلا يتصور منهم السكوت والسكون في مقابل هذا الإدعاء ، إلّا إذا كانوا عاجزين » (١) .

دَفْعُ تَوَهُّم

ربما يتصور الغافل أنّ البلغاء المعاصرين لداعي الحق ، قد عارضوه بكتاب أو سور مثل كتابه وسوره ، ولكنه اختفى أثره في شعاع ضوء قدرة الإسلام والمسلمين وسلطانهم على الجزيرة وخارجها .

والجواب : إنّ رجماً بالغيب وتصوّراً باطل لا تصدقه الموازين التاريخية والعلمية ، إذ لو كانت ثمة معارضة ومقابلة ، لما اختفى على العرب المعاصرين ولا

(١) ثلاث رسائل ، الرسالة الشافية ، لعبد القاهر الجرجاني ، ص ١١٠ .

على غيرهم . كيف ، وإن الإتيان بمثل معجزته ، يسجل للمعارض خلود الذكر وسمو الشرف ، بل لَسعى أعداء الإسلام في نشره بين المعتنقين لدينه وغيرهم ، لأنهم يجدون فيه بغيتهم .

قال المحقق الخوئي - دام ظلّه - : « إن هذه المعارضة لو كانت حاصلة لأعلنتها العرب في أُنديتها ، وشهرتها في مواسمها وأسواقها ، ولأخذ منه أعداء الإسلام نشيداً يوقعونه في كل مجلس ، وذكراً يرددونه في كل مناسبة ، وعَلّمه السلف للخلف ، وتحفظوا عليه تحفظ المدعى على حجّته ، وكان ذلك أقرّ لعيونهم من الإحتفاظ بتاريخ السلف . كيف ، وأشعار الجاهلية ملأت كتب التاريخ وجوامع الأدب ، مع أنا لا نرى أثراً لهذه المعارضة »^(١) .

يقول الخطابي : « إن هذا السؤال ساقط ، والأمر فيه خارج عمّا جرت به عادات الناس من التحدّث بالأمور التي لها شأن ، وللنفوس بها تعلق ، وكيف يجوز ذلك عليهم في مثل هذا الأمر الذي قد انزعجت له القلوب ، وسار ذكره بين الخافقين . ولو جاز ذلك في مثل هذا الشأن مع عظم خطره ، وجلالة قدره ، لجاز أن يقال إنه خرج في ذلك العصر نبي آخر وأنبياء ذوو عدد ، وتنزلت عليهم كتب من السماء ، وجاءوا بشرائع مخالفة لهذه الشريعة ، وكتب الخبر فيها فلم يظهر ، وهذا ممّا لا يحتمله عقل »^(٢) .

أقول : ومّا يدلّ على عدم وجود هذه المعارضة اللائقة بالذكر ، ما ضبطه التاريخ من كلام مسيلمة الكذاب وغيره ممن ادّعوا النبوة وأرادوا أن يخدعوا بسطاء العقول ، فجاءوا بجمل تافهة ساقطة ، لا يقام لها وزن ولا قيمة ، ما سيأتي عرضه وتحليله بعد هذا البحث .

على أن القرآن ما خصّ العرب الجاهليين بالتحدّي ، بل تحدّى جميع الناس سالفهم وحاضرهم ، وهناك مجموعة كثيرة من العرب لا يعتنقون دين الإسلام ؛ ينبعون ثقافات حديثة ، وتؤيدهم القوى الكبرى الكافرة . فلو كانت المكافحة

^(١) - إسناد في تفسير القرآن ، ص ٥٢ .

^(٢) - إسناد في إعراب القرآن ، ص ٥٠ .

أمرأً ممكنأً لقام هؤلاء بهذه المهمة وأراحوا أنفسهم من بذل الأموال الطائلة في طريق الخطأ من كرامة هذا الدين ، والنيل من نبيّه الأعظم وكتابه المقدّس ، ولاحتفلوا بذلك في أنديتهم ومؤتمراتهم العالمية ، وزعزعوا بذلك إيمان المسلمين ، الذي هو أمنيّتهم الكبرى . ومع ذلك ، لا ترى من هذا الأمر عيناً ولا أثر .

* * *

ثم إنّه قد نقل في مواضع متفرقة من كتب التاريخ ، عبارات وجمل منشورة ، يشبه - بحسب الظاهر - أسلوبها أسلوب القرآن ، زُعم أنّها لأناس ادّعوا النبوة ، وعارضوا بها القرآن الكريم ، وهذا ما نطرحه على بساط البحث فيما يلي .

* * *

هل عارض القرآن الكريم ؟

إنّ المؤرخين ذكروا أسماء قوم زعموا أنّهم عارضوا القرآن الكريم ، وأنّ بعضهم ادّعى النبوة ، وجعل ما يلقيه معجزة لكي لا تكون دعواه بلا أداة وبينة . ونحن نذكر بعض من ذكرهم التاريخ ، وننقل بعض ما نسب إليهم ، حتّى يُعلم أنّ ما سمّوه مُعارضاً للقرآن الكريم ، ليس إلّا كلاماً ساقطاً ، لا يقام له وزن ، بل لا يداني بلاغة كلام الأدباء المعروفين .

١ - مسيلمة الكذاب

ذكر ابن هشام أنّ مسيلمة بن حبيب قد كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله : « مِنْ مُسَيْلِمَةَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ، سَلامٌ عَلَيْكَ . أَمَّا بَعْدُ ، فَلِإِنِّي قَدْ أَشْرَكْتُ فِي الْأَمْرِ مَعَكَ ، وَإِن لَنَا نِصْفَ الْأَرْضِ ، وَلَقَرِيشَ نِصْفِ الْأَرْضِ ، وَلَكِنْ قَرِيشًا قَوْمٌ يَعْتَدُونَ » .

فلما جاء الكتاب ، كتب رسول الله إلى مسيلمة : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ ، السَّلامُ عَلَى مَنْ أَتَبَعَ الْهُدَى . أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

وذلك في آخر سنة عشر^(١) .

وذكر الطبري أنَّ وفد بني حنيفة أتوا رسول الله مع مسيلمة ، فلما رجعوا وانتهوا إلى اليمامة ، ارتد مسيلمة وتنبأ وتكذب له ، وقال : « إني قد أشركت في الأمر معه » . ثم جعل يسجع السجاعات ويقول لهم فيما يقول ، مضاهاةً للقرآن . وذكر من كلامه هذا :

« لقد أنعم الله على الحُبلى ، أخرج منها نَسَمَةً تَسْعَى ، بين صِفاقٍ وَحَشَى »^(٢) .

إنَّ هذين الكلامين ، يكفيان شاهداً على ما لم نذكره . أمَّا كتابه ، فهو دليل على أنه جعل دعوى النبوة ، أداة للحكومة ، فلأجل ذلك قَسَم الأرض بينه وبين رسول الله . فانظر إلى جواب رسول الله ، الْمُقْتَبَس من القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾^(٣) .

وأما قرآنه المنحول ، المفترى على الله سبحانه ، فما هو إلَّا جُمْل وفصول توازن سجع الكهان ، حاول أن يعارض بها أوزان القرآن في تراكيبه . ومما اصطنعه في هذا المجال :

« الفيل ، ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل » .

« يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي ما تنقين ، نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تكذرين ، ولا الشارب تمنعين » .

وعلى هذا الغرار سائر كلمه المنسوبة إليه . وكلها تعرب عن جهل وحمالة فيه . ولذلك ، لما ذهب الأحنف بن قيس مع عمه إلى مسيلمة ، وخرجا من

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٢ ، ص ٦٠٠ . وتاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ .

(٢) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ ، ولكن رواه في ص ٤٩٩ هكذا : « ألم تركب فعل ربك بالحبل ، الخ » . والصفاق هو الجلد الأسفل الذي يمسك البطن ، وهو الذي إذا انشق كان منه الفتق .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٢٨ .

عنده ، وقال الاحتمل لعمه . « كيف رأيته ؟ » ، قال : « ليس بمبتنيء صادق ، ولا بكذاب حاذق »^(١) .

ما هي حقيقة المعارضة ؟

معنى المعارضة أن الرجل إذا أنشأ خطبة أو قال شعراً ، يجيء الآخر فيجاريه في لفظه ويباريه في معناه ليوازن بين الكلامين ، فيحكم بالفالج على أحد الطرفين . وليس معنى المعارضة أن يأخذ من أطراف كلام خصمه ، ثم يبدل كلمة مكان كلمة ، فيصل بعضه ببعض وصل ترفيع وتلفيق ، كما وقع في ذاك الكلام المنسوب إلى مسيلمة : « وما نحن نأتي ببعض المعارضات التي وقعت في العصر الجاهلي بين شاعرين كبيرين ، فهذا النابغة الذبياني يصف ليلاً في أشعاره المعروفة التي يعتذر فيها للنعمان ، ويقول :

كليني لهم يا أميمة ناصب	وليل أفاقيه بطيء الكواكب
تطاوّل حتى قلت ليس بمَنَقُص	وليس الذي يرعى النجوم بأيّ
بصدر أراح الليل عازب همّه	تضاعف فيه الحزن من كل جانب

ونرى أن امرئ القيس يقول في نفس الموضوع :

وليل كموج البحر أرخى سدوله	عليّ بأنواع الهموم ليلتي
فقلت له لما تمطى بصلّبه	وأردف أعجاز وناء بكلّ كل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي	بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيا لك من ليل كأن نجومه	بكل مغار القتل شدت يئذبل

هذه هي حقيقة المعارضة ؛ فقول النابغة مثناه في الحسن ، بليغ في وصف ما شكاه من همّه وطول ليله ، ويقال إنه لم يتبدىء شاعر قصيدة بأحسن من هذا الكلام ، خصوصاً قوله : « بصدر أراح الليل عازب همّه » . وهو كلام مطبوع سهل يجمع البلاغة والعدوبة . إلا أن في أبيات امرئ القيس من ثقافة الصنعة ،

(١) لاحظ ما نسب إليه في تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٤٩٨-٤٩٩ ، وص ٥٠٦ .

وحسن التشبيه ، وإبداع المعاني ، ما ليس في أبيات النابغة ، إذ جعل الليل صلباً وأعجازاً وكلكلاً ، وشبه تراكم ظلمة الليل بموج البحر في تلاطمه عند ركوب بعضه بعضاً ، وجعل النجوم كأنها مشدودة بحبال وثيقة ، فهي راكدة لا تزول ولا تبحر ، وجعل يتمنى تصرُّم الليل بعود الصبح لما يرجو فيه من الرُّوح ، ثم ارتجع ما أعطى واستدرك ما كان قدَّمه وأمضاه ، فزعم أنَّ البلوى أعظم من أن يكون لها في شيء من الأوقات كشف وانجلاء . . . إلى آخر ما في شعره من النكات .

فمثل هذه الأمور تعتبر المعارضة ، فيقع بها الفضل بين الكلامين ، من تقديم لأحدهما ، أو تأخير ، أو تسوية بينهما . لا بمثل ما أتى به هؤلاء المهزلون ، من الإكتفاء بالوزن والفواصل ، من دون نظر إلى المعاني . وهذا هو السائد في كل المعارضات التي نسبت إلى المعارضين .

وللمعارضة صور أخرى ذكرها الخطابي في بيان إعجاز القرآن^(١) .

مثال آخر

نرى أنَّ جريراً يمدح بني تميم ويعرفهم بأنهم كل الناس ، في قوله :

إذا غَضِبْتُ عليك بنو تميم
حسبت الناس كلهم غَضاباً
ويقول أبو نواس في هذا الصدد :

ليس على الله بمستنكر
أن يجمع العالم في واحد
وقد زاد عليه أبو نواس زيادة رشيقة ، وذلك أنَّ جريراً جعل الناس كلهم بني تميم ، ولكنَّ أبا نواس جعل العالم كلهم في واحد . فكان ما قاله أبلغ وأدخل في المدح والإعظام^(٢) .

إذا ظهرت لك حقيقة المعارضة ، فانظر إلى قوله سبحانه : ﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ وما أدراك ما الْحَاقَّةُ^(٣) . وقوله سبحانه : ﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ وما

(١) بيان إعجاز القرآن ، ص ٥٢ - ٦٠ .

(٢) لاحظ الطراز ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣) سورة الحاقة : الآيتان ١ و ٢ .

أدراك ما القارعة ﴿١﴾ ، ثم ما أتبع قوله هذا بذكر يوم القيامة وبيان أوصافها وعظيم أهوالها بقوله : ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ المنفوشِ﴾ ﴿٢﴾ .

فأين هو من قول القائل : « الفيل ، ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل » . فإن مثل هذه الفاتحة تجعل مُقَدِّمَةً لأمر عظيم الشأن متناه الغاية ، فإذا بالمعارض يجعله مقدمة لذكر الذنب والمشفر ، ويتصور أنه تحققت المعارضة ، ويا ليتة أتبع تلك المقدمة ، بما أعطيت هذه البهيمة العجباء من الذهن والفطنة التي به تُفهِمُ سائسها ما تريده ، فلعله كان أقرب إلى مقصوده !! .

الشك في صحة نسبة هذه المعارضات

وهناك احتمال بأن لا تكون هذه الكلمات قد وضعت ليعارض بها القرآن ، وإنما وضعها أعداء مسيئة للتفكك والسمر ، أو وضعت لغاية دينية وهي تأكيد إعجاز القرآن عندما تُقَارَن هذه المفتريات إلى الآيات الباهرة في الكتاب العزيز . مع أن إعجاز القرآن ليس في حاجة إلى مثل هذا بعدما سكت فحول البلاغة عن معارضته .

ومما يثير الشك في كون مسيئة قائل هذه الجمل التافهة ، ما أثير عنه من بعض الكلمات التي هي في البلاغة بمكان عال ، كقوله عندما اجتمع مع سجاح التميمية : « هل لك أن أتزوجك فأكل بقومي وقومك العرب ؟ » ﴿٣﴾ . فإن هذه الكلمة تدل على مكانة الرجل في الفصاحة وجميل التأني لما يريد . فخيّل لسجاح أنه سيأكل بقومه وقومها العرب ، وهل كانت تقصد سجاح غير هذا ؟ وهل كان يقصد من اتبعوها إلا أكل العرب والإستيلاء عليهم ؟ فإذا قارنا بين كلمته هذه ،

(١) سورة القارعة : الآيتان ١ و ٢ .

(٢) سورة القارعة : الآيتان ٣ و ٤ .

(٣) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٤٩٩ .

وما عزي إليه من المعارضات ، وجدنا فارقاً كبيراً بينهما في الأسلوب والروح .
فهذه الكلمة صادرة عن نفس جادة حازمة تتطلب أمراً عظيماً ، وأما ما نسب إليه
فصادر عن نفس ماجنة عابثة ، لا تدرك ما وراء هذه المغامرة من المخاطر .

وهناك كلمة أخرى نسبت إليه حين استحرّ القتل في قومه ، وأخذتهم
سيوف المسلمين من كل مكان ، وقد سأله قومه ما وعد به ، فقال : « أمّا الدين
فلا دين ، قاتلوا عن أحسابكم » . فأبي إيجاز ، وأبي قوة ، وأبي إيجاء وتحميس
أقوى من هذا : قاتلوا عن أحسابكم ؟ والمنصف لا يشك في أن صاحب هذه
الكلمات الموجزة ليس صاحب هذه المعارضات الركيكة المسهبة^(١) .

٢ - طليحة بن خويلد الأسدي

قدم على النبي في وفد أسد بن خزيمه سنة تسع ، فأسلموا . ثم لما رجعوا ،
تنبأ طليحة ، وعظم أمره بعد أن توفي رسول الله صلى الله عليه وآله . وكان يزعم
أن ذا النون يأتيه بالوحي .

ومن كلماته : « إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم ، وقبح أديباركم شيئاً .
فاذكروا الله قياماً ، فإنّ الرغبة فوق الصريح »^(٢) . فهو يريد بكلامه هيئة الصلاة
من الركوع والسجود ، فكانت الصلاة في شرعه قياماً .

ومنها : « والحمام واليَّام ، والصرد الصوم ، ليلغ ملكنا العراق والشام » .

ولو كان الرجل ذا لبّ وعقل ، لما عارض القرآن الكريم بهذه الكلمات
الساقطة . فانظر كيف حلف على أمر عظيم وهو بلوغ ملك العراق والشام بهذه
الطيور !! .

ومما يثير الشك في صحة عزو هذه الجمل الجوفاء إلى طليحة ، ما نقله

(١) لاحظ مقال الشيخ علي العمري المصري ، في « رسالة الإسلام » العدد الثالث من السنة الحادية
عشرة .

(٢) معجم البلدان ، كما نقله الرافعي في إعجاز القرآن ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

الطبري^(١) عنه ، حيث قال : إنّ طليحة وفد على عمر - وكان طليحة قد أسلم - فقال له عمر : أنت قاتل عكاشة وثابت - يريد عكاشة بن محصن وثابت بن أكرم وهما سيدان من سادات المسلمين ، وفارسان من فرسانهم - فقال طليحة في جواب عمر : « ما تَهْمُ من رجلين كَرَّمهما الله بيدي ، ولم يُهَيِّ بأيديهما » .

- فهناك فرق واضح بين ما عزي إليه من المعارضات ، وعبارته أمام عمر ،
- فإن كلمته الأخيرة فيها روح أمكن بها الرجل أن يؤثر على عمر ، حيث قال له إن الرجلين ذهبا إلى الجنة ، فأكرمهما الله على يدي طليحة . وأي شيء أحبّ إلى عمر من أن تكون الجنة نصيب عكاشة وثابت ! .

٣ - سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية

إنّ قبيلة بني تغلب كانت راسخة في النصرانية ، فادعت سجاح المذكورة ، بعد وفاة رسول الله ، النبوة ، فاستجاب لها بعضهم ، وترك التنصّر ، وكان أمر مسيلمة الكذاب قد غلظ واشتدّت شوكة أهل اليمامة ، فهدت له بجمعها فمن نولها المزعوم : « إنّّه الوحي ، أعدّوا الركاب ، واستعدّوا للنّهاب ، ثم أغيروا على الرباب ، فليس دونهم حجاب » . فلما توجهت لحرب مسيلمة قالت : « عليكم باليمامة ، ودقّوا ديف الحماة ، فإنّها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ملامة » .

وخافها مسيلمة ، ثم اجتمعا وعرض عليها أن يتزوجها ، وقال : « هل لك أن أتزوجك ، فأكل بقومي وقومك العرب » ؟ فأجابت ، وانصرفت إلى قومها . فقالوا : « ما عندك ؟ » . قالت : « كان على الحق فاتبعته فتزوجته » . ولم تدّع قرآناً ، وإنّما كانت تزعم أنّه يوحى إليها بما تأمر ، وتسجع في ذلك سجعا ، كالنمّوذجين المتقدمين .

والتاريخ يحكي أنّها أسلمت بعدُ وحسّن إسلامها^(٢) . وفي الحقيقة لم تكن نبوتها إلّا زفافاً على مسيلمة ، وما كانت هي إلّا امرأة ! .

(١) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ .

(٢) راجع فيما نقلناه تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٤٩٦ - ٥٠٠ .

٤ - الأسود العنسي

كان رجلاً فصيحاً معروفاً بالكهانة ، والسجع ، والخطابة ، والشعر ، والنسب . وقد تنبأ على عهد النبي وخرج باليمن وهو ممن أراد أن يخذو حذو نبينا الأمين ، لكن بتسجيع الكلم وحده . فأراد أن يباري سورة الأعلى فقال :

« سُبِّح اسم ربِّك الأعلى ، الذي يسرَّ على الجبلى ، فأخرج منها نسمة تسعى ، من بين أضلاع وحشى ، فمنهم من يموت ويدسُّ في الثرى ، ومنهم من يعيش ويبقى » . وهي - كما ترى - صفر من الحكمة العالية ، إلا الجملة الأولى .

فقد جاء هؤلاء إلى حلبة المعارضة لأنهم كانوا بمكان من الإنحطاط الفكري والأخلاقي ، وأما المحنكون ذوو الضمائر الحرّة من العرب فلم ينزلوا إلى ميدان المعارضة لوقوفهم على أنها تبوء بالفشل ، وحفظوا كرامتهم من التسرع إلى حركات صبيانية .

وأما هؤلاء فهموا أن يعارضوا القرآن ، فكان ما أتوا به باسم المعارضة لا يخرج عن أن يكون مجادلات مضحكة مخجلة ، أخرجلتها أمام الجماهير وأضحكت الجماهير منهم ، فباؤوا بغضب من الله وسخط من الناس ، فكان مصرعهم هذا ، كسباً جديداً للحق ، ورهاناً آخر على أن القرآن كلام الله القادر وحده ، لا يستطيع معارضته إنس ولا جان ، ومن ارتاب فأمامه الميدان .

هؤلاء هم الذين حاولوا معارضة القرآن من القدماء ، الذين عاصروا النبي أو عاشوا بعده برهة من الزمن ، ولم يكن ما أتوا به إلا سقطات من الكلم أو الفاظاً جوفاء ، أو أسجاعاً سخيفة . وهناك رجالات آخرون رُموا بأنهم عارضوا القرآن الكريم ، وهم في الثقافة والأدب بمكان عالٍ ، غير أننا نشك في صحة نسبة المعارضة إليهم ، وإنما رموا بها إما لكونهم من الملاحدة المعروفين كعبد الله بن المقفع ، أو من الشخصيات البارزة التي يحسدها أعداؤها فأوقعوها بافتراءات الزندقة ، ثم معارضة القرآن الكريم ، فمنهم :

١ - عبد الله بن المقفع (م ١٤٥ هـ)

عبد الله بن المقفع أحد الأدباء في القرن الثاني ، كان مجوسياً وأسلم ، وتضلّع في اللغتين العربية والفارسية ، وقام بترجمة بعضها إلى اللغة العربية ، مثل كتاب « كليلة ودمنة » . والرجل مع أنّه رمي بالإلحاد ، قد صرّح بإسلامه في مقدمة ترجمته ، وقد قتل حرقاً في التنور عام ١٤٥ هـ لإفساده عقائد الناس . وعلى كل تقدير ، فقد نسب إليه أنّه عارض القرآن بتأليف كتاب الدّرة اليتيمية ، ولكن لم يعلم إلى الآن أنّ الرجل قام بتأليف ذلك الكتاب لأجل هذه الغاية ، وليس فيه ما يصدّق ذلك ، والكتاب مطبوع منشور في عدّة طبعات .

٢ - أحمد بن الحسين المتنبّي (ت ٣٠٣ - م ٣٥٤)

من الشعراء البارزين الذين ربما يحتجّ أويستشهد بكلامهم ، وله ديوان كبير إعتنى به الأدباء بالشرح والتعليق ، والده كوفي ، ولد في بيت الإسلام ، ولكن قيل إنّّه تنبّأ عام ٣٢٠ وله من العمر سبعة عشر عاماً .

ونسب إليه أنّه تلا على أهل البادية كلاماً زعم أنّه قرآن أنزل عليه ، يحكون منه سوراً . قال علي بن حامد : نسخت واحدة منها ، فضاعت مني ، وبقي في حفطي من أولها : « والنجم السيّار ، والفلك الدّوّار ، والليل والنّهار ، إنّ الكافر لفي أخطار ، إمضِ على سُنَّتِكَ ، واقفُ أثرَ مَنْ قبلك من المرسلين ، فإنّ الله قامعُ بك زيغ من ألحد في دينه وضلّ عن سبيله » ، هذا .

ولو كان للرجل سور كثيرة يحاول بها المعارضة ، لحفظها التاريخ ولو ازدراء عليه ، مع أنّه لم ينقل عنه إلّا هذه الجمل^(١) .

وما بقي من أشعاره تعرب عن أنانية الرجل وأنّه يرى نفسه مقدّماً في كل شيء ، كما يظهر من قوله :

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني والسيفُ والرّمحُ والقرطاسُ والقلمُ

(١) إعجاز القرآن للرافعي ، ص ٢٠٨ .

وقد اكتسب شهرة في الأدب والشعر ، كما نال بذلك أعداءً حاقدين ، ومن المحتمل أنه عزى إليه التنبؤ ومعارضة القرآن الكريم من جانب أعدائه .
وقد قتل عام (٣٥٤) ، ولم يكن قتله إلا لهجوه رجلاً يسمّى ضبّة .

٣ - أبو العلاء المعري (ت ٣٦٣ - م ٤٤٩)
أحمد بن عبد الله من معرة النعمان ، أحد الأدباء الفحول ، والشعراء البارزين ، وبما أنه كان أعمى ، وكان حليف بيته في أخريات عمره ، كان يسمّى نفسه رهين المحبسين ، وقد كان معاصراً للسيد المرتضى ، وكان بينهما مساجلات ومناظرات .

ومع ذلك لما سئل عن فضل السيد وكماله ، أجاب بالبيتين التاليين :
يا سائلي عنه لما جئت تسأله ألا هو الرجل العاري من العاري
لوجتته لرأيت الناس في رجل والدُّهر في ساعة والأرض في دارٍ -
ومات ولم يتزوج ولم يعقب ، وأوصى أن يُكتب على صخرة قبره :
هذا جناة أبي ع لي وما جنيت على أحد

وقد اختلف المؤرخون في إيمانه وكفره ، فهناك من الناس من يرمونه بالكفر كياقوت الحموي ، والدّهبي ، وسعد الدين التفتازاني ، ومعاصره الخطيب البغدادي . والأشعار التي عزيت إليه تدلّ على انحرافه عن الإسلام .

وهناك من ذهب إلى خلاف ذلك منهم كمال الدين عمر بن أحمد بن عديم الحلّي ، المتوفى عام ٦٦٠ ، ألّف كتاباً باسم « الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري » . وقد طبعت خلاصته في تاريخ حلب ، فطرح دلائل المتخاصمين في المعري ، ثم قضى بينهم على نهج أدى به إلى الحكم بكونه رجلاً غير منحرف عن الإسلام . ومّا قال فيه : « إنّ سائر ما في ديوانه من الأشعار الموهمة ، فهي إمّا مكذوبة عليه أو هي مؤولة »^(١) .

(١) تاريخ حلب ، ج ٤ ، ص ٧٧ - ١٨٠ .

ومّا يؤيّد قول ابن عديم ، ما ذكره ياقوت من أنّ المعريّ كان يُرمى من أهل الحسد له ، بالتعطيل ، وتعمّل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار . يضمّنونها أقاويل الملاحدة .

والذي يمكن أن يقال إنّ بعض شعره يدلّ على سوء عقيدته ، غير أنّ قيام الرجل بمعارضة القرآن ، موضع شكّ وترديد ، فقد نسب إليه أنّه عارض القرآن بكتاب أسماه : « الفصول والغايات في مجارة السور والآيات » ، وقد نشرت بعض فصوله .

ومّا يورث الشكّ في كون الهدف من تأليف هذا الكتاب هو المعارضة ، ما ذكره هو نفسه في مقدمته ، قال : « علم ربّنا ما علم ، أنّي ألّفت الكلم ، أمل رضاه المسلّم ، واتّقي سخطه المؤلم ، فهب لي ما أبلغ رضاك من الكلم ، والمعاني الغراب »^(١) .

على أنّ الشيخ عبد القاهر الجرجاني قد شكّ في صحّة نسبة هذا الكتاب إليه ، في قوله : « وقد خيل إلى بعضهم - إن كانت الحكاية صحيحة - شيء من هذا (وهو كون التحدّي إلى فصول الكلام بأن يكون لها أواخر أشباه القوافي) ، حتى وضع على ما زعموا « فصول الكلام » ، وأواخرها كأواخر الآي ، مثل : يعملون » ، و « يؤمنون » ، وأشباه ذلك »^(٢) .

كما نسبت إليه الجمل التالية :

« أقسم بخالق الخيل ، والريح الهابة بلّيل ، بين الشرط مطلع سهيل ، إنّ الكافر لطويل الويل ، وإن العمر لكفوف الذيل ، تعدّى مدارج السيل ، وطاليع التوبة من قبيل ، تنجّ وما أخالك بناج » .

والذي يعرب عن كون هذه الجمل مفتريات على الرجل ما نقل عنه في كتابه « الغفران » ، قال - ردّاً على ابن الراوندي - : « وأجمّع مُلحِدٌ ومهتدي ، وناكب

(١) الفصول والغايات ، ص ٦٢ .

(٢) دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني ، ص ٢٩٧ ، ط المنار .

عن المحجة ومُقتدي ، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد كتاب بهر بالإعجاز ،
ولقي عدوه بالأرجاز ، ما هذا على مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال ، ما هو من
القصيد الموزون ، ولا في الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب ،
ولا سجع الكهنة ذوي الإرب . . . وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض في
أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون ، فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق ،
والزهرة البادية في جدوب ذات نسق ، فتبارك الله أحسن الخالقين»^(١) .

هذا ، وإن أكثر من ينسب المعارضات إلى أبي العلاء ، يستند إلى ما كتبه
ياقوت عنه . ويبدو للإنسان من مطالعة ما كتبه ، أنه متحامل على أبي العلاء ،
ويكفي في ذلك قوله : « كان المعري حماراً لا يفقه شيئاً » ! . وهذه عبارة لا يقولها
إلا أشد الخصوم والمتعصبين على الرجل .

* * *

(١) رسالة الغفران ، ص ٢٦٣ .

الأمر الرابع

الشواهد الدالة على كونه كتاباً سموياً

قد تعرفت على الإعجاز البياني للقرآن الكريم وأنه بفصاحته وبلاغته ونظمه وأسلوبه ، تحدى البشر ، وأعجز أرباب النُهى ، وقادة الكلام والبيان . فمن كان عربياً صميماً ، عارفاً بأساليب الكلام ، واقفاً على خصوصيات اللغة ، لا يتردد في كونه معجزاً . ومن لم يبلغ تلك المرتبة ، أو لم يكن له إلمام بخصوصيات هذه اللغة ، فعليه الرجوع إلى أهل الخبرة والمعرفة ، حتى يقف على كونه معجزاً .

غير أن حكمته سبحانه اقتضت أن يتم الحُجَّة على البَشَر أجمعين ، عربهم وعجمهم ، وذلك من طريق آخر غير الإعجاز البلاغي ، فحُضُّه سبحانه بقرائن وفيرة موجودة في نفس هذا الكتاب ، وفيمن جاء به . ولوتدارس محاييد هذا الكتاب ، مجتنباً كل رأي مسبق ، لوقف على أنه من الممتنع أن يقوم بتأليف هذا الكتاب إنسان عادي ، ليس له صلة بعالم الغيب ، وهذا ما نبتغيه في هذا المقام ، ذاكرين كلَّ شاهد تحت عنوان خاص .

* * *

شواهد إعجاز القرآن

(١)

أُمِّيَّةُ حَامِلِ الرِّسَالَةِ

لم يختلف إثنان من الأمة الإسلامية في أنَّ النبيَّ كان أُمِّيًّا لا يحسن القراءة والكتابة قبل بزوغ فجر دعوته ، وصحائف حياته أوضح دليل على ذلك ، فلم يدخل مدرسة ، ولم يحضر على أحد للدراسة وتعلُّم الكتابة ، بل كان ربيب البادية ، بعيداً عن حضائر الفنون ، نائياً أيُّ نأى عن محاضر الحكماء ، ومجالس العلماء . بل ليس شيء في تاريخ النبي أوضح من أُمِّيَّته .

ولم يكن هو فقط مختصاً بهذا الوصف ، بل كان عليه القوم والسواد الأعظم في أمِّ القرى وحولها ، محرومين من هذا الكمال ، ولأجل ذلك يصفهم القرآن بالأميين ، في قوله سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (١) .

كما يصف حال النبي بالنسبة إلى القراءة ، والكتابة بقوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٢) .

وبالرغم من مغالطة قساوسة الغرب والمستغربة ، وتشبهاتهم بمراسيل عن

(١) سورة الجمعة : الآية ٢ .

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٤٨ .

مجاهيل ، وانتحالات الملاحدة في هذا الأمر ، فإن أُمّية النبي وقومه تموج بالشواهد الواضحة من الكتاب والتاريخ والحديث^(١) .

لقد جاء قومه بهذا القرآن وبلاده آنذاك جرداء بلا مراء ، كبعض القرى الوحشية ، ببطنان بوادي أفريقيا ، وخلو من وسائل العلم والعمران ، وأهلوها البسطاء صفر الأكف من وسائل الرقي والحضارة .

وكان الحجازيون من العرب ترتكز دائرة معارفهم ، في أسواق عُكاظ ومواسم الحجيج والنوادي ، على الأمور التالية :

- ١ - أنساب القبائل والخيّل .
- ٢ - القصائد والأشعار في التهاني والمرثي ، والحماسة والإغارة .
- ٣ - علم القيافة^(٢) .
- ٤ - علم العيافة^(٣) .
- ٥ - علم الفراسة^(٤) .
- ٦ - علم الزجر^(٥) .
- ٧ - علم الريافة^(٦) .
- ٨ - تأويل الأطياف .
- ٩ - أنواء النجوم وأسماء الكواكب ، والظواهر الجوية .
- ١٠ - الطب ، وكان لا يتجاوز الكي والميسم وعقاقير الحشائش .

(١) ومن أراد الوقوف على دلائله الساطعة ونقد تسويلات المستشرقين ، فليرجع إلى « مفاهيم القرآن » ، ج ٣ ، ص ٣٢١ - ٣٧٤ .

(٢) علم القيافة : هو علم باحث عن تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر .
 (٣) علم العيافة : هو علم زجر الطير ليُتفأل من كيفية طيرانها وجهته أو يتشام . وهي مأخوذة من عاف الطير عيافاً بمعنى استدارت وحامت حول الشيء . والنسور العوائف : التي تعيف على القتل وتتردد .

(٤) علم الفراسة : هو علم الإستدلال بهيئة الإنسان وشكله ولونه وأقواله ، على أخلاقه .
 (٥) علم الزجر : هو علم الإستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها ، على الحوادث .
 (٦) علم الريافة : هو علم استنباط وجود الماء في الأرض بشمّ التراب ، أو برائحة بعض النباتات فيها ، أو بحركة حيوان مخصوص .

١١ - الموسيقى ، وكانت لا تتجاوز حدّي الإبل .

١٢ - سحر النفّاثات .

١٣ - الكهانة والعراقة^(١) .

١٤ - الصنائع البدائية ، ولا تتجاوز صنع السهام والأقواس والرماح والجنان .

فهذا مبلغهم من العلم والكمال . وأين هو ممّا جاء في القرآن الكريم في مجال العقائد والمعارف والتشريع العادل ، ونظام المدنية والأخلاق الفاضلة ، والأخبار الغيبية ، إلى غير ذلك ممّا سيمرّ عليك من فنون المعارف .

فمن لاحظ هذا المعهد البسيط ، يذعن بأنّ من الممتنع أن يخرج من هذا الحقل القاحل ، شخصية فذة كشخصية النبي ، وكتاب مثل كتابه ، إلا أن يكون له صلة بقدرة عظيمة مهيمنة على الكون .

وهذا أحد الشواهد الدالّة على أنّ الكتاب ليس من صنع النبي ، بل هو كتاب سماوي ، وإذا ضمّت إليه الشواهد الأخر الآتية تتجلى هذه الحقيقة بأوضح تجلّياتها .

* * *

(١) الكهانة : إدعاء علم الغيب ، كالإخبار بما سيقع في الأرض ، والأصل فيها التلقّي من الجن .

شواهد إعجاز القرآن

(٢)

عدم الاختلاف في الأسلوب

إن القرآن الكريم نزل نجومًا في مدّة تقرب من ثلاث وعشرين سنة^(١) ، في فترات مختلفة وأحوال متفاوتة من ليل ونهار ، وحضر وسفر ، وحرب وسلم ، وضراء وسراء ، وشدة ورخاء ، ومن المعلوم أنّ هذه الأحوال تؤثر في الفكر والتعقل وفي قرائح قادة الكلام ، وأصحاب البلاغة ، فربما يقدر البليغ على إلقاء خطابة بليغة في حالة ، ولا يقدر عليها في أخرى . أو الشاعر المُفْلِقُ يجد بقرىض معجِب في ظروف روحية خاصة ، يعجز عنه في أخرى . وذلك أمر ملموس لمن مارس إلقاء الخطب ونظم القريض .

ولكن القرآن جاء على خلاف هذه القاعدة ، فلم يختلف حاله في بلاغته الخارقة المعجزة . كما أنّ الأسلوب في جميع السور النازلة في هذه المدة المديدة ، واحد . «فسورة العلق» التي هي أول سورة نزلت على النبي ، نظير سورة « النصر » التي نزلت عليه في أخريات أيامه ، في الأسلوب والبيان ، من دون أن يكون هناك اختلاف بينهما .

(١) قد تضافرت الآيات على أنّ القرآن نزل نجومًا ، وكان هذا أحد الإشكالات التي وجهها الكفار والمشركون إلى النبي صلى الله عليه وآله ، فقد كانوا يطلبون منه أن يأتي بكتاب مجموع مُدَوّن مرة واحدة ، وهذا ما يحكيه سبحانه مجيباً عنه في قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ (الفرقان : الآية ٣٢) .

إنَّ السور المكية التي تتراوح بين ثلاث وثمانين ، وخمس وثمانين سورة ، نزلت كلها في ظروف قاسية كانت الرهبة فيها حليف صاحب الرسالة ، وكان الإستضعاف مسيطراً على المؤمنين به ، ومع ذلك فهي لا تتفاوت في بداعة الأسلوب ، وروعة النظم ، وكمال الفصاحة والبلاغة ، مع السور المدنية التي نزلت في ظروف هادئة كان الأمن والهدوء مستتبين فيها . فلم يكن لتلك الأحوال القاسية ، ولا لهذه الظروف الهادئة ، تأثير في فصاحة القرآن وبلاغته ، وروعة نظمه ، وبداعة أسلوبه ، فجاء الكلّ على غمط معجز لا يُدرَك شأوه ، ولا يُشَقُّ غُباره .

فهذا يدلّ على أنّ هذا الكتاب ، ليس وليد قريحة النبي ونتاج ذهنه وتفكيره ، وإلاّ لكثرت فيه الاختلاف وتفاوت في نظمه وبلاغته ، فكان بعضه بالغاً حدّ الإعجاز ، وبعضه قاصراً عنه .

* * *

شواهد إعجاز القرآن

(٣)

عدم الاختلاف في المضمون

قد عرفت في القرينة السابقة أنَّ المعجزة الخالدة نزلت على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، طيلة أعوام مختلفة من حيث الشدة والرخاء ، والرغبة والرغبة ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر ، إنَّ الإنسان جُبل على التكامل ، فهو يرى نفسه في كل يوم أعقل من سابقه ، وأنَّ ما أتى به من عمل ، أو اخترعه من صنعه ، أو دبره من رأي ، أو أبدعه من نظر ، يراه ناقصاً مفتقراً إلى الإصلاح والتجديد . وهناك كلمة قيمة للكاتب الكبير عماد الدين أبو عبد الله محمد بن حامد الأصبهاني (ت ٥٩٧) ، يقول فيها : « إني رأيت أنَّه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه ، إلاَّ قال في غده لو غيَّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدَّم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » .

وهذا في الكاتب الصادق ، وأمَّا الكاتب الذي يبيي أمره على الكذب والإفتراء في أنظاره وآرائه وأحكامه وإخباراته ، فلا يمكن أن يتخلص عن التناقض والاختلاف ، ولا سيما إذا تعرَّض لكثير من الأمور المهمة في مجال العقائد والتشريعات والنظم الاجتماعية والأخلاقية التي تتطلب لنفسها تبني أدقِّ القواعد وأحكم الأسس ، ولا سيما إذا طالت على ذلك المفترى أيام ، ومَرَّت عليه عقود ،

فإنه سيرتبك ويقع في التناقض والتهافت من حيث لا يريد ، وقد قيل قديماً : « لا ذاكرة لكذب » .

وإننا نرى العالم النابغ في علم معين ، يؤلف الكتاب ويستعين عليه بالباحثين ، ثم يطيل التأمل فيه وينقحه ويطبعه ، فلا تمرّ سنوات قليلة إلا ويظهر له الخطأ والاختلاف ، فلا يعيد طبعه إلا بعد أن يغيّر منه ويصح ما شاء .

وإن هذا القرآن قد تعرّض لمختلف الشؤون ، وتوسّع فيها أحسن التوسّع ، فبحث في الإلهيات والنبوات وسياسة المذّن ونظم المجتمع ، وقواعد الأخلاق ، وقوانين السلم والحرب ، كما وصف الموجودات السماوية والأرضية ، من شمس وقمر وكواكب ورياح ، وبحار ونبات ، وحيوان وإنسان ، ووصف أهوال القيامة ومشاهدها . ومع ذلك لا تجد فيه تناقضاً واختلافاً ، أو شيئاً متباعداً عند العقل والعقلاء .

والعجب أنه ربما يستعرض حادثة واحدة ، فيطرحها مرتين أو مرّات ، كقصة الكليم ، والمسيح ، ومع ذلك لا تجد فيها اختلافاً في الجوهر .

والحاصل أن الكتاب الذي يستعرض جميع الشؤون المرتبطة بالإنسانية ، كمعرفه المبدأ والمعاد والفضائل الأخلاقية والقوانين الإجتماعية والفردية ، والقصص والعبر ، والمواعظ والأمثال ، وينزل في مدّة تعدل ثلاثاً وعشرين سنة ، على اختلاف الأحوال والظروف ومع ذلك لا تجد في معارفه العالية ، وحكمه السامية ، وقوانينه الإجتماعية والفردية ، تناقضاً ولا اختلافاً ، بل ينعطف آخره على أوله ، وترجع تفاصيله وفروعه إلى أصوله وعروقه .

إن مثل هذا الكتاب ، يقضي الشعور الحي في حقّه أن المتكلم به ليس ممن يحكم فيه مرور الأيام ويتأثر بالظروف والأحوال ، بل هو الله الواحد القهار .

ولعلّ قوله سبحانه : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ^(١) ، ناظر إلى كلتا القرينتين ، ويبين أن مقتضى الطبع

(١) سورة النساء : الآية ٨٢ .

الإنساني الناقص إذا خلا من التسديد ، العجزُ عن الإتيان بكتاب على سبك واحد ، ومضمون يؤكّد بعضه بعضاً ، فكيف إذا كان يعتمد في ادّعائه على الكذب والإفتراء ، فإنّ هذا سيكون وجهاً آخر لوقوعه في التهافت والتناقض . والعرب أحسّوا بالإستقامة في أسلوب القرآن ، ومرور الزمن قد أثبت عدم التناقض والتهافت في ما يدعوا إليه .

وأما « كثيراً » في قوله سبحانه : ﴿ اختلافاً كثيراً ﴾ ، فهو وصف توضيحي لا احترازي ، والمعنى : لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً ، وكان ذلك الاختلاف كثيراً على حدّ الاختلاف الكثير الذي يوجد في كل ما هو من عند غير الله . ولا تهدف الآية إلى أنّ المرتفع عن القرآن هو الاختلاف الكثير دون اليسير^(١) .

* * *

(١) لاحظ الميزان في تفسير القرآن ، ج ٥ ، ص ٧ .

شواهد إعجاز القرآن

(٤)

هَيْمَةُ الْقُرْآنِ عَلَى الْكُتُبِ السَّامِيَةِ

بُعث النبي الأكرم وتحدّى بالقرآن المجيد ، ولما أعجزَ فُصحاء العرب وبلغاءهم في المعارضة ، وجهوا إليه سهام التهم . فكان مما ألصقوه بكرامة كتابه أنه ليس سوى أساطير الأولين تُثلى عليه بكرة وأصيلاً^(١) .

وربما يتهمون النبي بأنه يأخذه من بشر ، كما يحكيه سبحانه بقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾^(٢) .

قال في الكشف : « أراد بالبشر غلاماً كان لحويطب بن عبد العزى قد أسلم وحسن إسلامه ، اسمه عائش أو يعيش ، وكان صاحب كتب . وقيل هو « جبر » غلام رومي كان لعامر بن الحضرمي ، وقيل عبدان « جبر » و« يسار » ، كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل ، وقيل هو سلمان الفارسي »^(٣) .

(١) اقتباس من قوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ، فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الفرقان : الآية ٥) وفسر في الكشف قوله بـ ﴿ اكْتَتَبَهَا ﴾ بمعنى اكتتبها لنفسه ، فكان التاء للدلالة على أن كتابته كانت لنفسه .

(٢) سورة النحل : الآية ١٠٣ .

(٣) تفسير الكشف ، ج ٣ ، ص ٢١٨ .

وعلى كل تقدير ، كان العدويتهم النبي بأنه أخذ ما جاء به ، من الكتب
الساوية الماضية .

فعلى ذلك ، من الجدير أن نقارن بين القرآن ، وسائر الكتب الساوية
المتقدمة عليه ، حتى يتضح مدى الاختلاف بينهما . وهذه المقارنة من أحدث
المناهج التطبيقية التي تفيد علماً بأن النبي الأكرم لم يعتمد فيها جاء به على هذه
الكتب . ولتركز على ما جاء به العهدان في مجال الأنبياء ، فنذكر ما جاء به القرآن
أولاً ، ثم نتبعه بما جاء فيهما .

وقبل الخوض في المقصود نذكر بأمرين :

الأول - إن الذكر الحكيم يعترف بعظمة التوراة وحجيتها ، وأنها كتاب
سماوي مثل القرآن ، وأنه يجب على كل مسلم أن لا يُفَرِّق بين نبيٍّ وآخر ، ولا
يفرق بين كتبهم ، يقول سبحانه : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ،
وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ ، لَا تَفَرُّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾^(١) .

إنَّ القرآن يصف التوراة في آياته ، بقوله :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾^(٢) .

﴿ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾^(٣) .

كما يصف الإنجيل بقول : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ، فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾^(٤) .

ويصفها معاً ، بقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾^(٥) .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٥ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٤٢ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٤٣ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٤٦ .

(٥) سورة المائدة : الآية ٦٨ .

وعلى ضوء ذلك ، فهذه الكتب السماوية كلها نور وهداية ، غير أنه في مواضع أخرى يندد بعلماء اليهود والنصارى متهماً إياهم بأنهم حَرَّفُوا كتبهم ودسُّوا فيها ما ليس من الله ، وكتبوا آيات الله تبارك وتعالى .

يقول سبحانه : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ، أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ (٣) .

وفي ضوء هذه الآيات يقف الباحث على أن سهم الإعتراض في هذا المجال ليس متوجهاً إلى الكتب الصحيحة السماوية ، بل إلى المحرَّف منها ، الذي هو نتيجة تكالب الأخبار والرهبان على الدنيا ، وتغيير حكم الله طلباً لمرضاة الحكام ، وأصحاب الأموال .

وبما أن الموجود في زمن النبي ، والدارج عند نزول القرآن ، هو الكتب المحرَّفة لا الأصلية ، فالبحث المقارن يثبت ، أن النبي لم يعتمد على شيء من هذه الكتب ، فيما يسرد من القصص والأحكام ، أو ما يبين من المعارف والعقائد ، ولا يجب أن تظهر فيه سمات الأخذ والتقليد . ولا يصح لأحد أن يحتمل أن النبي اطلع على الصحيح من هذه الكتب ، وذلك لأن الأمة العربية كانت أمية ، غير واقفة على هذه الكتب ، ولا متداخلة لها ، وكانت إنما توجد هذه الكتب عند الأخبار والرهبان ، وأولئك لم يكن في أيديهم إلا ما تطرَّق إليه التحريف والدس طيلة قرون .

الثاني : قد اخترنا في مجال المقارنة ، موضوع الأنبياء ، وذلك لأن هذا

(١) سورة النساء : الآية ٤٦ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٧٥ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٥٩ .

المجال من أبرز ما يفترق فيه القرآن عن العهدين . والأنبياء هم رجال الوحي والهداية ، ورجال الإصلاح والتربية ، قاموا بخدمة النوع الإنساني ، ولاقوا من المصائب والمتاعب الكثير في سبيل دعوتهم ، فيصفهم سبحانه في القرآن بقوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ (١) .

ويقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

إذا عرفت ذلك فلنبداً بالمقارنة ، ونكتفي بالأنبياء العظام : آدم ، ونوح ، وإبراهيم ، ولوط ، ويعقوب ، وداود ، وسليمان ، والمسيح ، عليهم السلام .

وبعد المقارنة يتجلى أن القرآن لم يتأثر في تقييمهم وتوصيفهم بفضائل الأخلاق ، بالعهدين الذين يصفان رجال الوحي برذائل الأوصاف وسيئات الأعمال ، كما سترى . نعوذ بالله من سوء الظن برجال الوحي والهداية .

* * *

١ - آدم في القرآن والتوراة

يقول سبحانه في خلق الإنسان : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ * قالوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي

(١) سورة ص : الآية ٤٨ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٣ .

الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١﴾ .

هذه هي قصة أول الخليقة ، وتلك مكانته عند الله سبحانه ، وذلك سجود الملائكة إجلالاً لمقامه ، وتكريماً له ، وهذا علّم آدم بالأسماء وحقائق الأشياء ، وأنّ الشيطان وسوس إليه ، فأزّله ، فأكل من الشجرة الممنوعة ، فكانت النتيجة هبوطه إلى الأرض .

أما التوراة ، فتذكر في الأصحاحين الثاني والثالث من سفر التكوين قصة آدم وحواء فتقول في الأصحاح الثاني :

« وَأَخَذَ الرَّبُّ الْإِلَهَ ، آدَمَ ، وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا * وَأَوْصَى الرَّبُّ الْإِلَهَ آدَمَ قَائِلاً : مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلاً * وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا ، لِأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا تَمُوتُ مَوْتاً » . ثم بعد أن تروي خلقة حواء من ضلع آدم ، تقول :

« وَكَانَا كِلَاهُمَا عَرِيَانَيْنِ - آدَمُ وَامْرَأَتُهُ - وَهُمَا لَا يَخْجَلَانِ » ﴿٢﴾ .

ثم جاء في الأصحاح الثالث : « وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أُحْيَلُ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمَلَهَا الرَّبُّ الْإِلَهَ . فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ : أَحَقّاً قَالَ اللَّهُ لَا تَأْكُلَانِ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ * فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ : مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ * وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ اللَّهُ لَا تَأْكُلَانِ مِنْهُ وَلَا تَمْسَاهُ لئَلَّا تَمُوتَا * فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ : لَنْ تَمُوتَا * بَلِ اللَّهُ عَالِمُ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتَحُ أَعْيُنُكُمَا ، وَتَكُونَانِ كَاللَّهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ * فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلْأَكْلِ ، وَأَنَّهَا بَهْجَةٌ لِلْعَيُونِ ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ ، فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا ، وَأَكَلَتْ ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضاً مَعَهَا فَأَكَلَ * فَانْفَتَحَتِ أَعْيُنُهُمَا وَعِلِمًا أَنَّهُمَا عَرِيَانَانِ ، فَخَاطَا أُورَاقَ تَيْنٍ وَصَنَعَا لِنَفْسِهِمَا مَآزِرَ » .

« وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الْإِلَهَ مَاشِياً فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ ، فَانْحَبَا »

(١) سورة البقرة : الآيات ٣٠ - ٣٧ .

(٢) لأنهما لم يكونا يدركان بعد الخير والشر .

آدم وامرأته من وجه الربّ الإله في وسط شجر الجنة * فنادى الربّ الإله آدم وقال له : أين أنت ؟ * فقال سمعت صوتك في الجنة ، فخشيت ، لأنّي عريان فاختبأت * فقال من أعلمك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها ؟ * فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت .

إلى أن تقول : « وقال الربّ الإله : هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً للخير والشر ، والآن لعلّه يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد * فأخرجه الربّ الإله من جنة ليعمل الأرض التي أخذ منها * وأقام شرقي جنة عدن ، الكروبيم ، وهيب سيف متقلب ، لحراسة طريق شجرة الحياة »^(١) .

إنّ في هذه الأسطورة ، قضايا غريبة تمسّ الله جلّ جلاله وتخطّ من كرامة نبيّه ، وكلّ واحدة منها إساءة في حدّ ذاتها ، وخزّي وعارّ .

أولاً - تنسب الكذب إلى الله سبحانه كما في قوله : « وأما شجرة معرفة الخير والشرّ ، فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها تموت موتاً » . والحال أنّها شجرة المعرفة .

ثانياً - تنسب إلى الله تعالى أنّه خشي من معارضة آدم إياه ، وأن يكون مثله في معرفة الخير والشر ، والخلود ، ولكن آدم نال المقام الأول (المعرفة) ، وخشي سبحانه من نيّله المقام الثاني (الخلود) فأخرجه .

ثالثاً - تصفه سبحانه بالجسمية ، إذ تقول : « وسمعا صوت الربّ الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار » .

رابعاً - تنسب الجهل إلى الله سبحانه ، وأنّه غير عالم بما يحدث قريباً منه ، إذ تقول : « فاختبأ آدم وامرأته من وجه الربّ الإله في وسط شجر الجنة ، فنادى الربّ الإله آدم ، وقال له : أين أنت ؟ الخ » .

(١) لاحظ العهد القديم ، سفر التكوين ، الأصحاحين الثاني والثالث ، ص ٥ - ٧ ، طبعه دار الكتاب المقدس .

خامساً - الحية (الشيطان) أعطف من الله على آدم ، كما تقول : « بل الله عالم أنه يوم تآكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر » .

سادساً - أنه سبحانه عاقب الشيطان (الحية) من غير ذنب ، وأقصى ما ارتكبه هو أنه علم آدم وثقفه ، ونصحه ، وأخرجه من ظلمة الجهل إلى نور المعرفة .

سابعاً - إنما أخرج آدم من الجنة لكونه أصبح إنساناً عالماً بالخير والشر ، فصار عامه وبالأعلى عليه .

إلى غير ذلك من المخزيات الواردة في هذه القصة .

* * *

٢ - نوح في القرآن والتوراة

إن الذكر الحكيم يعظم شيخ الأنبياء نوحاً ويصفه بأنه « محسن » ، و « مؤمن » ، و « صالح » ، و « شكور » ، ومطلع على المعارف الغيبية .

يقول سبحانه : ﴿ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ ﴾ (٣) .

ومن أسمى المعارف التي أثرت عن شيخ الأنبياء أنه كان يعتقد برابطة وثيقة بين عمل المجتمع ، الحسن أو القبيح ، والظواهر الطبيعية . وأن عمل الإنسان ،

(١) سورة الصافات : الآيات ٧٩ - ٨١ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٣ .

(٣) سورة التحريم : الآية ٦٦ .

يؤثر في انفتاح أبواب الخير من نزول المطر ، وكثرة الأموال والأولاد ، وجريان الأنهار ، وخصب الأرض .

وفي هذا المجال يحكي عنه سبحانه قوله : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾ (١) .

وإن القرآن يصفه بالصمود والثبات أمام أعداء دعوته ، صموداً قليل النظر ، ويقول حاكياً عنه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ (٢) .

وإنك ل ترى صحيفة نصرة من صحائف ثباته في دعوته فيما يحكيه سبحانه من صنع سفينته ، بقوله : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ : إِن تَسْخَرُوا مِنَّا ، فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (٣) .

وظلَّ شيخُ الأنبياء يعيش مع قومه الألداء ألف سنة إلا خمسين عاماً ، حتى جاء أمر الله ، ففار التنور وغرق من غرق ، ونجا من نجا ، يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَانْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٤) .

هذه صحائف حياته المشرقة الوضأة ، وفي مقابل ذلك نقف على التصوير القاتم الذي تصوَّره التوراة لهذا الرجل العظيم ، تقول :

« وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً * وشرب من الخمر فسكرو وتعزَّى

(١) سورة نوح : الآية ١٠ - ١٢ .

(٢) سورة نوح : الآيات ٥ - ٩ .

(٣) سورة هود : الآية ٣٨ .

(٤) سورة العنكبوت : الآيتان ١٤ و ١٥ .

داخل خبائه * فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً * فأخذ سام وياث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء ، فلم يُبصرا عورة أبيهما * فلما استيقظ نوحٌ من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير * فقال ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته»^(١) .

ولا نعلق على هذا النصّ شيئاً ، ونحمل القضاء فيه إلى الباحثين الكرام .

* * *

٣ - إبراهيم في القرآن والتوراة

إنّ قصة إبراهيم في الذكر الحكيم تعرب عن مكانته السامية عند الله سبحانه ، مكانة لا يصل إليها إلاّ الأمثل من الأنبياء ، حيث إنّ سبحانه ذكر له ما يقرب من خمسة عشر وصفاً ، كل منها يدلّ على عظّمته وسمو مكانته عند الله فهو : « إمام » ، « صالح » ، « حنيف » ، « مسلم » ، « موقن » ، « أوّاه » ، - « حلّيم » ، « منيب » ، « قانت » ، « شاكِر » ، « مؤمن » ، « أمة » بنفسه ، « خير » ، « مصطفى » ، و« صاحب قلب سليم » .^(٢) .

وهذه السمات بكثرتها وفخامتها ، لم ترد في حق نبي آخر .

وأما بطولته وثباته في مقابل الوثنيين ، فحدّث عنها ولا حرج ، ويكفي في ذلك أنّه دخل معبدهم ، ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ . . . ﴾^(٣) .

(١) العهد القديم ، سفر التكوين ، الأصحاح التاسع ، الجملات ٢٠ - ٢٥ ، ص ٥ ، ط دار الكتاب المقدّس .

(٢) لاحظ السور التالية :

- البقرة : ١٢٤ و ١٣٠ - آل عمران : ٦٧ .
- الأنفال : ٦٥ .
- التوبة : ١١٤ . - هود : ٧٥ .
- الصافات : ٤٨ و ١١٠ . - ص : ٤٧ .
(٣) لاحظ سورة الصافات : الآيات ٩١ إلى ٩٩

وأي مقام أكرم وأعظم من إراءته ملكوت السموات والأرض ، كما يقول تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (١) .

وأي تقانٍ في جنب الله ، وطلب مرضاته سبحانه ، أقوى من تفانيه باستعداده لتضحية ولده وذبحه إمثالاً لأمره سبحانه (٢) .

هذا هو إبراهيم ، بطل التوحيد ، في الذكر الحكيم ، فهلم نقرأ صحيفة حياته التي صورتها التوراة المحرّفة ، بما يندى له الجبين من قراءته وسماعه ، تقول :

« وحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك ، لأن الجوع في الأرض كان شديداً * وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته : إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر * فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته ، فيقتلونني ويستبقونك * قولي إنك أختي ، ليكون لي خير بسببك ، ونحيا نفسي من أجلك * فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً * ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون ، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون * فصنع إلى إبراهيم خيراً بسببها ، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال * فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام * فدعا فرعون أبرام وقال : ما هذا الذي صنعت بي ، لماذا لم تخبرني أنها امرأتك ؟ * لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها إلي لتكون زوجتي . والآن هوذا امرأتك ، خذها واذهب * فأوصى عليه فرعون رجالاً فشيّعوه وامرأته وكل ما كان له » (٣) .

فمغزى هذه الأسطورة أن إبراهيم صار سبياً لأخذ فرعون سارة ، زوجة

(١) سورة الأنعام : الآية ٧٥ .

(٢) لاحظ سورة الصافات : الآيات ١٠٢ إلى ١٠٧ .

(٣) العهد القديم ، سفر التكوين ، الأصحاح الثاني عشر ، الجملات ١٠ - ٢٠ ، ص ١٩ ، ط دار الكتاب المقدس .

إبراهيم ، زوجة له . وحاشا إبراهيم ، وهو من أكرم أنبياء الله ، أن يرتكب ما لا يرتكبه أدنى الناس . وهو وإن فعل ذلك طلباً لنجاة نفسه ، لكن أصحاب الغيرة والشهامة من الرجال يضحون بأنفسهم دون أعراضهم .

ثم من أين علم إبراهيم أنه لو عرفها المصريون إمرأته يقتلونه ، مع أن المستقبل لم يصدق ذلك ، وأظهر فرعون رجلاً موضوعياً ، لا يتجاوز أعراض الناس .

* * *

٤ - لوط في القرآن والتوراة

إن لوطاً ، أحد الأنبياء المعاصرين لإبراهيم المقتفين لشريعته ، وكان رجلاً صموداً في مجال النهي عن المنكر ، يقول سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَيْتَ لَمْ تَنْتَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ (١) .

والقرآن يذكر لوطاً في عداد الأنبياء العظام ويقول : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً ، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

وفي آية أخرى يقول : ﴿ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَاسِقِينَ ﴾ (٣) .

فهل نرى ما تذكره التوراة في حقه تقول :

« وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن

(١) سورة الشعراء : الآيات ١٦١ - ١٧١ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٨٦ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٧٤ .

في صوغر ، فسكن في المغارة هو وابنتاه * وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض * هَلَمْ نسقي أبانا خمرآ ونضطجع معه ، فنحيي من أبينا نسلآ * فسقتا أباهما خمرآ في تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها * وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي ، نسقيه خمرآ الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه ، فنحيي من أبينا نسلآ * فسقتا أباهما خمرآ في تلك الليلة أيضاً ، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها * فحبلت إبتا لوط من أبيها * فولدت البكر إبنآ ودعت إسمه مُوآب ، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم * والصغيرة أيضاً ولدت إبنآ ودعت إسمه بَن عَمي ، وهو أبو بني عَمُون إلى اليوم ^(١) .

عجبآ والله ، أي منطق هذا ! وما قيمة نبي لا يفرق بين الخمر والماء ، ويسكر إلى حدّ يفعل ما ذكرته مع بنته . ولو صحت هذه القصة ، فالموآبيين ، وبني عَمُون ، ينتهي نسبهم إلى الفسق والفجور ، أعاذنا الله من الوقعة في الأنبياء .

وكفى في هذا النصّ دلالة على أن القرآن لم يتخذ من التوراة ، لأنه لم يذكر في حقّ بنات نوح سوءً ، وإنما ندّد بزوجته ، كما عرفت .

* * *

٥ - يعقوب في القرآن والتوراة

إنّ يعقوب أحد الأنبياء العظام ، يصفه سبحانه بأنّه كان محسنآ ، وصالحآ ، ومصطفى ، وخيرآ ، وبصيرآ ، وقد جعل النبوة في نسله .

يقول سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ

(١) العهد القديم ، سفر التكوين ، الأصحاح التاسع عشر ، الجملات ٣٠ - ٣٨ ، ص ٢٩ ، ط دار الكتاب المقدس .

قَبْلَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾ .

ويقول سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ . . . ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ (٤) .

ولم يزل يعقوب يكافح الوثنية ، وقد أوصى بالتوحيد أولاده في آخريات حياته ، كما يقول سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ، قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٥) .

فَهَلُمَّ معنا نقف على نصّ التوراة في حقّ هذا النبي العظيم ، فهي تُعرِّفه بأنّه كاذب مخادع ، كما تصف أباه بأنّه شارب للخمر .

إنّ إسحاق أراد أن يعطي ابنه « عيسو » بركة النبوة ، فخادعه يعقوب وأوهمه أنّه « عيسو » ، وقد كان أمر يعقوب « عيسو » أن يصنع طعاماً كما يحب ، ويأتي به لياكل حتى يباركه قبل أن يموت . وقد علم بذلك يعقوب ، تقول التوراة :

(١) سورة الأنعام : الآية ٨٤ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٧٢ .

(٣) سورة العنكبوت : الآية ٢٧ .

(٤) سورة ص : الآيات ٤٥ - ٤٧ .

(٥) سورة البقرة : الآية ١٣٣ .

« فَدْخَلَ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ : يَا أَبِي . فَقَالَ : هَا أَنْذَا ، مَنْ أَنْتَ يَا ابْنِي * فَقَالَ يَعْقُوبُ لِأَبِيهِ : أَنَا عَيْسُو بَكَرِكَ ، قَدْ فَعَلْتُ كَمَا كَلَّمْتَنِي ، قُمْ اجْلِسْ وَكُلْ مِنْ صَيْدِي لَكِي تَبَارِكْنِي نَفْسُكَ * فَقَالَ إِسْحَقُ لِابْنِهِ : مَا هَذَا الَّذِي أَسْرَعْتَ لِتَجِدِيَا ابْنِي ؟ ! فَقَالَ إِنَّ الرَّبَّ إلهُكَ قَدْ يَسَّرَ لِي * فَقَالَ إِسْحَقُ لِيَعْقُوبَ : تَقَدَّمْ لِأَجُوسُكَ يَا ابْنِي ، أَنْتَ هُوَ ابْنِي عَيْسُو أَمْ لَا ؟ * فَتَقَدَّمَ يَعْقُوبُ إِلَى إِسْحَاقَ أَبِيهِ ، فَجَسَّهُ ، وَقَالَ : الصَّوْتُ صَوْتُ يَعْقُوبَ ، وَلَكِنْ الْيَدَيْنِ يَدَا عَيْسُو * وَلَمْ يَعْرِفْهُ ، لِأَنَّ يَدَيْهِ كَانَتَا مَشْعُرَتَيْنِ كَيْدِي عَيْسُو أَخِيهِ ، فَبَارَكَهُ * وَقَالَ هَلْ أَنْتَ هُوَ ابْنِي عَيْسُو ، فَقَالَ : أَنَا هُوَ * فَقَالَ : قَدَّمْ لِي لِأَكُلْ مِنْ صَيْدِ ابْنِي حَتَّى تَبَارِكَكَ نَفْسِي ، فَقَدَّمْ لَهُ ، فَأَكَلَ وَأَحْضَرَ لَهُ خَمْرًا فَشَرِبَ !! . . . » إِلَى أَنْ تَقُول :

« وَحَدَّثَ عِنْدَمَا فَرَّغَ إِسْحَاقُ مِنْ بَرَكَةِ يَعْقُوبَ ، وَيَعْقُوبُ قَدْ خَرَجَ مِنْ لَدُنْ إِسْحَاقَ أَبِيهِ ، أَنَّ عَيْسُو أَخَاهُ أَتَى مِنْ صَيْدِهِ ، فَصَنَعَ هُوَ أَطْعِمَةً ، وَدَخَلَ بِهَا إِلَى أَبِيهِ ، وَقَالَ لِأَبِيهِ : لِيَقُمْ أَبِي وَيَأْكُلْ مِنْ صَيْدِ ابْنِهِ حَتَّى تَبَارِكْنِي نَفْسُكَ * فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ : أَبُوه : مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : أَنَا ابْنُكَ بَكَرِكَ عَيْسُو * فَارْتَعَدَ إِسْحَاقُ إِرْتِعَادًا عَظِيمًا . . . » فَقَالَ : قَدْ جَاءَ أَخُوكَ بِكَرٍ وَأَخَذَ بَرَكَتَكَ «^(١) .

٦ - دَاوُدُ وَسَلِيمَانُ فِي الْقُرْآنِ وَالْعَهْدَيْنِ

يَحْدُثُ الْقُرْآنُ عَنْ دَاوُدَ وَيَصِفُهُ بِالشَّجَاعَةِ ، وَأَنَّهُ أَحَدُ مَنْ أُعْطِيَ الْكِتَابَ ، وَجُعِلَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَأَنَّهُ أُوتِيَ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ وَفُضِّلَ الْخُطَابُ . وَقَدْ بَلَغَتْ عَظَمَتُهُ الرُّوحِيَّةُ إِلَى حَدِّ أَنَّهُ كَانَ عِنْدَمَا يَسْبَحُ ، تَسْبَحُ الْجِبَالُ وَالطَّيْرُ مَعَهُ .

كَمَا أَنَّهُ يَصِفُ ابْنَهُ سَلِيمَانَ بِالْعِلْمِ وَالسَّيْطَرَةِ عَلَى الْفَضَاءِ ، وَإِلَيْكَ بَعْضُ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي هَذَا الْمَجَالِ .

(١) الْعَهْدُ الْقَدِيمُ ، سِفْرُ التَّكْوِينِ ، الْأَصْحَاحُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ ، لَاحِظْ : الْجُمَلَاتُ ١٨ - ٣٨ ، ص ٤٢ - ٤٣ ، ط دَارُ الْكِتَابِ الْمَقْدِسِ .

يقول سبحانه : ﴿ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ إِصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ (٤) .

هذا بعض ما ذكره القرآن في داود ، كما يذكر ولده البار بقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ سُلَيْمَانَ عِلْمًا ، وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (٥) .

وإليك ما ينسبه العهد القديم إليهما ، مما يندى له الجبين :

« وَأَمَّا دَاوُدُ فَأَقَامَ فِي أُورُشَلِيمَ * وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره ، وتمشَّى على سطح بيت الملك ، فرأى من على السطح امرأة تستحم ، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً * فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد : أليست هذه بَشَبَعُ بِنْتُ أَلِيْعَامَ ، امرأة أوريّا الحيثي (٦) * فأرسل داود رسلاً وأخذها ، فدخلت إليه ، فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ، ثم رجعت إلى بيتها * وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت : إني حبلت . »

ثم يستمر في سرد هذه الحرافة ، وأن داود استدعى زوجها وسأله عن مسار

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥١ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٦٣ .

(٣) سورة ص : الآيات ١٧ - ٢٠ .

(٤) سورة ص : الآية ٢٦ .

(٥) سورة النمل : الآيات ١٥ - ١٦ . وقد اكتفينا بهذا المقدار من الآيات .

(٦) وهو من قادة جيوشه .

الحرب ووضع الجيوش ، وأمره أن يرجع إلى بيته ، لكن الزوج لم يرجع بل نام على باب بيت الملك ، ولما علم داود بالأمر اعتذر الزوج بأنه كيف يذهب إلى بيته ليأكل ويشرب ويضطجع مع امرأته والجيوش نازلة في الصحراء ويهوذا ساكنون في الخيام ، وفي اليوم التالي أرسل داود رسالة إلى قائد جيشه يأمره فيها أن يجعل هذا الزوج في مقدم الجيوش ليقتل ، ففعل ذلك ، فقتل .

« فلما سمعت امرأة أورياً أنه قد مات أورياً رجلها ، ندبت بعلها * ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت امرأة له وولدت له ابناً ، وأما الأمر الذي فعله داود ففُتِحَ في عيني الرب »^(١) .

هذا ما يذكره في حقّ الوالد ، وأما الولد فيعرفه العهد القديم والإنجيل أيضاً بأنه ابن داود من أورياً هذه^(٢) .

والعجب أن الولد اقتفى أثر الوالد في المعاشقة ومغازلة النساء ، فانظر إلى ما جاء في « الملوك الأول » :

« وأحب سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون ، موآبيات ، وعمونيات ، وأدوميات ، وصيدونيات ، وحثيات * من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يُميلون قلوبكم وراء آلهتهم ، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة * وكان له سبع مئة من النساء السيدات ، وثلاث مئة من السراري ، فأمالت النساء قلبه * وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أمّلن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه * فذهب سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين ، وملكوم رجس العمونيين * وعمل سليمان الشرّ في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه * حينئذٍ بنى سليمان مرتفعة لكموش وجس الموابيين على الجبل الذي

(١) لاحظ : العهد القديم ، صموئيل الثاني ، الأصحاح الحادي عشر ، ص ٤٩٧ - ٤٩٩ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٢) العهد القديم ، صموئيل الثاني ، الأصحاح الثاني عشر ، الجملة ٢٤ ، ص ٥٠١ . وإنجيل متى ، الأصحاح الأول ، الجملة السادسة ، ص ٢ ، ط دار الكتاب المقدس .

تجاه أُورشليم ولولك رجس بني عَمُون * وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي يوقدن ويذبحن لألهتهن * فغضب الربّ على سليمان » . وهكذا يتابع نقل غضب الرب عليه ثم تهديده إياه بتمزيق مملكته (١) .

هَبْ أَنْ النبي لا يلزم أَنْ يكون معصوماً - مع أَنَّ الأدلّة العقلية قائمة على لزوم عصمته - فهل يجوز في حكم العقل أَنْ يعبد الأصنام ويبنى لها المرتفعات ، ثم يكون داعية للناس إلى التوحيد وعبادة الله ؟ ! .

٧ - المسيح في القرآن والإنجيل

إِنَّ المسيح المبشّر بالنبي الأعظم ، من الأنبياء العظام ، وصفه سبحانه بقوله :

﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ (٢) .

ويقوله : ﴿ وَأَتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (٣) .

وقد بلغت عناية الله تعالى به أَنْ أقدره على التكلم وهو في المهد صبياً ، يقول سبحانه : ﴿ وَتَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ ﴾ (٤) .

ومَّا نلفت النظر إليه أَنه سبحانه ينقل عنه قوله : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا ﴾ (٥) .

(١) العهد القديم ، الملوك الأول ، الأصحاح الحادي عشر ، الجملات ١ - ١٣ ، ص ٥٥٣ - ٥٥٤ . ط دار الكتاب المقدس .

(٢) سورة النساء : الآية ١٧١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٨٧ .

(٤) سورة المائدة : الآية ١١٠ .

(٥) سورة مريم : الآية ٣٢ .

فاتل هذه الآية وتأمل فيما أوصاه الله سبحانه من البرِّ بوالدته ، ثم قارن ذلك بما ينقله عنه الإنجيل من ترك إكرامه لوالدته ، يقول الإنجيل :

« فجاءت حينئذ إخوته وأُمُّه وَوَقَفُوا خَارِجاً وَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ يَدْعُونَهُ * وكان الجَمْعُ جالساً حوله فقالوا له هوذا أُمُّكَ وَإِخْوَتُكَ خَارِجاً يَطْلُبُونَكَ * فأجابهم قائلاً : مَنْ أُمِّي وَإِخْوَتِي ؟ * ثم نظر حوله إلى الجالسين وقال : ها أُمِّي وَإِخْوَتِي ، لِأَنَّهُ مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ اللَّهِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي »^(١) .

فأين المسيح الذي ينكر أُمَّهُ القديسة البارة ، ويحرمها رؤيته ، ويُعَرِّضُ بِقَدَاسَتِهَا ، ويُفَضِّلُ تلاميذه عليها ، مِنْ الْمَسِيحِ الَّذِي عَرَّفَهُ الْقُرْآنُ بقوله : ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَتِي ﴾ ، مع أَنَّ هؤلاء التلاميذ هم الذين تركوه ، ووصفهم المسيح بقوله : « ما بالكم خائفين هكذا ، كيف إيمان لكم »^(٢) .

المسيح يحول الماء خمرًا ليشرب الناس

إنَّ الخمر إحدى الخبائث التي حرَّمها الله سبحانه في الشرائع السماوية ، من غير فرق بين شريعة وأخرى ، وما هو سِفَر اللاويين ، من العهد القديم يقول :

« وَكَلَّمَ اللَّهُ هَارُونَ قَائِلاً ، خَمراً وَمُسْكراً لَا تَشْرَبُ أَنْتَ وَبَنُوكَ مَعَكَ عِنْدَ دُخُولِكُمْ إِلَى خِيْمَةِ الْاجْتِمَاعِ ، لِكَيْلَا تَمُوتُوا ، فَرَضاً دَهْرِيّاً فِي أَجْيَالِكُمْ ، وَلِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُقَدَّسِ وَالْمُحَلَّلِ ، وَبَيْنَ النَجَسِ وَالطَّاهِرِ »^(٣) .

ومع ذلك فالمسيح يصنع للمحتفلين بالعرس خمرًا ليشربوا كما يقول الإنجيل :

« وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل وكانت أمُّ يسوع هناك * ودعي أيضاً يسوع وتلاميذه إلى العرس . ولما فرغت الخمر قالت أمُّ يسوع له ليس لهم

(١) إنجيل مُرقس ، الأصحاح الثالث ، الجملات ٣١ - ٣٥ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٢) إنجيل مرقس ، الأصحاح الرابع ، الجملة ٤٠ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٣) سِفَر اللاويين ، الأصحاح العاشر ، الجملات ٨ - ١١ ، ص ١٧١ ، ط دار الكتاب المقدس .

خمر * قال لها يسوع : ما لي ولك يا امرأة ، لم تأت ساعتي بعد !! * قالت أمه للخدّام : مهما قال لكم فافعلوه * وكانت ستة أجرانٍ من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود ، يَسَعُ كل واحد مِطْرَيْنِ أو ثلاثة * قال لهم يسوع : إملأوا الأجران ماءً ، فملأوها إلى فوق * ثم قال لهم : استقوا الآن ، وقدموا إلى رئيس المتكأ ، فقدّموا * فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمرآ - ولم يكن يعلم من أين هي لكن الخدّام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا - دعا رئيس المتكأ العريس * وقال له : كل إنسان إنّما يضع الخمر الجيدة أولاً ومتى سكرُوا فحينئذٍ الدون . أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن * هذه بداية الآيات التي فعلها يسوع في قانا الجليل ، وأظهر مجده ، فأمن به تلاميذه «^(١)» .

* * *

هذه نماذج مما في العهدين من الأضاليل والأباطيل التي لا تتفق مع البرهان ، ولا يصدّقه المنطق ، وهي تثبت أمرين :

الأول : أنّ هذه الكتب السخيفة ليست من وحي السماء ، وإنّما هي من منشآت الأخبار والرهبان ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فموّهوا الكتب السماوية بخرافاتهم .

الثاني : أنّ النبي الأكرم لم يقتبس معارفه وقصصه وأحكامه من هذه الكتب ، وإنّما هي مأخوذة من وحي السماء على قلبه ، ليكون من المنذرين «^(٢)» .

وبهذا تقف على مدى صدق قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْقُصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ «^(٣)» .

(١) إنجيل يوحنا ، الأصحاح الثاني ، الجملات ١ - ١٢ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٢) أنظر للتبسط في هذا البحث : « الهدى إلى دين المصطفى » ، و « الرحلة المدرسية » كلاهما لشيخنا الحجة البلاغي (م ١٣٥٢) . و « إظهار الحق » للعالم الهندي . و « أنيس الأعلام في نصرّة الإسلام » لمحمد صادق فخر الإسلام في خمسة أجزاء ، وغير ذلك .

(٣) سورة النمل : الآية ٧٦ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (١) .

ولنكتف بهذا المقدار ، ونترفع عن نقل العار ، وأشنع القبائح ، التي يرمي
بها العهدان أنبياء الله تعالى ، مما تسمثر النفوس من سماعه ، والأقلام عن الجريان
به .

* * *

(١) سورة المائدة : الآية ٤٨ .

شواهد إعجاز القرآن

(٥)

إعجازه من ناحية إتقان التشريع والتقنين

جاء الإسلام برسالة عالمية ، وبعقيدة وطقوس لا تنفرد بشعب أو مجتمع بعينه ، ولا تُختص بصُقع أو أقطار معينة ، بل ظهر ديناً متكامل الجوانب في العقيدة والتشريع ، يسري على الأفراد على اختلافهم في اللون ، والوطن ، واللسان ، ولا يفترض لنفوذته حاجزاً بين بني الإنسان ، ولا يعترف بأيّة فواصل أو تحديدات عرقية أو إقليمية .

ويظهر هذا من تاريخ دعوة الرسول وسيرته في نشر دينه ، وقبل كل شيء ، نداءات القرآن وهتافاته الموجهة إلى الناس كلهم . وهذا ما يراد من كون الإسلام ديناً عالمياً .

ولم تكن هذه سمته الوحيدة بل له سمة أخرى هي سمة الخاتمية فهو خاتم الشرائع ، كما أنّ نبيّه خاتم الأنبياء وعلى هذا كلمات الرسول وأوصيائه ، وقبلها النصوص القرآنية^(١) .

كما أنّ له سمة ثالثة ، وهو كونه ديناً متكامل الجوانب ، وشاملاً لجميع النواحي الحيوية في حياة البشر ، فلم يقتصر في تربية الإنسان وتنمية طاقاته على تشريع الأدعية والطقوس فحسب ، بل قرّن إليها تشريعات وتقنيات رفع بها

(١) سيأتي الكلام مفصلاً في عالمية الرسالة الإسلامية وخاتمتها .

حاجة الإنسان إلى كل تشريع وتقنين ، سواء في مجال الأخلاق أو الإجتماع أو السياسة والإدارة ، أو الإقتصاد .

وإنَّ نفس وجود تلك القوانين في جميع تلك الجوانب ، معجزة كبرى لا تقوم بها الطاقة البشرية ، واللجان الحقوقية ، خصوصاً مع اتّصافها بمرونة خاصة ، تجمع كل الحضارات والمجتمعات البدائية ، والصناعية المتطورة .

ثم إنّه تظهر عظمة ذلك التقنين إذا وقفنا على أنّ دعوة الإسلام بزغت بين أقوام متأخرين في المجالات الخلقية والثقافية ، ولم يكن لهم منها نصيب سوى الإغارة والنهب والقتل والتفاخر . ويشهد لذلك صفحات تاريخ الجزيرة العربية ، ولنكتف من ذلك بشاهد واحد يكشف لنا واقعية الحياة في ذلك العصر .

روى أهل السير والتاريخ أنّ رجلاً من « زبيد » قدم مكة ببضاعة ، فاشترها منه العاص بن وائل ، فحبس عنه حقّه ، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف : عبد الدار ، وخزوماً ، وجمحاً ، وسهماً ، وعدي بن كعب ، فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل وانتهروه ، فلما رأى الزبيدي الشرّ ، أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس - وقريش في أنديتهم حول الكعبة - فنادى بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته	بيطن مكة نائي الدار والنّفير
ومُحَرَّم أشعث لم يقض عُمرته	يا للرجال وبين الحجر والحجر
إنّ الحرام لمن تمّت كرامته	ولا حرام لشوب الفاجر الفدير

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : ما لهذا مترك .

فاجتمعت « هاشم » و « زهرة » و « تميم بن مرة » ، في دار « عبد الله بن جدعان » فصنع لهم طعاماً ، وتحالفوا في ذي القعدة الحرام ، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكوننّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدّى إليه حقّه ، أبداً .

فسمّت قريش ذلك الحلف ، حلف الفضول ، وقالوا : « لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر » .

ثم مشوا إلى العاص بن وائل ، فانزعوا منه سلعة الزبيدي ، ودفعوها

إليه^(١)

فهذه الحادثة تكشف عن أنَّ المجتمع في الجزيرة العربية أوفى قسم الحجاز ، كان خلواً من أي محكمة وقضاء ، ولم يكن سائداً فيها إلا قوة الزور وشرعية الغاب ، فلما اتَّحد هؤلاء للدفاع عن المظلوم ، اشتهر إسم ذلك الحلف ، وصار نجماً لامعاً بينهم ، وكأن شيئاً عجيباً قد حصل .

ففي مثل هذا المجتمع ظهر رجل ، وفي يده كتاب ، يدعو إلى الأخوة الدينية أولاً ، وصيانة حقوق الإنسان في ظل العدالة في جميع المجالات ثانياً ، وأتى بتشريعات بعث بها النور والحياة في المجتمع . وهذا أوضح دليل على أنَّ هذه الثمرة ليست ثمرة طبيعية للبيئة .

إذا عرفت ذلك فلنعد إلى تبين سمات التشريع الإسلامي ، وذكر نزر يسير منها في بعض المجالات ، والمهم هو الوقوف على تلك السمات ، وهي :

١ - مرونة التشريعات الإسلامية ، وملاءمتها لجميع الحضارات الماضية والسائدة ، والآتية .

٢ - إنَّ التشريعات القرآنية تعتمد قبل كل شيء على الفطرة الإنسانية التي لا تتغير في خضم التحولات والتبدلات . فلا تجد تشريعاً قرآنياً يضاد الفطرة .

٣ - التشريع القرآني ينظر إلى الإنسان ، بما هو موجود مركب من جسم وروح ومادة ومعنى ، ولكل حاجته ورغبته ، فأباح اللذائذ الجسمانية في إطار لا يمس كرامة الإنسان ، كما دعا إلى المثل الأخلاقية العليا ، فصار بذلك ديناً وسطاً ، لا ينجح إلى جانب خاص فينسى الجانب الآخر .

٤ - الملاك في التشريع القرآني هو السعادة الإنسانية ومصالح المجتمع ومفاسده ، فأرسي قوانينه على ذلك الأساس من دون جنوح إلى إرضاء عموم الناس وإشباع ميولهم ، لأنَّ إرضاءهم ربما يكون مخالفاً لسعادتهم .

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير (م ٧٧٤) ، ج ٢ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

٥ - إنَّ التشريعات القرآنية ليست تقنيات جافة ، خالية من الضمانات الإجرائية ، بل لم تغفل عنها ، فجعلت لتنفيذها ضمانات إجرائية داخلية وخارجية ، فإيمان الرجل بدينه وقرآنه وما يترتب عليه من مشوبات وعقوبات أخروية ، أقوى وازع داخلي وعاطفي في الإنسان يدفعه إلى التطبيق ، ويردعه عن المخالفة . إضافة إلى العقوبات البدنية والغرامات المالية التي حددها .

٦ - إنَّ التشريع القرآني ذو مادة حيوية ، خلاقة للتفاصيل ، بحيث يقدر معها علماء الأمة والإخصائيون منهم على استنباط ما يحتاج إليه المجتمع في كل عصر . فإذا انضمت إليها الأحاديث النبوية ، وما وصل إلى الأمة ، من أوصياء النبي ، نجد التشريع الإسلامي وافياً باستنباط آلاف الفروع التي يحتاج إليها المجتمع على امتداد القرون والأجيال .

هذا ما نتبناه في هذا البحث ، ولا تظهر حقيقته إلا بشرح كل واحدة من هذه السمات شرحاً إجمالياً ، يوقفنا على قوة التشريع القرآني وإتقانه .

* * *

السمة الأولى : مرونة التشريع القرآني

من الأسباب ، الدافعة إلى صلاح الإسلام للبقاء والخلود ، مرونة أحكامه التي تُمكنه من أن يماشي جميع الأزمنة ، والحضارات . وقد تمثلت هذه المرونة بأمر نذكر منها اثنين :

أ - النظر إلى المعاني لا المظاهر

إنَّ التشريعات القرآنية تنظر إلى المعاني والحقائق لا إلى المظاهر والقشور ، ولذلك لا تجد في الإسلام مظهراً خاصاً من مظاهر الحياة له من القداسة ما يمنع من تغييره ، ويوجب حفظه إلى الأبد بشكله الخاص ، ولأجل ذلك لا يقع التصادم بين تعاليمه والتقدم العلمي الهائل في مظاهره وأشكاله الخارجية ، وإليك بعض الأمثلة :

١ - إنّ الإسلام دعا إلى بثّ العلم والتربية ، ولكن الذي يهيم الإسلام ، في جميع الأزمنة هو الحقيقة والجوهر من ذينك الأمرين ، وأمّا الكيفية والشكل ، فلا يهتمّ به ، بل الهدف إشاعة العلم بأي وسيلة كانت ، وإرساخ التربية في نفوس الناس بأي سبب تحقق .

وإنّ أجهزة نشر العلم ، وأسباب التربية ، قد ترقّت من أبسط الأساليب إلى أعقدها ، فمن الكتابة بالقصب على أوراق الشجر وعظام الحيوانات وجلودها ، إلى نشر العلم عن طريق الأجهزة الإذاعية والدوائر الإلكترونية .

فلو كانت هناك قداسة لأسباب معينة ، كالكتابة بالخير أو بالحصّ ، لما كتب للإسلام البقاء^(١) .

٢ - إنّ القرآن يدعو الأمة الإسلامية إلى التأهب في مقابل الأعداء ، وإعداد ما استطاعوا من قوة ، يقول تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾^(٢) . فما هو المطلوب ، هو كسب القوة والإقتدار على كفاح المخالفين .

والمراد من القوة هو الآلات الحربية وأدوات النضال ، سواء أكانت أسهماً ورماحاً وسيوفاً ، أو دبابات ومدافع وطائرات وصواريخ . فالكلُّ أشكال ، واللّب واحد ، وهو دوام الإستعداد في مقابل الأعداء .

فلو كانت الفروسية والرمي بالسهم هي مظاهر الكفاح العسكري الذي يدعو إليه الإسلام ، فقد حلّ مكانها أدوات مهيبة مدمرة قويّة ، والإقتصار على الأولى كان سينجر حتماً إلى إبادة المسلمين . غير أنّ الجهاد بالسهم والرمح ، أو الجهاد بالصواريخ والدبابات ، أشكال وألبسة للحكم الإسلامي بالجهاد ، فاللباس يتغير ويحتفظ باللب .

٣ - القرآن يدعو المسلمين إلى العزّة والعظمة والإستقلال ، ورفض التبعية

^(١) لاحظ ما ورد حول بثّ العلم والكتابة والتربية في الكتاب العزيز . وأظن أن الباحث الكريم في غنى عن الإشارة إلى الآيات الواردة في هذا المجال .

^(٢) سورة الأنفال : الآية ٦٠

لِلْأَعْدَاءِ . يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْعِزَّةُ ٱلرَّسُوْلُهُ ۚ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ولكن نيل هذا الهدف السامي لم يكن يتطلب في السابق ما يتطلبه اليوم من وجود الأخصائيين من المسلمين في المسائل السياسية والإقتصادية والاجتماعية . فالقرآن يوجب على المسلمين دراسة هذه العلوم دراسة وافية ، حتى تتحقق لهم العزة . فليست هذه العلوم مطلوبة بالذات ، بل المطلوب هو حفظ العزة والعظمة والإستقلال . والتدرج بهذه العلوم ، ليس إلا سبب وأداة لنيل المطلوب .

٤ - الإسلام يدعو المرأة إلى العفة والستر والحجاب خارج بيتها وفي محيط عملها . ولكنه لم يقيده بشكل خاص من اللباس ، بل يكفي في ذلك كل لباس يكون مؤمناً لهذا الغرض . فلو كان التشريع الإسلامي في هذا المجال على أساس إلزام المرأة باتخاذ شكل خاص من الحجاب لربما تصادم مع حاجات الزمان المتطورة ، أو استلزم تهديم التقاليد العرفية المحترمة عند الأمم . فلأجل ذلك ترك الكيفية والشكل إلى المجتمع نفسه وطلب منه اللب وهو الستر ، وعدم الإغراء .

قال سبحانه : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لَأَزُودُكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ .

٥ - في مجال العلاقات الدولية الدبلوماسية الأصل الثابت هو رعاية مصالح الإسلام والمسلمين ، وأما كيفية تلك الرعاية فتختلف باختلاف الظروف الزمانية والمكانية . فتارة تقتضي المصلحة ، السلام والمهادنة ، ومصالحة العدو . وأخرى تقتضي ضد ذلك .

(١) سورة المنافقون : الآية ٨ .

(٢) سورة النور : الآية ٣١ .

(٣) سورة الأحزاب : الآية ٥٩ .

يقول سبحانه : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ ، أَنْ تَوَلَّوهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾^(٢) .

فالإسلام لا يفرض الحرب دائماً مع الكفار ، كما لا يفرض السلم والصلح كذلك ، وإنما الحرب والسلم يتبعان مصالح الإسلام والمسلمين .

٦ - العلاقات الدولية التجارية ، وإنشاء مؤسسات صناعية مشتركة بين المسلمين وغيرهم ، يتبع ذلك الأصل الثابت ، وهو تبني صلاح الإسلام والمسلمين . ولأجل ذلك ربما يكون عقد إتفاقية تجارية حراماً في ظرف وحللاً في ظرف آخر . فلو كان التحريم هو الحكم الثابت لما أمكن تطبيقه في الظروف التي توجب عقد الإتفاقية ، وهكذا العكس . وهذا ما نرومه في هذا المقام من أن المعنى ثابت والتعابير مختلفة ، وكل الإتفاقيات تُسْتَمَدُّ من الأصول الثابتة في الإسلام ، كقوله سبحانه : ﴿ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾^(٣) . وقوله سبحانه : ﴿ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾^(٤) .

وقس على ذلك سائر التشريعات ؛ فلإسلام خاصية الإهتمام باللب والجوهر ، وهذا أحد العناصر التي تجعله يساير ويماشي عامة الحضارات الإنسانية إلى قيام يوم الدين .

ب - الأحكام التي لها دور التحديد

من الأسباب الموجبة لانطباق التشريع القرآني على جميع الحضارات ،

(١) سورة النساء : الآية ١٤١ .

(٢) سورة الممتحنة : الأيتان ٩ و ٨ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٤١ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢٧٩ .

تشريعہ لقوانين خاصة ، لها دور التحديد والرقابة بالنسبة إلى عامة تشريعاته .
فهذه القوانين الحاكمة ، تعطي لهذا الدين مرونة يماشي بها كل الأجيال والقرون .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ، وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ^(٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ، فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ^(٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ ^(٤) .

ويقول سبحانه : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ ^(٥) .

وما ورد حول النهي عن الضرر من الآيات ، كلها تحدّد التشريعات القرآنية بحدود الحرج والعسر والضرر . فإذا صارت الأحكام مبدئاً لواحدٍ منها ، تكون مرتفعة غير لازمة الإمتثال . فلولا هذه التحديدات الحاكمة ، لما كانت الشريعة الإسلامية مماشية لجميع الحضارات البشرية .

* * *

السمة الثانية : تشريعاته معتمدة على الفطرة

إنّ الحياة البشريّة في تغيّر دائم ، وتبدّل مطّرد ، ورسوم وتقاليد تزول ، وأصول وحاجات جديدة تطرأ ، تحتاج إلى تليبيتها ورفعها ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر إنّ الهدف من التقنين هو رفع حاجات المجتمع في المجالين الفردي والاجتماعي .

(١) سورة الحج : الآية ٧٨ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٣ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١١٩ .

(٥) سورة النحل : الآية ١٠٦ .

وبملاحظة هذين الجانبين ، يتّضح أنّ أيّ تقنين لن تكتب له الحياة ، ولن يكتسي ثوب البقاء إلّا إذا كان متكئاً ومعتمداً في تقنيته على مبدئٍ ومركّز ثابت لا يتبدل ولا يتغير ، وليس هو إلّا الفطرة الإنسانية التي لا تتبدل مع الأجيال ، وعبر القرون ، وفي خضمّ التحوّلات الطارئة على الحضارات الإنسانية .

وقد تنبّه التقنين القرآني إلى هذا الأساس فبنى مثله العليا وتشريعاته ، على وفق ما تقتضيه الفطرة الإنسانية ويتماشى معها .

يقول سبحانه : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

فجعل الملاك في ثبات تشريعه وبقائه ، حلقة الإنسان وطبعه ، الثابتين في جميع ألوان الحياة ومتغيراتها ، فعلى الرغم من أنّ الحضارة الصناعية غيّرت لون الحياة ، ورفعت الحواجز بين الإنسان وأمانيه ، وقدمت إليه حياة ناعمة كانت ممتنعة في عصر الحجر والسيف والسهم والحضارات البدائية - فمع ذلك كلّ - لم تصل يد التغيّر إلى طبع الإنسان وفطرته ، بل هي ثابتة كما كانت مُدّاس الإنسان هذه الكرة ، ولأجل ذلك ترى أموراً مشتركة بين الإنسان الذي عاش في الحضارات البدائية ، والذي يعاصر الحضارات الصناعية ، وهكذا بين الإنسان القطبيّ والإستوائي . وفي ضوء ذلك جاء القرآن بقوانين ثابتة في عالمٍ ، التحوّل والتبدّل حليفه وأليفه . وإليك نماذج من هذه القوانين :

١ - إنّ التفاوت بين الرجل والمرأة أمر طبيعي محسوس . فهما موجودان مختلفان إختلافاً عضوياً وروحياً ، على رغم كل الدعايات السخيفة الكاذبة التي تريد إزالة كل تفاوت بينهما . ولأجل ذلك اختلفت أحكام كلّ منهما في التشريع الإسلامي إختلافاً يقتضيه طبع كلّ منهما . فإذا كان التشريع مطابقاً لفطرتها ، ومسايراً لطبعها ، ظلّ ثابتاً لا يتغير بمرور الزمان ، لثبات الموضوع ، المُقتضي لثبات محموله .

(١) سورة الروم : الآية ٣٠ .

ومن جملة تلك الأحكام قوله سبحانه : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾^(١) . فهو تشريع مطابق للفترة .

٢ - التشريع القرآني حريص جداً على صيانة الأخلاق وحفظها من الضياع والإنحلال ، ومما لا يشك فيه أن شرب الخمر واللعب بالميسر ، والإباحة الجنسية ، ضربات تقصم ظهر القيم والأخلاق . ولأجل ذلك حرّمها الإسلام وجعل الحدود على مقترفيها . فالأحكام المتعلقة بها ، من الأحكام الثابتة ، لأن ضررها ثابت لا يتغير بتغير الزمان ، فالخمر يزيل العقل ، والميسر ينبت العداوة في المجتمع ، والإباحة الجنسية تفسد النسل .

يتول سبحانه : ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾^(٢) .

إن الميل الجنسي من الميول الطبيعية التي لا تنفك عن الإنسان من زمان مراهقته إلى فترات متقدمة من عمره ، فلأجل ذلك دعا إلى النكاح وحذّر من الهرهبانية .

قال سبحانه : ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣) .

وقد ورد في السنة : « من سني التزويج ، فمن رغب عن سني فليس مني »^(٤) .

٣ - إن الجهاد - بمعنى السعي في طريق الحياة - من الأمور الطبيعية المشتركة

(١) سورة النساء : الآية ٣٤ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٩١ .

(٣) سورة النور : الآية ٣٢ .

(٤) مستدرک الوسائل ج ١٤ ، كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح ، الحديث ١٥ ، الطبعة الحديثة .

بين الإنسان والحيوان ، وحتى النبات . ف جذور الشجرة المشتملة على الشعيرات الدقيقة ، تَشُقُّ طَرِيقَهَا في أعماق التراب لتنمو الشجرة وتبقى حية . وهكذا الكريات الحمراء في الدم ، تلاحق باستمرار الجراثيم والميكروبات الطارئة على البدن وتقتلها لتصون البدن عن الأمراض .

فالإنسان المثالي الذي يتبنّى أيديولوجية إلهية ، لا مناص له في نشر دعوته وبث أفكاره عن السعي وراء هدفه . وهذا ما يعبر عنه القرآن بالجهاد في سبيل الله ، وقد جاءت الكلمة (الجهاد) ثمانية وعشرين مرة مع مشتقاتها في الكتاب العزيز ، وهذا يعرب عن أنّ مسألة الجهاد ليس مجرد مسألة قتل وقتال وسفك دماء وتدمير بيوت ، وإنما هو سعي في نشر الأيديولوجية الإلهية بأنواع الوسائل الممكنة ، فلذا واجه الداعي ، في طريق نشر دعوته ، مقاومةً من العدو ومنعاً من الطواغيت ، فلا مناص له عندئذٍ من رفع المانع بالجهاد والقتال .

يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (١) .

٤ - إنّ الميل إلى النظافة والطهارة من الأمور الفطرية ، وكل إنسان يَشْمِزُّ من القذارة والوساخة . والتشريع القرآني دعا إلى مقتضى الفطرة في هذا المجال فقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا . . . مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ ﴾ (٢) .

* * *

السمة الثالثة : التقنين الوسيط بين المادية والروحية

إنّ الناس قبل ظهور الإسلام كانوا على قسمين :
قسم لا يهمهم إلا الحظوظ المادية ، كاليهود والمشركون .

(١) سورة الأنفال : الآية ٢٤ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٦ .

وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية ، كالنصارى والصابئين وطوائف من وثني الهند أصحاب الرياضات .

فجاء التقنين القرآني وجمع بين الحقيقتين : حقَّ الروح وحقَّ الجسد ، ولعله إلى ذلك يشير قوله سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾^(١) . فعَدَلَ الغرائز والميول تعديلاً يضمن سعادة الإنسان .

فدعا إلى الإلتذاذ بملاذ الحياة وقال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾^(٢) .

وفي الوقت نفسه ، دعا إلى النكاح وحسن معاشرة النساء وقال : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾^(٣) وقال : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾^(٤) .

ودعا إلى الضرب في الأرض سعياً لطلب الرزق ، فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾^(٥) .

ومع ذلك كله فلم يفسح له المجال للإلتذاذ المطلق بل حدده في مجال إعمال الغريزة الجنسية وجمع الثروة وغير ذلك من ملاذ الحياة ، بحدود وقيود . فمنع الفجور والزنا ، وأكل المال بالباطل ، وأخذ الربا ، وغصب الأموال ، والسرقة ، فالقرآن دعا إلى طلب الدنيا في نفس الوقت الذي دعا فيه إلى طلب الآخرة ، فقال : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾^(٦) .

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٣٢ .

(٣) سورة النور : الآية ٣٢ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٩ .

(٥) سورة الملوك : الآية ١٥ .

(٦) سورة القصص : الآية ٧٧ .

السمة الرابعة : رعاية الموضوعية في التقنين

التقنين القرآني يتبنّى للموضوعية في تشريعه ولا يتبنّى ترصية المجتمع وأهواء بني البشر ، وبما أنّ الإنسان موجود مركّب من جسم وروح ، فالتقنين القرآني يتبنّى سلامة الجسم والروح معاً ، فما كان مُضِرّاً بواحد منها ، يُحرِّمُهُ ، وإنّ كانت تلبية رغبات المجتمع على خلافه .

فَحَرَّمَ الإسلام أكل الخنزير وشرب الخمر ، والدم ، وكل خبيث ، لأنّ كل ذلك ينافي صحة الإنسان في بدنه وعقله . كما حَرَّمَ الكذب ، والتهمة ، والنميمة ، والغيبة ، وغير ذلك من رذائل الأخلاق ، لأنّ في ذلك ضرر بالإنسان بجسمه وروحه ، وفرده ومجتمعه . يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ (١) .

* * *

السمة الخامسة : ضمان الإجراء

إنّ العصر الحديث يواجه في سبيل تطبيق قوانينه الوضعية ، مشكلة كبرى ، ناتجة عن فقدان قوانينه للضمانات الكفيلة بتطبيقها بنحو كامل ، وليس لديه غير عقوبات جزائية ، من المعلوم أنّها لا تكفي في تطبيقها ، ما لم يكن هناك وازع داخلي يمنع من التخلف عنها ولأجل ذلك يواجه المجتمع البشري مشكلة انعدام الأمن الاجتماعي بألوانه وصوره .

وأما قوانين الإسلام التي نادى بها القرآن ، ففيها الدوافع والحوافز المفقودة في غيرها من القوانين ، وذلك لأسباب :

الأول - المجتمع الإسلامي يرى القانون مظهراً لإرادة الله سبحانه ، وأنّ مخالفته ، مخالفة لدعوة قدرة كبرى لا يمكن الفرار منها ، وأنّ العقوبة لفي المِرصاد

(١) سورة الحجرات : الآية ١٢ .

للمجرم ، لا مَفَرَّ له منها ، وستناله يد العدالة الإلهية ، وإن كان غائباً عن أبصار الناس ، مختلياً بجرمه في أعماق مغارات الأرض .

إنَّ الكون كُلُّه في نظر المؤمن المسلم عيون تراقب أفعاله ، وأسماع تسمع كلامه ، وتسجل كل ما يفعل ويقترف :

يقول سبحانه : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يُنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٢) .

ولمَّا تتجلى تلك الحقيقة إذا كان المجتمع معتقداً بأنَّ العقاب الأخروي ، وجودٌ أخروي لعمل المرء الدنيوي ، وأنَّ لكل عمل - خيراً كان أو شراً - وجودين متناسبين لظروفهما ، فاكتناز الذهب والفضة ، وعدم إنفاقهما في سبيل الله ، يَتَمَثَّلُ في الآخرة ، ناراً تُكوي جباه الكانزين وظهورهم وجنوبهم ، ويقال لهم : هذا الذي يَكوي أعضاءكم هو نفس الذهب والفضة التي كنزتموها (٣) .

الثاني - إنَّ التشريع القرآني ليس دين الرهبة فقط ، بل هو دين الرغبة أيضاً ، حيث وعد المطيعين ، ثواباً عظيماً قال سبحانه : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ (٤) .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا . . . ﴾ (٥) .

الثالث - قرَن هذا الوازع الداخلي بوازع خارجي ، فأوعد المتمردين عقوبات دنيوية من حدود وتعزيرات ، فأكمل بذلك حوافز التطبيق .

(١) سورة الجاثية : الآية ٢٩ .

(٢) سورة ق : الآية ١٨ .

(٣) سورة التوبة ٠ الآيتان ٣٤ و ٣٥ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١٦٠ .

(٥) سورة النساء : الآية ١٣ .

بل إنه ضَمَّ إلى تلك الحوافز أمراً رابعاً وهو أنه فَرَضَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على المجتمع الإسلامي ، فرأى سكوت المسلم والمجتمع أمام المخطيء والمجرم خطأً وجُرمًا ، قال سبحانه : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (١) .

وبذلك أصبح التشريع القرآني متكامل الجوانب في مجالي التسنين والتطبيق .

* * *

السمة السادسة : سعة القوانين

إن التشريع الإسلامي ، في مختلف الأبواب ، مشتمل على أصول وقواعد عامة تفي باستنباط الآلاف من الفروع التي يحتاج إليها المجتمع البشري ، على امتداد القرون والأجيال ، وهذه الثروة العلمية التي اختصت بها الأمة الإسلامية من بين سائر الأمم ، أغنت الشريعة الإسلامية عن التمسك بكل تشريع سواها .

قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام - في هذا المجال - : « إن الله تعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمة إلا أنزله في كتابه وبينه لرسوله ، وجعل لكل شيء حداً ، وجعل عليه دليلاً يدل عليه » (٢) .

والدليل الواضح على ذلك ، أن المسلمين عندما بسطوا ظلال دولتهم على أكثر من نصف المعمورة ، وأمم الأرض المختلفة العادات والتقاليد والوقائع والأحداث ، رفعوا - رغم ذلك - صرح الحضارة الإسلامية ، وأداروا المجتمع الإسلامي طيلة قرون ، في ظل الكتاب والسنة ، من غير أن يستعينوا بتشريعات أجنبية . وهذا العلامة الحلي أحد عظماء فقهاء الإمامية في القرن الثامن ، ألف كتاباً باسم « تحرير الأحكام الشرعية » ، أودع فيه من الأحكام والقوانين ما يربو

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٤ .

(٢) الكافي ، ج ١ ، ص ٥٩ .

على أربعين ألف مسألة ، استنبطها من الكتاب والسنة^(١) .

وهذا صاحب الجواهر جاء في مشروعه الوحيد « جواهر الكلام » ، بأضعاف ما جاء به العلامة الحلي .

وقد استعارت منّا الأمم الغربية كثيراً من قوانيننا ، وليس ذلك إلا لكون التقنين الإسلامي ذا قواعد متموجة تستطيع أن تجيب على كل ما يطرق .

* * *

وهنا نكتة نلفت نظر الباحث إليها ، وهي أنّ العدالة هي الركيزة الأولى للقوانين الإسلامية في مجالي التشريع والتطبيق ، فما سنّ الإسلام قانوناً إلا على أساس العدالة ، وما أمر بتطبيقه وإجرائه إلا بشكل عادل .

يقول سبحانه في القضاء - الذي يرجع إلى مجال تطبيق القانون : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾^(٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾^(٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ﴾^(٤) .

كما أنه أمر بالعدالة في التبادل الإقتصادي وقال : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾^(٥) .

كما أمر بها في إدارة أموال اليتامى ، فقال : ﴿ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ ﴾^(٦) .

وبالجملة يجب أن يكون التشريع والتطبيق على هذا الأساس . قال

(١) الذريعة ، ج ٤ ، ص ٣٧٨ .

(٢) سورة النساء : الآية ٥٨ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٥٢ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٣٥ .

(٥) سورة الأنعام : الآية ١٥٢ .

(٦) سورة النساء : الآية ١٢٧ .

سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وقد استعان القرآن في تطبيق تشريعه ، ببسط روح الأخوة في المجتمع الإنساني ، فأعلن الوحدة والترابط بين المُسْلِمِينَ ، حتى كأنها غصنان من دوحة مثمرة . وليست الأخوة الإسلامية أخوة شعارية كالتى يحملها أبناء الماركسية ، باسم الرفيق والزميل ، فإنها شعارات فارغة عن كل حقيقة تربطهم إليها ، فلأجل ذلك ترى أجسامهم متقاربة ولكن قلوبهم متشتتة ، بل هي أخوة عميقة راسخة على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر ، وعلى أساس أنها يرجعان إلى أصل واحد في الخِلقة والولادة ، وأن الميزات القومية والقبليّة والطبقيّة كلّها سدود اجتماعية لا قيمة لها عند الله ، إلّا أن تكون سبباً للتعارف ورفعاً للتناكر ؛ قال سبحانه : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (٢) .

وعند ذلك لا يفقد المجتمع الإسلامي حافز التطبيق والإجراء ، بل يجد من داخله ما يبعثه إلى الأمانة ، دون الخيانة ، والأخوة دون العداوة ، وغير ذلك ممّ يدعو إلى وحدة المجتمع وترابطه وتراضه .

* * *

(١) سورة النحل . الآية ٩٠ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

شواهد إعجاز القرآن

(٦)

الإخبار عن الغيب

الغيب في اللغة العربية يقابل الحضور ، ويضاد الشهود . قال سبحانه :
﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾^(١) .

وفي الحديث النبوي : « لِيُبْلَغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ »^(٢) .

وفي كلام علي عليه السلام : «وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا ، أَشْهُودُ كُفُيَابَ ،
وَعَبِيدُ كَأَرْبَابِ »^(٣) .

وأصول الْمُغَيَّبَاتِ في القرآن ترجع إلى ثلاثة :

الأول : الإخبار عن الله سبحانه ، وأسمائه وصفاته ، والإخبار عن الملائكة
والجن وعالم البرزخ والمعاد وما فيه من نعيم أو جحيم ، والقرآن يموج بهذه المعاني
الغيبية ، التي لا يتعرّف عليها الحسّ ، ولا تقع في أفقه في هذا الظرف .

الثاني : الإخبار عن بعض النواميس السائدة على الكون ، وقد كانت
مغيبية ، عند نزول الوحي ، عن إدراك الحواس المجردة عن الأدوات المخترعة في

(١) سورة الرعد : الآية ٩ .

(٢) مسند أحمد ، ج ٤ ، ص ٣١ و ٣٢ . ومواضع كثيرة أخرى .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ٩٧ .

هذا الزمان ، وهذا ما نبحت عنه في المقام التالي ، وهو إعجاز القرآن من جهة المعارف الكونية المستكشفة حديثاً .

الثالث : الإخبار عن أمم قد خلت من قبل وطويت صفحات حياتها ، فأصبحوا ممّا لا يرى حتى آثار مساكنهم ومواطنهم ، من دون مراجعة إلى كتب السير والتاريخ ، أو سؤال الكهنة والمؤرخين ، وهي القصص الواردة في القرآن الكريم ، التي تشكّل قسماً وافراً من الآيات القرآنية .

وهناك قسم آخر من هذا ، وهو الإخبار عن شؤون البشر في مستقبل أدوارهم وأطوارهم ، والإخبار بملاحم وفتن وأحداث ستقع في مستقبل الزمن ، وهذا ما نتبناه في هذا المقام .

إنّ الإخبار عن المغيبات وعن شؤون البشر في مستقبل أدوارهم وأطوارهم ، وما يلم به من ملاحم وفتن ، إنّ دَلَّ على شيء فإنّما يدلّ على كون القرآن كتاباً سماوياً أوحاه سبحانه إلى أحد سفرائه الذين ارتضاهم من البشر ، لأنّه أخبر عن حوادث كان التّكهنّ والفراسة يقتضيان خلافها ، وصّدق هو في جميع ما أخبر به ، ولم يخالف الواقع في شيء منها . ونحن نأتي هنا بقسم من تلك الإخبارات ، ولا يمكن حملها على ما يحدث بالمصادفة ، أو على كونها على غرار إخبار الكهنة والعرافين والمنجمين . فإنّ كذب هؤلاء أكثر من صدقهم . على أنّ دأبهم هو التعبير عن أحداث المستقبل برموز وكنايات وإشارات ، حتى لا يظهر كذبهم عند التخلّف ويَقْبَلَ كلامهم التأويل ، وهذا بخلاف إخبار القرآن ، فإنّه ينطق عن الأحداث بحماس ومنطق قاطع ، وإليك الأمثلة :

١ - التنبؤ بعجز البشر عن معارضة القرآن

قال سبحانه : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (١) .

(١) سورة الإسراء : الآية ٨٨ . ولاحظ البقرة . الآيتان ٢٣ - ٢٤ ، يونس : الآية ٣٨ ، هود : الآية ١٣ .

ترى في هذه الآية ونظائرها التنبؤ الواثق ، بعجز الجن والإنس عن معارضة القرآن عجزاً أبدياً ، ولكن المستقبل - كما يقال - غَيْبٌ ، لا يملكه النبي ولا الوصي ولا شخص آخر غيرهما . غير أن النبي صار صادقاً في تنبؤة هذا ، ولا يزال صادقاً إلى الحال . فعلى أي مصدر اعتمد هو في هذا التحدي غير الإيحاء إليه ، الذي صَدَرَ عنه أيضاً في جميع تشريعاته ؟ .

٢ - التنبؤ بانتصار الروم على الفرس

قال سبحانه : ﴿ اَلَمْ * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي اَدْنٰى الْاَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ ، اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بَنَصْرَ اللَّهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَ اللَّهُ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) .

ينقل التاريخ أن دولة الروم - وكانت دولة مسيحية - إنهزمت أمام دولة الفرس وهي وثنية ، بعد حروب طاحنة بينهما سنة ٦١٤ م ، فاغتم المسلمون لكونها هزيمة لدولة إلهية أمام دولة وثنية ، وفرح المشركون ، وقالوا للمسلمين بشماتة : إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب وقد غلبهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلبت الفرس الروم .

فعند ذاك نزلت هذه الآيات الكريمة تنبيء بأن هزيمة الروم هذه سيعقبها إنتصار لهم في بضع سنين ، وهي مدة تتراوح بين ثلاث سنوات وتسع . تنبأ بذلك ، وكانت المقدمات والأسباب على خلافه ، لأن الحروب الطاحنة أنهكت الدولة الرومانية حتى غزيت في عقر دارها ، كما يدل عليه قوله : ﴿ في أدنى الأرض ﴾ . ولأن دولة الفرس كانت دولة قوية ، منيعة ، وزادها الإنتصار الأخير قوة ومنعة . ولكن الله تعالى أنجز وعده ، وحقق تنبؤ القرآن ، في بضع سنين ، فانتصر الروم سنة ٦٢٢ م ، الموافقة للسنة الثانية للهجرة .

(١) سورة الروم : الآيات ١-٦ .

وفي الآية تنبؤ آخر ، وهو البشارة بأن المسلمين سيفرحون في الوقت الذي ينتصر الروم فيه ، وقد صدق الله وعده حيث وقع في ذلك الظرف ظفر المسلمين في غزوة بدر الكبرى ، فتحققت النبوءتان في وقت واحد .

٣ - التنبؤ بصيانة النبي عن أذى الناس

قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ، بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

روى الفريقان (٢) أنَّ الآية نزلت يوم الغدير حينما أمر النبي بنصب علي عليه السلام إماماً للناس ، وكان على حذر منهم في تنصيب ابن عمه وصهره للخلافة ، فأخبر الله سبحانه بأنه سيعصمه من أذى الناس وشرهم ، ولا يتمكنون من اغتياله ، وتحقق نبا القرآن ، وصدق الخبر الخبر .

٤ - التنبؤ بالقضاء على العدو قبل لقائه

قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُطْلِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٣) .

نزلت الآيتان قبل لقاء المسلمين العدو في ساحة المعركة ، فأخبر سبحانه عن هزيمة المشركين واستئصال شأفتهم ، ومحقق قوتهم ، كما يدل عليه قوله : ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . . ﴾ .

وليس تنبؤ القرآن بالقضاء على مشركي قريش في معركة بدر منحصرأ بهذه الآية ، بل تنبأ به في آية أخرى ، وهي قوله سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعُ

(١) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

(٢) لاحظ الغدير ، ج ١ ، ص ١٩٤ - ٢١٧ . ووقاية المرام ، ص ٣٣٥ .

(٣) سورة الأنفال : الآيتان ٨ و ٧ .

مُتَّصِرٌ * سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرُ ﴿١﴾ .

فأخبر عن انهزام الكفار وفرارهم عن ساحة الحرب ، وقد تحقق التنبؤ يوم بدر ، وكانت المقدمات والأسباب الطبيعية على خلاف النتيجة ، حيث إن المشركين كانوا تأمّي العدة ووافري العدد ، ولم يكن عدد المسلمين يتجاوز ثلث عدد المشركين ، لكنّه سبحانه حقّق كلمته وصدّق نبأ نبيّه .

٥ - التنبؤ بكثرة ذرية النبي (صلى الله عليه وآله)

قال سبحانه : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (٢) .

الكوثر هو الخير الكثير ، والمراد هنا ، بقرينة قوله : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ ، كثرة ذريته ، ويؤيده أنّ السورة إنّما نزلت ردّاً على من عابه بعدم الأولاد ، فالمعنى أنّه يعطيه نسلًا يتّقون على مرّ الزمان .

قال الرازي : « فانظر كم قُتل من أهل البيت ، ثم العالم ممتلئ منهم ، ولم يبق من بني أمية أجديعاً به ، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء ، كالباقر ، والصادق ، والكاظم ، والرضا ، والنفس الزكية ، وأمثالهم » (٣) .

هذه نماذج من تنبؤات الذكر الحكيم ، أتينا بها ليقف الباحث على معشار ما ورد فيه من التنبؤات الغيبية (٤) .

هذا وقد عرفت أنّ بعض العلماء ، خصّصوا إعجاز القرآن بإخباره عن الغيب ، غير أنّه غير ظاهر بخصوصه ، لأنّ القرآن يتحدّى حتى بسورة واحدة من سوره الكثيرة ، ومن المعلوم أنّه ليست كلّ سورة مشتملة على الأخبار الغيبية .

(١) سورة القمر : الآيتان ٤٤ و ٤٥ .

(٢) سورة الكوثر .

(٣) مفاتيح الغيب ، ج ٨ ، ص ٤٩٨ ، ط مصر .

(٤) ومن أراد استقصاء تنبؤات القرآن فليرجع إلى ما دونه الأستاذ دام ظلّه ، في موسوعته « مفاهيم القرآن » ، ج ٣ ، ص ٣٧٧ - ٥٣٤ .

شواهد إعجاز القرآن

(٧)

إخباره عن الظواهر والقوانين الكونية

لا يصحّ لعارف أن يتجاهل أن القرآن كتاب الهداية والتزكية وليس كتاب العلوم الطبيعية ، يقول سبحانه : ﴿ اَلَمْ * ذٰلِكَ الْكِتٰبُ لَا رَيْبَ فِيْهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِيْنَ ﴾^(١) .

فالقرآن نزل لهداية الناس وسوقهم إلى الحياة السعيدة ، ولم ينزل لتبيين القضايا الطبيعية ، والقواعد الرياضية وما يتعلق بعلم التشريح ، ولا لتبيين خواصّ الأدوية والعقاقير .

ومع ذلك كلّهُ ، ربما يتوقف غرض الهداية - خصوصاً في الدراسات التوحيدية - على إظهار عظمة العالم ودقّة نظمه ، والقوانين السائدة عليه ، فعند ذلك يصحّ لهذا الكتاب الهادي ، إلفات النظر إلى تلك المظاهر والقوانين الكونية .

ومن هذا المنطلق ، نرى أن القرآن أشار إلى رموز سائدة في الكون ، وسنن جارية فيه ، تتطابق مع القضايا العلمية الثابتة - حديثاً - بالحسّ واليقين . وقد كانت تلك السنن مجهولة على الأخصائيين في هذه العلوم ، وأصحاب الحضارات في بلاد الفرس والروم ، وإنما اهتدى إليها العلماء بعد قرون متطاولة من نزول القرآن وذكره لها .

(١) سورة البقرة : الآيتان ١ و٢ .

روي عن ابن عباس أنه قال : « القرآن يُفسَّرُهُ الزَّمان »^(١) .

وهذه الكلمة سواء أصحَّت نسبتها إلى تلميذ الإمام عليّ (عليه السلام) أو لا ، كلمة قيمة ، فإنَّ مرور الزمان وتكامل الحضارات ، يزيد من قدرة الإنسان على استجلاء حقائق القرآن ومعارفه في شتى المجالات .

وما هذا إلَّا لأنَّ القرآن ، كلام الموجود اللامتناهي ، فيجب أن يكون في كلامه أثر من ذاته ، فيكون ذا آفاق وأبعاد لا متناهية ، ويجد الإنسان في كل جيل وعصر ، الشيء الجديد فيه ، الذي غفل عنه الأقدمون ولم يصلوا إليه . وعلى ذلك فلا غرو في أن نجتني نحن من هذه الدوحة المثمرة ، ثماراً لم يجتتها الأولون ، فما أعذب قول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ، في جواب من سأله عن سبب غضاضة القرآن وطراوته في كل عصر ، وأنَّ النُّشْرَ والدراسة لا يزيده إلَّا طراوة : « إنَّ الله تعالى ، لم يجعله لزمانٍ دون زمانٍ ولا لناسٍ دون ناس ، فهو في كل زمان جديد ، وعند كل قوم غضٌّ إلى يوم القيامة »^(٢) .

نعم ، لسنا من المكثرين في تطبيق الآيات القرآنية على فروض متزلزلة ، فإنَّه دخول في المزالق الوعرة ، فسوف تتبدل تلك الفروض بفروض أخرى ، كما لسنا من المتحجرين الجامدين الذين يسدّون باب التعمّق والإمعان في الآية . وإنَّما نسلك في هذا طريقاً وسطاً ، وهو أنَّه إذا تَمَّت دلالة الآية على نظرية علمية ، على ضوء القواعد الأدبية من دون تجسُّم التأويل والتقدير ، وثبتت القضية العلمية ثبوتاً واضحاً حتى عُدَّت من القواعد الموضوعية ، ودخلت في نطاق القوانين العلمية ، كحركة الأرض ودورانها حول الشمس ، والزوجية في النباتات ، وغير ذلك من الأصول العلمية التي أصبحت في عداد البديهيات ، ففي هذه الظروف يصحُّ لنا استنطاق الآية والقضاء بأنَّها تشير إلى ذلك القانون العلمي الثابت .

ولأجل ذلك تأتي في المقام بنهاج في هذا المجال .

(١) حكاه شيخنا المغفور له العلامة الشيخ محمد جواد مغنية عن مفتي موصل العبيدي في كتابه « النواة » .

(٢) البرهان في تفسير القرآن ، للعلامة البحراني ، ج ١ ، ص ٢٨ .

١ - القرآن والجاذبية العامة

اكتشف العالم الإنكليزي نيوتن (ت ١٦٤٢ - م ١٧٢٧) ناموس الجاذبية العامة ، وأثبت به وجود جاذبية بين الكواكب والسيارات ، وحتى في باطن الذرة . وقد كان لاكتشاف هذا القانون في القرن السابع عشر أهمية عظمى ، حتى سمي ذلك القرن باسم كاشفه .

وحاصل ما كشفه أن الأجرام السماوية كلها متجاذبة فيما بينها ولا يشذّ جرم منها عن هذا الأثر العام ، وأنه كلما قربت الأجسام من بعضها ، زادت الجاذبية بينها ، وكلما تباعدت قلت الجاذبية بينها . وعلى ضوء ذلك ، فلو كان القانون السائد هو قانون الجاذبية فحسب ، للزم صيرورة الكون كله كتلة واحدة ، ولكن هناك قوة أخرى مقابلة تحفظ النظام الكوني ، هي قوة طاردة ناتجة عن الفرار من المركز . فالكواكب التي تدور حول الشمس ، تتنازعها قوتان ، قوة جاذبة إلى الشمس ، وقوة طاردة عنها ، ناتجة من دورانها حولها . وفي ظل تعادل هاتين القوتين ، يأخذ النظام الكوني حالة الإستقرار ، وتقع الأجرام الكبيرة في الفراغ من دون ماسك لها .

هذه خلاصة النظرية ، بلفظها البسيط الواضح . وهي نظرية علمية محققة ، هذا .

وبالرجوع إلى آيات الذكر الحكيم والتأمل فيها ، يظهر أن القرآن الكريم ، قد أشار إلى هذا القانون الكوني ، حيث يرى أن السموات مرفوعة في الفضاء بلا عمد مرئية ، يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُدَبِّرُ الْأَيَّاتِ لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءُ رَبَّكُمْ تَوْقِنُونَ ﴾ (١) .

إن الضمير في قوله : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ ، يرجع إلى ﴿ عمد ﴾ لا إلى ﴿ السموات ﴾ ، لقرب الأول وتبعد الثاني ، والمعنى « الله الذي رفع السموات

(١) سورة الرعد : الآية ٢ .

بعمد غير مرئية الخ » . بمعنى : إنّ للسموات عمداً ، ولكن لا ترونها . فما هذه الأعمدة التي يشبها القرآن للسموات ، ولا نراها ؟ . فإذا كانت الجاذبية العامة ، والقوة المركزية الطاردة ، عمد تمسك السموات ، فتكون الآية ناطرة إلى تلكها القوتين المتعاندتين ، ولما جاء القرآن بتعبير عام حتى يفهمه الإنسان في القرون الغابرة والحاضرة ، ولو أقي بما اكتشفه العلم الحديث ، لرُمي القرآن قبل الإكتشاف ، بالخطأ والزلل .

أضف إلى ذلك ما رواه الصدوق ، عن أبيه ، عن الحسين بن خالد ، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام ، قال : قلت له : « أخبرني عن قول الله تعالى : ﴿ . . . رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ » . فقال : « سبحان الله ، أليس يقول : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ؟ » فقلت : « بلى » . فقال : « ثُمَّ عَمَدٌ ، ولكن لا تُرى »^(١) .

وروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : « هذه النجوم التي في السماء مدائن ، مثل المدائن التي في الأرض ، مربوطة كل مدينة إلى عمود من نور » . وفي بعض النسخ : « عمودين من نور »^(٢) .

وعلى كل تقدير فقد اختار القرآن في إلهام هذا الناموس تعبيراً صادقاً في جميع الأدوار ، مفهماً أنّ هذه المعلقات في الفضاء ، تحملها أعمدة غير مرئية ، ممسكة لها .

* * *

٢ - القرآن وكروية الأرض

إنّ في القرآن الكريم آيات صريحة ناطقة بكروية الأرض ، يعرفها من أمعن

(١) البرهان ، ج ٢٢ ، ص ٢٧٨ .

(٢) سفينة البحار ، مادة نجم ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ . وراجع مجمع البحرين ، مادة « كوكب » ، ولعلّ المراد من عمودين ، القوتان الساريتان في الكون ، الجاذبة والطاردة .

فيها . يقول سبحانه : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ ، مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ (٣) .

ومن المعلوم أن الأرض على فرض انبساطها لا تخلو من مشرق واحد ومغرب كذلك ، وإنما تتعدد مشارقها ومغاربها إذا كانت كروية ، فتكون النقاط الشرقية ، غربية لسكنة النقاط الشرقية ، والنقاط الغربية ، شرقية لسكنة النقاط الغربية .

روى زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام قال : سمعته يقول : صحبني رجل كان يسي بالمرغرب ويغلس بالفجر . وكنت أنا أصلي المغرب إذا غربت الشمس ، وأصلي الفجر إذا استبان الفجر . فقال لي الرجل : ما يمنعك أن تصنع مثل ما أصنع ؟ فإنَّ الشمس تطلع على قوم قبلنا وتغرب عنا ، وهي طالعة على قوم آخرين بعد . قال : فقلت : إنما علينا أن نُصلي إذا وجبت الشمس عنا ، وإذا طلع الفجر عندنا ، ليس علينا إلا ذلك ، وعلى أولئك أن يصلوا إذا غربت الشمس ، عنهم (٤) .

والظاهر من الرواية أن الإمام ، ومصاحبه ، كانا يتفقان على كروية الأرض ، وأنَّ الشمس تطلع على قوم قبل أن تطلع على قوم آخرين ، وأنها تغرب عن قوم قبل أن تغرب عن قوم آخرين ، ولو كانت منبسطة لطلعت على الجميع مرة واحدة ، وغربت عن الجميع كذلك غير أنَّ الإمام عليه السلام يعتقد بأنَّ على كل مكلف رعاية مشرقه ومغربيه ، وطلوع الشمس عليه وغروبها عنه ، وليس

(١) سورة الأعراف : الآية ١٣٧ .

(٢) سورة الصافات : الآية ٥ .

(٣) سورة المعارج : الآية ٤ .

(٤) الوسائل ، ج ٣ ، كتاب الصلاة ، الباب ١٣ ، أبواب المواقيت ، الحديث ٢٢ .

طلوعها على قوم وغروبها عنهم ميزاناً له ، ولأجل ذلك جاء في بعض الأحاديث :
« إنّما عليك مشرقك ومغربك »^(١) .

نعم ، كان للفلاسفة الأقدمين نظريات شتى حول شكل الأرض وكرويتها ، وكان الاعتقاد بكرويتها منتشرأ عند ظهور نظرية بطليموس ، غير أنها لم تكن معروفة في الحجاز ، وإنّما كان تفكير الأميين من العرب حول الأرض ، تفكير إنسان بدوي يعيش في الصحراء القاحلة . فالإجهار بهذه الحقيقة في تلك البيئة البعيدة عن الحضارة ، لا يصحّ إلا إذا اعتمد المخبر ، على منطق الوحي .

* * *

٣- القرآن والعالم الجديد

من الأسرار التي كشف عنها القرآن قبل أربعة عشر قرناً ، وجود العالم الذي اكتشفه البحار كريستوف كولمبوس .

قال سبحانه : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾^(٢) .

وقد شغلت الآية بال مفسرين ، ففسروها تارة بمشقي الشمس والقمر ، ومغربيهما ، وأخرى بمشقي الصيف والشتاء ، ومغربيهما . ولكن الظاهر هو الإشارة إلى وجود قارة أخرى ، على الوجه الآخر من الكرة الأرضية ، يلزم شروق الشمس عليها ، غروبها عنّا ، وذلك لقوله سبحانه - حاكياً عن المجرمين يوم القيامة - : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾^(٣) . فالظاهر أنّ المشرقين في الآيتين متحدان أولاً ، وأنّ البعد بينهما أطول مسافة محسوسة للمتمني ثانياً . وليست المسافة بين مشقي الشمس والقمر أو مشقي الصيف والشتاء أطول مسافة محسوسة ، فلا بدّ من أن يكون المراد منها

(١) الوسائل ، ج ٣ ، كتاب الصلاة ، الباب ٢٠ ، من أبواب المواقيت ، الحديث ٢ .

(٢) سورة الرحمن : الآية ١٧ .

(٣) سورة الزخرف : الآية ٣٨ .

المسافة التي ما بين المشرق والمغرب . ومعنى ذلك أن يكون المغرب مشرقاً لجزء آخر من الكرة الأرضية ، ليصحّ هذا التعبير . فالآية تدلّ على وجود هذا الجزء الذي لم يكتشف إلّا بعد مئات السنين من نزول القرآن ، كما أنّ أفراد المشرق والمغرب في قوله سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾^(١) ، لأجل الإشارة إلى المشرق والمغرب المحسوسين لمن يعيش على هذا الوجه من الأرض .

وبالجملة ، إنّ تفسير المشرقين بالمعنى الأول والثاني ، بعيد عن الأفهام العرفية ، وإنّما يختصّ التفسير بهما بالفلكيين الأخصائيين في هذا الفن ، والقرآن ينقله عن المجرم المتمني يوم القيامة .

* * *

٤ - القرآن وحركة الأجرام السماوية

إنّ القرآن المجيد يخبر عن حركة الأجرام السماوية المحدودة ، يقول سبحانه : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾^(٢) .

والفَلَكُ في اللغة العربية - كما صرّح به الراغب في مفرداته - مجرى الكواكب ، وتسميته بذلك لكونه كالْفَلَكِ^(٣) .

وعلى ذلك فالْفَلَكُ ليس بجسم وإنّما هو مدار النجوم .

وقد شبّه سبحانه حركة الشمس والقمر ، بحركة الأسماك في البحار حيث يقول : ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ والسَّبْحُ : المرُّ السريع في الماء ، واستعير لمرّ النجوم في الفلك^(٤) .

(١) سورة البقرة : الآية ١١٥ .

(٢) سورة يس : الآية ٤٠ .

(٣) مفردات الراغب ، مادة فلك ، ص ٣٨٥ .

(٤) مفردات الراغب ، مادة سبح ، ص ٢٢١ .

ولعلّ قوله سبحانه : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ إشارة إلى سباحة النجوم في الفضاء .

يقول سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ لِّإِجْلِ مُسَمًّى ﴾^(٢) .
 والتحديد بقوله : ﴿ لِإِجْلِ مُسَمًّى ﴾ سببه أنّ حركتيهما محدودتان إلى أمد معين ،
 فإذا جاء أمر الله ، ينطوي النظام الكوني ويتبدل . وذلك عندما يخطو العالم خطوته
 نحو الكهولة ، وتستوي فيه الحرارة والبرودة . ففي ذلك الطرف تنتهي صفحة
 الحياة ، ويُطوى كتابها^(٣) .

وما ذكرنا لا يخالف ما ثبت من أنّ الشمس مركز للكواكب ، فإنّ استقرارها
 إستقرار نسبي بالنسبة إلى سائر المجموعة الشمسية ، ولكن هذه المنظومة بعاملتها
 متحركة ، في حركة داخل مجرتّها .

* * *

٥ - القرآن وحركة الأرض

إنّ الهيئة اليونانية كانت تصرّ على مركزية الأرض وسكونها ، وأنّ الشمس
 تدور حول الأرض . وأول من خالف هذه النظرية وكشف حركة الأرض ، العالم
 الإيطالي المعروف « جاليليو » ، كشف عن ذلك بعد أن صنع لنفسه مرصداً
 صغيراً ، ليشهد به حركة الأرض بالدقّة والحسّ .

وقد لقي في كشفه هذا معارضة الكنيسة وملاحقتها ، حتى حكم عليه
 بالإعدام بعدما سجن طويلاً ، ولأجل ذلك كان العلماء يكتمون كشفياتهم خوفاً
 من الكنيسة الرومية .

(١) سورة النازعات : الآية ٣ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٢ .

(٣) لاحظ برهان حدوث المادة الذي أشرنا إليه في الجزء الأول من هذا الكتاب ، ص ٧٣ ، الطبعة الأولى .

ولكن القرآن أشار إلى حركة الأرض بعبارات لم تتضح إلا بعد قرون من الزمن ، وقد جاء ذلك في ضمن آيتين :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ ^(١) فقد استعار للأرض لفظ المهْد الذي يعمل للرضيع ويَهْزُ بهدوء لينام فيه مستريحاً هادئاً . وكذلك الأرض ، مهْدٌ للبشر ، وملائمة لهم من جهة حركتها الوضعية والانتقالية . فكما أَنَّ الغاية من حركة المهْد رعاية الطفل وطمأنينته ، فكذلك الأرض ، فإنَّ الغاية من حركتها اليومية والسنوية ، تربية الإنسان ، بل وجميع ما عليها من الحيوان والنبات والجماد . وإنما أشار إلى الحركة ولم يصرِّح بها ، لأنها نزلت في زمان أجمعت عقول البشر فيه على سكونها ، حتى أنه كان يُعَدُّ مِنَ الضروريات التي لا تقبل التشكيك .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ، وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ ^(٢) .

إنَّ بعض المفسرين يخصَّ الآية بيوم القيامة ، لأنها وردت في سياق آياتها ، فقد ورد قبلها : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ دَاخِرِينَ ﴾ ^(٣) .

ويلاحظ عليه أَنَّ الآية المتقدمة على هذه الآية ، تبحث عن الحياة الدنيوية ، يقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٤) . فتوسَّط الآية الراجعة إلى يوم القيامة ، لا يمنع صلة الآية بالحياة الدنيوية ، إذا كان هناك صلة وتناسب بين الآيات ، هذا .

مع أَنَّ القرائن الموجودة في نفس الآية تؤيِّد خلافه ، أمَّا أوَّلًا : فإنه سبحانه يقول : ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ ، مع أَنَّ يوم القيامة ، يومُ ظهور الحقائق وكشف

(١) سورة طه : الآية ٥٣ .

(٢) سورة النمل : الآية ٨٨ .

(٣) سورة النمل : الآية ٨٧ .

(٤) سورة النمل : الآية ٨٦ .

البواطن ، وليس هناك ظَنُّ وحسبان ، بل كُلُّ ما هنالك إذعان و يقين ، يقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (١) .

وثانياً : فإن الآية تبحث عن الجبال الموجودة ، مع أن يوم القيامة يوم تبدل النظام وتغيره ، يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ، فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ (٤) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ (٥) .

فالكل يدل على زوال النظام بما فيه الجبال ، فكيف تكون الآية ناظرة إلى يوم القيامة ؟ .

وثالثاً : إن قوله سبحانه في ذيل الآية : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ ، دليل على أنه لا صلة للآية بالقيامة ، إذ الصنع يناسب حياتنا الدنيوية ، وأما يوم القيامة ، فهو يوم إيادة نظام الحياة ، فالجبال تتلاشى وتمزق ، فلا يناسبه التركيز على إتقان الصنع .

ورابعاً : فإن قوله في ذيل الآية : ﴿ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، صريح في أن الآية راجعة إلى الحياة الدنيوية ، ولو كانت ناظرة إلى يوم القيامة ، لكان المناسب أن يقول : « خير بما فعلتم » .

(١) سورة ق : الآية ٢٢ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٤٨ .

(٣) سورة طه : الآيتان ١٠٥ و ١٠٦ .

(٤) سورة التكوين : الآية ٣ .

(٥) سورة القارة : الآية ٦ .

فهذه القرائن تؤيد كون الآية راجعة إلى حياتنا الدنيوية .

وأما دلالتها على حركة الأرض ، فلا شك أن حركة الجبال متصلة بحركة الأرض وتابعة لها ، لرسوخها فيها ، وتَشَعُّبُ أصولها في بواطنها ، فحركتها تلازم حركة الأرض . ومعنى الآية : إن الأرض والجبال وما عليها وما فيها ، في حركة مستمرة كحركة السحاب . وأما تخصيص الجبال بالذكر ، فلأجل ما فيها من الوزن والثقل والإرتفاع ، وقدرة الله تسيرها كالسحاب . والقرآن ذكر الجبال لعظمتها وثقلها ، ليبرهن بها على أن قدرة الله نافذة في كل موجود ، ووسعت كل شيء .

وأما تشبيه حركتها بحركة السحاب ، فلإفهام أمرين :

١ - كما أن حركة السحاب تكون بسكون وهدوء ، بدون صخب واضطراب ، فكذلك حركة الجبال تتحقق بسكون وطمأنينة .

٢ - سرعة الحركة ، حيث تتحرك كتتحرك السحاب حين تهب الرياح . فإن حركة السحاب عند هبوب الرياح والعواصف حركة سريعة ، ولأجل ذلك يشبهون مرور الفُرَصِ بمر السحاب ، كما يقولون : « الفرصة تُمرُّ مرَّ السحاب » .

* * *

٦ - القرآن وزوجية الموجودات

إن القرآن يدعو المسلمين عامة إلى التدبّر في الآيات الكونية ، ويجعل ذلك علامة للإيمان ، ويقول :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَتَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ، سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾^(٢) .

(١) سورة الفرقان : الآية ٧٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٩١ .

فالتدبر في الآيات الكونية ، وكشف السنن السائدة عليها ، آية الإيمان ،
ورمز العبودية .

وعلى ذلك ، فَهَلُمَّ نتدبر في أي الذكر الحكيم التي تصف النباتات
بالزوجية .

يقول سبحانه : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
كَرِيمٍ ﴾^(١) .

وفي آية أخرى يُعَمِّم وصف الزوجية إلى جميع الموجودات ، ويقول : ﴿ وَمِنْ
كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾^(٢) .

وقد شغلت الآيتان ، وما ورد في مضمونها ، بال مفسرين . ففسروا
الزوجية في النباتات بالأنواع والأصناف المتشابهة . قال الراغب : « قوله :
﴿ أزواجاً من نبات شتى ﴾ أي أنواعاً متشابهة » .

كما فسروا الزوجية في الموجودات بتركبها من جوهر وعرض ، أو مادة
وصورة ، قال الراغب : « قوله : مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ تنبيه على أنَّ
الأشياء كلها مركبة من جوهر وعرض ، ومادة وصورة ، وأنَّ لا شيء يتعزى من
تركيب يقتضي كونه مصنوعاً ، وأنه لا بدَّ له من صانع ، تنبيهاً على أنه تعالى هو
الفرد ، فبين أنَّ كلَّ ما في العالم زوج ، حيث إنَّ له ضدّاً ، أو مثلاً ما ، أو تركيباً
ما ، بل لا ينفك بوجه من تركيب وإنَّما ذكر هاهنا زوجين ، تنبيهاً على أنَّ الشيء
وإن لم يكن له ضدٌّ ولا مثل ، فإنَّه لا ينفك من تركيب جوهر وعرض ، وذلك
زوجان »^(٣) .

وما ذكره الراغب هو عصاره ما في التفسير ، فترى أنَّ تفسيرهم لا يخرج عن

(١) سورة الشعراء : الآية ٧ . وبهذا المضمون طه : الآية ٥٣ ، ولقيان : الآية ١٠ ، والشعراء :

الآية ٧ ، ويس : الآية ٣٦ ، وق : الآية ٧ ، والرحمن : الآية ٥٣ .

(٢) سورة الذاريات : الآية ٤٩ .

(٣) مفردات الراغب ، مادة زوج ، صفحة ٢١٦ .

كون ملاك الزوجية ، هو وجود الأصناف المتشابهة ، أو التركيب من جوهر وعرض ، أو مادة وصورة ، أو كون الشيء ذا ضد .

وكان في وسع هؤلاء المفسرين ، مكان التفكير فيما ورثوا من العلوم الطبيعية من الأمم السالفة ، سلوك طريق التجربة والإختبار في المختبرات . ولو سلكوا هذا الطريق لربما كشفوا عن الزوجية الحقيقية في عالم النبات .

لقد توصل أحد علماء النبات ، وهو « لينه » ، إلى تلك الحقيقة ، فأعلن أنّ في كل فصل ونوع من أنواع النباتات ذكراً وأنثى ، وأنّ لإنتاج الأثمار رهن هذه الزوجية ، وقد يستقلّ الزوجان عن بعضهما فيحصل اللقاح بينهما بواسطة الريح أو الحشرات كالنحل ، وقد يجتمعان في نبتة واحدة ، وزهرة واحدة ، كما هو مفصّل في الكتب العلمية . وكان لإظهار هذه النظرية ردّ فعل من أصحاب الكنائس ، فأصدروا بياناً حكماً فيه بضلالة كُتبه .

نعم ، كان سكنة المناطق الحارة ملّمين بوجود الزوجية في النخيل ، فأدركوا أنّه إذا لم يُلقح ويُطعم بمادة الذكورية ، لا يثمر ، ولكن الحالة العامة لم تتجاوز هذه المعرفة ، حتى اكتشف ذاك الناموس العام .

وأما في جانب الزوجية في عامة الموجودات ، فقد توصّل العلم إلى أنّ المادة وجود متكاثف من الذرات ، وكل ذرة تشتمل على نواة مكوّنة من جُسيّات تحمل شحنات كهربية موجبة تسمى البروتونات ، وجُسيّات محايدة لا تحمل شحنات كهربية باسم النيوترونات ، ويدور حولها جُسيّات تحمل شحنات كهربية سالبة تعرب بالإلكترونات وعددها يساوي عدد البروتونات لتتعاقل الذرة كهرياً . فذرة الأوكسجين ، مثلاً ، في نواتها ثمانية بروتونات يدور حولها ثمانية إلكترونات .

وقد عبّر القرآن عن هذين الجزئين الحاملين للشحنتين المختلفتين ، بالزوجية ، حتى لا يقع موقع التكذيب والردّ ، إلى أن يكشف الزمان مغزى الآية ومفادها .

وبذلك يتجلّى إعجاز القرآن ، حيث كشف عن هاتين الزوجيتين ، قبل

قرون من الزمن ، في عصر متخلف ، منحط ، تنعدم فيه كل وسائل التجربة والاختبار .

والعجب أن تلميذ النبي الأعظم ، وربيه ، ووصيه ، علي بن أبي طالب عليه السلام ، يفسر الآية بقوله : « مُؤَلَّفٌ بين متعادياتها ، مفرقٌ بين متدانياتها ، دالَّةٌ بتفريقها على مُفَرِّقِها ، وبتأليفها على مُؤَلِّفِها ، وذلك قوله : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَوْحِينَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ »^(١) .

* * *

٧ - القرآن والحياة في الأجرام السماوية

لا يزل التحقيق والبحث مستمراً للتيقن من وجود حياة حيوانية في غير الكرة الأرضية ، بعد أن كشف العلم عن وجود مظاهر للحياة النباتية على بعض الكرات ، هذا . مع أن القرآن الكريم قد أخبر عن وجود الدواب في السموات والأرض بقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ، وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾^(٢) .

والدَّابَّةُ ، عبارة عن كل ما يدب ويتحرك ، وبحكم عود ضمير التثنية (فيهما) إلى السموات والأرض ، نستكشف أن الحياة ليست مقصورة على الكرة الأرضية ، وأنها توجد أيضاً في السموات والأجرام العلوية .

والى ذلك يشير الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله : « هَلِيزِ النُّجُومُ التي في السماء مدائن ، مثل المدائن التي في الأرض »^(٣) .

* * *

(١) التوحيد ، للصدوق ، الباب ٤٣ ، الحديث الثاني ، ص ٣٠٨ . وقد نقله في ص ٣٧ ، باب

التوحيد ونفي التشبيه ، والحديث الثاني عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام .

(٢) سورة الشورى : الآية ٢٩ .

(٣) سفينة البحار ، مادة نجم ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ .

٨ - القرآن ودور الجبال في إثبات القشرة الأرضية

القرآن الكريم يبحث عن أسرار الجبال ، والآثار المترتبة عليها في آيات شتى ، تكشف لنا دورها في ثبات القشرة الأرضية ، وتأثيرها في جريان الأنهار الكبيرة .

قال سبحانه : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ^(١) .

وقال سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَاخِجَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ ^(٢) .

وقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ ^(٣) .
ويستفاد من هذه الآيات أن للجبال دوراً عظيماً في الأمور التالية :

١ - الجبال هي الحافظة لقطعاعات القشرة الأرضية ، تقيها من التفرق والتبعثر ، كما أن الأوتاد والمسامير تمنع القطعاعات الخشبية عن الانفصال .

٢ - الجبال تمنع المواد السائلة الملتهبة الواقعة تحت الأرض ، من الانفجار والإندلاع ، حسب طاقات المواد ، ولولاها لكانت الأرض على غير هذه الصورة ، ولوجدتها إثر الضغط المستمر الناتج بسبب المواد الكامنة في جوفها ، في مَيدان دائم واضطراب ، وإذا كنا نجد في بعض المواضع جبالاً تتدفق منها الحِمَمُ فما ذلك إلا لبلوغ الضغط مبلغاً عظيماً في الشدّة ، يفوق قدرة الجبال ، وتنوء عن تحمّله .

٣ - وجود علاقة بين الجبال وتوفير الماء ، حيث عطف قوله : ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ ، على قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَاخِجَاتٍ ﴾ .

وذلك لأن ارتفاع الجبال يوجب انخفاض الحرارة فيها ، وقلة تأثير الشمس

(١) سورة النحل : الآية ١٥ ولاحظ سورة لقمان : الآية ١٠ .

(٢) سورة المرسلات : الآية ٢٧٧ .

(٣) سورة النبأ : الآيتان ٧٥ و٧٦ .

عليها . فعندئذٍ تجتمع عليها الثلوج ثم تذوب في الفصول الحارة ، وتجري المياه الذائبة على وجه الأرض بهدوء وسكون ، لتشكل بعدها الأنهار والجداول ، ويرتوي منها الإنسان ، ويروي دوابه ومزارعه ، ولولا الجبال لانجذبت المياه إلى باطن الأرض ، ولما استفاد منها الإنسان إلا بالمكائن والأدوات الصناعية المعقدة ، وربما لا تكون الآبار مفيدة ولا تسدُّ حاجة المزارع وعموم الناس من الماء .

هذا بعض ما يرجع إلى فوائد الجبال التي يذكرها القرآن الكريم ، ألمعنا إليها بصورة مبسطة . وأساتذة الفيزياء ، والتضاريس الأرضية ، يفسرون كون الجبال أوتاداً للأرض بشكل علمي خاص ، لا يقف عليه إلا المتخصص في تلك العلوم ، والمطلع على قواعدها ، ولأجل ذلك اكتفينا بما ذكرنا^(١) .

* * *

وفي الختام نؤكد ما سبق في صدر البحث من أن القرآن ليس كتاباً يعالج قضايا العلوم الطبيعية والرياضية والهندسية ، وإنما يتعرض لبعض القوانين السائدة على الكون لأجل الإهداء بها إلى المعارف والأصول العقلية ، كالتعرف على الله وصفاته وأفعاله ، وعلى ذلك فلا يصح لنا الإكثار من هذا النوع من الإعجاز ، وتطبيق الآيات على القوانين الكونية ، حتى وإن لم يكن ظاهراً فيها . فما يرى من الإسراف في بعض التفاسير في هذا المجال ، ليس بمَرْضِيٍّ عند من يقف في تفسير القرآن الكريم على باب النص من نفس الكتاب ، على اختلاف وجوهه وأقسامه ، أو الأثر الماثور من صاحب الشريعة وآله ، صلوات الله عليهم أجمعين .

* * *

(١) ومن أراد التفصيل فليرجع إلى تفسير الأستاذ - دام ظلّه - على سورة الرعد : « القرآن وأسرار الخلقة » . وهو فارسي ، لم يترجم بعد .

شواهد إعجاز القرآن

(٨)

الأخلاق

نزل القرآن الكريم على قلب سيد المرسلين صلى الله عليه وآله ، في عصر الظلمة والجهل ، حيث لم يكن من فضائل الأخلاق ومكارمها ، ذِكْرٌ ولا أثرٌ إلاّ النذر اليسير . ففي ذاك الظرف جاء القرآن مستقصياً للأخلاق الفاضلة ، ومبيناً للأخلاق الرذيلة ، فدعا إلى التزُّين بالأولى ، والإنهاء عن الثانية ، وأقام بذلك أشرف مدرسة أخلاقية زاهرة ، بِجَمَلِ كَلِمِهِ وجواميعها ، ويكفي في ذلك قوله سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَالْبَغْيِ ، يَعْظُمُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ، وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

وفي الآيات التالية اجتمعت أصول أخلاقية عشرة فيها حياة المجتمع ، قال سبحانه : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ،

(١) سورة النحل : الآيتان ٩٠ - ٩١ .

ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا تُكَلِّفُوا نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ .

هذه نماذج من الأصول الأخلاقية الواردة في القرآن الكريم ، وللتوسع مجال ليس هنا موضعه .

نعم ، نرى أن التوراة أَمَرَتْ بني إسرائيل بالحكم بالعدل لأقربائهم ، وَنَهَتْهُمْ عن الحقد على أبناء شعبهم ، وعن السعي بالوشاية وشهادة الزور على أقربائهم وأن يَغْدُرَ أَحَدُهُمْ بِصَاحِبِهِ ، ولكنها شَوَّهَتْ جمال هذه الأصول الأخلاقية ، بتخصيص تعاليمها ببني إسرائيل ، وبتخصيصها بالقرب والشعب والصاحب . وهذا بخلاف القرآن ، فإنه يوجّه خطابه الأخلاقية إلى الناس أجمعين ، من دون فرق بين قوم وقوم ، وعنصر وآخر .

وأما الأنجيل الرائجة ، فقد أفرطت في الدعوة إلى التصوّف البارد ، حتى نهت عن ردع الظالمين بالانتصاف من الظالم ، وقطع مادة الفساد ، بل قالت : «لَا تَقَاوِمُوا الشَّرَّ ، بَلْ مِنْ لَطْمِكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ ، فَحَوِّلْ لَهُ الْآخَرَ أَيْضًا * وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ ، فَاتْرِكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضًا ۖ ۱۱» (٢) .

إنّ للأخلاق القرآنية صبغة خاصة وميزة فريدة ، فلا هي أخلاق يونانية تجعل الغاية من التزین بالأخلاق هي النفع المادي العائد من الإنسان ، كالدعوة إلى إكرام الجار ، حتى لا يسرق متاعاً عند غيابك ، أو يردع الطاغية الظالم عنها . ولا هو أخلاق روحانية بحتة ، لا ترى إلّا ترقية الروح وإسعادها ، وتنسى أنّ البشر مخلوق ممزوج من مادة ومعنى ، وجسم وروح ، ولا تتحقق السعادة إلّا

(١) سورة الأنعام : الآيات ١٥١ - ١٥٣ .

(٢) لاحظ العهد الجديد ، إنجيل متى ، الأصحاح الخامس ، الجملتان ٣٩ و ٤٠ ، ص ٩ ، ط دار الكتاب المقدس .

بإعطاء كلُّ حقّه . بل هي مُثل أخلاقية وسطى ، تضمن سعادة الإنسان في كلا الجانبين .

* * *

هذه ثمانية من الشواهد الدالة بوضوح على أنّ القرآن ليس تَقْوُلاً على الوحي ، ولا نتاج فكر إنسان عادي منقطع عن التعليم الإلهي ، وأنّ هذا الكتاب بهذه المزايا والسمات ، يمتنع أن يقوم به إنسان مهما بلغ في العقل والذكاء ، أو فاق أقرانه وأمثاله من بني البشر ، إلّا أن يكون متصلاً بالوحي السماوي ، مستمداً تعاليمه من خالق البشر .

* * *

المقام الثاني

الإستدلال على نبوته بمعاجزه الآخر

إنَّ أوَّل ما كان الأنبياء يُطالَبون به - كوثيقة تثبت صحَّة مدعاهم ، وصحة إنتسابهم إلى الله تعالى - هو الإتيان بالبيِّنات والمعجزات . وهذا هو القرآن يُحدِّثنا أنَّ صالحاً عليه السلام عندما حَذَّر قومه من سخط الله ، وأخبرهم بأنَّه رسولُهُ إليهم ، طالبوه بالمعجزة قائلين : ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، فَأَتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١) .

وقد جرت سيرة الناس مع النبي الأكرم على ذلك ، حيث طالبوه بالإتيان بالمعاجز في بدء دعوته ، وكان الرسول العظيم يلبي طلباتهم . وبالرغم من كثرة هذه المعاجز التي حفظها الحديث والتاريخ ، أبى بعض من ناوىء الإسلام ، إلّا إنكارها ، والإصرار على أنَّ نبيَّ الإسلام لم يأت بمعجزة سوى القرآن .

إنَّ هذه الشبهة حول معاجز الرسول الأكرم ، نجمت من الكُتّاب المسيحيين ، تقليلاً من أهمية الدعوة المحمَّدية ، وخطأً من شأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم .

فهذا هو « فندر » - القسيس الألماني - يقول في كتابه « ميزان الحق » : إنَّ

(١) سورة الشعراء : الآية ١٥٤ . وقد وردت آيات بهذا المضمون في سور شتى .

محمدآ لم يأت بأية معجزة قط^(١) . وتبعه سائر القساوسة ، ولاكوه بين أشداقهم ، وما زالوا إلى يومنا هذا . وإليك فيما يأتي تفنيد هذه المزعمة بأدلة ثلاثة .

١ - المحاسبة العقلية .

٢ - الرجوع إلى نفس القرآن .

٣ - معاجز الرسل في الحديث والتاريخ .

* * *

الدليل الأول - المحاسبة العقلية

إنّ القرآن الكريم وصف الرسول الأعظم بأنه خاتم الأنبياء ، وأنّ رسالته خاتمة الرسالات ، وكتابه خاتم الكتب^(٢) .

وأخبر عن وقوع معاجز على أيدي الرسل والأنبياء ، فنقل في شأن موسى قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾^(٣) .

كما تحدّث عن المسيح ودعوته ، وبيّناته فقال : ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ، فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخَيِّبُ الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(٤) .

وفي ضوء هذا ، هل يصحّ للقرآن الكريم أن يخبر بهذه المعاجز للأنبياء ، ويصف محمدآ بأنه خاتمهم وآخرهم ، وأفضلهم ، ثم لا يكون له معجزة ؟ وإذا طلبوا منه إظهار الإعجاز ، يتهرب أو يسكت ، أو يقول ليس لي معجزة ؟ .

(١) ميزان الحق ، ص ٢٧٧ . وقد كتبه حول حياة الرسول .

(٢) لاحظ مفاهيم القرآن ، ج ٣ ، ص ١١٨ - ١٨٠ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ١٠١ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ٤٩ .

ولو فرضنا أن النبي الأعظم لم يكن إلا نابعة من النوابع الذين نهضوا لإصلاح أمتهم ، مستترا برداء النبوة ، لما صحَّ له أن يُخبر عن معاجز الأنبياء السالفين ، ثم يصف نفسه بالخاتمية ، ودينه بالأكمالية ، وينكص عن الإتيان بمثل معاجزهم عند الطلب منه .

فالمحاسبة العقلية تحكم ببطلان مزعمة القساوسة ، بل تثبت أن النبي الأعظم قد أظهر معاجز عديدة لقومه عندما طلبوا منه ذلك ، كيف والقرآن يصفه بما لا يصف به أحدًا من أنبيائه ، وهو يقتضي عقلاً أن يكون له أفضل ما أوتي سائر الأنبياء .

* * *

الدليل الثاني - القرآن يثبت للنبي معاجز غير القرآن

إنَّ القرآن يخبر بصراحة عن وقوع معاجز على يدي الرسول الأمين ، وفيما يلي نذكر الآيات القرآنية الواردة في هذا المجال .

١ - انشقاق القمر

قال سبحانه : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ (١) .

أطبق أكثر المفسرين على أنَّ المشركين اجتمعوا إلى رسول الله ، فقالوا : إنَّ كُنْتَ صَادِقًا فَشَقِّ لَنَا الْقَمَرَ فَلَقَّتَيْنِ فقال لهم رسول الله : إِنْ فَعَلْتُ تُؤْمِنُونَ ؟ . قالوا : نَعَمْ . وكان ليلة بدر ، فسأل رسول الله رَبَّهُ أَنْ يعطيه ما قالوا ، فانشق القمر فَلَقَّتَيْنِ ، ورسول الله ينادي : « يا فلان ، يا فلان ، إشهدوا » (٢) .

(١) سورة القمر : الآية ١ - ٤ .

(٢) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ١٨٦ . تفسير الرازي ، ج ٧ ، ص ٧٤٨ ، ط مصر في ثمانية أجزاء ، الكشف ، ج ٣ ، ص ١٨١ .

ومعنى قوله : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ ، أن القيامة قد قربت ، وقرب موعد وقوعها ، والكفار يتصورونها بعيدة ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَأَنْشَقُّ الْقَمَرُ ﴾ ، يدل على وقوع انشقاق القمر ، لأنه فعل ماض . وحمله على المستقبل ، لانشقاق القمر يوم القيامة ، تأويل بلا جهة .

وأما وجه الربط بين الجملتين (اقتراب الساعة وانشقاق القمر) ، فهو أن انشقاقه من علامة نبوة نبينا ، ونبوته وزمانه من أشراط الساعة ، وقد أخبر القرآن عن تحقق هذين الشرطين (ظهور نبي الإسلام ، وانشقاق القمر) وقال : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ ، فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ (٢) .

وفي الآية قريتان على أن المراد ، انشقاق القمر بوصف الإعجاز ، لا انشقاقه يوم القيامة .

الأولى : قوله : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا عَنْهَا ﴾ ، فالمراد من الآية ، الآية المعجزة ، غير الآيات القرآنية ، وذلك لأنه لو كان المراد هو الآيات القرآنية ، لكان المناسب أن يقول : وإن سمعوا آية ، أو نزلت عليهم آية . وعلى هذا تكون الآية المرئية هي انشقاق القمر الذي تقدم ذكره في الآية .

الثانية : أن قوله : ﴿ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ ، يُعَيِّن ظرف هذا الحدث ، وأنه هو هذا العالم المنتظم لا يوم القيامة . إذ لو كان راجعاً إليها ، لما كان لأحد أن يتفوه بغير الحق ، أو يصف فعل الحق بالسحر ، لأن ذلك الظرف ظرف الختم على الأفواه ، واستنطاق الأيدي والأرجل ، قال سبحانه :

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٣) .

(١) سورة المعارج : الآيتان ٦ - ٧ .

(٢) سورة محمد : الآية ١٨ .

(٣) سورة يس : الآية ٦٥ .

فهذا المقطع من الآية يدلّ على أنّ ظرف الإنشقاق كان في زمن الرسول ، ولأجل ذلك اتَّخذ منه المشركون موقفاً متعنّتاً مجادلاً ، وقال قائلهم : « سَحَرَكُمُ ابنُ أبي كبشة »^(١) . وقد كان المشركون يدعون الرسول الأعظم به ، وأبو كبشة من أجداد النبي من ناحية أمه .

٢ - إسراء ومعراج النبي صلى الله عليه وآله

إنّ إسراء النبي ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، أحد المعاجز العظيمة التي أنعم الله سبحانه بها على نبيه ، وأخبر عنها القرآن حيث قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(٢) .

وقد تحقق عبور تلك المسافة الطويلة في زمن قصير ، في ظرف لم يكن يتوفّر فيه شيء مما يتوفّر الآن من وسائل النقل السريعة ، وهذا هو الوجه في إعجازها .

إنّ القرآن الكريم يثبت هذا الإعجاز ، في سورة أخرى أيضاً ، ويدعمها بقوة لا تُبقي في النفس شكاً بها ، ويخبر أنّ رحلة النبي تجاوزت المسجد الأقصى (الوارد في الآية السابقة) إلى سدرة المنتهى^(٣) .

٣ - مباهلة النبي لأهل الكتاب

تعرّض القرآن لقضية المباحلة ، في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾^(٤) .

إنّ قصة المباحلة المذكورة في التفاسير^(٥) ، ومعجزة النبي - وهي حلول

(١) الدرّ المنثور ، ج ٦ ، ص ١٣٣ ، وقد جمع كلمات الصحابة حول شقّ القمر .

(٢) سورة الإسراء : الآية ١ .

(٣) لاحظ سورة النجم : الآيات ٥ - ١٨ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ٦١ .

(٥) تقدمت إليها الإشارة في مباحث النبوة العامة .

العذاب على نصارى نجران - وإن لم تتحقق بسبب انصرافهم عن المباهلة ، إلا أن ذهاب الرسول إلى المباهلة واستعداده لذلك من جانب ، وانسحاب نصارى نجران من خوض معركة التباهل من جانب آخر ، يكشفان عن أن حلول العذاب - بدعاء الرسول - كان حتمياً لو تباهلوا ، فقد أدركوا الخطر وأحسوا بعواقب الموقف ، فتنزلوا وتصالحو .

٤ - طلب المعاجز من النبي (ص) الواحدة تلو الأخرى

إن القرآن الكريم يصرّح بأن النبي كان كلما أتى قومه بآية ، طالبوه بآية أخرى ، وكانوا يصرّون على أن تكون مثل معاجز السابقين ، وهذا يدلّ على أن الرسول أظهر معاجز غير القرآن حتى جاء الطلب منهم بعد الطلب .

قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ ، قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﴾^(١) وليس المراد من ﴿ آيَةٌ ﴾ نفس القرآن ، ولا الآية القرآنية ، لوجهين :

١ - أنها جاءت بصورة النكرة ، وهذا يكشف عن نوع خاص من الآيات .

٢ - لو كان المقصود هو القرآن أو الآية القرآنية ، كان المناسب إلقاء الكلام بنحو آخر بأن يقول بدل المجيء ، « النزول » ، فيقول : « إِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ آيَةٌ » . وعلى هذا فلفظ « آية » ، فيها ، نظيرها في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾^(٢) .

وفي قوله سبحانه حاكياً عن المسيح عليه السلام : ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ . . . ﴾ الآية^(٣) .

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٤ .

(٢) سورة يونس : الآيتان ٩٦ و ٩٧ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٤٩ .

وأما علّة اختلاف الأنبياء في أصناف المعاجز ، فقد قدمنا ذكره في صدر هذا الفصل .

٥ - وصف معاجز النبي بالسحر

إنّ هناك آيات تصرّح بأنّ المشركين كلما رأوا من الرسول آية ، وصفوها بالسحر . قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ وقالوا : إنّ هذا إلاّ سحرٌ مُّبينٌ ﴿ (١) .

إنّ تنكير ﴿ آية ﴾ ، واستعمال ﴿ رأوا ﴾ ، دليلٌ على أنّ المقصود من الآية ، غير القرآن من المعاجز ، وإلاّ لكان المناسب تعريف الآية ، ووصفها بالسماع أو النزول .

وهذه الآية نظير قوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ . . . ﴿ (٢) .

٦ - النبي الأعظم وبيّناته

يشير القرآن الكريم إلى أنّ النبيّ الأعظم بُعث مع البيّنات ، والمراد منها المعاجز ، كما تشهد به الآيات الأخر .

قال سبحانه : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) .

و« البيّنات » جمع « البيّنة » ، وهي الدليل على الشيء ، وربما يحتمل أنّ المراد هو القرآن ، أو البشائر الواردة في الكتب النازلة قبله حول النبي ، ولكن

(١) سورة الصافات : الآيتان ١٤ و ١٥ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٢٥ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٨٦ .

ملاحظة الآيات الأخر التي استعملت فيها هذه الكلمة ، تؤيد أن المراد المعاجز والأعمال الخارقة للعادة .

قال سبحانه : ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾^(١) .

وقال سبحانه : ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾^(٢) .

وقال سبحانه : ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾^(٣) .

وقال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾^(٤) .

إلى غير ذلك مما ورد فيه لفظ البينات ، وأريد منه الأفعال الخارقة للعادة . والظاهر أن المراد منه في الآية السابقة هو نظائر تلك المعاجز .

٧- إخبار النبي عن الغيب ، كالمسيح

إن القرآن المجيد يعدّ إخبار المسيح عليه السلام ، عن المغيبات ، من معاجزه ، في قوله - حاكياً عنه - : ﴿وَأَنبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٥) .

فإذا كان الإخبار عن الغيب ، آية معجزة للمسيح ، فقد أخبر النبي عن المغيبات بكتابه الذي جاء به ، كما تقدم في الشواهد على إعجاز الكتاب .

* * *

الدليل الثالث - معاجز النبي في الحديث والتاريخ

إن كُتِبَ الحديث والتاريخ ، زاخرةً بمعاجز النبي ، التي لا يمكن نقل

(١) سورة البقرة : الآية ٨٧ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٥٣ .

(٣) سورة المائدة : الآية ١١٠ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٣٢ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ٤٩ .

معشارها في هذا الكتاب . وقد قام بعض المحدثين ، بتأليف مفردة في هذا المجال ، أجمعها فيه ما ألفه الشيخ الحرّ العاملي (م ١١٠٤) ، وأسماه بـ « إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات » ، وطبع في ثلاث مجلدات كبار . وقد جمع فيها معاجز النبي من كتب الشيعة والسنة ، جزاه الله عن الإسلام . خير الجزاء .

* * *

مقارنة بين معاجز النبي وغيره من الأنبياء

إنّ أحاديث المسلمين حول معاجز النبي ، تمتاز على روايات اليهود والنصارى حول معاجز أنبيائهم من ناحيتين :

الأولى : قلة الفترة الزمنية بيننا وبين حوادث العهد النبوي ، وكثرتها بيننا وبين حوادث عهود النبيّين موسى وعيسى عليهما السلام ، وغيرهما ، وهذا يوجب الإطمئنان إلى روايات المسلمين أكثر من روايات غيرهم .

الثانية : تواتر الروايات الإسلامية حول معاجز النبي الأكرم وعدمه في الجانب الآخر ، فإنّها تنتهي إلى أفراد قلائل .

ومن أراد الوقوف على معاجز النبي فعليه المراجعة إلى الكتاب الذي أشرنا إليه حتى تتضح مصادر ما ذكره ، ويتبين تواترها إجمالاً ، وإن لم يكن بعضها متواتراً لفظاً^(١) .

* * *

(١) التواتر ينقسم إلى لفظي ومعنوي وإجمالي ، والفرق بينها واضح لمن كان له إلمام بعلم الدراية ، وحاصله أنّ الحديث إذا كان بنصّه متواتراً فهو التواتر اللفظي . وإذا كان كل واحد من الأحاديث غير متواتر نصّاً لكن الجميع يشهد عن قدر مشترك بينها ، كالأخبار الواردة حول سخاء حاتم ، وبطولة الإمام علي ، فإنّ كلّ واحد ، وإن كان لا يتجاوز أخبار الأحاد ، لكن الجميع يتفق في حكاية ساحة الأول ، وشجاعة الثاني ، فهذا الجامع ، متواتر معنى . وأمّا الثالث فهو ما إذا كثرت الأخبار في موضوع ، ونعلم بصدور عدّة منها ، وإن لم يكن كل واحد معلوم الصدور ، كما في المقام ، فإنّ كلّ واحد من الأخبار حول معاجزه وإن كان غير متواتر ، لكن نعلم بصدور البعض قطعاً ، فهو متواتر إجمالاً .

خاتمة المطاف

لقد حصحص الحق ، وثبت لك وقوع المعاجز على يد النبي الأكرم ، سواء معجزته الخالدة أم غيرها من المعاجز الواردة في القرآن ، وكتب الحديث ، والتاريخ . وما ذكرناه كاف في إثبات نبوته ، على وجه لا يدعُ لقائلٍ مقالاً ، ولا لمرتاب شكاً وريباً .

وقد عرفت في صدر الفصل أن للتعرف على صدق مدّعي النبوة طرقاً ثلاثة :

الأول : التحدي بالمعاجز .

الثاني : تنصيب النبي السابق على نبوة النبي اللاحق .

الثالث : جمع القرائن والشواهد القاضية بصدق المدّعي .

وقد فرغنا من سلوك الطريق الأول ، وفيما يلي نسلك الطريق الثاني .

* * *

الطريق الثاني لإثبات نبوة نبي الإسلام

بشائر خاتم الرسل في العهدين

إنَّ النبيَّ الأكرمَ صلى الله عليه وآله وسلَّم ، كان يَحْتَجُّ على اليهود والنصارى ، بأنَّه قد بُشِّر به في العهدين ، وأنَّ الكليم والمسيح بشراً برسالته ، وأنَّ أهل الكتاب لورجعوا إلى كتبهم - حتى بعد التحريف - لوجدوا بشائره فيها ، وتعرَّفوا عليه ، كتعرَّفهم على آبائهم . كان يَحْتَجُّ بهذه الكلمات ؛ ولم يكن هناك أيُّ ردٍّ من الأخبار والرهبان في مقابله ، بل غاية جوابهم كان السكوت وإخفاء الكتب ، وعدم نشرها بين أتباعهم .

ولو كان النبي الأكرم غير صادق - والعياذ بالله - في هذا الإدعاء ، لثارت ثورتهم عليه ، ولملأوا الأجواء والطوامير بنقده وردِّه ، غير أنَّ صراحة النبي وصموده أمام علمائهم بشدَّة ، يكشف عن انهزام العدو أمام ذلك الإدعاء .

يقول القرآن الكريم : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ، يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا لَّيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٢) .

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٦ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

ويقول : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ ﴾ (١) .

ثم إن علماء المسلمين في الأعصار السابقة نقبوا في العهدين ، وجمعوا البشارات الواردة فيها . ونُقلُ هذه البشائر ، يوجب الإسهاب في الكلام والخروج عن وضع الكتاب ، ونكتفي في ذلك بهذه البشارة التي تكشف عنها الآية الأخيرة ، فإن فيها تنصيب على الاسم مكان التنصيب على الصفات ، وهذه الإشارة وردت في إنجيل يوحنا في الأصحاحات : الرابع عشر ، والخامس عشر ، والسادس عشر . وإليك نصوصها من الإنجيل الحالي المترجم إلى اللغة العربية :

١ - ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونِي فَاحْفَظُوا وصَايَايَ ، وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الْآبِ فَيُعْطِيَكُمْ مُعْزًى آخِرَ لِيَمَكِّتَ مَعَكُمْ إِلَى الْأَبَدِ ﴾ (٢) .

٢ - ﴿ وَأَمَّا الْمُعْزَى ، الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي ، فهو يعلمكم كل شيء ، ويدرككم بكل ما قُلْتُهُ لَكُمْ ﴾ (٣) .

٣ - ﴿ وَمَتَى جَاءَ الْمُعْزَى الَّذِي سَأَرْسِلُهُ أَنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الْآبِ رُوحَ الْحَقِّ الَّذِي مِنْ عِنْدِ الْآبِ يَنْبَشِقُ ، فَهُوَ يَشْهَدُ لِي وَتَشْهَدُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا لِأَنَّكُمْ مَعِيَ مِنَ الْإِبْتَدَاءِ ﴾ (٤) .

٤ - ﴿ لَكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ الْحَقَّ ، إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لَا يَأْتِيَكُمْ الْمُعْزَى ، وَلَكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أَرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ * وَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُبَكِّتُ الْعَالَمَ عَلَى خَطِيئَةٍ وَعَلَى بَرٍّ وَعَلَى دِينُونَةٍ ﴾ (٥) .

٥ - ﴿ وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ ، رُوحَ الْحَقِّ ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ ، لِأَنَّهُ

(١) سورة الصف : الآية ٦ .

(٢) إنجيل يوحنا ، الأصحاح الرابع عشر : الجملتان ١٥ و ١٦ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٣) إنجيل يوحنا ، الأصحاح الرابع عشر : الجملة ٢٦ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٤) إنجيل يوحنا ، الأصحاح الخامس عشر : الجملة ٢٦ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٥) إنجيل يوحنا ، الأصحاح السادس عشر : الجملتان ٧ و ٨ ، ط دار الكتاب المقدس .

لا يتكلم من نفسه بل كل ما يَسْمَع ، يتكلم به ، ويخبركم بامور آتية ﴿١﴾ .

وجه الإستدلال يتوقف على بيان نكتة ، وهي أن المسيح عليه السلام ، كان يتكلم بالعبرية ، وكان يعظ تلاميذه بهذا اللسان ، لأنه وُلِدَ وَشَبَّ بين ظهرانيهم ، وأُمُّه أيضاً كانت عبرانية ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر ، إنَّ المؤرِّخين أجمعوا على أنَّ الأناجيل الثلاثة غير متي ، كتبت من أوَّل يومها باللغة اليونانية ، وأما إنجيل متى فكان عبرياً من أوَّل إنشائه .

وعلى هذا ، فالمسيحُ بَشَرٌ بما بَشَرُ باللغة العبرية أولاً ، وإنما نقله إلى اليونانية ، كاتب الإنجيل الرابع « يوحنا » وكان عليه التحفظ على لفظ المسيح في مورد المُبَشِّر به ، لأنَّ القاعدة الصحيحة ، عدم تغيير الأعلام ، والإتيان بنصِّها الأصلي ، لا ترجمة معناها . ولكن « يوحنا » لم يراع هذا الأصل ، وترجمه إلى اليونانية ، فضاع لفظه الأصلي الذي تكلم به المسيح ، وفي غِبِّ ذلك حصل الإختلاف في المراد منه .

وأما اللفظ اليوناني الذي وضعه الكاتب « يوحنا » مكان اللفظ العبري ، فهو مردد بين كونه « پاراقليطوس » ﴿٢﴾ الذي هو بمعنى المُعَزِّي والمُسَلِّي والمعين والوكيل ، أو « پريقليطوس » ﴿٣﴾ الذي هو بمعنى المحمود ، الذي يرادف أحمد . ولأجل تقارب الكلمتين في الكتابة والتلفظ والسمع ، حصل التردد في المُبَشِّر به . ومُفَسِّرُوا و مترجموا إنجيل يوحنا ، يصرون على الأول ، ولأجل ذلك ترجموه إلى العربية بـ « المعزِّي » ، وإلى اللغات الأخرى بما يعادله ويرادفه ، وادَّعوا أنَّ المراد منه هوروح القدس ، وأنه نزل على الحواريين في اليوم الخمسين بعد فقدان المسيح ، كما دُكِرَ تفصيله في كتاب أعمال الرسل ﴿٤﴾ . وزعموا أنَّهم بذلك خلعوا

(١) إنجيل يوحنا ، الأصحاح السادس عشر : الجملة ١٣ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٢) في اليونانية هكذا : ΠΑΡΑΚΛΗΤΟΣ . وبالأفرنجية هكذا : Paracletos .

(٣) في اليونانية هكذا : ΠΕΡΙΚΛΗΤΟΣ . وبالأفرنجية هكذا : Pericletos .

(٤) أعمال الرسل ، الأصحاح الثاني : الجملات ١ - ٤ ، يقول : ﴿ ولما حضر يوم الخمسين كان ، =

المسلمين عن السلاح الذي كانوا يحتاجون به عليهم .
ومع ذلك ، فهناك قرائن تلقي الضوء على أن المُبشِّر به هو الرسول الأعظم ، لا روح القدس ، وإليك تلك القرائن :

١ - إن المسيح بدء خطابه إلى تلاميذه بقوله : ﴿ إن كنتم تحبونني ، فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الأب فيعطيكُم « معزياً » آخر ، ليمكث معكم إلى الأبد ﴾ .

وهذا الخطاب يناسب أن يكون المُبشِّر به نبياً ، لأن المسيح يحتمل - في هذا الكلام - أن يتخلف عدّة منهم عن اقتفاء أثره ودينه ، ولذلك أثار عواطفهم في هذا المجال لئلا يتخلفوا . ولو كان المراد منه روح القدس لما احتاج إلى تلك المقدمة ، لأن تأثيره في القلوب تأثير تكويني لا يمكن لأحد التخلف عنه ، ولا يبقى في القلوب معه شك ، وهذا بخلاف تأثير النبي فإنه يؤثر ببيانه وكلامه في القلوب والأرواح ، وهو يختلف حسب اختلاف طبائع المخاطبين واستعدادهم .

ولأجل ذلك أصرّ على إيمانهم به في بعض خطباته وقال : ﴿ وقلت لكم الآن قبل أن يكون ، حتى متى كان تؤمنون ﴾ (١) .

٢ - إنه وصف المُبشِّر به بلفظ « آخر » ، وهذا لا يناسب كون المبشر به نظير روح القدس لعدم تعدده ، وانحصاره في واحد ، بخلاف الأنبياء فإنهم يجيئون واحداً بعد الآخر ، في فترة بعد فترة .

٣ - إنه ينعت ذلك المبشر به بقوله : ﴿ لِيَمْكُثَ معكم إلى الأبد ﴾ وهذا يناسب نبوة النبي الخاتم التي لا تُنسخ .

= الجميع معاً نفس واحدة ، وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة ، وملاً كل البيت حيث كانوا جالسين ، وظهرت لهم السنة منقسمة كأنها من نار ، واستقرت على كل واحد منهم ، وامتأ الجميع من الروح القدس وابتدأوا يتكلمون بالسنة أخرى ، كما أعطاهم الروح أن ينطقوا ﴾ . وسيافيك عند التحليل أنه لم يتحقق في يوم الدار هذا كل ما ذكره المسيح ومنه قوله : « يبكت العالم على خطيئة الخ . . » .

(١) إنجيل يوحنا ، الأصحاح الرابع عشر : الجملة ٢٩ ، ط دار الكتاب المقدس .

٤ - إنه يقول : ﴿ وَأَمَّا « المعزّي الروح القدس » الذي سيرسله الأب باسمي ، فهو يعلمكم كل شيء ، ويذكركم بكل ما قلته لكم ﴾ وهذه الجملة تناسب أن يكون المبشر به نبياً يأتي بعد فترة من رسالة النبي السابق بعد أن تصير الشريعة السابقة على وشك الإضمحلال والإندثار . فيأتي النبي اللاحق ، يذكر بالنسي ، ويزيل الصدا عن الدين .

وأما لو كان المراد هو روح القدس فقد نزل على الحواريين بعد خمسين يوماً من فقد المسيح ، حسب ما ينص عليه كتاب أعمال الرسل^(١) . أفيظن أن الحواريين نسوا في هذه المدة اليسيرة معالم المسيح وتعاليمه حتى يكون النازل هو الموعود به ١٩ .

٥ - ويصف المسيح المبشر به ، بقوله : ﴿ فهو يشهد لي ﴾ . وهذه العبارة تناسب أن يكون المبشر به هو النبي الخاتم حيث بُعث مُصَدِّقاً للشرائع السابقة والكتب السالفة ، وقد أمره سبحانه أن يخاطب أهل الكتاب بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾^(٢) ، وغير ذلك . ومن المعلوم أن الرسول الأكرم شهد برسالة المسيح ، ونزّه أمه وابنها ، عن كل عيب وشين ، وردّ كل ما ألصق بهما من جهلة اليهود من التهم التافهة . وهذا بخلاف ما إذا فُسِّرَ بروح القدس ، إذ لم يكن للمسيح يومذاك أي حاجة لشهادته ، ودينه وشريعته بعد غضبان طريان .

٦ - إنه يقول : ﴿ لأنه إن لم انطلق ، لا يأتيكم « المعزّي » ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ﴾ . وهذا يناسب أن يكون المبشر به نبياً ، حيث علّق مجيئه بذهابه ، لأنه جاء بشريعة عالمية ، ولا تصحّ سيادة شريعتين مختلفتين على أمة واحدة .

ولو كان المبشر به هو روح القدس ، لما كان لهذا التعليق معنى ، لأن روح

(١) أعمال الرسل ، الأصحاح الأول : الجملة ٥ . والأصحاح الثاني : الجملات ١ - ٤ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٢) سورة النساء : الآية ٤٧ .

القدس حسب تصريح إنجيلي متى ولوقا ، نزل على الحواريين عندما بعثهم المسيح للتبشير والتبليغ^(١) .

٧ - ويقول : ﴿ ومتى جاء ذاك يُبَكَّتْ العالم على خَطِيئَةٍ ، وعلى بَرٍّ ، وعلى دينونة . . . ﴾ . وهذا يؤيد أن يكون المُبَشِّر به نبيّاً ، إذ لو كان المراد هو روح القدس ، فهو نزل في يوم الدار على الحواريين حسب زعمهم ، فما وَبَّخ اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلاً ، لعدم رؤيتهم إيّاه . ولم يوبخ الحواريين ، لأنهم كانوا مؤمنين به .

٨ - ويقول : ﴿ ومتى جاء ذاك ، روح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمر آتية ﴾ .

وهذا يتناسب مع كون المُبَشِّر به نبيّاً خاتماً ، صاحب شريعة متكاملة ، لا يتكلم إلّا بما يوحى إليه ، وهذه كلّها صفات الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

فجميع هذه القرائن تشهد بوضوح على أنّ المراد من « المعزي » المُبَشِّر به ، هو النبي الأكرم لا روح القدس ، ولو أمعنت النظر في سائر القرائن التي ذكرها المحققون من المسلمين في تفسير هذا اللفظ ، لعالت القرائن^(٢) .

غير أنّ البشارات لا تنحصر بذلك بل هي موجودة في العهدين ، واستقصاء البحث وجمعها ، يستدعي تأليف كتاب منفرد حافل ، إلّا أنّنا نلفت إلى نقطة وهي :

إنّ الكتاب الذي جاء به المسيح كان كتاباً واحداً ، وهو عبارة عن هديّته

(١) لاحظ إنجيل متى : الأصحاح العاشر ، الجملة الأولى فيما بعدها . وإنجيل لوقا : الأصحاح العاشر ، الجملة ١١ ، وفيها : ﴿ ولكن إعلموا هذا : إنه قد اقترب منكم ملكوت الله ﴾ .

(٢) من أراد التفصيل فعليه الرجوع إلى كتاب أنيس الأعلام في نصرة الإسلام ، ج ٥ ، ص ١٣٩ - ١٧٢ .

وبشارته بمن يجيء بعده ، ليتم دين الله الذي شرعه على لسانه وألسنة الأنبياء من قبله ، فكان كل منهم يبين للناس منه ما يقتضيه استعدادهم ، وإنما كثرت الأناجيل لأن كل من كتب سيرته سماه إنجيلاً ، لاشتغاله على ما بشر وهدى به الناس ، ومن تلك الأناجيل إنجيل « برنابا » . و« برنابا » حوري من أنصار المسيح الذي يلقبهم رجال الكنيسة بالرُّسل ، صحبه « بولص » زمناً ، بل كان هو الذي عرّف التلاميذ ببولص ، بعدما اهتدى بولص ورجع إلى أورشليم ، ولم يكن من هذا الإنجيل أثر في المجتمع المسيحي حتى عثروا في أوروبا على نسخة منذ قرابة ثلاثة قرون ، وهذا هو الإنجيل الذي حرم قراءته « جلاسيوس الأول » في أواخر القرن الخامس للميلاد .

وهذا الإنجيل يبين الأناجيل الأربعة في عدة أمور :

- ١ - ينكر ألوهية المسيح وكونه ابن الله .
 - ٢ - يعرف الذبيح بأنه اسماعيل لا إسحاق .
 - ٣ - أن المسيح المنتظر هو « محمد » ، وقد ذكر « محمد » باللفظ الصريح المتكرر في فصول ضافية الديول .
 - ٤ - أن المسيح لم يصلب بل حُمِل إلى السماء ، وأن الذي صلب إنما كان يهوذا الخائن . فجاء مطابقاً للقرآن .
- ومن أراد الوقوف على بشائر هذا الإنجيل بوضوح ، فعليه بالرجوع إليه^(١) .

* * *

(١) وقد قام بترجمته من الإنكليزية الدكتور خليل سعادة ، وقدم له مقدمة نافعة ، وطبع في مطبعة المنار بتقديم السيد محمد رشيد رضا أيضاً ، عام ١٣٢٦ هـ ، ١٩٠٨ م .

الطريق الثالث لإثبات نبوة نبي الإسلام

القرائن الدالة على نبوة الرسول الأعظم

قد ذكرنا فيما تقدّم أنّ من الطرق التي يستكشف بها صدق دعوى المدّعي للنبوة ، شهادة القرائن الداخلية والخارجية .

وهذا الطريق متين يستخدم في المحاكم القضائية في هذا العصر ، لتبيين صدق المدّعي والمنكر أو كذبهما ، والتوصّل إلى كنه الحوادث^(١) . ولكنه لا يختصّ بالمحاكم ، بل يمكن تعميمه إلى مسائل مهمّة ، منها إثبات صدق دعوى المتنبّي^(٢) .

وأصول هذه القرائن في المقام عبارة عن الأمور التالية :

- ١ - سيرته النفسية والخلقية قبل الدعوة وبعدها .
- ٢ - الظروف التي فيها نشأ وتربّى وأدّعى النبوة .
- ٣ - المفاهيم التي تبناها ودعا إليها .
- ٤ - الأساليب التي اعتمدها في نشر دعوته .

(١) والفرق بين هذا المقام وما ذكرنا من الشواهد ، هو أنّ الغاية من جمع الشاهد فيما مضى ، إثبات كون القرآن كتاباً سهاوياً ، ولكن الغاية من جمع القرائن في المقام إثبات كون حامله رسولاً إلهياً ، لا مصلحاً اجتماعياً .

(٢) وقد ذكرنا في النبوة العامة أنّ قبصر الروم هو أول من اعتمد هذا الأسلوب ، وتبعه من أتى بعده .

٥ - شخصية أتباعه الذين آمنوا به ولزموه وصحبوه .

٦ - ثباته في سبيل أهدافه ، وصموده في دعوته .

٧ - أثر رسالته في تغيير البيئة التي ظهر فيها .

ومن هذه القرائن يمكن أن يستنتج صدق الدعوى على وجهه ، وكذبها على وجه آخر ، ولا ندعي اختصاص القرائن بها ، بل يمكن للممعن في رسالته ، وحياته ، استخراج قرائن أخرى ، يستدل بها على صدق دعواه ، وإليك بيانها ، واحدة بعد أخرى .

* * *

القرينة الأولى - سيرته النفسية والخلقية قبل الدعوة وبعدها

نشأ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في أرفع بيت من بيوت قريش ، وأعلىها كعباً ، وأشرفها شأنًا . فسيرة جدّه عبد المطلب ، وعمّه أبي طالب ، في الكرم والسخاء وإغاثة الملهوفين ، وحماية الضعفاء ، معروفة في التاريخ والسير .

وأما سيرة النبي الأكرم ، فكفى في إشرافها أنه كان يُدعى بـ « الأمين » ، وكان محل ثقة واعتماد العرب في فضّ نزاعاتهم . فالتاريخ يروي أنه لولا حنكة الرسول في حادثة وقعت بين العرب في مكة ، وإجماعهم على قبول قضائه ، لسانت دماؤهم وهلكت نفوسهم . وذلك أنهم لما بلغوا في بناء الكعبة - التي هدمها السيل - موضع الركن ، اختصموا في وضع الحجر الأسود مكانه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحالفوا واستعدّوا للقتال ، ففُزّبت بنو عبد الدار جُفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عُدّي على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة . فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ، تفكّر في تحلّص من هذه الورطة .

ثم إنَّ أبا أمية ابن المغيرة ، الذي كان أسن قريش كلها ، اقترح عليهم اقتراحاً ، قال : « يا معشر قريش ، إجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أوّل من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضي بينكم فيه » . ففعلوا . فكان أول داخل

عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما رأوه قالوا : « هذا « الأمين » ،
رضينا ، هذا محمد » ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال صلى الله عليه وآله :
« هَلَمْ ثوباً » ، فأتى به . فأخذ الركن ، فوضعه فيه بيده . ثم قال : « لتأخذ كلَّ
قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً » . ففعلوا . حتى إذا بلغوا به موضعه ،
وضعه هو بيده ، ثم بنوا عليه كما أرادوا .

وقد أنشد هبيرة بن وهب المخزومي هذه الحادثة بأبياتٍ ، منها :
رضينا وقلنا : العدلُ أوَّلُ طالعٍ
يجيء من البطحاء من غير موعدٍ
ففاجأنا هذا الأمين محمد
فقلنا : رضينا بالأمين محمدٍ
بخير قریش كلِّها أمس شيمة
وفي اليوم مع ما يحدث الله في غدٍ
فجاء بأمر لم ير الناس مثله
أعمُّ وأرضى في العواقب والبدِ
وتلك يد منه علينا عزيمة
يروب لها هذا الزمان ويعتدي^(١)

هذه لمحة موجزة عن خلقه وسيرته المحمودة المعروفة بين الناس ، وقد
احتفظ بها صاحب الرسالة بعد بعثته ، وبعد غلبته على أعدائه الألداء ، حتى في
نصره النهائي حين فتح مكة ودخل صناديد قریش الكعبة ، وهم يظنون أنَّ السيف
لا يرفع عنهم ، فأخذ رسول الله بباب الكعبة ، وقال : « لا إله إلا الله ، أنجز
وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَغَلَبَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ » . ثم قال : « ما تظنون » ؟ .
فأجابت قریش « نظن خيراً ، أخ كريم » . فقال : « فَإِنِّي أقول لكم كما قال أخي
يوسف : ﴿ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ ، ص ١٩٢ - ١٩٩ . لاحظ الكافي للكليني ، ج ٤ ،
ص ٢١٧ - ٢١٨ .

الرَّاحِمِينَ ﴿١﴾ « (٢) » .

والعجب أن الذين أحاطوا ببيته ليلة الهجرة ، وهموا باغتياله ، وإراقة دمه ، كانت أموالهم بين يديه ، وأمانةً عنده ، فلأجل ذلك لما همَّ بالخروج من البيت والهجرة إلى المدينة ، أمر علياً أن يقيم صارخاً ، يهتف بالأبطح ، غدوة وعشيّاً : « من كان له قِبَل محمدٍ أمانة أو ودِعة ، فليأت ، فلتؤدَّ إليه أمانته » ١ .

فأقام عليٌّ بمكة ثلاث ليالٍ وأيامها حتى أدّى عن رسول الله صلى الله عليه وآله الودائع التي كانت عنده للناس (٣) .

ومن ظريف أخلاقه عفوه عن العدو الغادر ، الذي أراد قتله ، بمجرد التجائه إليه :

فقد نقل أصحاب المغازي أنه في إحدى الغزوات ، ذهب النبي الأكرم لحاجته ، فأصابه المطر ، فبلَّ ثوبه ، فنزعه صلى الله عليه وآله ونشره ليجف ، فألقاه على شجرة ، ثم اضطجع تحتها . فرآه العدو وحيداً بعيداً عن أصحابه ، فاخترأ أحدهم سيفاً صارماً ، ثم أقبل حتى قام على رأس النبي بالسيف المشهور ، فقال : « يا محمد ، من يمنعك مني اليوم ؟ » .

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « الله » .

عندئذٍ وقع السيف من يده فأخذه الرسول الأكرم وقام به على رأسه فقال : « من يمنعك مني اليوم ؟ » .

قال : « لا أحد » . ثم قال : « فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والله لا أكثُرُ عليك جمعاً أبداً » .

فأعطاه رسول الله سيفه ، ثم أدبر الرجل ، ثم أقبل بوجهه ، فقال : « أما والله ، لأنت خير مني » .

(١) سورة يوسف : الآية ٩٢ .

(٢) بحار الأنوار ، ج ٢١ ، ص ١٣٢ ، وغيره من المصادر المتوفرة .

(٣) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٤٩٣ . البحار ، ج ١٩ ، ص ٦٢ .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أنا أحقّ بذلك منك »^(١) .

هذه نبذة يسيرة من سيرته الحميدة المعترف بها عند الصديق والعدو ، ولو أردنا الإسهاب لاحتجنا إلى تأليف رسالة حافلة ، في أدبه وخلقه وسيرته ، ولأجل ذلك إعتد قيصر في استنطاقه أبا سفيان ، على تلك السيرة ، وجعلها جزءاً من القرائن التي استفاد منها كونه صادقاً في دعوته^(٢) .

* * *

القرينة الثانية - الظروف التي فيها نشأ وادعى النبوة

كان العرب الجاهليون يضمّون إلى صفاتهم الحسنة من سخاء في الطبع وإكرام للضيف ، وصيانة للأمانة وإلتزام بالعهود ، صفات ذميمة وأخلاق رذيلة ، وعادات قبيحة ، وعقائد خرافية .

فالصورة العامة التي يمكن رسمها عنه ، أنه كان مجتمعاً غارقاً إلى آذانه في عبادة الحجارة والأوثان ، والفساد الذريع في الأخلاق ، يظهر في شيوخ القمار والزنا ، وواد البنات ، وأكل الميتة ، وشرب الدم ، والغارات الثأرية ، وتغيير الأشهر الحرم ، وغير ذلك من التقاليد والأعمال السيئة التي نقلها المؤرخون ، ولا حاجة للتفصيل^(٣) .

هذه هي عقائدهم وتقاليدهم ، وعاداتهم ، والنبى الأكرم وليد هذه البيئة المتدهورة ، نشأ وترعرع فيها ، وقضى أربعين عاماً بينهم ، فإذا به قد بعث بأصول وآداب ومعارف ، تضاد ما كان سائداً في تلك البيئة . فلو كان هو في تعاليمه ، مستمداً من بيئته ، لكان قد تأثر بها وُلُو في بعض هذه الصفات والتقاليد .

إنه ليس من الغريب أن تنبت الأرض الخصبة ، الأشجار النضرة والأزاهير

(١) المغازي للواقدي ، (م ٢٠٧) ، ج ١ ، ص ١٩٥ ، ط أكسفورد .

(٢) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ ، حوادث السنة السادسة للهجرة .

(٣) لاحظ للوقوف على تاريخ العرب الجاهليين ، « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » للشيخ الألوسي (م ١٢٧٠) . وتاريخ العرب للكاتب د . علي جواد ، في عشرة أجزاء . وغير ذلك .

والرياحين ، وإنما العجب أن يَنْبُتَ كل أولئك من أرض مجدبة قاحلة ، يلقي عليها شبح الموت ظلالة السوداء ، وهكذا كانت شريعة محمد صلى الله عليه وآله في البيئة التي ظهرت فيها .

* * *

القرينة الثالثة - المفاهيم التي تبناها ودعا إليها

جاء الرسول الأعظم بمفاهيم راقية في جميع شؤون الحياة البشرية وشجونها .

فدعا إلى التوحيد ، ونبذ الوثنية ، وتنزيهه سبحانه عن كل نقص وعيب ، فَعَرَفَ الإله الخالق سبحانه ، بقوله : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِيءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ .

وأين هذا من مفاهيم الشرك والوثنية التي كانت سائدة في ذلك الزمن .

وجاء بمفاهيم سامية حول الحياة الأخروية ، فَقَرَّرَ أَنَّ الموت ليس بمعنى ختم الحياة ، وإنما هو نافذة للحياة الأبدية ، التي يحياها الإنسان بسعادة أو تعاسة ، بحسب أعماله الحسنة أو السيئة ، وأين هو من قولهم : ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ، وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ ﴿٢﴾ .

وفي حقل الأخلاق والتعاون والتآلف الإجتماعي ، زرع في محيط البغضاء والشحناء ، بذور المحبة والمواساة ، وجعل أبناء المجتمع الواحد أخوة في الدين ، متعاضدين ، متعاونين ، كأَنَّهُمْ جسد واحد ، فقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ﴿٣﴾ .

(١) سورة الحشر : الآيات ٢٢ - ٢٤ .

(٢) سورة الجاثية : الآية ٢٤ .

(٣) سورة الحجرات : الآية ١٠ .

وأرسي أركان الإحسان والعدالة الإجتماعية ، وكافة أصول الشخصية الإنسانية الفاضلة . وحذّر من الفواحش والبغي والعدوان ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وأين هذا من أقبح الممارسات الأخلاقية الرائجة ، ومفاهيم الثأر والعصبية والانتقام المحقونة في نفوسهم ، والتي خلّفت حروباً طاحنة ، بين القبائل العربية ، منها حرب الأوس والخزرج التي دامت قرابة مائة وعشرين سنة .

يقول ابن خلدون : « العرب الجاهليون ، بطبيعة التوحش الذي فيهم ، أهل انتهاب وعيث ، ينتهبون ما قدروا عليه ، وكان ذلك عندهم ملذوذاً . فطبيعتهم إنتهاب ما في أيدي الناس ، وأنّ رزقهم في ظلال رماحهم ، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حدّ ينتهون إليه ، بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون ، إنتبهوه » (٢) .

وفي الحقل الإقتصادي ، جاء بأصول ومفاهيم بنى عليها بنياناً محكماً من التشريعات الإقتصادية ، في مختلف أبواب المعاملات .

فمن ذلك أنّه نادى بحرمة الرّبا الذي كان الشغل الشاغل في الجزيرة العربية ، حتى أنّ ثقيف طائف لما أسلموا طلبوا من الرّسول أن يكتب لهم كتاباً يُحلّ لهم فيه الربا والزّنا ، فلما جاء مبعوثهم بكتابهم قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « اقرأ » . فلما انتهى إلى الربا ، قال : ضع يدي عليها في الكتاب ، فوضع يده ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ، وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ (٣) ثم محاهما . فلما بلغ القاريء ، الزنا ، وضع يده عليها ، وقال : ﴿ لَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (٤) ثم محاهما (٥) .

(١) سورة النحل : الآية ٩٠ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٤٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٧٨ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ٣٢ .

(٥) أسد الغابة ، ج ١ ، ص ٢١٦ في ترجمة تميم بن جراشة الثقفي . والسيرة النبوية لابن هشام . ج ١ ، ص ٥٤٠ ، وبينها اختلاف .

ومن ذلك ، قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (٢) .

ولو أردنا أن نبين كافة التعاليم القرآنية في حقول المعارف ، والسياسة ، والاجتماع ، والأخلاق ، والإقتصاد ، لطال بنا الكلام ، وفيما ذكرنا غنى وكفاية ، والكل يشهد على عظمة المفاهيم التي جاء بها الإسلام ، وموافقتها لمقتضى حكم العقل الصريح ، المتحرر عن قيود الشهوة والخيال ، وهو من أجل القرائن على نبوة من جاء بها .

* * *

القرينة الرابعة - الأساليب التي اعتمدها في نشر دعوته

لا شك أن النبي الأعظم نجح في دعوته ، وبلغ أهدافه التي قدرها الله له ، ولكنه لم يدرك تلك الغاية بالأساليب الملتوية ، ولم يستعن في تحقيقها بكل وسيلة سائغة كانت أو محرمة ، ولم يسلك سبيل الخداع والمكر والحيلة باعتماد مبدأ : « الغاية تبرر الوسيلة » ، بل إن منطق النبي الأكرم ومسلكه - وكذا جميع الأنبياء - هو شق الطريق على نهج الصدق والعدل ، وهذه حالته التي لم تتفاوت في سراء أو ضراء ، أو شدة أو رخاء ، . وكان في كل ذلك ممثلاً قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا ، إعدلوا ، هو أقرب للتقوى ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

وهذه التعاليم التي اقتدى بها النبي الأكرم في نشر دعوته ، تدل على أنه

(١) سورة النساء : الآية ٢٩ .

(٢) سورة النساء : الآية ٥٨ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٢ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٨ .

(صلى الله عليه وآله) كان يعامل عدوه بالعدل والرفقة ، ولم يكن من الذين تحجب العداوة بصائرهم ، ويُعْمِي الانتصار أعْيُنَهُم عن رعاية الحق والعدل .

وبإمكاننا أن نلمس ذلك في توجيهاته إلى أمراء السرايا ، فإنه كان إذا أراد أن يبعث سرية ، دعاهم فأجلسهم بين يديه ، وقال : « سيروا باسم الله ، وبالله ، وفي سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله ، لا تَغْلُوا »^(١)، ولا تُمَثِّلُوا ، ولا تغدروا ، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا صبيّاً ، ولا امرأة ، ولا تقطعوا شجرة إلا أن تضطروا إليها ، وإما رجل من أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى أحد من المشركين فهو جارٌ ، حتى يسمع كلام الله ، فإن تَبِعْكُمْ ، فأخوكم بالدين ، وإن أبى فأبلغوه مَأْمَنَهُ ، واستعينوا بالله » .

وفي رواية أن النبي كان إذا بعث أميراً له على سرية ، أمره بتقوى الله عز وجل في خاصة نفسه ، ثم في أصحابه عامة ، ثم يقول : أغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، لا تغدروا ، ولا تَغْلُوا ، ولا تُمَثِّلُوا ، ولا تقتلوا وليداً ولا مُتَبَتِّلاً في شاهر ، ولا تحرقوا النخل ولا تغرقوه بالماء ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تحرقوا زرعاً لأنكم لا تدرون لعلكم تحتاجون إليه . وإذا لقيتم عدواً للمسلمين فادعوهم إلى إحدى ثلاث ، فإن هم أجابوكم إليها فاقبلوا منهم وكفوا عنهم الخ . . . »^(٢) .

ولقد كان النبي الأكرم يتحرز عن التذرع بوسائل غير واقعية ، حتى لو كانت الوسيلة مفيدة ونافعة لأهدافه الشخصية ، وشخصيته الاجتماعية ، بل كان يناهضها ، ويبطلها ، ليستقيم الناس على جادة الواقع والحق .

فنحن نرى أن السياسيين المتصدرين لكراسي الرئاسة ، يتجاوبون مع عقائد الناس وإن كانت مخالفة لعقيدتهم ، وذلك للحفاظ على مناصبهم وعروشهم .

(١) من الغل ، وهو الخيانة والغش والحق .

(٢) وسائل الشيعة ، ج ١١ ، كتاب الجهاد ، الباب ١٥ من أبواب جهاد العدو ، الحديثين ٣٥٢ و ٣٥٣ . وقد جاءت نماذج من هذه التعاليم في تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٥٩ . و الأموال : لأبي عبيد ، ص ٢١٢ .

فهذا « نهر » بلغ من التجاوب مع قومه إلى حد أنه كان يشترك معهم في مراسم عبادة البقر ، والتبرك بفضلاتها ، لكونه مطلوباً عند الشعب ، ومخالفة الرأي العام مضرة بشخصيته وأهدافه .

فالسياسيون لا يتورعون في تحقيق أهدافهم ، عن استغلال جهل شعوبهم . وأما الأنبياء فقد بعثوا لمكافحة الجهل ، سواء أكان جهل الناس مفيداً لأحوالهم الشخصية أم نافعاً ، ونذكر لذلك نموذجاً من سيرة النبي الأكرم :

عندما توفي ولده إبراهيم ، غشي الشمس كسوف ، فتلقاه الناس أمراً معجزاً ، وأن المصيبة تركت أثرها في الأرض والسماء ، وانكسفت الشمس لموت ولده . فلو كان النبي رجلاً مادياً ، طالباً للمنصب والمقام ، لأصفق مع شعبه في هذه العقيدة ، وتركهم عليها ، ولكنه رجل إلهي واقعي ، فصعد المنبر ، وأماط الستار عن وجه الحقيقة ، فقال :

« أيها الناس ، إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، يجريان بأمره ، مطيعان له ، لا ينكسفان لموت أحد ، ولا لحياته ، فإذا انكسفا أو أحدهما ، صلوا » .

ثم نزل من المنبر ، فصلّى بالناس الكسوف ، فلما سلّم ، قال : « يا عليّ ، قم فجهّز إني » (١) .

ومن دلائل كون النبي رجلاً واقعياً ، يطلب الحقائق ، ولا يستعمل في أساليب دعوته الخدعة ، هو أن نفرأ من قريش طلبوا من النبي أن يعبد آلهتهم ، حتى يعبدوا إلهه ، فقام النبي في وجه المعترضين بصراحة ، وقال : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (٢) .

(١) المحاسن ، للبرقي ، ص ٣١٣ . وحرار الأسوار ، ج ٢٢ ، ص ١٥٦ . والسيرة الحلبية ، ج ٣ ، ص ٣٤٨ .

(٢) سورة الكافرون .

ولكن دعاة الإصلاح الماديين ، يتخذون ذلك الإقتراح مطيةً لآمالهم ، فيجيبونه ، حتى إذا تغلبوا على أعدائهم ، خالفوهم ، وقضوا عليهم وعلى معتقداتهم .

* * *

القرينة الخامسة - شخصية المؤمنين به

الناموس المطرد في الشخصيات ، هو أن كل إنسان بارز ، يجذب إليه من يوافق أفكاره وعقليته ، فالشخصيات الصالحة تجتمع حولها ، رجال الطهارة والإيمان والنزاهة ، كما أن الشخصيات الطالحة ، تجذب إليها الأشرار والأراذل ولأجل ذلك يقال في المثل السائر : « قُلْ لِي مَنْ تَعَاشِرُ ، أَقُلْ لَكَ مَنْ أَنْتَ » ، ويقول الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسلْ عن قرينه فكلُّ قرينٍ بالمقارن يُقَرَّنُ
وهذه وإن لم تكن قاعدة كلية ، إلا أنها قاعدة غالبة .

وعلى ضوء ذلك الناموس الاجتماعي ، يمكن التعرف على النبي عن طريق حواريه وأصحابه . فنجد فيهم أصحاب عقل وعبقريّة ، يضمن بهم الدهر إلا في فترات متباعدة ، كالإمام علي بن أبي طالب ، وسلمان الفارسي ، وأبي ذرّ المجاهد الكبير ، وخبّاب بن الأرت ، وغيرهم من الشخصيات . وهذا كتاب الرسول ، يأمره بمجالسة الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي وتجنب معاشره المترفين المغفلين .

يقول سبحانه : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (١) .

(١) سورة الكهف : الآية ٢٨ .

ويكفي في ذلك أنه تربى في أحضاناه ، رجال متفانون في طريق الدين وتحقيق أهدافه ، وكفى في إظهار ذلك أن النبي استشار أصحابه في محاربة قريش في معركة بدر ، وقال : أشيروا عليَّ أيُّها الناس .

فقام المقداد بن عمرو ، وقال : يا رسول الله ، إمض لما أراك الله ، فنحن معك . والله لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا فإنا معكما مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق ، لو أمرتنا أن نخوض بحمّر الغضا^(١) وشوك الهراس^(٢) لخضناه معك^(٣) .

وقال سعد بن معاذ : « فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته ، لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد . وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، وإنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسير بنا على بركة الله ، وصل من شئت ، واقطع من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت »^(٤) .

هؤلاء صحابة النبي والرجال الذين التفوا حوله ، فكانت حياتهم وكلماهم : التفاني دون الحق ، والعيش مع الرسول كيفما أراد . ولا نرى نظراءهم حول السياسيين من رجال الإصلاح ، الذين يعيشون لأجل الأمانى المادية .

نعم ، وجود هذه الأنجم الزاهرة حول الرسول ، كافٍ في كون دعوته إلهية ، ولا يستلزم أن يكون كل من حوله رجلاً مثالياً . ويكفي في ذلك ملاحظة التاريخ ، والآيات الواردة حول أصحابه وحواريه .

* * *

(١) النار المُقعدة .

(٢) شجر كبير الشوك .

(٣) السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٦١٥ ، وتاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٤٠ .

(٤) المعازي ، للواقدي ، ج ١ ، ص ٤٨ ، وغيره .

القرينة السادسة - ثباته في طريق دعوته

إن ثبات المدّعي في طريق دعوته ، آية إيمانه بها ، فإذا رُوي فيه أنه يضحّي بـماله ونفسه وأقربائه ووُلده في طريق دعوته ، ويقتحم بنفسه المعارك الخطيرة ، ولا يتجنّب بتقديم غيره ، يستكشف من ذلك كونه مؤمناً بدعوته ، صادقاً في قوله . وهذا علي بن أبي طالب يصف حال النبي في غزواته ، ويقول :

« كنّا إذا احمرّ البأس ، إتقينا برسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فلم يكن أحد منا أقرب إلى العدو منه »^(١) .

وقد اتفق أهل المغازي والسير ، على أن النبي لم يتراجع في حرب من الحروب ، بل كان صموداً في وجه العدو ، رغم ما كان يرد عليه من الجراحات ، وشيوع اليأس في جيشه .

ويكفي في ذلك السبر في تاريخ حروبه لا سيما في أخذ وغزوة حنين . ففي أخذ عَمّت الهزيمة جيشه ، ولم يثبت معه في المعركة إلاّ أشخاص قلائل ، فأخذ يدعو أصحابه وهم ينسحبون من أرض المعركة ، وهو راسخ فيها كالجبل الأشم لا تحركه العواصف . يقول سبحانه ، في حكايته لهذه الواقعة :

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ ، فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾^(٢) .

وأوضح من هذا ، ثباته في مكة ، وقد كان وحيداً في دعوته ، لم يؤمن به حينها إلاّ عدّة قليلة يعيشون حالة الخوف والمطاردة ، والطواريء الشديدة تنزل على النبي ، الواحدة منها تلو الأخرى ، وقد سطر من تلك الحالات الكثير ، منها : تعرّض الأراذل له بالشتيم ، وإلقاء القدورات عليه ، أو إلقاء عمامته في عنقه وجرحه بها ، وغير ذلك ، وهو صابر محتسب^(٣) . كما كان يتعرض للأذى المستمر من

(١) نهج البلاغة ، قسم الحكم ، فصل غريب كلامه ، الرقم ٩ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٣ .

(٣) لاحظ السيرة الحلبية ، ج ١ ، ص ٢٩٣ .

جانب عمّه أبي لهب وزوجته ، وكان رسول الله يجاورهما ، فلم يألوا جهداً في إزعاجه وإيذائه ، فكم من مرة ألقيا الرماد والتراب على رأسه وثيابه ، وكم من مرة نشرت أم جميل الشوك على طريقه ، أو جمعت خلف باب بيته لتؤذيه عند خروجه ، ولأجل هذا الإيذاء ، ينحس القرآن أبا لهب باللّعن ، ويسميه وزوجته .

وكم تعرض أصحابه لألوان العذاب ، كبلال الحبشي ، وآل ياسر وغيرهم ، الذين هم رموز الصمود والمقاومة ، وأوسمة الفخر والاستقامة . وقد قام عبد الله بن مسعود يوماً في المسجد ، ورفع عقيرته بقراءة القرآن لإسماع قريش ، فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم * الرحمن * علم القرآن » ، فلم تمهله قريش حتى قامت إليه تضربه حتى أدمي وجهه وجسمه ، وهو مع ذلك مسرور لإسماعهم كتاب الله العزيز وآياته المباركات (٢) .

* * *

القرينة السابعة - أثر رسالته في تغيير البيئة التي ظهر فيها

إنّ الإمام العابر بأحوال العرب في شبه الجزيرة العربية ، يكفي في إثبات أنّ الثورة العارمة على التقاليد والعادات السائدة هناك آنذاك ، في مدّة لا تزيد على ثلاث وعشرين سنة ، وصُنِعَ أُمّةٌ متحضرة منها ، في هذه البرهة الوجيزة من الزمن ، أمرٌ يستحيل تحقيقه عن طريق العلل المادية ، والأساليب الإصلاحية ، وقد شمل التحوّل جميع جوانب الثقافة والفكر ، والإقتصاد ، والنظم الاجتماعية ، والطقوس الدينية .

وهذا إنّ دَلَّ على شيء فإنّما يدلُّ على أنّ وراء هذه الثورة ، إمدادات غيبية ، نصرت الشائر ، في جميع مواقفه ، سواء أكانت في مجال التبليغ والتبشير ، أم في مجال الكفاح والجدال ، أم في قلب الأمة المتوحشة المستبدة ، المتغلغلة في العداة البغضاء ، أُمّةٌ مُوحَّدةٌ ، متعاطفة ومتآخية فيما بينها .

(١) سورة المسد .

(٢) السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

وهذا الإمام عليُّ أمير المؤمنين عليه السلام ، يصف وضع العرب الجاهليين في بعض خطبة ، ويقول :

« وأنتم معشر العرب على شرِّ دينٍ ، وفي شرِّ دار ، منيخون بين حجارة خشن ، وحيات صم ، تشربون الكدر ، وتأكلون الجشب ، وتسفكون دماءكم ، وتقطعون أرحامكم ، الأصنام فيكم منصوبة ، والآثام بكم معصوبة »^(١) .

فهذه الأمة ، على هذه الحال وهذه الأوصاف ، تحولت إلى أمة ، عالمة ، أرست قواعد الحضارة الإنسانية في مدّة قصيرة ، وأخذت تكسح العراقيل أمامها ، وتزعزع عروش الطواغيت في مشارق الأرض ومغاربها ، حتى أرست بنيان دولة عظيمة ، صارت همزة وصل بين الحضارة اليونانية القديمة والحضارة الصناعية الحديثة .

* * *

هذه دراسة إجمالية للدعوة المحمدية ، وتبيين القرائن الموجودة فيها ، والكلُّ يشهد على أنّ الداعي كان صادقاً في دعوته محقّاً في نبوته ، وهذا الطريق الثالث الذي سلكناه على وجه الإجمال ، قابل للبسط والإسهاب . ففي وسع المحققين في الحياة النبوية والملمّين بكتابه وسنته ، أن يشقوا هذا الطريق يشكل مسهب ، حتى يتجلى صدق دعوته تجلّي الشمس في رائعة النهار .

* * *

وبهذا البحث نختم البحث عن أصل النبوة الخاصة ، وأمّا سمات دعوته من حيث كونها أقلّيمية أو عالمية ، وكونها مرحلية أو خاتمة للرسالات ، فالبحث عنه على عاتق علم التفسير . غير أنّ الإحالة ، لما كانت عن المحذور غير خالية ، نبحت فيما يلي عن تينك السّمّتين بوجه الإجمال^(٢) .

* * *

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ٢٥ .

(٢) من أراد تفصيل البحث ، فليمكنه الرجوع إلى ما دوّنه الأستاذ دام ظلّه في موسوعته التفسيرية ، « مفاهيم القرآن » ، ج ٣ ، ص ٤١ - ٧٦ في العالمية ، وص ١١٩ - ٣١٦ في الخاتمية .

سمات الدعوة الإسلامية

* السمة الأولى : عالمية الرسالة

* السمة الثانية : خاتمية الرسالة

- أسئلة حول الخاتمية



السمة الأولى

عالمية الرسالة

الإسلام عقيدة وعمل ، لا ينفرد بها شعب أو مجتمع خاص ، ولا يختصان ببلد معين ، بل هو دين يعمّ المجتمع الإنساني ككل ، على اختلافه في العنصر والوطن واللسان ، ولا يفترض لنفوذه حاجزاً بين أبناء الإنسان ، ولا يعترف بأية فواصل وتحديدات جنسية أو إقليمية ، وهذا ما ينصّ عليه الذكر الحكيم ، والأحاديث النبوية ، ونلمسه من سيرة الرسول الأكرم في نشر دينه ، ومن تاريخ نشوء وتطور دعوته .

أمّا الكتاب العزيز ، فإليك بعض نصوصه :

- ١ - قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾^(١) .
- ٢ - قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾^(٢) .
- ٣ - قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾^(٣) .
- ٤ - قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(٤) .

(١) سورة الأعراف : الآية ١٥٨ .

(٢) سورة سبأ : الآية ٢٨ .

(٣) سورة النساء : الآية ٧٩ .

(٤) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .

٥ - قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ، لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾^(١) .

٦ - قال تعالى : ﴿ وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ ، لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾^(٢) .
أي كُلُّ مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ ، ووصلت إليه تشريعاته في أقطار الأرض .
إلى غير ذلك من الآيات التي تنصّ على شمول رسالته لعامة البشر .

ويمكن الإستدلال بوجه ثان ، وهو أنّ القرآن كثيراً ما يوجّه خطاباته إلى الناس غير مقيّدة بشيء ، ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾^(٣) فلو كان الإسلام ديناً إقليمياً ، أو كانت رسالته لعصر خاص ، فما معنى هذه النداءات العامة ؟ .

ويمكن الإستدلال بوجه ثالث ، وهو أنّه ربما يتخذ القرآن الكريم عنواناً عاماً لكثير من الأحكام ، من غير تقييد بلون أو عنصر ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾^(٤) ، فأوجِبَ الْحَجَّ عَلَى النَّاسِ إِذَا اسْتَطَاعُوا ، عرباً كانوا أم غيرهم ، ولو كانت رسالته عنصرية ، لكان عليه أن يقول : « ولله على الأمة العربية - مثلاً - حجّ بيته » .

وهناك وجه رابع لعموم دعوته ، وهو أنّه يُعَرِّفُ كِتَابَهُ نوراً وهدى للناس كلهم ، ويقول : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ، هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾^(٥) ويقول : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾^(٦) .

هذه الوجوه الأربعة ، تهدف إلى أمر واحد ، وإن كانت تختلف في طريقة

(١) سورة الفرقان : الآية ١ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢١ . ولاحظ سورة البقرة : الآية ١٦٨ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ٩٧ .

(٥) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

(٦) سورة الزمر : الآية ٢٧ .

البرهنة ، فقد اعتمد في الوجه الأول ، على تصريح القرآن بعموم رسالته ؛ وفي الوجه الثاني ، على نداءاته العامة ؛ وفي الوجه الثالث ، على أن الموضوع لأحكامه وتشريعاته ، أمر عام ، وفي الوجه الرابع ، على أن القرآن يعرف هدايته وإنذاره ، أمراً عاماً للناس كلهم .

وهناك وجه خامس يتصل إتصلاً وثيقاً بطبيعة الإسلام وقوانينه وتشريعاته ، وهو أن القرآن في تشريعاته لا يعتمد إلا على مقتضى الفطرة التي فطر عليها بنو البشر كلهم ، فإذا كان الحكم موضوعاً على طبق الفطرة الإنسانية ، الموجودة في جميع الأفراد ، فلا وجه لاختصاصه بإقليم دون إقليم ، أو شعب دون شعب .

هذا هو الإسلام ، وتعاليمه القيمة ومعارفه وسننه ، فهل تجد فيها ما يشير إلى كونه ديناً إقليمياً ، أو شريعة لفئة محدودة ؟ فإن للدين الإقليمي علائم وأمارات ، أهمها أنه يعتمد في معارفه وتشريعاته على ظروف بيئته وخصوصيات منطقته ، بحيث لو فرض فقدانها ، لأصبحت السنن والطقوس التي يعتمد عليها الدين ، سراباً يحسبه الظمان ماء .

ونحن في غنى عن سرد آيات الذكر الحكيم التي تتبنى معارف وتشريعات تقتضي بطبيعتها كونها دواءً للمجتمع الإنساني في جميع الأقطار والأزمان ، فقلوه سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ الآية (١) ؛ وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣) ، وغير ذلك من تشريعاته في حقول الاقتصاد والاجتماع والسياسة والأخلاق ، مما تقتضي بطبيعتها ، العمومية لجميع البشر والمجتمعات .

(١) سورة النحل : الآية ٩٠ .

(٢) سورة النساء : الآية ٥٨ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٩٠ .

وأما السنة الشريفة ، فيكفي في ذلك قوله صلى الله عليه وآله ، في الخطاب الذي ألقاه في داره ، حينما وفد إليه أعمامه وأخواله ، ومن كانت له به صلة : « والله الذي لا إله إلا هو ، إني رسولُ الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة »^(١) .

وأما في سيرته في حقل الدعوة ، فيكفي في ذلك وثائقه السياسية ، ومكاتيبه التي وجهها إلى أصحاب العروش وملوك العالم ، ككسرى ملك الفُرس ، وقبصر ملك الروم ، والمقوقس عظيم القُبط ، والنجاشي ملك الحبشة ، وغيرهم^(٢) .

هذا ، وإن الإسلام حارب العصبية ، والنعرات الطائفية ، في ظل وحدات ثمان ، أعني : وحدة الأمة ، وحدة الجنس البشري ، وحدة الدين ، وحدة التشريع ، وحدة الأخوة الروحية ، وحدة الجنسية الدولية ، وحدة القضاء ، ووحدة اللغة العربية ، وهو القائل :

« أيها الناس ، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها ، ألا إنكم من آدم ، وآدم من طين ، ألا إن خير عباد الله عبد اتقاه » .

وهو القائل : « إن العربية ، ليست باب والد ، ولكنها لسان ناطق ، فمن قصر عمله ، لم يبلغ به حسبه » .

وهو القائل : « إن الناس من عهد آدم إلى يومنا هذا مثل أسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأحمر على أسود ، إلا بالتقوى » .

وهو القائل : « إنما الناس رجالان ، مؤمن تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله »^(٣) .

أفيصح بعد هذه الكلم الدُرِّيَّة ، رمي رسالته ، بالطائفية ، والعنصرية ، والإقليمية ؟ .

(١) الكامل لابن الأثير ، ج ٢ ، ص ٤١ ، وغيره .

(٢) لاحظ للاطلاع على هذه النصوص ، « مكاتيب الرسول » ، ج ١ ، ص ٩١ - ٢٤٠ .

(٣) راجع للوقوف على مصادر هذه الكلمات : السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٤١٢ . وبحار الأنوار ، ج ٢١ ، ص ١٠٥ .

إزالة شُبُهات

شبهة - ربما يتمسك بعض القساوسة لتحديد دعوته ، بما في الكتاب العزيز من قوله تعالى : ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾^(١) .

غير أنّ الجواب واضح ، أمّا نقضاً ، فإنّ في نفس هذه السورة التي ورد فيها قوله : ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ ، ما يدلّ بصراحة على عموم دعوته ، وهو قوله تعالى : ﴿لِتُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٢) .

وأما حلّاً فإنّ طبيعة إبلاغ الدعوة ربما تقتضي توجيه الكلام إلى قسم خاص ، وإنّ كانت الدعوة عالمية ، والرسول في بدء دعوته ، كان يمارس هداية قومه أولاً ، ثم من يليهم في منطقة الحجاز ، ثم من يليهم ، ولأجل ذلك خصّ الخطاب بقومه :

والشاهد أنّه يقول في آية أخرى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ، وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾^(٣) . فيخص الإنذار بالوحي بالمخاطبين ، بينما يعمّ الإنذار به كلّ الناس في قوله : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾^(٤) .

شبهة ثانية - وربما يتمسك بتخصيص الإنذار بأُمّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا في قوله سبحانه : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾^(٥) ، وأُمّ القرى إمّا علّم من أعلام مكّة ، أو كلّ أطلّق عليها ، فتخصّ الآية دعوته بإطار أُمّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا .

والجواب أمّا نقضاً : فإنّ في نفس السورة التي وردت فيها تلك الآية ما يدلّ

(١) سورة يس : الآية ٦ . ونظيره ، القصص : الآية ٤٦ ، سورة السجدة : الآية ٣ ، سورة مريم : الآية ٩٧ .

(٢) سورة يس : الآية ٧٠ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٤٥ .

(٤) سورة يونس : الآية ٢ .

(٥) سورة الأنعام : الآية ٩٢ ، ونظيره سورة الشورى : الآية ٧ .

على عموم رسالته ، لكل من بلغته ، فإنه يقول : ﴿ وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾^(١) .

وأما حلاً ، فعين ما تقدّم في سابقه ، من أنّ طبيعة الدعوة ، ربما تقتضي توجيه الكلام إلى طائفة خاصة ، وإن كانت الدعوة عالمية .

شبهة ثالثة - وربما يستدلّ بقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ، فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٢) ، على تحديد رسالته ، بتوهم أنّ معنى الآية أنّ كل رسول يوافق لسانه لسان من أرسل إليهم .

وأنت خيرٌ بأنّه تفسير خاطيء ، فمعنى الآية هو موافقة لغة الرسول لسان قومه ، لا اتحاد لغته مع لسان كل من أرسل إليهم ، فمن الممكن أن يكون المرسل إليهم أوسع من قوم الرسول ، فهذا إبراهيم دعا عرب الحجاز إلى الحج وهو ليس منهم . وهذا الكليم دعا فرعون إلى الإيمان ، وهو عبري والمرسل إليه قبطي .

شبهة رابعة - وربما يستدلّ أيضاً ، بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ ، مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾^(٣) ، على تحديد رسالته .

وحاصل الإستدلال هو أنّ المتبادر من الآية هو نجاة أصحاب الشرائع السابقة حتى بعد بعثة الرسول الأكرم ، إذا كانوا مؤمنين بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً . فهذه الآية تعطي الضوء الأخضر لنجاة اليهود والنصارى والصابئين إذا كانوا ملتزمين بهذه الشروط ، وإن لم يعتنقوا رسالة الرسول الأعظم ، أو لم يعملوا بأحكامه وتشريعاته . وهذا لا يجتمع مع القول بأنّ رسالته عالمية يجب على كلّ الناس اعتناقها .

(١) سورة الأنعام : الآية ١٩ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٤ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٦٢ . ولاحظ المائدة : الآية ٦٩ .

والجواب : إِنَّ الإِسْتِدْلَالَ نَجَمَ مِنَ الْجُمُودِ عَلَى نَفْسِ الْآيَةِ ، والغفلة عما ورد حولها من الآيات . ومثل هذه الآية لا يصح تفسيره إلا على غلط التفسير الموضوعي ، واستنطاق الآية بأختها ، وعرض البعض على البعض حتى يُهتدى إلى معالمها . وسيوافيك أَنَّ الآية - بقرينة الآيات التي تتلوها - بصدد تفنيد المزاعم الباطلة لليهود والنصارى ، وليست بصدد إمضاء الشرائع السالفة ، بعد ظهور النبي الأكرم ، وإليك البيان .

١ - تفنيد فكرة الشعب المختار

كان اليهود والنصارى يتبنون فكرة الشعب المختار ، فكل من الطائفتين تَدَّعي أَنَّهُا أَسْمَى بَنِي الْبَشَرِ . وقد نقل القرآن الكريم هذه الفكرة السخيفة عن كلتا الطائفتين بقوله : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَجِبَاءُهُ ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ . . . ﴾ (١) .

فقوله : ﴿ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ ، تفنيد لهذا الزعم ، ويدلُّ على أَنَّهُم وغيرهم عند الله سواسية ، فهو سبحانه يثيب المطيع ، ويعذب العاصي .

وقد بلغت أنانية اليهود واستعلاؤهم الزائف حداً ، تفوهوا بما يحكيه سبحانه عنهم بقوله : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً ﴾ (٢) .

والقرآن يُفَنِّدُ هذا الزعم ، بشكل الإستفهام الإنكاري ، ويقول : ﴿ قُلْ أَخَذْتُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَهْداً ، فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

فهكذا ، نستكشف من خلال هذه المزاعم وردودها أَنَّ اليهود كانوا - ولا يزالون - يَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ صفوة البشرية ، ونخبة الشعوب . وكانوا يحاولون بمثل

(١) سورة المائدة : الآية ١٨ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٨٠ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٨٠ .

هذه المزاعم ، قَرَضَ كيانهم على العالم ، كأرفع نوعٍ بشريٍّ إِنْتَخَبَهُ اللهُ من بين سائر البشر ، حتى كأنهم أبناءُ الله المَدْلُولون .

٢ - النجاة رهن العمل والالتزام

كانت الطائفتان (اليهود والنصارى) ، تزعمان أنَّ الإنتساب إسمًا إلى شريعة موسى أو المسيح ، وسيلة النجاة . كما كان اليهود بالخصوص يزعمون أنَّ الإنتساب إلى « إسرائيل » ، ينقذ من عذاب الله سبحانه ؛ ولأجل ذلك قالوا : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾^(١) .

ومعنى هذا القول ، أنَّ بإمكان الإنتساب إلى « إسرائيل » ، أو كون الإنسان يهوديًا أو نصرانيًا بالإسم ، أن يجعل الإنسان سعيدًا ، مالكًا لمفاتيح الجنة . ويرد القرآن عليهم ، بأن الوسيلة الوحيدة لامتلاك الجنة ، ليس هو « الإنتساب » ، ولا التجنن « بالتسمية » ، بل هو الإيمان الصادق والعمل الصالح ، يقول تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَمِيهِمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ، فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾^(٢) .

فقلوه : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ ﴾ ، يعني الإيمان الخالص ، والتسليم الصادق لله .

وقوله : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ، يعني العمل بالشرعة التي يؤمن الفرد بها .

وكلتا الجملتين تدلّان على أنَّ السبيل الوحيد إلى النجاة في يوم القيامة هو الإيمان والعمل ، لا إسم اليهودية أو النصرانية ، ولا الإنتساب إلى بيت النبوة ، فليست المسألة مسألة أسماء ، ولا مسألة انتساب ، وإنما هي مسألة إيمان صادق ، وعمل صالح .

(١) سورة البقرة : الآية ١١١ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١١١ و ١١٢ .

٣ - الأصالة للتوحيد لا لليهودية ولا للنصرانية

لقد كان لهاتين الطائفتين إدعاء ثالث ، هو أن الهداية الحقيقية ، في اعتناق اليهودية أو النصرانية ، كما يحكيه عنهم القرآن بقوله : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾^(١) .

والقرآن يردّ عليهم هذا الزعم الواهي بقوله : ﴿ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٢) . مشيراً إلى أن الهداية الحقيقية ، هي في الأخذ بملة إبراهيم ، واعتناق مذهبه في التوحيد الخالص من كل شائبة . فإذا عمّتها الهداية ، فإنما هو لأخذهم بالحنيفية الإبراهيمية ، لا لاعتناق اليهودية والمسيحية ، فلا أصالة لها ، إلا إذا كانتا مشتملين على جوهر التوحيد الإبراهيمي وحنيفيته .

وقد بلغت جسارة الطائفتين إلى حدّ أنهم حاولوا إضفاء طابع اليهودية والمسيحية على إبراهيم ، ليحصلوا بذلك على دعم جديد لمعتقداتهما ، ويضفوا الشرعية على مسلكيهما . ولكن القرآن عاد إلى تنفيذ هذه المزعة الثالثة ، كما فند المتقدمين ، بقوله : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٣) .

فهذه المقدمات ، تثبت أن اليهود والنصارى كانوا يتبنون هذه الأفكار الواهية الثلاثة :

١ - الرفع على البشر أجمعين .

٢ - كفاية مجرد الإنساب إلى مذهبها في النجاة .

٣ - إختصاص سبيل الهداية بالطائفتين .

فجاء القرآن يُفند كل واحدة من هذه المزاعم ، مستقلاً ، بعد نقلها ، بالآيات التي عرفت . ثم يفندها جميعها بصورة إجمالية ، بالآية التي وقعت ذريعة

(١) سورة البقرة : الآية ١٣٥ .

(٢) الآية السابقة نفسها .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٦٧ .

لمنكري عالمية الرسالة ، وهدف الآية أن فكرة الشعب المختار ، أو كون النجاة رهن الإنتساب والتسمية ، أو اختصاص الهداية بإحدى الطائفتين ، أمر باطل لا أساس له ، فإن النجاة والجنة يعمّان جميع البشر وجميع الطوائف ، إذا كانوا مؤمنين بالله واليوم الآخر ، وعاملين بالصالحات ، من غير فرق بين إنسان وإنسان ، وشعب وآخر ، فلا استعلاء ولا تفوق لطائفة على غيرها ، ولا الإنتساب والتسمية ينجيان أحداً في العالم ، ولا الهداية رهن اعتناق أحد المذاهب ، وإنما النجاح والفوز والصلاح في الإيمان والعمل الصالح . وهذا الباب مفتوح في وجه كل إنسان ، يهودياً كان أو نصرانياً أو صابئياً .

فالآية بصدد تفنيد هذه المزاعم ، وأما الإعتراف بإقرار الإسلام لشرعية الشرائع السابقة ، بعد ظهوره ، فليس لها دلالة على ذلك ولا إشعار ، بشرط التوقف والإمعان في الأفكار التي كانت الطائفتان تتبناها .

ومما يوضح المراد من هذه الآية ، قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِثَاتِهِمْ ، وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾^(١) . فتصرّح الآية بانفتاح أبواب الجنة في وجه البشر ، من غير انحصار بجماعة دون جماعة ، حتى أن أهل الكتاب لو آمنوا بما آمن به المسلمون ، لقبّلنا إيمانهم ، وكفرنا عنهم سيئاتهم .

ومثله قوله سبحانه في سورة العصر : ﴿ وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾^(٢) .

وأما كفاية الإيمان والعمل الصالح ، فقط ، وعدم لزوم شيء آخر من المعارف والعقائد والأعمال ، فليست الآية ، بصدد بيانها نفيّاً أو إثباتاً ، وإنما يرجع فيها إلى الآيات الأخر .

وإذا أردت أن تصوغ الجواب في أسلوب منطقي ، فقل : إن الحصر في

(١) سورة المائدة : الآية ٦٥ .

(٢) سورة العصر .

الآية ، حَصْرُ نِسْبِيٍّ إضافيٍّ ، بمعنى أَنَّ المؤثر في النجاة من النار ، والفوز بالجنة ، إِنَّمَا هو الإيمان والعمل الصالح ، وأمَّا عدم دخالة شيء آخر كالأصول الثلاثة التي يتبناها اليهود والنصارى أو دخالته ، فليست الآية في مقام تبينه إثباتاً أو نفياً ، حتى يكون دليلاً على إقرار الآية بشرعية الشرائع السابقة .

وبعبارة أخرى : إِنَّ الآية ساكنة عن بيان ما هو حقيقة الإيمان بالله وما هو شرطه ، وما هو المقصود من العمل الصالح ، وكيف يتقبل ، وإِنَّمَا يطلب ذلك من سائر الآيات .

وقد دَلَّت الآيات القرآنية على أَنَّ الإيمان بالله لا ينفك عن الإيمان بأنبيائه ، والإيمان بأنبيائه ، لا ينفك عن الإيمان بنبيه الخاتم ، قال سبحانه : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنُتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾^(١) .

كيف وقد عَدَّت الآيات القرآنية الإيمان بالرسول مُقَوِّماً لحقيقة الإيمان ، فقالت : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾^(٢) .

* * *

إلى هنا تمَّ البحث عن عالمية رسالة الرسول الأكرم ، وتمَّ ردُّ الشبهات التي قد تُورد حوله ، ويقع البحث في السمة الثانية لرسالته وهي خاتميتها ، وهو من الموضوعات المهمة التي لا يكون المُسْلِمُ مُسْلِماً إلَّا بالإيمان بها .

* * *

(١) سورة البقرة : الآية ١٣٧ .

(٢) سورة النور : الآية ٦٢ .

السمة الثانية

خاتمة الرسالة

اتفقت الأمة الإسلامية عن بكرة أبيها ، على أن نبيها محمداً صلى الله عليه وآله ، خاتم النبيين ، وأن شريعته خاتمة الشرائع ، وكتابه خاتم الكتب والصحف ، فهو آخر السفراء الإلهيين ، أوصد به باب الرسالة والنبوة ، وخُتِمَتْ به رسالة السماء إلى الأرض ، وأن دين نبيها ، دين الله الأبدى ، وأن كتابه ، كتاب الله الخالد ، وقد أنهى الله إليه كل تشريع ، فاكتملت بدينه وكتابه الشرائع السماوية التي هي رسالة السماء إلى الأرض .
ويدل على ذلك نصوص من الكتاب والسنة ، نستعرضها فيما يلي :

أ- الخاتمة في الكتاب العزيز

لقد نصّ القرآن الكريم على الخاتمة تنصيماً لا يقبل الشك ، ولا يرتاب فيه من له أدنى إلمام باللغة العربية ، وذلك في مواضع :

١ - التنصيص على أنه خاتم النبيين

قال سبحانه : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ ^(١) .

(١) سورة الأحزاب : الآية ٤٠ .

وتتضح دلالة الآية بنقل سبب نزولها :

تنبّى رسول الله صلى الله عليه وآله ، زيداً ، قبل بعثته . وكان العرب يُنزِلُونَ الأدعياء منزلة الأبناء في أحكام الزواج والميراث ، فأراد سبحانه أن ينسخ تلك السنة الجاهلية ، فأمر رسوله بتزوّج زينب ، زوجة زيد ، بعد مفارقتها لها . فأوجد ذلك الزواج ضجة بين المنافقين ، والمتوغلين في النزعات الجاهلية ، فأخذ الله تعالى أصواتهم بقوله : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ ، أي من الذين لم يلداهم ، ومنهم زيد ، ﴿ وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ وهو لا يترك ما أمره الله به ، ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ أي آخرهم ، ختمت به النبوة ، فلا نبي بعده ، ولا شريعة سوى شريعته ، فنبوته أبدية ، وشريعته باقية إلى يوم القيامة .

الخاتم وما يراد منه

الخاتم ، بفتح التاء ، كما عليه قراءة عاصم ، أو بكسرها كما عليه الباقون ، يدلّ على أنّ باب النبوة ختمت به . وذلك لأنّه على الكسر ، إسم فاعل من ختم يختم ، فهو خاتِم ، وعلى الفتح ، يحتمل وجوهاً ثلاثة :

أ - إنّه اسم بمعنى ما يختم به ، أي المختوم به باب النبوة ، فوجوده صلى الله عليه وآله في سلسلة الأنبياء ، كالختم والإمضاء في الرسائل . فكما أنّ الرسائل تختم في نهايتها ، بالختم والإمضاء ، فكذا سلسلة الأنبياء ختمت بوجوده ، فهو خاتم الأنبياء .

ب - إنّه فعل ، « خَاتَمَ » كـ « ضَارَبَ » ، فهو صلى الله عليه وآله خَتَمَ باب النبوة .

ج - إنّه اسم بمعنى « آخر » ، أي آخر النبيين ونهايتهم .

قال أبو محمد الدميري في منظومته :

والخاتِمُ الفاعِلُ قُلْ بالكسْرِ وما به يُخْتَمُ فتحاً يجري^(١)

(١) التيسير في علوم التفسير ، ص ٩٠ .

فأشار في هذا البيت إلى الوجهين ، وأنه بالكسر إسم فاعل ، وبالفتح إسم بمعنى ما يختم به .

وقال البيضاوي : « وخاتم النبيين : آخرهم الذي ختمهم »^(١) .

وفي هذا إشارة إلى المعنى الثالث .

ثم إن الختم له أصل واحد ، وهو بلوغ آخر الشيء ، يقال : ختمت العمل ، وختم القاريء السورة . والختم ، وهو الطبع على الشيء ، فذلك من هذا الباب أيضاً ، لأن الطبع على الشيء لا يكون إلا بعد بلوغ آخره^(٢) .

وقد جاء هذا اللفظ في القرآن في موارد لا يشدّ واحد منها عن هذا الأصل ، فمن ذلك .

قوله تعالى : ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ وفي ذلك فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٣﴾ ، أي من الشراب الخالص الذي لا غش فيه ، تختم أوانيه وتسدّ بمسك .

وقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٤) . أي نطبع على أفواههم ، فتوصد ، وتكلم أيديهم وأرجلهم .

فاتضح مما ذكرناه ، أن الآية صريحة في أن النبي الأكرم ، نهاية سلسلة الأنبياء ، وأنه قد ختم بنبوته باب النبوة وأوصده إلى يوم القيامة .

(١) أنوار التنزيل ، في تفسير سورة الأحزاب ، الآية ٤٠ .

(٢) مقاييس اللغة ، مادة « ختم » .

(٣) سورة المطففين : الآيتان ٢٥ و ٢٦ .

(٤) سورة يس : الآية ٦٥ ، والبقرة : الآية ٧ ، والأنعام : الآية ٤٦ ، والشورى : الآية ٢٤ ،

والجاثية : الآية ٢٣ .

تشكيك ضئيل

إنّ هنا تشكيكاً اختلقت بعض الطوائف^(١) الخارجة عن الإسلام ، العميلة لأعدائه ، فقالت إنّ المراد من الخاتم في قوله ، عزّ من قائل : ﴿ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ﴾ ، الحلية التي يزيّن بها الإصبع . والمراد أنّ النبي الأكرم زينة النبيين ، كما أنّ الخاتم زينة يد الإنسان ، فهويين تلك العصابة ، كالخاتم في يد لابس .

وهذه شبهة واهية للغاية ، نجمت - إن لم تكن متعمدة - من الجهل باللغة العربية ، وذلك لوجوه :

أولاً - إنّ لم يعهد إستعارة الخاتم في اللغة العربية ، للزينة ، فلا يقال إنّ خاتم القوم ، أي زينتهم وحليتهم ، فكيف يستعيره القرآن في هذا المعنى ، وهو في قمة البلاغة ؟!

وثانياً - لو كان الهدف تشبيه النبي بالخاتم في كونه حلية ، لكان المناسب أن يشبهه بالتاج والإكليل ، إذ هما أبلغ في بيان المقصود ، أعني الزينة .

وثالثاً - إنّ الخاتم ليس له إلّا أصل واحد ، وهو ما يختم به ، ولو استعمل في حلية الإصبع ، فذلك من باب إطلاق الكلي على الفرد ، لأنّ الدارج في عهد الرسالة إنهاء الكتاب بالخاتم ، فكانت خواتمهم أختامهم ، لا أنّه وُضع حلية الإصبع وضعاً على حدة .

ويدلّ على ذلك ما رواه ابن سعد في طبقاته ، من أنّ رسول الله أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكتب إليهم كتباً ، فقبل يا رسول الله : إنّ الملوك لا يقرؤون كتاباً إلّا مختوماً ، فأتخذ رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ ، خاتماً من فضة ، فصّه منه^(٢) ، نقشه ثلاثة أسطر :
« محمد » ، « رسول » ، « الله » ، وختم به الكتب^(٣) .

(١) كالهائية والقاديانية .

(٢) كذا في النسخة ، والأولى : « منها » ، ولعل التذكير باعتبار رجوع الضمير إلى الخاتم .

(٣) الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٢٤٨ . ولاحظ مقدماً ابن خلدون ج ١ ، ص ٢٢٠ ، تجد فيه بسطاً في الكلام .

فظهر بما قدمنا أنَّ الخاتم بمعنى ما يختم به ، وله مصاديق ، فتارة يختم بحلية الإصبع ، وأخرى بشيء مثل الشمع ، وثالثة بمثل الطين ، وأشياء أخرى درجت حديثاً .

وأضعف من ذلك احتمال أن يكون المراد من قوله تعالى : ﴿ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ﴾ ، أنه مصدق للنبيين ، فاستعارة الخاتم له ، لأجل أنه صلى الله عليه وآله مُصَدِّقُهُمْ كَالْخَاتَمِ الْمَصْدُقِّ لِمُضَامِينِ الْكُتُبِ .

وَيَرُدُّهُ ، أولاً : لو كان المراد هو تصديق النبيين ، فلم عدل عن التعبير الصريح ، إلى هذا التعبير المعقد ، مع أنه استعمل لفظ مصدق دون الخاتم عندما أراد بيان تصديق نبيٍّ لنبيٍّ آخر ؛ فقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ ^(١) .

وكذلك عندما أراد بيان تصديق كتاب لكتاب ؛ فقال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ ^(٢) .

وثانياً - ليس الخاتم نفسه مصدقاً ، وإنما هو آلة التصديق ، وما يُصَدِّقُ به ، وإنما المصدق من يستعمل الختم ، وهذا بخلاف النبي فإنه بنفسه مصدق .

ولعمري ، لولا شيوع التشكيك بين البسطاء من غير العرب ، لكان الأولى ترك التعرض له .

نعم ، هنا تشكيك آخر قابل للطرح والذكر ، وإليك بيانه .

تشكيك آخر

إنَّ المختوم في الآية المباركة هو منصب النبوة لا الرسالة ، حيث قال : ﴿ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ﴾ . وختم باب النبوة ، لا يلزم ختم باب الرسالة ، فهو مفتوح على مصراعيه في وجه الأمة ، ولم يوصد .

(١) سورة الصف : الآية ٦ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٤٨ .

والجواب : إن رفع التشكيك يتوقف على تبيين الفرق بين النبوة والرسالة ، وبالتالي يعلم الفرق بين النبي والرسول ، فنقول :

النبوة منصب معنوي يستدعي الإتصال بالغيب بإحدى الطرق المألوفة ، والرسالة سفارة للمرسل (بالفتح) من جانبه سبحانه لإبلاغ ما أوحى إليه ، إلى المرسل إليه ، أو تنفيذ ما تحمله منه سبحانه ، في الخارج .

وبعبارة أخرى : النبوة ، تحمل الأنباء ؛ والرسالة ، إبلاغ ما تحمله من الأنباء ، بالتبشير والإنذار ، والتنفيذ .

ولأجل مناسبة الوحي لمقام النبوة ، والتبليغ لمقام الرسالة ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ (٢) . ويقول : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ (٣) .

وفي ضوء هذا يعلم الفرق بين النبي والرسول ، فالنبي هو الإنسان الموحى إليه بإحدى الطرق المعروفة ، والرسول هو (٤) الإنسان القائم بالسفارة من الله ، للتبشير ، أو لتنفيذ عمل في الخارج ، أيضاً .

إذا عرفت ذلك ؛ فنقول : لو فرض إيراد باب النبوة ، وختم نزول الوحي إلى الإنسان ، كما يفيد قوله : ﴿ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ﴾ ، فعند ذلك يختم باب الرسالة الإلهية أيضاً ، لأن الرسالة هي إبلاغ أو تنفيذ ما تحمله الرسول عن طريق الوحي ، فإذا انقطع الوحي والإتصال بالمبدأ الأول ، فلا يبقى للرسالة موضوع .

(١) سورة النساء . الآية ١٦٣

(٢) سورة المائدة : الآية ٦٧ . هذا في مجال التبليغ .

(٣) سورة مريم : الآية ١٩ . هذا في مجال التنفيذ .

(٤) المقصود تعريف الرسول المصطلح ، فلا ينافي إطلاقه على الملك ، مثل قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءه أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ (سورة الأنعام : الآية ٦١) . أو على الإنسان العادي : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النُّسُوءِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ . . . ﴾ (سورة يوسف : الآية ٥٠) .

فإذا كان النبي الأكرم خاتم النبيين ، أي مختوماً به الوحي والإتصال بالغيب ، فهو خاتم الرُّسل أيضاً . وهذا واضح لمن أمعن النظر في الفرق بين النبوة والرسالة^(١) .

* * *

٢ - التنصيص على أن القرآن لا يأتيه الباطل

قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾^(٢) .

والمقصود من الذكر هو القرآن ، لقوله سبحانه : ﴿ ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْنَا مِنْ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾^(٣) .

أضف إليه أن قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ ﴾ ، يُفسَّرُ الذكر ، وهو لا ينطبق إلا على القرآن .

والضمير في قوله : ﴿ لَا يَأْتِيهِ ﴾ ، يرجع إلى الذكر ، ومفاد الآية أن الباطل لا يتطرق إليه ، ولا يجد إليه سبيلاً أبداً ، بأي نحو كان ، ودونك صوره :

١ - « لا يأتيه الباطل » ، أي لا ينقص منه شيء ولا يزيد فيه شيء .

٢ - « لا يأتيه الباطل » ، أي لا يأتيه كتاب يبطله وينسخه ، فهو حق ثابت لا يُبدل ولا يُغيّر ولا يُترك .

٣ - « لا يأتيه الباطل » ، أي لا يتطرق الباطل إليه في إخباره عما مضى ، ولا في إخباره عما يأتي ، ولا يتخلف الواقع عنه قيد شعرة .

وعلى ضوء هذا ، فإطلاق الآية ينفي كل باطل يتصور ، وأن القرآن حق لا

(١) إن لشيخنا الأستاذ ، دام مجده ، رسالة خاصة في الفرق بين النبي والرُّسل ، لاحظ موسوعته القرآنية ، مفاهيم القرآن ، الجزء الرابع ، ص ٣١٥ - ٣٧٠ .

(٢) سورة فصلت : الآيتان ٤١ - ٤٢ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٥٨ .

يدخله الباطل إلى يوم القيامة ، ومثل هذا لا يصح أن يكون حجة في أمد محدود ، بل يكون متبعا ، بلا حد ، لأنَّ خاصية الحق المطلق ، والمصون عن تطرق الباطل مطلقا ، هو كونه حجة لا إلى حد خاص ، والله سبحانه تعهد في الذكر الحكيم بإحقاق الحق وإبطال الباطل ، كما قال : ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾^(١) .

وبعبارة أخرى : إنَّ الشريعة الجديدة ، إما أن تكون عين الشريعة الإسلامية الحقّة - كما نصّت الآية - التي لا يقارنها ولا يدانيها الباطل ، أو غيرها ، كلاً أو جزءاً .

فعلى الأول ، يكون إنزال الشريعة الثانية لغواً .

وعلى الثاني ، تكون كلتا الشريعتين حقّة ، فيلزم كون المتناقضين حقّاً ، وهو غير معقول .

فالآية صريحة في نفي أي تشريع بعد القرآن ، وشريعة غير الإسلام ، فتدلّ بالملزمة على نفي النبوة التشريعية بعد نبوته .

نعم ، الآية لا تنفي بنفي النبوة الترويجية ، التبليغية ، لغير شريعة الإسلام ، وإنما المتكفل له هي الآية الأولى .

* * *

٣ - التنصيص على الإنذار لكل من بلغ

قال سبحانه : ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^(٢) .

فالآية صريحة في أنَّ النبي صار مأموراً بالإنذار ، بقرآنه ، لكل من بلغه

(١) سورة الأنفال : الآية ٨ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٩ .

إلى يوم القيامة . فمن بلغه القرآن ، فكأنما رأى محمداً صلى الله عليه وآله ، وسمع منه ، وحيثما يأتيه القرآن ، فهو داع له ونذير .

وقوله : ﴿ وَمَنْ بَلَغْ ﴾ ، معطوف على الضمير المنصوب المتصل في قوله : ﴿ لَأُنْذِرَكُمْ ﴾ ، لا على الفاعل المستتر ، أعني ضمير المتكلم . فمن بلغه القرآن ، منذر (بالفتح) لا منذر .

* * *

٤ - التنصيص على أنه نذير للعالمين

قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾^(١) .

هذه الآية كما تدلّ على عالمية رسالته ، دالة على خاتمته إلى يوم القيامة . واختلف أهل اللغة في مفاد العالمين^(٢) ، ولكن المراد به في المقام كلّ الناس ، ونظيره قوله تعالى - حاكياً عن لسان لوط عليه السلام - : ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ * قَالُوا : أَوْلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾^(٣) .

أي قالوا في جوابه : أَوْلَيْسَ كُنَّا قَدْ نَهَيْتُكَ أَنْ تَفْضَحَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ . وبذلك يتضح عدم صحة ما يروى في تفسير العالمين بأن المراد الجن والإنس ، أو الجن والملائكة ، إذ لا معنى لنهي قوم لوط ، نبههم عن استضياف هؤلاء .

(١) سورة الفرقان : الآية ١ .

(٢) وقد اختلف أهل اللغة في معنى « العالم » ، الذي يجمع على عالمين ، على أقوال :

١ - إنه إسم للفلك وما يحويه من الجواهر والأعراض ، وهو في الأصل إسم لما يعلم به ، كالطابع ، والخاتم ، لما يطع ويختم به . وأما جمعه ، فلأن كل نوع من هذه قد يسمى عالماً : عالم الإنسان ، وعالم الماء ، وعالم النار . . .

٢ - إنه إسم لأصناف الخلائق من الملك والجن والإنس .

٣ - إنه الإنسان ، والجمع باعتبار كون كل واحد عالماً . (مفردات الراغب ، صفحة ٣٤٩) .

(٣) سورة الحجر : الآيات ٦٨ - ٧٠ .

ونظيره قوله سبحانه - حكاية عن لوط عليه السلام في الردّ على قومه - : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾^(١) ، فالمراد منه هو الناس ، بلا ريب ، لا الجن ولا الملائكة .

وما ذكرنا من المعنى هو المروي عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال : « عني به الناس ، وجعل كل واحد عالماً »^(٢) .

وعلى كل تقدير ، فسواء أكان المراد من العالمين في الآيات الأخر غير هذا ، أو كان هذا ، فالمراد من قوله : ﴿ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ ، عموم البشر ، أو مطلق من يعقل . فالآية صريحة في أنّ إنذاره لا يختص بناس دون ناس ، أو زمان دون زمان ، فهو على إطلاقه ، يعطي كونه نذيراً للامم البشرية ، بلا قيد وحدّ .

وربما يقال إنّ « العالمين » يطلق ويراد منه الجَمّ الغفير من الناس ، كما في قوله سبحانه : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾^(٣) ويقال : « رأيت عالماً من الناس » ، يراد به الكثرة . وعند ذاك لا تكون الآية صريحة في عموم رسالته لجميع البشر إلى يوم القيامة .

والجواب : إنّ المتبادر من اللفظ هو عموم الخلائق ، كما في قوله سبحانه : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ : وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ : رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مَوْقِنِينَ ﴾^(٤) . واستعماله في غير ذلك يحتاج إلى قرينة ، ولأجل ذلك يحمل على المعنى الحقيقي في الآيات التالية :

﴿ وَمَا اللَّهُ يَرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾^(٥) .

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾^(٦) .

(١) سورة الشعراء : الآية ١٦٥ .

(٢) مفردات الراغب ، ص ٣٤٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٤٧ .

(٤) سورة الشعراء : الآيتان ٢٣ و ٢٤ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ١٠٨ .

(٦) سورة آل عمران : الآية ٩٦ .

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾^(١) .

﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾^(٢) .

وأما ما ذكر من الآية ، فليس ظاهراً في كون المراد منه الجَمَّ الغفير ، بل كلَّ الناس ، غاية الأمر أنها خُصِّصَتْ بأهلِ عالمي زمانهم ، مثل قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾^(٣) .

وعلى أي تقدير فسواء فُسِّرَت الآية ، بالجَمِّ الكثير من الناس ، أو خُصِّصَتْ بأهلِ عالمي زمانهم ، فإنَّما هو لقريئة صارفة عن ظاهرها ، حيث إنَّ القرآن دلَّ على أنَّ الأُمَّةَ الإسلامية أفضل الأمم ، مثل قوله سبحانه : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾^(٤) . ودلَّت الأحاديث على أنَّ ابنة النبي الأكرم ، فاطمة عليها السلام ، مثل مريم أو أفضل منها^(٥) . فهذه وتلك صارتا قرينتين على صرف الآيتين^(٦) عن ظاهريهما ، وأما غيرهما فيُحْمَل على المعنى الحقيقي ، أي الناس كلَّهم إلى يوم القيامة .

* * *

(١) سورة الشعراء : الآية ١٦٥ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٨٠ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٤٢ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

(٥) أخرج البخاري ومسلم والترمذي في صحاحهم عن عائشة قالت : إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ لِفَاطِمَةَ فِي أَخْرِيَاتِ أَبِيهَا : « أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ » ، (لاحظ التاج الجامع للأصول ، ح ٣ ، ص ٣١٤) .

وأخرج ابن سعد عن مسروق عن عائشة في حديث أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ سَرَّ إِلَى فَاطِمَةَ عِنْدَ مَرَضِهِ وَقَالَ : « أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، أَوْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ » (الطبقات الكبرى ، ج ٨ ، ص ٢٧ . وحلية الأولياء ، ح ٢ ، ص ٤٠) ، ولولا هذه الأحاديث لقلنا تفضيل مريم على نساء العالمين إلى يوم القيامة ، كما أنَّه لولا صراحة الآية في تفضيل هذه الأُمَّة لقلنا بتفضيل بني إسرائيل على الناس كلَّهم إلى يوم القيامة .

(٦) سورة البقرة : الآية ٤٧ وسورة آل عمران : الآية ٤٢ .

٥ - التنصيص على كونه مرسلًا إلى الناس كافة

قال سبحانه : ﴿ وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(١) .

المتبادر من الآية كون « كافة » ، حالاً من الناس ، قُدِّمت على ذيها ، وتقدير الآية : وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا لِلنَّاسِ كَافَّةً ، بشيراً ونذيراً ، وقد استعمل « كافة » بمعنى « عامة » ، في القرآن الكريم كثيراً ، قال سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾^(٢) . والآية دليل على كون رسالته عالمية ، كما أنها دليل على أنه كان مبعوثاً إلى كافة الناس إلى يوم القيامة .

وأما جعل لفظ ﴿ كافة ﴾ حالاً من الضمير المتصل في قوله : ﴿ أَرْسَلْنَاكَ ﴾ ، ليعود معنى الآية : وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا أَنْ تَكْفُهُمْ وَتَرُدَّعَهُمْ ، فبعيد عن الأذهان ، أضف إلى ذلك أن قوله في ذيل الآية : ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ ، كافٍ في هذا المعنى ، لأن التبشير والإنذار يتكفلان الكف والردع عن المحرمات ، وقد فهم الصحابة من الآية ما ذكرناه^(٣) .

إشارات إلى الخاتمية في الذكر الحكيم

ما ذكرنا من الآيات كانت تصريحات بالخاتمية ، وهناك آيات تشير إليها إذا أُمعِن النظر في مضامينها ، وإليك نقل بعضها .

١ - قال سبحانه : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ، فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ ،

(١) سورة سبأ : الآية ٢٨ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٣٦ . ولاحظ أيضاً البقرة : ٢٠٨ ، والتوبة : ١٢٢ .

(٣) روى ابن سعد في طبقاته عن خالد بن معدان ، قال : قال رسول الله (ص) : « بُعثت إلى الناس كافة ، فإن لم يستجيبوا لي فإلى العرب .. » وفي نقل آخر عن أبي هريرة : « أُرسلت إلى الناس كافة ، وبني ختم النبيون » . (الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ١٧٢) .

مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ . . ﴿١﴾ .

المهيمن هو الرقيب^(٢) ، فكتاب النبي الأكرم مهيمن على جميع الكتب النازلة من قبل وهو (مهيمناً عليه) متمم لقوله : ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ ﴾ . تتميم إيضاح ، إذ لولاه لأمكن أن يتوهم من تصديق القرآن للتوراة والإنجيل أنه يصدق ما فيها من الشرائع والأحكام ، تصديق إبقاء ، من غير تغيير وتبديل ، لكن توصيفه بالهيمنة يبين أن تصديقه لهما بمعنى تصديق أنها شرائع حقّة من عند الله ، وأنّ الله أن يتصرف فيها ما يشاء بالنسخ والإكمال ، كما يشير إليه قوله - في ذيل الآية - : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ .

٢ - قال سبحانه : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ . . . ﴾ ، يدلّ على إحصاء باب الوحي ، وانقطاعه إلى يوم القيامة ، وتمامية الشرائع النازلة من الله سبحانه ، طوال قرون ، إلى سفرائه .

والمراد من الكلمة ، الشرائع الإلهية ، كما في قوله : ﴿ وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ ﴾ (٤) ، ومعنى الآية : تمت الشرائع السبّاقية بظهور الدعوة المحمدية ، ونزول الكتاب المهيمن على جميع الكتب ، وصارت مستقرة في محلها ، بعدما

(١) سورة المائدة : الآية ٤٨ .

(٢) فعيل بمعنى فاعل ، أي مراقب .

(٣) سورة الأنعام : الآيتان ١١٤ و ١١٥ .

(٤) سورة التحريم : الآية ١٢ .

كانت تسير دهرأ طويلاً في مدارج التدرج ، بِمَنَحِ نُبوّة بعد نُبوّة ، وإنزال شريعة بعد شريعة .

والدليل على أنّ المراد من الكلمة ، الشرائع الإلهية ، هو قوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ، أي جعلكم مقتفين لشريعة واحدة ، وبما أنّ هذه الدعوة الإلهية الواردة في القرآن الكريم ، صدق لا يشوبه كذب ، وما فيه من الأحكام عدل لا يخالطه ظلم ، تَمَّتْ الشريعة السماوية ، فلا تتبدل كلماتها وأحكامها من بعد . وهذا المعنى يظهر عند التأمل في سياق الآيات .

إلى هنا تم البحث عن الآيات الدالة على الخاتمية بصراحة أو بالتلويح والإشارة ، ولأهمية الاعتقاد بها تضافرت فيها النصوص عن النبي الأكرم وعترته الظاهرة ، غير أنّ سرد كل ما وقفنا عليه عنهم عليهم السلام ، يستدعي وضع رسالة مستقلة ، فنكتفي بنقل بعضها عن النبي الأكرم ، ووصيه الإمام عليّ عليه السلام ، ونترك الباقي إلى محله .

* * *

ب - الخاتمية في الأحاديث الإسلامية

لقد حصص الحق ، بما أوردناه من النصوص القرآنية ، وأنحسر الشك عن محيّي اليقين ، فلم تَبَقْ لمجادلٍ شُبْهَةٌ في أنّ رسولَ الله ، خاتمُ النبيين والمرسلين ، وأنّ شريعته خاتمةُ الشرائع ، وكتابه خاتم الكتب . وإليك فيما يلي كَلِمٌ دُرِّيَّةٌ ، من صاحب الشريعة ووصيه في هذا المجال :

١ - خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة إلى غزوة تبوك ، وخرج الناس معه ، فقال له عليّ (عليه السلام) : « أَخْرُجْ معك ؟ » . فقال : « لا » ، فبكى عليّ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « أما تَرْضَى أن تكونَ مِنِّي بمنزلة هارونَ من موسى ، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي » ، أو « ليس بعدي نبي ؟ » .

وهذا الحديث هو المشهور بحديث المنزلة ، لأنّ النبي نَزَلَ نفسه منزلة

موسى ، ونَزَلَ عَلَيَّ مَكَانَ هَارُونَ ، وهو صحيح متفق عليه بين الأمة ، لم يشك أحد في صحته سنده ، ولا سَنَحَ في خاطر كاتب أن يناقش في صدوره ، وحسبك أنه أخرجه البخاري في صحيحه ، في غزوة تبوك^(١) ، ومسلم في صحيحه في باب فضائل عليّ عليه السلام^(٢) ، وابن ماجه في سُنَنِهِ في باب فضائل أصحاب النبي^(٣) ، والحاكم في مستدركه ، في مناقب عليّ عليه السلام^(٤) وإمام الحنابلة في مسنده بطرق كثيرة^(٥) ، وأما الشيعة فقد أصفقوا على نقله في مجامعهم الحديثية^(٦) .

ودلالة الحديث على الخاتمية واضحة ، كدلالته على خلافة علي (عليه السلام) للنبي صلى الله عليه وآله بعد رحلته .

٢ - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِ ، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا ، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيُعْجِبُونَ لَهُ ، وَيَقُولُونَ : هَلَّا وَضَعْتَ هَذِهِ اللَّبْنَةَ . قَالَ : « فَأَنَا اللَّبْنَةُ ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ »^(٧) .

٣ - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لِي خَمْسَةٌ أَسْمَاءَ : أَنَا مُحَمَّدٌ ؛ وَأَحْمَدُ ؛ أَنَا الْمَاحِي ، يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ ؛ وَأَنَا الْحَاشِرُ ، يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَيَّ

(١) صحيح البخاري ، ج ٣ ، ص ٥٨ .

(٢) صحيح مسلم ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ .

(٣) سنن ابن ماجه ، ج ١ ، ص ٢٨ .

(٤) مستدرک الحاكم ، ج ٣ ، ص ١٠٩ .

(٥) مسند أحمد ، ج ١ ، ص ٣٣١ ، وج ٢ ، ص ٣٦٩ ، ٤٣٧ .

(٦) لاحظ أمالي الصدوق ، ص ٢٩ . ومعاني الأخبار ، ص ٧٤ . وكنز الفوائد ص ٢٨٢ . والجرائح

والجرائح ص ٧٥ . ومناقب ابن شهر آشوب ، ج ١ ، ص ٢٢٢ . وكشف الغمّة ، ج ١ ،

ص ٤٤ . وبحار الأنوار ، ج ٣٧ ، الباب ٥٣ ص ٢٥٤ - ٢٨٩ .

(٧) صحيح البخاري ، ج ٤ ، ص ٢٢٦ . ومسند أحمد ، ج ٢ ، ص ٣٩٨ و ٤١٢ . ولاحظ الدر

المنثور للسيوطي ، ج ٥ ، ص ٢٠٤ . وللحديث صور مختلفة تشترك كلها في إثبات الخاتمية للنبي

قال رسول الله : « فَأَنَا مَوْضِعُ تِلْكَ اللَّبْنَةِ ، فَجِئْتُ فَخَتَمْتُ الْأَنْبِيَاءَ » . لاحظ التاج ، ج ٣ ،

ص ٢٢ ، نقلاً عن البخاري ومسلم والترمذي .

قدمي ؛ وأنا العاقب ، الذي ليس بعده النبي »^(١)

٤ - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أرسلت إلى الناس كافة ، وبني ختم النبيون »^(٢)

٥ - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « فَضَّلْتُ بَيْتَ :

أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهَوْرًا وَمَسْجِدًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ »^(٣) .

هذه أحاديث خمسة عن خاتم النبيين ، والمروي في هذا المجال عنه صلى الله عليه وآله أكثر من ذلك^(٤) .

تنصيب الإمام عليّ على الخاتمية

٦ - قال علي عليه السلام : « . . إلى أن بعث الله محمدًا صلى الله عليه وآله ، لإنجاز عِدَّتِهِ ، وتمام نُبوَّتِهِ ، مأخوذًا على النبيين ميثاقَهُ ، مشهورةً سِمَاتُهُ ، كريمًا ميلادُهُ »^(٥)

٧ - قال علي عليه السلام : « أُرْسِلُهُ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَتَنَازُعٍ مِنَ الْأَلْسُنِ ، فَقَفَى بِهِ الرُّسُلُ ، وَخُتِمَ بِهِ الْوَحْيُ »^(٦)

٨ - قال علي عليه السلام وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله : « بَأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، لَقَدْ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقُطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ ، مِنَ النَّبُوءَةِ وَالْإِنْبَاءِ ، وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ ، خَصَصْتَ حَتَّى صَرْتَ مُسْلِيًّا عَمَّنْ سِوَاكَ ، وَعَمَّمْتَ

(١) صحيح مسلم ، ج ٨ ، ص ٨٩ . الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٦٥ ، مسند أحمد ، ح ٤ ، ص ٨١ و ٨٤ .

(٢) الطبقات الكبرى ، ح ١ ، ص ١٢٨ ، ومسند أحمد ، ح ٢ ، صفحة ٤١٢ .

(٣) الجامع الصغير ، ج ٢ ، ص ٢١٦ ، الرقم ٥٨٨٠ ، ط دار الفكر - بيروت

(٤) سيوافيك الإحالة إلى المصدر الجامع لهذه الأحاديث .

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة الأولى . والصميران في « عِدَّتِهِ » ، و « نُبوَّتِهِ » ، لله تعالى

(٦) نهج البلاغة ، الخطبة ١٢٩ .

حتى صار الناس فيك سواء»^(١) .

٩ - قال علي عليه السلام : « أما رسول الله صلى الله عليه وآله فخاتم النبيين ، ليس بعده نبي ولا رسول ، وختم برسول الله الأنبياء إلى يوم القيامة »^(٢) .

١٠ - قال علي عليه السلام في خطبة الأشباح : « ... بل تعاهدهم (العباد) بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه ، ومتحملي ودائع رسالاته ، قرناً فقرناً ، حتى تمت بنينا محمد (صلى الله عليه وآله) حُجَّتُهُ ، وبلغ المقطع عُذْرُهُ ونُذْرُهُ »^(٣) .

* * *

ثم إنه قد أورد على الخاتمية شبهات واهية ، غنية عن الإجابة ، يقف عليها كلُّ من له إلمام بالكتاب والسنة والأدب العربي ، وإنما هي صَحْب وهياج وجدال باطل ، يؤثر في الجاهلين . ولأجل ذلك إستخدمتها القاديانية ، والبايية ، والبهائية ، ذريعة لاصطياد السذج من الناس غير العارفين باللغة ، ولا بالكتاب والسنة ، ولأجل إراءة ضلالة هذه الشبهات تأتي بشبهة واحدة منها ، تُعَدُّ من أقوى شبهاتهم ، ثم نعطف عنان القلم إلى تحرير أسئلة صحيحة مطروحة حول الخاتمية ، وهي قابلة للبحث والنقاش ؛ فإليك البيان :

شبهة واهية

كيف يدّعي المسلمون انغلاق باب النبوة والرسالة ، مع أن صريح كتابهم قاضٍ ، بانفتاح بابها إلى يوم القيامة ، وقد جاء في كتابهم قوله : ﴿ يا بني آدم ،

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ٢٣٠ . ومجالس الميّد ، ص ٥٢٧ . والبحار ، ج ٢٢ ، ص ٥٢٧ .

(٢) الإحتجاج ، ج ١ ، ص ٢٢٠

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ٨٧ . وما أوردناه نماذج من أحاديث الخاتمية اقتصرنا عليها رُؤماً للإختصار ، ومن أراد التفصيل والإحاطة بأكتر ما ورد في هذا المجال من النبي وعترته الطاهرة فليرجع إلى مفاهيم القرآن ، ج ٣ ، ص ١٤٨ - ١٧٩ . فقد وصل عدد الأحاديث في هذا المجال إلى ١٣٥ حديثاً ، والكلُّ يشهد على إيصاف باب النبوة ورسالة السماء إلى الأرض .

إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ، فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ ، فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١﴾ .

فقوله : ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ - مقروناً بنون التأكيد - كاشفٌ عن عدم إحصاء باب النبوة ، وأنه مفتوح .

والجواب : إِنَّ هذه الشبهة حصلت من الجمود على نفس الآية ، والغفلة عن سياقها . فَإِنَّ الآية تحكي خطاباً خاطب به سبحانه بني آدم في بدء الخلقة ، وفي الطرف الذي هبط فيه آدم إلى الأرض ، وقد شرع القرآن بنقل القصة والخطابات في سورة الأعراف من الآية الحادية عشر ، وختمها في الآية السابعة والثلاثين ، فبدأ القصة بقوله :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ، لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ .
وختمها بقوله :

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ قال : فيها تَحْيَوْنَ ، وفيها تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢﴾ .

وعند ذلك ، خاطب سبحانه أبناء آدم بخطابات أربعة ، تهدف إلى لزوم الطاعة ، والتحرز عن إطاعة الشيطان ، وأنَّ لهم في قصة أبيهم وأُمهم ، عبرة واضحة ، فقال :

- ١ - ﴿يَا بَنِي آدَمَ ، قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَآتِكُمْ . . .﴾ .
- ٢ - ﴿يَا بَنِي آدَمَ ، لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ، كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ . . .﴾ .

- ٣ - ﴿يَا بَنِي آدَمَ ، خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . . .﴾ .

(١) سورة الأعراف : الآية ٣٥ .

(٢) سورة الأعراف : الآيات ١١ - ٢٥ .

٤ - ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ، إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

فالخطاب الأخير ، ليس إنشاء خطاب في عصر الرسالة ، حتى ينافي ختمها ، بل حكاية للخطاب الصادر بعد هبوط آدَم إلى الأرض .

والذي يوضح ذلك قوله سبحانه في سورة أخرى :

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ، فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (١) .

فقوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ ، يتحد مع الآية السابقة ، مضموناً .

وهذا النموذج من الشبهات يوقفك على حالة سائر ما استدلت به الفرق الباطلة في هذا المجال ، من القرآن ، ولذلك ضربنا عن هذه الشبهات صفحاً (٢) . ونعرج إلى أسئلة جديرة بالبحث والنقاش ، حول الخاتمية طَرَحها مرور الزمان ، وتكامل الحضارات ، وتفتح العقول ، على بساط البحث . فلأجل أهميتها ، نطرحها ، ثم نجيب عنها بما يناسب وضع الكتاب .

(١) لاحظ سورة طه : الآية ١٢٣ .

(٢) لاحظ - للوقوف عليها وعلى أجوبتها - « مفاهيم القرآن » ، ج ٣ ، ص ١٨٥ - ٢١٦

* أسئلة حول الخاتمة

- ١ - لماذا حُرمت الأُمَّة من النبوة التبليغية ؟ .
- ٢ - لماذا حُرِمَتِ الأُمَّة من الإِطْلَاع على الغيب ؟ .
- ٣ - كيف تكونُ الشريعةُ ثابتة مع أنَّ التحوّلَ ناموس عام ؟ .
- ٤ - كيف تكونُ الشريعةُ ثابتة مع أنَّ لكلَّ عصرٍ إقتضاءً خاصاً ؟ .
- ٥ - هل القوانين المحدودة تفي بالحاجات غير المتناهية ؟ .

أسئلة حول الخاتمة

السؤال الأول

لماذا حُرمت الأمة من النبوة التبليغية ؟

إنَّ النبي إذا بُعث بشريعة جديدة ، وكتاب جديد ، تكون نبوته تشريعية ، وإذا بعث لغاية دعم أحكام شريعة سالفة ، فالنبوة ترويجية أو تبليغية . والقسم الأول من الأنبياء منحصر في خمسة ، ذكرت أسماؤهم في القرآن^(١) . وأمَّا القسم الثاني ، فيشكّله أكثرية الأنبياء ، لأنهم بُعثوا لترويج الدين النازل على أحد أولئك ، فكانت نبوتهم تبليغية^(٢) .

فعندئذٍ ، يُطرح السؤال التالي : إنَّ نبيَّ الإسلام جاء بأكمل الشرائع وأتمّها ، ولذلك أوصد باب النبوة التشريعية ، ولكن لماذا أوصد باب النبوة التبليغية التي منحها الله للأمم السالفة ، فإنَّ الشريعة مهما بلغت من الكمال والتمام ، لا تستغني عن من يقوم بنشرها وتجديدها ، لكي لا تندرس ، حتى يتم إبلاغها من السلف إلى الخلف بأسلوب صحيح . فلم أوصد هذا الباب ، بعدما كان مفتوحاً في وجه الأمم الماضية ؟ .

الجواب :

إنَّ انفتاح باب السوة التبليغية في وجه الأمم السالفة وإيصاده بعد

(١) سورة الشورى : الآية ١٣ .

(٢) الكلمة الدارجة لمعنى التليغ في البيئات العربية ، هي كلمة التشريع ، ولكن كلمة التبايغ أولى وأليق ، فهي مقتبسة من القرآن ، ومدلولها اللغوي منطبق على المقصود .

نبي الإسلام ، لا يعني أنّ الأمم السالفة تفرّدت بها لفضيلة استحقتها دون الخلف الصالح ، أو أنّ الأمة الإسلامية حرمت لكونها أقلّ شأنًا من الأمم الخالية ، بل الوجه هو حاجة الأمم السالفة إليها وغناء الأمة الإسلامية عنها ، لأنّ المجتمعات تتفاوت إدراكًا ورشدًا فربّ مجتمع يكون في أخلاقه وشعوره كالفرّد القاصر ، لا يقدر على أن يحتفظ بالتراث الذي وصل إليه ، بل يضيعه ، كالطفل الذي يمزق كتابه وقرطاسه ، غير شاعر بقيمتها .

ومجتمع آخر بلغ من القيم ، الفكرية والأخلاقية والاجتماعية ، شأواً بعيداً ، فيحتفظ معه بترائه الديني الواصل إليه ، بل يستثمره استثماراً جيداً ، وهو عند ذاك غني عن كل مروج يروج دينه ، أو مُبلِّغ يذكره بمنسئه ، أو مُربٍّ يرشده إلى القيم الأخلاقية ، أو معلّم يعلمه معالم دينه ، إلى غير ذلك من الشؤون .

فأفراد الأمم السالفة كانوا كالفُصّر ، غير بالغين في العقلية الاجتماعية ، فما كانوا يعرفون قيمة التراث المعنوي الذي وصل إليهم ، بل كانوا يلعبون به لعب الصبي في الكتاتيب ، بكتابه أو قرطاسه ، فيخرقه ويمزقه ولا يبقي شيئاً ينتفع منه إلى آخر العام الدراسي . ولهذا كان على المولى سبحانه أن يبعث في كل جيل منهم نبياً ليذكّرهم بدينهم ، ويحدد به شريعة من قبله ، وبزيل ما علاها من شوائب التحريف .

وأما المجتمع البشري بعد بعثه الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد بلغ من المعرفة والإدراك والتفتح العقلي شأواً ، يتمكن معه من حفظ تراث نبيّه وصيانة كتابه عن طوارق التحريف والضيايع ، حتى بلغت عنايته بكتابه الديني إلى حدّ تأسيس علوم عديدة لفهم كتابه . فازدهرت ، تحت راية القرآن ، ضروب من العلوم والفنون . فلأجل ذلك الرشد الفكري ، جعلت وظيفة التبليغ والترويح وصيانة التراث على كناهل نفس الأمة ، حتى تبنّأت وظيفة الرسل في التربية والتبليغ ، واستغنت عن بعث نبي مجدّد .

ولأجل ذلك يقول سبحانه : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾^(١) .

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠ .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾^(١) .

وقد ظهرت طلائع هذا الإعتقاد على الأمة من قوله سبحانه : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾^(٢) .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا ظهرت البدع ، فليظهر العالمُ علمه ، فمن لم يفعل ، فعليه لعنة الله »^(٣) .

وقال الإمام الباقر : « إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيلُ الأنبياء ، ومنهاج الصلحاء ، وفريضة تقام بها الفرائض ، وتؤمن المذاهب ، وتحلُّ المكاسب ، وتُرُدُّ المظالم ، وتعمُر الأرض ، وينتصف من الأعداء ، ويستقيم الأمر »^(٤) .

وما ذكرنا من الجواب يلائم أصول أهل السنة في دور الأمة وعلمائها في حفظ الشريعة . ولكن هناك جواب آخر أصح وأجمع .

وحاصله : إن أئمة الشيعة بحكم حديث الثقلين ، يحملون علم النبي في المجالات المختلفة سواء في مجال المعارف والعقائد ، أو في مجال الأحكام والوظائف ، أو في مجال الإحتجاج والمناظرة ، أو في مجال الأجوبة على الأسئلة المستجدة ، كل ذلك بتعليم من الله سبحانه ، من دون أن يكونوا أنبياء يوحى إليهم .

فلأجل ذلك ، كل إمام في عصره ، يقوم بمهمة التبليغ والترويج ، ويجلي الصدا عن وجه الدين ، ويردُّ شبهات المبطلين ، فاستغنت بهم الأمة عن كل نبوة

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٤ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٢٢ .

(٣) وسائل الشيعة ، كتاب الأمر بالمعروف ، الباب ٤٠ ، الحديث ١ .

(٤) وسائل الشيعة ، ج ١١ ، كتاب الأمر بالمعروف ، الباب الأول ، الحديث ٦ .

ترويجية ، والتاريخ يشهد بأن كل إمام من أئمة الشيعة الإثني عشرية ، قام بأعباء مهمة التبليغ ، وإيصال مفاهيم الإسلام الصحيحة إلى الأمة ، ولقد عانوا في ذلك من المشاق ، ولاقوا من الأهوال ما لاقاه جدّهم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم^(٣) .



(١) بما أنّ الأبحاث المعقودة في فصل الإمامة والخلافة تتكفل بإثبات ذلك ، اكتفينا بهذا المقدار ، وسيوافيك التفصيل فيه .

أُسئلة حول الخاتمة

السؤال الثاني

لماذا حرمت الأمة من الإطلاع على الغيب ؟

إنَّ الشريعة الإسلامية ، وإن كانت أكمل الشرائع ، والخلف من الأمة ، قادر على حفظ تراثه الديني ، أو أنَّ العترة الطاهرة تقوم بمهمة التبليغ ، ولأجل ذلك أوصد باب النبوة التشريعية والتبليغية ، إلّا أنَّ إيصادها على الإطلاق يستلزم انقطاع الفتوحات الباطنية عن طريق النبي المبعوث .

وذلك ، لأنَّ انقطاع النبوة بمعنى انقطاع أخبار السماء عن أهل الأرض ، وانقطاع الإطلاع على الغُيوب ، وهذا خسران للأمة ، مع أنَّه كان مفتوحاً في وجه الأمم السالفة ، فهل معنى ذلك أنَّ الأمة الإسلامية أقلُّ جدارة منها ، واستحقاقاً لها ؟ .

وحاصل السؤال أنَّ إيصاد باب النبوة ، لأجل كمال الشريعة واستغناء الأمة عن نبي مبلغ ، وإن كان أمراً لازماً ، غير أنَّ سدَّ باب النبوة يستلزم سدَّ باب الفيوض المعنوية ، والمكاشفات الغيبية ، والمشاهدات الروحية التي تصل إلى الأمة عن طريق نبيِّها ؛ فرفع النبوة وختمها ، يستلزم ذلك الحرمان .

الجواب :

إنَّ سدَّ باب النبوة لا يستتبع إلّا سدَّ باب الوحي في مجال تشريع الحكم ، أو في محال تبليغ الشريعة السابقة

وأما سائر الفتوحات الباطنية فهي مفتوحة في وجه الأمة إلى يوم القيامة ، من غير فرق بين الإتصال بعالم الغيب عن طريق البرهنة والإستدلال والتدبر في آياته الأفقية ، الذي يشير إليه تعالى بقوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾^(١) . وأما الإتصال به فلا توسط برهان أو دليل ، بل بمشاهدة عين القلب وبصر الروح ، وشهود الحقائق العلوية ، وانكشاف ما وراء الحس والطبيعة من العوالم الروحية ، ومعرفة ما يجري عليه قلبه تعالى في قضائه وقدره ، والإتصال بجنوده سبحانه وملائكته ، واستماع كلامهم وأصواتهم ، إلى غير ذلك من الأمور ، إلا أنه مقام خطير يحصل لعدة من المتحررين عن سلوك طريق الطبيعة ، الحاسبين أنفسهم في ذات الله ، العاملين بكتابه وسنة نبيه ، حسب ما لهم من المقدرة والطاقة ، لتحمل الأمور الغيبية ، ومشاهدة جلاله وجماله ، وكبريائه وعظمته ، وما لأوليائه من مقامات ودرجات وما لأعدائه من نار ولهيب ودركات .

وليس ما ذكرنا من إمكان الإتصال ، كلمة خطابية ، أو عرفانية غير معتمدة على الكتاب والسنة ، بل الكتاب الحكيم يقضي بذلك عند التأمل والإمعان فيه :

١ - قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾^(٢) ، أي يجعل في قلوبكم نوراً تفرقون به بين الحق والباطل ، وتميزون به بين الصحيح والزائف بالبرهنة والإستدلال ، أو بالشهود والمكاشفة .

٢ - وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٣) .

والمراد من النور ، هو ما يمشي المؤمن في ضوء هدايته في دينه ودنياه ، وهذا النور الذي يغمره نتيجة إيمانه وتقاه ، يوضحه قوله سبحانه : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا

(١) سورة فصلت : الآية ٥٣ . ونظيره الذاريات . الآيتان ٢٠ و ٢١

(٢) سورة الأنفال : الآية ٢٩ .

(٣) سورة الحديد : الآية ٢٨ .

فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴿١﴾ .

٣ - وقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٢) .

٤ - وقال سبحانه : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوْنها عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (٣) .

والمراد رؤيتها قبل يوم القيامة ، رؤية البصيرة ، وهي رؤية القلب التي هي من آثار اليقين ، على ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبراهيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (٤) . وهذه الرؤية القلبية ، غير محققة قبل يوم القيامة لمن ألهاه التكاثر ، بل مُتَّعَةً في حقّه .

كما أنّ المراد من قوله : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوْنها عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ . هو مشاهدتها يوم القيامة ، بقربة قوله سبحانه بعد ذلك : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ .

فالمراد بالرؤية الأولى رؤيتها قبل يوم القيامة ، وبالثانية رؤيتها يوم القيامة (٥) .

٥ - وقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (٦) . فلو أنّ الإنسان جَعَلَ نفسه في مسير الهداية ، وطلبها من الله سبحانه ، لزاده تعالى هدىً ، وآتاه تقواه .

٦ - وقال سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (٧) . وهذه الآية تُبَيِّنُ حال أصحاب الكهف الذين اعتزلوا قومهم ، وواجهوا المشاق في حفظ

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٢ .

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٦٩ .

(٣) سورة التكاثر : الآيات ٥ - ٨ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ٧٥ .

(٥) لاحظ الميزان ، ج ٢٠ ، ص ٤٩٦ - ٤٩٧ .

(٦) سورة محمد : الآية ١٧ .

(٧) سورة الكهف : الآية ١٣ .

إيمانهم ودينهم ، فزاد الله من هداه في حقهم ، وَرَبَطَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، كما في الآية التالية :

٧ - وقال سبحانه ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا فَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ (١) .

إلى غير ذلك من الآيات التي تعرب عن عدم إيصاء هذا الباب .

ثم إنَّ في السنَّة النبوية الشريفة ، والخطب العلوية ، تصريحات وإشارات إلى انفتاح هذا الباب .

فمن ذلك ما روته الصحاح عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال :

« لَقَدْ كَانَ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجَالٌ يُكَلِّمُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ » (٢) . وهذا هو المُحَدَّث في مصطلح أهل الحديث . وقد تضافرت الروايات على أن مريم وفاطمة وعلياً عليهم السلام كانوا مُحَدَّثِينَ .

ويقول الإمام علي عليه السلام في كلام له ، يحكي فيه عن صاحب التقوى : « قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ ، حَتَّى ذُقَّ جَلِيلُهُ ، وَلَطَفَ غَلِيظُهُ ، وَبَرَّقَ لَهُ لَأَمِعُ كَثِيرُ الْبَرَقِ ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ ، وَتَدَاوَعَتْهُ الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ ، وَدَارَ الْإِقَامَةِ ، وَثَبَّتَ رِجْلَاهُ بِطُغْيَانِيَّةٍ فِي بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ ، وَأَرْضَى رَبَّهُ » (٣) .

ويقول عليه السلام ، في كلمة أخرى تعرب عن رأي الإسلام في هذه المجال ، قالها عند تلاوته قوله سبحانه : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ قال : « إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ جَعَلَ الذِّكْرَ جَلَاءً لِلْقُلُوبِ ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْفَةِ ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمَعَانِدَةِ ، وَمَا بَرِحَ اللَّهُ - عَزَّتْ أَلَاؤُهُ - فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ ، عِبَادَ

(١) سورة الكهف : الآية ١٤ .

(٢) صحيح البخاري ، ج ٢ ، ص ١٤٩

(٣) هجج البلاغة ، الخطبة ٢١٥

ناجاهم في فكرهم ، وكلمهم في ذات عقولهم ، فاستصحبوا بنور يَقْظَةٍ في الأبصار والأسماع والأفئدة ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ . بِمَنْزِلَةِ الْأَدْلَةِ فِي الْقُلُوبِ . . . إلى أن قال : وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لِأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَذَلًا ، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ ، وَيَهْتَفُونَ بِالزَّوْجَارِ عَنْ مُحَارَمِ اللَّهِ ، فِي أَسْوَاعِ الْغَافِلِينَ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ ، وَيَأْتُمِرُونَ بِهِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ ، فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ ، وَهُمْ فِيهَا ، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ، فَكَأَنَّمَا أَطْلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عُدَّائَهَا ، فَكَشَفُوا غُطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا ، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرُونَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ . . .» (١) .

وقد تربى في أحضان علي عليه السلام ، صفوة من رجال الخير ، يُسْتَدَرِّجُهُمُ الْغِيَامُ وَيَضُنُّ بِهِمُ الزَّمَانُ ، كَزَيْدٍ وَصَعْصَعَةِ ابْنِي صُوحَانَ ، وَأُوَيْسَ الْقُرَنِيِّ ، وَالْأَصْبَغَ بْنَ نُبَاتَةَ ، وَرَشِيدَ الْهَجَرِيِّ ، وَمِيثَمَ التَّيَّارِ ، وَكُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ ، وَأَشْبَاهَهُمْ ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ مُثَلًّا لِلْفُضِيلَةِ وَخِزَانَةً لِلْعِلْمِ وَالْأَسْرَارِ ، مَنْحَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ سَابِغِ عِلْمِهِ ، وَاسْتَأْمَنَهُمْ عَلَى غَامِضِ أَسْرَارِهِ ، مِمَّا لَا يَقْوَى عَلَى احْتِمَالِهِ غَيْرُ أَمْثَالِهِمْ ، حَتَّى زَكَتْ نَفُوسُهُمْ ، وَكَادُوا أَنْ يَكُونُوا بَعْدَ التَّصْفِيَةِ مَلَائِكَةً مُجَرَّدَةً عَنِ النِّقَاطِصِ ، لَا يَعْرِفُونَ الرَّذِيلَةَ وَلَا تَعْرِفُهُمْ .

* * *

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ٢١٧ .

أُسئلة حول الخاتمة

السؤال الثالث

أليس التحول ناموساً عاماً ، فما معنى الشريعة الثابتة ؟

ليس في الكون المادي ، أمر خالد باقي مدى الدهور وتعاقب الأجيال ، لأنَّ التحول ناموس عام في الطبيعة ، وعلى ذلك ، فكيف يقرر الإسلام سنناً وقوانين ثابتة ، منذ بعثة الرسول إلى يوم القيامة ، فإنَّ الإعتقاد بخاتمة الرسول وكتابه وسننه وتشريعاته ، يلزم الإعتقاد بثباتها في هذا الكون الذي كتب على جبينه عدم القرار والثبات .

الجواب :

إنَّ السؤال نَجَم من الخلط بين الموجودات المادية والنواميس الحاكمة عليها ، فالمتغير هو الأول دون الثاني ، فإنَّ السماء والأرض وما فيهما لا تستقرَّ على حالة واحدة ، وأمَّا النواميس السائدة عليها فهي ثابتة أبدية لا يصيبها التبدل ، ولا تقع في إطار الحركة والتحول .

مثلاً : المعادلات الرياضية ، وقانون الجاذبيَّة ، والنقل النوعي في الموجودات ، وإنكسار الضوء وأحكام العدسيَّات وسرعة النور وغيرها من القوانين الفيزيائية ، ثابتة غير متغيرة ، سائدة في كل الظروف والأزمنة .

ومثله : الأحكام الشرعية ، المحمولة على الموضوعات الخارجية فالموضوعات وإن كانت تتغير ، والمجتمع يتحول من حال إلى أخرى ، ولكن لكلِّ

موضوع في حال خاص حكم لا يتغير ما دام الموضوع موضوعاً ، وإذا تبدّل ،
فالتبدّل يستلزم رفع الحكم برفع موضوعه لا استبداله بحكم آخر .

وبذلك تقف على مدى وهن ما يُعترض به على ثبات قوانين الإسلام ، بأنّه
ليس عندنا أصل ثابت وشيء مستقر ، بل الكون بأجمعه يمجج بالتحوّلات
والتغيرات .

إذ فيه مضافاً إلى ما ذكرنا من الخلط بين القانون ومُنطَبَقه ، أنّ قولهم هذا
بأنّه ليس عندنا علم ثابت ، هو بحدّ ذاته ، قانون ثابت لدى المعارض ، فهو في
الوقت الذي يعترض فيه على ثبات القوانين وبقائها ، يعترف بقانون ثابت في
العالم ، وهو أنّه « ليس عندنا قانون ثابت » .

* * *

أسئلة حول الخاتمية

السؤال الرابع

كيف تكون الشريعة ثابتة مع أن لكل عصر اقتضاء خاصاً؟^(١)

التطور الإجتماعي يستلزم تطوراً في قوانين المجتمع ، والقانون الموضوع في ظرف خاص ، ربما يكون مضرراً أو غير مفيد في ظرف آخر ، ومقتضيات الزمان (القوانين) ، تختلف باختلاف ألوان الحياة والظروف الطارئة على المجتمع ، فيما صبح بالأمس ، لا يصح اليوم ، وما يصح اليوم لا يصح غداً . وعلى هذا فلو كانت الحياة مستمرة على وتيرة واحدة ، لساغ للتشريع الإلهي المحمدي أن يسود في جميع الظروف والأحوال إلى يوم القيامة ، لكنها لما كانت متغيرة ومتحولة ، فلا يصح للشريعة الإلهية السيادة على المجتمعات دائماً ، فكيف يصح القول بأن شريعة الإسلام شريعة خالدة ، إذ لا يُعنى من خاتمية النبوة ، إلا خاتمية الشريعة وبقاؤها إلى الأبد .

الجواب

إن هذه الشبهة من أهم الشبهات في موضوع الخاتمية ، ومنشؤها تخيل أن

(١) الفرق بين هذا السؤال وسابقه واضح ، فإن الأول ، يعتمد على اصل فلسفي وهو تمول التحول لكل ما في الكون ، وانطلاقاً من هذا الأصل لا يمكن الاعتراف بثبات أصل وقانون . والسؤال الثاني سؤال اجتماعي ، وهو لزوم اختلاف القوانين حسب اختلاف المقتضيات ، والاعتراف بهذا لا يجتمع مع القول بثبوت سنن الإسلام وقوانينه .

التحوّل يدبّ في جميع شؤون الإنسان ، وأمّا إذا قلنا بأنّ للإنسان - مع قطع النظر عنّا يحيط به من الظروف المختلفة - روحيات وغرائز لا تتغير أبداً ، ولا تنفك عنه ، وهي في الحقيقة مشخصات تكوينية له ، بها يتميز عن سائر الحيوانات ، فالشبهة مندفة من رأس ، فإنّ القوانين والسنن الراجعة إليها ، تكون ثابتة خالدة ، حسب خلودها ، إذا كانت موافقة لما تقتضيه .

توضيحه : إنّ السائل قد قصر النظر على ما يحيط بالإنسان من الظروف المختلفة المتبدلة ، التي هي نتيجة تكامل الحضارات والمجتمعات ، وذهل عن أنّ للإنسان غرائز ثابتة وروحيات خالدة ، لا تستغي عن قانون ينظّم اتجاهاتها وتشريع يعدّها ، ويصونها عن الإفراط والتفريط ، فبما أنّ هذه الغرائز والفطريات ، لا تمسّها يد التغيّر ، فالتشريعات المطابقة لمقتضى الفطرة ، والصالحة لهديتها ، تخلد بخلودها وتثبت بثبوتها ، فلو كان السائل واقفاً على أنّ الإنسان مركب من مشخصات تكوينية أبدية ، ومشخصات طارئة متغيرة ، لوقف على أنّ القوانين الراجعة إلى هداية الفطرة وتعديلها ، تثبت على جبين الدّهر ، ما دام الإنسان إنساناً ، وأمّا القوانين الراجعة إلى المشخصات الطارئة المتحولة ، فلا تصلح للخلود والثبات . وإليك فيما يلي أمثلة لما ذكرناه .

١ - الروابط العائلية ، كرابطة الولد بوالديه ، والأخ بأخيه ، هي روابط طبيعية ، لوجود الوحدة الروحية ، فالسنن الراجعة إلى تنظيم هذه الروابط ، من التوارث أولاً ، ولزوم التكريم والصّلة ثانياً ، من الأحكام التي لا تتغيّر بتغيّر الزمان ، فلا تجد مجتمعاً ينادي بقطع التوارث بين الوالد والولد ، أو قطع الحضانة بين الأم وولدها ، أو ما شابه ذلك .

٢ - إنّ التفاوت بين الرجل والمرأة أمر طبيعي محسوس ، فهما موجودان بشريان مختلفان اختلافاً عضوياً وروحياً ، على رغم كل الدعايات السخيفة التي تريد إزالة كل تفاوت بينهما . ولأجل ذلك اختلفت أحكام كل منهما عن الآخر اختلافاً يقتضيه طبع كل منهما . فإذا كان التشريع مطابقاً لفطرتها ومسايراً لطبعها ، ظلّ ثابتاً لا يتغير بمرور الزمان لثبات الموضوع المقتضي لثبات محموله .

٣ - الإنسان بما هو موجود إجتماعي ، يحتاج لحفظ حياته وبقاء نسله ، إلى

العيش الإجتماعي ، والحياة العائلية ، وهذان الأمران من أسس حياة الإنسان ، ما برحت تقوم عليهما - في جملة ما تقوم عليه - منذ تكون الإنسان .

ومن المعلوم أن الحياة الاجتماعية والعائلية ، ليستا غنيتين عن التشريع لتنظيمهما ، فلو كان التشريع حافظاً لحقوق الأفراد ، خالياً عن الظلم والجور ، مبنياً على مبادئ واقعية ، يدوم هذا القانون ، ما دام مرتكزاً على العدل والصالح .

٤ - التشريع الإسلامي حريص جداً على صيانة الأخلاق وحفظها من الضياع والانحلال ، وما لا يشك فيه أن الخمر والميسر ، والإباحية الجنسية ، ضربات تقصم ظهر الأخلاق وتقضي عليها ، فالخمر يزيل العقل ، والميسر يُنبِت العداوة في المجتمع ، والإباحية الجنسية تُفسد الحرث والنسل ، فالأحكام الراجعة إليها ثابتة دائماً .

وحصيلة البحث أن تطور الحياة الاجتماعية في بعض نواحيها ، لا يوجب أن يتغير النظام السائد على مقتضى الفطرة ولا أن تتغير الأحكام الموضوعية على طبق ملاكات واقعية من مصالح ومفاسد كامنة في موضوعاتها ، فلو تغير لون الحياة في وسائل الركوب ، والنقل ، ومعدات التكتيك الحربي ، و . . . ، فإن ذلك لا يقتضي أن تنسخ أحكام الفطرة أو تنسخ حرمة الظلم ، ووجوب العدل ، ولزوم أداء الأمانة ، والوفاء بالعهود والأيمان ، إلى غير ذلك من الأحكام الراجعة إلى التحسين والتقبيح العقليين ، التي يستقل العقل ببقاء أحكامها ما دام الموضوع موضوعاً .

أجل ، إن تقلب الأحوال ، وتحول الأوضاع الاجتماعية يتطلب تحولاً في السنن والأنظمة ، وتبدلاً في الأحكام والقوانين ، غير أنه لا يتطلب تحولاً فيما يمس واقعية الإنسان الثابتة في جميع الظروف ، كما لا يتطلب تحولاً في القوانين الكونية التي تدبر الكون بأصولها الثابتة ، فلا تتغير النسب الرياضية ، ولا القواعد الهندسية ، وإن تطورت الأوضاع وتحولت^(١) .

(١) قد مضى عند البحث في الشاهد الخامس من شواهد إعجاز القرآن الكريم ، وهو اتفاق التشريع والتقنين ، ما يفيدك ، مراجع .

أُسئلة حول الخاتمة

السؤال الخامس

هل القوانين المحدودة تفي بالحاجات غير المتناهية ؟

إنَّ توسع الحضارة يُلزم المجتمع بتنظيم قوانين جديدة تفوق ما كان يحتاج إليها فيما مضى ، وبما أنَّ الحضارة والحاجات في حال التزايد والتكامل ، فكيف تعالجُ القوانينُ المحدودةُ الواردةُ في الكتاب والسنة ، الحاجاتِ غير المحدودة .

وبما أنَّ الإسلام نظام تشريعيّ كاملٌ ، تَدْخُلُ في شؤون المجتمع كافة ، ثقافيَّها ، وسياسيَّها ، وإجتماعيَّها ، وعسكريَّها ، وعائليَّها ، وأغنى المجتمع عن كل تشريع سوى تشريعه ، فعندئذٍ يطرح هذا السؤال نفسه : إنَّ القوانين الواردة في الكتاب والسنة ، محدودةٌ مهما توسَّع نطاقها ، فكيف تُغني المجتمع عن ممارسة التشريع في الحوادث والموضوعات التي لم يكن بها عهد زمن نزول القرآن وبعثة الرسول .

نعم ، المسيحية أراحت نفسها من الإجابة عن هذا السؤال بادّعاء أنَّ نظامها لا يخرج عن الطقوس الفردية والعبادية ، وإنَّما هو الإسلام ، الذي يدّعي إغناء المجتمع عن كل تشريع في جميع حقول الحياة .

الجواب :

إنَّ خلود التشريع الإسلامي ، وغناه عن كل تشريع ، مبني على وجود أمرين فيه :

١ - أنه ذو مادة حيوية ، خلاقة للتفاصيل مهما كثرت الحاجات ، واستجّدت الموضوعات .

٢ - أنه ينظر إلى الكون والمجتمع بسعة ورحابة ، مع مرونة خاصة تسير الحضارات الإنسانية المتعاقبة . وإليك بيان كلا الأمرين :
أما الأمر الأول : فقد أحرزه بتنفيذ أمور :

١ - الإعراف بحجّة العقل في مجالات خاصة

اعترف القرآن والسنة بحجّة العقل في مجالات خاصة ، مما يرجع إليه القضاء فيها ، ولا يكون هو أجنبياً بالنسبة إليها ، وذلك كما في باب الملازمات التي ستأتي الإشارة إلى عناوينها . وليس المراد من حجّيته ، أنه يُطلق سراحه في مجال التعبدات التي لا طريق إليها إلا بالوحي ، فإنه لا صلاحية له في ذاك المجال .

وأما الملازمات التي تعدّ من الأحكام العقلية القطعية ، وهي مرادهم من قولهم بأن ما حكم به العقل حكم به الشرع ، فأمثلتها :

أ - الملازمة بين وجوب الشيء ووجوب مقدمته .

ب - الملازمة بين وجوب الشيء وحرمة ضده .

ج - الملازمة بين عدم جواز اجتماع الأمر والنهي ، وبطلان العبادة .

د - الملازمة بين النهي عن العبادة والمعاملة ، وفسادهما .

هـ - الملازمة بين المنطوق والمفهوم في القضايا الشرطية ، أو الوضعية ، أو المُنْيَاة بغاية .

ونظير ذلك ما يستقل به العقل من أحكام عقلية تلازم أحكاماً شرعية ، كاستقلاله بقبح العقاب بلا بيان ، الملازم لعدم ثبوت الحرمة والوجوب إلاّ بالبيان . واستقلاله بلزوم الإجتنب عن أطراف العلم الإجمالي في الشبهات التحريمية ، ولزوم الموافقة القطعية في الشبهات الوجوبية ، واستقلاله بإجزاء

إطاعة الأوامر الإضرارية أو الأوامر الظاهرية ، وغير ذلك . ولعلّ الكلّ يرجع إلى مبدئ واحد ، وهو استقلاله بالتحسين والتقيح الذاتيين ، وهذا هو المنتج لهذه الملزمات والأحكام .

وقد فتح هذا الإعتراف ، للإسلام ، باب البقاء والخلود ، وغدا التشريع الإسلامي في ضوءه ذا سعة وشمول لكثير من الموضوعات المستجدة أو غيرها مما لم يذكر حكمه في الكتاب والسنة .

نعم ، مَنْ أعدم العقل وعزله عن الحكم في مجالاته الخاصة به ، أعطى للإسلام ولقوانينه سمة الجمود ، وعدم الشمول كما أنّ مَنْ فسّح المجال للعقل ، للحكم في كل مورد ليس له طريق إليه ، جعل التشريع الإسلامي لعبة تتلاعب بها الأهواء .

وبما أنّ هذا البحث ، بحث يرجع إلى علم أصول الفقه ، نقتصر على هذا القدر ، ونختم الكلام بحديث عن الإمام الطاهر ، موسى بن جعفر الكاظم ، وهو يخاطب تلميذه هشام بن الحكم ، بقوله :

« إنّ الله على الناس حجتين ، حجة ظاهرة ، وحجة باطنة ، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء ، والأئمة ، وأما الباطنة فالعقول »^(١) .

٢ - الإعتراف بتبعية الأحكام للمصالح والمفاسد

الأحكام الشرعية - حسب ما ينصّ عليه الكتاب - تابعة للمصالح والمفاسد ، فلا حرام إلّا لمفسدة في اقترافه ، ولا فريضة إلّا لمصلحة في الإتيان بها . ولا يراد من المصالح والمفاسد خصوص الدنيوية ، بل الأعمّ مما يرجع إلى سعادة البشر في دنياه ، وفي أخراه .

يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾^(٢) .

(١) الكافي ، ج ١ ، ص ١٦ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٩١ .

فإذا كانت الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد ، وكانت الغاية المتوخاة من تشريعها هي الوصول إلى المصالح والتحرز عن المفاسد ، وبما أنّ المصالح والمفاسد ليست على وزانٍ واحد ، بل لها درجات ومراتب ، عَقَدَ الفقهاء باباً لتزاحم الأحكام وتصادمها ، فيقدمون الأهمّ على المهم ، والأكثر مصلحة على الأقلّ منه ، والأعظم مفسدة على الأحقر منه . وقد أعان فتح هذا الباب على حلّ كثير من المشاكل الإجتماعية ، التي ربما يتوهم الجاهل أنّها تعرقل خطى المسلمين في معترك الحياة .

ومن أمثلته : إنّ تشريع بدن الإنسان في المختبرات ، من الأمور الضرورية الحيوية التي يتوقف عليها نظام الطب اليوم . غير أنّ هذه المصلحة تصادمها حرمة التمثيل بالميت ، مسلماً كان أو كافراً ، ولكن عناية الشارع بالصحة العامة تجعل إحراز هذه المصلحة مقدّمة على المصلحة الأخرى ، وهي حرمة الميت ، ولكن يقدم في هذا المجال بدن الكافر على المسلم ، والمسلم غير المعروف على المعروف ، وهكذا . وفي ضوء هذا المثال نقدر على طرح أمثلة كثيرة .

٣- الكتاب والسنة مادة خصبة للتشريع

إنّ الكتاب والسنة مشتملان على أصول وقواعد ، تفي باستنباط آلاف من الفروع التي يحتاج إليها المجتمع البشري على امتداد القرون والأجيال . وهذه الثروة العلمية التي اختصّت بها الأمة الإسلامية من بين سائر الأمم ، أغنت المسلمين عن التمسك بكل تشريع سواه .

وتتجلى تلك الحقيقة إذا وقفنا على مرمى حديث الثقلين ، وأنّ العِترَةَ الطاهرة ، قرناء القرآن وأعداله ، لا يفترقان أبداً ، ففي ضوء الأحاديث الواردة عن الأئمة الإثني عشر من أهل بيت الرسول الأعظم ، قَدِرَ التشريع الإسلامي - على مذهب الإمامية - على استنباط أحكام الموضوعات المستجدة الكثيرة ، بوضوح وانطلاق ، ولم يرَ هناك قصور فيه .

نعم ، إنّ من اقتصر في مجال السنة على خصوص ما روته الصحابة عن

النبي الأكرم ، لم يَرِ بَدْءَ من اللجوء إلى مقاييس وقواعد ظنية ما أنزل الله بها من سلطان ، كالقول بالقياس والإستحسان والإستقراء ، وغيرها من الظنّيات التي نهى الشارع المقدس عن التعبد بها في مجال العبودية ، بقوله : ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (١) ؟

هذا ، وإنّ الأحاديث الإسلامية في مجال الأحكام الفرعية ، الواردة عن طريق الصحابة ، المنتهية إلى النبي الأكرم ، لا تتجاوز خمسمائة حديث ، تمّدها أربعة آلاف (٢) .

ومن المعلوم أنّ هذا المقدار من الأحاديث لا يفي بحاجات المجتمع البشري إلى يوم القيامة ، وهذا يعرب عن أنّ الرسول لم يترك الأمة سدىً ، ولم يدفعهم إلى العمل بمقاييس ظنية لا دليل عليها ، وإنّما عالج هذه الناحية الحيوية بالأمر بالرجوع إلى عترته الطاهرة .

إنّ من المؤسف جداً ، رفض الروايات المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، الذين اعترف القريب والبعيد بطهارتهم ووثاقهم وعُلُوّ شأنهم ، والأخذ بمقاييس ظنية ، وإدارة رحي التشريع بها .
« وَدَعْنَا عَنْكَ نَهَبًا صَبِيحًا فِي حَجَرَاتِهِ » .

٤ - تشريع الإجتهد

المراد من الإجتهد هو بذل الوسع في استنباط الأحكام الشرعية عن مصادرها المعينة ، وهو رمز خلود الدين وبقاء قوانينه ، لأنّه به تحفظ غضاضة الدين وطراوته ، ويصان عن الإندراس ، وبالتالي يستغني المسلمون عن موائد الأجانب .

أمّا لزوم فتح هذا الباب ، ولا سيما في العصر الحاضر فليس شيئاً يحتاج إلى

(١) سورة يونس : الآية ٥٩ .

(٢) لاحظ الوحي المحمدي ، لمحمد رشيد رضا ، الطبعة السادسة ، ص ٢١٢ .

البرهنة ، إذ لم تنزل الأمة الإسلامية ، في أعصارها الغابرة والحاضرة ، أمام موضوعات مستجدة وطارئة ، فيجب عليها عند ذلك أن تختار سلوك أحد السبل التالية :

- إما بذل الوسع في استنباط أحكامها من الكتاب والسنة والعقل .
- أو اتباع القوانين الوضعية البشرية من غير نظر إلى مقاصد الشريعة .
- أو الوقوف والسكوت من غير إفتاء .
- ولا شك أن المتعين هو الأول .

وقد كان الاجتهاد مفتوحاً بصورته البسيطة بين الصحابة فالتابعين ، كما أنه لم يزل مفتوحاً على مصراعيه بين أصحاب الأئمة الإثني عشر ، وهم الذين قالوا لشيعتهم : « إنما علينا إلقاء الأصول وعليكم التفريع »^(١) .

وإن من مواهب الله تعالى ، العظيمة ، على الأمة الإسلامية ، تشريع الاجتهاد ، وفسح المجال لعلماء الأمة لأن يناقشوا أفكارهم ، فلم تقم للإسلام دعامة ، ولا حفظ كيانه ونظامه إلا على ضوء هذه البحوث والمناقشات العلمية ورد صاحب فكر على ذي فكر آخر ، وقد حكى شيخنا العلامة المتضلع ، شيخ الشريعة الأصفهاني - رحمه الله - عن بعض الأعلام ، قوله : « إن عدم محاربة العلماء ، بعضهم لبعض ، من أعظم مزايا هذه الأمة ، التي أعظم الله بها عليهم النعمة ، حيث حفظهم عن وصمة محاربة أهل الكتابين ، المؤدية إلى تحريف ما فيهما ، واندراس تينك الملتين ، فلم يتركوا لقائل قولاً فيه أدنى دخل إلا يبينوه ، ولفاعل فيه اعوجاج إلا قوموه ، حيث اتضحت الآراء وانعدمت الأهواء ، ودامت الشريعة البيضاء ، على ملىء الآفاق بأضوائها ، مأمونة عن التحريف ، ومصونة عن التصحيف »^(٢) .

وقد جنت بعض الحكومات الإسلامية ، حيث أفقلت باب الاجتهاد ، في

(١) الوسائل ، ج ١٨ ، كتاب القضاء ، الباب السادس من أبواب صعات القاضي ، الحديث ٥٢ .

(٢) إبانة المختار ، ص ١ .

أواسط القرن السابع ، وحرمت الأمة الإسلامية من هذه الموهبة العظيمة ، يقول المقرئ :

« استمرت ولاية القضاة الأربعة ، من سنة ٦٦٥ ، حتى لم يبق في مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب الإسلام ، غير هذه الأربعة وعودي من تمذهب بغيرها ، وأنكر عليه ، ولم يُؤَلَّ قاضي ، ولا قُبِلَت شهادة أحد ، ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب ، وأفتى فقهاؤهم في هذه الأمصار ، في طول هذه المدة ، بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها ، والعمل على هذا إلى اليوم »^(١) .
ومن بوادير الخير أن وَقَفَ غير واحدٍ من أهل النظر من علماء أهل السنة ، وقفة موضوعية ، وأحسوا بلزوم فتح هذا الباب بعد قفله قُرُوناً^(٢) .

٥ - حقوق الحاكم الإسلامي

من الأسباب الباعثة على كون التشريع الإسلامي ، صالحاً لحلّ المشاكل ، أنه منح للحاكم الإسلامي كافة الصلاحيات المؤدية إلى حقّ التصرف المطلق في كل ما يراه ذا صلاحية للأمة ، ويتمتع بمثل ما يتمتع به النبي والإمام من النفوذ المطلق ، إلا ما يعد من خصائصهما .

مثلاً : إذا رأى الحاكم أن المصلحة تقتضي فتح طريق أو شارع في أملاك الناس ، فَلَهُ أَنْ يُقَرَّرَ وينفذ ما يحقق هذه الغاية في ضوء العدل والإنصاف : فله أن يُجْبِرَ أصحاب الأراضى التي يمر بها الطريق ، على بيع أراضيتهم أو يشتريها بثمان مناسب .

أو إذا أراد رفع المعيشة العامة إلى مستوى خاص ، فله وضع الضريبة على صنف خاص من أبناء الشعب ، أو كلهم لتأمين هذه الغاية .

(١) الخطط المقرئية ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ .

(٢) لاحظ تاريخ حصر الاجتهاد ، لشيخنا العلامة الطهراني ، ودائرة المعارف لفريد وجدي ، مادة « جهد » و « ذهب » . وغير ذلك مما أُلِفَ في هذا المضمار .

كما أنّ له أن يقرر ما يراه مناسباً لتنظيم السير في الشوارع ، متوخياً في ذلك سلامة النفوس ، وسهولة الذهاب والإياب ، كلّ ذلك في إطار العدل والإنصاف والقوانين العامة الإسلامية .

قال المحقق النائي رحمه الله : « فَوُضَّ إلى الحاكم الإسلامي وضع ما يراه لازماً من المقررات ، لمصلحة الجماعة وسدّ حاجاتها في إطار القوانين الإسلامية »^(١) .

وهذه الحقوق ثابتة للنبي الأكرم ، لقوله سبحانه : « النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم »^(٢) .

كما أنّها ثابتة لخلفائه المعصومين ، وبعدهم لعلماء الأئمة وفقهاء الدين الذين أقيمت على كواهلهم أمور تدبير حياة الأئمة ، وصيانة الشريعة .

وهناك كلمة قيمة للإمام الخميني - قدّس سرّه - تأتي بنصّها :

« إنّ الحاكم الإسلامي إذا نجح في تأسيس حكومة إسلامية في قطر من أقطار الإسلام ، أو في مناطقه كلّها ، وتوفرت فيه الشرائط والصلاحات اللازمة ، وأُخِصَّ بالذكر : العلم الواسع ، والعدل ، يجب على المسلمين إطاعته ، وله من الحقوق والمناصب والولاية ، ما للنبيّ الأكرم من إعداد القوات العسكرية ، ودعمها بالتجنيد ، وتعيين الولاية وأخذ الضرائب ، وصرفها في محالّها ، إلى غير ذلك ... »

وليس معنى ذلك أنّ الفقهاء والحُكّام الإسلاميين ، مثل النبي والأئمة في جميع الشؤون والمقامات ، حتى الفضائل النفسانية ، والدرجات المعنوية ، فإنّ ذلك رأيّ تافه لا يُركنُ إليه ، إذ إنّ البحث إنّما هو في الوظائف المحولة إلى الحاكم الإسلامي ، والموضوعة على عاتقه ، لا في المقامات المعنوية والفضائل النفسانية ،

(١) تنبيه الأئمة وتنزيه الملّة ، ص ٩٧ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٦ .

فإنهم صلوات الله عليهم ، في هذا المضمار ، في درجة لا يدرك شأوهم ، ولا يشق لهم غبار ، حسب روائع نصوصهم وكلماتهم .

وليست السلطة مفخرة للحاكم يعلو بها على سائر المحكومين ، بل هي من وجهة النظر الإسلامية مسؤولية إجتماعية كبرى أمام الله سبحانه أولاً ، وأمام المسلمين ثانياً . والجهة الجامعة ما بين الحاكم والإمام في إدارة دفة الحكم وسياسة العباد ، ليس لها أي ارتباط بالمثل الخلقية والصفات النفسانية ^(١) .

ثم إن البحث حول حقوق الحاكم الإسلامي ، الذي يمهّد الطريق لسيادة الأحكام الإسلامية طويل الذيل يرجع فيه إلى مفاهيم القرآن ^(٢) .

وأما الأمر الثاني ، وهو أنّ التشريع الإسلامي ينظر إلى الكون والمجتمع بسعة ورحابة ، مع مرونة خاصة تسير الحضارات الإنسانية المتعاقبة ، فقد أحرز ذلك بتحقيق أمور ثلاثة :

١ - النظر إلى المعاني دون الظواهر

الإسلام يهتم بالمعنى دون الظاهر ، وهذه إحدى العلل لبقاء أحكامه وخلودها ، وقد أوضحنا حال ذلك عند البحث عن إتقان التشريع والتقنين الإسلامي .

(١) ولاية الفقيه ، للإمام السيد الحميني ، ص ٦٣ - ٦٦ . وقد كان سياحته حياً يرزق ونحن نجري القلم على هذه المواضع ، لکه لبي دعوة ربّه والتحق بالرفيق الأعلى ليلة الأحد التاسع والعشرين من شهر شوال عام ١٤٠٩ للهجرة . وقد كان - قدس الله سرّه - رجلاً مثالياً في التقوى ، وبطلاً في العلم ، ومجاهداً مناضلاً في سبيل إعلاء كلمة الحق . وبالحق كان مصداقاً لقول الشاعر :

ليس من الله بمُسْتَنَكِر
أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ

أعلى الله مقامه ، ورفع في الجنان درجته .

(٢) قد أشبع شيخنا الأستاذ - دام ظله - الكلام في هذا المضمار ، فلاحظ « مفاهيم القرآن » ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ - ٢٩٦ .

٢ - الأحكام التي لها دور التحديد

من الأسباب الموجبة لمرونة هذا الدين وصلاحيته للبقاء ، وجود قوانين حاكمة على القوانين العامة ، مثل قاعدة ، « لا حرج » ، و« لا ضرر » ، وغير ذلك مما أوضحنا حاله عند البحث عن إتقان التشريع والتقنين الإسلامي .

٣ - الإسلام شريعة وَسْطَى والأمة الإسلامية أُمَّة وَسْطَى

من الأسباب الدافعة إلى صلوح الإسلام للبقاء والخلود ، كونه ديناً جامعاً بين الدعوة إلى المادة ، والدعوة إلى الروح ، وديناً وسطاً بين المادية البحتة ، والروحية المحضة ، وبذلك جاء شريعة تامة لم تعطل الفطرة في تشريعاتها ، ولم تلقي حبلها على عاتقها لتخرج عن حدودها ، فأخذت من الدنيا ما هو لصالح العباد ، ومن الآخرة مثله .

فكما أن الإسلام ندب إلى العبادة ، ندب إلى طلب الرزق أيضاً ، بل ندب إلى ترويح النفس ، والتخلية بينها وبين لذاتها .

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « للمؤمن ثلاث ساعات ، ساعة يُناجي فيها ربّه ، وساعة يرّم فيها معاشه ، وساعة يُخْلِ بين نفسه ولذاتها »^(١) . .

فقد قرن بين عبادة الله ، وطلب الرزق ، وترفيه النفس ، بحيث جعل الجميع في مستوى واحد .

فكما أن أداء الصلاة والصوم ، والحج ، وظائف دينية ، فكذلك إن شقّ الطريق لطلب الرزق والمعاش ، والقيام بنزهة بين الرياض ، أو سباحة في الأحواض ، والأعمال الرياضية البدنية ، وظيفة دينية للمؤمن ، ولأجل هذا ينسجم الإسلام مع الحضارات المتواصلة .

* * *

(١) نهج البلاغة ، باب الحكيم ، رقم ٣٩٠ .

هذه هي الخاتمة ، ودلائلها المشرقة ، وشبهاتها الضئيلة ، وأسئلتها المهمة ،
وأجوبتها الرصينة ، طرحناها معرض البحث والتنقيب ، ولم يكن رائدنا إلاّ تبني
الحقيقة ، متجرّدين عن كل رأي مسبق لا دليل عليه .

تمّ الكلام بحمده تعالى في النبوة الخاصة .

* * *

الفصل التاسع

الإمامة والخلافة

* مقدمات

- ١ - تعريف الإمامة .
- ٢ - هل الإمامة من الأصول أو الفروع ؟ .
- ٣ - ماهية الإمامة عند أهل السنة .
- ٤ - مؤهلات الإمام عند أهل السنة .
- ٥ - بماذا تنعقد الإمامة عند أهل السنة ؟ .
- ٦ - ماهية الإمامة عند الشيعة الإمامية .
- ٧ - المصالح العامة وصيغة الحكومة بعد النبي .
- ٨ - هل الشورى أساس للحكم والخلافة ؟ .
- ٩ - هل البيعة أساس للحكم والخلافة ؟ .
- ١٠ - تصوّر النبي الأكرم للقيادة بعده .
- ١١ - تصوّر الصحابة للخلافة بعد النبي .
- ١٢ - صيغة القيادة في الشرائع السابقة .

- * البحث الأول : السنة النبوية وتنصيب علي للإمامة .
- * البحث الثاني : السنة النبوية والأئمة الإثنا عشر .
- * البحث الثالث : عصمة الإمام في القرآن .
- * البحث الرابع : الإمام المنتظر في الكتاب والسنة .
- أسئلة مهمة حول المهدي عجل الله فرجه .

الفصل التاسع

الإمامة والخلافة

المقصود من الإمامة ، إمامة الأمة جمعاء . خلافة عن الرسول الأكرم ،
صلى الله عليه وآله ، وقبل الخوض في أصل المقصود ، نقدم أموراً :

الأمر الأول

في تعريف الإمامة

عُرِّفَت الإمامة بوجوه :

- ١ - الإمامة رئاسة عامّة في أمور الدين والدنيا^(١) .
 - ٢ - الإمامة خلافة الرسول في إقامة الدين ، بحيث يجب أتباعه على كافة الأمة^(٢) .
 - ٣ - الإمامة نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا^(٣) .
 - ٤ - الإمامة خلافة عن الرسول في إقامة الدين وحفظ المِلَّة بحيث يجب أتباعه على كافة الأمة^(٤) .
- والتعريف الأول أَلْيَقَ على مذهب الإمامية ، والبقية ألصق بمذهب أهل السنة في الإمام .
- والأولى أن تُعرَّف الإمامة بأنّها رئاسة عامة إلهية . وعلى كل تقدير ، فالمهم هو تحليل ماهية هذه الخلافة ، وتحديدّها ، وأنّه ماذا يراد من الإمامة في مصطلح المتكلمين .

(١) المواقف ، ص ٣٤٥ ، وقال فيه : « وَنُقِصَ بالنبوة » . وسيوافيك أنّ النقض غير وارد

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٩١ .

(٤) دلائل الصدق ، ج ٢ ، ص ٤ . والتعريف للفضل بن روزهان الأشعري

الأمر الثاني

هل الإمامة من الأصول أو الفروع ؟

اتفقت كلمة أهل السنة ، أو أكثرهم ، على أن الإمامة من فروع الدين .

قال الغزالي : « إعلم أن النظر في الإمامة أيضاً ليس من المهمات ، وليس أيضاً من فنّ المعقولات ، بل من الفقهيات ، ثم إنها مشار للتعصبات ، والمعرض عن الخوض فيها ، أسلم من الخائض فيها ، وإن أصاب ، فكيف إذا أخطأ ؟ ولكن إذ جرّ الرسم باختتام المعتقدات بها ، أردنا أن نسلك منهج المعتاد ، فإنّ فطام القلوب عن المنهج ، المخالف للمألوف^(١) ، شديد النفار^(٢) .

وقال الأمازي : « واعلم أن الكلام في الإمامة ليس من أصول الديانات ، ولا من الأمور الأبديّات ، بحيث لا يسع المكلف الإعراض عنها والجهل بها ، بل لعمري إنّ المعرض عنها لأرجى من الواغل فيها ، فإنّها قلّما تنفك عن التعصّب ، والأهواء ، وإثارة الفتن والشحناء ، والرجم بالغيب في حق الأئمة والسلف ، بالإزراء ، وهذا مع كون الخائض فيها سالكاً سبيل التحقيق ، فكيف إذا كان خارجاً عن سواء الطريق . لكن لما جرت العادة بذكرها في أواخر كتب المتكلمين ، والإبانة عن تحقيقها في عامة مصنفات الأصوليين ، لم نر من الصواب

(١) كذا في المصدر ، والظاهر أنّ « المخالف » صفة « الفطام » ، أو أنّ « المخالف » زائد .

(٢) الإقتصاد في الإعتقاد ، ص ٢٣٤ .

خَرَقَ العادة بِتَرْكِ ذِكْرِهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ»^(١) .

وقال الإيجي : « وهي عندنا من الفروع ، وإنما ذكرناها في علم الكلام تأسيساً بمن قبلنا »^(٢) .

وقال التفتازاني : « لا نزاع في أنَّ مباحث الإمامة ، بعلم الفروع أليق ، لرجوعها إلى أنَّ القيام بالإمامة ، ونصب الإمام الموصوف بالصفات المخصوصة ، من فروض الكفايات ، وهي أمور كَلِّية تتعلق بها مصالح دينية أو دنيوية ، لا ينتظم الأمر إلاً بحصولها ، فيقصد الشارع تحصيلها في الجملة من غير أن يقصد حصولها من كلِّ أحد . ولا خفاء في أنَّ ذلك من الأحكام العملية دون الاعتقادية »^(٣) .

هذا ما لدى أهل السنة ، وأمّا الشيعة ، فالإعتقاد بالإمامة عندهم أصل من أصول الدين ، وسيظهر وجهه في الأبحاث التالية .

وها هنا سؤال يطرح نفسه ، وهو أنه إذا كانت الإمامة من الفروع ، فأبي معنى لسَلِّ السيف على هذا الحكم الفرعي ، حتى قال الشهرستاني : « وأعظم خلاف بين الأمة ، خلافاً للإمامة ، إذ ما سُلِّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلِّ على الإمامة في كلِّ زمان »^(٤) .

فإذا كان الإعتقاد بإمامة شخص ، تَوَلَّى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، من الأحكام الفرعية ، فإنَّ المخالفة فيه لا تستلزم تكفير المخالف أو تفسيقه ، إذا كان للمخالف حجة شرعية ، كمخالفة المجتهد للمجتهد .

مثلاً : إنَّ المسح على الخُفَّيْنِ ، أو جواز العمل بالقياس ، من مسائل الفروع الخلافية ، فهل ترى من نفسك تجوز تكفير المخالف ، أو تفسيقه ؟ ، أو

(١) غاية المرام في علم الكلام ، ص ٣٦٣ ، لسيف الدين الأمدي ، (ت ٥٥١ - م ٦٣١) .

(٢) المواقف ، ص ٣٩٥ .

(٣) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٧١ .

(٤) الملل والنحل ، للشهرستاني ، ج ١ ، ص ٢٤ .

إِنَّ لِكُلِّ حُجَّتِهِ وَدَلِيلِهِ ، وَإِنَّ لِلْمُصِيبِ أَجْرَيْنِ وَلِلْمُخْطِئِ أَجْرًا وَاحِدًا ، فَمَا هَذِهِ الدِّمْدِمَةُ وَالْمَهْمَةُ حَوْلَ الْإِمَامَةِ ؟ .

وإذا كانت الإمامة ، بعامة أبحاثها من الفروع ، فما وجه إقحام ذلك في إعداد المسائل الأصولية ، كما ارتكبه إمام الحنابلة ، وقال : « خير هذه الأمة بعد نبينا ، أبو بكر ، وخيرهم بعد أبي بكر ، عمر ، وخيرهم بعد عمر ، عثمان ؛ وخيرهم بعد عثمان ، علي ؛ رضوان الله عليهم ، خلفاء راشدون مهديون »^(١) .

ومثله ، أبو جعفر الطحاوي الحنفي في العقيدة الطحاوية ، المسماة بـ « بيان عقيدة السنة والجماعة » ، حيث قال : « وثبتت الخلافة بعد النبي (صلى الله عليه وآله) لأبي بكر الصديق ، تفضيلاً ، وتقديماً على جميع الأمة ، ثم لعمر بن الخطاب ، ثم لعثمان بن عفان ، ثم لعلي بن أبي طالب »^(٢) .

وقد اقتفى أثرهما الشيخ أبو الحسن الأشعري ، عند بيان عقيدة أهل الحديث وأهل السنة ، والشيخ عبد القاهر البغدادي في بيان الأصول التي اجتمع عليها أهل السنة^(٣) .

وهذا الصراع بين القولين ، أراق الدماء الطاهرة ، وجرّ على الأمة الويل والثبور ، وعظائم الأمور ، فما معنى إقحام الاعتقاد بالأحكام الفرعية في قائمة العقائد ؟ وإنّ هذا إلّا زلة لا تستقال .

نعم ، أوّل من لبس الأمر ، وجعل الاعتقاد بها من صميم الإيمان على

(١) كتاب السنة ص ٤٩ ، المطبوع ضمن رسائل بإشراف حامد محمد فقي . وهذا الكتاب ألف لبيان مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة ، ووَصَفَ مَنْ خَالَفَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ أَوْ طَغَى فِيهَا أَوْ عَابَ قَائِلَهَا ، بِأَنَّهُ خَالَفَ مُبْتَدِعَ وَخَارِجَ عَنِ الْجَمَاعَةِ ، زَائِلٌ عَنِ مَنِجَةِ السُّنَّةِ وَسَبِيلِ الْحَقِّ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، للشيخ عبد الغني الميداني الحنفي الدمشقي ، ص ٤٧١ ، وأخذنا العبارة من المتن . وتوفي الطحاوي عام ٣٢١ هجرية .

(٣) لاحظ « الإبانة عن أصول الديانة » ، الباب ١٦ ، ص ١٩٠ و « الفَرْقُ بَيْنَ الْفِرَقِ » ، ص ٣٥٠ . ولاحظ « مُلْعُ الْأَدِلَّةِ » للإمام الأشعري ، ص ١١٤ ، و « الْعَقَائِدُ النَّسْفِيَّةُ » ، ص ١٧٧ .

مسلك أهل السنة، هو عمرو بن العاص ، عندما اجتمع مع أبي موسى الأشعري ، في دومة الجندل . وما جعل الاعتقاد بخلافة الخليفين الأولين ، إلا للإزدراء بعليّ (عليه السلام) وشيعته^(١) .

* * *

(١) لاحظ مروج الذهب للمسعودي ، ج ٢ ، ص ٣٩٧ . ولاحظ «بحوث في الملل والنحل» ، لشيخنا الأستاذ - دام ظلّه - ج ١ ، ص ٢٦٥ - ٢٧٢ .

الأمر الثالث

ماهية الإمامة عند أهل السنة

إنَّ اتِّفاق مشايخ المتكلمين من أهل السنة على كون الإمامة من الفروع التي يبحث عنها في الكتب الفقهية ، واتِّفاق الشيعة الإمامية على أنَّها من الأصول ، ينشآن من أصل آخر ، وهو أنَّ حقيقة الإمامة تختلف عند السنة ، عمَّا هي عند الشيعة ، فالسُّنة ينظرون إلى الإمام كرئيس دولة ، ينتخبه الشعب أو نواب الأُمَّة ، أو يتسلَّط عليها بانقلاب عسكري ، وما شابه ذلك ، فإنَّ مثل هذا لا يشترط فيه سوى بعض المواصفات المعروفة ، ومن المعلوم أنَّ الاعتقاد برئاسة رئيس جمهورية ، أو رئيس وزراء ، ليس من الأصول ، بحيث يُفسَّق من لم يعتقد بإمامته ورئاسته وولايته . وهذه هي البلاد الإسلامية لما تنزل يسيطر عليها رئيس بعد آخر ، رغبة أو رهبة ، ولم يرَ أحدُ الاعتقادَ بإمامته من الأصول ، ولم يجعل فسقه موجباً لخلعه أ ، وإلاَّ لما استقرَّ حجر على حجر .

وأما الشيعة الإمامية ، فينظرون إلى الإمامة بأنَّها استمرار لوظائف الرسالة (لا لنفس الرسالة ، فإنَّ الرسالة والنبوة مختومتان بالتحاق النبي الأكرم بالرفيق الأعلى) ، ومن المعلوم أنَّ ممارسة هذا المقام ، يتوقف على توفر صلاحيات عالية ، لا ينالها الفرد ، إلاَّ إذا وقع تحت عناية إلهية ربَّانية خاصة ، فيخلُف النبي في علمه بالأصول والفروع ، وفي عدالته وعصمته ، وقيادته الحكيمة ، وغير ذلك من الشؤون .

ومَّا يعرب عن أنَّ الإمامة عند أهل السنة أشبه بسياسة وقتية زَمَنِيَّة ، يشغلها

فرد من الأمة بأحد الطرق ، ما اشترطوه من الشروط ، وذكره من الأوصاف في حق الإمام ، وستوافيك فيما يأتي . ولأجل إيقاف الباحث على صحة هذا التحليل نشير إلى بعض كلماتهم .

قال الباقلاني : « لا ينخلع الإمام بفسقه وظلمه بغصب الأموال ، وضرب الأبخار ، وتناول النفوس المحرمة ، وتضييع الحقوق ، وتعطيل الحدود ، ولا يجب الخروج عليه ، بل يجب وعظه وتخويله وترك طاعته في شيء مما يدعو إليه من معاصي الله »^(١) .

وقال الطحاوي : « ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا ، وإن جاروا ، ولا ندعوا عليهم ، ولا ننزع يداً من طاعتهم ، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ، ما لم يأمرُوا بجمعية ، وندعو لهم بالصلاح والمعافة »^(٢) . وقال : « والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين ، برهم وفاجرهم ، إلى قيام الساعة ، ولا يبطلهما شيء ولا ينقضهما »^(٣) .

قال التفتازاني : « ولا ينزعزل الإمام بالفسق ، أو بالخروج عن طاعة الله تعالى ، والجور (أي الظلم على عباد الله) ، لأنه قد ظهر الفسق ، وانتشر الجور من الأئمة والأمراء بعد الخلفاء الراشدين ، والسلف كانوا ينقادون لهم ، ويقيمون الجمع والأعياد بإذنهم ، ولا يرون الخروج عليهم » . ونقل عن كتب الشافعية أن القاضي ينزعزل بالفسق بخلاف الإمام ، والفرق أن في انعزاله ووجوب نصب غيره إثارة الفتنة ، لما له من الشوكة ، بخلاف القاضي^(٤) .

إلى غير ذلك من الكلمات التي ذكروها في وجوب إطاعة السلطان الجائر ، وحرمة الخروج عليه^(٥) . فإن هذه الكلمات تبين لنا موقع منصب الإمامة عند أهل

(١) التمهيد ، للقاضي أبي بكر الباقلاني ، ض ١٨١ . توفي القاضي عام ٤٠٣ .

(٢) متن شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٣٧٩ ، ولاحظ ما ذكره في شرحه .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٨٧ .

(٤) شرح العقائد النسفية ، المتن لأبي حفص عمر بن محمد السفي (م ٥٣٧) ، والشرح لسعد الدين التفتازاني (م ٧٩١) ص ١٨٥ - ١٨٦ ، ط إسطنبول .

(٥) لاحظ مقالات الإسلاميين ، للأشعري ، ص ٣٢٣ ، وأصول الدين ، لمحمد بن عبد الكريم اليزدي (إمام الماتريدية) ، ص ١٩٠ .

الحديث والأشاعة ، وكلّها تعرب عن أنّهم ينظرون إلى الإمامة كسياسة وقتية
زمنية ، وإلى الإمام كسائن عاديّ يقود أُمّته في حياتهم الدنيوية . ولأجل ذلك لا
يكون الفسق والجور ، وهتك الأستار ، قاذحاً في إمامتهم ، كما أنّ التسلط على
الرقاب بالقهر والإستيلاء ، والنار والحرب ، أحد الطُرق المسوغة للتريع على
منصّة الإمامة .

فإذا كانت هذه هي حقيقة الإمامة ، وكان هذا هو الإمام ، فلا غرابة حينئذٍ
في جعلها من الأحكام الفرعية .

* * *

الأمر الرابع

مؤهلات الإمام عند أهل السنة

إنطلاقاً من البحث السابق في تبين ماهية الإمامة ، عند أهل السنة لم يشترطوا في الإمام سوى عدّة صلاحيات ، تشترط في عامة الرؤساء ، وإليك نصوصهم :

(١) - قال الباقلاني (م ٤٠٣) : « يشترط :

- أن يكون قُرَشِيّاً من صميم .

- وأن يكون في العلم بمنزلة من يصلح أن يكون قاضياً من قضاة المسلمين .

- وأن يكون ذا بصيرة بأمر الحرب ، وتدبير الجيوش والسرايا ، وسدّ الثغور ، وحماية البيضة ، وحفظ الأُمّة ، والانتقام من ظالمها ، والأخذ لمظلومها »^(١) .

(٢) - وقال عبد القاهر البغدادي (م ٤٢٩) : « قال أصحابنا إنّ الذي يصلح للإمامة ينبغي أن يكون فيه أربعة أوصاف :

- أحدها : العلم . وأقل ما يكفيه منه ، أن يبلغ فيه مبلغ المجتهدين في الحلال والحرام ، وفي سائر الأحكام .

(١) التمهيد ، ص ١٨١ .

- الثاني : العدالة والورع . وأقل ما يجب له من هذه الخصلة ، أن يكون ممن يجوز قبول شهادته تحملاً وأداءً .

- والثالث : الإهتمام إلى وجوه السياسة وحسن التدبير ، وأن يعرف مراتب الناس ، فيحفظهم عليها ، ولا يستعين على الأعمال الكبار ، بالعُمل الصغار ، ويكون عارفاً بتدبير الحروب .

- الرابع : النسب من قُرَيْش « (١) » .

(٣) - وقال أبو الحسن البغدادي الماوردي (م ٤٥٠) : « الشروط المعتبرة في الإمامة سبعة :

أحدها : العدالة على شروطها الجامعة . الثاني : العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام . الثالث : سلامة الخواس من السمع والبصر واللسان . الرابع : سلامة الأعضاء . الخامس : الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح . السادس : الشجاعة والنجدة . السابع : النسب ، وهو أن يكون من قريش (٢) » .

(٤) - وقال ابن حزم (م ٤٥٦) : « يشترط فيه أمور :

١ - أن يكون صلبه من قريش ، ٢ - أن يكون بالغاً مميزاً ، ٣ - أن يكون رجلاً ، ٤ - أن يكون مسلماً ، ٥ - أن يكون متقدماً لأمره ، ٦ - عالماً بما يلزمه من فرائض الدين ، ٧ - متقياً لله بالجملة ، غير معلن الفساد في الأرض . ٨ - أن لا يكون مولئاً عليه « (٣) » .

(٥) - وقال القاضي سراج الدين الأرموي (م ٦٨٩) : « صفات الأئمة

تسع :

١ - أن يكون مجتهداً في أصول الدين وفروعه ، ٢ - أن يكون ذا رأي

(١) أصول الدين ، لأبي منصور البغدادي ، م ٤٢٩ ، ص ٢٧٧ . ط دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) الأحكام السلطانية ، ص ٦ .

(٣) الفِصَل ، ج ٤ ، ص ١٨٦ .

وتدبير ، ٣ - أن يكون شجاعاً ، ٤ - أن يكون عدلاً ، ٥ - أن يكون عاقلاً ، ٦ - أن يكون بالغاً ، ٧ - أن يكون مُذَكَّرًا ، ٨ - أن يكون حُرّاً ، ٩ - أن يكون قُرَشِيًّا»^(١) .

(٦) - وقال التفتازاني (م ٧٩١) : « قد ذكرنا في كتبنا الفقهية أنه لا بدّ للأئمة من إمام يحبي الشريعة ، ويُقيم السنّة ، ويتّصف للمظلومين ، ويستوفي الحقوق ، ويضعها مواضعها ، ويشترط أن يكون مكلفاً ، مسلماً ، عدلاً ، حُرّاً ، ذَكَرًا مجتهداً ، شجاعاً ، ذا رأي وكفاية ، سميعاً بصيراً ، ناطقاً ، قُرَشِيًّا ، فإن لم يوجد من قریش من يستجمع هذه الصفات المعتبرة ، وُلِّي كِنَانِي . فإن لم يوجد فَرَجْلٌ من ولد اسماعيل ، فإن لم يوجد فَرَجْلٌ من العجم»^(٢) .

(٧) - وقال الفضل بن روزبهان : « وشروط الإمام أن يكون مجتهداً في الأصول والفروع ليقوم بأمر الدين ، ذا رأي وبصارة بتدبير الحرب ، وترتيب الجيوش ، شجاعاً ، قويّ القلب لِيَقْوَى على الدُّبِّ عن الحوزة»^(٣) .

ويلاحظ على هذه الشروط

أولاً : إنّ اختلافهم في عدد الشرائط قلّة وكثرة ، ناشيء من افتقادهم لنصّ الشرعي في مجال الإمامة واعتقادهم أنّ منصب الإمامة ، - مع عظمتها - لم ينس في النبي الأكرم ببنت شفة ، وإنّما الموجود عندهم نصوص كلية لا تتكفل بتعيين هذه الشروط ، ولا تتكفل لتبيين صيغة الحكومة الإسلامية بعد النبي ، والمصدر لهذه الشروط عندهم هو الإستحسان ، والإعتبارات العقلائية ، وملاحظة الأهداف التي يمارسها الإمام والخليفة بعد النبي الأكرم .

وهذا مما يقضي منه العَجَب ، وهو أنّ النبي كَيْفَ ترك بيان هذا الأمر

(١) مطالع الأنوار ، ص ٤٧٠ .

(٢) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٧١ .

(٣) دلائل الصدق ، ج ٢ ، ص ٤ .

المُهمّ ، شرطاً وصفةً ، مع أنّه بَيِّن أبسط الأشياء وأدناها ، من المكروهات والمستحبات .

وثانياً : إنّ اعتبار العدالة لا ينسجم مع ما ذهبوا إليه من أنّ الإمام لا ينخلع بفسقه وظلمه ، وغيره ممّا نقلناه عنهم .

كما أنّهم جعلوا القَهْرَ والإستيلاء ، أحد الأمور التي تنعقد بها الإمامة - كما سيأتي - وتجعل المستولي والقاهر وليّ أمرٍ ، يشملُه قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾^(١) . ومن المعلوم أنّ القاهر والمستولي بالحرب والنار ، لا يهيمه إلّا السلطة وإعمال القدرة ، سواءً أُجتمعت فيه هذه الشروط أو لا . أفهل يجب إطاعة مثل هذا ؟ :

وجوب طاعته لا ينسجم مع اعتبار هذه الشروط ؛ وعدم وجوب طاعته لا ينسجم مع كون القهر والغلبة من الأمور التي تنعقد بها الإمامة .

وثالثاً : إنّ التاريخ الإسلامي يشهد بأنّ الخلفاء بعد عليّ عليه السلام ، كانوا يفقدون أكثر هذه الصلاحيات ومع ذلك يمارسون الخلافة .

فهذه صحائف تاريخهم ، من لدن تَسَنُّمِ معاوية عرش الخلافة ، إلى آخر خلفاء بني مروان ، خضبوا وجه الأرض بدماء الأبرياء ، وقتلوا الصحابة والتابعين ، ونهبوا الديار والأموال ، وقد بلغ جورهم وظلمهم الذروة ، حتى ثارت عليهم الأمّة ، وقتلت صغيرهم وكبيرهم ، فلم يبق منهم إلّا مَنْ فرّ إلى الأندلس . وبعدهم تسلّط العباسيون ، باسم حماية أهل البيت ، ولكن حدث ما حدث ، ولم تكن سيرتهم أحسن حالاً من سيرة الأمويين ، حتى قال القائل :

يَا لَيْتَ جَوْرَ بَنِي مَرْوَانَ دَامَ لَنَا
وَلَيْتَ عَدْلَ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي النَّارِ

* * *

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .

الأمر الخامس

بماذا تنعقد الإمامة عند أهل السنة ؟

قد تعرّفت على عقيدة أهل السنة في باب الإمامة ، وأنها عندهم أشبه بسياسة وقتية زمنية ، يقودها الحاكم العادي مع كفاءات ومؤهلات ، تطابق شأنه .

وعلى ذلك يرجع تعيين الإمام إلى نفس الأمة ، لا إلى الله سبحانه ولا إلى رسوله ، وهم قد اختلفوا فيما تنعقد به الإمامة على أقوال شتى تأتي ببعضها :

١ - قال الإسفرائيني : (ت ٣٤٤ - م ٤٠٦) في كتاب الجنايات : « وتنعقد الإمامة بالقهر والإستيلاء ، ولو كان فاسقاً أو جاهلاً أو عجمياً »^(١) .

٢ - قال الماوردي (م ٤٥٠ هـ) : « اختلف العلماء في عدد من تنعقد به الإمامة منهم ، على مذاهب شتى . فقالت طائفة : لا تنعقد إلا بجمهور أهل العقد والحل من كل بلد ، ليكون الرضا به عاماً ، والتسليم لإمامته إجماعاً ، وهذا مذهب مدفوع ببيعة أبي بكر على الخلافة باختيار من حضرها ، ولم ينتظر بيعته قدوم غائب عنها .

وقالت طائفة أخرى : أقل ما تنعقد به منهم الإمامة ، خمسة يجتمعون على عقدها ، أو يعقدها أحدهم برضا الأربعة ، استدلالاً بأمرين : أحدهما : أن بيعة

(١) إحقاق الحق ، للسيد التستري ، ج ٢ ، ص ٣١٧ .

أبي بكر إنعقدت بخمسة إجتمعوا عليها ثم تابعهم الناس فيها ، وهم عمر بن الخطاب ، وأبو عُبَيْدَةَ بن الجراح ، وأَسِيد بن حضير ، وبشر بن سعد ، وسالم مولى أبي حذيفة .

والثاني : أن عمر جعل الشورى في ستة ليعقد لأحدهم برضا الخمسة .

وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين من أهل البصرة .

وقال آخرون من علماء الكوفة : تنعقد بثلاثة يتولاها أحدهم برضا الإثنين ، ليكونوا حاكماً وشاهدين ، كما يصحّ عقد النكاح بولي وشاهدين .

وقالت طائفة أخرى : تنعقد بواحد ، لأنّ العباس قال لعلي : امْدُدْ يَدَكَ أَبَايَعُكَ ، فيقول النَّاسُ عَمَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَايَعَ ابْنَ عَمِّهِ ، فلا يختلف عليك اثنان . ولأنّه حُكِّمَ ، وحُكِّمَ واحدٌ نافذٌ^(١) .

٣ - قال إمام الحرمين الجويني (م ٤٧٨هـ) : « إعلموا أنّه لا يُشترط في عقد الإمامة الإجماع ، بل تنعقد الإمامة ، وإن لم تُجمع الأمة على عقدها . والدليل عليه أنّ الإمامة لما عُقدت لأبي بكر ، إبتدأ لإمضاء أحكام المسلمين ولم يتأنّ لانتشار الأخبار إلى مَنْ نأى من الصحابة في الأقطار ، ولم يُنكر عليه مُنكر . فإذا لم يشترط الإجماع في عقد الإمامة لم يثبت عدد معدود ، ولا حدٌ محدود ، فالوجه الحكم بأنّ الإمامة تنعقد بعقد واحدٍ من أهل الحلّ والعقد^(٢) .

٤ - قال القرطبي (م ٦٧١هـ) : « فإنّ عَقَّعَهَا واحدٌ من أهل الحلّ والعقد ، فذلك ثابت ، ويلزم الغير فعله ، خلافاً لبعض الناس ، حيث قال : لا تنعقد إلّا بجماعة من أهل الحلّ والعقد ، ودليلنا : أنّ عُمَرَ عقد البيعة لأبي بكر ، ولم ينكر أحد من الصحابة ذلك^(٣) . ولأنّه عَقَّدَ ، فوجب أن لا يفتقر إلى عدد

(١) الأحكام السلطانية ، ص ٦ - ٧ ، ط الحلبي بمصر .

(٢) الإرشاد ، ص ٤٢٤ .

(٣) ولعل القرطبي لم يقرأ مأساة السقيفة بين المهاجرين والأنصار ، وإلّا فالإعتراض والنزاع كان قائماً على قدم وساق ويكفي في ذلك مراجعة كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة ، وتاريخ الطبري ، =

يعقدونه كسائر العقود»^(١) .

٥ - وقال القاضي عضد الدين الإيجي (م ٧٥٧) : « المقصد الثالث فيما ثبت به الإمامة ، وأنها تثبت بالنص من الرسول ، ومن الإمام السابق ، بالإجماع ، وتثبت ببيعة أهل الحل والعقد . لنا ، ثبوت إمامة أبي بكر بالبيعة » .

وقال : « وإذا ثبت حصول الإمام بالاختيار والبيعة ، فاعلم أن ذلك لا يفتقر إلى الإجماع ، إذ لم يقم عليه دليل من العقل أو السمع ، بل الواحد والإثنان من أهل الحل والعقد ، كاف ، لعلمنا أن الصحابة ، مع صلابتهم في الدين ، اكتفوا بذلك ، كعقد عمر لأبي بكر ، وعقد عبد الرحمن بن عوف لعثمان ، ولم يشترطوا اجتماع من في المدينة ، فضلاً عن إجماعهم هذا ، ولم ينكر عليه أحد ، وعليه انطوت الأعصار إلى وقتنا هذا »^(٢) .

٥ - وعلى ذلك مضى شارح المواقف السيد شريف الجرجاني (٨١٦) ^(٣) .

٦ - وقال التفتازاني (م ٧٩١) : « وتنعقد الإمامة بطرق :

أحدها : بيعة أهل الحل والعقد من العلماء والرؤساء ووجوه الناس الذين يتيسر حضورهم من غير اشتراط عدد ، ولا اتفاق من في سائر البلاد ، بل لو تعلق الحل والعقد بواحد مطاع كفت بيعته .

الثاني : إستخلاف الإمام وعهده ، وجعله الأمر شورى بمنزلة الإستخلاف ، إلا أن المستخلف عليه غير متعين فيتشاورون ، ويتفقون على أحدهم ، وإذا خلع الإمام نفسه كان كموته ، فينتقل الأمر إلى ولي العهد .

الثالث : القهر والإستيلاء ، فإذا مات الإمام وتصدى للإمامة من

= وسيرة ابن هشام ، وكتاب السقيفة لأبي بكر الجوهري المتوفى عام ٢٨٠ . وفيما يأتي من الباحث نشير إلى بعض تلك الوقائع .

(١) تفسير القرطبي ، ج ١ ، ص ٢٦٠ .

(٢) المواقف ، صفحة ٣٩٩ - ٤٠٠ ، ط عالم الكتب .

(٣) شرح المواقف ، ج ٨ ، ص ٣٥١ - ٣٥٣ .

يستجمع شرائطها من غير بيعة واستخلاف ، وقَهَرَ الناس بشوكته ، انعقدت الخلافة له وكذا إذا كان فاسقاً أو جاهلاً على الأظهر»^(١) .

يلاحظ على هذه الأقوال والنظريات

أولاً - إنَّ موقف أصحاب هذه الأقوال في المسألة ، موقفٌ من اعتقد بصحة خلافة الخلفاء ، فاستدلَّ به على ما يرثيه من الرأي ، من انعقادها بواحد أو اثنين ، أو اتفاق من تيسر حضوره ، دون الاثنين من الصحابة ، وغير ذلك . وهذا النمط من الاستدلال ، استدلال بالمُدَّعى على نفس المدَّعى ، وهو دور واضح . والعجب من هؤلاء الأعلام كيف سكتوا عن الاعتراضات الهائلة التي توجهت من نفس الصحابة من الأنصار والمهاجرين على خلافة الخلفاء ، الذين ثَمَّت بِعَتَمَهم ، بِبَيْعَةِ الخمسة في السقيفة ، أو بَيْعَةِ أبي بكر لعمر ، أو بشورى الستة ، فإنَّ من كان مُلِمّاً بالتاريخ ومهتمّاً به ، يرى كيف كانت عقيرة كثير من الصحابة مرتفعة بالإعتراض . حتى أنَّ الزُّبير وقف في السقيفة أمام المبايعين ، وقد اخترط سيفه ، وهو يقول : « لا أغمده حتى يبايع عليٌّ » . فقال عمر : « عليكم الكلب » ! . فأخذ سيفه من يده ، وضرب به الحجر ، وكُسِرَ^(٢) .

ويكفي في ذلك قول الطبري أنه قام الحباب بن المنذر - وانتضى سيفه - وقال : « أنا جُذَيْلُهَا الْمَحْكُوكُ ، وَعُدَيْقُهَا الْمَرْجُبُ ، أنا أبو شبل ، في عرينة الأسد ، يعزى إليَّ الأسد ، فحامله عمر ، فضرب يده ، فندر السيف ، فأخذه ، ثم وثب على سعد (بن عبادة) ووثبوا على سعده وتتابع القوم على البيعة ، وبابيع سعد ، وكانت فلتة كفلتات الجاهلية ، قام أبو بكر دونها ، وقال قائل حين أوطيء سعد : قتلتم سعداً . فقال عمر : قتله الله ، إنَّه منافق . واعترض عمر بالسيف صخرة فقطعه»^(٣) .

(١) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ ، ط اسطنبول .

(٢) الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ١١ .

(٣) تاريخ الطبري ، حوادث عام ١١ ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ . وفي رواية أخرى للطبري أنَّ عمر قام على =

هذه نبذة يسيرة من الأصوات المدوّية التي عارضت الخلافة والخليفة المنتخب ، وكما لها من نظير في السقيفة والشورى وغيرهما ضربنا عنه صفحاً .

أفصح بعد ذلك قول القرطبي : « ولم ينكر أحد من الصحابة ذلك » ، وكأنّ الحباب ، وسعداً ، وابنه قيس ، وعامة الخزرجين ، وبني هاشم ، والزبير ، لم يكونوا من الصحابة ؟ ! .

وثانياً - إنّ هذا الاختلاف الفاحش في كيفية عقد الإمامة ، يعرب عن بطلان نفس الأصل لأنّه إذا كانت الإمامة مفوضة إلى الأمة ، كان على النبي الأكرم بيان تفاصيلها وخصوصياتها وخطوطها العريضة ، وأنّه هل تنعقد بواحد أو اثنين من الصحابة ؟ أو تنعقد بأهل الحلّ والعقد منهم ؟ أو بالصحابة الحضور عند رحلة النبي أو رحلة الإمام السابق ؟ أو باتّفاق جميع المسلمين بأنفسهم ، أو بمثلهم ؟ .

وليس عقد الإمامة لرجل ، أقلّ من عقد النكاح بين الزوجين الذي اهتم القرآن والسنة ببيانه وتحديدده ، كما اهتمت السنة على الخصوص بشؤونه وأحكامه .

والعجب أنّ عقد الإمامة الذي تتوقف عليه حياة الأمة ، لم يطرح في النصوص ، لا كتاباً ولا سنة - على زعم القوم - ولم تُبين حدوده ولا شرائطه ، ولا سائر مسائله التي كان يواجهها المسلمون بعد وفاة النبي الأكرم مباشرة !! .

رأس سعد ، وقال : لقد هممت أن أطاك حتى تنذر عضوك . فأخذ سعد بلحية عمر ، وقال : والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفيك واضحة ، أما والله لو أنّ بي قوة ما أقوى على النهوض لسمعت مني في أقطارها وسككها زئيراً يُجْجِرُك وأصحابك (أي يلزمهم دخول الجحر ، وهو كناية عن شدّة التضيق) ، أمّا والله ، إذا لالحقنك بقوم كنتّ فيهم تابعاً غير متبوع ، احملوني من هذا المكان . فحملوه ، فأدخلوه في داره . وترك أياماً ، ثم بعث إليه أن أقبل ، فبايع ، فقد بايع الناس ، وبايع قومك . فقال : أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبي وأخضّب سنان رجلي ، وأضربكم بسيفي ما ملكت يدي ، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي ، فلا أفعل . وأيم الله ، لو أنّ الجنّ اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أغرض على ربّي ، وأعلم ما حسابي . فكان سعد لا يصلي بصلاتهم ولا يُجمع معهم ، ولا يفيض معهم إفاضتهم ، فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر . (المصدر نفسه) . وسعد بن عباد سيد الخزرجين .

وجملة القول ، إنّ اختلافهم في شرائط الإمام وطرق تنصيبه ، جعل الخلافة وبالأعلى المسلمين ، حتى أخذت لنفسها شكلاً يختلف كلّ الاختلاف عن الشكل الذي ينبغي أن تكون عليه . فقد أصبحت الخلافة الإسلامية ، إمبراطورية ، وملكاً عضوضاً ، يتناقلها رجال العيث والفساد . من يد فاسق ، إلى آخر فاجر غارق في الهوى ، إلى ثالث سفاك متعصب . وقد أعانهم في تسنم ذروة تلك العروش ، مرتزقة من رجال متظاهرين باسم الدين ، فبرروا أفعالهم ، ووجهوا أعمالهم توجيهاً ملائماً للظروف السائدة ، وصحّحوا إتجاهاتهم السياسية الخاصة ، فخلقوا في ذلك أحاديث وسنن مفتعلة على صاحب الرسالة ، واصطنعوا لهذا وذاك فضائل ، لتدعيم مراكزهم السياسية ، وكيفيك النموذج التالي ، لتقف على حقيقة تلك الأحاديث المفتراة .

رووا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال : « يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدائي ، ولا يستنون بسنتي وسيقوم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس . قال الراوي : قلت : كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك ؟ قال : تسمع وتطيع للأمر ، وإن ضربَ ظهرك ، وأخذَ مالك ، فاسمع وأطع »^(١) .

* * *

(١) صحيح مسلم ، ج ٦ ، باب الأمر بلزوم الجماعة ، وباب حكم من فُرّق أمر المسلمين ، ص ٢٠ - ٢٤ ، وفي البابين نظائر كثيرة لهذا الحديث .

الإمامة عند الشيعة الإمامية

قد تعرفت على حقيقة الإمامة لدى أهل السنة والجماعة ، وعرفت أن ما يتبنونه لا يقتضي أزيد من الشرائط المتوفرة في رؤساء الدول غير أن الإمامة عند الشيعة تختلف في حقيقتها عما لدى إخوانهم ، فهي إمرة إلهية ، واستمرار لوظائف النبوة كلها سوى تحمّل الوحي الإلهي . ومقتضى هذا ، إتصاف الإمام بالشروط المُشترطة في النبي ، سوى كونه طرفاً للوحي .

توضيح ذلك : إن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، كان يملأ فراغاً كبيراً وعظيماً في حياة الأمة الإسلامية ، ولم تكن مسؤولياته وأعماله مقتصرة على تلقي الوحي الإلهي ، وتبليغه إلى الناس فحسب ، بل كان يقوم بالأمور التالية :

١ - يُفسّر الكتاب العزيز ، ويشرح مقاصده وأهدافه ، ويكشف رموزه وأسراره .

٢ - يُبين أحكام الموضوعات التي كانت تُحدث في زمن دعوته .

٣ - يُردّد على الحملات التشكيكية ، والتساؤلات العويصة المريبة التي كان يثيرها أعداء الإسلام من يهود ونصارى .

٤ - يصون الدين من التحريف والدسّ ، ويراقب ما أخذه عنه المسلمون من أصول وفروع ، حتى لا تزلّ فيه أقدامهم .

وهذه الأمور الأربعة كان النبي يمارسها ويملاً بشخصيته الرسالية ثغراتها .
ولأجل جلاء الموقف نوضح كل واحد من هذه الأمور .

أما الأمر الأول : فيكفي فيه قوله سبحانه : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾^(١) . فقد وُصف النبي في هذه الآية بأنه مبين لما في الكتاب ، لا مجرد تال له فقط .

وقوله سبحانه : ﴿ لَا تَحْرُكْ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾^(٢) فكان النبي يتولى بيان مجمله ومطلقه ومقيد ، بقدر ما تتطلبه ظروفه .

والقرآن الكريم ليس كتاباً عادياً ، على نسق واحد ، حتى يستغني عن بيان النبي ، بل فيه المحكم والمتشابه ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمنسوخ والناسخ ، يقول الإمام علي عليه السلام : « وخلف (النبي صلى الله عليه وآله) فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها : كتاب ربكم فيكم ، مبيناً حلاله وحرامه ، وفرائضه وفضائله ، وناسخه ومنسوخه ، ورخصه وعزائمه ، وخاصه وعامه ، وعبره وأمثاله ، ومرسله ومحدوده ، ومحكمه ومتشابهه ، مفسراً مجمله ، ومبيناً غوامضه »^(٣) .

وأما الأمر الثاني : فهو بغنى عن التوضيح ، فإن الأحكام الشرعية وصلت إلى الأمة عن طريق النبي ، سواء أكانت من جانب الكتاب أو من طريق السنة .

وأما الأمر الثالث : فبيانه أن الإسلام قد تعرض ، منذ ظهوره ، لأعنف الحملات التشكيكية ، وكانت تتناول توحيده ورسالته وإمكان المعاد ، وحشر الإنسان ، وغير ذلك . وهذا هو النبي الأكرم ، عندما قدم عليه جماعة من كبار النصاري لمناظرته ، استدلوا لاعتقادهم بنبوة المسيح ، بتولده من غير أب ، فأجاب النبي بوحى من الله سبحانه ، بأن أمر المسيح ليس أغرب من أمر آدم

(١) سورة النمل : الآية ٤٤ .

(٢) سورة القيامة : الآيات ١٦ - ١٩ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ١ .

حيث ولد من غير أب ولا أم قال سبحانه : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١) .

وأنت إذا سبرت تفاسير القرآن الكريم ، تقف على أن قسماً من الآيات نزلت في الإجابة عن التشكيكات المتوجهة إلى الإسلام من جانب أعدائه من مشركين ويهود ونصارى وسوفايك في مباحث المعاد جملة كثيرة من الشبهات التي كانوا يعترضون بها على عقيدة المعاد ، وجواب القرآن عليها .

وأما الأمر الرابع : فواضح لمن لاحظ سيرة النبي الأكرم ، فقد كان هو القول الفصل وفصل الخطاب ، إليه يفيء الغالي ، ويلحق التالي ، فلم يرَ أبان حياته مذهب في الأصول والعقائد ، ولا في التفسير والأحكام . وكان - بقيادته الحكيمة - يرفع الخصومات والاختلافات ، سواء فيما يرجع إلى السياسة أو غيرها (٢) .

هذه هي الأمور التي مارسها النبي الأكرم أيام حياته . ومن المعلوم أن رحلته وغيابه صلوات الله عليه ، يخلف فراغاً هائلاً ومفرعاً في هذه المجالات الأربعة ، فيكون التشريع الإسلامي حينئذٍ أمام احتمالات ثلاثة :

الأول - أن لا يبدي الشارع إهتماماً بسد هذه الفراغات الهائلة التي ستحدث بعد الرسول ، ورأى ترك الأمور لتجري على عواهنها .

الثاني - أن تكون الأمة ، قد بلغت بفضل جهود صاحب الدعوة في إعدادها ، حدّاً تقدر معه بنفسها على سد ذلك الفراغ .

الثالث - أن يستودع صاحب الدعوة ، كل ما تلقاه من المعارف والأحكام

(١) سورة آل عمران : الآية ٥٩ . ولاحظ سورة الزخرف : الآيات ٥٧ - ٦١ .

(٢) يكفي في ذلك ملاحظة غزوة الحديبية ، وكيف تغلب بقيادته الحكيمة على الاختلاف الناجم ، من عقد الصلح مع المشركين وما نجم في غزوة بني المصطلق من تمزيق وحدة الكلمة ، أو ما ورد في حجة الوداع ، حيث أمر من لم يسق هدياً . بالإحلال ، ونجم الخلاف من بعض أصحابه ، فحسمه بفصله القاطع .

بالوحي ، وكلّ ما ستحتاج إليه الأمة بعده ، يستودعه شخصية مثالية ، لها كفاءة تقبل هذه المعارف والأحكام وتحمّلها ، فتقوم هي بسد هذا الفراغ بعد رحلته صلوات الله عليه .

أما الإحتمال الأول - فساقط جداً ، لا يحتاج إلى البحث ، فإنه لا ينسجم مع غرض البعثة ، فإن في ترك سدّ هذه الفراغات ضياعاً للدين والشريعة ، وبالتالي قطع الطريق أمام رُقّي الأمة وتكاملها .

فبقي الإحتمالان الأخيران ، فلا بد لتعيين واحد منهما ، دراستهما في ضوء العقل والتاريخ .

هل كانت الأمة مؤهلة لسدّ تلك الفراغات ؟

هذه هي النقطة الحساسة في تاريخ التشريع الإسلامي ومهمّته ، فلعلّ هناك من يزعم أنّ الأمة كانت قادرة على ملئ هذه الفراغات . غير أنّ التاريخ والمحاسبات الإجتماعية يطلان هذه النظرة ، ويضادّانها ، ويثبتان أنّه لم يُقدّر للأمة بلوغ تلك الذروة ، لتقوم بسدّ هذه الثغرات التي خلفها غياب النبي الأكرم ، لا في جانب التفسير ، ولا في جانب التشريع ، ولا في جانب ردّ التشكيكات الهدامة ، ولا في جانب صيانة الدين عن الإنحراف ، وإليك فيما يلي بيان فشل الأمة في سدّ هذه الثغرات ، من دون أن نثبت للأمة تقصيراً ، بل المقصود إستكشاف الحقيقة .

أمّا في جانب التفسير ، فيكفي وجود الإختلاف الفاحش في تفسير آيات الذكر الحكيم ، وقبل كل شيء نضع أمامك كتب التفسير ، فلا ترى آية - إلّا ما شدّد - اتفق في تفسيرها قول الأمة ، حتى أنّ الآيات التي يرجع مفادها إلى عمل المسلمين يوماً وليلاً لم تُصن عن الإختلاف ، وإليك النماذج التالية .

أ - قال سبحانه : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ ^(١) .

(١) سورة المائدة : الآية ٦ .

فقد تضاربت الآراء في فهم الآية ، فمن قائل يعطف الرجل على الرؤوس ، ومن قائل يعطفه على الأيدي ، فتمسح على الأول ، وتُغسلُ على الثاني . فأَيُّ الرأيين هو الصحيح ؟ وأيُّ التفسيرين هو مراده سبحانه ؟ .

ب - قال سبحانه : ﴿ السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾^(١)

فاختلفت الأمة في موضع القطع ، فمن قائل بأن القطع من أصول الأصابع ، وعليه الإمامية ، ومن قائل بأن القطع من المفصل ، بين الكف والذراع ، وعليه الأئمة الثلاثة ، أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي . ومن قائل بأن القطع من المنكب ، كما عليه الخوارج^(٢) .

ج - قال سبحانه : ﴿ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ ، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ﴾^(٣) .

وفي آية أخرى يحكم سبحانه بإعطاء الكلاله ، النصف أو الثلثين ، كما قال : ﴿ إِنْ أَمْرُؤَا هَٰذَا لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾^(٤) .

فما هو الحل ، وكيف الجمع بين هاتين الآيتين ؟ .

وأما الآيات المحتاجة إلى التفسير في مجال المعارف ، فحدّث عنها ولا حرج ، ويكفيك ملاحظة اختلاف الأمة في الصفات الخيرية ، والعدل ، والجبر والإختيار ، والهداية والضلالة . . .

وكم ، وكم من آيات في القرآن الكريم تضاربت الأفكار في تفسيرها ، من غير فرق بين آيات الأحكام وغيرها .

وأما في مجال الإجابة على الموضوعات المستجدة ، فيكفي في ذلك الوقوف

(١) سورة المائدة : الآية ٣٨ .

(٢) الخلاف ، كتاب السرقة ، ج ٣ ، المسألة ٣١ ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٢ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٧٦ .

على أن التشريع الإسلامي كان يشق طريقه نحو التكامل بصورة تدريجية ، لأنّ حدوث الوقائع والحاجات الاجتماعية ، في عهد الرسول الأكرم ، كان يثير أسئلة ويتطلب حلولاً ، ومن المعلوم أنّ هذا النمط من الحاجة كان مستمراً بعد الرسول . غير أنّ ما ورثه المسلمون من النبي الأكرم لم يكن كافياً للإجابة عن جميع تلك الأسئلة .

أمّا الآيات القرآنية في مجال الأحكام ، فهي لا تتجاوز ثلاثمائة آية . وأمّا الأحاديث - في هذا المجال - فالذي ورثه الأمة لا يتجاوز الخمسمائة حديث .

وهذا القدر من الأدلة غير وافي بالإجابة على جميع الموضوعات المستجدة لإجابة توافق حكم الله الواقعي ، ولأجل إيقاف الباحث على نماذج من هذه القصص ، نذكر بعضها :

أ - رفع رجل إلى أبي بكر وقد شرب الخمر ، فأراد أن يقيم عليه الحدّ ، فادّعى أنّه نشأ بين قوم يستحلونها ، ولم يعلم بتحريمها إلى الآن ، فتحرّر أبو بكر في حكمه^(١) .

ب - مسألة العول شغلت بال الصحابة فترة من الزمن ، وكانت من المسائل المستجدة التي واجهت جهاز الحكم بعد الرسول ، وقد طرحت هذه المسألة أيام خلافة عمر بن الخطاب ، فتحرّر ، فأدخل النقص على الجميع استحساناً ، وقال : « والله ما أدري أيكم قدّم الله ولا أيكم أخر ، ما أجّد شيئاً أوسع لي من أن أقسم المال عليكم بالحصص ، وأدخل على ذي حقّ ما أدخل عليه من عول الفريضة »^(٢) .

ج - سئل عمر بن الخطاب عن رجل طلق امرأته في الجاهلية ، تطليقتين ،

(١) الكافي ، ج ٧ ، كتاب الحدود ، ص ٢٤٩ ، الحديث ٤ . الإرشاد للمفيد ، ص ١٠٦ ، مناقب ابن شهر آشوب ، ص ٤٨٩ .

(٢) أحكام القرآن ، للجصاص ، ج ٢ ، ص ١٠٩ ، ومستدرک الحاكم ، ج ٤ ، ص ٣٤٠ . راجع في توضيح حقيقة العول المصدرين المذكورين والكتب الفقهية في الميراث .

وفي الإسلام تطليقة ، فهل تضم التطليقتان إلى الثالثة ، أولا ؟ فقال للسائل
« لا أمرك ولا أنهاك »^(١) .

هذا ، ولا نعني من ذلك أنّ الشريعة الإسلامية ، ناقصة في إيفاء أغراضها
التشريعية ، وشمول المواضيع المستجدة ، أو المعاصرة لعهد الرسول ، بل
التشريع الإسلامي كان وافياً بالجميع ببيان سوف نشير إليه^(٢) .

والذي يكشف عمّا ذكرنا ، أنّه اضطرّ صحابة النبي منذ الأيام الأولى من
وفاته صلوات الله عليه وآله ، إلى إعمال الرأي والاجتهاد في المسائل المستحدثة ،
وليس اللجوء إلى الاجتهاد بهذا الشكل ، إلّا تعبيراً واضحاً عن عدم استيعاب
الكتاب والسنة النبوية للوقائع المستحدثة ، بالحكم والتشريع ، ولا مجال للاجتهاد
وإعمال الرأي فيما يشمله نصّ من الكتاب أو السنة بحكم ، ولذلك أحدثوا
مقاييس للرأي ، واصطنعوا معايير جديدة للإستنباط ، وألواناً من الاجتهاد ، منه
الصحيح المتفق عليه ، يصيب الواقع حيناً ، ويخطئه أحياناً ، ومنه المريب
المختلف فيه . وكان القياس أول هذه المقاييس وأكثرها نصيباً من الخلاف ، والمراد
منه إلحاق أمر بآخر ، في الحكم الثابت للمقيس عليه ، لاشتراكهما في مناط الحكم
المستنبط . وكان القياس بهذا المعنى (دون منصوص العلة) مثاراً للخلاف بين
الصحابة ، والعلماء ، فقد تبنته جماعة من الصحابة والتابعين ، وأنكرته جماعة
أخرى ، وعارضوا الأخذ به ، منهم الإمام علي بن أبي طالب ، وابن مسعود ،
وأئمة أهل البيت ، ثم اصطنعوا بعد ذلك معايير أخرى ، منها المصالح المرسلة ،
وهي المصالح التي لم يُشرّع الشارع حكماً بتحقيقها ، ولم يدلّ دليل شرعي على
اعتبارها أو إلغائها .

وهناك مقاييس أخرى ، كسدّ الذرائع ، والإستحسان ، وقاعدة شرع من

(١) كنز العمال ، ج ٥ ، ص ١١٦ .

(٢) حاصله أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلّم كان يراعي في إبلاغ الحكم حاجة الناس ، ومقتضيات
الظروف الزمنية ، فلا بد - في إيفاء غرض التشريع - أن يستدع أحكام الشريعة من يخلفه ، ويقوم
مقامه ، لإيفاء أغراضه التي لم يقدر له تحقيقها في حياته الكريمة .

قبلنا ، وما إلى ذلك من القوانين والأصول الفقهية ، التي اضطرّ الفقهاء إلى اصطناعها عندما طرأ على المجتمع الإسلامي ألوان جديدة من الحياة لم يألفوها ، ولم تكن النصوص الشرعية من الكتاب والسنة لتشمل تلك المظاهر الاجتماعية المستحدثة بحكم ، ولم يجد الفقهاء بداً من الإلتجاء إلى إعمال الرأي والإجتهاد في مثل هذه المسائل مما لا نصّ فيه من كتاب أو سنة ، وتشعبت بذلك مدارس الفقه الإسلامي ، وبُعِدَت الشُّقَّة بينها ، وتبلورت تلك المعاني إثر التضارب الفكري الذي حصل بين هذه المدارس ، وصيغت الأفكار في صيغ علمية محددة ، بعدما كان يغلب عليها طابع التذبذب والإرباك .

وذلك كلّه يدلّ على عدم وفاء نصوص الكتاب والسنة ، بما استجدّ للمسلمين بعد عصر الرسالة ، من مسائل ، أو ما جدّ لهم من حاجة .

وهناك نقطة تاريخية توقفنا على سرّ عدم إيفاء الكتاب والسنة بمهمة التشريع ، وهي أنّ مدّة دعوته صلى الله عليه وآله لا تتجاوز ثلاثاً وعشرين عاماً ، قضى منها ثلاثة عشر سنة في مكة يدعو المشركين فيها . ولكن عنادهم جعل نتائج الدعوة قليلة . فلأجل ذلك لم يتوفّق لبيان حكم شرعي فرعي إلّا ما ندر . ومن هنا نجد أنّ الآيات التي نزلت في مكة تدور في الأغلب حول قضايا التوحيد والمعاد ، وإبطال الشرك ومقارعة الوثنية ، وغيرها من القضايا الاعتقادية ، حتى صار أكثر المفسّرين يميّزون الآيات المكيّة عن المدنية بهذا المعيار .

ولما انتهت دعوته إلى محاولة اغتياله ، هاجر إلى يثرب ، وأقام فيها العشرة المتبقية من دعوته تمكّن فيها من بيان قسم من الأحكام الشرعية لا كلّها ، وذلك لوجوه :

١ - إنّ تلك الفترة كانت مليئة بالحوادث والحروب ، لتأمر المشركين والكفّار ، المتواصل على الإسلام وصاحب رسالته والمؤمنين به . فقد اشترك النبي في سبعة عشر غزوة كان بعضها يستغرق قرابة شهر ، وبعث خمساً وخمسين سرية لقمع المؤمرات وإبطائها ، وصدّ التحركات العدوانية .

٢ - كانت إلى جانب هذه المشاكل ، مشكلة داخلية يثيرها المنافقون الذين

كانوا بمنزلة الطابور الخامس ، وكان لهم دور كبير في إثارة البلبلية في صفوف المسلمين ، وخلق المتاعب للقيادة من الداخل . وكانوا بذلك يفوتون الكثير من وقت النبي الذي كان يمكن أن يصرف في تربية المسلمين وإعدادهم وتعليمهم على حلّ ما قد يطرأ على حياتهم ، أو يستجد في مستقبل الأيام .

٣ - إنّ مشكلة أهل الكتاب ، خصوصاً اليهود ، كانت مشكلة داخلية ثانية ، بعد مشكلة المنافقين ، فقد فوّتوا من وقته الكثير ، بالمجادلات والمناظرات ، وقد تعرّض الذكر الحكيم لناحية منها ، وذكر قسم آخر منها في السيرة النبوية^(١) .

٤ - إنّ من الوظائف المهمة للنبي عقد الإتفاقيات السياسية والمواثيق العسكرية الهامة التي يزرعها تاريخ الدعوة الإسلامية^(٢) .

إنّ هذه الأمور ونظائرها ، عاقت النبي عن استيفاء مهمة التشريع .

على أنّه لو فرضنا تمكن النبي من بيان أحكام الموضوعات المستجدة ، غير أنّ التحدّث عن الموضوعات التي لم يعرف المسلمون شيئاً من ماهياتها وتفصيلاتها في عهد الرسول ، وإنّما كانت تحدث بصورة طبيعية شيئاً فشيئاً ، أمر صعب للغاية ، ولم يكن في وسع المسلمين أن يدركوا معناه .

فحاصل هذه الوجوه توقفنا على أمر محقق ، وهو أنّه لم يقدر للنبي استيفاء مهمة التشريع ، ولم يتسنّ للمسلمين أن يتعرّفوا على كل الأحكام الشرعية المتعلقة بالحوادث والموضوعات المستجدة .

وأما في مجال ردّ الشبهات والتشكيكات وإجابة التساؤلات ، فقد حصل فراغ هائل بعد رحلة النبي من هذه الناحية ، فجاءت اليهود والنصارى تترى ، يطرحون الأسئلة ، ويشوّشون بها أفكار الأمة ، ليخربوا عقائدها ومبادئها ، ونذكر من ذلك :

(١) لاحظ السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ١ ، ص ٥٣٠ - ٥٨٨ ، ط الحلبي - مصر - ١٣٧٥ .

(٢) لاحظ كتاب الوثائق السياسية لمحمد حميد الله ، و« مكاتيب الرسول » .

وفود أسقف نجران على عمر ، وطرح بعض الأسئلة عليه^(١) .
 وفود جماعة من اليهود على عمر ، وطرح بعض الشبهات^(٢) .
 وفود جماعة من اليهود على عمر ، وطرح بعض الأسئلة عليه^(٣) .
 سؤال عويص ورد من الروم على معاوية يلتمس الجواب عنه^(٤) .
 أسئلة وردت من جانب البلاط الروماني إلى معاوية^(٥) .
 وغير ذلك من الوفود والأسئلة التي لم يكن هدفها إلا التشكيك في الدين
 وإيجاد التزلزل في عقيدة المسلمين .

وأما في جانب صيانة المسلمين عن التفرقة والإختلاف، والدين عن
 الإنحراف ، فقد كانت الأمة الإسلامية في أشد الحاجة بعد النبي إلى من يصون
 دينها عن التحريف ، وأبناءها عن الإختلاف ، فإن التاريخ يشهد دخول
 جماعات عديدة من أحبار اليهود ورهبان النصارى ومؤيدي المجوس ، ككعب
 الأحبار ، وقيم الداري ، ووهب بن منبه ، وعبد الله بن سلام ، وبعدهم
 الزنادقة ، والملاحدة ، والشعوبيون ، فراحوا يدسون الأحاديث الإسرائيلية ،
 والأساطير النصرانية ، والخرافات المجوسية بينهم ، وقد ظلت هذه الأحاديث
 المدسوسة ، تُحيم على أفكار المسلمين ردحاً طويلاً من الزمن ، وتؤثر في حياتهم
 العلمية ، حتى نشأت فِرَق وطوائف في ظل هذه الأحاديث .

ومما يوضح عدم تمكن الأمة من صيانة الدين الخفيف عن التحريف وأبنائها
 عن التشتت ، وجود الروايات الموضوعة والمجعولات الهائلة . ويكفي في ذلك أن
 يذكر الإنسان ما كابده البخاري من مشاق وأسفار في مختلف أقطار الدولة

(١) تذكرة الخواص ، لابن الجوزي ، المتوفى عام ٦٥٦ ، ص ١٤٤ .

(٢) قضاء أمير المؤمنين ، ص ٦٤ .

(٣) علي والخلفاء ، ص ٣١٣ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) قضاء أمير المؤمنين ، ص ٧٨ و ١١٤ .

الإسلامية ، وما رواه بعد ذلك . فإنه ألفى الأحاديث المتداولة بين المحدثين في الأقطار الإسلامية ، تربو على ستمائة ألف حديث ، لم يصحّ لديه منها أكثر من أربعة آلاف ، ومعنى هذا أنه لم يصحّ لديه من كل مائة وخمسين حديثاً إلاّ حديث واحد ، وأما أبو داود فلم يصحّ لديه من خمسمائة ألف حديث غير أربعة آلاف وثمانمائة ، وكذلك كان شأن سائر الذين جمعوا الحديث . وكثير من هذه الأحاديث التي صحّت عندهم ، كانت موضع نقد وتمحيص عند غيرهم^(١)

قال العلامة المتبّع الأميني : ويُعرب عن كثرة الموضوعات اختيار أئمة الحديث أخبار تأليفهم - الصحاح والمسانيد - من أحاديث كثيرة هائلة ، والصفح عن ذلك المهوش الهائش ، فقد أتى أبو داود في سننه بأربعة آلاف وثمانمائة حديث ، وقال انتخبته من خمسمائة ألف حديث^(٢) . ويحتوي صحيح البخاري من الخالص بلا تكرار ، ألفي حديث وسبعمائة وواحد وستين حديثاً ، إختاره من زهاء ستمائة ألف حديث^(٣) . وفي صحيح مسلم أربعة آلاف حديث أصول دون المكررات ، صنفه من ثلاثمائة ألف^(٤) . وذكر أحمد بن حنبل في مسنده ثلاثين ألف حديث ، وقد انتخبه من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث ، وكان يحفظ ألف ألف حديث^(٥) . وكتب أحمد بن فرات ، المتوفى عام ٢٥٨ ، ألف ألف وخمسمائة ألف حديث ، فأخذ من ذلك ثلاثمائة ألف في التفسير والأحكام والفوائد وغيرها^(٦) .

فهذه الموضوعات على لسان الوحي ، تقلع الشريعة من رأس وتقلب

-
- (١) لاحظ حياة محمد ، لمحمد حسين هيكل ، ص ٤٩ - ٥٠ ، الطبعة الثالثة عشر .
 - (٢) طبقات الحفاظ ، للذهبي ، ج ٢ ، ص ١٥٤ . تاريخ بغداد ، ج ٢ ص ٥٧ . المنتظم لابن الجوزي ، ج ٥ ، ص ٩٧ .
 - (٣) إرشاد الساري ، ج ١ ، ص ٢٨ . صفة الصفوة ، ج ٤ ، ص ١٤٣ .
 - (٤) المنتظم ، لابن الجوزي ، ج ٥ ، ص ٣٢ . طبقات الحفاظ ، للذهبي ، ج ٢ ، ص ١٥١ . شرح صحيح مسلم للنووي ، ج ١ ، ص ٣٦ .
 - (٥) ترجمة أحمد ، المنقولة من طبقات ابن السبكي ، المطبوعة في آخر الجزء الأول من مسنده ، طبقات الذهبي ، ج ٢ ، ص ١٧ .
 - (٦) حلاصة التهذيب ، ص ٩ . نقلناه برقمته متنأ وهامشاً من الغدير ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

الأصول ، وتتلاعب بالأحكام ، وتشوش التاريخ ، أو ليس هذا دليلاً على عدم وفاء الأمة بصيانة دينها عن التشويش والتحريف ؟ .

* * *

هذا البحث الإضافي يثبت حقيقة ناصعة ، وهي عدم تمكن الأمة ، مع ما لها من الفضل ، من القيام بسد الفراغات الهائلة التي خلفتها رحلة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، فلا مناص من تعيين الإحتمال الثالث ، وهو سد تلك الثغرات بفرد مثالي يمارس وظائف النبي في المجالات السابقة ، بعلمه المستودع فيه ، ويكون له من المؤهلات ما للنبي الأكرم ، سوى النبوة ، وسوى كونه طرفاً للوحي .

إن الغرض من إرسال الأنبياء هي الهداية الإلهية لبني البشر ، إلى الكمال في الجانبين المادي والروحي . ومن المعلوم أن هذه الغاية لا يحصل عليها الإنسان إلا بالدين المكتمل أصولاً وفروعاً ، المصون من التحريف والدس . وما دام النبي حياً ، بين ظهرائي الأمة ، تتحقق تلك الغاية بنفسه الشريفة ، وأما بعده فيلزم أن يخلفه إنسان مثله في الكفاءات والمؤهلات ، ليواصل دفع عجلة المجتمع الديني في طريق الكمال ، ويحفظه من الانقلاب على الأعقاب ، والتقهر إلى الوراء . ووجود إنسان مثالي ، كالنبي في المؤهلات ، عارف بالشريعة ومعارف الدين ، ضامن لتكامل المجتمع ، وخطوة ضرورية في سبيل ارتقائه الروحي والمعنوي . فهل يسوغ على الله سبحانه أن يهمل هذا العامل البناء ، الهادي للبشرية إلى ذروة الكمال .

إن الله سبحانه جهّز الإنسان بأجهزة ضرورية ، وأجهزة كمالية . حتى أنه قد زوده بالشعر على أشجار عينيه وحاجبيه ، وقعر أخص قدميه ، كل ذلك لتكون حياته سهلة لذيدة غير متعبة ، فهل ترى أن حاجته إلى هذه الأمور أشد من حاجته إلى خلف حامل لعلوم النبوة ، قائم بوظائف الرسالة .

وما أجمل ما قاله أئمة أهل البيت في فلسفة وجود هذا الخلف ، ومدى تأثيره في تكامل الأمة :

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « اللهم بلى ، لا تخلو الأرض من قائم لله : بحجة ، إمّا ظاهراً مشهوراً ، وإمّا خائفاً مغموراً ، لئلاَّ تَبْطُلَ حُجَجُ الله وَبَيِّنَاتُهُ » (١) .

وقال الإمام الباقر عليه السلام : « إنَّ الله لم يدع الأرض بغير عالم ، ولولا ذلك لما يعرف الحق من الباطل » (٢) .

وقال الإمام الصادق عليه السلام : « إنَّ الأرض لا تخلو وفيها إمام ، كيما زاد المؤمنون شيئاً ردُّهم ، وإذا نَقَصُوا شيئاً أُمِّمَهُ هُمْ » (٣) .

هذه المأثورات من أئمة أهل البيت ، تُعرب عن أنَّ الغرض الداعي إلى بعثة النبي ، داعٍ إلى وجود إمام يخلف النبي ، في عامة سماته ، سوى ما دلَّ القرآن على انحصاره به ، ككونه نبياً رسولاً وصاحب شريعة .

نعم ، إنَّ كثيراً ممَّن ليست لهم أقدام راسخة في أبواب المعارف ، يصعب عليهم تصوُّر إنسان مثالي يحمل علوم النبوة ، وليس بنبي ؛ ويقوم بوظائفها الرسالية ، وليس برسول ؛ يحيط بمعارف الشريعة وأحكامها ، وليس طرفاً للوحي ؛ ويصون الشريعة من التحريف والدس ، ويردُّ تشكيكات المبطلين ، وليس له صلة بسماء الوحي . ولأجل ذلك يثيرون في وجهه إشكاليين ، لا بُدَّ من ذكرهما ، والإجابة عنهما .

الإشكال الأول

إنَّ الفرد الجامع لهذه الخصائص ، لا يفترق عن النبي ، فتصبح الإمامة عندئذٍ ، مرادفة للنبوة ، مع أنَّ أدلة الخاتمية قطعت طريق هذا الإحتمال (٤) .

(١) نهج البلاغة ، قسم الحكِّم ، الرقم ١٤٧ .

(٢) الكافي ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

(٣) الكافي ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

(٤) وقد عرفت عن صاحب المواقف أنَّه اعترض على تعريف الإمامة بأنَّها رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا ، بالنقض بالنبوة ، ص ٣٤٥ .

الجواب

إنَّ الفرق بين النبوة ، واحتضان علوم النبي الأكرم ، واضح ، لا يحتاج إلى البيان ، فإنَّ مقوم النبوة عبارة عن كون النبي طرفاً للوحي ، يسمع كلام الله تعالى ، ويرى رسوله ، ويكون صاحب شريعة مستقلة ، أو مروجاً لشريعة من قبله .

وأما الإمام فهو الخازن لعلوم النبوة في كل ما تحتاج إليه الأمة ، من دون أن يكون طرفاً للوحي ، أو سامعاً لكلامه سبحانه ، أو رائيًا الملك الحامل له .

نعم ، المهم هو الوقوف على أنَّ في وسعه سبحانه أن يربي للأمة ، في حضن النبي الأكرم ، رجلاً مثاليًا يأخذ علوم النبي بتعليم غيبي يفي بوظائف الرسالة بعد رحلته ، حتى يسدَّ الفراغات العلمية الحاصلة برحلته .

وبما أنَّ المستشكل ، ومن تبعه ، بريئون من هذه المعارف ، ويخصَّصون التعليم ، بالوسائل العادية ، يتعجبون من بلوغ إنسان ذلك الحد من الكمال والعلم ، من دون أن يدخل مدرسة ، أو يخضع أمام شيخ ، إلا أنَّ يكون نبياً .

وإنَّ القرآن الكريم يحدثنا عن أناس مثاليين نالوا الذروة من العلوم بتعليم غيبي ، مع أنَّهم لم يكونوا أنبياء ، كمصاحب موسى عليه السلام الذي يقول سبحانه في شأنه : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ، وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾^(١) .

ولم يكن المصاحب نبياً ، بل كان ولياً من أولياء الله سبحانه ، بلغ الذروة من العلم ، حتى قال له موسى - وهو نبي مبعوث بشريعة : ﴿ هَلْ أَتَيْكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾؟^(٢) .

وجليس سليمان عليه السلام ، الذي يقول سبحانه في شأنه : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا

(١) سورة الكهف : الآية ٦٥ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٦٦ .

عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ... ﴿١﴾ .

وهذا الجليس لم يكن نبياً ، ولكن كان صاحب علم من الكتاب ، ومن المعلوم أن هذا العلم لم يحصل له من الطرق العادية التي يدرج عليها الأولاد والشبان في الكتاتيب والمدارس ، وإنما هو علم إلهي احتضنه بلياقته وكفاءته ، ولأجل ذلك يَنْسِبُ علمه إلى فَضْلِ رَبِّهِ ويقول : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ .

والشاهد على رسالة النبي ، إلى جانب شهادته سبحانه ، الذي يقول سبحانه في شأنه : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ، قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ ﴿٢﴾ .

والسورة مكية على ما يدلّ عليه سياق آياتها ، ونقل عن الكلبي أنه قال : « إنها مكية إلا هذه الآية » ، ويدفعه أنها مختتم السورة ، قوبل بها ما في مفتتحها ، أعني قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ، وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٣﴾ ، فيبعد جداً أن يفرق بين المتقابلين بأعوام .

فعندئذٍ يجب الإمعان في هذا الشاهد الذي عطفه سبحانه على نفسه ، وعده شاهداً على رسالة النبي كشهادة نفسه سبحانه . أفيصحّ أن يقال إن المراد ، القوم الذين أسلموا في المدينة ، كعبد الله بن سلام ، وتميم الداري ، وسلمان الفارسي ، مع أن الآية نزلت في مكة ؟ .

على أن عطف هؤلاء في الشهادة ، على الله سبحانه ، لا يخلو من غموض وإبهام . فلا بدّ أن يكون المراد من الشاهد هنا إنساناً مثالياً ، كان موجوداً في مكة ، وهو أعلم الناس بالكتاب ، حتى يصحّ أن يجعل عدلاً آخر للشهادة ، ولا يكون هذا الإنسان إلا من تربّى في حجر النبوة وحضنها ، وتحمّل علومها ، بتعليم غيبي إلهي ، لا بتعليم بشري عادي .

(١) سورة النمل : الآية ٤٠ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٤٣ .

(٣) سورة الرعد : الآية ١ .

هذا وذاك ، وغيرهما مما لم نذكره ، وجاء في الحديث والتاريخ ، يعرب عن أن التعليم الغيبي لا يختص بالأنبياء ، وأن هناك رجالاً صالحين ، يحملون علوم النبوة ويحتضنونها بفضل من الله سبحانه ، لغاية قدسية هي إبلاغ الأمة الغاية من الكمال ، وإيصاد الثغرات الهائلة التي تخلفها رحلة النبي .

الإشكال الثاني

إذا شهد التاريخ ، والمحاسبات الاجتماعية ، بعدم استيفاء النبي لمهمة التشريع ، فما معنى قوله سبحانه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (١) ؟ .

الجواب

إن السؤال مبني على تفسير الدين بالأحكام الشرعية ، وحمل الإكمال على بيانها . وذلك غير صحيح لوجوه :

الأول - إن كثيراً من المفسرين ، فسروا اليوم ، بيوم عرفة ، من عام حجة الوداع (٢) . ومن المعلوم أن هناك روايات كثيرة لا يستهان بها عدداً تدل على نزول أحكام وفرائض بعد ذلك اليوم ، منها أحكام الكلاله ، المذكورة في آخر سورة النساء (٣) ، ومنها آيات الربا (٤) ، حتى روي عن عمر أنه قال في خطبة خطبها : « من أحر القرآن نزولاً آية الربا ، وإنه مات رسول الله ولم يبينه لنا ، فدعوا ما يريكم إلى ما لا يريكم » (٥) . وروى البخاري في الصحيح ، عن ابن عباس ،

(١) سورة المائدة : الآية ٣ .

(٢) لاحظ تفسير الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٤ ، تفسير الرازي ، ج ٣ ، ص ٣٦٨ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٧٦ .

(٤) سورة البقرة : الآيات ٢٧٥ - ٢٧٨ .

(٥) الدر المنثور ، للسيوطي ، ج ١ ، ص ٣٦٥ . ولاحظ تفسير الرازي ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ ، ط مصر في ثمانية أجزاء .

قال : « آخر آية أنزلها الله على رسوله ، آية الربا »^(١) ، وغير ذلك من الروايات .

الثاني - إن تفسير الدين بالأحكام ، وإكمالها بالبيان وأنه تحقق في يوم عرفة من عام حجّ الوداع ، لا ينسجم مع سائر فقرات الآية ، فإن الآية تخبر عن يوم تحققت فيه أمور ثلاثة : يأس الكفار من دين المسلمين ، وإكمال الدين وإتمام النعمة .

توضيح ذلك إنه إن أراد من الكفار ، كفار العرب ، القاطنين في الجزيرة ، فالإسلام كان قد عمّم يوم ذاك ، ولم يكن فيهم من يتظاهر بغير الإسلام ، فمن هؤلاء الكفار اليائسون ؟ فإن سورة البراءة ، وتلاوتها يوم عيد الأضحى ، في العام التاسع للهجرة ، صارت سبباً لنفوذ الإسلام في كل أصقاع الجزيرة ، ورفض الشرك ونبد عبادة الأوثان ، رغبة أو رهبة ، ولم يبق مشرك إلا وقد كسّر صنمه ، ولا عابد وثن إلا وقد تحوّل إلى عبادة الله تعالى طمعاً أو خوفاً ، فلم يبق هناك كافر يشس من دين المسلمين .

وإن أراد سائر الكفار من الأمم ، من العرب وغيرهم ، فلم يكونوا يائسين يومئذٍ من الظهور على المسلمين .

فعلينا أن نتفحص عن يوم تتحقق فيه هذه الأمور الثلاثة ، كما سيبين .

الثالث - إن ما ذكر لا ينسجم مع ما رواه عدّة من المحدثين من نزولها يوم الثامن عشر من ذي الحجة ، في السنة العاشرة للهجرة ، عندما نصب النبي عليّاً للولاية ، وقال : « من كنت مولاه فهذا علي مولاه »^(٢) .

ويعرب عن صحة ذلك ما ذكره الرازي ، قال : « قال أصحاب الآثار إنه

(١) الدر المنثور للسيوطي ، ج ١ ، ص ٣٦٥ .

(٢) لاحظ في الوقوف على مصادر نزول الآية يوم الغدير ، كتاب الغدير ، ج ١ ، ص ٢٣٠ - ٢٣٨ ، وقد رواه عن ستة عشر محدثاً ، منهم أبو جعفر الطبري ، وابن مردويه الأصفهاني ، وأبو نعيم الأصفهاني ، والخطيب البغدادي ، وأبو سعيد السجستاني ، وأبو الحسن المغازلي ، وأبو القاسم الحسكاني ، وابن عساكر الدمشقي ، وأخطب الخطباء الخوارزمي ، وغيرهم من أعظم المحدثين .

لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وآله ، لم يعمر بعد نزولها إلا أحدًا وثمانين يوماً أو اثنين وثمانين يوماً ، ولم يحصل بعدها زيادة ولا نسخ وتبديل البتة . وكان ذلك جارياً مجرى إخبار النبي عن قرب وفاته ، وذلك إخبار عن الغيب فيكون معجزاً^(١) .

وما ذكره يؤيد كون النزول يوم الغدير ، أعني يوم الثامن عشر من ذي الحجة ، لأنه لو فرض كون الشهور الثلاثة (ذي الحجة ، ومحرم ، وصفر) ناقصة ، لكانت وفاته صلى الله عليه وآله بعد واحد وثمانين يوماً ، ولو كان الشهران (محرم وصفر) ناقصان ، لانطبق على الإثنين والثمانين ، كل ذلك بملاحظة ما اتفقت عليه كلمة الجمهور من أن النبي توفي يوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول .

والعجب أن الرازي غفل عن هذه الملازمة ، وأنه لا يجتمع مع نزولها يوم عرفة .

فعلى ذلك لا يصح تفسير الدين بالأحكام ، ولا الإكمال بالبيان . وفي ضوء ذلك يمكن أن يقال إن المراد من الدين هو أصوله ، والمراد من الإكمال ، تثبيت أركانه ، وترسيخ قواعده ، وذلك أن الكفار ، خصوصاً المستسلمين منهم ، كانوا يتربصون بالنبي الدوائر ، فإنهم كانوا ينظرون إلى دعوته بأنها مُلكٌ في صورة النبوة ، وسلطنة في ثوب الرسالة ، فإن مات أو قُتِلَ ، ينقطع أثره ويموت ذكره ، كما هو المشهور عادة ، من حال السلاطين ، وكان الكفار يعيشون هذه الأحلام والأمانى التي تعطيهم الرجاء في إطفاء نور الدين ، وعف آثاره عبر الأيام .

غير أن ظهور الإسلام ، تدريجياً ، وغلبته على الكفار والمشركين ، بدّد أحلامهم بالخيبة ، فبشوا من التغلب على النبي ودعوته ، فلم يبق لهم إلا حلم واحد ، وهو أنه لا عقب له يخلفه في أمره ، فيموت دينه بموته . وكان هذا الحلم يتغلغل في أنفسهم ، إلا أن الخيبة عمّتهم لما شاهدوا خروج الدين عن مرحلة

(١) تفسير الرازي ، ج ٣ ، ص ٣٦٩ .

القيام بشخص النبي الأكرم إلى مرحلة القيام بشخص آخر مثالي يقوم مقامه ، فعند ذلك تحققت الأمور الثلاثة : يسوا من زوال الدين ، بعد موته ، وكُمّل الدين بتنصيب مَنْ يحمل وظائف النبي ، وَتَمَّتْ نعمة الهداية إلى أهداف الرسالة بالوصي القائم مقامه .

فالمراد من إكمال الدين ، تحوّل من وصف الحدوث إلى وصف البقاء ، وكان ذلك العمل ، ردّاً لما يحكيه سبحانه عن الكفار بقوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْتَفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) . ولعلّ المراد من قوله : ﴿ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ ، هو ما حدث في ذلك اليوم .

وعلى ذلك ، فتتسجم الجمل الثلاث ، ويرتبط بعضها ببعض ، فالدين الذي أكمله الله اليوم ، والنعمة التي أتمّها الله اليوم ، أمرٌ واحدٌ بحسب الحقيقة ، وهو الذي كان يطمع فيه الكفار ، ويخشاهم فيه المؤمنون ، فأيسهم الله منه ، وأكمله وأتمّه ، ونهاهم عن الخشية منهم ، وقال : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ .

* * *

هذه هي حقيقة الإمامة ، والإمام عند الشيعة ، وبذلك يعلم اختلاف ما يتبنونه مع ما هو المعروف عند أهل السنّة ، ومن المعلوم أنّ كلّاً من المعنيين يستدعي لنفسه شروطاً خاصّة ، والشروط عند الشيعة الإمامية أكثر ممّا اتّفقت عليه كلمة أهل السنّة ، أهمّها إحاطته بأصول الشريعة وفروعها ، والمعرفة التامّة بكتاب الله ، وسنّة نبيّه ، وقدرته على دفع الشبهات ، وصيانة الدين ، يكون كلامه هو القول الفصل بين الأُمّة ، ولا تفرّق هذه الشروط عن كونه معصوماً ، لا يضلّ في تعليم الأُمّة .

قال الشيخ الرئيس ابن سينا في لزوم نصب الإمام من جانب النبي : « ثم إنّ هذا الشخص الذي هو النبي ، ليس ممّا يتكرر وجود مثله في كل وقت ، فإنّ

(١) سورة البقرة : الآية ١٠٩ .

المادة التي تقبل كمال مثله ، تقع في قليل من الأمزجة ، فيجب لا محالة أن يكون
النبي قد دَبَّرَ لبقاء ما يَسُنُّه وَيُسْرِعُهُ في أمور المصالح الإنسانية ، تدبيراً
عظيماً»^(١) .

* * *

(١) الشفاء ، ح ٢ ، الفن الثالث عشر في الإلهيات ، المقالة العاشرة ، الفصل الثالث ، ص ٥٥٨ .

الأمر السابع

المصالح العامة ، وصيغة الحكومة بعد النبي

يسود بين المسلمين ، في صيغة الحكومة وقيادة الأمة بعد النبي ، رأيان واتجاهان :

الأول : أن صيغة الحكومة صيغة التنصيب ، وأن الإمام بعد النبي يعين عن طريق الرسول بأمر من الله سبحانه .

الثاني : تفويض الأمر إلى اختيار الأمة ، وانتخابها بشكل من الأشكال التي ستوافيك .

والبحث في المقام : يرجع إلى محاسبة مصالح الأمة الإسلامية آنذاك ، فهل كانت تقتضي تحقيق النظرية الأولى ، وهي نظرية النصّ على شخص أو أشخاص معينين ، أو تقتضي ترك مسألة الخلافة إلى رأي الأمة ؟ .

والحق أن هنا أموراً تدلّ على أن مصلحة الأمة آنذاك ، كانت تتطلب تنصيب الإمام والقائد الذي يخلف النبي ، وتعيينه بلسانه في حياته ، وكان في ترك هذا رمي للأمة أمام أكبر المخاطر ، وإليك بيان تلك الأمور :

الأول : الأمة الإسلامية والخطر الثلاثي

إن الدولة الإسلامية ، التي أسسها النبي الأكرم صلوات الله عليه ، كانت

محاصرة حال وفاة النبي من جهتي الشمال والشرق ، بأكبر امبراطوريتين عرفهما تاريخ تلك الفترة ، وكانتا على جانب كبير من القوة والبأس ، وهما الروم وإيران ؛ هذا من الخارج .

وأما من الداخل ، فقد كان الإسلام والمسلمون يعانون من وطأة مؤامرات المنافقين الذين كانوا يشكلون جبهة عدوانية داخلية ، أشبه بما يسمّى بالطابور الخامس .

ويكفي في خطورة إمبراطورية إيران أنه كتب ملكها إلى عامله باليمن - بعدما وصلت إليه رسالة النبي تدعوه إلى الإسلام والتسليم ، ومزّفها - : « إبعث إلى هذا الرجل بالحجاز ، رجلين من عندك ، جَلِيدَيْن ، فليأتياني به »^(١) .

وكفى في خطورة موقف الإمبراطورية البيزنطية ، أنه وقعت إشتباكات عديدة بينها وبين المسلمين في السنة الثامنة للهجرة ، منها غزوة مؤتة التي قتل فيها قادة الجيش الإسلامي وهم جعفر بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحه ، ورجع الجيش الإسلامي من تلك الواقعة منهزماً ، وقد أثارت هزيمتهم في هذه المعركة ، واستشهاد القادة الثلاثة ، نقمة شديدة في نفوس المسلمين تجاه الروم ، ولأجل ذلك توجه الرسول الأكرم بنفسه على رأس الجيش الإسلامي إلى تبوك في السنة التاسعة لمقابلة الجيوش البيزنطية ولكنه لم يلق أحداً ، فأقام في تبوك أياماً ثم رجع إلى المدينة ، ولم يكتف بهذا بل جهّز جيشاً في أخريات أيامه بقيادة أسامة بن زيد ، لمواجهة جيوش الروم .

وأما خطر المنافقين ، فحدّث عنه ولا حرج ، هؤلاء أسلموا بألسنتهم دون قلوبهم ، وأضمرّوا للمسلمين كلّ سوء ، وكانوا يتحينون الفرص لإضعاف الدولة الإسلامية ، بإثارة الفتن الداخلية ، كما كانوا يتربصون الدوائر لاغتيال النبي وقتله^(٢) .

(١) الكامل ، للجزري ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

(٢) لاحظ التفاسير ، في تفسير قوله سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ =

ولقد انبرى القرآن الكريم لفضح المنافقين والتشهير بخططهم ضدّ الدين والنبى ، في العديد من السور القرآنية مثل البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والعنكبوت ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والمجادلة ، والحديد ، والحشر ، وقد نزلت في حقهم سورة خاصة باسم المنافقين .

إنّ اهتمام القرآن بالتعرّض للمنافقين المعاصرين للنبي ، المتواجدين بين الصحابة ، أدلّ دليل على أنّهم كانوا قوّة كبيرة ويشكون جماعة وافرة ، ويلعبون دوراً خبيثاً ، خطيراً في تعكير الصف ، وإفساح المجال لأعداء الإسلام ، بحيث لولا قيادة النبي الحكيمة ، لقضوا على كيان الدين ، وأطاحوا بصرحه .

ويكفي في ذلك قوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ آتَيْنَا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ، حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ ، وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ ^(١) .

وقد كان محتملاً ومتربّحاً أن يتحد هذا المثلث الخطير (الفرس ، الروم ، المنافقون) ، لاكتساح الإسلام واجتثاث جذوره ، بعد وفاة النبي .

فمع هذا الخطر المحيى الداهم ، ما هي وظيفة القائد الحكيم الذي أرسى قواعد دينه على تضحيات عظيمة ، فهل المصلحة كانت تقتضي تنصيب قائد حكيم عارف بأحكام القيادة ووظائفها حتى يجتمع المسلمون تحت رايته ، ويكونوا صفّاً واحداً في مقابل ذاك الخطر ، أو أنّ المصلحة العامة تقتضي تفويض الأمر إلى الأمة ، حتى يختاروا لأنفسهم أميراً ، مع أنّ من المعلوم أن ترك الأمر إلى الأمة في ذلك الوقت الحرج ، يلازم الشغب والإختلاف والتنافس الذي لم يكن لصالح الإسلام والمسلمين ، في الوقت الذي يعانون فيه من وفاة النبي ؟ .

فأقضى ما أنت قاض .

= (سورة التوبة : الآية ٥٦) ، وكان المنافقون قد حاولوا اغتيال النبي الأكرم في العقبة ، عند عودته من تبوك .

(١) سورة التوبة : الآية ٤٨ .

الثاني - الحياة القبلية تمنع من الإتفاق على قائد

من أبرز ما كان يتميز به المجتمع العربي في حياة النبي الأكرم ، هو حياة النظام القبلي ، والتقسيمات العشائرية التي كانت تحتل - في ذلك المجتمع - مكانة كبرى .

وقد كان للقبيلة أكبر الدور في الحياة العربية قبل الإسلام وبعده ، وعلى أساسها كانت تدور المفاخرات ، وتُنشد القصائد ، وتُبنى الأجداد ، كما كانت هي منشأ أكثر الحروب وأغلب المنازعات .

إنّ التاريخ يشهد لنا كيف كان التنازع القبلي في قضية بناء الكعبة المشرفة ، ووضع الحجر الأسود في موضعه أيام الجاهلية ، أن يؤدي إلى الاختلاف ، فالصراع الدموي ، والإقتال المرير ، لولا تدخل النبي الأكرم^(١) .

وقد سعى النبي الأكرم ، سعيًا حثيثًا ، لمحو الروح القبليّة ، وإذابة الفوارق العشائرية ، وجمع تلك المتشتتات في بوتقة الإيمان الموحد ، ولكن لم يكن من الممكن أن ينقلب النظام القبلي في مدة ثلاث وعشرين عاماً إلى نظام موحد إسلامي ، لا يرى للإنتساب إلى القبيلة فخراً ، سوى التعرّف والتعريف^(٢) .

والشواهد على تغلغل العصبية القبليّة في نفوس أكثر الصحابة ، كثيرة ، ويكفي في ذلك ما ورد في غزوة بني المصطلق ، حيث تنازع مهاجريّ مع أنصاريّ ، فصرخ الأنصاري : « يا معشر الأنصار » ، وصرخ الآخر : « يا معشر المهاجرين » . ولما سمع النبي هذه الكلمات قال : « دعوها فإنّها دعوى ميتة » . ولولا قيادته الحكيمة ، لخُضب وجه الأرض بدماء المسلمين من المهاجرين والأنصار^(٣) .

وما نقله ابن هشام من أن شعث بن قيس ، وكان شيخاً من اليهود ، مرّ

(١) قد ذكرنا هذه القضية فيما تقدم .

(٢) إشارة إلى قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (سورة الحجرات : الآية ١٣)

(٣) صحيح البخاري ، ج ٥ ، ص ١١٩ ، باب غزوة بني المصطلق .

ذات يوم على نفرٍ من أصحاب الرسول ، من الأوس والخزرج ، فرآهم يتحدثون ، فغاضه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم ، فأمر فتى شاباً من اليهود ، كان معهم ، فقال له : إعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بُعث وما كان قبله ، وأنشدكم بعض ما كانوا تقولوا فيه من الأشعار ، ففعل الشاب ذلك ، فأثر كيد ذلك اليهودي الماكر في نفوس الأخوة من المسلمين ، فغضب الفريقان ، وانتضوا أسلحتهم للقتال ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين ، وقال : « يا معشر المسلمين ، الله ، الله ، أبدوى الجاهلية ، وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر »^(١) .

ومن ذلك الذي يدلّ على تعمق رواسب القبليّة في النفوس ، ما ذكره الشيخ البخاري في صحيحه ، في قصة الإفك ، قال : « قال النبي وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي ، والله ما علمت على أهلي إلاّ خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً ، وما يدخل على أهلي إلاّ معي » .

قالت عائشة : فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال : أنا يا رسول الله أعذرك ، فإن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا .

قالت عائشة : فقام رجل من الخزرج ، وهو سعد بن عباد ، وهو سيد الخزرج - قالت عائشة ، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر والله ، لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل .

فقال أسيد بن حضير ، وهو ابن عمّ سعد بن معاذ ، لسعد بن عباد : كذبت لعمر والله ، لتقتلته ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين .

(١) السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٥٥٥ .

قالت عائشة : فصار الحيّان (الأوس والخزرج) حتى هموا أن يقتلوا ،
ورسول الله صلى الله عليه وآله ، قائم على المنبر ، ولم يزل رسول الله ، يخفضهم
(أي يهدّثهم) حتى سكتوا »^(١) .

ولا يقل شاهدأ على وجود هذه الرواسب في نفوس الكثيرين منهم ، ما ظهر
منهم في يوم السقيفة من روح القبلية ، ونزعة التعصّب ، وتبادل بينهم من الشتم
والضرب ، وإليك نقل القصة عن لسان عُمر ، قال : « فقال ممثل الأنصار
(سعد بن عباد) :

أما بعد فنحن أنصار الله ، وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين ،
رهط منا ، وقد دفت دافة من قومكم (أي جاء جماعة ببطء) وإذا هم يريدون أن
يختارونا (يدفعونا) من أصلنا ، ويغصبونا الأمر .

فقال أبو بكر^(٢) : أمّا ما ذكرتم فيكم من خير ، فأنتم له أصل ولن تعرف
العرب هذا الأمر ، إلّا لهذا الحي من قريش ، هم أوسط العرب نسباً وداراً .

ثم قال قائل من الأنصار : « أنا جديله المحكك ، وعُدَيْقُهَا المُرَجَّب ، منّا
أمير ومنكم أمير ، يا معشر قريش » . قال عمر : فكثّر اللغط وارتفعت الأصوات ،
حتى تخوفت الاختلاف ، فقلت : ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته ، ثم
بايعه المهاجرون ، ثم بايعه الأنصار ونزونا على سعد بن عباد ، فقال قائل منهم :
قتلت سعد بن عباد ، قال : فقلت : قَتَلَ الله سعد بن عباد »^(٣) .

ولم يقتصر إختلاف الأُمّة على ما جرى في السقيفة ، بل جرت بين الأنصار
والمهاجرين مشاجرات كلامية وشعرية وهجائية ، هاجم كل الفريق الآخر ،
بأنواع الهجاء ، نقلها المؤرخون ولا يعجبني نقل كلمهم^(٤) .

(١) صحيح البخاري ، ج ٥ ، ص ١١٩ ، باب غزوة بني المصطلق .

(٢) لم يكن يوم السقيفة من المهاجرين إلّا خمسة أشخاص ، ولأجل ذلك لم نصف القائل بممثل
المهاجرين .

(٣) السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٦٥٩ - ٦٦٠ . وإنما بايعه الأوس من الأنصار ، وأما الخزرجيون ، فقد
خرجوا غير مبايعين لأحد .

(٤) لاحظ شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد ، ج ٦ ، ص ١٧ - ٣٨ ط مصر .

وما ذكرناه غيـض من فيض مـّا جرى بين الصحابة من المنازعات والخلافات الناشئة من روح القبلية ، والتعصّب العشائري .

أفهل يجوز في منطق العقل ترك هذا المجتمع ، الغارق في نزاعاته العصبية ، دون نصب قائد ، يكون نصبه قاطعاً لدابر الاختلاف ، ومانعاً من مأساة التمزّق والتفرق ؟ فاقض ما أنت قاض .

وها هنا محاسبة ثالثة لا تقلّ عن العاملين السابقين في استلزامها كون المصلحة تقتضي نصب القائد ، لا تفويض الأمر إلى المسلمين أنفسهم ، وهي ما يلي :

الثالث - الصحابة ومدى الوعي الديني

إنّ الأمة الإسلامية - كما يدلّ عليه التاريخ - لم تبلغ في القدرة على تدبير أمورها . وإدارة شؤونها حدّ الإكتفاء الذاتي الذي لا تحتاج معه إلى نصب قائد لها من جانب الله سبحانه . وقد كان عدم بلوغهم هذا الحدّ أمراً طبيعياً لأنّه من غير الممكن تربية أمة كانت متوغلة في العادات الوحشية ، والعلاقات الجاهلية ، والنهوض بها إلى حدّ تصير أمة كاملة تدفع عن نفسها تلك الرواسب ، وتستغني عن نصب القائد المحتكّ ، والرئيس المدبّر ، بل هي تقدر على تشخيص مصالحها في هذا المجال .

إنّ إعداد مثل هذه الجماعة ، ومثل هذه الأمة ، لا تتم في العادة إلّا بعد انقضاء جيل أو جيلين ، وبعد مرور زمن طويل يكفي لتغلغل التربية الإسلامية إلى أعماق تلك الأمة ، بحيث تختلط مفاهيم الدين بدمها وعروقها ، وتتمكن منها العقيدة إلى درجة تحفظها من التذبذب والتراجع إلى الوراء .

ويكفيك شاهداً على هذا ، معركة أُحُد ، فقد هَرَبَ المسلمون - إلّا قليل - من ساحة المعركة عندما أذيع نبأ قتل النبي من جانب الأعداء ، ولاذ بعضهم بالجبل ، بل فكّر بعضهم بالتفاوض مع المشركين ، حتى أتاهم أحد المقاتلين ووبّخهم على فراهم وتخاذلهم وترددهم قائلاً : « إن كان محمد قد مات ، فَرَبُّ

محمد حي ، قوموا ودافعوا عن دينه ^(١) وفي هذا نزل قوله سبحانه : ﴿ وما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَتُنِ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ^(٢) .

ويقول سبحانه في شأن من ذهبوا يفتشون عن ملجأ لهم فراراً من الموت : ﴿ وطائفةٌ قد أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ : هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ^(٣) .

ولم تكن واقعة أحد وحيدة في نسجها ، بل كانت غزوة حُنين على منوالها في التفهقر والفرار عن ساحة الحرب ، يقول ابن هشام عن جابر :

استقبلنا وادي حُنين ، وانحدرنا في وادٍ من أودية تهامة ، وكان العدو قد سبقونا إلى الوادي وكنوا لنا في شعابه واحناؤه ، ومضائقه ، وقد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وانهمز الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد . وانحاز رسول الله ذات اليمين وهو يقول : أين ، أيها الناس ؟ هلموا إليّ ، أنا رسول الله . فانطلق الناس ، إلا أنه بقي مع رسول الله نفر من المهاجرين والأنصار ، فلما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله من جفاة أهل مكة الهزيمة ، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن ، فقال أبو سفيان بن حرب : « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر » ، وإن الأزام لمعه في كنانته . وصرخ جبلة بن الحنبل : « ألا كبطل السحر » ^(٤) .

وغير ذلك من الأحداث والوقائع التي كشفت عن عدم تغلغل الإيمان والعقيدة في قلوب الأكثرية منهم .

نعم كان بينهم رجال صالحون ، يضحون في سبيل العقيدة ، بأنفس النفائس ، وأثمن الأموال ، غير أن البحث مركز على دراسة وضع المجتمع

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٨٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٤٤ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٥٤ .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٤٤٨ .

الإسلامي ككل ، لا من حيث اشتماله على أفراد لا يدرك شأوهم في الفضيلة والصلاح .

ولعلّ الباحث يتخيل أنهم انقلبوا بعد رحلة الرسول إلى مجتمع ديني لا يتخطون سبيل الدين قيد أنملة ، ولكن ما ورد في الصحاح والمسانيد من ارتداد أمة كبيرة من الصحابة ، يؤيد ما ذكرناه من عدم رسوخ العقيدة والإيمان في قلوبهم ، ولا مجال لذكر جميع الروايات ، إنما نكتفي بواحدة منها ونحيل البقية إلى الباحث الكريم :

روى البخاري في تفسير قوله سبحانه : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾^(١) قال : خطب رسول الله فقال : ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا رب أصحابي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ فيقال إن هؤلاء لم يزلوا مرتدين على أعقابهم ما فارقتهم^(٢) .

إن دراسة هذه الأمور الثلاثة ، يرشدنا إلى أن القائد الحكيم ، الذي مرّت عليه هذه الأوضاع والأحوال وعانيتها عن كثب ، عليه أن يستخلف قائداً للأمة لما في هذا التنصيب من مصلحة ، وقطع لدابر الاختلاف ، وجمع لشمل الأمة . وهذا بخلاف ما لو ترك الأمر إلى المسلمين أنفسهم ، ففيه من الأخطار ما صورناه .

إن القائد الحكيم هو من يعتني بالأوضاع الاجتماعية لأمته ، ويلاحظ

(١) سورة المائدة : الآية ١١٧ .

(٢) صحيح البخاري ، ج ٣ ، ص ٨٥ . وصحيح مسلم ، كتاب الجنة ونعيمها ، ومسند الإمام أحمد ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

إن الروايات الدالة على ارتداد الصحابة بعد رحلة النبي الأكرم ، كثيرة جداً ، لا يمكن حملها على نفر أو اثنين منهم ، بل لا يصحّ في تفسيرها إلا حملها على أمة كبيرة منهم ، فلاحظ ما ورد في هذا المجال : جامع الأصول لابن الأثير ، ج ١١ ، كتاب الخوض ، الفرع الثاني في ورود الناس عليه ، الأحاديث ٧٩٦٩ - ٧٩٨٠ .

الظروف المحيطة بها ، ويرسم على ضوءها ما يراه صالحاً لمستقبلها ، وقد عرفت أنّ مقتضى هذه الظروف هو تعيين القائد والمدبّر ، لا دفع الأمر إلى الأمة .

وإلى ما ذكرنا ينظر قول حكيم الإسلام الشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا في حقّ الإمام :

« والإستخلاف بالنصّ أصوب ، فإن ذلك لا يؤدّي إلى التشاغب والإختلاف »^(١) .

* * *

وحصيلة الكلام أنّ النظر إلى لزوم مليء الفراغات الهائلة التي تخلفها رحلة النبي الأكرم ومحاسبة مصالح الأمة آنذاك ، لا يدع شكّاً في أنّ صيغة الحكومة بعد النبي ، إنّما هي صيغة التنصيب ، لا ترك الأمر إلى الأمة واختيار الإمام بطريق من الطرق التي سنشير إليها .

هذا ، مع قطع النظر عن النصوص التي تعيّن النظرية الأولى بوضوح ، وأنّه صلى الله عليه وآله ، قد قام بنصب الوصيّ خضوعاً لأمر الله أولاً ، ورعاية للمصالح التشريعية ثانياً ، واهتماماً بمصالح الإسلام والمسلمين ثالثاً ، فإلى الملتقى في مورد هذه النصوص .

* * *

(١) الشفاء ، الفن الثالث عشر في الإلهيات ، المقالة العاشرة ، الفصل الخامس ، ص ٥٦٤ .

الأمر الثامن

هل الشورى أساس الحكم والخلافة ؟

قد تعرفت على الكلمات السابقة التي تعرب عما تنعقد به الإمامة عند أهل السنة ، كما تعرفت على كيفية خلافة الخلفاء ، وأن الأول منهم فاز بخمسة أصوات^(١) ، وأن الثاني أخذ بزمام الحكم بتعيين الخليفة الأول ، وأن الثالث استتب له الأمر بشورى سداسية عينها نفس الخليفة الثاني . هذا هو واقع الأمر ، ولم يكن في انتخاب هؤلاء ما يقتضيه طبع التشاور من عرض الموضوع على أهل المشورة ، ومناقشة الآراء ، وانتخاب واحد في ضوء الموازين العقلية والاجتماعية والشرعية . وأحسن كلمة تعبر عن حقيقة هذا النوع من الانتخاب ما ذكره الخليفة الثاني بقوله : « إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وثمت ، ألا وإنها قد كانت كذلك ولكن الله وقى شرها ، وليس منكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر ، من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين ، فلا يسأع هو ، ولا الذي بايعه ، تغرة أن يقتلا »^(٢) .

وقد حاول المتجددون من متكلمي أهل السنة ، صبّ صيغة الحكومة الإسلامية على أساس المشورة بجعله بمنزلة الإستفتاء الشعبي ، بملاحظة أنه لم يكن

(١) لاحظ ما نقلناه من كلام الماوردي .

(٢) صحيح البخاري ، ج ٨ ، رجم الحبل من الزنا إذا احصنت ، ص ١٦٨ ، وطالع بقية كلامه .
ولاحظ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج ١ ، ص ١٢٣ . وج ٢ ، ص ١٩ .

من الممكن بعد وفاة النبي مراجعة كل الأفكار واستعلام جميع الآراء في الوطن الإسلامي ، لقلة وسائل المواصلات ، وفقدان سبل الإتصال المتعارفة اليوم .
ولذلك يقول الشيخ عبد الكريم الخطيب : إنّ الذين بايعوا أول خليفة للمسلمين لم يتجاوزوا أهل المدينة ، وربما كان بعض أهل مكة ، وأما المسلمون - جميعاً - في الجزيرة العربية ، فلم يشاركوا هذه البيعة ، ولم يشهدوها ، ولم يروا رأيهم ، وإنما ورد عليهم الخبر بموت النبي مع الخبر باستخلاف أبي بكر^(١) .

ثم إنّ من مظاهر الاختلاف الواقع في مسألة الشورى ، أنّ القائلين بها اختلفوا على قولين : فمنهم من قال بأنّ انتخاب أهل الشورى مُلزم للأمة ، وهو خبرة الأكثرية ، ومنهم من قال إنّ لا يزيد عن ترشيح له لمنصب الأمة ، وللأمة اختياره أو رفضه^(٢) .

وعلى كل تقدير ، فما دليل هذه النظرية ، أي كون الشورى أساس الحكم ، سواء في الفترة التي تلت رحلة النبي أو في زماننا الحاضر .

إستدلوا بآيتين :

الآية الأولى : قوله سبحانه : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾^(٣) فالله سبحانه يأمر نبيه بالمشاورة ، تعليماً للأمة ، حتى يتشاوروا في مهام الأمور ، ومنها الخلافة .

يلاحظ عليه : أولاً - إنّ الخطاب في الآية متوجّه إلى الحاكم الذي استقرت حكومته ، فيأمره سبحانه أن ينتفع من آراء رعيته ، فأقصى ما يمكن التجاوز به عن الآية ، هو أنّ من وظائف كلّ الحكام التشاور مع الأمة ، وأما أنّ الخلافة بنفس الشورى ، فلا يمكن الإستدلال عليه بهذه الآية .

والآية نظير قول علي عليه السلام : « من استبدّ برأيه هلك ، ومن

(١) الإمامة والخلافة ، ص ٢٤١ .

(٢) الشخصية الدولية ، لمحمد كامل ياقوت ، ص ٤٦٣ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

شاوَر الرجال في أمورِها ، شارَكها في عقولِها» (١) .

وثانياً - إنّ المتبادر من الآية هو أنّ التشاور لا يوجب حكماً للمحاكم ، ولا يلزمه بشيء ، بل هو يقلب وجوه الرأي ويستعرض الأفكار المختلفة ، ثم يأخذ بما هو المفيد في نظره ، وذلك لقوله سبحانه في نفس الآية : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ ، المعرب عن أنّ العزم والتصميم والإستتاج من الآراء والأخذ بما هو الأصلح راجع إلى نفس المشير ، وهذا يتحقق في ظرف يكون هناك مسؤول تام الإختيار في استحصال الأفكار والعمل بالنافع منها ، حتى يخاطب بقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ ﴾ ، وأمّا إذا لم يكن ثمة رئيس ، فلا تنطبق عليه الآية ، إذ ليس في انتخاب الخليفة بين المشيرين من يقوم بدعوة الأفراد للمشورة ، لغاية استعراض آرائهم ، ثم تمحيص أفكارهم ، والأخذ بالنافع منها ، ثم العزم القاطع عليه .

وكل ذلك يعرب عن أنّ الآية ترجع إلى غير مسألة الحكومة وما شابهها . ولأجل ذلك لم نر أحداً من الحاضرين في السقيفة احتجّ بهذه الآية .

الآية الثانية : قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٢) .

بيان أنّ المصدر (أمر) أضيف إلى الضمير (هم) ، وهو يفيد العموم والشمول لكل أمر ، ومنه الخلافة ، فيعود معنى الآية أنّ شأن المؤمنين في كل مورد ، شورى بينهم .

يلاحظ عليه : إنّ الآية تأمر بالمشورة في الأمور المضافة إلى المؤمنين ، وأمّا أنّ تعيين الخليفة من الأمور المضافة إليهم ، فهو أول الكلام ، والتمسك بالآية في هذا المجال ، تمسك بالحكم في إثبات موضوعه .

وبعبارة أخرى : إنّ الآية حثت على الشورى فيما يمتّ إلى شؤون المؤمنين بصلة ، لا فيما هو خارج عن حوزة أمورهم ، أمّا كون تعيين الإمام داخلاً في

(١) نهج البلاغة ، قسم الحكم ، الرقم ١٦١ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٣٨ .

أمورهم ، فهو أول الكلام ، إذ لا ندري هل هو من شؤونهم أو من شؤون الله سبحانه ، ولا ندري ، هل هي إمرة وولاية إلهية تتم بنصبه سبحانه وتعيينه ، أو إمرة وولاية شعبية ، يجوز للناس التدخل فيها . ومع هذا التردد لا يصح التمسك بالآية .

إجابة عن سؤال

لولا تكن الشورى أساس الحكم ، فلماذا استدل الإمام علي عليه السلام ، على المخالف ، بمبدأ الشورى ، وقال : - مخاطباً معاوية - : « إنّه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليهم ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرّد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإن اجتمعوا على رجل وسمّوه إماماً ، كان ذلك لله رضي »^(١) .

والجواب : إنّ ابن أبي الحديد المعتزلي هو أوّل من احتجّ بهذه الخطبة على أنّ صيغة الحكومة بعد وفاة النبي مستندة إلى الاختيار ونظام الشورى ، وتبعه من تبعه ، ولكنه غفل عن صدر الرسالة التي تعرب عن أنّ الاستدلال بالشورى من باب الجدل ، خضوعاً لقوله سبحانه : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾^(٢) ، فإنّ الإمام عليه السلام بدأ رسالته بقوله : « أمّا بعد ، فإنّ بيّعتي بالمدينة لزمّتك وأنت بالشام ، لأنّه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر . . . » ، ثم ختمها بقوله : « وإنّ طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيّعتي ، وكان نقضهما كردّهما ، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق ، ظهر أمر الله وهم كارهون ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون »^(٣) .

فالابتداء بالكلام بخلافة الشيخين يعرب عن أنّه في مقام إسكات معاوية

(١) نهج البلاغة : قسم الكتب ، الرقم ٦ .

(٢) سورة النحل : الآية ١٢٥ .

(٣) لاحظ وقعة صفين لنصر بن مزاحم (م ٢١٢) ، ص ٢٩ ، ط مصر . وقد حذف الرضي في نهج البلاغة من الرسالة ما لا يهمه ، فإنّ عنايته كانت بالبلاغة فحسب .

الذي يعتبر البيعة وجهاً شرعياً للخلافة ، ولولا هذا لما كان وجه لذكر خلافة الشيخين ، بل لاستدلّ بنفس الشورى .

ولأجل ذلك يُتمّ كلامه بقوله : « فإن اجتمعوا على رجل . . » ، احتجاجاً بمعتقد معاوية ، عليه .

* * *

أُسْئَلَةُ حَوْلَ مَبْدِئَةِ الشُّورَى

من خلال التحليل المتقدم يمكن استخلاص أسئلة حول مبدئية الشورى للحكم ، تزعزع كونها مبدئاً له ، وهي :

١ - لو كان أساس الحكم هو الشورى ، لوجب على الرسول الأكرم التصريح به ، أولاً ، وبيان حدوده وخصوصياته ، ثانياً . بأن يبيّن مَنْ هُمُ الذين يشتركون في الشورى ، هل هم القراء وحدهم ، أو السياسيون ، أو القادة العسكريون ، أو الجميع ، وما هي شرائط المنتخب ، وأنه لو حصل هناك اختلاف في الشورى ، فما هو المرجّح ، هل هو كمية الآراء وكثرتها ، أو الرجحان بالكيفية ، وخصوصيات المرشحين وملكاتهم النفسية والمعنوية .

فهل يصحّ سكوت النبي عن الإجابة على هذه الأسئلة التي تتصل بجوهر مسألة الشورى ، وقد جعل الشورى طريقاً إلى تعيين الحاكم ؟ ! .

٢ - إنّ القوم يعبرون عن أعضاء الشورى ، بأهل الحلّ والعقد ، ولا يفسّرونه بما يرفع إجماله ، فَمَنْ هُمُ أهل الحلّ والعقد ؟ وماذا يحلّون وماذا يعقدون ؟ أهم أصحاب الفقه والرأي الذين يرجع إليهم الناس في أحكام دينهم ؟ وهل يشترط حينئذٍ درجة معينة من الفقه والعلم ؟ وما هي تلك الدرجة ؟ وبأي ميزان توزن ؟ ومن إليه يرجع الأمر في تقديرها ؟ أم غيرهم ؟ . فمن هم ؟ .

وربما تجد من يبدل كلمة أهل الحلّ والعقد ، بـ « الأفراد المسؤولين » ، وما هو إلّا وضع كلمة مجملة مكان كلمة مثلها .

٣ - وعلى فرض كون الشورى أساس الحكم ، فهل يكون انتخاب أعضاء

الشورى ملزماً للأمة ، ليس لهم التخلف عنه ؟ أو يكون بمنزلة التشريع ، حتى تعطي الأمة رأياً فيه ؟ وما هو دليل كل منها ؟ .

هذه الأسئلة كلها ، لا تجد لها جواباً في الكتاب والسنة ولا في كتب المتكلمين ، ولو كانت مبدئاً للحكم لما كان السكوت عنها سائغاً ، بل لكان على عاتق التشريع الإسلامي الإجابة عليها ، وإضاءة طرقها^(١) .



(١) يقول طه حسين : « ولو قد كان للمسلمين هذا النظام المكتوب (نظام الشورى) لعرف المسلمون في أيام عثمان ما يأتون من ذلك وما يدعون ، دون أن تكون بينهم فرقة أو اختلاف » (الخلافة والإمامة : ص ٢٧١) .

ويقول الشيخ عبد الكريم الخطيب : « ينظر البعض إليه على أن تعيين الإمام بالشورى نواة صالحة لأول تجربة ، وأن الأيام كفيلة بأن تنميها ، وتستكمل ما يبدو فيها من نقص ، فلم تكن الأحوال التي تمت فيها هذه التجربة تسمح بأكثر مما حدث .

وينظر بعض آخر إلى هذا الأسلوب بأنه أسلوب بدائي عالج أهم مشكلة في الحياة ، وقد كان لهذا الأسلوب أثره في تعطيل القوى المفكرة للبحث عن أسلوب آخر من أساليب الحكم التي جربتها الأمم » . (الخلافة والإمامة : ص ٢٧٢) .

ومعنى ما ذكره الخطيب ، أن قضية الشورى كانت مجرد تجربة ، ولم تكن قانوناً إسلامياً أخذ به ، وكانت في هذه القضية نقائص وعيوب ، تركت آثاراً سيئة على الفكر الإسلامي .
وفي المقام شبهة ، يتشدد بها بعض المتعصرين ، نذكرها ونجيب عليها في ملحق خاص آخر الكتاب ، لاحظ الملحق رقم (٣) .

الأمر التاسع

هل البيعة أساس الحكم

البيعة مصدرُ بايَع ، لأنَّ المبايع يجعل حياته وأمواله . بالبيعة ، تحت اختيار من يبايعه ، ويتعهد المبايع (بالفتح) - في المقابل - على أن يسعى في إصلاح حال المبايع (بالكسر) وتدير شؤونَه بصورة صحيحة ، وكأنَّها يقومان بعملية تجارية ، إذ يتعهد كل واحد منهما تجاه الآخر بعمل شيء للآخر ، قال ابن خلدون : « إنَّ البيعة هي العهد على الطاعة ، كأنَّ البايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر في أموره وأمور المسلمين ، ويطيعه فيما يكلفه ، وكانوا إذا بايعوا الأمير ، جعلوا أيديهم في يده تأكيداً ، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري .

البيعة قبل الإسلام وبعده

كانت البيعة من تقاليد العرب قبل الإسلام وسننهم ، وليس من مبتكراته ، بل أمضاها وجعلها من العقود اللازمة التي يجب العمل بها ، ويحرم نقضها . فقد بايع أهل المدينة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في السنة الحادية عشر ، والثانية عشر من البعثة ، في العقبة ، بمضى^(١) ، بايعوه على عادتهم قبل الإسلام ، حيث كانوا يبايعون زعماءهم .

(١) لاحظ سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٤٣١ و ٤٣٨ .

وأما بعد الهجرة ، فمرة بايعه الصحابة في غزوة الحديبية ، وسميت بيعة الرضوان ، لقوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (١) .

وأخرى بايعته الصحابييات في مكة المكرمة بعد فتحها ، وعنه يحكي قوله سبحانه : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ . . . ﴾ (٢) .

إذا عرفت ذلك فلنعطف نظر الباحث إلى نكات :

الأولى - إن بيعة المسلمين للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، لم تكن الاعتراف بزعامة الرسول وراثته ، فضلاً عن نصبه وتعيينه ، بل إن المبايعين ، بعد أن آمنوا بنبوة النبي واعترفوا بقيادته وزعامته ، أرادوا أن يصبوا ما يلازم ذلك الإيمان ، من الالتزام بأوامر الرسول ، في قالب البيعة ، فكانت البيعة صورة عملية للإلتزام النفسي بأوامر النبي ، بعد الإقرار بنبوته ، وزعامته . فكان النبي الأكرم يقول : « فإن آمنتم بي فبايعوني على أن تطيعوني ، وتصلّوا وتزكّوا ، وأن تدفعوا عني العدو حتى الموت ، ولا تفروا من الحرب » .

والهدف عندئذٍ من البيعة لم يكن هو الاعتراف بمنصب المبايع ، وانتخابه وتعيينه لمقام الحكومة والولاية ، بل كانت لأجل التأكيد العملي على الإلتزام بلوازم الإيمان السابق عليه ، وهذا بارز في البيعة الثانية للأَنْصار في منى ، وبيعة الصحابة في غزوة الحديبية .

الثانية - إن البيعة ميثاق بين شخصين ، تندرج تحت قوله سبحانه : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ (٣) .

وعقد بين المبايعين ، فتندرج تحت قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) سورة الفتح : الآية ١٨ .

(٢) سورة الممتحنة : الآية ١٢ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٣٤ .

أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴿١﴾ .

يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، من الحث على البيعة : « وأما حقي عليكم ، فالوفاء بالبيعة ، والنصيحة في المشهد ، والمغيب ، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين آمركم »^(٢) .

الثالثة - إنه ليس هناك دليل شرعي على أن مجرد البيعة ، بغض النظر عن الموصفات والضوابط الآتية ، طريق إلى تعيين الخليفة والإمام ، وإنما يتعين بها ، إذا كان المبايع ، واجداً للصفات اللازمة في الإمام .

الرابعة - الظاهر أن البيعة ليست طريقاً لتعيين الحاكم وانتخاب القائد ، وإنما يتعين الحاكم بالمقابلة وتصويت الجماعة الحاضرين ، ثم يُصَبُّ ذلك الانتخاب في قالب الحس بالبيعة والصفق ، وكأن البيعة تأكيد لما التزموا ، وتجسيد لما أضمره أو تفاوله . وعلى فرض كونها طريقاً لتعيين الحاكم ، فهي إحدى الطرق لا الطريق الوحيد ، فلو علم رضا الأمة بحكومة فرد وزعامة شخص عن غير طريق البيعة ، وأبرزت رضاها بطريق من الطرق ، لكفى ذلك في كونه قائداً لازم الطاعة ، لأنه أشبه بالعقد والعهد .

الخامسة - إن التصويت الشعبي أو بيعة الجماعة الحاضرين إنما يعدّ طريقاً لتعيين الحاكم إذا لم يكن هناك نص من الرسول على تنصيب شخص للزعامة ، وإلا تكون البيعة رفضاً للنص ، واجتهاداً في مقابلة .

السادسة - إن البيعة الكاملة من الصحابة الحاضرين في المدينة ، لم تتحقق في واحد من الخلفاء الأربعة ، إلا في علي ، فقد بايعه المهاجرون والأنصار ، إلا نفر قليل لا يتجاوز خمسة أشخاص ، هم سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وحسان بن ثابت ، وأسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة ، والباقون أصفقوا

(١) سورة الأنعام : الآية الأولى .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ٣٤ .

على يده بالبيعة والطاعة ، وإن نكث من نكث ، ونقض من نقض ، فيما بعد ،
وشقَّ عصا الأُمّة .

هذا وإن البيعة تحتاج إلى دراسة مبسّطة ، موضوعاً وحكماً في ضوء
الكتاب والسنة ، ومنهج الكتاب لا يقتضي التوسّع أزيد ممّا ذكرنا^(١) .

* * *

(١) لاحظ للتبسط : بحار الأنوار ، ج ٢ ، كتاب العلم ، الباب ٣٣ . وأيضاً : ج ٢٧ ، كتاب
الإمامة ، الباب ٣ .

الأمر العاشر

تصوّر النبي الأكرم للقيادة بعده

إنّ الكلمات الماثورة عن الرسول الأكرم ، تدلّ على أنّه صلى الله عليه وآله كان يعتبر أمر القيادة بعده ، مسألة إلهية ، وحقّاً خاصّاً لله جلّ جلاله ، فالله سبحانه هو الذي له أن يعين القائد ، وينصب خليفة الرسول ، ولا نجد في كل ما نقل عن النبي ما يدلّ على إرجاء الأمر إلى تشاور الأمة ، أو اختيار أهل الحلّ والعقد ، أوبيعة الصحابة الحاضرين ، أو غير ذلك ، ويكفي في ذلك الشاهدين التاليين :

١ - لما دعا الرسول الأكرم بني عامر إلى الإسلام وقد جاؤوا في موسم الحج إلى مكة ، قال رئيسهم : « أرايت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أ يكون لنا الأمر من بعدك » ؟ .

فقال النبي صلى الله عليه وآله : « الأمر إلى الله ، يضعه حيث يشاء »^(١) .

فلو كان أمر الخلافة بيد الأمة ، لكان على النبي صلى الله عليه وآله أن يقول : الأمر إلى الأمة ، أو إلى أهل الحلّ والعقد ، أو ما يشابه ذلك . فتفويض الأمر إلى الله سبحانه ، ظاهر في كونها كالنبوة ، يضعها سبحانه حيث يشاء ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾^(٢) . فاللسان في الموردين واحدٌ .

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ٢ ، ص ٤٢٤ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٢٤ .

٢ - بعث النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) سليط بن عمرو العامري ، إلى ملك اليمامة ، « هوزة بن علي الحنفي » ، الذي كان نصرانياً ، يدعو إلى الإسلام ، وكتب معه كتاباً ، فقدم على ملك اليمامة ، فأنزله وجباه ، وكتب إلى النبي ، يقول : « ما أحسن ما تدعو إليه ، وأجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم ، والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر ، أتبعك » . فقدم سليط على النبي بكتابه ، فلما قرأ عليه قال صلى الله عليه وآله : « لو سألتني سيابة من الأرض ما فعلته . باد ، وباد ما في يده »^(١) . وفي نقل آخر : « أرسل هوزة إلى النبي وفداً يقول له ، إن جعل له الأمر من بعده ، أسلم ، وصار إليه ، ونصره ، وإلا قصد حربه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا ، ولا كرامة ، اللهم إكفنيه »^(٢) .

فلو كانت القيادة بعد النبي ، قيادة دستورية انتخابية ، وكان للشعب الإسلامي منه حظ ، لكان على النبي إجابة السائل بشكل آخر ، وهو أن الأمر من بعدي ، يرجع إلى أمتي ، والمؤمنين بي ، ولكنك ترى أنه وقف في وجهه بقسوة وشدة كما هو ظاهر .

* * *

(١) الطبقات الكبرى ، لابن سعد ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .

(٢) الكامل في التاريخ ، لابن الأثير ، ص ١٤٦ .

الأمر الحادي عشر

تصوّر الصحابة للخلافة بعد النبي

إنَّ المتتبع في تاريخ الخلفاء الذين تعاقبوا على مسند الحكومة ، يرى بوضوح أنهم كانوا يتبعون الطريقة الإنتصابية لا الإنتخابية ، بالتشاور أو البيعة ، أو غير ذلك من المفاهيم التي حدثت في أيام خلافة الإمام أمير المؤمنين ، وإليك الشواهد .

١ - إنَّ خلافة عمر تمّت بتعيين من أبي بكر ، وليس هذا خافياً على أحد . روى ابن قُتيبة الدينوري ، أنَّ أبا بكر دعا عثمان بن عفان ، فقال : أُكُتِبَ عهدي ، فكتب عثمان :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهدَ به أبو بكر بن أبي قُحافة ، آخر عهده في الدنيا ، نازحاً عنها . . . إنيّ أستخلف عليكم عُمر بن الخطاب ، فإن تروه عدلَ فيكم ، ظنيّ به ورجائي فيه ، وإن بدّلَ وغيرَ ، فالخير أردت . . » ثم ختم الكتاب ودفعه ، ودخل عليه المهاجرون والأنصار حين بلغهم أنَّه استخلف عُمر^(١) .

(١) الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ١٨ . ورواه ابن سعد في طبقاته الكبرى ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ ، وابن الأثير في تاريخه « الكامل » ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ باختلاف يسير وقد نقل موضوع استخلاف أبي بكر لعمر ، عدّة من أعلام التاريخ والحديث ، والكل يتحدّ جوهراً ، وأنَّ التنصيب صدر من الخليفة الأول

٢ - إن استخلاف عثمان تمَّ عن طريق شورى عين أعضائها عمر بن الخطاب ، يقول التاريخ : دعا عمر علياً ، وعثمان وسعداً ، وعبد الرحمن ، والزبير ، وطلحة ، فقال : « إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذننا ، واختاروا منكم رجلاً ، فإذا تم فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصلب الناس صهيياً ، ولا يأتي اليوم الرابع إلّا وعليكم أمير »^(١) .

فلو كانت صيغة الحكومة هي انتخاب القائد عن طريق المشورة باجتماع الأمة ، أو بالبيعة ، فما معنى انتخاب الخليفتين هذين الطريقين ؟ .

٣ - لما اغتيل عمر بن الخطاب . وأحسن بالموت ، أرسل ابنه عبد الله إلى عائشة ، واستأذن منها أن يدفن في بيتها مع رسول الله ومع أبي بكر ، فأتاه عبد الله ، فأعلمها ، فقالت : نعم ، وكرامة . ثم قالت : يا بُني ، أبلغ عُمَرَ سلامي وقل له ، لا تدع أمة محمد بلا راع ، استخلف عليهم ، ولا تدعهم بعدك هملاً ، فإني أخشى عليهم الفتنة ، فاتاه ، فأعلمه »^(٢) .

٤ - إن عبد الله بن عمر دخل على أبيه قبيل وفاته ، فقال : « إني سمعت الناس يقولون مقالة ، فأليت أن أقولها لك ، وزعموا أنك غير مستخلف ، وأنه لو كان لك راعي إبل أو غنم ثم جاءك وتركها ، لرأيت أن قد ضيَّع ، فرعاية الناس أشد »^(٣) .

٥ - قدم معاوية المدينة لأخذ البيعة من أهلها لابنه يزيد ، فاجتمع مع عدّة من الصحابة ، وأرسل إلى عبد الله بن عمر ، فاتاه ، وخلا به ، وكلمه بكلام ، وقال : إني كرهت أن أدع أمة محمد بعدي كالضأن لا راعي لها »^(٤) .

هذه النصوص التي حفظها التاريخ ، صدفة - وكم لها من نظائر - تدلّ على أنّ انتخاب الخليفة عن طريق أهل الحلّ والعقد ، والأنصار والمهاجرين ، وأخيراً

(١) الكامل لابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٣٥ ، أنظر باقي الواقعة .

(٢) الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٣) حلية الأولياء ، ج ١ ، ص ٤٤ .

(٤) الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

الإستفتاء الشعبي ، لم يكن له أصل في منطق الصحابة ، وإنما اخترعت هذه الألفاظ في فترة خاصة ، في مقابل خلافة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام .

ثم إنَّها هنا أمر بديع يجب إلفات نظر الباحث إليه وهو إنَّه إذا كان ترك الأُمة بلا راع ، أمراً غير صحيح في منطق العقل ، أو كان ترك تعيين القائد كترك الضأن بلا راع لها ، فكيف يجوز هؤلاء أن ينسبوا إلى النبي أنَّه ترك الأُمة بلا راع ، وودعهم بعده هملاً ، يخشى عليهم الفتنة . فكأنَّ هؤلاء كانوا أعطف على الأُمة من النبي الأكرم ، وأحنَّ على مصالحها منه ؟ إنَّ هذا ممَّا يقضي منه العجب .

غير أنَّ كُلَّ مَنْ كَتَبَ في الإمامة ، وواجه هذا التاريخ المسلّم ، حاول تصحيح هذه التنصيبات بأنَّ تعيين القائد السابق ، الإمامَ اللاحق ، أحد طرق انعقاد الإمامة ، ولكن هؤلاء قد جمعوا بين المختلفين ، فتارة يعترفون بالتنصيب ، وأخرى بالإنّخاب ، وبعبارة أخرى : يعترفون بكفاية رأي واحد من الأُمة تارة ، ويشترطون تصويت الشعب ، أو الصحابة ، ثانياً .

* * *

الأمر الثاني عشر

صيغة القيادة في الشرائع السابقة

المتبع بين الأنبياء السالفين هو تسليم أمر من قاموا بهدايتهم ، إلى خلفاء صالحين لائقين ، ليتسنى لتلك الأمم في ظل الرعاية والتربية الصحيحة ، التي يتولاها الأوصياء ، أن يستمروا في طريق التكامل والرشد .

نعم ، كان كثير من الأوصياء أنبياء ، ولكن بعضاً منهم كانوا أوصياء خاصين ، وهذا يعرب عن أن مسألة القيادة والزعامة كانت من الأهمية والخطورة ، إلى حدّ لم يترك أمرها إلى اختيار الناس ونظرهم ، بل كانت تُعهد على مدى التاريخ إلى رجال أكفاء ، يُعَيَّنون بالإسم والشخص ، لأنّ تركه يؤدّي إلى الاختلاف والفرقة والفتنة ، وكانت القيادة يتوارثها ، في الغالب أفراد من سلالة الأنبياء والرسل ، خلفاً عن سلف ، وإليك بعض الآيات المشعرة بذلك .

قال سبحانه مخاطباً إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، قَالَ لَا يَنْأَلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾^(١) وليس المراد من الإمامة هنا النبوة ، كما زعمه بعض المفسرين ، لأنّه إنّما جعله إماماً بعدما كان نبياً ورسولاً ، بشهادة أنّه يطلب هذا المقام لذريته ، وإنّما صار ذا ذرية ، بعدما كبر وهرم ، قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾^(٢) . وقد كان نبياً قبل

(١) سورة البقرة : الآية ١٢٤ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٣٩ .

أن يرزق ولدآ ، بشهادة نزول الملائكة عليه^(١) بل المراد هو الإمامة المتمثلة في الحاكمية والقيادة ، فدعا إبراهيم أن يجعل الله تعالى هذا المقام في ذريته ، على النحو الذي جعله فيه (بالتنصيب) ، ولم يرُدَّ سبحانه ، وما أنكره عليه ، بل أخبره بأنها لا تنال الظالمين منهم .

قال سبحانه - حاكياً عن موسى عليه السلام - : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي ﴾^(٢) . فطلب موسى عليه السلام أن يكون أخاه هارون مساعداً ومعيناً له في القيادة ، فقبله سبحانه ، وأعطاه مضافاً إلى الوزارة ، النبوة . ويؤيد ذلك تاريخ الأنبياء ، فقد كانوا ينصّون على الخلفاء من بعدهم بصورة الوصاية ، وقد ذكر المؤرخون قائمة أوصيائهم ، فراجع^(٣) .

هذه هي الطريقة المألوفة في الشرائع السابقة ، ولا دليل على الانحراف عنها ، ولا صارف عن الأخذ بها ، بل نجد في السنة ما يدلّ على أنّ كل ما جرى على الأمم السابقة ، يجري على هذه الأمة إلّا ما استثنى^(٤) .

ويدلّ على ذلك بصرامة لا تقبل جدلاً ، ما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال :

« كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وإنه لا نبي بعدي ، وسيكون بعدي خلفاء يكثرُونَ »^(٥) .

وظاهر الحديث أنّ استخلاف الخلفاء في الأمة الإسلامية ، كاستخلاف

(١) لاحظ سورة الحجر : الآيات ٥١ - ٦٠ .

(٢) سورة طه : الآية ٣٠ .

(٣) لاحظ إثبات الوصية ، للمسعودي ، مؤلف مروج الذهب (م ٣٤٥) .

(٤) روى أحمد في مسنده ، ج ٣ ، ص ٨٤ ، عن أبي سعيد الخدري ، أنّ رسول الله (ص) قال : « لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، شَبْراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لتبعموهم » . ورواه غيره من أصحاب الصحاح والسنن .

(٥) جامع الأصول لابن أثير الجزري ، الفصل الثاني ، فيمن تصح إمامته وإمارته ، ص ٤٤٣ ، أخرجه البخاري ومسلم .

الأنبياء في الأمم السالفة ، ومن المعلوم أنّ الإستخلاف كان هناك بالتنصيب ، فيجب أن يكون هنا بالتنصيب كذلك .

* * *

إذا تعرفت على هذه الأمور الإثني عشر ، فاعلم أنّ هذه المقدمات تعرب عن كون صيغة الحكومة بعد النبي هي صيغة التنصيب ، والتنصيب ، لا غير ، لا بالطرق التي تقدمت عند البحث عما تنعقد به الإمامة عند أهل السنة ، وإليك البيان :

١ - قد عرفت أنّ رحلة النبي الأكرم ترك فراغات هائلة في الأمة ، لا مناص عن سدّها بواحد من أبناء الأمة ، وأنّ هذه الفراغات لا تسدّ بفرد عادي ، له من المؤهلات والكفاءات العلمية ، ما لا يتجاوز عن حدود ما لغيره من أفراد الأمة ، بل يجب أن يكون له كفاءة وصلاحية توازن كفاءات النبي ومؤهلته ، ويكون مستودعاً لعلوم النبي ، واقعاً تحت عناية الله تبارك وتعالى وكفالاته .

ومن المعلوم أنّ التعرف على هذا الفرد ليس ميسراً من طريق الانتخاب بالشورى أو بالبيعة ، بل يُعرف بتعيين من الله سبحانه عن طريق النبي الأكرم ، نظير أوصياء سائر الأنبياء .

٢ - كما عرفت أنّ الدولة الإسلامية الفتية كانت مهددة في أخريات أيام النبي ، حال وفاته ، بأعداء داخليين وخارجيين . أمّا الداخليون ، فهم المنافقون الذين كانوا يتربصون بها الدوائر ، وأمّا الخارجيون ، فدولتا الروم والفرس ، فمقتضى المصلحة العامة في تلك الظروف الحرجة ، تعيين الإمام والخليفة بعده ، لئلا تترك الدولة بعد وفاته عرضة للإختلاف ، وبالتالي تمكّن أعدائها منها ، خصوصاً إذا لاحظنا أنّ حياة العرب حينذاك في عاصمة الإسلام وخارجها ، كانت حياة قَبَلِيّة ، والتعصبات العشائرية لا تزال متغلغلة في نفوسهم ، وترك الأمر إلى مجتمع هذا حالة ، يؤدّي إلى التشاغب والإختلاف وبالتالي إلى القتل والدمار .

أضف إلى ذلك أنّ الوعي الديني لم يكن راسخاً في قلوب أكثر الصحابة ، وإن كان القليل منهم قد بلغ القمة ، وصاروا مثلاً علياً للفضل والفضيلة ، وقد

عرفت دليل قلة الوعي الديني ، بفرارهم في بعض الغزوات .

٣ - كما عرفت أنه لو كان أساس الحكم على غير وجه التنصيب ، لكان على النبي الأكرم بيان أسسه وأصوله وفروعه ، وشرائط الإيمان ، وما تنعقد به الإمامة ، مع أن النبي سكت عن ذلك ولم ينبس منه بكلمة ، فليس في الصحاح والمسانيد أحاديث أو حديث عن النبي حول أساس الحكم ، أفصح لنا أن نتهم النبي بأنه بَلَغَ أبسط الأمور وأيسرها ، التي تقع في الدرجة الأخيرة من الأهمية في حياة الإنسان ، وسكت عن عظام الأمور ومهماتها التي تتوقف عليها حياة الأمة .

كل ذلك يعرب عن أن سكوته لأجل أن أساس الحكم هو التنصيب ، ونصب الإمام يغني عن البحث حول أساس الحكم وشروطه ، لأن الإمام المنصوب يكون ميزاناً للحق ، ومعياراً للتعرف على أساس الحكم وشروطه ؛ « وكلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفِرَاءِ »^(١) .

٤ - كما عرفت أن تصوّر النبي للخلافة في عصره ، هو إيكالها إلى الله سبحانه ، وأنه تعامل معها معاملة الرسالة ، وأنه عَرَفَهَا بنفس ما عَرَفَ به الله سبحانه الرسالة ، « يَضَعُهَا حَيْثُ شَاءَ » .

٥ - كما عرفت أن تصوّر الصحابة ، وسيرتهم في الخلافة هي سيرة التنصيب ، وقد كان ترك التنصيب ، في نظرهم ، إهمالاً لأمر الأمة ، وتركاً لها بلا راع فريسة للذئاب ، والأعداء ، وبذلك استتب الأمر لعُمَرُ بيد أبي بكر ، ولعُثْمَانُ بيد عُمَرُ ، وهكذا توالى السيرة في الأمويين من الخلفاء ، وشدّت عنها خلافة علي حيث استتب له ببيعة المهاجرين والأنصار .

٦ - كما عرفت أن صيغة القيادة في الشرائع السابقة كانت هي التنصيب ، وكان الأوصياء يُنصَّبون من طريق الأنبياء .

٧ - كما أنك عرفت أنه لا دليل على كون أساس الحكم هو الشورى أو البيعة بألوانها المختلفة .

(١) مَثَلُ يُضْرَبُ .

كل ذلك يعرب عن أنّ القائد الحكيم ، بأمر من الله سبحانه ، سلك مسلكاً ، ونهج منهجاً ، يطابق هذه الأصول والمقدمات ، وما خالفها قدر شعرة ، وعين القائد بعده في حياته ، وأعلنه للأمة في موسم أو مواسم .

هذا ما يوصلنا إليه السبر والتقسيم والمحاسبة في الأمور الاجتماعية والسياسية ، فيجب علينا عندئذ الرجوع إلى الكتاب والسنة ، لنقف ونتعرّف على ذلك القائد المنصوب ، ونذعن - بالتالي - بأنّ عمل النبي كان موافقاً لهذه الأصول العقلانية التي تقدمت ، وهذا ما يوافيك في البحوث التالية .

* * *

البحث الأول :

السنة النبوية وتنصيب علي للإمامة

إن من أحاط علماً بسيرة النبي في تأسيس دولة الإسلام ، وتشريع أحكامها وتمهيد قواعدها ، يجد علي بن أبي طالب وزير رسول الله في أمره ، وظهيره على عدوه ، وعية علمه ، ووارث حكمه ، وولي عهده ، وصاحب الأمر من بعده . ومن وقف على أقوال النبي وأفعاله في جلّه وترحاله ، يجد نصوصه في ذلك متواترة متوالية ، من مبدأ أمره إلى منتهى عمره ، صلى الله عليه وآله ، وإليك البيان .

أ- حديث بدء الدعوة

أخرج الطبري وغيره ، بسنده ، عن علي بن أبي طالب ، أنه لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(١) دعاني رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال لي : يا علي ، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، فضقت بذلك ذرعاً ، وعرفت أنني متى أبادهم بهذا الأمر ، أرى منهم ما أكره ، فصمّدتُ عليه حتى جاءني جبرئيل ، فقال : يا محمد ، إنك إن لا تفعل ما تؤمر به ، يعذبك ربك ، فاصنع (يا علي) لنا صاعاً من طعام ، واجعل عليه رجلاً شاة ، وأمسأ لنا عسا من لبن ، ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلهم وأبلغهم ما أمرت به ، ففعلت ما أمرني به ، ثم دعوتهم له ، وهم يومئذ أربعون

(١) سورة الشعراء : الآية ٢١٤ .

رجلاً ، يزيدون رجلاً أو ينقصونه ، فيهم أعمامه . . . إلى أن قال : فأكلوا حتى ما لهم بشيء حاجة ، ثم قال (النبي) : أسقهم . فجئتهم بذلك العس ، فشربوا حتى رويوا منه جميعاً ، ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا بني عبد المطلب ، إني والله ما أعلم شاباً في العرب ، جاء قومه بأفضل مما قد جئتهم به ، إني قد جئتهم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه ، فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر ، على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم ؟ قال : فأحجم القوم عنها جميعاً ، وقلت : أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي ، ثم قال : إن هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوه .

وفي رواية أخرى قال ذلك القول ثلاث مرات ، كل ذلك أقوم إليه فيقول : إجلس^(١) .

ودلالة الحديث على الخلافة لعلي والوصاية له ، لا تحتاج إلى بيان ، وهذا إن

(١) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٦٣ - ٦٤ . ورجال السند كلهم ثقات إلا أبو مريم عبد الغفار بن القاسم ، فقد ضعفه القوم ، ليس ذلك إلا لتشيعه ، فقد أثني عليه ابن عقدة وأطراه ، وبالغ في مدحه ، كما في لسان الميزان ، ج ٤ ، ص ٤٣ وأسند إليه . وأخرجه بهذا اللفظ أبو جعفر الإسكافي المتكلم المعتزلي البغدادي ، في كتابه نقض العثمانية ، على ما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج ١٣ ، ص ٢٤٤ ، وقال : « إنه روي في الخبر الصحيح » ، وابن الأثير في الكامل ، ج ٢ ، ص ٢٤ ، وأبو الفداء عماد الدين الدمشقي ، في تاريخه : ج ٣ ، ص ٤٠ . والخازن علاء الدين البغدادي في تفسيره ، ص ٣٩٠ . وغيرهم من الحفاظ وأساتذة الحديث وأئمة الأثر ، والمراجع في الجرح والتعديل ، ولم يقذف أحد منهم الحديث بضعف أو غمز لمكان أبي مريم في أسناده .

على أنه أخرجه الإمام أحمد في مسنده في غير مورد ، فرواه في الجزء الأول ، ص ١٥٩ عن عفان عن أبي عوانة عن عثمان بن المغيرة ، عن أبي صادق ، عن ربيعة بن ناجز ، ورجال السند كلهم ثقات . كما أخرجه في الجزء الأول ، ص ١١١ ، بسند رجاله كلهم من رجال الصحاح بلا كلام ، وهم شريك ، والعمش ، والمنهال ، وعباد .

وللحديث صور مختلفة رواها عدة من الحفاظ ، فمن أراد التوسع في ذلك فليرجع إلى المصادر التالية : الغدير ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ - ٢٨٩ . غاية المرام ، للسيد البحراني ، المقصد الثاني ، الباب ١٥ و ١٦ . وتعاليق إحقاق الحق ، ج ٤ ، ص ٦٦ - ٧٠ . والمراجعات ، المراجعة ٢٠ ، والمراجعة ٢٢ ، وقد تكلم في إسناد الحديث في المتن وتعليقه بما لا يدع للمريب شكاً .

دَلَّ على شيء ، فإنما يدلَّ على أن النبوة والإمامة كانتا متعاقبتين بعقد واحد ، تتجليان معاً ، ولا تتخلفان .

كتمان الحقائق

إنَّ من العجب أنَّ أناساً يدَّعون أنَّهم حفظة الحديث وعَيَّة آثار رسول الله صلى الله عليه وآله ، كَتَمُوا الحقائق وارتكبوا جنایات في نفل الآثار ، وإليك نبذة من هؤلاء .

١ - رأينا أنَّ الطُّبري في تاريخه ، نقل قول النبي على الوجه التالي :
- « فَأَيُّكُمْ يُؤَاذِرُنِي عَلَى هَذَا الْأَمْرِ ، عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فَيُكِّمُ » . كما نقل قوله الآخر :

- « إِنَّ هَذَا أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فَيُكِّمُ ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوهُ » .
ولكنه في تفسيره ، لم يعجبه نقل الحقيقة ، لمخالفتها لما يبطنه من العقيدة ، فقال مكان الجملتين : « فَأَيُّكُمْ يُؤَاذِرُنِي عَلَى هَذَا الْأَمْرِ ، عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَكَذَا وَكَذَا » .

- « إِنَّ هَذَا أَخِي وَكَذَا وَكَذَا ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوهُ » (١) .

٢ - إنَّ الحافظ أبا الفداء ابن كثير (م ٧٧٤) ، ذكر الحديث في تاريخه على النصِّ الذي رواه الطبري في تفسيره ، مع أنَّه وضع تاريخه ، على منوال تاريخ الطبري ، ولكن لم يعجبه نقله من تاريخه ، واعتمد على التفسير الذي كفى عن نصِّ رسول الله بالوصاية والخلافة لعلي (٢) .

٣ - إنَّ محمد حسين هيكل ، كتب ما هو خزاية فاضحة في مجال الحديث ، فإنه كتب الجملة الأولى أعني قول النبي الأكرم : « فَأَيُّكُمْ يُؤَاذِرُنِي عَلَى هَذَا الْأَمْرِ »

(١) تفسير الطبري ، ج ١٩ ، ص ٧٥ .

(٢) البداية والنهاية ، الجزء الثالث من المجلد الثاني ، ص ٤٠ .

وأن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم » . وترك من رأس الجملة الثانية التي قالها النبي لعلي .

ولكن هذا المقدار من الإعتراف بالحقيقة ، لم يعجب القشريين من الأزهرين ، فوقع موقع النقد منهم ، وأسقط في الطبعة الثانية من الكتاب كل ما يرجع إلى علي عليه السلام ، دفعاً لأمواج اللوم والعتاب^(١) .

* * *

ب - حديث المنزلة

روى أهل السير والتاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وآله ، خلف علي بن أبي طالب على أهله في المدينة ، عند توجهه إلى تبوك ، فأرجف به المنافقون ، وقالوا : ما خلفه إلا استثقلاً له ، وتخوفاً منه ، فلما قال ذلك المنافقون ، أخذ علي بن أبي طالب ، سلام الله عليه ، سلاحه ، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو نازل بالجرف^(٢) ، فقال : يا نبي الله ، زعم المنافقون أنك إنما خلقتني أنك استقلتني ، وتحففت مني ، فقال : كذبوا ، ولكني خلقتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي ؟ .

فرجع علي إلى المدينة ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله على سفره^(٣) .

(١) حياة محمد ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٥٤ ، ص ١٣٩ . وعلى هذه الطبعة جاءت الطباعات اللاحقة ، ونسخت الطبعة الأولى وكأن الأستاذ لم يكتبها .

(٢) الجرف ، بالضم ثم السكون ، موضع على بعد ثلاثة أميال من المدينة .

(٣) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ٢ ، ص ٥١٩ - ٥٢٠ ، وقد نقله من أصحاب الصحاح : البخاري في غزوة تبوك ، ج ٦ ، ص ٣ ، ط ١٣١٤ . ومسلم في فضائل علي ، ج ٧ ، ص ١٢٠ . وابن ماجه في فضائل أصحاب النبي ، ج ١ ، ص ٥٥ ، ط المطبعة التازية بمصر . والإمام أحمد في مسنده في غير مورد لاحظ ج ١ ، ص ١٧٣ و ١٧٥ و ١٧٧ و ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٥ و ٣٣٠ وغيرهم من الأئمة الحفاظ ، فلم يشك في صحة سند الحديث إلا الأمدى ، وليس هو من علم الحديث في جل ولا ترحال .

(إذا ما فصلت عليا قریش فلا في السير أنت ولا النفير) =

ومن عجيب القضايا ما رواه مسلم ، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه ، قال : أَمَرَ معاوية بن أبي سفيان سعداً ، وقال : ما منعك أن تُسَبَّ أبا التراب ، فقال : أَمَّا ما ذكرتُ ثلاثاً قالهنَّ له رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فلن أُسَبَّه ، لأنَّ تكون لي واحدة منهن أحبُّ إليَّ من ثَمَرِ النعم . سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول له وقد خلفه في بعض مغازيه ، فقال له علي : يا رسول الله خلفتني مع النساء والصبيان . فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله) : أَمَّا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبوة بعدي .

وسمعه يقول يوم خيبر : لأُعْطِيَنَّ الراية رجلاً يُحِبُّ الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله . قال : فتناولنا لها ، فقال : أدعولي علياً ، فأتي به أرمَد ، فبصق في عينه ، ودفع الراية إليه ، ففتح الله عليه .

ولما نزلت هذه الآية : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ ، دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً ، فقال : « اللَّهُمَّ هؤلاء أهلي »^(١) .

وأما دلالة الحديث على أن النبي أفاض على عليٍّ عليه السلام - بإذن من الله سبحانه - الخلافة والوصاية ، فيكيفك فيها أن كلمة « منزلة » إسم جنس أضيف إلى هارون ، وهو يقتضي العموم ، فيدلُّ على أن كل مقام ومنصب كان ثابتاً لهارون فهو أيضاً ثابت لعلي ، إلا ما استثناه ، وهو النبوة .

على أن الإستثناء هو أيضاً دليل العموم ، ولولاه لما كان وجه للإستثناء .

وأما ما جاء في صدر الحديث من أنه خلفه على أهله ، فلا يكون دليلاً على الاختصاص ، لبداية أن المورد لا يكون مخصصاً ، وهو أحد القواعد المسلَّمة في

= وما جرَّه إلى التشكيك ، غير كون الحديث نصاً صريحاً في إمامة علي ، فحاول التشكيك للتخلص من هذا الارتباك .

(١) صحيح مسلم ، ج ٧ ، باب فضائل علي بن أبي طالب ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

علم الأصول ، فلورأيت أَنَّ الجُنْبَ يَمَسُّ آية الكرسي ، فقلت له ، لا يَمَسُّ آيات القرآن محدث ، يكون دليلاً على أَنَّ الجنب يحرم عليه مس القرآن على الإطلاق .

وأما منزلة هارون من موسى ، فيكفي في بيانها قوله سبحانه - حكاية عن موسى - : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي ﴾ * هارون أخي * أَشَدُّ بِهِ أَزْرى * وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿^(١) فجاء الجواب :

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيَْتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾^(٢) .

إِنَّ من تَبَعَ سيرة النبي يجده يصوّر عليّاً وهارون كالفرقدين في السماء ، والعينين في الوجه ، لا يمتاز أحدهما في أُمته عن الآخر في أُمته بشيء ما ، ومن ذلك :

أ - إِنَّ النبي سمى أبناء علي كآسماء أبناء هارون ، فسماهم حسناً وحُسِيناً ومُحْسِناً ، وقال : إِنَّمَا سَمَّيْتُهُمْ بِأَسْمَاءِ وَلَدِ هَارُونَ : « شَبْرٌ ، وَشُبَيْرٌ ، وَمُشِيرٌ »^(٣) .

ب - إِنَّ النبي اتَّخَذَ عليّاً أخاه ، وآثره بذلك على من سواه ، تحقيقاً لعموم الشَّبه بين منازل الهارونيين من أخويهما ، وحرصاً على أن لا يكون ثمة من فارق بينهما . وقد آخى بين أصحابه ، فجاء علي عليه السلام وقال : آخيت بين أصحابك ، ولم تَوَاخَ بيني وبين أحد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أنت أخي في الدنيا والآخرة^(٤) .

ج - أمر بسد أبواب الصحابة من المسجد ، تنزيهاً له عن الجُنْب والجنابة ، لكنه أبقى باب علي عليه السلام ، وأباح له عن الله تعالى ، أن يدخل المسجد جنباً ، كما كان هذا مباحاً لهارون ، فدل ذلك على عموم المشابهة بين الهارونيين

(١) لاحظ سورة طه : الآيات ٢٩ - ٣٦ وقوله : ﴿ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴾ يدل على اشتراك هارون مع موسى في النبوة كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ (سورة مريم : الآية ٥٣) ، ولأجل ذلك استثناه النبي من منزلة هارون من موسى .

(٢) سورة طه : الآية ٣٦ .

(٣) مستدرک الحاكم ، ج ٣ ، ص ١٦٥ و ١٦٨ .

(٤) سنن الترمذي ، ج ٥ ، ص ٦٣٦ ، الحديث ٣٧٢٠ . ومستدرک الحاكم ، ج ٣ ، ص ١٤ .

عليهما السلام ، كما قال ابن عباس : « وسدّ رسولُ الله أبوابَ المسجد غير باب علي ، فكان يدخل المسجد جنباً ، وهو طريقه ليس له طريق غيره »^(١) .

* * *

ج - حديث « الغدير »

حديث الغدير ، حديث الولاية الكبرى ، حديث إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضي الرب تعالى . وهو حديث نزل به كتاب الله المبين ، وتواترت به السّنة النبوية ، وتواصلت حلقات أسانيده منذ عهد الصحابة والتابعين إلى اليوم الحاضر ، وقد صبّ شعراء الإسلام واقعة الغدير ، في قوالب الشعر ، وهو من أحسن ما أثار قرائحهم الشعرية وإليك فيما يلي حاصل تلك الواقعة ، وخطبة النبي الأكرم فيها :

أجمع رسول الله صلى الله عليه وآله ، الخروج إلى الحج في السنة العاشرة من الهجرة ، وأذن في الناس بذلك ، فقدم المدينة خلق كثير يأتون به حجته ، تلك الحجة التي سميت بحجة الوداع ، وحجة الإسلام ، وحجة البلاغ ، وحجة الكمال ، وحجة التمام^(٢) ، ولم يحج غيرها منذ هاجر إلى أن توفاه الله سبحانه . واشترك معه جموع لا يعلم عددها إلا الله ، وأقلّ ما قيل إنّه خرج معه تسعون ألفاً ، وأمّا الذين حجّوا معه فأكثر من ذلك ، كالمقيمين بمكة ، والذين أتوا من اليمن . فلما قضى مناسكه وانصرف ، راجعاً إلى المدينة ، ومعه من كان من الجموع المذكورات ، ووصل إلى غدير « خم » من الجُحْفَة ، التي تتشعب فيها

(١) حديث « سدّ الأبواب كلّها إلا باب علي » ، من الأحاديث المتضافرة المنقولة عن لفيف من الصحابة ، منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، لاحظ مسند أحمد ، ج ٢ ، ص ٢٦ . ومنهم أبوه عمر بن الخطاب ، لاحظ مستدرک الحاكم ، ج ٣ ، ص ١٢٥ . ومن أراد التبسط في أسانيده فعليه بالغدير ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ - ٢١٥ . والمراجعات ، المراجعة ٣٤ .

(٢) تسميتها بالبلاغ وبالتمام والكمال ، لنزول قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ . وقوله سبحانه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ سورة المائدة : الآية ٣ في ذلك الحج .

طرق المَدَنِيِّينَ والمَصْرِيِّينَ والعِرَاقِيِّينَ ، وذلك يومَ الخَمِيسِ ، الثَّامِنَ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ، نَزَلَ جَبْرِئِيلُ الْأَمِينُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ^(١) ، وَكَانَ أَوَائِلُ الْقَوْمِ قَرِيبِينَ مِنَ الْجَحْفَةِ ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يُرَدَّ مِنْ تَقْدَمَ مِنْهُمْ ، وَيُحْبَسَ مِنْ تَأَخَّرَ عَنْهُمْ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَ الْقَوْمُ مَنَازِلَهُمْ ، نُوْدِيَ بِالصَّلَاةِ ، صَلَاةَ الظُّهْرِ ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ ، وَكَانَ يَوْمًا حَارًّا ، يَضَعُ الرَّجُلُ بَعْضُ رِدَائِهِ عَلَى رَأْسِهِ وَبَعْضُهُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الرَّمْضَاءِ ، فَلَمَّا انصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ ، قَامَ خَطِيبًا وَسَطَ الْقَوْمِ عَلَى أَقْتَابِ الْإِبِلِ ، وَأَسْمَعَ الْجَمِيعَ رَافِعًا عَقِيرَتَهُ ، فَقَالَ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَنَسْتَعِينُهُ ، وَنُؤْمِنُ بِهِ ، وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، الَّذِي لَا هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَّ وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَى ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَمَّا بَعْدُ :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي أُوشِكُ أَنْ أُدْعَى فَأُجَبِّتُ ، وَإِنِّي مُسْئِلٌ وَأَنْتُمْ مُسْئُولُونَ ، فَمَاذَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ » .

قَالُوا : « نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَنَصَحْتَ ، وَجَهَدْتَ ، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا » .

قَالَ : « أَلَسْتُمْ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ جَنَّتَهُ حَقٌّ ، وَنَارَهُ حَقٌّ ، وَأَنَّ الْمَوْتَ حَقٌّ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ يُبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ؟ » .

قَالُوا : « بَلَى نَشْهَدُ بِذَلِكَ » .

قَالَ : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ » . ثُمَّ قَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلَا تَسْمَعُونَ ؟ » .

قَالُوا : « نَعَمْ » .

قَالَ : فَإِنِّي فَرَطُ عَلَى الْحَوْضِ ^(٢) ، فَانظُرُونِي يَغْفُ تَخْلُفُونِي فِي الثَّقَلَيْنِ » .

فَنَادَى مُنَادٌ : « وَمَا الثَّقَلَانِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ » .

(١) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

(٢) أي متقدمكم إليه .

قال : « الثَّقَلُ الأكبر ، كتابُ الله ، والآخر الأصغر ، عترتي ، وإنَّ اللطيفَ الخبيرَ نبأني أنَّهما لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض ، فلا تَقْدَمُوهُما فتَهْلِكوا ، ولا تَقْصُرُوا عَنْهُما فتَهْلِكوا » .

ثم أخذ بيد علي فرفعها ، حتى رُؤي بياضُ آباطهما ، وعرفه القوم أجمعون ، فقال : « أيُّها الناس ، مَنْ أُولَى الناس بالمؤمنين من أنفسهم ؟ » .

قالوا : « الله ورسوله أعلم » .

قال : « إِنَّ الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أُولَى بهم من أنفسهم » .

فمن كنت مولاهُ ، فعليُّ مولاهُ - يقولها ثلاث مرات - ثم قال : اللَّهُمَّ والِ من والاه ، وعادِ من عاداه ، وأَجِبْ من أَحَبَّه ، وأَبْغُضْ من أَبْغَضَه ، وانصِرْ من نصره ، واخْذُلْ من خَذَلَه ، وأَدِرْ الحَقَّ معه حيث دار ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب » .

ثم لم يتفرقا حتى نزل أمين وحي الله بقوله :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ الآية ، فقال رسول الله : « الله أكبر على إكمال الدين ، وإتمام النعمة ورضى الرب برسالي ، والولاية لعلي من بعدي » .

ثم أخذ الناسُ يهتفون عليّاً ، ومَن هنَّاهُ في مقدم الصحابة الشيخان أبو بكر وعمر ، كل يقول : بَخٍ بَخٍ ، لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ، ومولى كل مؤمن ومؤمنة .

وقال حسان ، أئذن لي يا رسول الله أن أقول في عليٍّ أبياتاً ، فقال : قل على بركة الله ، فقام حساناً ، فقال :

يناديهم يومَ الغدير نبيُّهم	بُخْمٌ واسمع بالرسول منادياً
فقال فمن مولاكم ونبيُّكم	فقالوا ولم يُبدوا هناك التّعامياً
إلهك مولانا وأنت نبيُّنا	ولم تَلَقَ منا في الولاية عاصياً
فقال له قم يا عليُّ فإِنني	رَضِيتُك من بعدي إماماً وهادياً

فمن كنت مولاه فهذا وليه فكونوا له أتباع صِدْقِ مواليا
هناك دعى اللهم والي وليه وكُنْ للذي عادى علياً معاديا

فلما سمع النبي أبياته قال: «لا تزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا
بلسانك»^(١).

هذا مجمل الحديث ، في واقعة الغدير ، وقد أصفقت الأمة على نقله ، فلا
نجد حديثاً يبلغ درجته في التواتر والتضافر ، ولا في الإهتمام نظماً ونثراً .
والإحتجاج به على إمامة علي عليه السلام يتحقق ببيان الأمور التالية :

الأمر الأول : البلاغ الرسمي للولاية

إنّ النبي الأكرم أشاد بولاية علي ووصايته ، في حديث يوم الدار ، في مجتمع
محدود ، لا يربو عددهم الأربعين . كما أشاد بخلافته عند توجهه إلى تبوك ، أمام
جماعة من الصحابة والمهاجرين ، وكان هذا وذاك ، وغيرهما ممّا صدر منه صلى الله
عليه وآله ، في ظروف مختلفة ، حول ولاية الإمام ، تهيئة للأذهان ، للإعلان
الرسمي لهذه الولاية أمام الجموع الهائلة ، ليقف عليها القريب والبعيد ، والحاضر
والبادي ، فقام بإبلاغ ذلك في ذلك المحتشد العظيم ، وأخذ منهم الإقرار
والإعتراف ، وهنا الصحابة علياً عليه السلام ، بهذه المكرمة الإلهية ، فكان هذا
إعلاناً رسمياً ، للأمة جمعاء ، لا يصح لأحد إنكاره ، والتغاضي عنه . وسيوافيك
دلالة الحديث بوجه واضح لا يدع لقائل كلمة ، ولا لمجادل شبهة .

* * *

(١) هذا من أعلام النبوة ، فقد علم أنه سوف يُنحرف عن إمام الهدى في أخريات أيامه ، فعَلَّقَ دعاءه
على ظرف استمراره في نصرته . وقد نقلَ هذه الأبيات عن حسان بن ثابت عدّة من أعلام المؤرخين
والمحدثين ، وإن حذف من ديوانه ، فحُرِّفَت الكلم عن مواضعها ، ولُعبَ بديوانه كما لُعبَ بكثير
من الدواوين ، كديوان الفرزدق ، وديوان كُميت ، وديوان أبي فراس ، وديوان كشاجم ، التي
حذفت منها ما يرجع إلى مدح أهل البيت وراثتهم .
لاحظ الغدير ، ج ٢ ، ص ٣٤ - ٤٢ .

الأمر الثاني : سند الحديث وتواتره

إنَّ حديث الغدير من الأحاديث المتواترة من عصر الرسول الأكرم إلى يومنا هذا ، يقف عليه من سبَر كتب الحديث والتاريخ والسِّير والكلام والتفسير وغيرها . وما ربما يصدر من كلمات حول الحديث من أنَّه من أحاديث الآحاد ، فهو كلام صدر من المغرضين ورُماة القول على عواهنه ، من غير تدبّر وثبت .

إنَّ كتب الإمامية في الحديث وغيره ، مفعمة بإثبات قصة الغدير والإحتجاج بمؤداها . فمن مسانيد معنعة إلى مُنبَتَق أنوار النبوة ، إلى مراسيل أرسلها المؤلفون لإرسال المسلم ، وحذفوا أسانيداً لتسالم الفريقين .

وأما المحدثون وغيرهم من أهل السَّنة فلا يتأخرون عن الإمامية في نقل الحديث والبخوع لصحته ، والركون إليه ، والتصحيح له ، والإذعان بتواتره إلّا شُذَّاذ تنكبوا عن الطريقة ، وقد ألَّف غير واحد من علماء الإسلام كتباً مستقلة ، فلم يقنعهم إخراجهم بأسانيد مبثوثة في الكتب ، فدَوَّنوا ما انتهى إليهم من أسانيد ، وضبطوا ما صَحَّ لديهم من طرقه ، كل ذلك حرصاً على كلاءة متنه من الدثور ، وعن تطرق يد التحريف إليه ، منهم أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، صاحب التاريخ والتفسير المعروفين (ت ٢٢٤ - م ٣١٠) ، وأبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الهمداني المعروف بابن عقدة (م ٣٣٣) ، وأبو بكر محمد بن عمر بن محمد بن سالم التميمي البغدادي (م ٣٥٥) وغيرهم^(١) .

ولأجل إيقاف القاريء على اهتمام الصحابة والتابعين ، وتابعي التابعين ، والعلماء ، والأدباء ، والفقهاء ، بنقل الحديث وضبط أسانيد ، نذكر عدد رواته في كل قرن على وجه الإجمال ونحيل التفصيل إلى الكتب المعدّة لذلك .

١ - روى الحديث من الصحابة ١١٠ صحابياً ، وطَبَعَ الحال يستدعي أن يكون رواته أضعاف المذكورين ، لأنَّ السامعين الوعاة له كانوا مائة ألف ، أو يزيدون .

(١) ذكر شيخنا الحجة العلامة الأميني ، أسماء المؤلفين وخصوصيات كتبهم ، في الجزء الأول ، من غديره ، ص ١٥٢ - ١٥٧ .

٢ - رواه من التابعين ٨٤ تابعياً .

- وأما عدّة الرواة من العلماء والمحدثين فنذكرها على ترتيب القرون .
- ٣ - عدد من رواه في القرن الثاني : ٥٦ عالماً ومحدثاً .
 - ٤ - عدد من رواه في القرن الثالث : ٩٢ عالماً ومحدثاً .
 - ٥ - عدد من رواه في القرن الرابع : ٤٣ عالماً ومحدثاً .
 - ٦ - عدد من رواه في القرن الخامس : ٢٤ عالماً ومحدثاً .
 - ٧ - عدد من رواه في القرن السادس : ٢٠ عالماً ومحدثاً .
 - ٨ - عدد من رواه في القرن السابع : ٢٠ عالماً ومحدثاً .
 - ٩ - عدد من رواه في القرن الثامن : ١٩ عالماً ومحدثاً .
 - ١٠ - عدد من رواه في القرن التاسع : ١٦ عالماً ومحدثاً .
 - ١١ - عدد من رواه في القرن العاشر : ١٤ عالماً ومحدثاً .
 - ١٢ - عدد من رواه في القرن الحادي عشر : ١٢ عالماً ومحدثاً .
 - ١٣ - عدد من رواه في القرن الثاني عشر : ١٣ عالماً ومحدثاً .
 - ١٤ - عدد من رواه في القرن الثالث عشر : ١٢ عالماً ومحدثاً .
 - ١٥ - عدد من رواه في القرن الرابع عشر : ١٩ عالماً ومحدثاً .

وقد أغنانا المؤلفون في الغدير عن إراءة مصادره ومراجعته ، وكفاك في ذلك
كُتُبٌ كبيرة من أعلام الطائفة :

منهم العلامة السيد هاشم البحراني (م ١١٠٧) مؤلف غاية المرام .

ومنهم السيد ميرحامد حسين الهندي اللكهنوي (م ١٣٠٦) ، ذكر حديث
الغدير ، وطرقه ، وتواتره ، ومفاده في مجلدين ضخمين في ألف وثمان مائة
صحيفة ، وهما من مجلدات كتابه الكبير « العبقات » ، فقد أتم الله به الحجة ،
وأوضح المحجة ، وكتابه العبقات كتاب جليل ، فاح أريجه بين لابي العالم ،
وطبق حديثه المشرق والمغرب .

ومنهم العلامة المتتبع المحقق الفذ الشيخ عبد الحسين النجفي (ت ١٣٢٠ -
م ١٣٩٠) في كتابه الفريد « الغدير » ، وبعين الله ، إن كتابه هذا هو المعجز

المبين ، ومن حسنات الدهر الخالدة ، جزاه الله خير الجزاء^(١) .

* * *

الأمر الثالث - دلالة الحديث

إنّ دلالة الحديث على إمامة مولانا أمير المؤمنين ، دلالة واضحة ، لم يشك فيها أي عربي صميم ، عصرَ نزول الحديث وبعده إلى قرون ، ولم يفهموا من لفظة المولى سوى معنى الإمامة ، وتتابع هذا الفهم فيمن بعدهم من الشعراء إلى أن وُلد الدهرُ إمامَ المشككين ، فجاء بتشكيكات ، كسائر تشكيكاته ، التي تاب منها عند احتضاره^(٢) .

والدلالة مركزة على أن لفظ المولى نصّ فيما نثبته من الإمامة بالوضع اللغوي ، أو بالقرائن المحتفة به . وعلى كلا التقديرين ، يكون الحديث حجة قاطعة في الإمامة ، ونحن نسلك كلا الطريقين .

الطريق الأول - الدلالة بالوضع اللغوي

إنّ « مَفْعَلٌ » - هنا - بمعنى « أَفْعَلٌ » ، ولفظ « مَوْلى » أُريد منه هنا الأولى ، سواءً أقلنا إنّه المعنى الوحيد - كما سيوافيك - أو أحد معانيه ، كما في قوله سبحانه : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾^(٣) .

والمفسّرون للآية على فريقين منهم مَنْ حَصَرَ التفسير بأنّها أولى بكم ، ومنهم

(١) ومن أراد التبسط فعليه الرجوع إلى ما ذكرنا من المصادر ، وإلى كتاب « المراجعات » لمصلح الدين ، السيد شرف الدين العاملي رحمه الله .

(٢) لاحظ دائرة المعارف ، لفريد وجدي ، ج ٤ ، ص ١٤٩ ، وفيها أنّه قال : « وأما ما استكثرت من إيراد السؤالات ، فلإني ما أردت إلّا تكثير البحث وتشحيذ الخاطر ، والإعتماد في الكلّ على الله تعالى » .

(٣) سورة الحديد : الآية ١٥ .

من جَعَلَهُ أحد المعاني ، وهؤلاء أئمة العربية ، عرفوا أنَّ هذا المعنى من معاني اللفظ اللغوية ، ولولاه لما صحَّ لهم تفسيره به ، يقول الخازن : « هي مولاكم ، أي وليُّكم ، وقيل أوَّلَى بكم ، لما أسلفتم من الذنوب ، والمعنى : هي التي تلي عليكم ، لأنها ملكت أمركم وأسلمتم إليها ، فهي أوَّلَى بكم من كل شيء »^(١) وقد نقل كون المولى بمعنى الأولى ، الرازي في تفسيره عن الكلبي النسابة (م ١٤٦) والفرَّاء (م ٢٠٧)^(٢) وأبو عبيدة معمر بن المثنى البصري (م ٢١٠) ، والأخفش الأوسط (م ٢١٨)^(٣) ، ونهاية العقول^(٤) .

واستشهد أبو عبيدة ببيت لبدي :

فَقَدَّتْ كِلَا الْفَرَجَيْنِ تَحْسَبُ أَنَّهُ مَوْلَى الْمَخَافَةِ خَلْفَهَا وَأَمَامَهَا
حتى أنَّ البخاري ، صاحب الصحيح ، في قسم التفسير منه ، فسَّره بـ « أوَّلَى »^(٥) .

نعم هنا شبهة ذكرها الرازي في تفسيره ، حَسِبَ أَنَّهَا تصادم دلالة الحديث على الولاية الكبرى للإمام عليٍّ عليه السلام ، فقال في تفسير قوله سبحانه : ﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَيُسَّ الْمَصِيرِ ﴾ : « لو كان مولى وأوَّلَى بمعنى واحد في اللغة ، لَصَحَّ استعمال كل واحد منهما في مكان الآخر ، فيجب أن يقال : هذا مولى من فلان ، ولمَّا بطل ذلك ، عَلِمْنَا أَنَّ الذي قالوه معنىً ، وليس بتفسير » .

وقال في نهاية العقول : « لو كان المولى يجيء بمعنى الأولى ، لَصَحَّ أَنْ يُقَرَّنَ بأحدهما ، كُلَّمَا يَصِحُّ قَرْنُهُ بِالْآخَرِ ، لكنه ليس كذلك ، فامْتَنَعَ كَوْنُ المولى بمعنى الأولى ، مع أنه لا يقال : هو مولى من فلان ، ولا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ : « هو أوَّلَى » بدون من » .

(١) تفسير الخازن ، نقلاً عن الغدير ، ج ١ ، ص ٣٤١ .

(٢) معاني القرآن ، للفرَّاء ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .

(٣) لاحظ جميع ذلك في تفسير الرازي ، ج ٨ ، ص ٩٣ .

(٤) نهاية العقول ، للرازي ، أيضاً .

(٥) صحيح البخاري ، ج ٧ ، ص ٢٤٠ .

يلاحظ عليه : قد فات الرازي أنَّ اتحاد المعنى أو الترادف بين الألفاظ ، إنما يقع في جوهريات المعاني لا عوارضها الحادثة من أنحاء التركيب ، وتصاريف الألفاظ ، وصيغها . مثلاً : الإختلاف الحاصل بين المولى والأولى ، بلزوم مصاحبة الثاني بالباء (أولى به) ، وتجرد الأول منه ، إنما حصل من ناحية صيغة إفعال من هذه المادة ، كما أنَّ مصاحبة « مِنْ » ، هي مقتضى تلك الصيغة مطلقاً ، إذن مفاد « فلان أولى بفلان » ، و« فلان مولى فلان » ، واحد ، حيث يراد به « الأولى به من غيره » ، ويشهد لذلك أنَّ « افعَل » بنفسه ، يستعمل مضافاً إلى المثنى والجمع ، أو ضميرهما بغير أداة ، فيقال : زيد أفضل الرجلين ، أو أفضلهما ، وأفضل القوم وأفضلهم ، ولا يستعمل كذلك إذا كان ما بعده مفرداً ، فلا يقال : زيد أفضل عمرو ، وإنما يقال هو أفضل منه ، ولا يرتاب عاقل في اتحاد المعنى في الجميع .

قال الأزهري في باب التفضيل : « إنَّ صحة وقوع المرادف موقع مرادفه ، إنما يكون إذا لم يمنع من ذلك مانع ، وها هنا منع مانع ، وهو الإستعمال ، فإنَّ إسم التفضيل ، لا يصاحب من حروف الجر إلَّا « من » خاصة ، وقد تحذف مع مجرورها للعلم بها نحو : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾

ثمَّ إنَّ الرازي اختار أنَّ المولى في الحديث بمعنى « الناصر » ، مع أنَّ ما أورده على القول بأنَّه بمعنى « الأولى » ، وارد عليه ، فلا يقال في اللغة العربية ، « هو مولى دين الله » ، مكان « ناصر » ، ولا يصحَّ تبديل قوله : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾^(١) . إلى « من موالي إلى الله » ، أو تبديل قول الحواريين : ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾^(٢) إلى « نحن موالي الله » .

هذه الحالة مطردة في كثير من المترادفات التي جمعها الرَّماني (م ٣٨٤) في تأليف مفرد ، مع أنَّ اختلاف الكيفية حاكم عليها أيضاً ، مثلاً يقال : عندي

(١) سورة الأعلى : الآية ١٧ .

(٢) التصريح ، لحالد بن عبد الله الأزهري ، باب أفعل التفضيل

(٣) سورة آل عمران : الآية ٥٢ .

(٤) الآية السابقة نفسها .

درهم غير جيد ، ولا يصح أن يقال : عندي درهم إلا جيد ، كما هو السائد في كلمة « هل » و« همزة الإستفهام » ، فإنها بمعنى واحد ، ولكن يفتقران بفروق ثلاثة ، أو خمسة ، أو ستة .

ولما كان الإشكال ضئيلاً ، قال النيسابوري ، في تفسيره - بعد نقل كلام الرازي ، إلى قوله : « حينئذ يسقط الإستدلال به - : « قُلْتُ : وفي هذا الإسقاط بحث لا يخفى »^(١) .

ولما وقف التفتازاني على تمامية دلالة الحديث على الإمامة ، حاول رمي الحديث بعدم التواتر ، قال - في دلالة الحديث - : « « المولى » قد يراد به المعتق ، والمعتق ، والخليف ، والجار ، وابن العم ، والناصر ، والأولى بالتصرف ، قال الله تعالى : ﴿ مَاوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ ، أي أولى بكم ، ذكره أبو عبيدة ، وقال النبي : « أيما امرأة أنكحت نفسها بغير إذن مولاهها » ، أي الأولى بها ، والمالك لتدبير أمرها ، ومثله في الشعر كثير . وبالجملية استعمال المولى بمعنى المتولي ، والمالك للأمر ، والأولى بالتصرف ، شائع في كلام العرب ، منقول عن كثير من أئمة اللغة ، والمراد أنه اسم لهذا المعنى ، لا صفة بمنزلة الأولى ليعترض بأنه ليس من صيغة اسم التفضيل ، وأنه لا يستعمل استعماله ، وينبغي أن يكون المراد به في الحديث هو هذا المعنى ، ليطابق صدر الحديث ، ولأنه لا وجه للخمسة الأول ، وهو ظاهر ، ولا للسادس لظهوره ، وعدم احتياجه إلى البيان وجمع الناس لأجله . إلى أن قال : « ولا خفاء في أن الولاية بالناس ، والتولي ، والمالكية لتدبير أمرهم ، والتصرف فيهم ، بمنزلة النبي ، وهو معنى الإمامة »^(٢) .

هذا من غير فرق بين تفسير مفعّل ب أفعل ، أي المولى بمعنى أولى ، أو تفسيره بفعيل ، أي الولي ، وقد نصّ على ذلك أئمة العربية منهم الفراء في تفسيره ، وأبو العباس المبرّد ، قالوا : « الولي والمولى ، بمعنى في لغة العرب واحد »^(٣) .

(١) تفسير النيسابوري ، تفسير سورة الحديد .

(٢) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ .

(٣) لاحظ معاني القرآن للفراء ، ج ٣ ، ص ١٢٤ ، والغدير ج ١ ، ص ٣٦١ .

قال في الصحاح : والولي كل من وَلِيَ أمر واحد ، فهو وليّه ، وقول الشاعر :

هُمُ الْمَوْلَى وَإِنْ جَنَفُوا عَلَيْنَا وَإِنَّا مِنْ لِقَائِهِمْ لَزُورٌ^(١)

وقال في النهاية : « وَكُلَّ مَنْ وَلِيَ أَمْرًا أَوْ قَامَ بِهِ فَهُوَ مَوْلَاهُ وَوَلِيهِ »^(٢)

وقال الفيروز آبادي ، في قاموسه : « الْمَوْلَى : المالك ، والعبد ، والمعتق ، والولي ، والرب »^(٣) .

واستشهد الزبيدي في تاج العروس ، على كون مولى بمعنى ولي ، بقوله صلى الله عليه وآله : « أَيَا امْرَأَةً أَنْكَحْتَ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوْلَاهَا . . . »^(٤) .

ليس للمولى إلا معنى واحد

إنّ السابر في كتب اللغة يرى أنّهم يذكرون في تفسير « المولى » أموراً ، يبدو أنّها معان مختلفة له ، مثلاً يقول صاحب القاموس : « المولى : المالك ، والعبد ، والمعتق ، والمعتق ، والصاحب ، والقريب كاهن العم ونحوه ، والجار ، والحليف ، والإبن ، والعَم ، والنزيل ، والشريك ، وابن الأخت ، والوليّ ، والربّ ، والناصر ، والمنعم ، والمنعم عليه ، والمحبّ ، والتابع ، والصهر »^(٥) .

والحق أنّه ليس للمولى إلا معنى واحد وهو الأولى بالشيء ، وتختلف هذه الأولوية بحسب الإستعمال في كل مورد من موارد ، والإشتراك معنوي ، وهو الأولى من الإشتراك اللفظي المستدعي لألفاظ كثيرة غير معلومة بنصّ ثابت ، والمنفية بالأصل المحكّم ، وهذه النظرية أبدعها ابن البطريق الحليّ (ت ٥٣٣ -

(١) الصحاح ، ج ٦ ، مادة « ولي » ، ص ٢٥٢٩ .

(٢) النهاية لابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢٢٨ .

(٣) القاموس المحيط ، مادة « ولي » ، ج ٤ ، ص ٤٠١ .

(٤) تاج العروس ، ج ١٠ ، ص ٣٩٩ .

(٥) القاموس ، ج ٤ ، ص ٤٠١ .

م ٦٠٠) (١).

وهذا المعنى الواحد ، وهو الأولى بالشيء جامع لهاتيك المعاني جمعاء ،
ومأخوذ في كلٍّ منها بنوع من العناية ، ولم يطلق لفظ المولى على شيء منها إلا بمناسبةٍ
لهذا المعنى :

- ١ - فالمالك أولى بكلاءة ممتلكاته ، وأمرهم ، والتصرف فيهم .
- ٢ - والعبد أولى بالإنقياد لمولاه من غيره .
- ٣ - والمعتق (بالكسر) أولى بالترفضيل على مَنْ أعتقه مِنْ غيره .
- ٤ - والمُعْتَقُ (بالفتح) أولى بأن يَعْرِفَ جميلَ مَنْ أعتقه عليه ويشكره .
- ٥ - والصاحب ، أولى بأن يؤدي حقوق الصحبة من غيره .
- ٦ - والقريب ، هو أولى بأمر القريين منه ، والدفاع عنهم ، والسعي وراء
صالحهم .
- ٧ - والجار ، أولى بالقيام بحفظ حقوق الجوار كلها من البعداء .
- ٨ - والحليف ، أولى بالنهوض بحفظ مَنْ حالفه ، ودفع عادية الجور عنه .
- ٩ - والإبن أولى الناس بالطاعة لأبيه والخضوع له .
- ١٠ - والعَمَّ ، أولى بكلاءة إبن أخيه ، والحنان عليه ، وهو القائم مقام
والده .
- ١١ - والنَّزِيل ، أولى بتقدير من آوى إليهم ولجأ إلى ساحتهم ، وأمن في
جوارهم .
- ١٢ - والشريك أولى برعاية حقوق الشركة وحفظ صاحبه عن الأضرار .
- ١٣ - وابن الأخت ، أولى الناس بالخضوع لخاله الذي هو شقيق أمه .
- ١٤ - والولي ، أولى بأن يراعي مصالح المُوَلَّى عليه .
- ١٥ - والناصر ، أولى بالدفاع عَمَّن التزم بنصرته .
- ١٦ - والربِّ ، أولى بخلقه من أي قاهر عليهم .

(١) عُمدة عيون صحاح الأخبار ، لابن البطريق ، ص ١١٤ - ١١٥ .

١٧ - والمنعم (بالكسر) أولى بالفضل على من أنعم عليه ، وأن يُتبع الحسنة بالحسنة .

١٨ - والمُنعمُ عليه ، أولى بشكر منعمه من غيره .

١٩ - والمحِب ، أولى بالدفاع عمَّن أحَبه .

٢٠ - والتابع ، أولى بمنصرة متبوعه ممن لا يتبعه .

٢١ - والصهر ، أولى بأن يرعى حقوق من صاهره ، فسدَّ بهم أزره ، وقوي أمره .

إلى غير ذلك من المعاني التي هي أشبه بموارد الإستعمال . والأولوية مأخوذة فيها بنوع من العناية .

إلى هنا قد ظهر أنَّ المولى في الحديث الشريف بمعنى الأولى ، أو بمعنى الولي ، وأنَّ ما ذكر للمولى من المعاني المختلفة ، فليس من قبيل المعاني المختلفة ، حتى يحتاج تفسير المولى بالأولى إلى قرينة مُعَيَّنة ، بل من قبيل المصاديق . هذا كله في الطريق الأول .

الطريق الثاني - الدلالة بالقرائن

إنَّ القرائن الحافّة بالحديث تدلُّ على أنَّ المراد من المولى هو الأولى أو الولي ، وهي على قسمين : قرائن حالية وقرائن مقالية :

والمراد من الأولى ، ما احتف به الكلام الصادر من النبي الأكرم ، من ظروف زمانية ومكانية . والمراد من الثانية ما يتصل بالكلام نفسه من الجمل والعبارات .

أمَّا القرائن الحالية ، فبيانها بكلمة جامعة أنا لو فرضنا أنَّ لفظ المولى مشترك بين المعاني التي تلونها عليك ، إلّا أنَّه لا يمكن إرادة غيره في المقام ، إمَّا لاستلزامه الكفر ، كما إذا أُريد منه الرب .

أو الكذب ، كما إذا أُريد منه العم ، والإبن ، وابن الأخت ، والمعتق ،

والمعتق ، والعبد ، والمالك ، والتابع ، والمنعم عليه ، والشريك ، والحليف ، وهو واضح لمن تدبر فيه .

وأما الصاحب ، والجار ، والنزيل ، والصَّهر ، والقريب ، فلا يمكن إرادة شيء من هذه المعاني ، لسخافته ، لا سيما في هذا المحتشد الرهيب ، وفي أثناء المسير ، ورمضاء الهجير ، وقد أمر صلى الله عليه وآله بحبس المتقدم في السير ، ومنع التالي منه ، في محلّ ليس صالحاً للنزول ، غير أنّ الوحي الإلهي ، حسبه هناك ، فيكون صلى الله عليه وآله قد عقد هذا المحتفل ، والناس قد أنهكتهم وعشاء السفر ، وحرّ الهجير ، وحراجة الموقف ، حتى أنّ أحدهم ليضع طرفاً من ردائه تحت قدميه ، وطرفاً فوق رأسه ، فيرقى هنالك منبر الأهداج ، ويُعلّمهم عن الله تعالى بأنّه مَنْ كان هو صلى الله عليه وآله مصاحباً أو جاراً أو نزيراً عنده ، أو صهراً أو قريباً له ، فعليّ كذلك !! .

وأما المنعم ، فلا ملازمة بين أن يكون كلّ من أنعم عليه رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله فعليّ منعم عليه .

وأما الناصر والمحِب ، فسواء كان كلامه صلى الله عليه وآله ، إخباراً أو إنشاءً ، فاحتالان ساقطان ، إذ ليسا بأمر مجهول عندهم ، لم يسبقه التبليغ حتى يأمر به في تلك الساعة ، ويحبس له الجماهير ، ويعقد له ذلك المنتدى الرهيب ، في موقف حرج ، لا قرار فيه .

فلم يبق من المعاني إلّا الولي ، والأولى به ، والمراد منه المتصرف في الأمر ومتوليه . ذكر الرازي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ﴾ ^(١) ، قال : قال القفال : « هو مولاكم ، سيّدكم والمتصرّف فيكم » ^(٢) .

فتعين أنّ المراد بالمولى : المتصرّف ، الذي قيّضه الله سبحانه لأن يُتبع ، ويكون إماماً ، فيهدي البشر إلى سنن النجاة ، فهو أولى من غيره بأنحاء التصرف

(١) سورة الحج : الآية ٧٨ .

(٢) تفسير الرازي ، ج ٦ ، ص ٢١ .

في المجتمع الإنساني ، فليس هو إلا نبي مبعوث أو إمام مفترض الطاعة منصوص به من قبله تعالى ، بأمر إلهي ، لا يبارحه في أقواله وأفعاله : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ ^(١) .

وأما القرائن المقالية : فمتعددة تثبت أيضاً أنّ المولى بمعنى الأولى بالشيء أو بمعنى الولي ، إذا تنازلنا إلى أنّه أحد معانيه ، وأنّه من المشترك اللفظي ، وأما على القول بأنّه ليس للمولى إلّا معنى واحد ، كما أوضحناه ، فلا حاجة لذكر القرائن إلّا تأكيداً .

القرينة الأولى : صدر الحديث ، وهو قوله صلى الله عليه وآله : « أَلَسْتُ أَوَّلَىٰ بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » ، أو ما يؤدّي مؤداه من ألفاظ متقاربة ، ثم فرّع على ذلك قوله : « فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ » . وقد روى هذا الصدر من حفاظ أهل السنّة ، ما يربو على أربع وستين عالماً ^(٢) .

فإنّ هذا الصدر يُعَيّن أنّ المراد من المولى هو الأولى ، ولا وجه للتفكيك المخل .

القرينة الثانية : ذيل الحديث ، وهو قوله صلى الله عليه وآله : « اللَّهُمَّ وَالِ مِنَ الْوَالِهِ ، وَعَادِ مِنْ عَادَاهُ » ، وفي جملة من طرق الحديث قوله : وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، أو ما يؤدّي مؤداه ، فلو أريد منه غير الأولى بالتصرف ، فما معنى هذا التطويل ، فإنّه لا يلتئم ذكر هذا الدعاء إلّا بتنصيب علي مقاماً شامخاً ، يؤهله لهذا الدعاء .

القرينة الثالثة : أخذ الشهادة من الناس ، حيث قال صلى الله عليه وآله : « أَلَسْتُمْ تَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ حُجَّتَهُ حَقٌّ الْخ » . فإنّ وقوع قوله : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ » ، في سياق الشهادة بالتوحيد والرسالة ، يحقّق كون المراد ، الإمامة ، الملازمة للأولوية على الناس .

(١) سورة النجم : الآيتان ٤ و ٣ .

(٢) لاحظ نقولهم ، في كتاب الغدير ، ح ١ ، موزعين حسب قروهم .

القرينة الرابعة : التكبير على إكمال الدين ، حيث لم يتفرقوا بعد كلامه صلى الله عليه وآله ، حتى نزل أمين وحي الله بقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (الآية) ، فقال رسول الله : « الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ، ورضى الرب برسالتي ، والولاية لعلي من بعدي ، فأني معنى يكمل به الدين ، وتتم به النعم ، ويرضى به الرب في عداد الرسالة ، غير الإمامة التي بها تمام الرسالة ، وكمال نشرها وتوطيد دعائمها .

القرينة الخامسة : نعي النبي وفاته إلى الناس ، حيث قال صلى الله عليه وآله : « كَأَنِّي دُعِيت فَأَجَبْتُ » . وفي نقل : « إِنَّهُ يَوْشَكَ أَنْ ادْعَى » ، أو ما يقرر ذلك ، وهذا يعطي أن النبي قد بقيت من تبليغه مهمة ، يحذر أن يدركه الأجل قبل الإشادة بها ، وهي تعرب عن كون ما أشاد به في هذا المحتشد ، تبليغ أمر مهم ، يخاف فوته ، وليس هو إلا الإمامة .

أضف إليه أنه يعرب بذلك عن أنه سوف يرحل من بين أظهرهم ، فيحصل بعده فراغ هائل ، وأنه يُسَدُّ بتنصيب علي في مقام الولاية .

القرينة السادسة : التهئية ، جاء في ذيل الحديث ، وأخرجه الطبري في كتاب « الولاية » عن زيد بن أرقم ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « معاشر الناس ، قولوا : أعطيناك على ذلك عهداً عن أنفسنا ، وميثاقاً بالسنتنا ، وصفقة بأيدينا ، نؤديه إلى أولادنا وأهاليها ، لا نبغي بذلك بدلاً ، وأنت شهيد علينا ، وكفى بالله شهيداً ، قولوا ما قُلْتُ لكم ، وَسَلِّمُوا عَلَى عَلِيٍّ بِأَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وقولوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ كُلَّ صَوْتٍ ، وخاتمة كل نفس ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ قولوا ما يُرْضِي الله عنكم ، فَإِنْ تَكْفَرُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ » .

القرينة السابعة : الأمر بإبلاغ الغائبين : وقد أمر صلى الله عليه وآله في آخر خطبته بأن يُبَلِّغَ الشاهد الغائب ، فما معنى هذا التأكيد ، إذا لم يكن هناك مهمة لم تُتَحَ الفرص لتبليغها على نطاق واسع ، ولا عرفته جماهير المسلمين ، وما هي إلا الإمامة .

وغير ذلك من القرائن التي استقصاها شيخنا المتبع في غديره^(١) .

حديث الغدير ورجالات الأدب

شاء المولى سبحانه أن يبقى حديث الغدير على مَرَّ العصور والأيام ، حجةً على المسلمين في التعرف على مستَقَرَّ الولاية الكبرى بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، فقيّض المولى سبحانه ، رجالات الأدب ، وأساتذة الشعر ، فنظموا تلك المأثرة النبوية الخالدة ، وصبّوها في قوالب أشعارهم ، وقرائضهم ، فترى أنّهم - وهم أساتذة اللغة وبوابع الأدب - يعبرون عنه بكلمات صريحة في الإمامة ، أو الخلافة . وقبل كل شاهد نذكر بيت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال :

وأوجِب لي ولايته عليكم رسول الله يومَ غديرِ خمّ

ثم بعده حسان بن ثابت ، الذي حضر مشهد الغدير ، وقد تقدّم ذكر أبياته .

ومنهم قيس بن سعد بن عبادة ، الصحابي العظيم ، يقول :

وعَلِيٌّ إِمَامُنَا وَإِمَامٌ لِسَوَانَا أَقْبَهُ التَّنْزِيلِ
يَوْمَ قَالَ النَّبِيُّ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا مَوْلَاهُ خُطْبَ جَلِيلِ

ومنهم داهية العرب ، في قصيدته المعروفة بـ « الجدلجية » ، يقول فيها معترضاً على معاوية :

وكم قد سمعنا من المصطفى وصايا مخصصة في علي
وفي يوم خمّ رقى منبراً وبلغ والصحب لم ترحل
فأمنحه إمرة المؤمنين من الله مستخلف المنحل

وغيرهم من الشعراء الذين يحتجّ بقولهم في الأدب واللغة ، ككُميت بن زيد الأسدي المتوفي عام ١٢٦ ، والعبدى الكوفي من شعراء القرن الثاني ، وشيخ

(١) لاحظ الغدير ، ج ١ ، ص ٣٧٠ - ٣٨٣ .

العربية أبي تمام ، وغيرهم ممن يطول بذكرهم المقام^(١) .

إلى هنا تمّ الكلام حول الحديث متناً وسنداً ، وهو يعرب عن حقيقة ناصعة من أجلى الحقائق الدينية ، وهي ثبوت الولاية لعلي بعد النبي ، ولا يرتاب فيها إلا مغرض لا يرتاد الحقيقة ، أو غافل عن مصادر الحديث^(٢) .

ثم إنّ ها هنا سؤالين مهمين ، ربما يدفع البعض بهما حديث الغدير ودلالته ، لا بدّ من ذكرهما ، والإجابة عنهما :

* * *

السؤال الأول : لماذا أعرض الصحابة عن مدلول حديث الغدير ؟

إنّ هاهنا اعتراضاً على تواتر حديث الغدير ، أو دلالته على تنصيب عليّ في مقام الولاية والخلافة ، بأنّه لو كان الأمر كذلك ، فلماذا لم يأخذه الصحابة مقياساً بعد النبي . وليس من الصحيح إجماع الصحابة ، وجمهور الأمة على ردّ ما بلغه النبي في ذلك المحتشد العظيم .

والجواب :

إنّ ذلك أقوى مستمسك لمن يريد التخلص من الإعتناق بالنصّ المتواتر الجلي في المقام ، ولكنه لورجع إلى تاريخ الصحابة ، يرى لهذه الأمور نظائر كثيرة في حياتهم السياسية ، وَلَيْكُنْ تَرُكُ العمل بحديث الغدير من هذا القبيل . وفيما يلي نذكر نماذج من هذا الإجتهاذ المرفوض قبال النصّ .

١ - رزية يوم الخميس

كلّ من ألّم بالحديث والتاريخ ، يعرف حديث « رزية يوم الخميس » ،

(١) من أراد الوقوف على أسعارهم ، فليرجع إلى العدير بأجزائه .

(٢) لقد استندنا في هذا البحث الصافي إلى كتاب العدير ، فنقدر جهود شيخنا العلامة الأميني ، المغفور له .

الذي رواه الشيخان وغيرهما ، أخرج البخاري عن ابن عباس ، قال : لما حُضِر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب ، قال النبي : « هَلَمْ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابَ لَا تَضَلُّوا بِهِ أَبَدًا » ، فقال عمر : « إِنَّ النَّبِيَّ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْوَجَعُ ، وَعِنْدَكُمْ الْقُرْآنُ ، حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ » . فاختلف أهل البيت ، فاختصموا ، منهم من يقول : قَرَّبُوا ، يَكْتُبْ لَكُمْ النَّبِيُّ كِتَابًا لَنْ تَضَلُّوا بعده ، ومنهم يقول ما قال عمر . فلما أَكْثَرُوا اللَّغْوَ وَالْإِخْتِلَافَ عِنْدَ النَّبِيِّ ، قال لهم (صلى الله عليه وآله) : قوموا .

قال عبد الله بن مسعود : فكان ابن عباس يقول : « إِنَّ الرِّزْيَةَ كُلَّ الرِّزْيَةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ وَبَيْنَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ ذَلِكَ الْكِتَابَ مِنْ اخْتِلَافِهِمْ وَلِعَظَمِهِمْ » (١) .

٢ - سرية أسامة

قد اهتم النبي ببعث سرية أسامة بن زيد اهتماماً عظيماً ، فأمر أصحابه بالتهيؤ لها ، وحثهم عليها ، ثم عبّأهم بنفسه الزكية ، إرهافاً لعزائمهم ، واستنهاضاً لهممهم ، فلم يُبقِ أحداً من وجوه المهاجرين والأنصار كأبي بكر ، وعمر ، وأبي عبيدة ، وسعد ، وأمثالهم ، إلّا وقد عبّأه بالجيش ، وكان ذلك لأربع ليالٍ بقين من صفر ، سنة إحدى عشرة للهجرة ، فلما كان يوم الثامن والعشرين من صفر ، بدأ به (صلوات الله عليه وآله) مرض الموت ، فلما أصبح يوم التاسع والعشرين ، ووجدهم مُثاقِلين ، خرج إليهم فحضهم على السير ، وعقد اللواء لأسامة بيده الشريفة ، إرهافاً لعزيمتهم ثم قال : « أغز باسم الله ، وفي سبيل

(١) أخرجه البخاري ، في غير مورد ، لاحظ ج ١ ، باب كتابة العلم ، الحديث ٣ ؛ وج ٤ ، ص ٧٠ ؛ وج ٦ ، ص ١٠ ؛ من النسخة المطبوعة سنة ١٣١٤ . والإمام أحمد في مسنده ج ١ ، ص ٣٥٥ ، وفيه عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس ، قال : يوم الخميس وما يوم الخميس . ثم نظرت إلى دموعه على خديته تحدر كأنها نظام اللؤلؤ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله ، إئتوني باللوح والدواة ، أو الكتف ، أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً . فقالوا : « رسول الله يتجر » ١١ .

الله . فخرج بلوائه معقوداً ، فدفعه إلى بُرَيْدَة ، وعسكر بالجُرْف .

ثم تناقلوا هناك ، فلم يبرحوا ، مع ما وَعَوَّه ورأوه من النصوص الصريحة في وجوب إسماعهم كقوله صلوات الله عليه وآله : « أغز صباحاً على أهل أبنة » . وقوله : « وأسرع السير لتسبق الأخبار »^(١) .

وقد أغضب النبيُّ ثاقلاًهم ، حتى قال : « جَهَّزُوا جيش أسامة ، لَعَنَ الله من تخلف عنه » ، فقال قوم : « يجب علينا امتثال أمره ، وأسامة قد برز من المدينة » ، وقال قوم : « قد اشتدَّ مرض النبي ، فلا تسع قلوبنا مفارقتة ، والحالة هذه ، فنصبر حتى نبصر أي شيء يكون من أمره »^(٢) .

ثم إنَّ مَنْ ذَكَرَ تخلف القومِ عن أسامة ، حاول تعليل تخلف الصحابة ، فقال بأنَّ الغرض منه إقامة مراسم الشرع في حال تزلزل القلوب ، وتسكين نائرة الفتنة المؤثرة عند تقلب القلوب^(٣) .

فإذا صحَّ هذا العذر ، فليصحَّ مثله في حديث الغدير ، فإنَّ القوم - أكثرهم لا جميعهم - ثُقِّلَ عليهم إمامة علي بن أبي طالب الذي قتل من أبناء القوم وإخوانهم يوم بدر وحنين وغيرهما ، ما قتل ، فرجَّحوا مخالفة الحديث حفظاً للوحدة ، أو لغير ذلك من هذه المبررات - عند القوم - للاجتهاد تجاه النص .

كما أنَّهم في نفس القضية ، طعنوا في إمامة أسامة ، طعنًا عظيمًا ، وأقلَّ ما قالوه ، إنَّ النبيَّ قد أمَّر شاباً غير مجربٍّ على شيوخ القوم وأكابرهم !! .

٣ - صلح الحديبية واعتراض القوم

إنَّ النبيَّ الأكرم صالح قريشاً في أرض الحديبية لمصالح عالية ، كشف المستقبل عنها بوضوح . ولما تمَّ كتاب الصلح ، اعترض عليه لفيث من الصحابة ، حتى تصوَّروا أنَّه من باب إعطاء الدنية في طريق الدين .

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ، ص ١٨٩ - ١٩٢ .

(٢) الملل والنحل ، للشهرستاني ، ج ١ ، ص ٢٣ .

(٣) المصدر سابق نفسه .

روى مسلم في باب صلح الحديبية أن عمر قال لرسول الله صلى الله عليه وآله : « أولسنا على الحق ، وهم على الباطل ؟ » قال رسول الله : « بلى » . قال : « أولسنا قتلانا في الجنة وقتلهم في النار ؟ » قال : « بلى » . قال : « ففيم نُعطي الدنية في ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ » فقال صلى الله عليه وآله : « يا ابن الخطاب ، إني رسول الله ، ولن يضيّعني الله أبداً »^(١) .

فانطلق عمر ، ولم يصبر متغيظاً ، فأق أبا بكر فقال : يا أبا بكر ، ألسنا على حق وهم على باطل ، قال : بلى ، قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلهم في النار . قال : بلى . قال : فعلى م نعطي الدنية في ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم . فقال : يا ابن الخطاب ، إنه رسول الله ، ولن يضيّعه الله أبداً .

فلما فرغ رسول الله من الكتاب قال لأصحابه ، قوموا فانحروا ، ثم احلقوا . قال الراوي : فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات . فلما لم يقم منهم أحد ، دخل خبائه ، ثم خرج ، فلم يكلم أحداً منهم بشيء ، حتى نحر بُذنه بيده ، ودعا حالقه ، فحلق رأسه . فلما رأى أصحابه ذلك قاموا ، فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعض^(٢) .

ولسنا بصدد استقصاء مخالفات القوم لنصوص النبي وتعليماته ، فإنّ المخالفة لا تقتصر على ما ذكرنا بل تربوا على نيف وسبعين مورداً ، استقصاها بعض الأعلام^(٣) .

وعلى ضوء ذلك ، لا يكون ترك العمل بحديث الغدير ، من أكثرية الصحابة دليلاً على عدم تواتره ، أو عدم تمامية دلالة .

والمشكلة كلها في هذا الباب ، هي التعرّف على حكم الصحابة من حيث

(١) صحيح مسلم ، باب صلح الحديبية ، ج ٥ ، ص ١٧٥ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٢ ، ص ١١٤ حيث استغفر للمحلقين ورأى بعضهم غير محلق .

(٢) صحيح البخاري ، ج ٢ ، كتاب الشروط ، ص ٨١ .

(٣) لاحظ كتاب النص والإحتهاد ، للسيد الإمام شرف الدين ، وهو كتاب ممتع مليء بالأحداث التي قدّم فيها الإحتهاد الخاطيء - لا الصحيح فإنه تبع النص - على النص النبوي الجلي .

العدالة ، فإنَّ القوم ألبسوا مجموع الصحابة لباس العصمة ، وحلَّوهم أجمعين بحِلَّةِ التقوى والعفاف ، على وجه لا يكادون يخالفون الكتاب والسنة قيد شعرة ، فالصحابة بمجموعهم معصومون لا يخطئون . فمن كانت هذه عقيدته ، فيشكل عليه القول بأن القوم خالفوا تنصيب النبي وتنصيبه لعلي عليه السلام .

ولكنها عقيدة تضاد كتاب الله وسنته ، والتاريخ . فمن درس حياة الصحابة في ضوء الكتاب والسنة النبوية والتاريخ الصحيح ، يقف على أنَّ فيهم صالحاً وطالحاً ، كسائر أفراد المجتمعات البشرية ، وليس السلف خيراً من الخلف ، بل السلف والخلف على وتيرة واحدة ، ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ﴾ (١) .

* * *

السؤال الثاني : ما فائدة البحث عن إمامة عليٍّ في هذه الأزمان ؟

وها هنا سؤال آخر يطرحه لفيف من دعاة الوحدة ، الذين لهم رغبة خاصة بتوحيد صفوف المسلمين وتقريب الخطى بينهم ، وحاصله :

إنَّ البحث عن صيغة الخلافة بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، يرجع لِّبه إلى أمر تاريخي قد مضى زمنه وهو أنَّ الخليفة بعد النبي هل هو الإمام أمير المؤمنين أو أبو بكر . وماذا يفيد المؤمنين البحث حول هذا الأمر الذي لا يرجع إليهم بشيء في حياتهم المعاصرة . أو ليس من الحرِّي ترك هذا البحث حفظاً للوحدة .

والجواب

لا شك أنَّ أعظم خلاف وقع بين الأُمَّة ، اختلافُهم في الإمامة ، وما سُئل

(١) سورة فاطر : الآية ٣٢ ، وقد أشبع الأستاذ دام حفظه ، الكلام في حال الصحابة من حيث البرهان والعاطفة في بحوثه في الملل والنحل ، فلاحظ : ج ١ ، ص ١٩١ - ٢٢٨ .

سَيَفِي في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلِّ على الإمامة^(١) . فمن واجب المسلم الحرّ ، الذي لا يتبنّى إلّا مصلحة المسلمين ، السعي وراء الوحدة ، ولكن ليس معنى ذلك ترك البحث ، وغلّق ملف الدراسة ، فإنّه إذا كان البحث نزيهاً موضوعياً يكون مؤثراً في توحيد الصفوف وتقريب الخطى ، إذ عندئذٍ تتعرف كل طائفة على ما لدى الأخرى ، من العقائد والأصول ، وبالتالي تكون الطائفتان متقاربتين . وهذا بخلاف ما إذا تركنا البحث مخافة الفرقة ، فإنّه يثير سوء ظنّ كلّ طائفة بالنسبة إلى الأخرى في مجال العقائد والمعارف ، فربما تتصورها طائفة أجنبياً عن الإسلام . هذا أولاً .

وثانياً : إنّ لمسألة البحث عن صيغة الإمامة بعد النبي بُعدين أحدهما بُعدٌ تاريخي مضى عصره ، والثاني بُعدٌ ديني باقٍ أثره إلى يومنا هذا ، ومن واجب كلّ مسلم الأخذ به ، وهو أنّه إذا صَحَّ تنصيب عليٍّ لمقام الولاية والخلافة ، بالمعنى الذي تتبناه الإمامية ، يكون الإمام ، وراء كونه زعيماً في ذلك العصر ، مرجعاً في رفع المشاكل التي خلفتها رحلة النبي ، ممّا قد مرّ عليك ، فيجب على المسلمين الرجوع إليه في تفسير القرآن وتبيينه ، وفي مجال الموضوعات المستجدة التي لم يرد فيها النصّ في الكتاب والسنة ، كما يكون مرجعاً في سائر الأمور .

وفي ضوء هذا ، فالبعد الذي مضى ، ولا نعيد البحث فيه ، هو كونه زعيماً في ذلك العصر ، وقد مضى زمنه ، ولكن الباقي زعامته الدينية ، وقيادته في مجال المعارف والمسائل الشرعية ، فهو بُعدٌ باقٍ ، فيجب على كل المسلمين الرجوع إلى الإمام أخذاً بهذه الأبعاد ، لحديث الغدير وغيره . فليس البحث متلخصاً في البعد السياسي حتى نشطب عليه بدعوى أنّه مضى ما مضى ، بل له كما عرفت مجال ومجالات باقية .

فإذا وصل البحث إلى هنا ، يجب علينا التركيز على مسألة أخرى وهي أنّ النبي الأكرم ، لم يزل يُهيب في الجاهلين ، ويصرخ في الغافلين ، داعياً إلى التمسك بالكتاب والعترة معاً ، وهذا تصريح بأنّ لقيادة العترة الطاهرة وراء

(١) تقدمت منا هذه الكلمة نقلاً عن الشهرستاني في الملل والنحل .

الزعامة السياسية المحددة بوقت خاص ، وزمن حياتهم ، بعداً خالداً إلى يوم القيامة ، وهو لزوم الإنكباب عليهم فيما يطرق علينا من الحوادث والوقائع الدينية ، وكل ما يمت إلى الدين بصلة ، وتتطلب الجواب والإهداء منهم ، ولأجل ذلك يجب علينا التعرف على هذا القسم من الأحاديث الذي يركز على الجهات المعنية أزيد من التركيز على الجهات السياسية .

١ - حديث الثقلين

روى أصحاب الصحاح والمسانيد عن النبي الأكرم أنه قال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا ، كِتَابَ اللَّهِ وَعِترتي أَهْلَ بَيْتِي » . وقال في موضع آخر : « إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا ، كِتَابَ اللَّهِ ، حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَعِترتي أَهْلُ بَيْتِي ، وَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرُدَّا عَلَى الْحَوْضِ ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُقُونِي فِيهِمَا » . وغير ذلك من النصوص المتقاربة .

وقد صدع بها في غير موقف ، تارة بعد انصرافه من الطائف ، وأخرى يوم عرفة في حجة الوداع ، وثالثة يوم غدیر خم ، ورابعة على منبره في المدينة ، وأخرى في حجته المباركة في مرضه والحجرة غاصّة بأهله .

ولا يشك في صحّة الحديث إلّا الخاهل به أو المعاند ، فقد رُوِيَ بطرق كثيرة عن نيف وعشرين صحابياً^(١) .

إنّ الإمامان في الحديث يعرب عن عصمة العترة الطاهرة ، حيث قورنت

(١) وكفى في ذلك أن دار القريب بين المذاهب الإسلامية قامت بتر رسالة جمعت فيها مصادر الحديث ونذكر من طرقه الكثيرة ما يلي : صحيح مسلم ، ح ٧ ، ص ١٢٢ ، سنن الترمذي ، ح ٢ ، ص ٣٠٧ ، مسند أحمد ، ح ٣ ، ص ١٧ و ٢٦ و ٥٩ ، وح ٤ ، ص ٣٦٦ و ٣٧١ ، وح ٥ ، ص ١٨٢ و ١٨٩ .

وقد قام المحدث الكبير السيد حامد حسين اهدي بجمع طرق الحديث ونقل كلمات الأعظم حوله ونشره في ستة أجزاء وهو من أجزاء كتبه الكبير العقبات .

بالقرآن الكريم ، وأنها لا يفرقان ، ومن المعلوم أن القرآن العظيم ، كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فكيف يمكن أن يكون قرناء القرآن وأعداؤه ، خاطئين فيما يحكمون ويُبرمون ، أو يقولون ويحدثون . فعدم الإفتراق إلى يوم القيامة ، آية كونهم معصومين فيما يقولون ويروون .

أضف إلى ذلك أن الحديث ، يُعدُّ المتمسك بالعترة غير ضالٍّ ، بقوله : « لَنْ تَضَلُّوا » . فلو كانوا غير معصومين من الخلاف والخطأ ، فكيف لا يضلُّ المتمسك بهم ؟ .

نعم ، ورد في بعض النصوص مكان كتاب الله وعترتي ، كتاب الله وسنتي^(١) . وهو على فرض صحته ، حديث آخر لا يزاحمه ، على أنه حديث واحد ، وهذا الحديث متواتر نقله أعلام الأئمة ، وأساتذة الحديث والتاريخ والسيرة ، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا من راجع مصادر الحديث^(٢) . فيقدّم عليه في كل حال .

من هم العترة وأهل البيت ؟

لا أظن أن أحداً ، قرأ الحديث والتاريخ ، يشكُّ في أن المراد من العترة وأهل البيت لفيفٌ خاص من أهل بيته . ويكفي في ذلك مراجعة الأحاديث التي جمعها ابن الأثير في جامعته عن الصحاح ، ونكتفي بالقليل من الكثير منها .

١ - روى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ . . . ﴾ الآية ، دعا رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً ، وفاطمة ، وحسناً ، وحسيناً ، فقال : « اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي » .

(١) الصواعق المحرقة ، ص ٨٩ .

(٢) وراجع أيضاً في الوقوف على مصادر الحديث ، غاية المرام للسيد البحراني ، ص ٤١٧ - ٤٣٤ .
والمراجعات ، المراجعة ٨ وتعليق إحقاق الحق ، ج ٩ .

٢ - وروى أيضاً عن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، قالت : إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي بَيْتِي : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ، قالت : وَأَنَا جَالِسَةٌ عِنْدَ الْبَابِ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلَسْتُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ، فقال : إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ ، أَنْتِ مِنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ . قالت : وَفِي الْبَيْتِ رَسُولُ اللَّهِ ، وَعَلِيٌّ ، وَفَاطِمَةُ ، وَحَسَنٌ ، وَحُسَيْنٌ ، فَجَلَّلَهُمْ بِكَسَائِهِ ، وَقَالَ : « اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي ، فَأَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً » .

٣ - وروى أيضاً عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ يَمُرُّ بِبَابِ فَاطِمَةَ إِذَا خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ حِينَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَرِيباً مِنْ سِتَةِ أَشْهُرٍ ، يَقُولُ : « الصَّلَاةُ أَهْلُ الْبَيْتِ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ » .

٤ - وروى مسلم عن زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ قَالَ : قَالَ يَزِيدُ بْنُ حِيَانَ : انْطَلَقْتُ أَنَا وَحَصِينَ بْنُ سَبْرَةَ ، وَعَمْرُ بْنُ مُسْلِمٍ ، إِلَى زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ ، فَلَمَّا جَلَسْنَا إِلَيْهِ قَالَ لَهُ حَصِينٌ : لَقَدْ لَقِيتُ يَا زَيْدٌ خَيْرَ كَثِيرٍ ، رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَسَمِعْتُ حَدِيثَهُ ، وَغَزَوْتُ مَعَهُ ، وَصَلَّيْتُ خَلْفَهُ ، لَقَدْ لَقِيتُ يَا زَيْدٌ خَيْرَ كَثِيرٍ ، حَدَّثَنَا يَا زَيْدٌ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؟ .

قال : يَا ابْنَ أَخِي وَاللَّهِ ، لَقَدْ كَبُرَتْ سَنِي ، وَقَدُمُ عَهْدِي ، فَمَا حَدَّثْتُكُمْ فَاقْبَلُوا ، وَمَا لَا فَلَ تَكْلَفُونِيهِ . ثُمَّ قَالَ : قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ، يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا بِمَاءٍ يَدْعَى خَمًّا ، بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَوَعظَ وَذَكَرَ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، يَوْشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنَ ، أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ . فَحُتَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغِبَ فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : وَأَهْلُ بَيْتِي ، أَذْكُرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أَذْكُرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أَذْكُرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي .

فقلنا: من أهل بيته؟ نساؤه؟ . قال : لا ، وَأَيُّمُ اللَّهِ ، إِنَّ الْمَرْأَةَ تَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ الْعَصْرَ مِنَ الدَّهْرِ ، ثُمَّ يَطْلُقُهَا ، فَتَرْجِعُ إِلَى أَبِيهَا وَقَوْمِهَا ، أَهْلُ بَيْتِهِ ،

أَصْلُهُ وَعُصْبَتُهُ الَّذِينَ حُرِّمُوا الصَّدَقَةُ بَعْدَهُ^(١) .

* * *

٢ - حديث السفينة

روى المحدثون عن النبي الأكرم أنه قال : « إِنَّمَا مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِي أُمَّتِي ، كَمَثَلِ سَفِينَةِ نُوحٍ ، مَنْ رَكِبَهَا نَجَا ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ »^(٢) .

فَشَبَّهَ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، أَهْلَ بَيْتِهِ بِسَفِينَةِ نُوحٍ فِي أَنَّ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِمْ فِي الدِّينِ فَأَخَذَ أَصُولَهُ وَفُرُوعَهُ عَنْهُمْ نَجَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُمْ كَانَ كَمَنْ آوَى يَوْمَ الطُّوفَانِ إِلَى جَبَلٍ لِيُعْصِمَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ غَرَقَ فِي الْمَاءِ وَهَذَا فِي الْحَمِيمِ .

فإذا كانت هذه منزلة علماء أهل البيت ، ﴿ فَأَنْ تَصْرَفُونَ ﴾ ؟ .

يقول ابن حجر في صواعقه : « وَجْهٌ تَشْبِيهِهُمْ بِالسَّفِينَةِ أَنَّ مَنْ أَحَبَّهُمْ وَعَظَّمَهُمْ ، شَكَرَ لِنِعْمَةِ مُشْرِفِهِمْ ، وَأَخَذَ بِهَدْيِ عِلْمَائِهِمْ ، نَجَى مِنْ ظُلْمَةِ الْمَخَالَفَاتِ . وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْ ذَلِكَ ، غَرِقَ فِي بَحْرِ كُفْرِ النِّعَمِ ، وَهَلَكَ فِي مَفَاوِزِ الطُّغْيَانِ »^(٣) .

* * *

(١) لاحظ فيما نقلناه من الأحاديث ، جامع الأصول ، ج ١ ، الفصل الثالث ، من الباب الرابع ، ص ١٠٠ - ١٠٣ .

(٢) مستدرک الحاکم ، ج ٢ ، ص ١٥١ . الحصائص الكبرى للسيوطي ، ح ٢ ، ص ٢٦٦ . وللحديث طرق ومسايد كثيرة ، من أراد الوقوف عليها ، فعليه بتعاليق إحقاق الحق ، ج ٩ ، ص ٢٧٠ - ٢٩٣ .

(٣) الصواعق ، الباب ١١ ، ص ١٩١ . أما مسائل ابن حجر أنه إذا كان هذا مقام أهل البيت ، فلماذا لم يأخذ هو بهدي أئمتهم في شيء من فروع الدين وعقائده ، ولا في شيء من علوم السنة والكتاب ، ولا في شيء من الأخلاق والسلوك والآداب ؟ ولماذا تخلف عنهم ، فأغرق نفسه في بحار كفر النعم ، وأهلكها في مفاويز الطغيان ؟ !

البحث الثاني

السنة النبوية والأئمة الإثنا عشر

إن النبي الأكرم لم يكتف بتنصيب عليٍّ منصب الإمامة والخلافة، كما لم يكتف بإرجاع الأمة الإسلامية إلى أهل بيته وعترته الطاهرة، ولم يقتصر على تشبيههم بسفينة نوح، بل قام ببيان عدد الأئمة الذين يتولون الخلافة بعده، واحداً بعد واحد، حتى لا يبقى لمُرتاب رَيب، ولا لشاك شك، وقد جاء ذلك في الصحاح والمسانيد بصُور مختلفة نشير إليها.

١ - كلهم من قريش

روى البخاري عن جابر بن سمرة قال : سمعت النبي يقول :

« يكون إثنا عشر أميراً ، فقال كلمة لم أسمعها ، فقال أبي : إنه قال : كلُّهم من قُرَيْش »^(١).

٢ - لا يزال الإسلام عزيزاً

روى مسلم عن جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول :

(١) صحيح البخاري ، ج ٩ ، باب الاستحلاف ، ص ٨١ ورواه ناقصاً كما يظهر مما نقله مسلم وغيره ، رواه أحمد في مسنده ، ج ٥ ، ص ٩٠ ، وص ٩٢ ، وص ٩٥ ، وص ١٠٨

« لا يزال الإسلام عزيزاً إلى إثني عشر خليفة ، ثم قال كلمة لم أفهمها ، فقلت لأبي : ما قال ؟ قال : قال : كلهم من قریش »^(١) .

٣ - لا يزال الدين عزيزاً منيعاً

وروى أيضاً عن جابر بن سمرة قال : انطلقت إلى رسول الله ومعى أبي فسمعتة يقول :

لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى إثني عشر خليفة ، فقال كلمة صمّنيها الناس ، فقلت لأبي : ما قال ؟ . قال : كلهم من قریش^(٢) .

٤ - لا يزال الدين قائماً

وروى أيضاً عنه ، قال : سمعت رسول الله يوم جمعة عشية رجم الأسلمي ، يقول : لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة ، أو يكون عليكم إثنا عشر خليفة كلهم من قریش^(٣) .

٥ - لا يزال الدين ظاهراً

روى أحمد في مسنده ، عن جابر قال سمعت رسول الله يقول في حجة الوداع : إنّ هذا الدين لن يزال ظاهراً على من ناواه ، لا يضرّه مخالف ولا مفارق حتى يمضي من أمّتي إثنا عشر خليفة . ثم تكلم بشيء لم أفهمه ، فقلت لأبي : ما

(١) صحيح مسلم ، ج ٦ ، كتاب الإمامة ، باب الناس تبع لقریش ، ص ٣ . وروى هذا المضمون تارة عن سأك بن حذب عن جابر ، وأخرى عن الشعبي عن جابر . ورواه أحمد في مسنده ، ج ٥ ، ص ٩٠ ، و٩٨ ، وفيه : فكبر الناس وضجوا .

(٢) المصدر السابق من صحيح مسلم ، ومسنده أحمد ، ج ٥ ، ص ٩٨ . وفيه : « لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً يُنصرون على من ناوَاهم عليه » .

(٣) المصدر نفسه . ومسنده أحمد ، ج ٥ ، ص ٨٦ ، ص ٨٩ ، وفي ص ٩٢ : « لا يزال الدين قائماً يقاتل عليه عصابة حتى تقوم الساعة » . وص ٩٨ ، وفيها « عصابة من المسلمين » .

قال ؟ قال : قال : كلهم من قريش^(١) .

٦ - لا يزال هذا الأمر صالحاً

روى أحمد في مسنده عن جابر عن سمرة قال : جئت أنا وأبي إلى النبي ، وهو يقول : لا يزال هذا الأمر صالحاً ، حتى يكون إثنا عشر أميراً ، ثم قال كلمة لم أفهمها ، فقلت لأبي ما قال ؟ . قال : كلهم من قريش^(٢) .

٧ - لا يزال الناس بخير

وروى أيضاً عنه قال : كنت مع أبي عند رسول الله ، فقال رسول الله : لا يزال هذا الدين عزيزاً ، أو قال : لا يزال الناس بخير - شك أبو عبد الصمد - إلى إثني عشر خليفة ، ثم قال كلمة خفية ، فقلت لأبي ، ما قال ؟ . قال : كلهم من قريش^(٣) .

فَهَلَّمَ الآن إلى البحث عن هؤلاء الخلفاء الإثني عشر ، حتى نعرف من هم وقد وقفت على أن الرسول الأكرم قد عرفهم بالخصوصيات التالية :

- لا يزال الإسلام عزيزاً إلى إثني عشر خليفة .
- لا يزال الدين عزيزاً منيعاً إلى إثني عشر خليفة .
- لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة ، أو يكون عليكم إثنا عشر خليفة .
- لا يزال الدين ظاهراً على من ناواه . . . حتى يمضي من أمي^٤ إثنا عشر خليفة .
- لا يزال هذا الأمر صالحاً حتى يكون إثنا عشر أميراً .
- لا يزال الناس بخير إلى إثني عشر خليفة .

(١) مسند أحمد ، ج ٥ ، ص ٨٧ وص ٨٨ وص ٩٠ . ولاحظ المستدرك ، ج ٣ ، ص ٦١٨ وفيه : « لا يزال أمر هذه الأمة ظاهراً » .

(٢) مسند أحمد ، ج ٥ ، ص ٩٧ وص ١٠٧ ولاحظ المستدرك ، ج ٣ ، ص ٦١٨ .

(٣) مسند أحمد ، ج ٥ ، ص ٩٨ .

وقد اختلفت كلمة شراح الحديث في تعيين هؤلاء الأئمة ، ولا تجد بينها كلمة تشفي العليل ، وتروي الغليل ، إلا ما نقله القندوزي عن بعض المحققين ، قال :

« إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده إثني عشر ، قد اشتهرت من طرق كثيرة ، فبشرح الزمان ، وتعريف الكون والمكان ، علم أن مراد رسول الله من حديثه هذا ، الأئمة الإثنا عشر من أهل بيته وعترته ، إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه ، لقلتهم عن اثني عشر ، ولا يمكن أن يحمل على الملوك الأمويين لزيادتهم على الإثني عشر ، ولظلمهم الفاحش إلا عمر بن عبد العزيز ، ولكونه غير بني هاشم ، لأن النبي صلى الله عليه وآله قال : كلهم من بني هاشم ، في رواية عبد الملك عن جابر ، وإخفاء صوته في هذا القول يرجح هذه الرواية ، لأنهم لا يحسنون خلافة بني هاشم ، ولا يمكن أن يحمل على الملوك العباسيين لزيادتهم على العدد المذكور ، ولقلة رعايتهم قوله سبحانه : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ ، وحديث الكساء ، فلا بد من أن يحمل على الأئمة الإثني عشر من أهل بيته وعترته ، لأنهم كانوا أعلم أهل زمانهم ، وأجلهم ، وأورعهم ، وأتقاهم ، وأعلاهم نسباً ، وأفضلهم حسباً ، وأكرمهم عند الله ، وكانت علوهم عن آبائهم متصلة بجدهم صلى الله عليه وآله ، وبالوراثة اللدنية ، كذا عرفهم أهل العلم والتحقيق ، وأهل الكشف والتوفيق .

ويؤيد هذا المعنى ، أي أن مراد النبي الأئمة الإثني عشر من أهل بيته ، ويشهد عليه ويرجحه حديث الثقلين والأحاديث المتكثرة المذكورة في هذا الكتاب وغيرها .

وأما قوله صلى الله عليه وآله : كلهم يجتمع عليه الأمة ، في رواية جابر بن سمرة ، فمراده أن الأمة تجتمع على الإقرار بإمامة كلهم وقت ظهور قائمهم المهدي ^(١) .

والعجب من بعض المتعصبين حملة على خلفاء بني أمية من بعد الصحابة ،

(١) ينابيع المودة ، للشيخ سليمان المعروف بالبلخي القندوزي ، ص ٤٤٦ ، ط اسطنبول عام ١٣٠١ .

قال : « وليس الحديث وارداً على المدح ، بل على استقامة السلطنة ، وهم يزيد بن معاوية ، وابنه معاوية ، ولا يدخل عبد الله بن الزبير لأنه من الصحابة ، ولا مروان بن الحكم لكونه بويغ بعد ابن الزبير ، فكان غاصباً ، ثم عبد الملك ، ثم الوليد ، إلى مروان بن محمد »^(١) .

وهذا لعمرى رمي للقول على عواهنه ، فمن أين علم أنه إشارة إلى إمارة غير الصحابة ، مع أنه قال : يكون بعدي . ثم ما فائدة هذا الإخبار وما حاصله ؟ .

أضف إلى ذلك أن الرسول الأكرم أناط عزة الإسلام ، ومنعته ، وقوام الدين وصلاح الأمة ، بخلافة هؤلاء . وهل كان في خلافتهم هذه الآثار ، أو الذي كان هو ما يضادها ؟ فكيف يمكن حمل هذه البشائر التي صدرت على سبيل المدح ، على مثل يزيد بن معاوية قاتل الإمام الطاهر ، والفاسق المعلن بالمنكرات والكفر ، والمتمثل بأشعار ابن الزُبَيْرِيّ المعروفة^(٢) . ومويقات هذا الرجل من استباحة دم الصحابة ، والتابعين ثلاثة أيام^(٣) ، وغير ذلك ، مما لا يُحصى . وكيف يَعدُّ وليد بن يزيد بن عبد الملك من خلفاء رسول الله الذين يعتزّ بهم الدين ؟ :

فتح الوليد المصحف ذات يوم وقرأ قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ ، فدعى بالمصحف ، فنصبه غرضاً للشباب ، وأقبل يرميه وهو يقول :

تَهْدِدُنِي بِجَبَّارٍ عَنِيدٍ فها أنا ذاك جَبَّارٌ عَنِيدٍ
إِذَا مَا جِثَّتْ رَبُّكَ يَوْمَ حَشَرٍ فَقُلْ يَا رَبِّ مَرْقُفِي الْوَلِيدِ

(١) منتخب الأثر ، ص ١٦ ، نقلاً عن حواشي صحيح الترمذي .

(٢) ليت أشياخي ببدر شهدوا وَقَعَ الْحَزْرَجُ مِنْ وَقَعِ الْأَسْلِ
إلى آخر الأبيات وفيها :

لَعَبَتْ هَاشِمٌ بِالْمَلِكِ فَلَا خَبَرَ جَاءَ وَلَا وَحْيٍ نَزَلَ
(البداية والنهاية ، لابن الأثير ، ج ٨ ، ص ١٤٢ . ط دار الفكر - بيروت ، وتذكرة الخواص ، لابن الجوزي ، ص ٢٣٥ ، ط بيروت ١٤٠١ - ١٩٨١) .
(٣) لاحظ تاريخ الطبري ، حوادث سنة ٦٣ ، ص ٣٧٠ - ٣٨١ .

وذكر محمد بن يزيد المبرّد النحوي أنّ الوليد أُلحد في شعر له ذكر فيه النبي صلى الله عليه وآله ، وأنّ الوحي لم يأتيه من ربّه . كذب أخزاه الله من ذلك الشعر :

تَلَعَّبَ بالخِلافة هاشمي بلا وَحْيٍ أتاه ولا كِتَابٍ
فَقُلَ اللهُ يَمْنَعُنِي طَعَامِي وَقُلَ اللهُ يَمْنَعُنِي شَرَابِي
فلم يُهمل بعد قوله هذا إلا أياماً حتى قتل^(١) .

والإنسان الحرّ الفارغ عن كل رأي مُسَبِّق ، لو أمعن النظر في هذه الأحاديث وأمعن في تاريخ الأئمة الإثني عشر من ولد الرسول ، يقف على أنّ هذه الأحاديث لا تروم غيرهم ، فإنّ بعضها يدلّ على أنّ الإسلام لا ينقرض ولا ينقضي حتى يمضي في المسلمين اثنا عشر خليفة ، كلّهم من قریش ، وبعضها يدلّ على أنّ عزّة الإسلام إنّما تكون إلى اثني عشر خليفة ، وبعضها يدلّ على أنّ الدين قائم إلى قيام الساعة ، وإلى ظهور اثني عشر خليفة ، وغير ذلك من العناوين .

وهذه الخصوصيات لا توجد في الأئمة الإسلامية إلا في الأئمة الإثني عشر المعروفين عند الفريقين ، خصوصاً ما يدلّ على أن وجود الأئمة مستمر إلى آخر الدهر ، ومن المعلوم أنّ آخر الأئمة هو المهدي المنتظر ، الذي يُعَدُّ ظهوره من أشراط الساعة .

ولو أضفنا إلى هذا ، الروايات الكثيرة الواردة في الأئمة الإثني عشر ، يقطع الإنسان بأنّه ليس المراد إلا هؤلاء الذين اعترف بفضلهم ، وورعهم ، وثقافتهم ، وعلمهم ، ووعيتهم ، وحلمهم ، وصبرهم ، ودرائتهم ، وكفائتهم ، الداني والقاصي ، والصديق والعدو ، ألا وهم :

علي بن أبي طالب ، فالحسن بن علي ، فالحسين بن علي ، فعلي بن الحسين ، فمحمد بن علي ، فجعفر بن محمد ، فموسى بن جعفر ، فعلي بن موسى ، فمحمد بن علي ، فعلي بن محمد ، فالحسن بن علي ، فمحمد بن الحسن

(١) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٢١٦ .

العسكري ، المهدي المنتظر الذي يملأ الله به الأرض قسطاً وعدلاً بعدما مُلئت ظُلماً وجوراً^(١) ، صلوات الله ونحياته وسلامه عليهم أجمعين .

وقد تضافرت النصوص في تنصيب الإمام السابق على الإمام اللاحق ، فمن أراد الوقوف على هذه النصوص ، فعليه الرجوع إلى الكتب المعدة لإمامة الأئمة الإثني عشر^(٢) .



(١) سيراфик الكلام في الإمام المنتظر ، وأحاديثه في السنة النبوية ، وطول عمره ، وعلائم ظهوره ، وغير ذلك مما يرجع إليه .

(٢) لاحظ الكافي ، ج ١ ، كتاب الحجة ، وأجمع كتاب في هذا الموضوع هو كتاب « إثبات الهداة » للشيخ الحرّ العاملي وقد جمع فيه النصوص المتضاربة على إمامة كلّ واحد من الأئمة الإثني عشر .

البحث الثالث

عصمة الإمام في القرآن

قد عرفت في البحث عن شروط الإمامة ، اختلاف أهل السنة في عددها ، وعلمت المتفق عليه ، والمختلف عليه منها . وقد اتفقوا وراء ذلك على أن العصمة ليست من الشرائط ، أخذاً بمبادئهم حيث إن الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، لم يكونوا بمعصومين قطعاً ، بل إن بعضهم لم يكن مجتهداً في الكتاب والسنة .

وأما الشيعة الإمامية ، فقد اتفقت على هذا الشرط من بين الشروط ، واستدلوا عليه بأدلة ، نكتفي ببعضها :

١ - الإمامة استمرار لوظائف الرسالة

إن حقيقة الإمامة الذي تتبناه الشيعة الإمامية ، هي القيام بوظائف الرسول بعد رحلته ، وقد تعرفت على وظائفه الرسالية والفراغات الحاصلة بموته والتحاقه بالرفيق الأعلى . ومن المعلوم أن سدّ هذه الفراغات لا يتحقق إلا بأن يكون الإمام متمتعاً بما يتمتع به النبي الأكرم من الكفاءات والمؤهلات ، فيكون عارفاً بالكتاب والسنة على وفق الواقع ، عالماً بحكم الموضوعات المستجدة عرفاناً واقعياً ، وذاباً عن الدين شبهات المشككين ، ومن المعلوم أن هذه الوظيفة تستدعي كون الإمام مصوناً من الخطأ . فما دلّ على أن النبي يجب أن يكون مصوناً في مقام إبلاغ

الرسالة ، قائم في المقام بنفسه ، فإنَّ الإمام يقوم بنفس تلك الوظيفة ، وإن لم يكن رسولاً ولا طرفاً للوحي ، ولكنه يكون عيبةً لعلمه ، وحاملاً لشرعه وأحكامه ، فإذا لم نجوِز الخطأ على النبي في مقام الإبلاغ ، فليكن الأمر كذلك في مقام القيام بتلك الوظيفة بلا منصب الرسالة والنبوة .

٢ - آية ابتلاء إبراهيم

قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، قَالَ : لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾^(١) .

إنَّ تفسير الآية كما هو حقُّها يتوقف على البحث عن النقاط التالية :

- أ - ما هو الهدف من الإبتلاء ؟ .
- ب - ما هو المراد من الكلمات ؟ .
- ج - ماذا يراد من الإتمام ؟ .
- د - ما هو المقصود من الإمام (إماماً) ؟ .
- هـ - كيف تكون الإمامة عهداً إلهياً (عهدي) ؟ .
- و - ما هو المراد من الظالمين ؟ .

ولكنَّ إفاضة الكلام في هذه الموضوعات ، يُخوِّجنا إلى تأليف رسالة مفردة فنكتفي بالتركيز على اثنين من هذه الموضوعات^(٢) .

الأول - ما هو المقصود من الإمامة التي أنعم الله سبحانه بها على نبيِّه الخليل ؟ .

الثاني - ما هو المراد من الظالمين ؟ .

* * *

(١) سورة البقرة : الآية ١٢٤ .

(٢) وقد أشع شيخنا الأستاذ ، البحث عن هذه الموضوعات الستة في موسوعته القرآنية « مفاهيم القرآن » ، ج ٥ ، ص ٢٠٥ - ٢٥٩ .

الأول - ما هو المراد من الإمامة في الآية ؟

ذهب عدّة من المفسّرين منهم الرازي في مفاتيحه ، إلى أن المراد من الإمامة هنا ، النبوة ، وأنّ ملاك إمامة الخليل ، نبوّته ، لأنّها تتضمن مشاقاً عظيمة^(١) .
وقال الشيخ محمد عبده : « الإمامة هنا عبارة عن الرسالة ، وهي لا تنال بكسب الكاسب »^(٢) .

يلاحظ عليه : إنّ إبراهيم كان نبياً قبل الإبتلاء بالكلمات ، وقبل تنصيبه إماماً ، فكيف يصحّ أن تُفسّر الإمامة بالنبوة على ما في لفظ الرازي ، أو بالرسالة ، على ما في لفظ المنار ؟ ودليلنا على ما ذكرنا ، أمران :

١ - إنّ نزول الوحي على إبراهيم ، وجعله طرفاً للخطاب بقوله : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ، أوضح دليل على أنّه كان نبياً متلقياً للوحي قبل نزول هذه الآية . وأسلوب الكلام يدلّ على أنّه لم يكن وحياً إبتدائياً ، بل يعرب عن كونه استمراراً للوحي السابق ، والمحاورة الموجودة بينه وبين الله تعالى ، حيث طلب الإمامة لذريته ، تناسب الوحي الإستمراري لا الوحي الإبتدائي . وإن كنت في شكّ ، فلاحظ الوحي الإبتدائي ، النازل على موسى في طور سيناء حيث خوطب بقوله :

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٣) .

٢ - إنّ الخليل طلب الإمامة لذريته ، ومن المعلوم أن إبراهيم كان نبياً قبل أن يرزق أيّ ولد من ولديه إسماعيل وإسحاق ، أمّا أولهما فقد رزقه بعد تحطيم الأصنام في بابل ، وإعداد العدة للخروج إلى فلسطين ، حيث وافاه الوحي

(١) مفاتيح الغيب ، للرازي ، ج ١ ، ص ٤٩٠ .

(٢) المنار ، ج ١ ، ص ٤٥٥ .

(٣) سورة القصص : الآية ٣ . ولاحظ سورة العلق : الآيات ١-٥ ، فإنّها من الوحي الإبتدائي ، وهي لا تشبه الخطاب الوارد في الآية الموجّه إلى الخليل .

وبشّره : ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾^(١) . وأمّا ثانيهما ، فقد بشرته به الملائكة عندما دخلوا عليه ضيوفاً ، فقالوا : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾^(٢) .

وعلى ذلك ، يجب أن تكون الإمامة الموهوبة للخليل غير النبوة ، وإلا كان أشبه بتحصيل الحاصل .

والظاهر أنّ المراد من الإمامة ، القيادة الإلهية للمجتمع ، فإنّ هناك مقامات ثلاثة :

- مقام النبوة ، وهو منصب تحمّل الوحي .
- مقام الرسالة ، وهو منصب إبلاغه إلى الناس .
- مقام الإمامة ، وهو منصب القيادة وتنفيذ الشريعة في المجتمع بقوة وقدرة .

ويعرب عن كون المراد من الإمامة في المقام هو المعنى الثالث ، قوله سبحانه : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾^(٣) .

فالإمامة التي أنعم بها الله سبحانه على الخليل وبعض ذريته ، هي الملك العظيم الوارد في هذه الآية . وعلينا الفحص عن المراد من الملك العظيم ، إذ عند ذلك يتضح أنّ مقام الإمامة ، وراء النبوة والرسالة ، وإنما هو قيادة حكيمة ، وحكومة إلهية ، يبلغ المجتمع بها إلى السعادة . والله سبحانه يوضح حقيقة هذا الملك في الآيات التالية :

١ - يقول سبحانه - حاكياً قول يوسف عليه السلام - : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾^(٤) . ومن المعلوم أنّ الملك الذي منّ به

(١) لاحظ سورة الصافات : الآيات ٩١-١٠٢ .

(٢) لاحظ سورة الحجر : الآيات ٥١-٥٥ .

(٣) سورة النساء : الآية ٥٤ .

(٤) سورة يوسف : الآية ١٠١ .

سبحانه على عبده يوسف ، ليس النبوة ، بل الحاكمية ، حيث صار أميناً مكيناً في الأرض . فقلوه : ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ ، إشارة إلى نبوته ، والمُلْكُ إشارة إلى سلطته وقدرته .

٢ - ويقول سبحانه في داود عليه السلام : ﴿ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ ﴾^(١) . ويقول سبحانه : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾^(٢) .

٣ - ويحكى الله تعالى عن سليمان أنه قال : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾^(٣) .

فملاحظة هذه الآيات يفسر لنا حقيقة الإمامة ، وذلك بفضل الأمور التالية .

أ - إن إبراهيم طلب الإمامة لذريته ، وقد أجاب سبحانه دعوته في بعضهم .

ب - إن مجموعة من ذريته ، كيوسف وداود وسليمان ، نالوا - وراء النبوة والرسالة - منصب الحكومة والقيادة .

ج - إنه سبحانه أعطى آل إبراهيم الكتاب ، والحكمة ، والمملك العظيم .
فمن ضم هذه الأمور بعضها إلى بعض ، يخرج بهذه النتيجة : إن ملاك الإمامة في ذرية إبراهيم ، هو قيادتهم وحكمهم في المجتمع ، وهذه هي حقيقة الإمامة ، غير أنها ربما تجتمع مع المقامين الآخرين ، كما في الخليل ، ويوسف ، وداود ، وسليمان ، وغيرهم ، وربما تنفصل عنها ، كما في قوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ، قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ، وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ، قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥١ .

(٢) سورة ص : الآية ٢٠ .

(٣) سورة ص : الآية ٣٥ .

بَسْطَةِ فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ .
والإمامة التي يتبناها المسلمون بعد رحلة النبي الأكرم ، تتحد واقعيتها مع
هذه الإمامة .

* * *

الثاني - ما هو المراد من الظالمين

الظُّلم في اللغة هو وضع الشيء في غير موضعه ، ومجاوزة الحد الذي عينه
العُرف أو الشرع ، فالمعصية ، كبيرها وصغيرها ، ظلم ، لأن مقترفها يتجاوز عن
الحد الذي رسمه الشارع .

والظلم له مراتب ، والمجموع يشترك في كونه تجاوزاً عن الحد ، ووضعاً
للشيء في غير موضعه .

ولما خلع سبحانه ثوب الإمامة على خليفه ، ونصبه إماماً للناس ، ودعا
إبراهيم أن يجعل من ذريته إماماً ، أُجيب بأن الإمامة وثيقة إلهية ، لا تنال
الظالمين ، لأن الإمام هو المطاع بين الناس ، المتصرف في الأموال والنفوس ، وقائد
المجتمع إلى السعادة ، فيجب أن يكون على الصراط السوي ، حتى يكون أمره ،
ونهيّه ، وتصرفه ، وقيادته ، نابعة منه . والظالم المتجاوز عن الحد ، لا يصلح لهذا
المنصب .

إن الظالم الناكث لعهد الله ، والناقض لقوانينه وحدوده ، على شفا جرف
هارٍ ، لا يؤتمن عليه ، ولا تلقى إليه مقاليد الخلافة ، ولا مفاتيح القيادة ، لأنه على
مقربة من الخيانة والتعدي ، وعلى استعداد لأن يقع أداة للجائرين ، فكيف يصح
في منطق العقل أن يكون إماماً مطاعاً نافذاً قوله ، مشرعاً تصرفه ، إلى غير ذلك
من لوازم الإمامة ؟ .

إن بعض المناصب والمقامات ، تُعين شروطها بالنظر إلى ماهيتها وواقعيتها ،

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤٧ .

فمدير المستشفى مثلاً ، له شروط تختلف عن شروط القائد . فالإمامة ، التي لا تنفك عن التصرف في النفوس والأموال ، وبها ينأط حفظ القوانين ، يجب أن يكون القائم بها إنساناً مثالياً ، مالكاً لنفسه ، ولغرائزه ، حتى لا يتجاوز في حكمه عن الحد ، وفي قضائه عن الحق .

الجمع المحلّ باللام العموم

الظاهر من صيغة الجمع المحلّ باللام ، أن الظلم بكل ألوانه وصُورِهِ ، مانعٌ عن نيل هذا المنصب الإلهي ، فالإستغراق في جانب الأفراد ، يستلزم الإستغراق في جانب الظلم ، وتكون النتيجة ممنوعية كل فرد من أفراد الظلمة عن الإرتقاء إلى منصب الإمامة ، سواء أكان ظالماً في فترة من عمره ثم تاب وصار غير ظالم ، أو بقي على ظلمه . فالظالم عندما يرتكب الظلم يشمله قوله سبحانه : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ . فصلاحيته بعد ارتفاع الظلم تحتاج إلى دليل .

وعلى ذلك ، فكل من ارتكب ظلماً ، وتجاوز حدّاً في يوم من أيام عمره ، أو عبد صنماً ، أو لاذ إلى وثن ، وبالجملّة : ارتكب ما هو حرام ، فضلاً عما هو كُفّر ، ينادى من فوق العرش : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ ، أي أنتم الظلمة الكفرة المتجاوزون عن الحد ، لستم قابليين لتحمل منصب الإمامة ؛ من غير فرق بين أن يصلح حاكمهم بعد تلك الفترة ، أو يبقوا على ما كانوا عليه .

وهذا يستلزم أن يكون المؤهل للإمامة ، طاهراً من الذنوب من لدن وُضِعَ عليه القلم ، إلى أن أُدرج في كفته وأدخل في لحدّه ، وهذا ما نسميه بالعصمة في مورد الإمامة .

سؤال وجوابه

السؤال

لسائل أن يسأل ويقول : إنّ الآية إنّما تشمل من كان مقيماً على الظلم ، وأمّا الثائب منه ، فلا يتعلق به الحكم ، لأنّ الحكم إذا كان معلقاً على صفة ،

وزالت الصفة ، زال الحكم . ألا ترى أنَّ قوله : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾^(١) ، إنما هو ينهى عن الركون إليهم ما أقاموا على الظلم ، فقوله تعالى : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ . لم يَنْفِ به العهد عَمَّنْ تاب عن ظلمه ، لأنَّه في هذه الحالة ، لا يسمى ظالماً ، كما لا يسمى من تاب من الكفر ، كافراً .

والجواب :

إنَّ هذا الاعتراض ذكره الجصاص (م ٣٧٠) في تفسيره على آيات الأحكام^(٢) . ولكنه عزب عنه أنَّ قوله : الحُكْمُ يدور مدار وجود الموضع ، ليس ضابطاً كلياً ، بل الأحكام على قسمين ، قسم كذلك ، وآخر يكفي فيه اتِّصاف الموضوع بالوصف والعنوان آنأ ما ، ولحظة خاصة ، وإن انتفى بعد الإتيان ، فقوله : « الخمر حرام » ، أو : « في سائمة الغنم زكاة » ، من قبيل القسم الأول ، وأمَّا قوله : « الزاني يحجَّ » ، و« السارق يقطع » ، فالمراد منه أنَّ الإنسان المتلبس بالزنا أو السرقة يكون محكوماً بهما وإن زال العنوان ، وتاب السارق والزاني ، ومثله : « المستطيع يجب عليه الحج » ، فالحكم ثابت ، وإن زالت عنه الإستطاعة تقصير لا عن قصور .

وعلى ذلك فالمدعى أنَّ الظالمين في الآية المباركة كالسارق والسارقة^(٣) والزاني والزانية^(٤) ، والمستطيع^(٥) وأمهات نسائكم^(٦) في الآيات الراجعة إليهم .

نعم المهم في المقام إثبات أنَّ الموضوع في الآية من قبيل القسم الثاني ، وأنَّ

(١) سورة هود : الآية ١١٣ .

(٢) تفسير آيات الأحكام ، ج ١ ، ص ٧٢ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٣٨ .

(٤) سورة النور : الآية ٢ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ٩٧ .

(٦) سورة النساء : الآية ٢٣ . فمن صدق عليها الأمومة للزوجة يحرم على الزوج تزويجها ، وإن طلق إبتها .

التلبس بالظلم ولو أنا ما ، وفترة يسيرة من عمره يسلب من الإنسان صلاحية الإمامة وإن تاب من ذنبه .

ويدلّ على ذلك أمران :

الأول : إنّ الهدف الأسمى من تنصيب كل إنسان على الإمامة ، تجسيد الشريعة الإلهية في المجتمع ، فإذا كان القائد رجلاً مثالياً نقي الثوب ، مشرق الصحيفة ، لم يرمه عصيان ولا زلّة ، يتحقق الهدف من نصبه في ذلك المقام .

وأما إذا كان في فترة من عمره مقترفاً للمعاصي ، ماجناً ، مجترحاً للسيئات ، فيكون غرضاً لسهام الناقدين ، ومن البعيد أن ينفذ قوله ، وتقبل قيادته بسهولة ، بل ينادى عليه أنّه كان بالأمس ، يقترف الذنوب ، وأصبح اليوم أمراً بالحق وعميتاً للباطل .

ولأجل تحقق الهدف يحكم العقل بلزوم نقاوة الإمام عن كل رذيلة ومعصية في جميع فترات عمره ، وأنّ الإنابة لو كانت ناجعة في حياته الفردية فليست كذلك في حياته الاجتماعية ، فلن تخضع له الأعناق ، وتميل إليه القلوب .

الثاني : إنّ الناس بالنسبة إلى الظلم على أقسام أربعة :

١ - من كان طيلة عمره ظالماً .

٢ - من كان طاهراً ونقيّاً في جميع فترات عمره .

٣ - من كان ظالماً في بداية عمره ، وتائباً في آخره .

٤ - من كان طاهراً في بداية عمره ، وظالماً في آخره .

عند ذلك يجب أن نقف على أنّ إبراهيم عليه السلام ، الذي سأل الإمامة لبعض ذريته ، أيّ قسم منها أراد ؟ .

حاش إبراهيم أن يسأل الإمامة للقسم الأول ، والرابع من ذريته ، لوضوح أنّ الغارق في الظلم من بداية عمره إلى آخره ، أو المتصف به أيام تصديه للإمامة ، لا يصلح لأن يؤتمن عليها .

فبقي القسمان الآخران ، الثاني والثالث ، وقد نصّ سبحانه على أنه لا ينال عهده الظالم ، والظالم في هذه العبارة لا ينطبق إلا على القسم الثالث ، أعني من كان ظالماً في بداية عمره ، وكان تائباً حين التصدي .

فإذا خرج هذا القسم ، بقي القسم الثاني ، وهو من كان نقي الصحيفة طيلة عمره ، لم ير منه لا قبل التصدي ولا بعده أي انحرافٍ عن جادة الحق ، ومجاوزةً للصراط السوي .

* * *

٣ - آية التطهير وعصمة أهل البيت (ع)

هناك آية أخرى تدلّ على عصمة عدّة خاصة من أهل بيت النبي الأكرم .

يقول سبحانه : ﴿ وَقُرْآنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ، وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾^(١) .

وأداء حقّ الآية في التفسير ، يتوقف على البحث عن النقاط التالية :

١ - ما هو المراد من الرّجس ؟ .

٢ - هل الإرادة في الآية ، إرادة تكوينية خاصة بأهل البيت ، أو تشريعية تعمّ كلّ إنسان بالغٍ واقعٍ في إطار التكليف ؟ .

٣ - من المراد من أهل البيت ؟ .

٤ - مشكلة السياق في الآية لو كان المراد منهم غير نسائه ، صلوات الله عليه وآله .

٥ - أهل البيت في حديث النبي ، الذي يكون مفسراً لإجمال الآية .

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٣ .

والبحث عن هذه الأمور يحوجنا إلى تأليف مفرد ، وهو خارج عن وضع كتابنا^(١) ، إلا أن المهم هنا هو التركيز على أن الإرادة في الآية تكوينية ، خاصة بأهل البيت ، وليست تشريعية ، وأما المقصود من أهل البيت ، فقد تقدّمت المأثورات فيهم عند البحث عن حديث الثقلين .

الإرادة تكوينية لا تشريعية

إن انقسام إرادته سبحانه إلى القسمين المذكورين ، من الانقسامات الواضحة ، ومجمل القول فيها أنه إذا تعلقت إرادته سبحانه على إيجاد شيء وتكوينه في صحيفة الوجود ، فالإرادة تكوينية لا تتخلف عن المراد .

قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ ، فَيَكُونُ ﴾^(٢) .

وأما إذا تعلقت بتشريع حكم وقانون ، لفرض عمل المكلف به ، فالإرادة تشريعية ، ومتعلّقة هو التشريع ، وأما امثال المكلف فهو من غايات التشريع ، ربما يقع ويترتب عليه ، وربما ينفك عنه .

والقرائن تدلّ على أن المراد هنا هو الأول من الإرادتين ، بمعنى أن إرادته سبحانه ، تعلّقت على إذهاب الرجس عن أهل البيت وتطهيرهم من كل شيء يتنفر منه ، على غرار تعلق إرادته بإيجاد الأشياء في صحيفة الوجود .
والذي يدلّ على ذلك أمور :

١ - إن الإرادة التشريعية لا تختص بطائفة دون طائفة ، بل هي تعمّ المكلفين عامة ، يقول سبحانه ، بعد أمره بالوضوء والتيمم عند فقدان الماء : ﴿ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(٣) .

(١) قد أفاض الشيخ الأستاذ الكلام في هذه المواضع في موسوعته التفسيرية ، مفاهيم القرآن ، ج ٥ ، ص ٢١٥ - ٣٢٢ .

(٢) سورة يس : الآية ٨٢ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٦ .

ولكنه سبحانه خصَّص إرادته في الآية المبحوث عنها ، بجمع خاص ، تجمعهم كلمة أهل البيت ، وَخَصَّهْم بِالْخُطَابِ وقال : ﴿ عَنْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ ، أي لا غيركم ، فتخصيص الإرادة بجمع خاص على الوجه المذكور ، يمنع من تفسيرها بالتشريعة .

٢ - إنَّ العناية البارزة في الآية المباركة ، أقوى شاهد على أنَّ المقصود هو التكوينية ، لوضوح أنَّ تعلُّق الإرادة التشريعية لا يحتاج إلى العناية التالية :

أ - ابتدأ سبحانه كلامه بلفظ الحصر ، وقال : ﴿ إِنَّمَا ﴾ ، ولا معنى للحصر إذا كانت تشريعية ، لعمومها لِكُلِّ مَكْلُف .

ب - عيَّن تعالى مُتَعَلِّق إرادته بصورة الإختصاص ، فقال : ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ ، وهو منصوب على الإختصاص^(١) . أي أُخِصَّكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ .

ج - قد بيَّن متعلق إرادته بالتأكيد ، وقال بعد قوله : ﴿ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرُّجُسَ ﴾ ، ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ .

د - قد أكَّده بالإتيان بمصدره بعد الفعل ، وقال : ﴿ وَيُطَهِّرْكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ، ليكون أوفى في التأكيد .

هـ - إنه سبحانه قد أتى بالمصدر نكرة ، لِيُذْلَّ على الإكبار والإعجاب ، أي تطهيراً عظيماً معجباً .

و - إنَّ الآية في مقام المدح والثناء ، فلو كانت الإرادة تشريعية ، لما ناسب الثناء والمدح .

وعلى الجملة : العناية البارزة في الآية ، تدلُّ بوضوح على أنَّ الإرادة في المقام تغاير الإرادة العامة المتعلقة بكلِّ إنسان حاضراً ، أو بائداً . وللمحققين من الشيعة الإمامية كلمات وافية حول الآية تلاحظ في مواضعها^(٢) .

(١) الإختصاص من أقسام المنادى ، يقول ابن مالك :

الإختصاص كنداء دون يا كأيها الفتي بإثر ارجونيا

(٢) تفسير التبيان ، للشيخ الطوسي ، (ت ٣٨٣ - م ٤٦٠) ، ج ٨ ، ص ٣٤٠ . وبجمع البيان ، =

فالإرادة في الآية الشريفة ، نظير الإرادة الواردة في الآيات التالية :
﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾^(١) .

﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾^(٢) .
﴿ وَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(٣) .

وأما دلالتها على العصمة ، فتظهر إذا إطلعنا على أن المراد من الرجس هو القذارة المعنوية لا المادية ، توضيح ذلك ، إن الرجس في اللغة هو القذر^(٤) ، وقد يعبر به عن الحرام ، والفعل القبيح ، والعذاب ، واللعن ، والكفر ، قال الزجاج : « الرُّجْس - في اللغة - كل ما استقذر من عمل ، فبالغ الله في ذمّ أشياء وسماها رَجْساً » . وقال ابن الكلبي : « رجس من عمل الشيطان ، أي مآثم »^(٥) .

والمتفحص في كلمات أئمة أهل اللغة ، والآيات الواردة فيها تلك اللفظة ، يصل إلى أنها موضوعة للقذارة التي تنتفر منها النفوس ، سواء أكانت مادية كما في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ ، فَإِنَّهُ رَجْسٌ ﴾^(٦) ، أو معنوية كما في الكافر وعابد الوثن ، وصنمه ، قال سبحانه : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرُّجُسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾^(٧) .

= للشيخ الطبرسي ، (ت ٤٧١ - ٥٤٨) ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ . ورياض السالكين ، للسيد علي المدني (م ١١١٨) ، الروضة ٤٧ ، ص ٤٩٧ .

- (١) سورة القصص : الآية ٥ .
- (٢) سورة الأنفال : الآية ٧ .
- (٣) سورة المائدة : الآية ٤١ .
- (٤) مقاييس اللغة ، ج ٢ ، ص ٤٩٠ ، ولسان العرب ج ٦ ص ٩٤ .
- (٥) لسان العرب ، ج ٦ ، ص ٩٤ .
- (٦) سورة الأنعام : الآية ١٤٥ .
- (٧) سورة الحج ٣٠ الآية ٣٠ .

وقال سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(١) .

فلو وصف العمل القبيح بالرجس ، فلأنه عمل قدر ، تنتفر منه الطباع السليمة .

وعلى ضوء هذا ، فالمراد من الرجس في الآية ، كل عمل قبيح عرفاً أو شرعاً ، لا تقبله الطباع ، ولذلك قال سبحانه بعد تلك اللفظة ، ﴿ وَيُطَهِّرْكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ، فليس المراد من التطهير ، إلا تطهيرهم من الرجس المعنوي الذي تُعدُّ المعاصي والمآثم من أظهر مصاديقه .

وقد ورد نظير الآية في حق السيدة مريم قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾^(٢) .

ومن المعلوم أنَّ تَعَلُّقَ الإرادة التكوينية على إذهاب كل رجس وقذارة ، وكل عمل مُنْفَرِ عرفاً أو شرعاً ، يجعل مَنْ تَعَلَّقَتْ بِهِ الإرادة ، إنساناً مثالياً ، نزيهاً عن كل عَيْبٍ وَشَيْنٍ ، ووصمة عار^(٣) .

* * *

إلى هنا ظهر بوضوح أنَّ العصمة شرطٌ للإمام بالمعنى الذي يتبناه الإمامية في مجال الإمامة ، والآيتان الأوليان تدلّان على عصمة الإمام مطلقاً ، والآية الثالثة تدلّ على عصمة أهل البيت الذين نزلت فيهم الآية وَفُسِّرَتْ في غير واحدٍ من الروايات ، وهم مَنْ كان إماماً وخليفةً للرسول كعلي والحسّنين عليهما السلام ، ومن كانت طاهرةً مُطَهَّرَةً كالسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام ، وإن لم تكن إماماً .

* * *

بقيت هنا أبحاث موجودة في كتب الإمامة للشيعّة الإمامية ، طوينا البحث

(١) سورة الأنعام ١٢٥ الآية .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٤٢ .

(٣) وحول الآية أبحاث لطيفة ، فمن أراد التبسّط فليرجع إلى المصدر الذي تقدّم الإيعاز إليه .

عنها ، لعدم الحاجة إلى البحث فيها بعد انتشار هذه الكتب وذيوها وهي عبارة عن الأبحاث التالية :

- ١ - البحث عن الآيات الواردة في حق الإمام علي عليه السلام .
 - ٢ - البحث عن الفضائل والمناقب الواردة في حقّه على لسان النبي الأكرم ،^١ ونقلها أصحاب الصحاح والمسانيد .
 - ٣ - نفسيات الإمام وفضائله الأخلاقية التي اعترف بها التاريخ .
 - ٤ - كونه أعلم الصحابة وأوعاهم بالكتاب والسنة ، وقد كان الخلفاء يحتكمون إليه في مواضع لا تحصى .
 - ٥ - احتجاجاته على كونه أحقّ بهذا الأمر (خلافة الرسول) ثمّ تسنموا منصة الخلافة .
- ومن أراد التبسّط في هذه المواضع ، فعليه بالكتب المعدة للإمامة^(١) .

* * *

(١) لاحظ الشافعي للسيد المرتضى (م ٤٣٦) ، وتلخيصه لتلميذه الشيخ الطوسي (م ٤٦٠) ، ونهج الحق وكشف الصدق للعلامة الحلي ، (م ٧٢٦) ، وإحقاق الحق للقاضي التستري ، (م ١٠١٩) ، ودلائل الصدق للمظفر النجفي . وغيرها من مؤلفات كبار ورسائل صغار .

البحث الرابع

الإمام المنتظر في الكتاب والسنة

قد تعرفت على عدد الأئمة وأسمائهم ، غير أن إفاضة القول في خصوصياتهم ، وعلومهم وفضائلهم ، ونتائج جهودهم في مجال العلم والفقه والحديث ، ومن ربّوه وأنتجوه من الرواة الوعاة ، وما لاقوه من اضطهاد خلفاء عصرهم ، يحتاج إلى تأليف حافل .

ولأجل ذلك طوينا الصفح عن هذه المباحث ، إلا أن الاعتقاد بالإمام المنتظر ، مهدي هذه الأمة ، لما كان أصلاً رصيناً في أبحاث الإمامة للشيعة ، وكان الاعتقاد به أمراً مشتركاً بين طوائف المسلمين ، رجّحنا إلقاء الضوء على هذا الأصل على وجه الإجمال ، ولا طريق لإثبات وجوده ، وولادته ، وعمره ، وظهوره ، وآثاره بعد الظهور ، وأصحابه ، إلا السمع ، فنقول :

كلُّ من كان له إلمام بالحديث يقف على تواتر البشارة ، عن النبي وآله وأصحابه ، بظهور المهدي في آخر الزمان لإزالة الجهل والظلم والجور ، ونشر أعلام العلم ، والعَدْل وإعلاء كلمة الحق ، وإظهار الدين كلّهُ ولو كره المشركون ، فهو بإذن الله تعالى ينجي العالم من ذلّ العبودية لغير الله ، ويلغي الأخلاق والعادات الذميمة ، ويبطل القوانين الكافرة التي سنّها الأهواء ، ووضعها يد بني البشر ، ويقطع أواصر التعصبات القومية والعنصرية ، والوطنية ، ويميت أسباب العداوة والبغضاء التي صارت سبباً لاختلاف الأمة

وافتراق الكلمة ، واشتعال نيران الفتن والمنازعات ، ويحقق الله سبحانه بظهوره ، وعده الذي وعد به المؤمنين بقوله :

١ - ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) .

٢ - ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٢) .

٣ - ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (٣) .

ويأتي عصر ذهبي لا يبقى فيه على الأرض بيت إلا دخلته كلمة الإسلام ، ولا تبقى قرية إلا وينادي فيها بشهادة : « لا إله إلا الله » ، بكرة وعشيا .

هذا ما اتفق عليه المسلمون في الصدر الأول ، والأزمة المتلاحقة ، ولأجل ذلك استغل بعض المتهوسين قضية الإمام المهدي ، فادعوا المهدوية ، ولم نعهذ أحداً ردهً بإنكار أصل هذه البشائر ، وإنما ناقشوه في الخصوصيات وعدم انطباق البشائر عليه (٤) .

(١) سورة النور : الآية ٥٥ .

(٢) سورة القصص : الآية ٥ .

(٣) سورة الأنبياء . الآية ١٥٠ .

(٤) وقد ألف غير واحد من أعلام السنة كتباً حول الإمام المهدي عليه السلام ، كالحافظ أبي نعيم الأصفهاني له كتاب : « صفة المهدي » ، والكنجي الشافعي له : « البيان في أخبار صاحب الزمان » ، وملاً علي المتقي له : « البرهان في علامات مهدي آخر الزمان » ، وعباد بن يعقوب الرواجني له : « أخبار المهدي » ، والسيوطي له : « العرف الوردي في أخبار المهدي » ، وابن حجر له : « القول المختصر في علامات المهدي المنتظر » ، والشيخ جمال الدين الدمشقي له : « عقد الدرر في أخبار الإمام المنتظر » ، وغيرهم قديماً وحديثاً .
ولم ير التضعيف لأخبار الإمام المهدي إلا من ابن خلدون في مقدمته ، وقد فند مقاله الأستاذ أحمد =

وقد تضافر مضمون قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم : « لولم يَبْقَ من الدُّنيا إلَّا يومٌ واحد ، لَطَوَّلَ الله ذلك اليوم ، حتى يخرج رجل من ولدي ، فيملؤها عدلاً وقسطاً ، كما ملئت جوراً وظلماً »^(١) .

وقد عرفت أنَّ بحث المهدي بحث نقلي لا يمتُّ إلى العقل بصلة ، فعلى من يريد اعتناقه ، أو - والعياذ بالله - ردّه ورفضه ، الرجوع إلى الصحاح والمسانيد ، وكتب الحديث والتاريخ ، حتى يقف على عدد الروايات الواردة حول المهدي عليه السلام ، في مجالات مختلفة ، وها نحن نأتي في المقام بفهرس الروايات التي رواها السُنَّة والشيعَة .

فَنَقُولُ :

- ١ - الروايات التي تُبَشِّرُ بظهوره ٦٥٧ رواية .
- ٢ - الروايات التي تصفه بأنّه من أهل بيت النبي الأكرم ٣٨٩ رواية .
- ٣ - الروايات التي تدلّ على أنّه من أولاد الإمام علي عليه السلام ٢١٤ رواية .
- ٤ - الروايات التي تدلّ على أنّه من أولاد فاطمة عليها السلام بنت النبي ١٩٢ رواية .
- ٥ - الروايات التي تدلّ على أنّه التاسع من أولاد الحسين عليه السلام ١٤٨ رواية .
- ٦ - الروايات التي تدلّ على أنّه من أولاد الإمام زين العابدين عليه السلام ١٨٥ رواية .
- ٧ - الروايات التي تدلّ على أنّه من أولاد الإمام الحسن العسكري عليه السلام ١٤٦ رواية .
- ٨ - الروايات التي تبين آباء الإمام الحسن العسكري عليه السلام ١٤٧ رواية .
- ٩ - الروايات التي تدلّ على أنّه يملأ العالم قسطاً وعدلاً . ١٣٢ رواية .

= محمد صديق برسالة أسماها : « إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون » ، وأخيراً نشر شخص يُدعى أحمد المصري رسالة أسماها : « المهدي والمهدوية » ، قام - بزعمه - برّد أحاديث المهدي ، وأنكر تلك الأحاديث الهائلة البالغة فوق حدّ التواتر ، جهلاً منه بالسُنَّة والحديث .
(١) لاحظ مسند أحمد ، ج ١ ، ص ٩٩ . وج ٣ ، ص ١٧ و ٧٠ .

- ١٠ - الروايات التي تدل على أنّ للإمام المهدي غيبة طويلة . ٩١ رواية .
 ١١ - الروايات التي تدل على أنّه يعمر عمراً طويلاً . ٣١٨ رواية .
 ١٢ - الروايات التي تدل على أنّ الإسلام يعمر العالم كله
 بعد ظهوره ٤٧ رواية .
 ١٣ - الروايات التي تدل على أنّه الإمام الثاني عشر من
 أئمة أهل البيت ١٣٦ رواية .
 ١٤ - الروايات الواردة حول ولادته . ٢١٤ رواية .

ولو وجد هنا خلافاً بين أكثر السنّة ، والشيعّة ، فهو الاختلاف في ولادته ، فإنّ الأكثرية من أهل السنّة يقولون بأنّه سيولد في آخر الزمان ، والشيعّة بفضل هذه الروايات ، تذهب إلى أنّه ولد في « سرّ من رأى » ، عام ٢٥٥ ، وغاب بأمر الله سبحانه سنة وفاة والده ، عام ٢٦٠ ، وهو يحيى حياة طبيعية كسائر الناس ، غير أنّ الناس يرونه ولا يعرفونه^(١) ، وسوف يظهره الله سبحانه لتحقيق عدله .

ولأجل أن يقف الباحث على نماذج من أحاديث المهدي في الصحاح والمسانيد ، نذكر بعضاً منها وهو نذر يسير من الأحاديث الكثيرة التي رواها المحدثون والحفاظ في كتبهم :

١ - روى الإمام أحمد في مسنده عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال :
 « لو لم يبق من الدهر إلّا يوم واحد ، لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً ، كما ملئت جوراً »^(٢) .

٢ - أخرج أبو داود ، عن عبد الله بن مسعود قال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « لا تذهب - أو لا تنقضي - الدنيا حتى يملك العرب رجلاً من أهل بيتي يواطيه اسمه اسمي »^(٣) .

(١) وأما ما يلهج به بعض النواصب الأعداء ، من أنّ الشيعة تذهب إلى غيبته في السرداب في سامراء ، فهو من الأكاذيب التي ليس لها أصل أبداً ، لا في الكتب ، ولا في صدور العوام ، وإنما افتعلوه إزدراءً بالعقيدة .

(٢) مسند أحمد ، ج ١ ، ص ٩٩ ، وج ٣ ، ص ١٧ و ٧٠ .

(٣) جامع الأصول ، ج ١١ ، ص ٤٨ ، الرقم ٧٨١٠ .

٣ - أخرج أبو داود عن أم سلمة رضي الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : المهديُّ من عترتي من وُلد فاطمة ^(١) .

٤ - أخرج الترمذي عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يلي رجلٌ من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي » . قال : وقال أبو هريرة : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ، لطوّل الله ذلك اليوم حتى يلي » ^(٢)

٥ - روى ابن ماجه في سننه عن أبي أمامة الباهلي ، قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن الدجال ، وحذرناه ، فكان من قوله : إنّه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم ، أعظم من فتنة الدجال . . . إلى أن قال : « وإمامهم رجل صالح ، فيينا إمامهم قد تقدم ليصلي بهم الصبح ، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم ، فرجع ذلك الإمام ينكص يمشي القهقري ، ليقدم عيسى يصلي بالناس ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول له : تقدّم فصلٌ ، فإنّها لك أقيمت . فيصلي بهم إمامهم . . » (الحديث) ^(٣) .

وسيجيء ذكر ما رواه البخاري ومسلم فيما يأتي .

قال بعض المحققين المعاصرين من أهل السنّة : « لا أرى لزماً علينا نحن المسلمين أن نربط ديننا بهما (صحيحي مسلم والبخاري) ، فلنفرض أنّهما لم يكونا ، فهل تشل حركتنا وتتوقف دورتنا ؟ . لا ، فالأمة بخير والحمد لله ، والذين جاؤوا بعد البخاري ومسلم استدرکوا عليهما ، واستكملوا جهدهما ، ووزنوا عملهما ، وكشفوا بعض الخلاف في صحيحهما ، وما زال المحدثون في تقدم علمي ، وبحث وتحقيق ، ودراسة وجمع ، ومقارنة وتمحيص ، حتى يغمر الضوء كل مجهول ، ويظهر كل خفي .

(١) المصدر السابق ، ص ٤٩ ، الرقم ٧٨١٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٨ ، الرقم ٧٨١٠ .

(٣) س. ابن ماجه ، ج ٢ ، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ، ص ٥١٢ - ٥١٥ ، وكنز العمال ، ج ١٤ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٦ ، الرقم ٣٨٧٤٢ .

ولماذا نردّ حديثنا لمجرد أن قيل في بعض رواته أنه لين ، أو ضعيف ، أو منقطع ، أو مرسل ، أو . . . ؟ .

نعم ، هذه علل ، تثير الشك والتساؤل ، وتدفع إلى زيادة البحث والتعمق ، ولكن - كما أعتقد - إن بعض علل الحديث لا تلزم بالرد لهذا الحديث ، فكثيراً ما نجد في بعض الطرق ضعفاً ، وفي بعضها قوةً ، فهو صحيح من طريق ، حسن أو ضعيف من أخرى ، ومعنى هذا أن الراوي الذي حكم عليه مثلاً بأنه ينسئ ، تبين أنه في هذه الواقعة لم ينسئ ، فجاءت روايته مؤيدة بما جاء عن غيره .

وأحاديث المهدي - في نظري - من هذا النوع ، ولو بعضها . رغم أن بعض المسلمين - كابن خلدون - قد بالغ وضعفها كلها ، وردّها وحكم عليها حكماً قاسياً ، واتهم كل هؤلاء الرواة ومن رروا عنهم بما لا يليق أن يُظنّ فيهم .

إن المشكلة ليست مشكلة حديث أو حديثين ، أو راوٍ أو راويين ، إنها مجموعة من الأحاديث والآثار تبلغ الثمانين تقريباً ، اجتمع على تناقلها مئات الرواة ، وأكثر من صاحب كتاب صحيح .

فلماذا نردّ كل هذه الكمية ؟ أكلها فاسدة ؟ . لو صحّ هذا الحكم لانهار الدين - والعياذ بالله - نتيجة تطرّق الشك والظن الفاسد إلى ما عداها من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله .

ثم إنّي لا أجد خلافاً حول ظهور المهدي ، أو حول حاجة العالم إليه ، وإنما الخلاف حول من هو ، حسني ، أو حسيني ؟ سيكون في آخر الزمان ، أو موجود الآن ، خفي وسيظهر ؟ ظهر أو سيظهر ؟ . ولا عبرة بالمدّعين الكاذبين ، فليس لهم اعتبار .

ثم إنّي لم أجد مناقشة موضوعية في متن الأحاديث ، والذي أجده إنما هو مناقشة وخلاف حول السند ، وإتصاله أو عدم اتّصاله ، ودرجة رواته ، ومن خرّجوه ، ومن قالوا فيه .

وإذا نظرنا إلى ظهور المهدي ، نظرة مجردة ، فإننا لا نجد حرجاً من قبولها وتصديقها ، أو على الأقل عدم رفضها .

فإذا ما تأيّد ذلك بالأدلة الكثيرة ، والأحاديث المتعددة ، ورواتها مسلمون مؤتمنون ، والكتب التي نقلتها إلينا كتب قيمة ، والترمذي من رجال التخريج والحكم ، بالإضافة إلى أنّ أحاديث المهدي لها ما يصحّ أن يكون سنداً لها في البخاري ومسلم ، كحديث جابر في مسلم الذي فيه : « فيقول أميرهم (أي لعيسى) تعال صل بنا »^(١) وحديث أبي هريرة في البخاري ، وفيه : « كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم وإمامكم منكم »^(٢) ، فلا مانع من أن يكون هذا الأمير ، وهذا الإمام هو المهدي .

يضاف إلى هذا أنّ كثيراً من السلف رضي الله عنهم ، لم يعارضوا هذا القول ، بل جاءت شروحاتهم وتقريراتهم موافقة لإثبات هذه العقيدة عند المسلمين^(٣) .

* * *

(١) صحيح مسلم ، ج ١ ، باب نزول عيسى ، ص ٩٥ . وفيه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى ، فيقول أميرهم : تعال صل لنا ، فيقول : لا ، إنّ بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله هذه الأمة .

ولاحظ كنز العمال ، ج ١٤ ، ص ٣٣٤ ، الرقم ٣٨٨٤٦ .

(٢) صحيح البخاري ، ج ٤ ، باب نزول عيسى بن مريم عليه السلام ، ص ١٦٨ . وصحيح مسلم ، ج ١ ، باب نزول عيسى ، ص ٩٤ ، وكنز العمال ، ج ١٤ ، ص ٣٣٤ ، الرقم ٣٨٨٤٥ .

(٣) بين يدي الساعة للدكتور عبد الباقي ، ص ١٢٣ - ١٢٥ .

أسئلة حول المهدي المنتظر عليه السلام

- ١ - كيف يكون إماماً وهو غائب ؟
- ٢ - لماذا غاب المهدي عليه السلام ؟ .
- ٣ - الإمام المهدي وطول عمره .
- ٤ - علائم ظهوره ، ما هي ؟ .

أسئلة مهمة حول المهدي عجل الله تعالى فرجه

إنّ القول بأنّ الإمام المهدي لما يزال حي يرزق منذ ولادته عام ٢٥٥ هجرية إلى الآن ، وأنّه غائب سوف يظهر بأمر من الله سبحانه ، أثار أسئلة حول حياته وإمامته ، نذكر رؤوسها .

١ - كيف يكون إماماً وهو غائب ، وما الفائدة المترتبة منه في غيبته ؟ .

٢ - لماذا غاب ؟ .

٣ - كيف يمكن أن يعيش إنسان هذه المدة الطويلة ؟ .

٤ - ما هي أعراض وعلائم ظهوره ؟ .

هذه أسئلة أثّرت حول الإمام المهدي منذ أن غاب ، وكلّما طالت غيبته اشتدّ التركيز عليها ، وقد قام المحققون من علماء الإمامية بالإجابة عليها في مؤلّفات مستقلة لا مجال لنقل معشار ما جاء فيها ، غير أنّ الإحالة لما كانت عن المحذور غير خالية ، نبحت عنها على وجه الإجمال ، ونحيل من أراد التبسّط إلى المصادر المؤلّفة في هذا المجال .

* * *

السؤال الأول

كيف يكون إماماً وهو غائب ؟ وما فائدته ؟

إن القيادة والهداية والقيام بوظائف الإمامة ، هو الغاية من تنصيب الإمام ، أو اختياره ، وهو يتوقف على كونه ظاهراً بين أبناء الأمة ، مشاهداً لهم ، فكيف يكون إماماً قائداً ، وهو غائب عنهم ؟ ! .

والجواب : على وجهين نقضاً وحلاً .

أما النقض ، فإن التركيز على هذا السؤال يعرب عن عدم التعرف على أولياء الله ، وأنهم بين ظاهر قائم بالأمور ومُخْتَفٍ قائم بها من دون أن يعرفه الناس .

إن كتاب الله العزيز يعرفنا على وجود نوعين من الأئمة والأولياء والقادة للأمة ، وليّ غائب مستور ، لا يعرفه حتى نبي زمانه ، كما يخبر سبحانه عن مصاحب موسى عليه السلام بقوله : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ * قال له موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رَشْدًا ﴿ الآيات (١) .

وولي ظاهر باسط اليد ، تعرفه الأمة وتقتدي به .

فالقرآن إذن يدل على أن الولي ربما يكون غائباً ، ولكنه مع ذلك لا يعيش في

(١) سورة الكهف : الآيات ٦٥ - ٨٢ .

غفلة عن أمته ، بل يتصرف في مصالحها ويرعى شؤونها ، من دون أن يعرفه أبناء الأمة .

فعلى ضوء الكتاب الكريم ، يصحّ لنا أن نقول بأنّ الولي إما ولي حاضر مشاهد ، أو غائب محجوب .

وإلى ذلك يشير الإمام علي بن أبي طالب في كلامه لكميل بن زياد النخعي ، يقول كميل : « أَخَذَ بِيَدِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَخْرَجَنِي إِلَى الْجَبَانِ ، فَلَمَّا أَصْحَرَ ، تَنَفَّسَ الصَّعْدَاءُ ، وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ : « اللَّهُمَّ بَلِّ ، لَا تَخْلُو الْأَرْضَ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ ، إِمَّا ظَاهِرًا مَشْهُورًا ، أَوْ خَائِفًا مَغْمُورًا لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَّةُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ » (١) .

وليست غيبة الإمام المهدي ، بدّعا في تاريخ الأولياء ، فهذا موسى بن عمران ، قد غاب عن قومه قرابة أربعين يوما ، وكان نبيا وليا ، يقول سبحانه : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .

وهذا يونس كان من أنبياء الله سبحانه ، ومع ذلك فقد غاب في الظلمات كما يقول سبحانه : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

أولم يكن موسى ، ويونس نبيين من أنبياء الله سبحانه ؟ وما فائدة نبي يغيب عن الأبصار ، ويعيش بعيدا عن قومه ؟ .

فالجواب في هذا المقام ، هو الجواب في الإمام المهدي عليه السلام ، وسيوافيك ما يفيدك ، من الانتفاع بوجود الإمام الغائب في زمان غيبته في جواب السؤال التالي .

(١) نهج البلاغة بتعليقات عبده ، ج ٤ ، ص ٣٧ ، قصار الحكم ، الرقم ١٤٧ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٤٢ .

(٣) سورة الأنبياء : الآيتان ٨٧ - ٨٨ .

أما الحلّ فمن وجوه :

الأول - إنّ عدم علمنا بفائدة وجوده في زمان غيبته ، لا يدلّ على عدم كونه مفيداً في زمن غيبته ، فالسائل جعل عدم العلم ، طريقاً إلى العلم بالعدم !! وكم لهذا السؤال من نظائر في التشريع الإسلامي ، فيقيم البسطاء عدم العلم بالفائدة ، مقام العلم بعدمها ، وهذا من أعظم الجهل في تحليل المسائل العلمية ، ولا شك أنّ عقول البشر لا تصل إلى كثير من الأمور المهمة في عالم التكوين والتشريع ، بل لا يفهم مصلحة كثير من سننه ، وإن كان فعله سبحانه منزهاً عن العبث ، بعيداً عن اللغو .

وعلى ذلك فيجب علينا التسليم أمام التشريع إذا وصل إلينا بصورة صحيحة ، كما عرفت من تواتر الروايات على غيبته .

الثاني : إنّ الغيبة لا تلازم عدم التصرف في الأمور ، وعدم الاستفادة من وجوده ، فهذا مصاحب موسى كان ولياً ، لجأ إليه ، أكبر أنبياء الله في عصره ، فقد خرق السفينة التي يمتلكها المستضعفون ، ليصونها عن غضب الملك ، ولم يعلم أصحاب السفينة بتصرفه ، وإلاّ لصدّوه عن الخرق ، جهلاً منهم بغاية عمله . كما أنّه بنى الجدار ، ليصون كنز اليتيم ، فأبي مانع ، حينئذٍ من أن يكون للإمام الغائب في كل يوم وليلة تصرفاً من هذا النمط من التصرفات . ويؤيد ذلك ما دلّت عليه الروايات من أنّه يحضر الموسم في أشهر الحج ، ويحجّ ويصاحب الناس ، ويحضر المجالس ، كما دلّت على أنّه يغيب المضطرين ، ويعود المرضى ، وربما يتكفل - بنفسه الشريفة - قضاء حوائجهم ، وإن كان الناس لا يعرفونه .

الثالث : المسلم هو عدم إمكان وصول عموم الناس إليه في غيبته ، وأما عدم وصول الخواص إليه ، فليس بأمر مسلم ، بل الذي دلّت عليه الروايات خلافه ، فالصلحاء من الأمة ، الذين يستدرون بهم الغمام ، لهم الشرف بلقائه ، والاستفادة من نور وجوده ، وبالتالي ، تستفيد الأمة بواسطتهم .

الرابع : لا يجب على الإمام أن يتولّى التصرف في الأمور الظاهرية بنفسه ،

بل له توليةٌ غيرِه على التصرف في الأمور كما فعل الإمام المهدي ، أرواحنا له
الفداء ، في غيَّته . ففي الغيبة الصغرى ، كان له وكلاء أربعة ، يقومون بحوائج
الناس ، وكانت الصلة بينه وبين الناس مستمرة بهم . وفي الغيبة الكبرى نصب
الفقهاء والعلماء العدول العالمين بالأحكام ، للقضاء وإجراء سياسات ، وإقامة
الحدود ، وجعلهم حجةً على الناس ، فهم يقومون في عصر الغيبة بصيانة الشرع
عن التحريف ، وبيان الأحكام ، ودفع الشبهات ، وبكل ما يوقف عليه نظمُ
أُمور الناس^(١) .

وإلى هذه الأجوبة أشار الإمام المهدي عليه السلام في آخر توقيع له إلى
بعض نوابه ، بقوله : « وأما وجه الإنتفاع بي في غيَّتي ، فكالإنتفاع بالشمس إذا
غَيَّها عن الأبصار ، السحاب »^(٢) .



(١) المراد من الغيبة الصغرى ، غيبته صلوات الله عليه ، منذ وفاة والده عام ٢٦٠ إلى عام ٣٢٩ ، وقد
كانت الصلة بينه وبين الناس مستمرة بواسطة وكلائه الأربعة : الشيخ أبي عمرو عثمان بن سعيد
العمري ، وولده الشيخ أبي جعفر محمد بن عثمان ، والشيخ أبي القاسم الحسين بن روح من بني
نوبخت ، والشيخ أبي الحسن علي بن محمد السُّمري .

والمراد من الغيبة الكبرى ، غيبته من تلك السنة إلى زماننا هذا ، انقطعت فيها النيابة الخاصة عن
طريق أشخاص معينين ، وحلَّ محلَّها النيابة العامة بواسطة الفقهاء والعلماء العدول ، كما جاء في
توقيعه الشريف : « وأما الحوادث العامة ، فارجعوا فيها إلى رواية أحاديثنا ، فإنهم حجتي
عليكم ، وأنا حجة الله عليهم » . (كمال الدين ، الباب ٤٥ ، ص ٤٨٤) .

(٢) كمال الدين ، للصدوق ، الباب ٤٥ ، الحديث ٤ ، ص ٤٨٥ . وقد ذكر العلامة المجلسي في وجه
تشبيهه بالشمس إذا سترها السحاب ، وجوهاً ، راجعها في بحار الأنوار ، ج ٥٢ ، الباب ٢٠ ،
ص ٩٣ - ٩٤ .

السؤال الثاني

لماذا غاب المهدي عليه السلام ؟

إنَّ ظهور الإمام بين الناس ، يترتب عليه من الفائدة ما لا يترتب عليه في زمان الغيبة ، فلماذا غاب عن الناس ، حتى حرموا من الاستفادة من وجوده ، وما هي المصلحة التي أخفته عن أعين الناس ؟ .

الجواب

إنَّ هذا السؤال يجاب عليه بالنقض والحل :

أما النقص ، فيها ذكرناه في الإجابة عن السؤال الأول ، فإنَّ قصور عقولنا عن إدراك أسباب غيبته ، لا يجرنا إلى إنكار المتضافرات من الروايات ، فالإعتراف بقصور أفهامنا أولى من ردِّ الروايات المتواترة ، بل هو المتعين .

وأما الحل ، فإنَّ أسباب غيبته ، واضحة لمن أفطن فيما ورد حولها من الروايات ، فإنَّ الإمام المهدي عليه السلام هو آخر الأئمة الإثني عشر الذين وعد بهم الرسول ، وأناط عزة الإسلام بهم ، ومن المعلوم أنَّ الحكومات الإسلامية لم تُقدِّرهم ، بل كانت لهم بالمرصاد ، تلقيهم في السجون ، وتريق دماءهم الطاهرة ، بالسيف أو السم ، فلو كان ظاهراً ، لأقدموا على قتله ، إطفاء لنوره ، فلاجل ذلك اقتضت المصلحة أن يكون مستوراً عن أعين الناس ، يراهم ويرونه ولكن لا يعرفونه ، إلى أن تقتضي مشيئة الله سبحانه ظهوره ، بعد حصول استعداد

خاص في العالم لقبوله ، والانضواء تحت لواء طاعته ، حتى يحقق الله تعالى به ما وعد به الأمم جمعاء من توريث الأرض للمستضعفين .

وقد ورد في بعض الروايات إشارة إلى هذه النكتة ، روى زرارة قال : سمعت أبا جعفر (الباقر عليه السلام) ، يقول : إنَّ للقائم غيبة قبل أن يقوم ، قال : قلت . ولم ؟ . قال : يخاف . قال زرارة : يعني القتل .

وفي رواية أخرى : يخاف على نفسه الذبح^(١) .

وسيوافيك ما يفيدك عند الكلام عن علائم ظهوره .

* * *

(١) لاحظ كمال الدين ، الباب ٤٤ ، الحديث ٨ و ٩ و ١٠ ، ص ٢٨١ .

السؤال الثالث

الإمام المهدي وطول عمره

إنّ من الأسئلة المطروحة حول الإمام المهدي ، طول عمره في فترة غيبته ، فإنّه ولد عام ٢٥٥ ، فيكون عمره إلى الأعصار الحاضرة أكثر من ألف ومائة وخمسين عاماً ، فهل يمكن في منطق العلم أن يعيش إنسان هذا العمر الطويل ؟ .

والجواب

من وجهين ، نقضاً وجلاً .

أما النقض ، فقد دلّ الذكر الحكيم على أن شيخ الأنبياء عاش قرابة ألف سنة ، قال تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾^(١) .

وقد تضمنت التوراة أسماء جماعة كثيرة من المعمرين ، وذكرت أحوالهم في سفر التكوين^(٢) .

وقد قام المسلمون بتأليف كتب حول المعمرين ، ككتاب المعمرين لأبي حاتم السجستاني ، كما ذكر الصدوق أسماء عدّة منهم في كتاب كمال الدين^(٣) ، والعلامة

(١) سورة العنكبوت . الآية ١٤ .

(٢) التوراة ، سفر التكوين ، الإصحاح الخامس ، الجملة ٥ ، وذكر هناك أعمار آدم ، وشيث ونوح ، وغيرهم .

(٣) كمال الدين ، ص ٥٥٥ .

الكراجكي في رسالته الخاصة ، باسم « البرهان على صحة طول عمر الإمام صاحب الزمان »^(١) ، والعلامة المجلسي في البحار^(٢) ، وغيرهم .

وأما الحلّ ، فإنّ السؤال عن إمكان طول العمر ، يعرب عن عدم التعرّف على سعة قدرة الله سبحانه : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾^(٣) ، فإنّه إذا كانت حياته وعيّته وسائر شؤونه ، برعاية الله سبحانه ، فأبي مشكلة في أن يمّد الله سبحانه في عمره ما شاء ، ويدفع عنه عوادي المرض ويرزقه عيش الهناء .

وبعبارة أخرى ، إنّ الحياة الطويلة ، إمّا ممكنة في حدّ ذاتها أو ممتنعة ، والثاني لم يقل به أحد ، فتعين الأول ، فلا مانع من أن يقوم سبحانه بمدّ عمر وليّه ، لتحقيق غرض من أغراض التشريع .

أضف إلى ذلك ما ثبت في علم الحياة ، من إمكان طول عمر الإنسان إذا كان مراعيّاً لقواعد حفظ الصحة ، وأنّ موت الإنسان في فترة متدنية ، ليس لقصور الإقتضاء ، بل لعوارض تمنع عن استمرار الحياة ، ولو أمكن تحصين الإنسان منها بالأدوية والمعالجات الخاصة لطال عمره ما شاء .

وهناك كلمات ضافية من مهرة علم الطب في إمكان إطالة العمر ، وتمديد حياة البشر ، نشرت في الكتب والمجلات العلمية المختلفة^(٤) .

وبالجملة ، اتّفقت كلمة الأطباء على أنّ رعاية أصول حفظ الصحة ، توجب طول العمر ، فكلما كثرت العناية برعاية تلك الأصول ، طال العمر ، ولأجل ذلك ، نرى أنّ الوفيات في هذا الزمان ، في بعض المبالك ، أقلّ من السابق ، والمعمّرين فيها أكثر من ذي قبل ، وما هو إلا لرعاية أصول الصحة ، ومن هنا أسّست شركات تضمن حياة الإنسان إلى أمد معلوم تحت مقررات خاصة

(١) البرهان على طول عمر الإمام صاحب الزمان ، للكراجكي ، ملحق بـ « كنز الفوائد » ، له أيضاً ، الجزء الثاني . لاحظ في ذكر المعمرين ص ١١٤ - ١٥٥ ، ط دار الاضواء ، بيروت - ١٤٠٥ .

(٢) بحار الأنوار ، ج ٥١ ، الباب ١٤ ، ص ٢٢٥ - ٢٩٣ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٩١ .

(٤) لاحظ مجلة المقتطف ، الجزء الثالث من السنة التاسعة والخمسين .

وحدود معينة ، جارية على قوانين حفظ الصحة ، فلو فرض في حياة شخص إجتماع موجبات الصحة من كل وجه ، طال عمره إلى ما شاء الله .

وإذا قرأت ما تُدَوِّنه أقلام الأطباء في هذا المجال ، يتّضح لك معنى قوله سبحانه : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾^(١) .

فإذا كان عيش الإنسان في بطون الحيتان ، في أعماق المحيطات ، ممكناً إلى يوم البعث ، فكيف لا يعيش إنسان ، على اليابسة ، في أجواء طبيعية ، تحت رعاية الله وعنايته ، إلى ما شاء ؟ .

* * *

(١) سورة الصافات : الآيتان ١٤٣ و ١٤٤ .

السؤال الرابع

علائم ظهوره ، ما هي ؟

إذا كان للإمام الغائب ، ظهوراً بعد غيبة طويلة ، فلا بدّ من أن يكون لظهوره علائم وأشراف ، تخبر عن ظهوره ، فما هي هذه العلائم ؟ .

الجواب

إنّ ما جاء في كتب الأحاديث من الحوادث والفتن الواقعة في آخر الزمان على قسمين :

- قسم هو من أشراف الساعة وعلامات دنو القيامة .
- وقسم هو ما يقع قبل ظهور المهدي المنتظر .
- وربما وقع الخلط بينهما في الكتب ، ونحن نذكر القسم الثاني منهما ، وهو عبارة عن أمور عدّة ، منها :
- ١ - النداء في السماء .
- ٢ - الخسوف والكسوف في غير مواقعهما .
- ٣ - الشقاق والنفاق في المجتمع .
- ٤ - ذبوع الجور والظلم والهرج والمرج في الأُمّة .

٥ - ابتلاء الإنسان بالموت الأحمر والأبيض .

٦ - قتل النفس الزكية .

٧ - خروج الدجال .

٨ - خروج السفيناني .

وغير ذلك مما جاء في الأحاديث الإسلامية^(١) .

هذه هي علامات ظهوره ، ولكن هناك أموراً تمهّد لظهوره ، وتسهّل تحقيق أهدافه نشير إلى أبرزها :

١٠ - الإستعداد العالمي : والمراد منه أنّ المجتمع الإنساني - وبسبب شيوع الفساد - يصل إلى حدّ ، يقنط معه من تحقيق الإصلاح بيد البشر ، وعن طريق المنظمات العالمية التي تحمل عناوين مختلفة ، وأنّ ضغط الظلم والجور على الإنسان يحمله على أن يُدّعن ويُقرّ بأنّ الإصلاح لا يتحقق إلّا بظهور إعجاز إلهي ، وحضور قوة غيبية ، تدمر كل تلك التكتلات البشرية الفاسدة ، التي قيّدت بأسلاكها أعناق البشر .

٢ - تكامل العقول : إنّ الحكومة العالمية للإمام المهدي عليه السلام لا تتحقق بالحروب والنيران والتدمير الشامل للأعداء ، وإنّما تتحقق برغبة الناس إليها ، وتأييدهم لها ، لتكامل عقولهم ومعرفتهم .

يقول الإمام الباقر عليه السلام في حديث له يرشد فيه إلى أنّه إذا كان ذلك الطرف ، تجتمع عقول البشر وتكتمل أحلامهم : « إذا قام قائمنا ، وَضَعَ الله يده على رؤوس العباد ، فيجمع بها عقولهم ، تكتمل به أحلامهم »^(٢) .

فقوله عليه السلام : يجمع بها عقولهم ، بمعنى أنّ التكامل الاجتماعي يبلغ

(١) لاحظ في الوقوف على هذه العلائم ، بحار الأنوار ، ج ٥٢ ، الباب ٢٥ ، ص ١٨١ - ٣٠٨ .

كتاب المهدي ، للسيد صدر الدين الصدر (م ١٣٧٣) . ومنتخب الأثر ، ص ٤٢٤ - ٤٦٢ .

(٢) منتخب الأثر ، ص ٤٨٣ .

بالبشر إلى الحدّ الذي يَقْبَلُ فيه تلك الموهبة الإلهية ، ولن يترصد للثورة على الإمام والإنقلاب عليه ، وقتله أو سجنه .

٣ - تكامل الصناعات : إنّ الحكومة العالمية الموحّدة لا تتحقق إلّا بتكامل الصناعات البشرية ، بحيث يسمع العالم كلّ صوته ونداءه ، وتعاليمه وقوانينه في يومٍ واحدٍ ، وزمنٍ واحدٍ .

قال الإمام الصادق عليه السلام : « إنّ المؤمنَ في زمان القائم ، وهو بالشرق ، يرى أخاه الذي في المغرب ، وكذا الذي في المغرب يرى أخاه الذي بالشرق »^(١) .

٤ - الجيش الثوري العالمي ، إنّ حكومة الإمام المهدي عليه السلام ، وإن كانت قائمة على تكامل العقول ، ولكن الحكومة لا تستغني عن جيش فدائي ثائر وفعال ، يُمَهِّد الطريق للإمام عليه السلام ، ويواكبه بعد الظهور إلى تحقّق أهدافه وغاياته المتوخّاة .

إلى هنا تمّ البحث عن الإمامة ، بالصورة التي تلائم العصر ، وقد ركزنا على أهمّ الموضوعات ، وتركنا البحث عن غيرها إلى الكتب المُعَدَّة لها . ويقع البحث فيما يلي في المعاد ، وحشر الإنسان في النشأة الأخرى ، وهو الأصل الأصيل في الشرائع السماوية^(٢) .

* * *

(١) منتخب الأثر ، ص ٤٨٣ .

(٢) ومن حسن الحتام ، فراغنا من تدوين هذه المباحث ليلة الجمعة ، الخامس عشر من شهر رمضان المبارك ، عشية ولادة الإمام الطاهر الحسن بن علي بن أبي طالب ، أبي محمد المجتبى ، من شهر عام ١٣٠٩ للهجرة النبوية ، أسأله تعالى إدامة توفيقه لإخراج جميع ما تبقي من المباحث التي تدور حول معاد الإنسان .

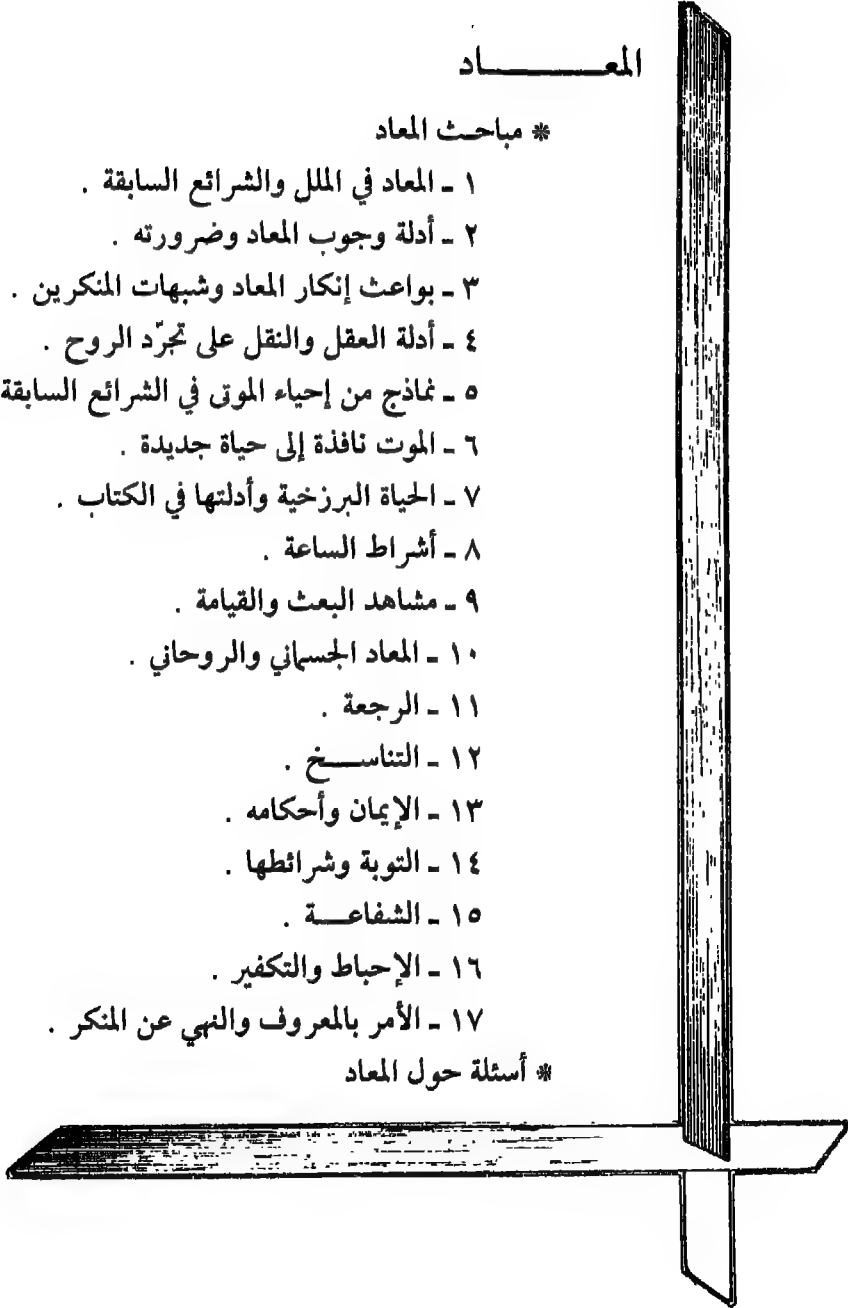
الفصل العاشر

المعاد

* مباحث المعاد

- ١ - المعاد في الملل والشرائع السابقة .
- ٢ - أدلة وجوب المعاد وضرورته .
- ٣ - بواعث إنكار المعاد وشبهات المنكرين .
- ٤ - أدلة العقل والنقل على تجرّد الروح .
- ٥ - نماذج من إحياء الموق في الشرائع السابقة .
- ٦ - الموت نافذة إلى حياة جديدة .
- ٧ - الحياة البرزخية وأدلتها في الكتاب .
- ٨ - أشرار الساعة .
- ٩ - مشاهد البعث والقيامة .
- ١٠ - المعاد الجسماني والروحاني .
- ١١ - الرجعة .
- ١٢ - التناسخ .
- ١٣ - الإيمان وأحكامه .
- ١٤ - التوبة وشرائطها .
- ١٥ - الشفاعة .
- ١٦ - الإحباط والتكفير .
- ١٧ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

* أسئلة حول المعاد



الفصل العاشر

المعاد

البحث عن المعاد وحشر الإنسان بعد الدنيا ، إجابة عن أحد الأسئلة التي طالما كان الإنسان المفكر يواجهها . فإنه مذ فتح عينيه على الحياة ، يسأل نفسه عن أمور :

١ - ما هو مبدأ العالم والإنسان ؟ .

٢ - ما هو الهدف من وجود الإنسان ؟ .

٣ - إلى أين المصير بعد الموت ؟ .

فالبحث عن الصانع ، إجابة عن السؤال الأول ، كما أنّ البحث عن كونه سبحانه حكيماً ، وأنّ فعله منزّه عن العيب ، إجابة عن الثاني ، وها هو حين البحث عن جواب السؤال الثالث ، وإجماله :

إنّ الموت ليس نهاية الحياة ، وإنّ الإنسان لا يفنى بموته ، وإنّما الموت جسرٌ لينتقل الإنسان عبره من نشأة إلى نشأة أخرى أكمل من الأولى ، وإنّ الإنسان خُلِقَ للبقاء ، لا للفناء ، وإنّ النشأة الأخروية ، تنتهي السير وغاية الغايات .

وتفصيل ذلك يتم في ضمن المباحث التالية :

* * *

مباحث المعاد

(١)

« المعاد » في الملل والشرائع السابقة

الإعتقاد بالمعاد عنصر أساسي في كل شريعة لها صلة بالسما ، ويحتل في الأصالة والتأثير محلّ العمود الفقري في بدن الإنسان ، وبدونه تصبح الشرائع مسالك بشرية مادية ، لا تمت إلى الله سبحانه بصلة . فقوام الشريعة بالمبدأ والمعاد ، ولأجل ذلك لا ترى شريعة تتسم بأنها شريعة إلهية ولو بعد تحريفها ، خالية عن الدعوة إلى الحياة الأخروية وحشر الإنسان بعد الموت ، وإقامة الحساب والجزاء والثواب والعقاب . وسبوا فيك نصوص العهدين في هذا المجال .

إنّ المحققين في التاريخ البشري يصرحون بأنّ المجتمع الإنساني لم يزل معتقداً لهذا الأصل ، وإن لم يعلم دينه ولا كتابه . وإليك التوضيح بوجوه :

١ - إنّ البدو القاطنين في الصحاري والبراري ، الذي يُعدّون نموذجاً للمجتمع البدائي المنقرض ، لهم طقوس خاصة في دفن الموق تدلّ على اعتقادهم بعودة الأرواح إلى الأجسام المدفونة ، ومن ذلك أنّهم يضعون حجارة كبيرة على صدور موتاهم ، ويربطون أعضاءهم بحبال متينة ، لئلا يتحركوا بعد عودالروح ويخرجوا من أماكنهم^(١) .

٢ - إنّ المصريين ، ذوو الحضارة القديمة ، كانوا يعتقدون أنّ الروح بعد

(١) جامع الأديان ، تأليف جان ناس ، ترجمة علي أصغر حكمت ، ص ١٧ .

خروجها من البدن ، لها علاقة به ، وسوف ترجع إليه ، ولذلك كانوا يتركون في القبور منافذ ليسهل دخول الروح إليها ، ويضعون بعض الطعام والشراب في جنب الميت . ولأجل صيانة الموتى عن أذى السباع ، قام المتمكنون منهم ببناء الأهرام العظيمة فوق قبورهم .

٣ - عند البراهمة تثليث تحيلوه منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، وأطرافه الثلاثة : برهما ، وفيشنو ، وسيفا . فبرهما هو الإله الخالق ، وفيشنو الإله الحافظ ، وسيفا الإله الهادم . والتناسخ احتلّ في الديانة البراهمية مكان الاعتقاد بالمعاد ، ويراد منه رجوع الروح بعد انحلال جسدها إلى العالم الأرضي متلبسةً بجسد جديد ، إنساني أو حيواني^(١) . فالاعتقاد بالتناسخ صورة منسوخة من العقيدة بالمعاد ، وإرضاء لفطرة الإنسان في حب البقاء .

٤ - إنّ مسلك البوذية الذي أسسه بوذا ، غير خال عن عود الأرواح إلى الأبدان عوداً تناسخياً ، فإنّ لهذا المذهب ، دعائم وأسس منها : « الألم من لوازم الوجود » ، ومنها : « الرجوع إلى هذه الدنيا بسبب الإلتيات بالشهوات في حياة سابقة » ، ومنها : « الخلاص من أثر الشهوات هو الوسيلة الوحيدة للنجاة من الحياة الأرضية بعد الموت ، وتلك النجاة هي نجاة من الألم ، وسبب للوصول إلى مكانة »^(٢) .

٥ - وعند المجوس أيضاً فإنّ الاعتقاد ببقاء الروح بعد الموت ومجازات الإنسان حسب أعماله ، من الأصول الأصيلة في ديانتهم ، حتى أنّ بعض المرجفين في الكلام^(٣) تصوّر أنّ تعاليم التوراة والمسيح في المعاد مأخوذة من تلك الديانة ، ولكن عذب عنه أنّ المجوسية ، إن كانت شريعة سماوية ، يجب أن تشترك مع سائر الشرائع في الأصول ، وليست وحدة الأصول فيها ، دليلاً على أخذ المتأخر من المتقدم ، فإنّ الشريعة فيض سماوي ، أفيض من السماء إلى الإنسان الأرضي في

(١) لاحظ دائرة المعارف لفريد وجدي ، ج ٢ ، ص ١٥٥ و ١٦١ .

(٢) دائرة المعارف لفريد وجدي ، ج ٢ ، ص ٣٨٨ .

(٣) الكاتب الفارسي حميد نيرنوري في كتابه : « مساهمة الإيرانيين في الحضارة العالمية » ، ص ٢٢٨ .

أزمنة خاصة حسب لياقته وكفاءته ، فاشتركت كل الشرائع في الأصول واختلفت في المنهاج .

هذا بعض ما يمكن أن نلفت النظر إليه في عمومية المعاد بين الأقوام والشعوب ، وقد اختصرنا الكلام فيه ، لأنَّ الأولى عطف النظر إلى الكتب السماوية ، المجموعة في العهدين وما ينقله القرآن الكريم لنرى تركيز الأنبياء في القرون السالفة على المعاد ، ونقتصر في المقام على موارد خاصة .

المعاد في العهد القديم

إنَّ من العجب أن التصريح بالحياة الأخروية في العهد العتيق قليل ، وأنَّ أكثر الوعود الواردة فيها على امثال فرائض الربِّ ، عائدة إلى رجوعهم إلى الأرض المقدسة ، وأنَّ فيها من النعم والبركات ما لا يحصى ، ولعلَّ يد التحريف حذفت ما دلَّ على الحياة الأخروية وأنَّ الإنسان يرى جزاء الأعمال وامثال الفرائض ، وارتكاب المحرمات ، في النشأة الأخرى ، وهذا هو الذي أضفى على مذهب اليهود صبغة مادية ، قلَّ التوجه فيها إلى الأمور المعنوية ، ومع ذلك كلَّه فقد بقي فيها جمل تُصرِّح بحشر الإنسان بعد الدنيا ، وإن كانت قليلة ، منها :

- « الربُّ يُميت ويُحيي »^(١) .

- « تحيا أمواتك يومَ تقومُ الجُثث ، إستيقظوا تَرْمُوا يا سُكَّانَ التُّراب »^(٢) .

نعم لا ننكر أنَّ في التوراة وغيرها جمل ربما تكون مشيرة إلى يوم البعث ، ولكنها ليست صريحة في ذلك .

المعاد في العهد الجديد

بالرغم من قلة التصريح بالحياة الأخروية في العهد العتيق ، نجد التصريح بها

(١) صموئيل الأول : الأصحاح الثاني : الجملة ٦ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٢) اشعيا : الأصحاح ٢٦ : الجملة ١٩ ، ط دار الكتاب المقدس .

بكل وضوح في الجديد ، في موارد كثيرة منها ما يلي :

١ - « فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه ، وملائكته ، وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله »^(١) .

٢ - « هكذا يكون في انقضاء العالم ، يخرج الملائكة ويفرزون الأشرار من بين الأبرار ، ويطرحونهم في أتون النار هناك يكون البكاء ، وصرير الأسنان »^(٢) .

٣ - « في ذلك اليوم جاء إليه حذقيون ، الذين يقولون ليس قيامة ، فسألوه * قائلين : يا معلم ، قال موسى إن مات أحدوليس له أولاد ، يتزوج أخوه بامرأته ، ويقيم نسلاً لأخيه * فكان عندنا سبعة أخوة وتزوج الأول ومات ، وإذ لم يكن له نسل ترك امرأته لأخيه ، وكذلك الثاني والثالث إلى السبعة * وآخر الكل ماتت المرأة أيضاً * ففي القيامة لمن من السبعة تكون الزوجة فإنها كانت للجميع * فأجاب يسوع ، وقال لهم : تضللون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله * لأنهم في القيامة ، لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء »^(٣) .

وهذا يعرب عن كون المعاد عند كاتب الإنجيل روحانياً محضاً ، لا جسمانياً وروحانياً كما عليه الذكر الحكيم .

٤ - « وإن أعثرتك رجلُك ، فاقطعها ، خير لك أن تدخل الحياة أعرج ، من أن تكون لك رجلان وتطرح في جهنم في النار التي لا تُطفأ * حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ * وإن أعثرتك عينُك فاقطعها ، خير لك أن تدخل ملكوت الله أعور من أن تكون لك عينان وتطرح في جهنم النار * حيث دودهم لا يموت والنار لا تُطفأ »^(٤) .

٥ - « وهذه مشيئة الأب الذي أرسلني ، إن كل ما أعطاني لا أُتلف منه شيئاً

(١) إنجيل متى : الأصحاح ١٦ : الجملة ٢٧ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٢) إنجيل متى : الأصحاح ١٣ : الجملتان ٤٩ و ٥٠ . ط دار الكتاب المقدس .

(٣) إنجيل متى : الأصحاح ٢٢ : الجملتان ٢٣ - ٣١ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٤) إنجيل مرقس : الأصحاح ٩ : لاحظ الجملات ٤٢ - ٤٩ ، ط دار الكتاب المقدس .

بل أقيم في اليوم الأخير* لأن هذه هي مشيئته الذي أرسلني إن كل من يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أقيم في اليوم الأخير»^(١).

هذا ، وفي العهدين جمل آخر تصرّح أو تشير إلى يوم القيامة ، وقد إقتصرننا علي ما ذكرنا رَومًا للإختصار ، والذي نلفت النظر إليه هو عدم اهتمام يهود اليوم ، والأمة المسيحية ، بالبعث ويوم القيامة وما فيها من الحساب والجزاء ، وهذا هو الذي أجراهم على المعاصي ، والخلاعة ، والإنحلال من كل القيم الأخلاقية ، أعاذنا الله من ذلك ، ولأجل عدم اهتمام البيع والكنائس باليوم الموعود ، صارت تلكم الأمتين ، يهودية ومسيحية بالهوية الدولية ، لا أكثر .

القرآن والمعاد في الشرائع السماوية

قد بين الذكر الحكيم وجود تلك العقيدة في الشرائع السماوية من لدن آدم إلى المسيح ، ولأجل أن يقف الباحث على نماذج من ذلك ، نأتي ببعض الآيات الكريمات :

أ - إنه سبحانه - بعدما هبط آدم إلى الأرض - يخاطب الخليقة بخطابات عامة ، تعرب عن أن الهدف من إهباطه إليها هو استقرار الخليقة في الأرض استقراراً مؤقتاً محدوداً ، ليعودوا بعد ذلك إلى النشأة الأخرى . وجاءت تلك الخطابات في آيات مختلفة ، نذكر منها :

﴿ قَالَ اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾^(٢).

﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ، فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا ، وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٣).

(١) إنجيل يوحنا : الأصحاح ٦ : الجملتان ٣٩ - ٤٠ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٤ .

(٣) سورة الأعراف : الآيتان ٣٥ و ٣٦ .

وهذه الخطابات العامة لجميع الخلائق ، تعرب عن أن المعاد هو الهدف الأصيل لخلق الإنسان في الأرض ، وأن الله سبحانه أنزل آدم لهذه الغاية .

ب - نرى أن شيخ الأنبياء نوحاً ، الذي جاء لهداية قومه بشريعة بسيطة ، يخاطبهم بخطابات فيها الدعوة إلى تلك العقيدة ، نذكر منها قوله :

- ﴿ وَاللّٰهُ اَنْتَبَكُمْ فِي الْاَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ اِخْرَاجًا ﴾ (١) .

فالدعوة إلى المعاد في هاتين الآيتين صريحة ، كما أنها في الآية التالية بالإشارة .

- ﴿ رَبِّ اِنِّيْ اَعُوْذُ بِكَ اَنْ اَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِيْ بِهِ عِلْمٌ ، وَاِلَّا تَغْفِرْ لِيْ وَتَرْحَمْنِيْ اَكُنْ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ ﴾ (٢) .

ج - وهذا إبراهيم بطل التوحيد ، يذكر المعاد واليوم الآخر في غير واحد من كلماته ، كما يحكيه عنه الذكر الحكيم :

- ﴿ مَنْ اٰمَنَ مِنْهُمْ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ ﴾ (٣) .

- ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِيْ وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ يَوْمَ يَقُوْمُ الْحِسَابُ ﴾ (٤) .

- ﴿ وَلَا تُخْزِنِيْ يَوْمَ يُنْعَثُوْنَ ﴾ (٥) .

- ﴿ وَاشْكُرُوْا لَهٗ ، اِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ ﴾ (٦) .

وهو سلام الله عليه ، لم يكتف بذلك ، بل طلب من الله تعالى إحياء

(١) سورة نوح : الآيتان ١٧- ١٨ .

(٢) سورة هود : الآية ٤٧ ، وهذا التضرع صدر منه عندما علم بفرق ابنه في الماء ، فالمراد من الخسران هو الخسران بعد الموت .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٢٦ .

(٤) سورة إبراهيم : الآية ٤١ .

(٥) سورة الشعراء : الآية ٨٧ .

(٦) سورة العنكبوت : الآية ١٧ .

الموق ، وحكاه الذكر الحكيم^(١) . وسيوافيك بيانه في المباحث الآتية .

د- وهذا موسى الكليم ، خاطبه سبحانه عند التنديد بأعمال قومه
بخطابات ، فيها الوعد والوعيد .

- ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ . . . ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) .

ونرى أن موسى عندما يدعو على طاغية عصره فرعون مصر ، يطلب له
العذاب الأليم ويقول :

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ، واشدّد على قلوبهم فلا يؤمنوا ، حتى يَرَوْا
العذابَ الأليم﴾^(٣) .

كما أنه عليه السلام ، يخاطب من يفسّر معاجزه بالسحر قائلاً :

﴿رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا
يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(٤) .

ويقول تنديداً بفرعون وملائه :

﴿إِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾^(٥) .

وإن بني إسرائيل لما كانوا أشدّ الناس لجأاً وعناداً ، قام موسى - بأمر منه
سبحانه - بإحياء الميت في قضية البقرة^(٦) ، وسيوافيك بيانه في المباحث الآتية .

نعم ، كانت العقيدة بالمعاد ، عقيدة واضحة بين الشرائع السماوية ، حتى

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٠ .

(٢) سورة الأعراف : الآيتان ١٤٦ و ١٤٧ .

(٣) سورة يونس : الآية ٨٩ .

(٤) سورة القصص : الآية ٣٧ .

(٥) سورة غافر ، الآية ٢٧ .

(٦) سورة البقرة : الآية ٧٢ .

أَنَّ مُؤْمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ أَخَذَ يُعْظِ قَوْمَهُ بِكَلِمَاتٍ فِيهَا إِخْافَتُهُمْ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ،
ويقول :

- ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ ^(١) .

- ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ ^(٢) .

- ﴿ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾ ^(٣) .

هـ - وهذا المسيح عيسى بن مريم ، يخاطبه سبحانه بآيات فيها التذكير بيوم
القيامة ، يقول :

- ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْفَعْكَ بِإِذْنِي وَمَنْ لَمْ يَكُنِ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ،
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَيُوفِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٤) .

المعاد في القرآن

إذا كان المعاد يحتل المكانة العليا في الشرائع السماوية ، وكان القرآن خاتم
الكتب ، والمبعوث به خاتم الأنبياء ، فيناسب أن يكون المعاد مطروحاً فيه ،
بشكل مستوفٍ ، مقترناً بالدلائل العقلية المقنعة .

وقد صدَّقَ الخُبْرُ الخَبَرَ ، فبالذكر الحكيم يعتني بالمعاد ، ويهتم به إهتماماً
بالغاً ، يكشف عنه كثرة الآيات الواردة في مجال المعاد ، وقد قام بعضهم بإحصاء ما
يرجع إليه في القرآن فبلغ زهاء ألفٍ وأربعمائة آية ، وكان السيد العلامة الطباطبائي

(١) سورة غافر : الآية ٣٢ .

(٢) سورة غافر : الآية ٤٠ .

(٣) سورة غافر : الآية ٤٣ .

(٤) سورة آل عمران : الآيات ٥٥ - ٥٧ .

رحمه الله يقول بأنّه ورد البحث عن المعاد في القرآن في آيات تربو على الألفين ، ولعلّه ضمّ الإشارة إليه ، إلى التصريح به . وعلى كل تقدير ، فهذه الآيات الهائلة ، تعرب عن شدة اهتمام القرآن به .

أسماء المعاد في القرآن

ويعرب عن هذا الإهتمام أنّه سبحانه يسميه بأسماء ، ويصفه بصفات خاصة ، فيسميه بـ :

- ١ - يوم القيامة ، ٢ - يوم الدين ، ٣ - اليوم الآخر ، ٤ - يوم الحسرة ، ٥ - يوم الوقت المعلوم ، ٦ - يوم الحق ، ٧ - يوم الفصل ، ٨ - يوم الحساب ، ٩ - يوم التلاق ، ١٠ - يوم الألفة ، ١١ - يوم التناد ، ١٢ - يوم الوعيد ، ١٣ - يوم الخلود ، ١٤ - يوم الخروج ، ١٥ - يوم الجمع ، ١٦ - يوم التغابن ، ١٧ - اليوم الموعود ، ١٨ - يوم البعث ، ١٩ - الساعة ، ٢٠ - الحاقة ، ٢١ - القارعة ، ٢٢ - الطامة الكبرى ، ٢٣ - الصاخة ، ٢٤ - الميعاد ، ٢٥ - الغاشية ، ٢٦ - الآخرة .

ويصفه بأنّه : ١ - يوم عظيم ، ٢ - يوم كبير ، ٣ - يوم محيط ، ٤ - يوم عقيم ، ٥ - يوم أليم ، ٦ - يوم مشهود ، ٧ - يوم عسير ، ٨ - يوم عبوس قمطرير ، ٩ - يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، ١٠ - يوم مجموع له الناس ، ١١ - يوم تشخص فيه الأبصار . ١٢ - يوم على الكافرين عسير ، ١٣ - يوم لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، ١٤ - يوم يجعل الولدان شيباً ، وغير ذلك من الأوصاف .

* * *

مباحث المعاد

(٢)

أدلة وجوب المعاد وضرورته

قد تعرفت على أنَّ الحياة الأخروية للإنسان ، أمر ممكن لا يمنع منه شيء ،
ولأنَّ الكلام في وجوب وقوعها وضرورة وجودها . وفيما يلي نستدلُّ على ضرورة
وجود هذه النشأة بوجوه عقلية هداانا إليها القرآن الكريم .

الدليل الأول - صيانة الخلقة عن العبث

ذكرنا أنَّ أحد الأسئلة التي تلاحق كلَّ إنسان ويعاني منها ، هو الوقوف على
هدف الخلقة ، وأنَّه لماذا خلق ، وما هو الغرض من خلق الإنسان ، والإنسان
الإلهي بما أنَّه يصون فعل الحقِّ عن العبث واللغو (لا بمعنى أنَّ هناك غرضاً للخالق
يستكمل به ، بل بمعنى أنَّ فعله ليس بلا غاية) ، يجب بأنَّه لم يُخلق عبثاً ولا
سدىً ، بل خُلِق ليبلغ الكمال الذي يناله في النشأة الأخريوة ، على وجه لولها
لأصبح خلقه وإيجاده لغواً وباطلاً .

ثم إنَّ هذا الدليل ، أي صيانة فعل الباري عن العبث ، يمكن بيانه
بوجوه ، تتحد في الجوهر ، ولأنَّها تختلف في التقرير وهي :

١ - المعاد وغاية الخلقة .

٢ - المعاد والحقُّ المطلق .

٣ - المعاد والنظم البديع .

فيستدل على المعاد تارة بأنه هو غاية الخلق ، وأخرى بأن الحق تعالى شأنه لا ينفك فعله عن غاية ، وثالثة بأن النظم البديعة السائدة على العالم لا تنفك عن غرض وغاية ، والكل صور مختلفة لاستدلال واحد ، إستوحيناه من الذكر الحكيم ، فإليك بيانها :

١ - المعاد غاية الخلق

يستدل الذكر الحكيم على لزوم المعاد بأن الحياة الأخروية هي الغاية من خلق الإنسان وإنزاله إلى هذه البسيطة ، وأنه لولاها لصارت حياته منحصرة في إطار الدنيا ، ولأصبح إيجاده وخلق - بالتالي - عبثاً وباطلاً ، والله سبحانه مُنَزَّه عن الإيجاد بلا غرض ، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾^(١) .

ومن لطيف البيان في هذا المجال قوله سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ، لَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْعِينَ ﴾^(٢) فترى أنه يذكر يوم الفصل بعد نفي كون الخلق لعباً ، وذلك يعرب عن أن النشأة الأخروية تصون الخلق عن اللغو واللعب ، وبذلك تظهر صلة الآيات .

٢ - المعاد والحق المطلق

ومن لطائف البيان في القرآن الكريم أنه تعالى يصف نفسه بالحق (المطلق) وأنه لا حق سواه ، ثم يرتب على ذلك إحياء الموتى والنشأة الآخرة ، وذلك لأن الحق المطلق عبارة عن الوجود الذي لا يتطرق البطلان إلى ذاته أولاً ، وصفاته ثانياً ، وأفعاله ثالثاً ، ولو كان فعله بلا غاية ولا هدف ، لما كان حقاً مطلقاً ،

(١) سورة المؤمنون : الآية ١١٥ ، ولاحظ سورة ص : الآية ٢٧ .

(٢) سورة الدخان : الآيات ٣٨ - ٤٠ .

فيستدلّ بكونه حقاً محضاً على لزوم الغاية التي تتمثل في الحياة الأخروية للإنسان ،
يقول سبحانه :

﴿ ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ (١) .

ولعلّ من هذا الباب وصفه سبحانه نفسه بالحق ، ثم ذكره بعد ذلك آيات
البعث والقيامة ، فكأنه يشير بذلك إلى أنّ كونه حقاً مطلقاً لا يعتريه الباطل ،
يلزم البعث ، وإلاّ لا يكون حقاً مطلقاً ، نرى هذا البيان في قوله سبحانه :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ (٢) .

ثم بعد ثلاث آيات يقول :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُمَيِّنُكُمْ ؛ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ (٣) .

ومثله قوله سبحانه : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
الْبَاطِلُ ﴾ (٤) .

ثم بعد آيتين يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي
وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ... ﴾ (٥) .

٣ - المعاد والنظم البديع

وفي الذكر الحكيم تلويح وإشارة إلى هذا النوع من الاستدلال ، حيث نرى
أنه سبحانه يذكر النبا العظيم واختلاف الناس فيه بين مثبت ونافي ، ثم يبين

(١) سورة الحج : الآيتان ٦ و ٧ .

(٢) سورة الحج : الآية ٦٢ .

(٣) سورة الحج : الآية ٦٦ .

(٤) سورة لقمان : الآية ٣٠ .

(٥) سورة لقمان : الآية ٣٣ .

النظام البديع السائد في الكون ، ببيان رائق مبسوط ، مُعرباً عن أنه لولا النبأ العظيم ، لأصبح خلقُ العالم بلا غاية .

يقول سبحانه : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ .

ثم يقول : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً ، وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتاً ﴾^(١) .

وبذلك تقف على انسجام الآيات وصلة بعضها ببعض .

وفي كلمات الإمام أمير المؤمنين إشارة إلى هذا النمط من الإستدلال ، يقول عليه السلام .

« وَإِنَّ الْخَلْقَ لَا مُقَصِّرَ لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ ، مَرْفَلِينَ فِي مَضَاهَا إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى »^(٢) .

وفي خطبة أخرى قال عليه السلام : « قد شخصوا من مستقر الأجداد وصاروا إلى مصائر الغايات »^(٣) .

* * *

الدليل الثاني - المعاد مقتضى العدل الإلهي

لزوم العمل بالعدل ، والإجتناب عن الظلم ، من فروع التحسين والتقبيح العقليين ، اللذين هما من أحكام العقل العملي . فمن قال بلزوم فعل الحسن واجتناب القبيح ، يرى العمل بالعدل واجباً لكل فاعل يريد مختار ، من غير فرق

(١) سورة النبأ : الآيات ١ - ١٧ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ١٥٦ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ١٩٠ . وفي رسالته إلى إسنه الحسن : « واعلم يا بُنَيَّ أَنَّكَ خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا الْخ » . (الكتاب ٣١) .

بين أن يكون ممكناً ، أو واجباً ، لأنَّ الحَسَنَ حَسَنٌ في كل حال ، والقبیح قبيحٌ كذلك .

وهناك جماعة من المتكلمين - كالأشاعرة - ينكرون التحسين والتقييح العقلين ، ويتركون المجال في القضاء بهما للوحي السماوي ، وهم أيضاً يقولون بلزوم العمل بالعدل والإجتنب عن الظلم ، بحكم أن الشرع قد أمر بهما ، وأنه سبحانه وصف نفسه بالقيام بالقسط^(١) ، فتكون النتيجة لزوم معاملة العباد بالعدل .

ثم إنَّ إثابة المطيعين من باب التفضل منه سبحانه ، لأنَّهم يطيعونه تعالى بفضل ما أنعم عليهم من النعم الوجودية ، كما أنَّ عقاب العصاة ، حق محض له ، فله أن يعفو عنهم^(٢) .

هذا هو حكم العقل في كل واحد من القسمين : المطيع والعاصي ، إذا لوحظا مستقلين .

ولكن هناك كلام آخر ، وهو أنَّه لو كان جميع العباد مطيعين سالكين نهج الإمثال ، فله التفضل بالثواب ، كما له تركه . وكذلك لو كان جميع العباد ، عصاة سالكين نهج المخالفة ، فله سبحانه معاقبتهم أو العفو عنهم ، ولكنَّ العباد ، ينقسمون إلى قسمين ، فهم بين مطيع وعاص ، والتسوية بينهم بصورها المختلفة ، خلاف العدل . فإنه لو أثاب الجميع أو عاقب الجميع ، أو تركهم سدى من دون أن يحشروا في النشأة الأخرى ، كان ذلك كله على خلاف العدل ، وخلاف ما يحكم به العقل من لزوم كون فعله تعالى حسناً ، فهنا يستقل العقل بأنَّه يجب التفريق بينهما من حيث المصير والثواب والعقاب . وبما أنَّ هذا غير متحقق في النشأة الدنيوية ، فيجب أن يكون هناك نشأة أخرى يتحقق فيها ذلك الميز ، ويفرَّق فيه بين المطيعين والعاصين ، وهو المعاد .

وهذا الدليل العقلي يشير إليه القرآن الكريم في لفيف من آياته ، وهي على

(١) سورة آل عمران : الآية ٢٨ . وسورة يونس : الآية ٤٤ .

(٢) كل ذلك مع قطع النظر عن وعده ووعيده .

قسمين : قسم يندد بالتسوية وينكرها ، وقسم يصرّح بالفرق بين العاصي والمطيع في النشأة الآخرة .

فمن القسم الأول :

- قوله سبحانه : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (١) .

- قوله سبحانه : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (٢) .

- قوله سبحانه : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٣) .

ومن القسم الثاني :

- قوله سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَّ اللَّهُ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ، ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٤) .

- وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ، وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يُؤْمَلُّونَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٥) .

- قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا

(١) سورة ص : الآية ٢٨ .

(٢) سورة القلم : الآية ٣٥ .

(٣) سورة الجاثية : الآية ٢١ .

(٤) سورة يونس : الآية ٤ .

(٥) سورة إبراهيم : الآيات ٤٨ - ٥١ .

تَسْمَى ﴿١﴾ .

فقوله : ﴿لِيَجْزِيََ اللَّهُ﴾ و﴿لِيُجْزَى﴾ ، إشارة إلى أن قيام القيامة ، تحقيق لمسألة الثواب والعقاب ، الذين هما مقتضى العدل الإلهي .

وفي كلام الإمام علي إشارة إلى هذا البيان :

قال عليه السلام : « يومٌ يجمع الله فيه الأولين والآخرين لنقاش الحساب ، وجزاء الأعمال »^(٢) .

وقال عليه السلام : ﴿فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلَاقِهِمْ ، وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يَرِيدُهُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الْأَعْمَالِ وَخَفَايَا الْأَفْعَالِ﴾^(٣) .

* * *

الدليل الثالث : المعاد مجلى لتحقيق وعده ووعيده

وهناك دليل ثالث يضيفي على المعاد الضرورة والقطعية ، وهو مركب من مقدمة شرعية ، وحكم عقلي ، وذلك أنه سبحانه قد وعد المطيعين بالثواب ، والعاصين بالعقاب ، وهذه صُغْرَى البرهان أخبر عنها الشرع . وحُكْم العقل عندئذٍ واضح ، وهو أن إنجاز الوعد حَسَنٌ ، والتخلف عنه قبيح . نعم ، تقدم في الدليل السابق أن العباد لا يستحقون الثواب بطاعتهم ، وإنما هو وجود وتفضل ، لكن هذا بغض النظر عن الوعد به ، وأما معه ، فالوفاء به لازم .

والآيات الواردة في هذا المجال على قسمين : قسم يذكر فيه وعده بالقيامة ووعدته بالثواب ووعيده بالعقاب . وقسم يذكر أنه ينجز وعده ولا يخلف .

أما القسم الأول : فما يدلّ عليه كثير ، نذكر بعضه .

- أما ما يدلّ على الوعد بالقيامة ، فمنه قوله تعالى :

(١) سورة طه : الآية ٥٠ . ولاحظ سورة ساء الآيات ٣ - ٥ ، سورة الزلزلة : الآية ٦ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ١٠٢ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ١٠٩ .

﴿ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴾^(١) .

- وما يدل على الوعد بالثواب ، فمنه قوله تعالى :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، هَذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾^(٢) .

- وما يدل على الوعيد بالعقاب ، فمنه قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(٣) .

﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾^(٤) .

. وأما القسم الثاني : الذي يركز على حكم العقل ويدعمه ، وينفي الخلف عن وعده ، فمنه قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴾^(٥)

﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴾^(٦) .

وعلى هذا الأساس يستدل المحقق الطوسي ، على ضرورة المعاد ، بقوله :
« وجوب إيفاء الوعد ، يقتضي وجوب البعث »^(٧) .

* * *

(١) سورة الزخرف : الآية ٣٨ . لاحظ الذاريات : ٦٠ ، المعارج : ٤٤ ، الأنبياء : ١٠٣ .

(٢) سورة ق : الآيتان ٣١ و ٣٢ .

(٣) سورة الحجر : الآية ٤٣ .

(٤) سورة هود : الآية ١٧ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ٩ .

(٦) سورة آل عمران : الآية ١٩٤ .

(٧) كشف المراد ، المقصد السادس ، المسألة الرابعة ، ص ٤٠٦ .

الدليل الرابع : المعاد مجلى لرحمته سبحانه

ومن لطائف الكلام في الذكر الحكيم أنه عدّ المعاد فرعاً لرحمته ، وجعله مجلى لها ، قال سبحانه : ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ قُلْ لِلَّهِ ، كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

فترى أنه سبحانه يُرتّب جمع الناس إلى يوم القيامة ، على قوله : ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ ، وذلك لأنّ هذا اليوم يوم الرحمة للمؤمن والكافر ، غير أنّ الكافر ، قد خسر نفسه باقتراف المعاصي وترك الفرائض في الدنيا ، فلا يتوفّق لنيل رحمته تعالى ، ولعلّه سبحانه إلى ذلك يشير في الآية بقوله : ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ويعود معنى الآية إلى أنّ يوم القيامة أشبه بمائدة ممدودة ، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين ، ولكن الإنتفاع منها رهن قيود وشروط هي في وسع كل واحد من المكلفين . فلو حُرِمَ الكافر من الرحمة ، فهو بفعل نفسه وما جنته يداه لا من جانبه سبحانه ، وهذا كابتلاء العباد وامتحانهم ، فإنّه رحمة ، لأنّ الهدف منه خروج الطاقات من القوة إلى الفعل ، والكمالات من الخفاء إلى البروز ، ولكن الكافر لا يخرج منه إلّا راسباً غير مستفيد من أهداف الإبتلاء ، بل ينحسر نفسه بفتور عزمه في مجال الطاعة .

ويمكن استفادة ذلك من الآية التالية ، وهي قوله سبحانه :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ ، كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) . فللاية داللتان ، المطابقة منها تهدف إلى تشبيه إحياء الموتى بإحياء الأرض حتى يرجع المنكر عن إنكاره بمشاهدة إحياء محسوس ، وهو إحياء الأرض . والإلتزامية منها تدلّ على أنّ

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢ .

(٢) سورة الروم : الآية ٥٠ .

إحياء الموتى يوم القيامة ، رحمة من الله سبحانه لهم ، كما أن إحياء الأرض رحمة من الله سبحانه لعباده .

* * *

الدليل الخامس : المعاد خاتمة المطاف في تكامل الإنسان

إن الحركة تتقوم بأمر ستة ، منها الغاية ، كما حقق في محله . اعتبار الغاية في حقيقة الحركة ينشأ من تصوّر مفهومها ، فإن الحركة جهد وسعي ، يتطلب صاحبها غاية يفقدها ، من غير بين أن تكون الغاية عقلائية ، كحركة الطالب لتحصيل العلم ، أو غير عقلائية ، كاللعب بالسُّبْحَة لترويح النفس .

ونرى أن الإنسان منذ تكونه نطفة فعلاقة فمضغة ، إلى أن يفتح عينه على الوجود ، في حال حركة دائمة وسعي متواصل ليس له ثبات ولا قرار ، وهو يطلب بحركته وسعيه شيئاً يفقده . فعلى ذلك لا بدّ من وجود يوم يزول فيه وصف اللاقرار ، ويدخل منزلاً فيه القرار والثبات ، يكون غاية المطاف .

والحركة وإن كانت تتوقف بالموت ولا يرى بعدها في الإنسان سعي ، لكن تفسير الموت ببطلان الإنسان وشخصيته الساعية ، إبطال للغاية التي كان يتوخاها من حركته ، فلا بدّ أن يكون الموت وروداً إلى منزل آخر ، يصل فيه إلى الغاية المتوخاة من سعيه وجهاده ، وذلك المنزل هو النشأة الأخروية .

ولا يصح أن يقال إن الغاية من الحركة والسعي والكسح ، هونيل اللذائذ المادية والتجملات الظاهرية ، لوضوح أن الإنسان مهما نال منها ، لا يخمد عطشه ، بل يستمر في سعيه وطلبه ، وهذا يدلّ على أن له ضالة أخرى يتوجّه نحوها ، وإن لم يعرف حقيقتها ، فهو يطلب الكمال اللائق بحاله ، ويتصور أن ملاذ الحياة غايته ، ومنتهى سعيه ، ولكنه سوف يرجع عن كل غاية يصل إليها ويعطف توجهه إلى شيء آخر .

قال صدر المتألمين : الآيات التي ذكرت فيها النطفة وأطوارها الكمالية ،

وتقلباتها من صورة النقص إلى صورة أكمل ، ومن حال أدون إلى حال أعلى ، فالغرض من ذكرها ، إثبات أن هذه الأطوار والتحويلات غاية أخيرة ، فلإنسان توجه طبيعي نحو الكمال ، ودين إلهي فطري في التقرب إلى المبدأ الفعّال ، والكمال اللائق بحال الإنسان المخلوق أولاً من هذه الطبيعة ، وإلا كان لا يوجد في هذا العالم الأدنى ، بل في عالم الآخرة التي إليها الرجعي ، وفيها الغاية والمنتهى ، فبالضرورة إذا استوفى الإنسان جميع المراتب الخلقية الواقعة في حدود حركته الجوهرية الفطرية ، من الجهادية والنباتية ، والحيوانية ، وبلغ أشده الصوري ، وتم وجوده الدنيوي الحيواني ، فلا بد أن يتوجه نحو النشأة الآخرة ، ويخرج من القوة إلى الفعل ، ومن الدنيا إلى الأخرى ، ثم المولى ، وهو غاية الغايات ، ومنتهى الأشواق والحركات^(١) .

وفي الآيات الكريمات إشارات إلى هذا البرهان ، يفهمها الراسخون في الذكر الحكيم .

يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾^(٢) .

وأنت إذا لاحظت هذه الآيات وما تقدمها مما يتكفل ببيان خلقة الإنسان ، ترى لها إنسجاماً وترابطاً خاصاً ، فالله سبحانه يصف الإنسان بأنه كان نطفة فعلقة فمضغة ، إلى أن أنشأه خلقاً آخر ، ثم يوافيه الموت ، ثم يعث يوم القيامة ، فكأن الآية تبين تطور الإنسان تدريجاً من النقص إلى الكمال ، ومن القوة إلى الفعل ، وأنه منذ تَكُون يسير في مدارج الكمال ، إلى نهاية المطاف وهو البعث يوم القيامة ، فهذا غاية الغايات ، ومنتهى الكمال .

ويمكن استظهار ذلك من قوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴾^(٣) ، بالبيان الماضي في الآية السابقة .

(١) الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٥٩ .

(٢) سورة المؤمنون : الآيات ١٤ - ١٦ .

(٣) سورة النجم : الآيات ٤٥ - ٤٧ .

ولعلّه لأجل ذلك يصف القرآن يوم البعث بـ « المساق » ، و« الرُّجعى » ،
و« دار القرار » ويقول : ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاق ﴾^(١) ، و﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ
الرُّجْعَى ﴾^(٢) ، و﴿ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ
الْقَرَارِ ﴾^(٣) .

* * *

الدليل السادس - المعاد مقتضى الربوبية

إنَّ الرَّبَّ في اللغة بمعنى الصاحب ، يقال : ربُّ الدَّار ، وربُّ الضَّيعة .
فالربوبية تحكي عن مالكية الرَّبِّ ، ومملوكية المربوب .

والعلاقة المتَّسمة بالربوبية ، تقتضي كون المربوب ذا مسؤولية أمام ربّه ،
وأنَّ الرَّبَّ لا يتركه سدى ، بل يحاسبه على أعماله ويجازيه بما أتى تجاهه ، وبما أنَّ هذه
المحاسبة لا تتحقق في النشأة الدنيوية ، فيجب أن يكون هناك نشأة أخرى تتحقق
فيها لوازم الربوبية ، فلا معنى لربِّ بلا مربوب ، كما لا معنى لمربوب يترك سدى ،
ولا يحاسب على أعماله وأفعاله .

ولعله لهذا الوجه ، يركّز القرآن على كلمة الرَّبِّ في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ
إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾^(٤) .

وفي قوله : ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ
جَدِيدٍ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾^(٥) .

وهذه الآية الثانية ، أصرح في المطلوب ، وهو أنَّ كُفْرَانَهُمْ بِرَبِّهِمْ جعلهم

(١) سورة القيامة : الآية ٣٠ .

(٢) سورة العلق : الآية ٨ .

(٣) سورة غافر : الآية ٣٩ .

(٤) سورة الإنشقاق : الآية ٦ .

(٥) سورة الرعد : الآية ٥ .

منكرين للمعاد ، فلو عرفوا حقيقة الربوبية ، وعرفوا ربهم ، لأذعنوا بأن مقتضى الربوبية ، لزوم وجود يوم تطرح فيه أعمال العباد على طاولة الحساب .

* * *

وهذه البراهين الستة تضيف على المعاد ضرورة ، وقطعية ، ووجوباً ، وحتميةً ، وكلها براهين عقلية أرشدنا إليها الذكر الحكيم في مُحْكَمِ آياته .

* * *

مباحث المعاد

(٣)

بواعث إنكار المعاد وشبهات المنكرين

الناس أمام دعوة الأنبياء إلى البعث في النشأة الأخرى كانوا على صنفين معتنق يشكل الأقلية في المجتمع الإنساني ، ومنكر يشكلون الأكثرية الساحقة فيه . وكان المشركون من العرب ، المعاصرون للنبي ، أكثر عناداً ولجاجة في المعارف ، خصوصاً ما يرجع منها إلى البعث ويوم الحساب .

غير أنه كانت لهم بواعث للإنكار ، كما كانت لهم شبهات ، ولم تكن شبهاتهم إلاّ واجهة لإنكارهم ، فيبرروا بها جحودهم ، ويعطوه صبغة الحجة ، والعذر .

ونحن نذكر بواعث الإنكار أولاً ، ثم نردفها بالشُّبُهَات ثانياً ، ونعتمد في ذلك على الذكر الحكيم الذي ينقل ذلك عن المنكرين ، سواء كانوا من الأمم السالفة ، أو من المعاصرين لنزول الرسالة .

بواعث إنكار المعاد

كثيراً ما نرى أناساً يتبنون شيئاً ويحتجون له بأدلة واهية ، وهم يعلمون بوهنها ، وأنّ المخاطبين يقفون على سقمها ، ومع ذلك ، يُصِرُّون على مواقفهم . وهذا من الأمور التي تُمكن من استكشاف الباعث أو البواعث الواقعية لهذا التبنّي من خلال أفعالهم وسيرتهم ومعاشراتهم ، والذكر الحكيم كشف عن تلك البواعث

التي كانت تدفع المشركين إلى إنكار المعاد ، ثم التعلل له بحجج واهية. وإليك بيانها .

الباعث الأول - التحلل من القيود والحدود

إن الإيمان بالمبدأ ، والمعاد ، لا يتلخص في الإقرار اللساني ، بل المؤمن يحمل مسؤولية خاصة أمام الله سبحانه في الحياة الدنيوية ، ولازم هذه المسؤولية ، الالتزام بحدود وقيود ، تصدُّه عن التحلل والإفراط في الملاذ والشهوات والإنهاك في إشباع الغرائز الحيوانية . وقد كان الإلتذاذ واتباع الهوى ، غاية المني لأكثر المنكرين ، وكان يسود عليهم سيادة الإله على خلقه ، قال سبحانه : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ (١) .

ولما كان الاعتقاد بالمعاد ، منافٍ لهذا المبدأ الحيواني ، أنكره بحجج واهية يأتي الإشارة إليها ، ويشير الذكر الحكيم إلى هذا الباعث ، بقوله :

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ، بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرْ أَمَامَهُ ، يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ (٢) .

فالآية الأولى تذكُر مُعْتَقَدَهُمْ وإنكارهم ، والآية الثانية تذكُر باعث إنكارهم ، وأنه ليس هو ما يتظاهرون به من عدم إمكان جمع العظام ، وإنما هو رغبتهم في أن يرفعوا كل عائق يحُدُّ من انغماسهم في الملذات ، وكل رادع يصدُّهم عن إرضاء الغرائز البهيمية . وقوله : ﴿ لِيَفْجُرْ أَمَامَهُ ﴾ ، بمعنى لِيَشُقَّ أَمَامَهُ ، ولا يرتدع بشيء من القوانين والتشريعات .

الباعث الثاني - صيانة السلطة

إن السُّنة السائدة عند أصحاب السلطة هي استعباد غيرهم واضطهاد حقوقهم ، كما أنَّ السُّنة السائدة على المترفين في الحياة الدنيا ، هي الإنهاك في

(١) سورة الفرقان : الآية ٤٣ .

(٢) سورة القيامة : الآيتان ٥ و ٦ .

اللذائذ ، وكلاهما لا يتفقان مع الإعتقاد بالمعاد ويوم الحساب ، يقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيعَادِ الْآخِرَةِ ، وَاتَّرفَنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . . . هَيْهَاتَ ، هَيْهَاتَ ، لِمَا تُوعَدُونَ ، إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ، نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (١) .

فالآية الأولى تُشير إلى باعثن من بواعث الإنكار ، بينها صلة قوية ، ولذلك أدمجناهما وجعلناهما باعثاً واحداً ، أحدهما باعث نفسي هو الإتراف والتمتع بأسباب الشهوات ، والآخر باعث سياسي ، هو ما كان للمنكرين من علية القوم وأشرافهم من تسلط على أقوامهم فانكروا المعاد لثلاث ترعزع عروش سلطتهم بانتشار هذه العقيدة بين أتباعهم ومرؤوسيهـم ، فكانوا يدعون الناس إلى إنكار المعاد ويقولون : ﴿ هَيْهَاتَ ، هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ .

الباعث الثالث - التكذيب بالحق

إنَّ هناك آيات تعرب عن أنَّ المنكرين ، من أول يوم واجهوا فيه دعوة الرسل ، أنكروها ولم يعتنقوها ، فَجَرَّهـم ذلك إلى إنكار المعارف كلها وبالأخص المعاد ، وحشر الإنسان في النشأة الأخرى .

نعم ، لا ينفك عنادهم أمام الأنبياء عن علة نفسية أو إجتماعية أو سياسية ، جَرَّتْهم إلى اتِّخاذ ذلك الموقف السلبي في بدء الدعوة في كلِّ ما يقوله الأنبياء ويدعون إليه ، وإن كان بعضه موافقاً لطبعهم وشعورهم والذكر الحكيم يشير إلى هذا الباعث بقوله حاكياً عنهم :

﴿ أَثَدَّا مِثْنًا وَكُنَّا ثُرَابًا ؟! ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ (٢) .

(١) سورة المؤمنون : الآيات ٣٣ و٣٦ و٣٧ .

(٢) سورة ق : الآيات ٣ - ٥ .

فيذكر في الآيتين الأوليين شُبَهَتَهُمْ - التي سيأتي بيانها - إلا أنه سرعان ما بين في الآية الثالثة أن هذه الشبهة واجهة وغطاء لها ، وأن الباعث الواقعي هو تكذيبهم بالحق من أول الأمر ، ولأجل ذلك هم في أمر مريب مضطرب .

* * *

هذه هي البواعث التي كانت تدفع إلى إنكار المعاد ، ونحت الأعذار والشبهات في هذا المجال . وإليك فيما يلي بيان شبهاتهم أولاً ، وأجوبتها ثانياً .

* * *

شبهات المنكرين للمعاد

الشبهات التي ينقلها الذكر الحكيم عنهم تبلغ عشر شبهات ، غير أن كثيراً منها ضئيل ، ليس له دليل سوى البواعث التي قدّمناها ، ومع ذلك لم يتركها القرآن بلا جواب ، إماماً مقارناً لذكرها أو في مواضع أخرى ، وفيما يلي نذكر رؤوس الشبهات الواهية ، ثم نتبعها بذكر الشبهات القابلة للبحث ، فنطرحها ونناقشها .

١ - لا دليل على المعاد

يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ بِالْأَظْنَاءِ وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ ﴾ ^(١) .

وقائل الشبهة يتظاهر بأنه لا دليل على النشأة الأخرى وإحياء الموتى فيها ، ولو كان لا يتبعه . ولم يتركه القرآن بلا جواب ، فقد أقام براهين دامغة على إمكانه وضرورته كما سيوافيك .

ولأجل كون المعاد مقروناً بالبراهين ، يتعجب القرآن من إنكارهم ويقول : ﴿ فَإِنْ تَعْجَبْ ، فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة الجاثية : الآية ٣٢ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٥ .

٢ - المعاد من أساطير الأولين

يقول سبحانه : ﴿ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَافاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (١) .

وبما أن الشرائع السماوية ، مُتَّحِدَةٌ في الأصول ، وإِنَّمَا اِخْتِلَافُهَا في الشرع والمنهاج (٢) ، كانت الدعوة إلى المعاد موجودة في الشرائع السالفة ، فَحَسِبَهَا المشركون أسطورة من أساطير الأولين .

مع أن الدعوة إلى عقيدة قديمة لا يكون دليلاً على بطلانها ، كما أن استحداث عقيدة لا يكون دليلاً على صحتها ، وإِنَّمَا الضابط هو الدليل .

٣ - المعاد إفتراء على الله أو جنون من القول

يقول سبحانه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَذَلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَيِّنُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ أَنْكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ (٣) .

والمنكرون لأجل التظاهر بالحرية في القضاء ، وابتعادهم عن العصبية ، فَسَّرُوا الدعوة إلى المعاد بأن الداعي إمَّا رَجُلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، إفتري على الله كذباً ، أو أَنَّهُ معذور في هذا القول وقاصر ، لأنَّ به جنَّةٌ ، وهذا نوع من الخداع ، إذ كيف صار « أَمِينُهُمْ » مفترياً على الله الكذب ، ومتى كان الإنسان العاقل الذي أثبت الزمان عقله وذكاءه ودرايته وأمانته حتى قمع أصول الشرك عن أديم الجزيرة ، متى كان مجنوناً ؟ .

٤ - إعادة الأموات سحر

يقول سبحانه : ﴿ وَإِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ

(١) سورة المؤمنون : الآيتان ٨٢ و ٨٣ .

(٢) إشارة إلى قوله سبحانه : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ (سورة المائدة : الآية ٤٨) .

(٣) سورة سبأ : الآيتان ٧ و ٨ .

كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ .

فقد بلغ عنادهم في إنكار الحقيقة مبلغاً لوقام النبي معه بإحياء الموتى أمامهم ، ورأوه بأَمْ أعينهم ، لقالوا إِنَّهُ سحر مبين ، وإنك سحرت أعيننا ، ولا حقيقة لما فعلت .

٥ - إذا كان المعاد حقاً فأحيوا آبائنا

يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوا آبَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

غير أن طلبهم إحياء آبائهم لم يكن إِلَّا تَعَلُّلاً أمام دعوة النبي ، فلو قام النبي بهذا العمل ، لطلبت كل قبيلة ، بل كل إنسان نفس ذلك العمل من النبي ، حتى يؤمن به ، فتقلب الدعوة لعبة في أيديهم . ولأجل ذلك يضرب القرآن عن الجواب صفحاً ، ويكتفي بقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

٦ - حشر الإنسان عسير

إنَّ هذا الإعتراض وإن لم ينقل عنهم صريحاً ولكن يُعَلِّم من الآيات الواردة حول المعاد ، أَنَّهُ كان أحد شبهاتهم .

يقول سبحانه في أمر المعاد : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ (٤) ويقول : ﴿ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٥) ويقول : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هَوَ

(١) سورة هود : الآية ٧ .

(٢) سورة الجاثية : الآية ٢٥ .

(٣) سورة الجاثية : الآية ٢٦ .

(٤) سورة ق : الآية ٤٤ .

(٥) سورة التغابن : الآية ٧ .

أَقْرَبُ ﴿١﴾ ويقول : ﴿ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ﴿٢﴾ .

وهذه الشبهة صورة خفيفة للشبهة السابعة الآتية التي سيوافيك الجواب عنها تفصيلاً . والإجابة عن تلك يغني عن الإجابة عن هذه . قال أمير المؤمنين عليه السلام : « وما الجليلُ واللطيفُ ، والثَّقِيلُ والخفيفُ ، والقويُّ والضعيفُ في خلقه إلا سواء » ﴿٣﴾ .

هذه هي شبهاتهم الضئيلة الواهية التي لا يخفى بطلانها وكانت لهم معها شبهات أخرى أجدر بالبحث والتحليل ، وهي أربع ، نذكرها أولاً ثم نجيب عنها بالتفصيل .

٧ - إحياء الموتى خارجُ عن إطار القدرة

يظهر من الذكر الحكيم أنهم كانوا يعتمدون على هذه الشبهة ، ويحكيها سبحانه بقوله : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ﴿٤﴾ .

٨ - التعرف على الأجزاء الرميمة غير ممكن

إنَّ عادة الموتى بأعيانهم يتوقف على التعرف على أجزاء أبدانهم الرميمة المبعثرة ، على أديم الأرض وفي جوفها ، وفي أعماق البحار ، ليُعاد جزء كل إنسان إلى بدنه ، وهذا أمر محال .

وهذه الشبهة وإن لم يُصرَّح بها القرآن ، ولكن يستنبط من إجابة القرآن عليها أنهم كانوا يعتمدون عليها .

(١) سورة النحل : الآية ٧٧ .

(٢) سورة الروم : الآية ٢٧ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ١٨٠ .

(٤) سورة يس : الآية ٧٨ .

يقول سبحانه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ، عَالَمِ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (١) .

فإنَّ قوله : ﴿ عَالَمِ الْغَيْبِ ، لَا يُعْزِبُ عَنْهُ . . . ﴾ يكشف عن أنَّ شُبُهَتَهُمْ في إمكان المعاد ، هي عدم إمكان التعرّف على أجزاء الموقى المبعثرة .

٩ - الموت بطلان للشخصية

ومّا كانوا يعتمدون عليه في إنكارهم للمعاد ، هو أنَّ الموت وصيرورة الإنسان عظاماً ثم تراباً ، يلزم بطلان شخصيته وانعدامها ، والمعدم لا يعاد .

ولعلّه إلى تلك الشبهة يشير قوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٢) ويحتمل كونه إشارة إلى الشبهة التالية .

١٠ - فقدان الصلة بين المبتدأ والمعاد

إذا كان الموت وصيرورة الإنسان تراباً ، إغداً للشخصية ، فالشخصية المحياة في النشأة الأخرى ، لا تمت إلى الأولى بصلة ، فكيف تكون إحياء لها ؟ فإنَّ المقصود من المعاد ، إحياء الناس لإثابتهم أو معاقبتهم ، وهو فرع وحدة المعاد والمبتدأ ، واتحادهما ، وهو منتف ، ولعلّ الآية السابقة ، تشير إلى هذه الشبهة .

هذه هي شبهاتهم التي تستحق البحث ، وإليك فيما يلي مناقشتها :

الإجابة التفصيلية عن شبهاتهم

الإعتقاد بالمعاد إعتقاد بالغيب وإيمان به ، وهو فرع معرفة الله سبحانه ، ومعرفة أسمائه وصفاته ، وأفعاله ، ولولا تلك المعرفة ، لما حصل الإيمان بشيء من

(١) سورة سبأ : الآية ٣ .

(٢) سورة السجدة : الآية ١٠ .

الأمر الغيبية ، فالإعتقاد بمعاجز الأنبياء ، وكراماتهم التي يحكيها لنا القرآن الكريم ، قائم على معرفة الله سبحانه . ومعرفة شؤونه تبارك وتعالى . وعلى هذا الأساس يبتني الجواب عن الشبهتين الأوليين :

جواب الشبهة الأولى - القدرة المطلقة وإحياء الموتى

إنَّ تخيل استحالة المعاد ، الناشيء من توهم أنَّ إحياء الموتى خارج عن إطار القدرة ، جهل بالله سبحانه ، وجهل بصفاته القدسية ، فإنَّ قدرته عامة تتعلق بكل أمر ممكن بالذات ، ومن هنا نجد القرآن الكريم يندد بقصور المشركين وجهلهم في مجال المعرفة ، ويقول : ﴿ وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾^(١) . ومعنى عدم التقدير هنا ، عدم تعرفهم على الله سبحانه حَقَّ التعرف ، ولذلك يعقبه بقوله : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ ، معرباً عن أنَّ إنكار المعاد ينشأ من هذا الباب .

وفي آيات أخرى تصريحات بعموم قدرته ، كقوله : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٣) .

والآيات الواردة في هذا المجال كثيرة^(٤) .

ثم إنَّ القرآن يسلك طريقاً ثانياً في تقرير إمكان المعاد ، وذلك عبر الآيات بأمور محسوسة أقرب إلى الإذعان والإيمان :

(١) سورة الزمر : الآية ٦٧ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٤٨ .

(٣) سورة هود : الآية ٤ .

(٤) لاحظ النحل . الآية ٧٧ ، العنكبوت : الآية ٢٠ ، الروم : الآية ٥٠ ، فصلت : الآية ٣٩ ، الشورى : الآية ٢٩٩ ، الأحقاف : الآية ٢٣ ، الحديد : الآية ٢ .

أ - القادر على خلق السموات ، قادر على إحياء الموتى
 يقول سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيَّرْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ (١) .
 وكيفية الإستدلال بها واضحة ، فإنَّ القادر على إبداع هذا النظم البديع ،
 أقدر على إحياء الإنسان .

ب - القادر على المبتدأ قادر على المعاد
 إنَّ من الضوابط العقلية المحكمة أنَّ أدلَّ دليل على إمكان الشيء وقوعه ،
 وأنَّ حكم الأمثال فيما يجوز ولا يجوز واحد ، فلو كانت الإعادة أمراً محالاً ، لكان
 ابتداء الخلق مثله ، لأنهما يشتركان في كونها إيجاداً للإنسان ، وعلى ذلك قوله
 سبحانه : ﴿ قَالُوا أَيُّذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا . . .
 فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ، قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (٢) .
 وقوله سبحانه : ﴿ أَلَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ * أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ
 يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ
 ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ (٣) .

ج - القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الإنسان بعد
 موته
 ويرى الذكر الحكيم في آياته إعادة الحياة إلى التراب بشكل ملموس ، وذلك
 بصورتين :
 أولاها : أنه إذا امتنع عود الحياة إلى التراب ، فكيف صار التراب إنساناً في

(١) سورة الأحقاف : الآية ٣٣ . ومثلها يس : الآية ٨١ .
 (٢) سورة الإسراء : الآيات ٤٩ - ٥١ .
 (٣) سورة القيامة : الآيات ٣٦ - ٤٠ ، وقد ورد في هذا المجال آيات أخر ، فلاحظ يس : الآية ٧٩ ،
 سورة الطارق : الآيات ٥ - ٨ .

بدء الخلقه ، وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ۖ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ۖ ﴾ (٢) .

وثانيتها : إِنَّ الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ تَحْيَا كُلَّ سَنَةٍ بِنَزُولِ الْمَاءِ عَلَيْهَا فَتَهْتَزُّ وَتَرْبُو بَعْدَ جَفَافِهَا ، وَتُنْبِتُ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ، يقول سبحانه : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا ، عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ، وَرَبَتْ وَأَنْبَتُ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتِ ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۖ ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۖ ﴾ (٤) .

فليس إحياء الإنسان من التراب إلَّا كإحياء التراب الميت ، باخضرار نباته ، وازدهار أشجاره .

وبهذه النماذج المحسوسة يُثَبِّتُ الْقُرْآنُ عُمُومَ قُدْرَتِهِ تَعَالَى ، مضافاً إلى البراهين العقلية على عموم قدرته تعالى شأنه .

جواب الشبهة الثانية - العلم المطلق والتعرف على الأجزاء المنفردة

إِنَّ هَذِهِ الشَّبْهَةَ وَسَابِقَتَهَا ، لَهَا مَنشَأٌ وَاحِدٌ هُوَ عَدَمُ التَّعَرُّفِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ : صِفَاتُهُ وَأَفْعَالُهُ ، وَهَذَا يَقُولُونَ إِنَّ الْأَجْزَاءَ الْمُتَلَاشِيَةَ الْمُبَعَثَةَ فِي أَكْنَافِ

(١) سورة الحج : الآية ٥ .

(٢) سورة طه . الآية ٥٥ .

(٣) سورة الحج : الآيات ٥ - ٧ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ٥٧ . ولاحظ الزخرف : الآية ١١ ، الروم : الآية ١٩ ، سورة فاطر :

الآية ٩ ، سورة ق : الآيات ٩ - ١١ .

الأرض لا يمكن التعرف عليها ليعاد جمع أجزاء كل إنسان .

والجواب عنه واضح بعد التعرف على علمه الواسع ، سبحانه ، وأن
الممكنات بعامة أجزائها حاضرة لديه غير غائبة عنه .

يقول سبحانه : بعد نقل شبهتهم (أَيْذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ، ذَلِكَ رَجْعٌ
بعيد) .

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ ﴾^(١) . فالتركيز في
الجواب على علمه سبحانه بما تنقص الأرض منهم ، وأنَّ عنده كتاباً حفيظاً لكل
شيء ، يُعَرَّبُ عن أنَّ شبهتهم كانت ترجع إلى عدم إمكان التعرف على الأجزاء
البالية ، حتى يُعاد جمعها .

ونظير ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَتَفَنَسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ
اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾^(٢) . فالتركيز على كونه سميعاً وبصيراً يعرب عن أنَّ المقصود
من صدر الآية هو نقل شبهتهم الراجعة إلى علمه سبحانه .

جواب الشبهة الثالثة - الموت ليس إبطلاً للشخصية

إنَّ القائل بأنَّ الموت إبطال للشخصية ، حسب أنَّ الإنسان موجود مادي
محض ، وليس هو إلا مجموعة خلايا وعروق وأعصاب وعظام وجلود ، تعمل
بانتظام ، فإذا مات الإنسان صار تراباً ، ولا يبقى من شخصيته شيء ، فكيف
يمكن أن يكون المُعاد نفس الأول ؟ ولعلَّه إلى ذلك يشير قولهم : « أَيْذَا ضَلَّلْنَا فِي
الْأَرْضِ أَتْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ » . بأن يكون المراد من الضلال في الأرض بطلان
الهوية بطلاناً كاملاً لا يمكن أن تتسم معه بالإعادة ، ويحيب القرآن عن هذه
الشبهة بجوابين :

أولهما ، قوله : ﴿ بَلْ هُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ كَافِرُونَ ﴾^(٣) .

(١) سورة ق : الآية ٤ .

(٢) سورة لقمان : الآية ٢٨ .

(٣) سورة السجدة : الآية ١٠ .

محفوظة ، فلا تنقطع الصلة بين المبتدأ والمعاد ، خصوصاً أن أجزاء البدن المبعثرة ، معلومة لله سبحانه . فهو يُرَكَّب تلك الأجزاء المبعثرة ، وتتعلق بها الروح ، قال سبحانه : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ ﴾^(١) . وقال سبحانه : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾^(٢) . فالتعبير بـ ﴿ خَلْقٍ عَلِيمٍ ﴾ مكان « خلق قدير » ، إشارة إلى علمه تعالى بأجزاء بدن كل إنسان .

إلى هنا فرغنا من الإجابة عن الشبهات المطروحة حول المعاد التي ذكرها القرآن ، وبما أن الإجابة عن الشبهتين الأخيرتين مبني على تجرد الروح وبقائها بعد الموت ، نُفَرِّدُهُ بالبحث ونثبت هذا التجرد عقلاً ونقلًا ، وهو من مهام البحوث في المعاد .

* * *

(١) سورة قى : الآية ٤٧ .

(٢) سورة يس : الآية ٧٩

مباحث المعاد

(٤)

تجرد الروح الإنسانية

لقد شغل أمر تجرد الروح بال مفكرين ، واستدلوا عليه بوجوه عقلية عدة ، كما اهتم القرآن الكريم ببيانه في لفيف من آياته ، وفيما يلي نسلك في البحث عن تجرد الروح هذين الطريقتين : العقلي والنقلي .

١ - البراهين العقلية على تجرد الروح

تدلّ براهين كثيرة على أنّ النفس مجرّدة غير مشوبة بالمادة وآثارها . وتجردّها يعتبر من النوافذ إلى عالم الغيب ونكتفي فيما يلي بإيراد أبرز هذه البراهين وأوضحها ، وإلاّ فهي كثيرة تتجاوز العشرة .

البرهان الأول - ثبات الشخصية الإنسانية في دوامة التغيرات الجسدية

وهذا البرهان يتألف من مقدمتين :

الأولى أنّ هناك موجوداً تنسب إليه جميع الأفعال الصادرة عن الإنسان ، ذهنية كانت أو بدنية .

ولهذا الموجود حقيقة ، وواقعية يشار إليها بكلمة « أنا » .

الثانية أنّ هذه الحقيقة التي تُعدُّ مصدراً لأفعال الإنسان ، ثابتة وباقية

خاضع لهما بالقوة ، وإذا عجز الإنسان عن تقسيم ذلك الموجود ، فلأجل فقدانه أدواته اللازمة . ولأجل ذلك ذكر الفلاسفة في محلّه ، بطلان الجزء الذي لا يتجزأ . وما يسميه علم الفيزياء ، جزءاً لا يتجزأ ، فإنما هو غير متجزئ بالحس ، لعدم الأدوات اللازمة ، وأما عقلاً فهو منقسم مهما تناهى الإنقسام ، لأنّه إذا لم يمكن الإنقسام ، وعجز الوهم عن استحضار ما يريد أن يقسمه - حتى بالمكبرات - بسبب صغره ، يفرض العقل فيه شيئاً غير شيء ، فيحكم بأن كل جزء منه يتجزئ إلى غير النهاية ، ومعنى عدم الوقوف أنّه لا ينتهي انقسامه إلى حدٍّ إلّا ويتجاوز عنه^(١) .

ومن جانب آخر ، كلُّ واحدٍ منّا إذا رجع إلى ما يشاهده في صميم ذاته ، ويعبر عنه بـ « أنا » ، وجده معنىً بسيطاً غير قابلٍ للإنقسام والتجزئ ، فارتفاع أحكام المادة ، دليل على أنّه ليس بمادي .

إنّ عدم الإنقسام لا يختص بما يحده الإنسان في صميم ذاته ويعبر عنه بـ « أنا » ، بل هو سائد على وجدانياته أيضاً من حبّ ، وبُغضٍ ، وإرادةٍ ، وكراهيةٍ ، وتصديقٍ ، وإذعانٍ . وهذه الحالات النفسانية ، تظهر فينا في ظروف خاصة ، ولا يتطرق إليها الإنقسام الذي هو من أظهر خواص المادة .

إعطف نظرك إلى حبك لولدك ، وبغضك لعدوك ، فهل تجد فيهما تركباً ؟ وهل ينقسمان إلى جزء فجزء ؟ كلا ، لا .

فإذا كانت الذات والوجدانيات غير قابلة للإنقسام ، فلا تكون منتسبةً إلى المادة التي يُعدّ الإنقسام من أظهر خواصّها .

فظهر ممّا ذكرنا أنّ الروح وآثارها ، والنفس والنفسانيات ، كلّها موجودات واقعية خارجة عن إطار المادة ، ومن المضحك قول المادي إنّ التفحص ، والتفتيش العلمي في المختبرات لم يصل إلى موجود غير مادي ، حتى ندّعن بوجوده ، فقد عذب عنه أنّ القضاء عن طريق المختبرات يختصّ بالأمور المادية ، وأمّا ما يكون

(١) لاحظ شرح المنظومة ، للحكيم السبزواري ، ص ٢٠٦ .

سنخ وجوده على طرف النقيض منها ، فليست المختبرات محلاً وملاكاً للقضاء بوجوده وعدمه .

ثم إنَّ البحث العقلي ، في تجرّد الروح مترامي الأطراف مختلف البراهين ، اكتفينا بهذا القدر منه ، ومن أراد التبسّط فليرجع إلى الكتب المعدة لذلك^(١) .

* * *

٢ - القرآن وتجرد النفس وخلودها

الآيات التي يستظهر منها خلود الروح وتجردّها على قسمين : قسم يدلّ عليه بصراحة لا تقبل الإنكار ، وقسم آخر يستظهر منه ، وإن كان قابلاً للحمل على معنى آخر ، وإليك نقل القسمين بإيضاح إجمالي :

القسم الأول من الآيات

(أ) - يقول سبحانه : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ، وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ ، إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٢) .

والدلالة مبنية على إمعان النظر في لفظة التوفي ، وقد عرفت أنّها بمعنى الأخذ والقبض ، لا الإماتة . وعلى ذلك فالآية تدلّ على أنّ للإنسان وراء البدن شيئاً يأخذه الله سبحانه ، حين الموت والنوم ، فيُمْسِكُهُ إن كتب عليه الموت ، ويرسله إن لم يكتب عليه ذلك إلى أجلٍ مسمى ، فلو كان الإنسان متمحضاً في المادة وآثارها ، فلا معنى « للأخذ » و « الإمساك » و « الإرسال » ، كما هو واضح .

(ب) - يقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً ، بَلْ

(١) لاحظ الإشارات للشيخ الرئيس ج ٢ ، ص ٣٦٨ - ٣٧١ . والأسفار ، ج ٨ ص ٣٨ . وأصول الفلسفة للعلامة الطباطبائي ، رحمه الله وترجمة الأستاذ دام حفظه ج ١ ، المقالة الثالثة ، ص ١٢٩ - ١٨٣ . وفي هذا الأخير يجد المتبع ضالته .

(٢) سورة الزمر : الآية ٤٢ .

مدينة أنطاكية ، فلقيا من أهلها عنفاً وردّاً ، غير أنّ واحداً من أهلها اسمه حبيب النجار ، آمن بها وأظهر إيمانه ، وقال : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ ، فلما سمع القوم إيمانه وطؤوه بأرجلهم حتى مات ، فأدخله الله الجنة ، وخوطب بقوله تعالى : ﴿ أُدْخِلِ الْجَنَّةَ ﴾ . ثم هو تمنى أن يعلم قومه بما آتاه الله تعالى من المغفرة وجزيل الثواب ، فقال : ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمِينَ ﴿ .

فالآية تدل على أنّ الموت ليس فناء للإنسان ، بل هو بعد الموت يرزق في الجنة ، ويتمنى أن يعلم قومه بما رزق من الكرامة .

أضف إلى ذلك أنّ قوله تعالى : ﴿ أُدْخِلِ الْجَنَّةَ ﴾ ، لا يمكن أن يكون خطاباً للبدن لأنه يوارى تحت التراب ، فالمخاطب به شيء آخر ، وهو الروح ، فتدخل الجنة وتنتعم فيها ، وكم فرق بين قوله : « أدخل الجنة » وقوله « أبشر بالجنة » فالثاني لا يدل على شيء مما ذكرنا بخلاف الأول .

(و) يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾^(١) .

وأما دلالة الآية على أنّ الروح أمرٌ غير مادي ، فيظهر بالإمعان فيها ، وبيانه : أنّ الآية تبين تكامل خلقه الإنسان من مرحلة إلى مرحلة ، والمراحل الموجودة بين السلالة ، وقوله : ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾ ، كلّها تكامل من صنف واحد ، فمادة الإنسان لن تبرح تتكامل من السلالة إلى العظام المكسوة باللحم .

وبعد ذلك نرى تغييراً في أسلوب بيان الآية ، حيث يقول : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ . فهو سبحانه :

أولاً : يعطف هذه المرحلة على المراحل السابقة ، بلفظة ثم ، بخلاف

(١) سورة المؤمنون : الآيات ١٢-١٤ .

المراحل السابقة ، فيعطفها بالفاء ، ويقول فخلقنا العَلَقَةَ . . . فخلقنا المَضْغَةَ . . . فَكَسَّوْنَا الْعِظَامَ . . . وهذا يدل على تغاير هائل بين هذه المرحلة والمراحل السابقة .

ثانياً : يستعمل في بيان خلقه هذه المرحلة لفظ الإنشاء ، بمعنى الإبداع ، وإنشاء شيء بلا مثال قَبْلَهُ ، وهو أيضاً يدل على مغايرة هذه المرحلة لما سبقها من المراحل ، مغايرة جوهريّة .

وثالثاً : إنه سبحانه بعدما يقرر خلقه هذه المرحلة ، يثني على نفسه ، مما يعرب عن اختلاف هذه المرحلة مع ما تقدمها ، وامتيازها عنها إمتيازاً جوهرياً .

وهذه الوجوه ، تكفي في دلالة الآية على أنّ المنشأ في هذه المرحلة شيء لا يشبه المنشآت السابقة، ويختلف عنها جوهراً ، وحيث إنّ المنشآت السابقة من سينخ تكامل المادة ، فيكون المنشأ في هذه المرحلة ، مُنشأً غير مادي ، وهو تعلق النفس المجردة بالبدن في تلك المرحلة .

إلى هنا تم إيراد الآيات الصريحة في المطلوب ، ويقع الكلام بعده في القسم الثاني من الآيات ، وهي التي يُستظهر منها الدلالة على تجرد الروح ، وإن كانت قابلة للحمل على معان أخرى .

القسم الثاني من الآيات

أ - يقول سبحانه : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾ ^(١) .

وتتضح الدلالة إذا أمعنا أنه سبحانه يخص النجاة ببدن فرعون ، ويقول : ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ وهذا يعرب عن أنّ هناك شيء آخر لا يشمل النجاة ، ويقع مورد العذاب .

أضف إلى ذلك خطابه سبحانه أعني قوله : ﴿ نُنَجِّيكَ ﴾ ، فإنه يدل على أنّ

(١) سورة يونس : الآية ٩٢ .

مباحث المعاد

(٥)

نماذج من إحياء الموق في الشرائع السابقة

أثبت الحكماء لليقين مراتب ودرجات ، ولكل منها عندهم إسم خاص ، ولتبيين هذه الدرجات تأتي بمثال :

إذا سمع الإنسان إسم النار ، ولم يرها ، وقيل له إنها موجود عنصري لها هيئة خاصة ، وأثر ومعين في الأعضاء ، وأذعن بذلك لكون المخبرين صادقين ، فهذه مرتبة من اليقين .

ثم إذا شاهدها من بعيد ، ولكن لم تمس حرارتها بدنه ، وإنما رأى هيئتها ، والتهاها ، بأمر عينه ، فهذه مرتبة من اليقين أقوى من السابقة .

ولكن أين هذه المرتبة مما إذا شاهدها عن كثب ومستم حرارتها ، ففي هذه المرتبة يتكامل يقينه بها ، ويبلغ الدرجة القصوى .

وإذا كان لليقين مراتب ودرجات ، فلا لوم على الأنبياء والأولياء أن يطلبوا من الله سبحانه إحياء الموق حتى يشاهدوه بأعينهم لإكمال مراتب يقينهم بالقيامة ، وتبديل علم اليقين فيهم بعين اليقين^(١) .

(١) اقتباس من قوله سبحانه : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ (التكاثر : الآيات ٥ - ٧) .

ومن هنا نرى أن الله سبحانه أحيى الموتى لإبراهيم الخليل ، وعزير ، وغيرهم كما سيأتي ، والغاية كانت إكمال مراتب اليقين ، أو إتمام الحجة على البعيدين عن هذه المعارف ، كما هو الحال في إحياء عيسى الموتى لبنى إسرائيل ، وفيما يلي نورد هذه النماذج من القرآن الكريم .

١ - إبراهيم وإحياء الموتى

ذكر المفسرون أن إبراهيم عليه السلام رأى جيفة تمزقها السباع ، فيأكل منها سباع البر ، وسباع الهواء ودواب البحر ، فسأل الله سبحانه وقال : يا رب قد علمت أنك تجمعها في بطون السباع والطيور ودواب البحر ، فأرني كيف تحييها لأعاین ذلك ؟

يقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ، قَالَ : فَاخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

وما ذكرنا من سبب النزول يكشف عن أنه لم يكن غرض إبراهيم إحياء نفس فقط ، وإلا لكفى فيه إحياء طير واحد بعد إماتته ، وإنما لكان الغرض مشاهدة إعادة أجزاء كل طير إليه بعد اختلاطها بأجزاء الطيور الأخر ، وهذا لا يتحقق إلا بتعدد الطيور أولاً ، واختلافها نوعاً ، ثانياً ، واختلاطها بعد ذبحها ، ثالثاً ، فلأجل ذلك ورد أنه أخذ طيوراً مختلفة الأجناس ، قيل إنها : الطاووس ، والديك ، والحمام ، والغراب ، فقطعها ، وخلط ريشها بدمها ، ثم فرقهن على عشرة جبال ، ثم أخذ بمناقيرهن ، ودعاهن باسمه سبحانه ، فأتته سعيًا ، فكانت تجتمع ويأتلن لحم كل واحد وعظمه إلى رأسه ، حتى قامت أحياء بين يديه .

وبذلك كمل إيمانه ، وتم إذعانه بأنه سبحانه يمكن أن يعيد أجزاء بدن كل

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٠ .

حيّ إليه ، وأن اختلط بحيّ آخر ، كما لو أكلت الإنسان الميت سباع البراري وجوارح الهواء ، وحيثان البحار ، فإن الاختلاط لا يكون مانعاً عن الإحياء والإعادة ، وقد تقدّم في بيان شبهاتهم أنّ المنكرين كانوا يركزون على « ضلالة الأجزاء » في الأرض ، واختلاط أجزاء الموتى بعضها ببعض ، وقد قال سبحانه في هذا المجال : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعَدْنَا كِتَابَ حَفِيطٍ ۝ (١) » .

والإستدلال بالآية يتوقف على الإمعان في أمرين :

الأول - إنّ مقتضى البلاغة مطابقة الجواب للسؤال ، ولما كان سؤاله عن مشاهدة إحياء الموتى - واقتضى الحال الإجابة عنه - فيجب أن يكون ما يأمر به سبحانه محققاً لإحياء الموتى ، وهو لا يتحقق إلا بأن يقوم إبراهيم بتقطيعهن وخلط أجزائهن ، وتفريقهن على الجبال .

الثاني : الإمعان في قوله : ﴿ فَصُرُّهُنَّ ﴾ ، والمصدر الذي اشتق منه ، وفيه احتمالات :

١ - ما نقل عن ابن عباس من أنه قرأ : « فَصُرُّهُنَّ » ، بتشديد الراء ، من باب صرّ ، يَصُرُّ ، من التصرية ، وهي الجمع والضم^(٢) ، وهذه القراءة غير معروفة ، فهذا الاحتمال ساقط .

٢ - أن يكون مأخوذاً من الصَّير ، معتل العين ، فيقال صار يصير صيراً ، بمعنى انتهى إليه ، مثل قوله : ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ . والأمر منه « صُرَّ » ولعل من فسره من أهل اللغة بمعنى المَيْل أخذه من هذا .

٣ - أن يكون مأخوذاً من « صري » ، معتل اللام ، ذكره الفراء في معاني القرآن ، فقال إنها إن كانت بمعنى القطع ، تكون من « صَرَيْتَ ، تصري » ، واستشهد بقول الشاعر :

(١) سورة ق - الآية ٤ .

(٢) الكشف ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .

صَرَتْ نَظْرَةً لَوْ صَادَفَ جُوزَ دَارِعٍ .
غَدَاً وَالْعَوَاصِي مِنْ دَمِ الْجُوفِ تَنْعَرُ^(١)

فإن جعل من « صَيْرَ » يكون بمعنى « أَمْلَهُنَّ إِلَيْكَ » ، ويجب عند ذلك تقدير كلمة أقطعهن ، لدلالة ظاهر الكلام عليه ، فيكون معنى الآية : أَمْلَهُنَّ إِلَيْكَ ، فَقَطَّعَهُنَّ ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءً ، مثل قوله : ﴿ إِضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ ﴾ ، أي فضرِب فانفلق .

وإن جعل من « صري » ، تكون الكلمة متضمنة معنى الميل بقرينة تعديها بـ « إلى » ، فيكون المعنى : اقطعهن متبايلات إليك ، كتبايل كل طير إلى صاحبه .

وعلى كل تقدير ، فالآية تدل على أنَّ إبراهيم قَطَّعَهُنَّ وخلط أجزاءهن ، ثم فرقها على الجبال ، ثم دعاهن ، فَأَتَيْنَهُ سَعِيًّا .

ومن غريب التفسير ، ما ذكره صاحب المنار فقال في معنى الآية ما حاصله : خُذْ أَرْبَعَةَ مِنَ الطَّيْرِ فَضْمِهَا إِلَيْكَ ، وَأَنْسِهَا بِكَ ، حتى تستأنس وتصير بحيث تجيب دعوتك إذا دعوتها ، فإن الطيور من أشدَّ الحيوانات استعداداً لذلك ، ثم اجعل كل واحد منها على جبل ، ثم ادعها ، فإنها تُسْرِعُ إِلَيْكَ من غير أن يمنعها تفرق أمكنتها وبعدها ، كذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى ، يدعوهم لكلمة التكوين : « كونوا أحياء » ، فيكونون أحياء ، كما كان شأنه في بدء الخلقة ، ذلك إذ قال للسموات والأرض : ﴿ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ قال : والدليل على ذلك من الآية قوله تعالى : ﴿ فَصُرُّهُنَّ ﴾ ، فإن معناه « أَمْلَهُنَّ » ، أي أوجد ميلاً بها ، وأنسها بك ويشهد به تعديته بإلى ، فإن صار إذا تعدى بإلى كان بمعنى الأماله^(٢) .

(١) معاني القرآن : ج ١ ص ١٧٤ . الشعر : « صَرَتْ نَظْرَةً » : أي قطعت نظرة ، أي فعلت ذلك ، والجوز وسط الشيء والعواصي جمع العاصي وهو العِرْق ، ويقال نعر العرق : فار منه الدم .

(٢) لاحظ تفسير المنار ، ج ٣ ، ص ٥٨٥٥ . وذكر وجوهاً في دعم هذه النظرية التي نقلها عن أبي مسلم ، وقد استحسنتها في آخر كلامه ، وقال : « وَلِلَّهِ دَرُّ أَبِي مُسْلِمٍ ، مَا أَذَقَ فَهْمَهُ وَأَشَدَّ اسْتِقْلَالَهُ فِيهِ » .

يلاحظ عليه : إنَّ ما ذكره خلاف نصوص الآية ، فإن إبراهيم طلب من الله سبحانه أن يُريَهُ كيف يحيي الموتى أولاً ، وأراد سبحانه ، بقرينة تخلل الفاء في قوله ﴿ فخذ ﴾ ، إجراء ذلك بيد إبراهيم ثانياً ، ثم أمره سبحانه أن يجعل كل جزء منهن على جبل ، لا كل واحد منهن عليه ثالثاً .

وهذه الوجوه تدعم صحة النظرية المعروفة في تفسير الآية . وأما تعدية ﴿ صرهن ﴾ بـ ﴿ إليك ﴾ ، فقد عرفت الكلام فيه ، وأنه إن كان بمعنى الميل فالأمر بالتقطيع مقدّر ، وإن كان بمعنى القطع ، فالكلمة متضمنة لمعنى الميل .

على أنه لو كان المراد ما اختاره من المعنى ، لما احتاج إلى هذا التفصيل ، بل يكفي في المقام إحالة إبراهيم إلى لاعبي الطيور ، الذين يربون الطيور ، حتى إذا استأنسوا بأصحابهن ، يفرقونهن للطيران ، ثم يدعونهن بالصفير والعلامات الخاصة ، فيأتين سعيّاً .

ولعمري ، إنَّ هذا التفسير يحطّ من عظمة القرآن ، وجلالته ، ويفتح الباب للملحدين في تأويل ما دلّ عليه القرآن من معاجز وكرامات الأنبياء والرسل ، ولقد أعرب الكاتب عن باعته في آخر كلامه بقوله : « وأما المتأخرون فهمهم أن يكون في الكلام خصائص للأنبياء ، من الخوارق الكونية ، وإن كان المقام ، مقام العلم والبيان والإخراج من الظلمات إلى النور ، وهو أكبر الآيات ، الخ »^(١) .

وهذا يعرب عن أن المعاجز بنظره ، تضاد العلم ولا تصلح للإخراج من الظلمات إلى النور ، مع أنه سبحانه أسماها بالبينات ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾^(٢) .

* * *

(١) المصدر السابق ، ص ٥٨ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ١٠١ ولقد خرجنا في تفسير الآية عمّا اتبعناه من الإيجاز إعجازاً للباحث بما في المنار وأمثاله من الدعوات التي لا تتفق مع مبادئ الإسلام ، وسيلاحظ نظيره في الآية التالية .

٢ - إحياء عَزَيْر

يحكي الذكر الحكيم أنَّ رجلاً صالحاً مرَّ على قرية خربة ، وقد سقطت سقوفها ، فتساءل في نفسه ، كيف يحيي الله أهلها بعدما ماتوا ؟ ، ولم يقل ذلك إنكاراً ولا تعجباً ولا ارتياباً ، ولكنه أحبَّ أن يُريَه الله إحياءها مشاهدة ، مثل قول إبراهيم الذي تقدم ، فأماته الله مائة سنة ثم أحياه ، فسمع نداءً من السماء : « كم لبثت ؟ » ، فقال : « لبثت يوماً أو بعض يوم » ، لأنَّ الله أماته في أول النهار ، وأحياه بعد مائة سنة في آخر النهار ، فقال : يوماً ، ثم التفت فرأى بقية من الشمس ، فقال : أو بعض يوم . فجاءه النداء بل لبثت مائة سنة ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم تغيِّره السنون ، وقيل كان زادُه عصيراً ، وتيناً ، وعنباً ، وهذه الثلاثة أسرع الأشياء تغيُّراً وفساداً فوجد العصير حلواً ، والتين والعنب جنيان لم يتغيَّرا ، ثم أمر بأن ينظر إلى حماره كيف تفرقت أجزاؤه وتبددت عظامه ، فجعل الله سبحانه إحياء آية للناس وحجة في البعث . ثم جمع الله عظام حماره وكساها لحماً وأحياه .

يقول سبحانه : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، قَالَ : أُنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إِلَى جِهَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِئُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ، قَالَ أَعْلَمْتُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

والإمعان في قوله سبحانه : ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ﴾ ، يُفيد أنه أماته سبحانه ، ثم أحياه بعد تلك المدة .

كما أنَّ الإمعان في قوله : ﴿ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ ﴾ ، سواء أريدَ منه عظام حماره أو غيره ، يفيد أنه سبحانه كساها لحماً ثم أحياه ، فكان هناك إحياءً لميتين .

وقد سلك صاحب المنار في تفسير الآية نفس المسلك السابق ، فحملها على

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٩ .

أن المراد من الإمامة هنا السُّبُبات ، وهو النوم المستغرق الذي سَمَّاه الله سبحانه : وفاة ، واستعان في تقريره بأنَّه قد ثبت في هذا الزَّمان أنَّ من الناس من تُحَقِّقُ حياته زمناً طويلاً يكون فيه فاقد الحس والشعور ، فلبث الرجل الذي ضُرب على سمعه مائة سنة ، غير محال في نظر العقل ^(١) .

يلاحظ عليه : إنَّ تفسير الموت بالسُّبُبات يحتاج إلى دليل ، والظاهر منه هو الإمامة الحقيقية .

وقياس المقام بأصحاب الكهف ، قياس مع الفارق ، حيث إنه سبحانه يصرِّح هناك بالسُّبُبات ، ويقول : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ ^(٢) ويقول : ﴿ وَنَحْسَبُهُمْ آيَاتًا لَهُمْ رُقُودٌ ﴾ ^(٣) ، بخلاف المقام .

على أنه لا يتطرَّق في العظام التي أنشَرَّهَا ، ثم كساها لحماً وأحياها . فلا مصير لمفسِّر كلام الله من الإذعان بالغيب ، والقدرة المطلقة لله جلَّ وعلا . ومحاولة تفسير المعاجز بما ثبت في العلوم ، نوع انسحاب في الصراع مع الماديين المنكرين لكلِّ ما لا يتفق مع أصول العلم الحديث .

٣- إحياء قوم من بني إسرائيل

ذكر المفسرون أنَّ قوماً من بني إسرائيل فروا من الطاعون أو من الجهاد ، لما رأوا أنَّ الموتَ كثرَ فيهم ، فأماهم الله جميعاً ، وأمات دوابهم . ثمَّ أحياهم لمصالح مذكورة في الآية التالية ، قال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ ، حَذَرَ الْمَوْتِ ، فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مَوْتُوا ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ^(٤) .

(١) المنار ، ج ٣ ، ص ٥٠ .

(٢) سورة الكهف : الآية ١٨ .

(٣) سورة الكهف . الآية ١٨ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢٤٣ .

والرؤية في الآية بمعنى العلم ، أي : « ألم تعلم » ، وذكر المفسرون حول فرارهم من الموت ، وكيفية إحيائهم ، أموراً ، يرجع إليها في محلها^(١) .

والآية كما تثبت وقوع إحياء الموق ، بعد إمكانه ، تثبت إمكان الرجعة إلى الدنيا ، على ما يتبناه الشيعة الإمامية ، كما هو الحال أيضاً في إحياء عزيز ، وسيوافيك الكلام فيها بعد الفراغ من المعاد .

ومما يثير العجب ما ذكره صاحب المنار حيث قال : « الآية مسوقة سَوِّقَ المثل ، والمراد بهم قومٌ هَجَمَ عليهم أولوا القوة والقُدرة من أعدائهم لاستدلالهم واستخدامهم وبسط السلطة عليهم ، فلم يدافعوا عن استقلالهم ، وخرجوا من ديارهم وهم ألوف ، هُمُ كثرة وعزة ، حذر الموت ، فقال لهم الله : موتوا موت الحزبي والجهل ، والحزبي موتٌ والعلم وإباء الضيم حياة ، فهؤلاء ماتوا بالحزبي ، وتمكّن الأعداء منهم ، وبقوا أمواتاً ثم أحياهم بإلقاء روح النهضة والدفاع عن الحق فيهم فقاموا بحقوق أنفسهم واستقلوا في ذلك »^(٢) .

يلاحظ عليه : أولاً : إن الظاهر أنّ الآية تبين قصة واحدة ، وهي فرار قوم من الموت ، فأماهم الله ، ثم أحياهم ، لا بيان قصتين . بمعنى تشبيه من لم يدافعوا عن عزتهم ، وغلبوا ، وبقوا كذلك حتى نفث في روعهم روح النهضة ، فقاموا للدفاع ؛ يَقُومُ فروا من الموت الحقيقي ، فأماهم الله موتاً حقيقياً ، ثم أحياهم ، ولو كانت الآية جارية مجرى المثل لَوَجَبَ أَنْ يكون هناك مشبه ومشبه به ، مع أنّ الآية لا تحتل ذلك .

ولأجل ذلك نرى أنّه سبحانه عندما يريد التمثيل بضمون آية يأتي بلفظ « مثل » ، ويقول : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ﴾^(٣) ؛ ﴿ وَإِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ ﴾^(٤) ؛ ﴿ مَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ

(١) لاحظ مجمع البيان، ج ١ ، ص ٣٤٦-٣٤٧ . وغيره .

(٢) المنار ، ح ٣ ، ص ٤٥٨-٤٥٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٧ .

(٤) سورة يونس : الآية ٢٤ .

أسفاراً ﴿١﴾ .

وثانياً : لو كان المراد من الموت ، موت الخزي ، ومن الحياة ، روح النهضة ، للزم على الله سبحانه مدحهم وذكرهم بالخير ، مع أنه يذمهم في ذيل الآية ، فإن فيها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

ثم إن صاحب المنار استعان في ردّ نظرية الجمهور ، بقوله سبحانه ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ (٢) فلا حياة في هذه الدنيا إلا حياة واحدة (٣) .

ولكن عزب عنه أن ما جاء في الآية يدل على سنة الله تعالى في عموم الناس ، وهذا لا يخالف اقتضاء مصالح معينة ، أن يذوق البعض النادر منهم حياتين ، وقد وافاك الكلام في ذلك عند البحث في الحياة البرزخية .

٤ - إحياء قتيل بني إسرائيل

روى المفسرون أن رجلاً من بني إسرائيل قتل قريباً له غنياً ، ليرثه وأخفى قتله له ، ورغب اليهود في معرفة قاتله ، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ، ويضربوا بعض القتيل ببعض البقرة ، ليحيا ويخبر عن قاتله ، وقد قاموا بذبح هذه البقرة بعد تساؤلات بينهم وبين موسى تكشف عن لجاحهم وعنادهم . ثم ضربوا بعض القتيل بها ، فقام حياً وأوداجه تشخب دماً ، وقال : « قتلني فلان ابن عمي » ، ثم قبض . يقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤاً ، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * . . . * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فقلنا اضربوه ببعضها ، كذلك يُجيب الله

(١) سورة الجمعة : الآية ٥ .

(٢) سورة الدخان : الآية ٥٦ .

(٣) المنار ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

الْمَوْتِ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ .

إنَّه سبحانه وإن كان قادراً على إحيائه من دون ذبح البقرة ، ولكنه أمرهم بذلك لأنهم سألوا موسى أن يُبينَ لهم حال القتيل وهم كانوا يَعُدُّونَ الْقُرْبَانَ من أعظم القربات .

فأمرهم الله بتقديم هذه القرية تعليماً منه لِكُلِّ من اعتاص عليه أمر من الأمور ، أن يقدم نوعاً من القرب قبل أن يسأل الله تعالى كَشَفَ ذلك عنه ، ليكون أقرب إلى الإجابة ، وإنما أمرهم بضرب بعض القتيل ، ببعض البقرة ، بعد أن جعل اختيار وقت الإحياء إليهم ، ليعلموا أن الله سبحانه وتعالى قادرٌ على إحياء الموتى في كل وقت من الأوقات ، ومعنى قوله : ﴿ إِضْرِبُوهُ بِعَصَاكَ ﴾ ، كذلك يُحيي الله الْمَوْتِ ﴿ ، إنهم ضربوه فأحيي ، مثل قوله سبحانه : ﴿ إِضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ ﴾ ، أي فضربه فانفلق ، وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ ﴾ ، يراد منه تفهيم قوم موسى بأنهم إذ عاينوا إحياء الميت ، فليعلموا أن الله قادر على إحياء الموتى للحساب والجزاء .

هذا ما ذهب إليه الجمهور في تفسير الآية ، وهو المتبادر منها ، وقد اتخذ صاحب المنار في تفسير الآية ، موقفه السلبي في باب المعاجز والكرامات ، فقال بعد ما ذكر نظرية جمهور المفسرين : « والظاهر مما قدمناه أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل ، إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ، ليعرف الجاني من غيره ، فمن غسل يده^(٢) وفَعَلَ ما رُسِمَ لذلك في الشريعة ، بريء من الدم ، ومن لم يفعل ، تثبت عليه الجنابة . ومعنى إحياء الموتى على هذا ، حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تُسْفَكَ بسبب الخلاف في قتل تلك النفس ، أي يحییها بمثل هذه الأحكام . وهذا الإحياء على حد قوله تعالى :

(١) لاحظ سورة البقرة : الآيات ٦٨-٧٣ .

(٢) لاحظ في كفة ذلك ، العهد القديم سفر التثنية : الأصحاح ٢١ ، ص ٢١١ ، ط دار الكتاب المقدس ، وحاصله أنهم يغسلون أيديهم في دم عجلة ويقولون : أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعیننا لم تبصر .

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾^(١) وقوله : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾^(٢)»^(٣) .

يلاحظ عليه : أولاً : إنّ هذا التفسير لا ينطبق على قوله : ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ ، فإنّ معناه : اضربوا بعضَ النَّفْسِ المقتولة ببعض جسم البقرة ، وأين هذا من غسل أيدي المتهمين في دم العجلة المقتولة ، فهل غسل الأيدي في دمها عبارة عن ضرب المقتول ببعض البقرة ؟!

وثانياً : إنّ سبحانه يقول : ﴿كَذَلِكَ يُخَيِّئُ اللَّهُ الْمَوْتَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ ، فالقصة تتضمن آية من آيات الله ، ومعجزة من المعاجز ، فهل في غسل الأيدي بدم العجلة ودرء التهمة عن المتهم ، إراءة للآيات الإلهية .

وثالثاً : إنّ تفسير الآية بالاستناد إلى الإسرائيليات والمسيحيات ، مسلك ضال في تفسير كتاب الله العزيز ، وليس اللجوء إليها إلا لأجل ما اتخذها صاحب المنار من موقف مسبق تجاه المعاجز وخوارق العادات ، وإصراره على إرجاع عالم الغيب إلى الشهادة .

٥ - إحياء سبعين رجلاً من قوم موسى

ذكر المفسرون أنّ موسى عليه السلام إختار من قومه سبعين رجلاً حين خرج من الميقات ليكلّمه الله سبحانه بحضرتهم ، فيكونوا شهداء له عند بني إسرائيل لعدم وثوقهم بأنّ الله سبحانه يكلّمه ، فلما حضروا الميقات ، وسمعوا كلامه تعالى سألوا الرؤية ، فأصابتهم الصاعقة فماتوا ، ثم أحياهم الله تعالى^(٤) ، يقول سبحانه :

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ، فَأَخَذْتُكُمْ

(١) سورة المائدة : الآية ٣٢ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٧٩ .

(٣) لاحظ المنارج ١ ، ص ٣٤٥-٣٥٠ .

(٤) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٤٨٤ .

الصاعقة وأنتم تنظرون، ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴿١﴾ .

ويقول سبحانه : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك نضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ﴾ ﴿٢﴾ .

والمبتدأ من الآية هو إحيائهم بعد الموت ، والخطاب لليهود والمعاصرين للنبي باعتبار أسلافهم ، ولا يفهم أي عربي صميم من جملة : ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ : سوى الإحياء بعد الإماتة .

وقد اتخذ صاحب المنار في تفسير الآية موقفه المعلوم من المعاجز ، فذهب إلى أن المراد من البعث هو كثرة النسل . أي إنه بعدما وقع فيهم الموت بالصاعقة ، وظن أن سينقضون ، بارك الله في نسلهم ، ليعد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التي تمتع بها الأباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها ﴿٣﴾ .

يلاحظ عليه : أولاً : إن الظاهر من قول موسى : ﴿ لو شئت أهلكتهم من قبل ﴾ ، أنه سبحانه أجاب دعوته ، وأحيائهم حتى يدفع عنه عادية اعتراض القوم بأنه ذهب بهم إلى الميعاد ، فأهلكهم . وهذا لا يتم إلا إذا كان المراد هو إحيائهم حقيقة .

وثانياً : إن الرجفة لم تأخذ إلا سبعين رجلاً من قومه ، فليس في إهلاكهم مظنة انقراض نسلهم .

وعلى كل تقدير فالباعث لصاحب المنار على تفسيره ، هو جنوحه إلى إنكار المغيبات ، وتطبيق ما ورد في الذكر الحكيم على العالم الحسي التجريبي .

٦ - المسيح يحيي الموتى

إن الكتاب الحكيم يذكر في غير مورد ، إحياء المسيح للموتى . قال تعالى

(١) سورة البقرة : الآيات ٥٦ و ٥٥ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٥٥ .

(٣) تفسير المنار ، ج ١ ، ص ٣٢٢ .

حاكياً عنه : ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ ، وَأُحْيِي الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ . . . وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتِ بِإِذْنِي ﴾ (٢) .

وقد تضافر في التاريخ والإنجيل والحديث ، قيام المسيح بإحياء الموتى مرات عديدة ، بحيث صار المسيح علماً وسمّة لإحياء الموتى ، وعلاج الأمراض المستعصية .

٧ - إيقاظ أصحاب الكهف

روى المفسرون أنّ فتيّة من قوم آمنوا بالله تعالى وكانوا يُخفون إيمانهم خوفاً من مَلِكِهِمْ ، الذي كان يعبد الأصنام ويدعو إليها ، ويقتل من خالفه ، والفتية كانوا على دين المسيح ، وكان كل واحد منهم يكتُم إيمانه عن صاحبه . ثم اتفق أنهم اجتمعوا وأظهروا أمرهم لبعضهم ، ولجأوا إلى كهف ، فضرب سبحانه على آذانهم ، فناموا في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ، ثم بعثهم . يقول سبحانه :

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ، فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرْبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنُعَلِّمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ (٣) .

والمراد من الضرب على الأذان هو إنانمتهم ، لا سلب حياتهم ، كما يقول سبحانه : ﴿ وَنَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ (٤) .

(١) سورة آل عمران : الآية ٤٩ .

(٢) سورة المائدة : الآية ١١٠ .

(٣) سورة الكهف : الآيات ١٠ - ١٢ .

(٤) سورة الكهف : الآية ١٨ .

فإنامة الله سبحانه هؤلاء الفتية هذه المدة المديدة ، ثم إيقاظهم ، لا يقصر
عن الإمامته والإحياء ، والقادر عليه قادر على إحياء الموتى .

* * *

هذه النماذج المحسوسة من إحياء الموتى ، إذا انضمت إلى البراهين الناصعة
الدالة على إمكان إحياء الموتى ، من طريق سعة قدرته سبحانه ، توجب القطع
بإمكان المعاد ، وجمع العباد بعد موتهم ، للحساب والجزاء .

* * *

مباحث المعاد

(٦)

الموت نافذة إلى حياة جديدة

الموت آخر مرحلةٍ من مراحل الحياة الدنيوية ، وأوّل مرحلة من الحياة الأخروية . ولأجل التعرف على ما ورد حوله من الآيات ، نبحث عن الأمور التالية :

- ١ - الموت في اللغة والقرآن .
 - ٢ - هل الموت أمرٌ عديم أو وجودي ؟
 - ٣ - الموتُ سنةٌ من سنن الله العامة .
 - ٤ - لماذا يستوحش الإنسان من الموت ؟
 - ٥ - الموت وأقسامه في القرآن .
 - ٦ - الموت والأجل المسمى .
 - ٧ - الإنابة حال الموت .
 - ٨ - الوصية عند الموت .
 - ٩ - جهل الناس بأوان موتهم .
 - ١٠ - الموت والملائكة الموكّلون بقبض الأرواح .
- وفيما يلي نبحث عن كل واحدٍ منها .

* * *

الأمر الأول - « الموت » في اللغة والقرآن

قال في المقاييس : « الموت ، أصل صحيح يدل على ذهاب القوة من الشيء ، منه : الموت خلاف الحياة »^(١) . وهذا هو الأصل في استعماله ، فلو أطلق لفظ الموت على إطفاء النار ، وخروج الأرض من قابلية الزرع والاستصلاح ، أو على النوم . فالكل يرجع إلى ذلك الأصل .

قال في اللسان : « الموت يقع على أنواع بحسب أنواع الحياة ، فمهما ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة في الحيوان والنبات ، كقوله تعالى : ﴿ يُجَيِّدُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ .

ومنها زوال القوة الحسية ، كقوله تعالى - حاكياً قول مريم عليها السلام - ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ .

ومنها زوال القوة العاقلة ، وهي الجهالة ، كقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ ، و﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتِ ﴾ .

ومنها الحزن والخوف المكدر للحياة ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ .

وقد يستعار الموت للأحوال الشاقة ، كالفقر والذل ، والسؤال والهرم ، والمعصية »^(٢) . فالإستعمال في الجميع بأصل واحد .

وقد استعمل القرآن لفظ الموت - كما عرفت - في موارد ، بهذا الملاك ، مثلاً يقول : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ ﴾^(٣) . ويقول في الأصنام : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾^(٤) . ويطلقه على المراحل المتقدمة من خلق الإنسان ، فيقول : ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾^(٥) . فترى في الجميع نوع ذهاب وزوال ، إما للطاقة كما في

(١) مقاييس اللغة ، ج ٥ ، ص ٢٨٣ ، مادة موت .

(٢) لسان العرب ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، مادة موت . لاحظ بقية كلامه .

(٣) سورة بس : الآية ٣٣ .

(٤) سورة النمل : الآية ٢١ .

(٥) سورة البقرة : الآية ٢٨ .

الأرض ، أو للقدرة على الحركة والتكلم ، كما في الأصنام ، وغير ذلك .

* * *

الأمر الثاني - هل الموت أمر عديمي ؟

إنّ ملاحظة المعنى اللغوي ، والإستعمال القرآني للفظ الموت ، يفيد أنّ الموت أمرٌ عديمي ، ولكنه من زاوية أخرى ، ليس أمراً عديمياً في موت الإنسان ، وذلك لو فُسر الموت بقبض الملائكة الطاقات الحسية الموجودة في الإنسان ، فإنّه أمرٌ وجوديٌّ ، وإن كانت النتيجة أمراً عديمياً .

ويمكن جعله أيضاً من الأمور الوجودية - في الإنسان ، بمعنى آخر ، وهو أنّ الموت نافذة على الحياة الجديدة ، وانتقال من منزل إلى منزل ، وإلى ذلك لمحات في كلام الأئمة الأطهار من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله .

يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : « أيّها الناس ، إنّنا خُلِقْنَا وإياكم للبقاء ، لا للفناء ، لكنكم من دار إلى دار تنقلون »^(١) .

ويقول سيد الشهداء الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام - مخاطباً أنصاره يوم عاشوراء - « صبراً بني الكرام ، فما الموت إلّا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة ، والنعيم الدائمة ، فأَيُّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر »^(٢) .

ويمكن جعله أمراً وجودياً أيضاً ، ببيان ثالث ، وهو أنّ الموت حَدّ الحياة الدنيوية ، وجدارها الذي إليه تنتهي .

أضف إلى ذلك أنّ الموت ربما يوصف بكونه أمراً عديمياً إذا نسب إلى الجسم ، وأمّا إذا نسب إلى الروح فلا يمكن تفسيره إلّا بأمر وجودي ، وهو انتقالها من مرحلة إلى مرحلة .

(١) الإرشاد ، للشيخ المفيد ، ص ١٢٧ .

(٢) معاني الأخبار ، للصدوق ، ص ٢٨٩ .

ولعلّه - لأحد هذه الوجوه - تعلق به الخلق في قوله سبحانه : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾^(١) .

والتقدير في قوله سبحانه - في تقدير حياة الإنسان - : ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾^(٢) .

* * *

الأمر الثالث - الموت سنة عامة في الخلق

إن قوانين الديناميكا الحرارية تدلّ على أنّ مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً ، وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة البالغة الانخفاض^(٣) . فيومئذ تنعدم وتستحيل الحياة ، وهذا ما كشف عنه العلم الحديث .

والقرآن يصف الموت سنة إلهية عامة ، فيقول في الإنسان : ﴿أَيْنَمَا كُنْتُمْ يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾^(٤) .

ويقول : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾^(٥) ويقول : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ، أَفَئِنَّ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾^(٦) .

ويقول الإمام علي عليه السلام : « ولو أنّ أحداً يجد إلى البقاء سُلماً ، أو لدفع الموت سبيلاً ، لكان ذلك سليمان بن داود عليه السلام ، الذي سُخِّرَ له مُلْكُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ »^(٧) .

(١) سورة الملّك : الآية ٢ .

(٢) سورة الواقعة : الآية ٦٠ .

(٣) وهي الصفر المطلق .

(٤) سورة النساء : الآية ٧٨ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ١٨٥ .

(٦) سورة الأنبياء : الآية ٣٤ . ولاحظ الآيات التالية : آل عمران : الآية ١٥ ، الأحزاب :

الآية ٦٠ ، الزمر : الآية ١٦ ، الواقعة : الآية ٨ ، الجمعة : الآية ٤٢ ، وغير ذلك .

(٧) نهج البلاغة ، الخطبة ١٨٢ .

وهناك آيات تدلّ على أنّ انهدام النظام أمر حتمي يوم القيامة ، وهو موته وسيجيء الكلام فيه في المباحث الآتية .

* * *

الأمـر الرابع - لماذا يستوحش الإنسان من الموت ؟

إنّ للإنسان علاقة شديدة بالبقاء ، وهي ميل طبيعي يُحسّه بفطرته . وبما أنّ الموتَ يُضادّ تلك النّغمة الفطرية ، فيجزع الإنسان العادي غير العارف بحقيقة الموت .

وعلى كل تقدير ، فالناس في الحياة الدنيا على قسمين ، قسّم يستوحش من الموت ، ويتصوره شبحاً مخيفاً ، يريد أن يقطع أنياط قلبه ويفترس حياته ، وهؤلاء بين من يرى الموت آخر الحياة ونفادها ، ويتخيّلون أنّ الموت إبـطال لذواتهم وشخصياتهم ، ومن يعتقد أنّ الموت نافذة للحياة الأخرى ، من دون أن يستعدوا لتلك المرحلة بصالح الأعمال ، بل أثقلوا كواهلهم بالمعاصي والذنوب ؛ فالموت عندهم سمّ يتجرعونّه .

يقول سبحانه تنديداً باليهود : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ^(١) .

وقسم آخر ، يشناقون إلى الموت ويتلقفونه بصدور رحبة ، ووجوه مشرقة ، لأنهم يرونه انتقالاً من حياةٍ مرّة إلى حياةٍ حلوة ، وهؤلاء هم الأنبياء والأولياء .

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « ولولا الأجل الذي كُتِبَ عليهم ، لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عينٍ شوقاً إلى الثواب ، وخوفاً من العقاب ، عَظَمَ الخالقُ في أنفسهم ، فَصَغَرَ ما دونه في أعينهم » .

(١) سورة البقرة : الآيتان ٩٤ - ٩٥ ، ولاحظ الجمعة : الآيتان ٧ - ٨ .

الأمر الخامس - الموت وأقسامه

ينقسم الموت إلى أقسام تأتي بها فيما يلي :

أ - الموت السهل والموت العسير

لا شك أنَّ الإنتقال من مرحلة إلى مرحلة أُخرى ، لا يخلو من مشقة ، حتى أنَّ الطفل عندما ينتقل من عالم الأجنة إلى عالم الشهود ، يتحمل جهداً ومشقة بالغين . وللإنسان في إطار حياته في النشأتين مراحل حساسة تُعدُّ كُلُّ منها منعطفاً في مسيرته الوجودية، وهي : مرحلة التَّوَلَّد، ومرحلة الموت، ومرحلة البعث، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (١) .

فالموتُ أحد هذه الحلقات الرئيسية في وجود الإنسان ، فهو لا يخلو بطبعه من مشقة وعسر ، ولكن لو غُضَّ البصر عنه ، فالموت حسب القرآن ينقسم إلى موت سهل وموت عسير :

الأول لصلحاء المؤمنين ، والثاني للعصاة والكافرين .

يقول سبحانه : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه في العصاة والظالمين : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (٤) .

(١) سورة مريم : الآية ١٥ ، ولاحظ مريم . الآية ٣٣ .

(٢) سورة النحل : الآية ٣٢ .

(٣) سورة الفجر : الآيتان ٢٧ و ٢٨ .

(٤) سورة ق : الآية ١٩ .

ويقول سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ (١) .

وفي الروايات الإسلامية أخبار كثيرة فيما قدمنا (٢) .

ب - موت البدن وموت القلب

وهناك تقسيم آخر للموت حسب متعلقه ، وهو أنه تارة ينسب إلى الجسم والبدن ، وأخرى إلى القلب ومراكز الإدراك ، والأول هو الموت الطبيعي ، والثاني من شؤون بعض الأحياء ، إذا حلَّ الكفر محلَّ الإيمان ، والجهل مكان العلم في قلوبهم ، فهؤلاء أموات بهذا النظر ، وإن كانوا أحياء ماديين يأكلون ويشربون ويتحركون ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ (٣) ويقول : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ (٤) .

ولا يختص الموت بهذه الطغمة الظالمة ، بل يعم المتخاذلين المستبطين في الدفاع عن عزهم وكيانهم ، ليعيشوا أياماً أو أعواماً صاعرين ، فهؤلاء أموات في منطق الإمام علي عليه السلام ، كما أنَّ المتفانين في حفظ عزتهم وكرامتهم أحياء ، وإن تضرَّجوا بدمائهم في سوح الجهاد ، يقول عليه السلام : « فَاَلْمَوْتُ ، فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ . والحياة ، في موتكم قاهرين » (٥)

كما أنَّ من لا يحسُّ بالمسؤولية أمام المجتمع ، ويترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعامة مراتبها ، ميّت الأحياء ، يقول علي عليه السلام : « ومنهم تارك لإنكار المنكر بلسانه ، وقلبه ويده ، فذلك ميّت الأحياء » (٦) .

(١) سورة محمد : الآية ٢٧ .

(٢) لاحظ بحار الأنوار ، ج ٦ ص ١٢٢ - ١٥٤ .

(٣) سورة النمل : الآية ٨٠ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١٢٢ . ولاحظ الروم : الآية ٥١ - ٥٢ .

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة ٥١ .

(٦) نهج البلاغة ، قسم الحكم ، الرقم : ٣٧٤ .

ج - موت الفرد والمجتمع

إنَّ للفرد شؤوناً من أوج وحضيض ، وَرُقِيٍّ وهبوط ، وموت وحياة ، كما أنَّ للمجتمع نفس تلك الشؤون ، حرفاً بحرف .

مثلاً : إنَّ الثورة نواة تنبت وتشتد وتستوي وتأخذ لنفسها حالة الهجوم والاندفاع ، ولا تبرح على تلك السَّمة حتى تنتقل إلى حالة أخرى ، تأخذ لنفسها حالة الدفاع ، ورَدَّ السَّهام الموجهة إليها . ولن تبرح على تلك الحالة حتى يَنْجَرَّ أمرها إلى الإنكسار والإنقراض .

ونظير ذلك جميع الحضارات البشرية ، والمناهج الإقتصادية والسياسية الإنسانية ، فلكلٍّ منها حالات ثلاث : هجوم ، دفاع ، خمود .

فكما أنَّ لكل فرد حياةً وموتاً وأجلاً حسب القرآن ، كذلك إنَّ للمجتمع حياةً وموتاً وأجلاً .

يقول سبحانه : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ ، لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١) .

ويعود القرآن ليعين ، عامل تدمير الحضارات والمجتمعات والأنظمة البشرية ، ويركز منها على الظلم بالأخص ، وعلى الإتراف ثانياً ، فالظلم خروج عن الحدِّ الوسط ، والإتراف هو الإنهاك في المعاصي ، وكلاهما يعجل في هلاك المجتمع واندثاره .

يقول سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (٢) . ويقول أيضاً : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا (بالتاعة) فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَّرْنَا تَدْمِيرًا ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ، وكفى بِرَبِّكَ

(١) سورة الأعراف : الآية ٤٣٧ . ولاحظ سورة يونس : الآية ٤٩ .

(٢) سورة هود : الآية ١١٧ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٧ .

يُذْنِبُ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ﴿١﴾ . والإمعان في هذه الآية يُفيد أن الظلم والفسق والذنوب ، مدمرات للمجتمع (٣)

د - موت العِزِّ وموت الهوان

ينقسم الموت إلى موت عِزٍّ وموت هوانٍ ، فالفادون أنفسهم في طريق نشر القسط والعدل والعلم وسائر المبادئ الإلهية يموتون موت عزٍّ وشرف ، والذين يقاتلون في سبيل الطاغوت ونشر الشر والجهل والفساد ، لغاية نيل أجور ضئيلة ومناصب مؤقتة ، يموتون موت الهوان والذلّ والعار .

يقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أحياء ، ولكن لا تشعرون ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه فيمن خرج طالباً للعلم والإيمان : ﴿ وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مهاجراً إلى الله ورسوله ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ (١)

* * *

الأمر السادس - الموت والأجل المسمى

يقسم القرآن الأجل إلى أجل ، وأجل مسمى ، وبيانه :

إن لكل نوع من أنواع الموجودات الحية ، بل مطلق الموجودات ، قابلية خاصة لإدامة الحياة والوجود . ومن هذا ، ما يقال إن العمر الطبيعي للإنسان هو

(١) سورة الإسراء : الآية ١٦ .

(٢) وأما ماهي الصلة بين هذه العوامل وتدمير المجتمع وانحلاله ، فهو يحتاج إلى بيان خارج عن موضوع الكتاب ، غير أننا نقول إجمالاً : إن بين هذه العوامل وإهلاك المجتمع ، رابطة مادية وطبيعية ، وفي الوقت نفسه رابطة إلهية ، فالوقوف على العلل المادية لا يغني عن الإذعان بأن هناك رابطة غيبية بين هذه العلل ومعلولها .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٥٤ . ولاحظ سورة آل عمران : الآية ١٦٩ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٠٠ ، ولاحظ سورة الحج الآية ٥٨ .

مائة وعشرون سنة ، فالإنسان - بما هو إنسان - قابل لأن يعيش هذا المقدار من الزمن . وفي ضوء ذلك ، لكل إنسان « أجل » ، بهذا المعنى ، ولكنه ليس أجلاً حتمياً وقطعياً ، بل قد ينقص عنه أو يزيد عليه لعوامل خاصة في حياته ، فرب إنسان يموت في العقد الخامس أو السادس من عمره ، وهو أجل حتمي ومسمى له ، مع أن الأجل المطلق كان أزيد منه . ورب إنسان يعيش أزيد من هذا الحد الطبيعي ، ويموت في العقد الخامس عشر من عمره ، وهو أجل حتمي ومسمى له ، وإن كان الأجل المطلق أنقص منه .

والأجل المطلق يعرفه غيره سبحانه ، ولكن الأجل الحتمي عنده ، فهو الذي يعرف الحد الذي تقف فيه حياة كل إنسان ، ولا تتجاوزه قطعاً ، يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ قَضَى أَجْلاً ، وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ، ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ ^(١) .

* * *

الأمر السابع - الإنابة عند الموت

قد عرفت أن قسماً من الناس يخافون من الموت لما علموا من أن كواهلهم مثقلة بعظائم الذنوب ، أو لاعتقادهم بأنه خاتمة المطاف في الحياة البشرية . والصنف الأول ، إذا فوجئوا بالموت ، يلجأون إلى التوبة والإنابة ، ويندمون ، ولكن لات حين مندم ، فإنهم قد ضيّعوا الفرص ، والتوبة إنما تقبل إذا كان الإنسان ذا مقدرة على الفعل والترك والطاعة والعصيان ، فيرجح باختياره الإنقياد ، على المخالفة ، وهذا من تقبل توبته ، لأن الإنابة في هذا المقام ، تكشف عن تحول روحي ، وثورة نفسانية على المعصية والتمرد والتجري ، وأما إذا وصل الإنسان في مدارج حياته إلى نقطة ليس أمامها إلا طريق واحد ، وهو ترك التمرد ،

(١) سورة الأنعام : الآية ٢ . وبما أن الكلام فيه قد سبق في الجزء الأول من هذا الكتاب « الإلهيات » ، ص ٥٨٦-٥٩٠ ، فقد اكتفينا بهذا المقدار .

لفقدان القوة والطاقة ، فلا تقبل التوبة عند ذاك ، لأنها لا تكشف عن انقلاب روعي نحو الكمال ، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه :

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ، قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾ (١) .

وقد ندم طاغية مصر ، فرعون ، عندما وافاه الغرق ، وأحس بالعجز عن استمراره بالعصيان فأسلم ، وقال : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بُنُو إِسْرَائِيلَ ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ * الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتُ قَبْلُ وَكُنْتُ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿ (٢) .

وقد كان الطغاة من الأمم السالفة على هذا النمط ، فلا يلجأون إلى الإنابة إلا بعدما يروا بأس الله تعالى ، يقول سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ، فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ (٣) .

يقول الإمام علي عليه السلام : « فهو يعصّ يده ندامة على ما أصحّر له عند الموت من أمره » (٤) .

* * *

الأمر الثامن - الوصية عند الموت

لا ينبغي لامريء مسلم أن يبيت ليلةً إلا ووصيته تحت رأسه (٥) .

ومع ذلك ربما يترك الإنسان هذه الفريضة ، فله الإيصاء حال الموت .

يقول سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا

(١) سورة النساء : الآية ١٨ .

(٢) سورة يونس : الآية ٩ .

(٣) سورة غافر : الآيتان : ٨٤ و ٨٥ .

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة ١٠٩ .

(٥) وسائل الشيعة ، ج ١٣ ، كتاب الوصايا ، الباب الأول ، الحديث ٧ .

الْوَصِيَّةُ ﴿١﴾ والمُرَاد من الْخَيْرِ هو الْمَالُ .

ويقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ، حِينَ الْوَصِيَّةِ ، إِثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ . . . ﴾ (٢) .

* * *

الأمر التاسع - جهل الناس بأوان موتهم

إقتضت الحكمة الإلهية جهل الناس بزمان ومكان موتهم ، وذلك لوجهين :
أ - لو علم الإنسان بزمان موته ، فربما يفشل في العمل قبل أن يحلَّ أجله ،
فإنَّ العامل الباعث إلى العمل والنشاط في الحياة ، هو الأمل ، فالأمل رحمة ،
ولولاه لما أرضعت والدة ولدها ، ولا غرس غارس شجرة (٣) .

ب - إنَّ لجهل الإنسان بأوان موته ومكانه ، تأثيراً تربوياً ، فإنه لو علم بأنه
سيموت بعد عام أو أشهر ، فترك التمرّد والتجري ، فلا يعد ذلك كمالاً روحياً ،
وثورة للفضائل على الرذائل ، وهذا بخلاف ما إذا سلك طريق الطاعة ، وترك
المعصية ، وهو يرجو العيش أعواماً طويلة ، فإنه يكشف عن كمال روحي ، يدفعه
نحو الفضائل ، يقول سبحانه : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (٤) .

* * *

الأمر العاشر - الملائكة المُوكَّلون بقبض الأرواح

قد عرفت أنَّ الخلق والتدبير من شؤونه سبحانه ، فهو القائل عز وجل :

(١) سورة البقرة : الآية ١٨ .

(٢) سورة المائدة : الآية ١٠٦ .

(٣) سفينة البحار ، مادة : « أمل » .

(٤) سورة لقمان ، الآية ٣٤ ، وهاتنا وجه ثالث وهو أنَّ علم الإنسان بزمان موته يُشجّعه على الفحور والعصيان متكللاً على التوبة والإنابة قبلَ مدّةٍ من حلول أجله .

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) . غير أن كونه مدبراً لا ينافي أن يكون هناك أسبابٌ غيبيةٌ أو طبيعيةٌ لقبض الأرواح فإنه أيضاً من شؤون التدبير . فتتوَقَّى الأنفس وأخذها ، فعَلَّ اللهُ سبحانه ، وفي الوقت نفسه فعَلُ الملائكته ، يقول سبحانه : ﴿اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾^(٢) .

وفي الوقت نفسه ينسبه إلى الملائكة ، ويقول : ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾^(٣) .

وفي موضع ثالث ينسبه إلى ملك الموت ، ويقول : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾^(٤) .

والنسبُ كُلُّها صحيحةٌ ، أخذاً بما ذكرناه في أقسام التوحيد من أن شيئاً واحداً يكون فعلاً لله سبحانه ، وفي الوقت نفسه فعلاً لعباده ، وقد تقدّم ذلك مفصلاً .



(١) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٤٩ .

(٣) سورة المائدة : الآية ١١٧ .

(٤) سورة السجدة : الآية ١١ .

مباحث المعاد

(٧)

الحياة البرزخية

البرزخ هو المنزل الأول للإنسان بعد مفارقة الدنيا بالموت ، وتحقيق الحال يتوقف على تبين معنى البرزخ ، وإثبات الحياة في تلك النشأة التي هي قبل البعث يوم القيامة .

قال ابن فارس في المقاييس : « البرزخ : الحائل بين الشيئين ، كأنّ بينهما برازاً أي متسعاً من الأرض ، ثم صار كل حائل برزخاً فالخاء زائدة لما ذكرنا »^(١) .

ويقول ابن منظور في اللسان : « البرزخ : ما بين شيئين . وفي الصحاح الحاجز بين شيئين . والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة : قبل الحشر من وقت الموت إلى البعث ، فمن مات فقد دخل البرزخ »^(٢) .

هذا معنى البرزخ وبه يفسر قوله سبحانه : ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾^(٣) . والوراء في الآية بمعنى الأمام كما في قوله سبحانه : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾^(٤) .

(١) المقاييس ، ج ١ ، ص ٣٣٣ .

(٢) لسان العرب ، ج ٣ ، مادة برزخ ، ص ٨ .

(٣) سورة المؤمنون : الآية ١٠٠ .

(٤) سورة الكهف : الآية ٧٩ .

والآية لا تفيد أزيد من وجود الفاصل ، والحاجز بين الدنيا والقيامة ، مثل قوله سبحانه : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾^(١) . ولا تدل على وجود حياة في هذا الفصل .

نعم ، هناك آيات يستفاد منها وجود حياة واقعية للإنسان في تلك النشأة ، نذكر منها ما يلي :

١ - قال تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَاهُ اثْنَتَيْنِ وَأُحْيَيْنَاهُ اثْنَتَيْنِ ، فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾^(٢) ؟

وهذه الآية تحكي عن تحقيق إحياءين وإماتتين إلى يوم البعث ، وقد اختلف المفسرون في تفسيرهما ، والمروي عن ابن عباس أن الإماتة الأولى ، حال كونهم نطفاً ، فأحياهم الله في الدنيا ، ثم أماتهم الموتة الثانية ، ثم أحياهم للبعث ، فهذان إحياءان وإماتتان ونظيره قوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْواتاً فَأُحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾^(٣) .

يلاحظ عليه : إن الآية الثانية ليست نظير الآية الأولى حتى تُفسر بها ، فإن الآية الثانية ، تصف الناس بكونهم أمواتاً ، وهو ينطبق على الإماتة في حال كون الإنسان نطفة أو قبل ذلك ، بخلاف الآية الأولى فإنها تحكي عن إماتة الإنسان ، والفرق بين الموت والإماتة واضح ، فالأحوال المتقدمة على النطفة ، ونفسها ، توصف بالموت ، دون الإماتة . فلأجل ذلك لا يصح تفسير الإماتة بما جاء في هذا القول .

والظاهر أن المراد هو ما يلي :

الإماتة الأولى هي الإماتة عن الحياة الدنيا .

والإحياء الأول هو الإحياء في البرزخ ، وتستمر هذه الحياة إلى نفخ الصور الأول .

(١) سورة الرحمن : الآية ٢٠ .

(٢) سورة غافر : الآية ١١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٨ .

والإماتة الثانية ، عند نفخ الصور الأول ، يقول سبحانه : ﴿ وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(١) .

والإحياء الثاني ، عند نفخ الصور الثاني ، يقول سبحانه : ﴿ وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾^(٢) .

وتعدد نفخ الصور يستفاد من الآيتين ، فيترتب على الأول هلاك من في السموات ومن في الأرض ، إلا من شاء الله ، وعلى الثاني قيام الناس من أجداثهم ، وفي أمر النفخ الثاني يقول سبحانه : ﴿ وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾^(٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا نُفِّخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾^(٤) . واختلاف الآثار يدل على تعدد النفخ .

وعلى ضوء هذا فلإنسان حياة بعد الإماتة من الحياة الدنيا ، وهي حياة برزخية متوسطة بين النشأتين .

٢ - قوله سبحانه : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾^(٥) .

وهذه الآية تدل على أنهم دخلوا النار بعد الغرق بلا فصل للقاء في قوله : ﴿ فَأُدْخِلُوا ﴾ . ولو كان المراد هو نار يوم القيامة لكان اللازم الإتيان بـ « ثم » أولاً ، وارتكاب التأويل في قوله ﴿ فَأُدْخِلُوا ﴾ ، حيث وضع الماضي مكان المستقبل لأجل كونه محقق الوقوع ، وهو خلاف الظاهر ، ثانياً .

٣ - قوله سبحانه : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ

(١) سورة الزمر : الآية ٦٨ .

(٢) سورة يس : الآية ٥١ .

(٣) سورة الكهف : الآية ٩٩ .

(٤) سورة المؤمنون : الآية ١٠١ .

(٥) سورة نوح : الآية ٢٥ .

السَّاعَةُ ، أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١﴾ .

وهذه الآية تحكي عرض آل فرعون على النار صباحاً ومساءً ، قبل يوم القيامة ، بشهادة قوله بعد العرض : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ . ولأجل ذلك ، عبر عن العذاب الأول بالعرض على النار ، وعن العذاب في الآخرة ، بإدخال آل فرعون أشدَّ العذاب ، حاكياً عن كون العذاب في البرزخ ، أخفَّ وطأً من عذاب يوم الساعة .

نعم ، هناك آيات تدلُّ على حياة الإنسان في هذا الحدِّ الفاصل بين الدنيا والبعث ، حياة تناسب هذا الظرف ، تقدّم ذكرها عند البحث عن تجرّد النفس ، ونكتفي هنا بهذا المقدار ، حذراً من الإطالة .

وأما من السنة ، فنكتفي بما جاء عن الصادق عليه السلام ، عندما سُئِلَ عن أرواح المؤمنين ، فقال : « في حجرات في الجنة ، يأكلون من طعامها ، ويشربون من شرابها ، ويقولون ربُّنا أتمِّمْ لنا الساعة وأنجز ما وعدتنا » .

وسُئِلَ عن أرواح المشركين ، فقال : « في النار يُعَذَّبون ، يقولون لا تُقِمِّمْ لنا الساعة ، ولا تُنْجِزْ لنا ما وعدتنا » (٢) .

السؤال في القبر وعذابه ونعيمه

إذا كانت الحياة البرزخية هي المرحلة الأولى من الحياة بعد الدنيا ، يظهر لنا أنّ ما اتَّفَق عليه المسلمون من سؤال الميت في قبره ، وعذابه إن كان طالحاً ، وإنعامه إن كان مؤمناً صالحاً ، صحيحٌ لا غُبار عليه ، وأنَّ الإنسان الحي في البرزخ مسؤول عن أمور ، ثم معذب أو مُنعم .

قال الصدوق في عقائده : « إعتقادنا في المسألة في القبر أنّها حقٌّ لا بُدَّ منها ، ومن أجاب الصواب ، فاز بَرَوْحٍ وريحان في قبره ، وبجنة النعيم في الآخرة ، ومن

(١) سورة غافر : الآية ٤٦ .

(٢) البحار ، ج ٦ ، باب أحوال البرزخ ، ص ١٦٩ ، الحديث ١٢٢ ، وص ٢٧٠ ، الحديث ١٢٦ .

لم يُجِبْ بالصواب ، فله نُزُل من حميم في قبره ، وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ فِي الآخِرَةِ «^(١) .

وقال الشيخ المفيد : « جاءت الآثار الصحيحة عن النبي أنَّ الملائكة تنزل على المقبورين فتسألهم عن أديانهم ، وألفاظ الأخبار بذلك متقاربة ، فَمِنْهَا أَنَّ مَلَائِكَةَ اللَّهِ تَعَالَى ، يقال لهما نَكِيرٌ وَنَكِيرٌ ، ينزلان على الميت فيسألانه عن رَبِّهِ وَنَبِيِّهِ وَدِينِهِ وَإِمَامِهِ ، فإن أجاب بالحق ، سلّموه إلى ملائكة النعيم ، وإن أرتج سلّموه إلى ملائكة العذاب . وفي بعض الروايات أن اسمي المَلَائِكَةِ الذين ينزلان على الكافر ، ناكِرٌ وَنَكِيرٌ ، واسمي المَلَائِكَةِ الذين ينزلان على المؤمن مُبَشِّرٌ وَبَشِيرٌ . إلى أن قال :

« وليس ينزل المَلَائِكَةُ إِلَّا على حَيٍّ ، ولا يسألان إِلَّا مَنْ يفهم المسألة ويعرف معناها ، وهذا يدلّ على أَنَّ الله تعالى يجيى العبد بعد موته للمسألة ، ويديم حياته لنعيم إن كان يستحقه ، أو لعذاب إن كان يستحقه »^(٢) .

وقال المحقق الطوسي ، في التجريد « وعذاب القبر واقع ، للإمكان ، وتواتر السمع بوقوعه » .

وقال العلامة الحلي ، في شرحه : « نقل عن ضرار أنّه أنكر عذاب القبر ، والإجماع على خلافه »^(٣) .

والظاهر اتفاق المسلمين على ذلك ، يقول أحمد بن حنبل : « وعذاب القبر حق ، يُسأل العبد عن دينه وعن ربه ، ويرى مقعده من النار والجنة ، ومنكر ونكير حق »^(٤) .

وقد نسب إلى المعتزلة إنكار عذاب القبر ، والنسبة في غير محلها ، وإنما المنكر واحدٌ منهم ، هو ضرار بن عمرو ، كما تقدم ، وقد تاب عن الاعتزال ولحق بالمجبرة ، قال القاضي عبد الجبار في فصل عذاب القبر : « وجلة ذلك أنّه لا

(١) عقائد الصدوق ، ص ٨١ ، من الطبعة الحجرية الملحقة بشرح الباب الحادي عشر .

(٢) شرح عقائد الصدوق : ص ٤٥ - ٤٦ .

(٣) كشف المراد ، ص ٢٦٦ ، ض صيدا ، ولاحظ إرشاد الطالبين ، ص ٤٢٥ .

(٤) السنة ، لأحمد بن حنبل ، ص ٤٧ ، ولاحظ الإبانة للأشعري ، ص ٢٧ .

خلاف فيه بين الأمة إلا شيء يحكى عن ضرار بن عمرو ، وكان من أصحاب المعتزلة ثم التحق بالمجبرة ، ولهذا ترى ابن الراوندي يشنع علينا ، فيقول : إن المعتزلة ينكرون عذاب القبر ولا يقرّون به » ، ثم استدللّ بآيات على حياة الإنسان في البرزخ^(١) .

هذا كلّه ممّا لا ريب فيه ، إنّما الكلام فيما هو المراد هنا من القبر ، والإمعان في الآيات الماضية التي استدللنا بها على الحياة البرزخية ، والروايات الواردة حول البرزخ ، يعرب بوضوح عن أنّ المراد من القبر ، ليس هو القبر المادي الذي يدفن فيه الإنسان ، ولا يتجاوز جثته في السّعة ، وإنّما المراد منه هو النشأة التي يعيش فيها الإنسان بعد الموت وقبل البعث ، وإنّما كنّى بالقبر عنها ، لأنّ النزول إلى القبر يلازم أو يكون بدءً لوقوع الإنسان فيها .

والظاهر من الروايات تعلّق الروح بأبدان تماثل الأبدان الدنيوية ، لكن بلطافة تناسب الحياة في تلك النشأة ، وليس التعلّق بها ملازمًا لتجويز التناسخ ، لأنّ المراد من التناسخ هو رجوع الشيء من الفعلية إلى القوة ، أعني عودة الروح إلى الدنيا عن طريق النطفة فالعلقة ، فالمضغة إلى أن تصير إنسانًا كاملاً ، وهذا منفي عقلاً وشرعاً ، كما سيوافيك . ولا يلزم هذا في تعلّقها ببدن الطّف من البدن المادي ، في النشأة الثانية .

قال الشيخ البهائي : « قد يتوهم أنّ القول بتعلّق الأرواح ، بعد مفارقة أبدانها العنصرية ، بأشباحٍ آخر - كما دلّت عليه الأحاديث - قولٌ بالتناسخ ، وهذا توهمٌ سخيف ، لأنّ التناسخ الذي أطبق المسلمون على بطلانه ، هو تعلّق الأرواح بعد خراب أجسادها ، بأجسامٍ آخر في هذا العالم ، وأمّا القول بتعلّقها في عالم آخر ، بأبدان مثالية ، مدّة البرزخ ، إلى أن تقوم قيامتها الكبرى ، فتعود إلى أبدانها الأولى بإذن مُبدعها ، فليس من التناسخ في شيء »^(٢) .

قال الرازي : « إنّ المسلمين يقولون بحدوث الأرواح وردها إلى الأبدان ،

(١) شرح الأصول الخمسة ، ص ٧٣٠ .

(٢) البحار ، ج ٦ ، ص ٢٧٧ .

لا في هذا العالم ، والتناسخية يقولون بقدمها ، وردّها إليها ، في هذا العالم ، وينكرون الآخرة والجنة والنار ، ولَمَّا كَفَرُوا من أجل هذا الإنكار»^(١) .

نَفْخُ الصُّور

إنَّ الإنسان الذي يعيش في هذا الكوكب ، بالنسبة إلى المعارف الغيبية ، كالجنين في بطن أمّه ، فلو قيل له إنَّ وراء الرحم أنجماً وكواكب وشموساً وأقماراً ، وبحاراً ومحيطاتٍ ، لا يفقه منها شيئاً ، لأنّها حقائق خارجة عن عالمه الضيق ، والإنسان الماديّ القاطن في هذا الكوكب لا يفقه الحقائق الغيبية الموجودة وراء هذا العالم ، فلاجل ذلك لا مناص له من الإيمان المجرّد من دون تعمق في حقيقتها ، وهذا أصل مفيد جداً في باب المعاد ، وعلى ذلك تبني مسألة نفخ الصور ، فما هو المراد من الصور ، أهو شيء يشابه البوق المتعارف أو شيء غيره ؟ وما هو المراد من النفخ ؟ لا مناص لنا من الاعتقاد بوجوده وتحقيقه ، وإن لم نتمكن من التعرف على واقعيته ، ومع ذلك فلا بُدَّ أن تكون هناك حقيقة واقعية ، لها صلة بين نفخ الصور في هذا العالم ، ونفخه في النشأة الأخرى .

تدلُّ الآيات على أنَّ الإنسان يعيش في البرزخ إلى أن يفاجئه نفخ الصور ، فعند ذلك يهلك كل من في السموات والأرض إلّا من شاء الله ، يقول سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾^(٢) . ففي النفخ الأول موت كل ذي حياة في السموات والأرض ، كما أنَّ في النَّفْخِ الثاني ، إحياءهم .

يقول سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾^(٣) .

* * *

(١) نهاية العقول ، للرازي ، البحار ، ج ٦ ، ص ٢٧٨ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٦٨ .

(٣) سورة يونس : الآية ٥٢ . والآية ناظرة إلى النفخ الثاني .

ما ذكرناه في هذا البحث تصوير وترسيم للنشأة التي يمرّ بها الإنسان بعد موته إلى أن يقوم من جدته ، ويحشر إلى الله تعالى . وفي البحث القادم تصوير لمشاهد القيامة ، من بداية وقوعها إلى أن يحاسب الإنسان ويصير إلى مآله من الجنة أو النار .

مباحث المعاد

(٨)

أشراط الساعة

الشَرَط - بالتحريك - : العلامة ، والجمع أشراط ، وأشراط الساعة :
أعلامها^(١) .

والمراد من أشراط الساعة العلامات والآيات التي تخبر عن دنو القيامة ،
وقربها ، وهي مأخوذة من الذكر الحكيم ، قال سبحانه : ﴿ فَقَدْ جَاءَ
أَشْرَاطُهَا ﴾^(٢) .

وهذه العلامات بعضها مذكور في الكتاب العزيز ، وبعضها مذكور في السنة
فنبحث عن كلا القسمين على وجه الإجمال .

وأما مشاهد القيامة ، فهي الحوادث الهائلة التي تقع في نفس قيام الساعة ،
التي وردت في سور التكويد والإنفطار والإنشقاق وغيرها ، كتكويد الشمس
وانكدار النجوم وانفطار السماء وانتثار الكواكب ، وتسجير البحار وتفجيرها ، وغير
ذلك . فالكل من مشاهد القيامة التي تأتي بها في بحث خاص وإليك الكلام في
أشراط الساعة الواردة في الكتاب .

(١) لسان العرب ، ج ٧ ، ص ٣٢٩ ، مادة شرط .

(٢) سورة محمد : الآية ١٩ .

أشراط الساعة في الكتاب

جاء في الذكر الحكيم أمور يستظهر منها أنها من أشراط الساعة ، والآيات الواردة في هذا المجال بين واضحة الدلالة وغيرها .

أ- بعثة النبي الأكرم

يقول سبحانه : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ ، أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ، فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ (١) .

إن هذه الآية تندد بالمشركين بأنهم لا يؤمنون ، ولا ينتظرون شيئاً إلا القيامة أن تأتيهم فجأة حتى يؤمنوا ، ولكن لا يفيدهم عندها إيمانهم ، ومن أين لهم التذكر والاعتاظ والتوبة إذا جاءتهم الساعة بغتة . ومع ذلك كله فليعلموا أن الساعة ، وإن لم تأتهم ، ولكن قد جاءتهم أشراطها وعلاماتها ، فعليهم أن يتّعظوا بذلك .

والآية غير متضمنة لتعيين ما جاء من الأشراف ، لكن قال ابن عباس : « والنبي من أشراطها ، ولقد قال بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين » (٢) .

وكون بعثة النبي من معالم الساعة ، لا ينافي وجود هذه الفترة الطويلة بينه وبين القيامة ، وذلك لأن ما مضى من عمر الأرض والمجتمع الإنساني أزيد بكثير مما بقي منه ، فيصح جعل ظهوره من معالم الساعة .

ويحتمل أن يكون المراد من أشراط الساعة التي جاءتهم إنشقاق القمر بيده ، ونزول القرآن الذي هو آخر الكتب (٣) .

ب- إندكاك السدّ وخروج يأجوج ومأجوج

جاء في الذكر الحكيم أن ذا القرنين وصل في مسيره إلى قوم طلبوا منه أن

(١) سورة محمد : الآية ١٨ .

(٢) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ١٠٢ .

(٣) لاحظ المصدر السابق نفسه .

يَبْنِي لَهُمْ سَدًّا يَحْجُزُ عَنْهُمْ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ وَيَقِيهِمْ شَرْهَما ، فقام ذو القرنين بعملية كبيرة ، حيث سَدَّ ما بين الجبلين - الذي كان طريق نفوذهما - بِزُبُرِ الْحَدِيدِ ثُمَّ أَنْجَزَ عملية بناء السدِّ بما يحكيه تعالى من قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا ، حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي زُبُرَ الْحَدِيدِ أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ (١) .

فلما فرغ من بناء السدِّ قال :

﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ ، يعرب عن كون اندكاك السدِّ من أشراط الساعة (٣) . والمراد أنه بعد انقضاء أمر السدِّ يموج بعض الناس في بعض ، فَيَرْتَفِعُ مِنْ بَيْنِهِمُ النُّظْمُ ، وَيَحْكُمُ فِيهِمُ الْهَرَجُ وَالْمَرْجُ ، ويظهر هذا أيضاً من آية أخرى ، أعني قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ * واقترب الوعد الحقُّ فإذا هي شاحصة أبصار الذين كفروا يا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (٤) .

فمفادها أنه عندما ينفرج سدُّ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ ، يتفرق المحجوزون خلف السدِّ ، في الأرض ، فلا ترى أكمةً إلا وقوم منهم يهبطون منها ، وعند ذلك يقترب الوعد الحقُّ ، أي قيام الساعة . فيكون اندكاك السدِّ وانتشار يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ في الأرض من أشراط الساعة ، لحكايته عن اقتراب الوعد الحقِّ ، وهذا هو المراد من أشراط الساعة .

ج - إتيان السماء بِدُخَانٍ مَبِينٍ

إِنَّ الصَّنَاعَاتِ الْبَشَرِيَّةَ أَوْجَدَتْ قَلْقًا فِي الْحَيَاةِ ، وَلَوُثَّتِ الْبَيْئَةُ فِي الْأَرْضِ

(١) سورة الكهف : الآية ٩٦ .

(٢) سورة الكهف : الآيتان ٩٨ و ٩٩ .

(٣) ويمكن جعله من أشراطها على حدة ، فإنها تحكي عن عموم حالة الفوضى والهرج والمرج العالم بأسره .

(٤) سورة الأنبياء : الآيتان ٩٦ و ٩٧ .

بالأدخنة المتصاعدة من معاملها ، والإبخرة المتطايرة من موادها . ولكنها إلى اليوم ليست إلى الحد الذي يزاحم الحياة ، والله يعلم مآل الأمور .

ولكنه تعالى يخبر عن حدوث دخان في السماء ، يَغْشَى الناس ، ويكون عذاباً أليماً لهم ، يقول تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ * إِنَّا كَاشَفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ (١) .

إِنَّ في تفسير الآية وجهين :

الوجه الأول - إن مجموع هذه الآيات راجعة إلى عصر النبي ، وذلك أن رسول الله دعا على قومه لما كَذَّبُوهُ ، فقال : أَللَّهُمَّ سَنِينَا كَسِينِي يَوْسُفَ ، فَاجْتَذَبَتْ الْأَرْضُ وَأَصَابَتْ قُرَيْشًا الْمَجَاعَةُ ، وكان الرجل لما به من الجوع ، يرى بينه وبين السماء كال دخان ، فجاؤوا إلى النبي وقالوا : يا محمد ، جئت تأمر بصلة الرحم وقومك قد هلكوا . فَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُم بِالْخَصْبِ وَالسَّعَةِ ، فَكُشِفَ عَنْهُمْ ، ثم عادوا إلى الكفر (٢) .

يلاحظ على هذا الوجه : أولاً ، إِنَّ ظاهر الآية أَنَّ السماء تأتي بدخان مبین ، وتحدته ، وهو غير تحلِّي السماء بصورة الدخان في عين الجائع ، الذي هو انخداع الحواس لغلبة الجوع ، من دون أن يكون هناك دخان في الواقع .

وثانياً : إِنَّ أصحاب السَّيْرِ النبوية لم يذكروا شيئاً عن هذا الجوع المُذْقِع الذي أحرق بقریش وأوجد فيهم سنیناً كسني يوسف .

وثالثاً : إِنَّ ما جاء في القصة ، لا يناسب خُلُقَ النَّبِيِّ وعطفه على قومه ، وكونه رحمة للعالمين ، كيف وقد قال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ

(١) سورة الدخان : الآيات ١٠-١٦ .

(٢) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٦٢ ، وتفسير الطبري ، ج ١٥ ، ص ٦٦ . وبهذا المضمون روايات أخر في المصدرين .

فِيهِمْ ، وما كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١﴾ وهو صلوات الله عليه وآله ، لم يدع عليهم في غزوة أُحُد ، مع أَنَّهُمْ شَجَّوْا جَبْهَتَهُ وَكَسَرُوا أَسْنَانَهُ ، وَضَرَبُوا وَجْهَهُ بِالدِّمَاءِ .

فهذه الأمور ، توجب عدم الإطمئنان إلى هذا الوجه .

الوجه الثاني : إِنَّ مفاد الآية يرجع إلى أشراف الساعة ، وأنه قبل قيام البعث يغشى الناس دخان مبين . ويؤيد ذلك أَنَّ الآية تتضمن ذكر يومين :

١ - يوم تأتي السماء فيه بدخان مبين .

٢ - ويوم يطش فيه الرب تعالى البطشة الكبرى .

وبما أَنَّ البطشة الكبرى راجعة إلى يوم البعث الذي يأخذ فيه الله تعالى الظالمين والكافرين بشدة وقدره ، يكون ذلك قرينة على أَنَّ ما يقع في اليوم الأول ، من أشراف الساعة ، فيوم تظهر فيه آية الساعة وعلامتها ، ويوم تتحقق فيه نفس الساعة .

وأما على التفسير الأول ، فلا مناص ، من جعل اليوم الأول يوم طروء الجوع في مكة ، واليوم الثاني يوم غلبة النبي على قريش في بدر ، ولا يخفى أن تفسير اليومين بهذا النحو يحتاج إلى دليل .

ويؤيد المعنى الثاني ما روي عن حذيفة بن اليمان ، مرفوعاً : أَوَّلُ الآيَاتِ الدَّجَالُ ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوقُ الناس إلى المحشر ، تُقِيلُ معهم إذا قالوا ، والدُّخَانُ . قال حذيفة : يا رسول الله ، وما الدُّخَانُ ؟ فتلا رسوا الله صلى الله عليه وآله الآية : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ . . ﴾ ، يملأ ما بين المشرق والمغرب ، يمكث أربعين يوماً وليلة ، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكام ، وأما الكافر بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودُّبْرُهُ (٢) .

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٣ .

(٢) تفسير الطبري ، ج ٢٥ ، ص ٦٨ . والدر المنثور ، ج ٦ ، ص ٢٩ .

نعم بقي هنا شيء وهو أنه لو كان صدر الآيات راجعاً إلى أشرار الساعة ،
فما معنى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ . فإنه بالمعنى
الأول ألصق .

ولكن يمكن أن يقال : إن الجملة الخبرية متضمنة لقضية شرطية ، وهي أنه
حتى لو كشفنا عنهم العذاب ، لعادوا لما كانوا عليه من العصيان نظير قوله
سبحانه : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١) .

د - نزول المسيح

يقول سبحانه : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ *
وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا
عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي
الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ * وَإِنَّهُ لَعِلْمُ السَّاعَةِ ، فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ، وَاتَّبِعُون ، هَذَا صِرَاطٌ
مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٢) .

روى المفسرون أنه لما نزل قوله سبحانه : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ خَصَبٌ جَهَنَّمَ ﴾ (٣) ، أحدثت قريش ضجة ، وقاموا يجادلون النبي
فقالوا : قد رضيينا بأن تكون آلهتنا كذلك ، حيث يكون عيسى أيضاً مثلهم ،
وقالوا - كما يحكيه سبحانه عنهم : - ﴿ ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ ، فليست آلهتنا خيراً
من عيسى ، فإن كان عيسى في النار ، فكذلك آلهتنا .

فأجاب سبحانه بأنهم ما ضربوا هذا المثل إلا للمجادلة والمخاصمة ، وأنهم
قوم خصمون لا يتطلبون الحق . ثم أخذ بتوصيف عيسى بن مريم وتبيين مقامه
فقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلْسَّاعَةِ ﴾ ، أي إن وجود عيسى في ظرف من الظروف ،
يُعلم به قرب الساعة ، فلا تكذبوا بها .

(١) سورة الأنعام : الآية ٢٨ .

(٢) سورة الزخرف : الآيات ٥٧ - ٦١ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٩٨ .

فالآية تدل على أن وجود عيسى في ظرف من الظروف يعلم به دنو الساعة ،
وأما ظرفه ، فالظاهر من الروايات هو نزوله بعد خروج الإمام المهدي
عليه السلام^(١) .

وللآية تفسير آخر ، يطلب من مظانه^(٢) .

هـ - إخراج دابة من الأرض

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ
تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾^(٣) .

وتوضيح الآية يتوقف على إيضاح أمور :

- ١ - ما هو المراد من قوله : ﴿ إِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ ؟ .
 - ٢ - ما هو المراد من الدابة المخرجة من الأرض ؟
 - ٣ - بماذا تتكلم هذه الدابة ، وماذا تقول ؟
 - ٤ - ما هو موضع قوله سبحانه في الآية : إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ؟
فهل هو يحكي قول الدابة ، أو هو تعليل لصدر الآية (وقوع القول عليهم) .
 - ٥ - ما هو المراد من الآيات ؟
 - ٦ - ما هو الهدف من إخراج الدابة ؟
 - ٧ - ما هو زمان إخراجها ؟
- والحق أن هذه الآية ، إحدى الآيات التي يحقق بها الإبهام من جهة أو
جهات ، وليس لها في القرآن ما يشابهها في المضمون ، حتى يستعان به على

(١) لاحظ ما أورده من الروايات في بحث الإمامة .

(٢) لاحظ مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٣٥٨ .

(٣) سورة النمل : الآية ٨٢ .

تفسيرها ، فلا مناص من الإمعان فيها نفسها ، أو اللجوء إلى الروايات الواردة حولها ، فنقول :

أما السؤال الأول ، فالمراد من وقوع القول عليهم ، هو استحقاقهم للعذاب ، يظهر ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾^(١) . وليس المراد من القول ، القول اللفظي ، بل القول التكويني المساوق لِتَحَقُّقِ العذاب ، وجصوله في الخارج . وقد عرفت أنَّ العالمَ فعلُ اللَّهِ سبحانه ، وفعلهُ كلامُهُ ، والآيتان نظير قوله سبحانه : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ، أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾^(٢) .

وأما الثاني فالدابة في اللغة والقرآن تطلق على كل ما يُدبَّ على الأرض ، يقول سبحانه : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾^(٣) . ولا يظهر من نفس الآية أنه من أي نوع من الدواب ، أهو إنسان أو حيوان ، فلا مناص من الرجوع إلى الروايات التي نشير إلى مصادرها آخر البحث .

غير أنه يمكن أن يقال إن « الدابة » استعملت في القرآن كثيراً في المعنى العام ، فإطلاقها على نوع خاص منه كالإنسان ، يحتاج إلى قرينة .

أضف إلى ذلك أنه ربما استعمل في مقابل الإنسان ، يقول سبحانه : ﴿ ... والدوابُّ وكثيرٌ من الناسِ ﴾^(٤) وفي آية أخرى : ﴿ ومن الناسِ والدوابِّ ﴾^(٥) . وهذا يدفعنا إلى القول بأن المراد من الدابة هو غير الإنسان .

وأما الثالث : فلا يظهر من الآية شيء في جوابه إلا احتمال أن يكون مقول كلامها هو ما جاء في ذيل الآية من قوله ﴿ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يوقنون ﴾ . وقد ورد في بعض الروايات مضمون كلامها الذي تتكلم به .

(١) سورة النمل . الآية ٨٥ .

(٢) سورة الزمر : الآية ١٩ .

(٣) سورة هود : الآية ٦ .

(٤) سورة الحجج : الآية ١٨ .

(٥) سورة فاطر : الآية ٢٨ .

وأما الرابع ، فيحتمل أن يكون قوله : ﴿ إِنَّ النَّاسَ ﴾ مقولاً لكلامها ، كما يُحتمل أن يكون تعليلاً لفرض العذاب عليهم ، الذي يدل عليه صدر الآية ، فكانه يقول : حق عليهم العذاب لأنهم كانوا بآياتنا لا يوقنون ، ويؤيد هذا الوجه قراءة ﴿ إِنَّ ﴾ بالكسر ، التي تجعلها جملة مستأنفة ، واقعة موقع التعليل .

وأما الخامس ، فيحتمل أن يكون المراد من الآيات هو الآيات الكونية والأنفسية الواردة في قوله سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

كما يحتمل أن يكون المراد من الآيات ، المعاجز وخوارق الآيات التي جاءت بها الأنبياء ، وإطلاق الآية على المعجزة في القرآن ، كثير .

ويحتمل أن يكون المراد ، الكتب السماوية ، فإنها آيات إلهية .

ولا يظهر من الآية شيء في تعيين أحد هذه الاحتمالات ، إلا أنه يمكن تأييد الإحتمال الثالث بقوله سبحانه في آية سابقة عليها : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْفُصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٢) .

وأما السادس ، وهو الهدف من إخراج الدابة ، فيمكن أن يكون إعلام دُنُو السَّاعَةِ ، كما يمكن أن يكون لأجل تمييز المؤمن من الكافر ، وغير ذلك من الأهداف التي وردت فيها الروايات .

وأما السابع ، وهو زمان الإخراج فسياق الآيات يثبت أنها تقع قبل يوم القيامة ، عند دُنُوها لقوله سبحانه بعدها : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً يَمُنُّ يُكَذِّبُ بآيَاتِنَا فَهُمْ يَوْمَئِذٍ يُرْزَعُونَ ﴾ (٣) . فبما أن الثانية تقع قبل القيامة ، فسياق الكلام يقتضي كون الأولى كذلك .

ويتحصّل من الإمعان في الآيات أنه سبحانه يحكي في لفيف منها عن أمور

(١) سورة فصلت : الآية ٥٣ .

(٢) سورة النمل : الآية ٧٦ .

(٣) سورة النمل : الآية ٨٧ .

ثلاثة ، الأولين راجعان إلى ما قبل القيامة ، ويعدّان من أشراتها ، والثالث إلى نفس القيامة .

فالأول ، هو وقع القول على الكافرين وخروج الدابة .

والثاني ، هو حشر فوج من كلّ أمة .

والثالث ، هو نفخ الصور ، أعني قوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾^(١) .

وعلى ضوء ذلك يمكن عدّ الأوّل والثاني من أشرط الساعة^(٢) .

و - مجيء بعض آيات الربّ تعالى

يقول سبحانه : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ، قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾^(٣) .

الإستفهام في الآية إنكاري ، وقع في مقام يعرب عن عدم نفع العظة ونجاح الدعوة ، وأنّ المخاطبين كانوا في عناد ولجاج إزاء دعوة النبي الأكرم ، كما هو الظاهر من الآيات المتقدمة عليها ، فإنّه يقول :

﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا . . . ﴾ .

﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْنا الْكِتَابَ ، لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ . . . ﴾ .

ففي هذا السياق ورد قوله سبحانه :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ ، أي هؤلاء لا ينتظرون إلا أموراً ترجح بين كونها موجبة لهلاكهم أو كونها أمراً محالاً في نفسه ، أو غير ناجعة في إيمانهم عند وقوعها .

(١) سورة النمل : الآية ٨٣ .

(٢) ومن أراد التبسط في الآية ، فعليه الرجوع إلى المصادر التالية : تفسير الطبري ، ج ٢٠ ، ص ١٠-١٢ . الدر المنثور ، ج ٥ ، ص ١١٦ . تفسير البرهان ، ج ٣ ، ص ٢٠٩-٢١١ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٥٨ .

فالأول ، هو قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ، فإنَّ نزولَ الملائكة عليهم يلزم هلاكهم . يقول سبحانه : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ (١) .

والثاني ، هو مجيء الربِّ ومشاهدته بأَمِّ أعينهم ، وهو أمر محال . وإن أُريد منه يوم اللقاء ، الذي ينكشف منه الغطاء ، ويتجلى سبحانه بأسمائه وصفاته ، تجلياً لا يبقى معه ريب ولا شك ، فلا ينجع إيمانهم عند ذلك .

والثالث ، وهو مجيء بعض آياته ، فهو مردد بين أن يكون المراد منه الموت الذي تتبدل فيه نشأة الحياة إلى نشأة أخرى ، أو يكون المراد هو خروج الدابة عند دنو الساعة الذي مضى البحث عنه ، وعند ذلك تكون الآية ناظرة إلى بعض أشراط الساعة .

وعلى كلا المرادتين ، لا ينفع بعدهما الإيمان والإستغفار . . .

قال الطبرسي : « المراد الآيات التي تضطرهم إلى المعرفة ، ويزول التكليف عندها (لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل) لأنه ينسد باب التوبة بظهور آيات القيامة » (٢) .

روى العياشي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام ، في تفسير الآية ، قولهما : « طلوعُ الشمس من المغرب ، وخروج الدابة ، والدخان ، والرجل يكون مُصراً ولم يعمل على الإيمان ثم تجيء الآيات ، فلا ينفعه إيمانه » (٣) .

هذا بعض الكلام حول أشراط الساعة الواردة في آيات الذكر الحكيم .

وأما الروايات ، فنقتبس منها ما يلي :

١ - روى مسلم في صحيحه عن حذيفة بن أسيد الغفاري : إطلع رسول الله صلى الله عليه وآله علينا ونحن نتذاكر فقال : ما تذكرون ؟ قلنا : نذكر

(١) سورة الحجر : الآية ٨ .

(٢) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٣٨٨ .

(٣) البحار ، ج ٦ ، ص ٣١٢ ، الحديث ١٣ .

الساعة ، قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فذَكَرَ : الدُّخان ، والدَّجَال ، والدَّابَّة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسفٌ بالمشرق ، وخسفٌ بالمغرب ، وخسفٌ بجزيرة العرب ، وآخرُ ذلك نارٌ تطفئُ الناس إلى محشرهم^(١) .

٢ - روى القمي في تفسيره عن عبد الله بن عباس ، قال : حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله حجة الوداع ، فأخذ باب الكعبة ، ثم أقبل علينا بوجهه ، فقال : ألا أُخبرُكم بأشراط الساعة ، وكان أدنى الناس منه يومئذ سلمان رضي الله عنه ، فقال : بلى يا رسول الله .

فقال : إنَّ من أشراط القيامة ، إضاعة الصلاة ، واتباع الشهوات ، والميل مع الأهواء ، وتعظيم أصحاب المال ، وبيع الدين بالدنيا ، فعندها يذاب قلب المؤمن وجوفه كما يذوب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيع أن يُغيِّره لاحظ بقية الحديث^(٢) .



(١) جامع الأصول ، ج ١١ ، ص ٨٧ ، الحديث (٧٨٩٨) . ورواه الصدوق في الأمالي ، وقال في آخره : ونارٌ تخرج من فعر عدن تسوق الناس إلى المحشر تنزل معهم إذا نزلوا ، وتقبل معهم إذا قبلوا (البحار ، ج ٦ ، ص ٣٠٣) .

(٢) البحار ، ج ٦ ، الحديث ٦ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٩ . وقد روى المجلسي في الجزء السادس من بحاره ، في باب أشراط الساعة ص ٣٠٣ - ٣٠٦ ، اثنين وثلاثين حديثاً . وما نقلناه نموذج من تلك الأحاديث ، كما روى الجزري ، في الجزء الحادي عشر من جامع الأصول ، في الباب المعقود لبيان أشراط الساعة ، ص ٧٤ - ٩٤ ، مائة وستة أحاديث .

مباحث المعاد

(٩)

مشاهد البعث والقيامة

لقد تعرّفت على أشراف الساعة التي تخبر عن دنوّها ، كتاباً وسنةً ، وهي غير نفس القيامة ، فإنها الأمور الكونية التي تُدبّر النظام السائد ، ليؤسس بعده نظام جديد لمحاسبة العباد ، وجزائهم ، وقد أكثر الذكر الحكيم من نقل وتصوير مشاهد القيامة في سورة القصار .

وبعد تلك الحوادث المريعة ، تتلاحق مواقف العالم الأخروي ، إلى أن يَرِدَ الخلق إلى مثواهم الأخير ، وفيما يلي نستعرضها واحدةً بعد الأخرى .

١ - إندام النظام

تضافرت الآيات القرآنية على أن البعث لا يقوم على هذا النظام السائد ، وإنما يقوم على نظام جديد ، وهو لا يتحقق إلا بتلاشي النظام الموجود وإندامه . والقرآن يخبر عن مشاهد ذاك الإندام الكوني العام ، فيحدّث عن انشقاق السماء وانفطارها ، وتكوين الشمس ، وانكدار النجوم وتناثرها ، وامتداد الأرض ، وتفجير البحار وتسجيرها ، وتسير الجبال حتى تكون كالعهن المنفوش ، وغير ذلك من المشاهد المروعة للقلوب^(١) .

(١) لاحظ سور التكوين ، والانفطار ، والانشقاق والقارعة وغيرها .

٢ - خروج الناس من القبور

ويستعقب ذلك مشهد آخر ، ألا وهو خروج الناس من الأجداث .

يقول سبحانه : ﴿ وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ قالوا يا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ، هذا ما وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿١﴾

وبعد ذلك يُدعى الناس إلى الحساب ، وموقف العرض ، وهو مشهد أشد في النفس هولاً مما سبق ، لِعَظَمِ الحسرة والخوف الحاكمين على القلوب آنئذٍ ، يقول سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى نُكْرٍ * خُشْعاً أَبْصَارُهُمْ ، يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٢﴾ .
﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ ﴿٣﴾ .

* * *

٣ - إعطاء الكتب

وبعد خروج الناس من القبور ، وإحضارهم إلى موقف المحاكمة ، ووقوفهم على صعيد الحساب ، تنشر الصحف ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ ﴿٤﴾ فيأخذ كل إنسان كتابه الذي دُونَ فيه - بيد الحفظة من الملائكة - ما عَمِلَهُ من صغير وكبير ، فمنهم من يتلقاه بيمينه ، ومنهم من يتلقاه بشماله .

يقول سبحانه :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسيراً * وَيَنْقَلِبُ إِلَى

(١) سورة يس : الآيتان ٥ و ٥٢ .

(٢) سورة القمر : الآيتان ٦ - ٨ . ولاحظ الزلزلة الآية ٦٠ .

(٣) سورة عبس . الآية ٣٧ .

(٤) سورة التكاوير : الآية ١٠ .

أَهْلُهُ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١﴾ .

* * *

٤ - الْحِسَابُ وَالشَّهُودُ

وبعد تناول الصحف يبدأ الحساب ، وهو مشهد مُرَوِّعٌ للقلوب وَمُقَطَّعٌ للأرواح ، إنه مشهد القضاء على الناس بشهود لا يتطرق إلى شهادتهم ريب ولا يُتَّهمون بكذب . وهم بين شاهد خارجي كالله سبحانه ، والأنبياء ، والملائكة ، والأرض ، وداخلي كالأعضاء والجوارح حتى جلد البدن .

وهناك نوع آخر من الشهود لا يشابه القسمين ، وهو تجسّم أعمال الإنسان بوجود يناسب تلك النشأة وهذا نظير عرض صور الجريمة ووقائعها التي التقطت عند ارتكاب المجرم لها ، أوبت الشريط الذي سجل فيه كلام المعتدي بالسبب والوقية ، وإن كان هناك فرق بين المُمَثِّل والمُمَثَّل له .

وبذلك لا يجد المجرم لنفسه إلا الاعتراف بالذنب والتقصير والجُرأة ، لثبوت الجرم عليه بوجه لا يقبل الإنكار ، وإليك عرض هؤلاء الشهود في ضوء آيات القرآن الكريم ، مقدّمين الشهود الخارجيين على الداخليين .

الشاهد الأول - الله سبحانه

من عجيب الأمر أن الله سبحانه هو القاضي والحاكم بين العباد ، وهو بنفسه أيضاً شاهد على أعمالهم ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢)

ويقول سبحانه : ﴿ . . . لَمْ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣)

(١) سورة الانشقاق : الآيات ٧ - ١١ وسيأتي بيان أوفى لإعطاء الكتب في الشهود .

(٢) سورة الحج : الآية ١٧ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٩٨ .

الشاهد الثاني - نبي كل أمة

يدل القرآن الكريم على أن لكل أمة شهيداً من أنفسهم ، وقد جاء ذلك في عدة آيات منها قوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (١) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ... ﴾ (٢) .

والظاهر أن هذا الشاهد من كل أمة هو نبيهم ، وإن لم يصرح به في الآيات ، وذلك للزوم كون الشهادة القائمة هناك مشتملة على حقائق لا سبيل للمناقشة فيها ، فيجب أن يكون هذا الشاهد عالماً بحقائق الأعمال التي يشهد عليها ، لا بظاهر صورها وهيئاتها المحسوسة لأن صورها مشتركة بين الطاعة والمعصية .

ولا يكون هذا إلا بأن يستوي عنده الحاضر والغائب ، ويعاين حقيقة ما انعقدت عليه القلوب فيتميز هذا الشاهد بخصوصيتين :

الأولى : أنه محيط إحاطة علمية تامة على حقائق الأعمال وما يجري في القلوب ، ويختلج في النفوس .

الثانية : أن يكون ذا عصمة إلهية ليمتنع عليه الخطأ والإشتباه عند تحمّل الشهادة ، والكذب والخيانة عند أدائها .

ولا يتصور هذا المقام إلا لنبي كل أمة ، وسيأتي تتميم لذلك في الشاهد الرابع .

الشاهد الثالث : نبي الإسلام

عَدَّ القرآن نبي الإسلام شاهداً أمته ، يقول سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ

(١) سورة الحل : الآية ٨٩ .

(٢) سورة القصص : الآيتان ٧٤ و ٧٥ .

كُلُّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴿١﴾ .

ويقول سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ . . ﴾ ﴿٢﴾ .

وقد عرفت أن هذه الشهادة تستلزم من الكفاءات شيئاً عظيماً ، وبهذا يظهر عِظَمُ مقام هذا الشاهد ، لوقوفه على ضيائر القلوب وأعمال الأُمَّة ، وإن كانوا بعيدين عنه . ومن كان له هذا المقام ، فَتَعَرَّفَ على الغيب من أهون الأمور ، ومع ذلك نرى بعض القسريين ينزعجون من إثبات علم الغيب للنبي ، ويزعمون أن نسبته إليه وإلى الله سبحانه يستلزم الشرك ، ولكن عذب عنهم الفرق بين العلم الكسبي والذاتي ، والمحدود واللا محدود ، والقائم بالغير والقائم بالنفس .

الشاهد الرابع : بعض الأُمَّة الإسلامية

يقوله سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ ﴿٣﴾ .

والخطاب في الآية للأُمَّة الإسلامية ، ولكن المراد قسم منها ، نظير قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا ﴾ . مخاطباً بني إسرائيل ، والمراد بعضهم . فباعتبار وجود الصِّلة القوية بين القبيلة وملوكها ، نسب الملكوية إلى الجميع .

والدليل على أن المراد بعض الأُمَّة ، هو أن أكثر أبناء الأُمَّة ، مجهزون بحواس عادية لا تتحمل إلا صُور الأفعال والأعمال إذا كانوا في محضر المشهود عليهم ، وهو لا يفي في مقام الشهادة ، لأن المراد من الشهادة هو الشهادة على حقائق الأعمال ، والمعاني النفسانية من الكفر والإيمان والفوز والخسران ، وعلى كل خفي عن الحس ، ومستبطن عن الإنسان ، وعلى كل ما تكسبه القلوب ، الذي يدور عليه حساب رب العالمين ، يقول سبحانه : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ

(١) سورة النساء : الآية ٤١ .

(٢) سورة النحل : الآية ٨٩ . ولاحظ الحج : الآية ٧٨ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

قُلُوبُكُمْ ﴿١﴾ .

وليس ذلك في وسع الإنسان العادي إذا كان حاضراً عند المشهود عليه ، فضلاً عن كونه غائباً ، وهذا يدلنا على أن المراد رجال من الأمة لهم تلك القابلية ، بعناية من الله تعالى ، فيقفون على حقائق أعمال الناس من إخلاص ورياء ، وانقياد وتمرد ، ويؤدون ذلك يوم القيامة . وهذه الكرامة ليس ينالها جميع الأمة ، بل الأولياء الطاهرون منهم ، لا المتوسطون في الإيمان ، فضلاً عن الملوئين بالمعاصي والملطخين بالجرائم .

وقد التجأ بعضهم إلى جعل متعلق الشهادة كون الأئمة على دين جامع ووسط ، وهو بمعزل عن التحقيق ، إذ ليس ذلك شهادة بشيء ، وقد وردت لفظة الشهادة بمعنى واحد في جميع القرآن ، في آياته المختلفة .

وبذلك يظهر معنى قوله سبحانه : ﴿... وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (٢) . فالخطاب متوجه إلى الأمة ، والمراد بعضهم ممن أعطيت لهم هذه الكرامة .

وهناك وجه آخر لما ذكرنا ، وهو أن أقل ما يعتبر في الشهود هو العدالة والتقوى ، والصدق والأمانة ، والأكثرية الساحقة من الأمة ، يفقدون ذلك ، وهم لا تقبل شهادتهم على صاع من تمر أو باقة من بقل ، فكيف تقبل شهادتهم يوم القيامة ؟ .

والى هذا تشير رواية الزبيرى عن الإمام الصادق عليه السلام قال : « قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ، فَإِنْ ظَنَنْتَ أَنَّ اللَّهَ عَنَى بِهَذِهِ الْآيَةِ جَمِيعَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ ، أَفَتَرَى أَنَّ مَنْ لَا تَجُوزُ شَهَادَتُهُ فِي الدُّنْيَا عَلَى صَاعٍ مِنْ تَمْرٍ ، يَطْلُبُ اللَّهُ شَهَادَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَقْبَلُهَا مِنْهُ بِحُضْرَةِ جَمِيعِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ . كَلَّا ، لَمْ يَعْزِ اللَّهُ

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٥ .

(٢) سورة الحج : الآية ٧٨ .

مثلَ هذا من خَلْقِهِ»^(١)

إلى هنا تمَّ الكلام حول الشهود الخارجيين ، وإليك الكلام في الشهود الداخليين ، الذين لا ينفكون عن نفس المجرم .

الشاهد الخامس : الأعضاء والجوارح

من عجيب الأمر أن تشهد أعضاء الإنسان عليه : لسانه ويده ورجله ، بأمر من الله سبحانه .

يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٣) .

وأما كيفية الشهادة فهي من الأمور الغيبية نؤمن بها ، وما إنطاقها عليه بعزيز ، وقد وسعت قدرته تعالى كلَّ شيء .

الشاهد السادس : الجلود

وتشهد على الناس جلودهم أيضاً .

يقول سبحانه : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كلَّ شيء^(٤) .

وقوله : ﴿ أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، يشير إلى سعة قدرته سبحانه

(١) تفسير نور الثقلين ، ج ١ ، ص ١١٣ ، الحديث ٤٠٩ .

(٢) سورة النور : الآية ٢٤ .

(٣) سورة يس : الآية ٦٥ .

(٤) سورة فصلت : الآيتان ٢٠ و ٢١ .

على إنطاق الجلود^(١)

الشاهد السابع : الملائكة

إنَّ للإنسان حفظة يصحبونه منذ بلوغه التكليف فيسجلون أعماله خيرها وشرها ، وهذا قوله سبحانه : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾^(٢) .

وهذا الرقيب العتيد يشهد أعمال مَنْ وَكَّلَ به يوم القيامة ، عندما يرد الإنسان صعيد الحساب مع سائقه ، كما يقول سبحانه : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾^(٣) .

فأحد الملائكة يسوق الإنسان ، وآخر يشهد على أعماله .

الشاهد الثامن : صحيفة الأعمال

هناك آيات تدلُّ على وجود صحف تضبط فيها أعمال العباد خيرها وشرها ، وَكَتَبَتْ يَمَارسون كتابتها ، ويوم الحساب تعرض على الإنسان ، فيقرؤها ، فيرى المجرم مشفقاً منها ، يغلبه التعجب من إحاطة الكتاب بدقيق أعماله وجليلها .

يقول سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ، إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾^(٤) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ ، فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴾^(٥) .

(١) ولا ينبغي التعجب من ذلك ، وقد توصل الإنسان في هذه الدنيا إلى معرفة فاعل كل جريمة ، ومرتكب كل جناية ، بتشخيص بصمات أصابعه ، ويكفي في إتمام الحجة عليه إظهار آثار جلد أصبعه وشهادتها عليه .

(٢) سورة ق : الآية ١٨ .

(٣) سورة ق : الآية ٢١ .

(٤) سورة يونس : الآية ٢١ ، وهذا المضمون الزخرف : الآية ٨٠ و ٨٩ .

(٥) سورة القمر : الآيتان ٥٢ و ٥٣ .

ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه مصوراً حال المجرم عند الحساب وشهادة الكتاب عليه : ﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ لِمَا فِيهِ ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه حاكياً تعجب المجرمين من إحاطته بعظائم الأعمال ودقائقها : ﴿ مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ (٣) .

وكفى في إذعان الإنسان بجرمه وعصيانه ، كتابه ، يقول سبحانه : ﴿ إقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (٤) .

الشاهد التاسع : الأرض

إِنَّ كُلَّ عَمَلٍ طَالِحًا كَانَ أَوْ صَالِحًا ، إِذَا كَانَ بِدُنْيَا ، يَصْدُرُ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي نَقْطَةٍ وَبِقَعَةٍ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ ، وَهِيَ تَشْهَدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْحَوَادِثِ الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ يَوْمَئِذٍ نُخَبِّرُهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ (٥) .
وكيفية شهادتها من الأمور الغيبية ، ولكن يمكن أن نستعين على تقريبها بالأمور المحسوسة ببيان أَنَّ المجرم والمحسن يتركان بعد العمل آثاراً يستدلُّ بها على كيفية عمله .

هذا وإن الخبراء يستدلُّون بالمستندات الحفرية ، على كيفية حياة الماضين وحضارتهم وعلومهم ، وسائر شؤون حياتهم ، وقد ورد عن النبي أَنَّهُ لَمْ يَرْتَحِلْ مِنْ مَنْزِلٍ إِلَّا صَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ وَقَالَ : « حَتَّى يَشْهَدَ عَلَيَّ بِالصَّلَاةِ » (٦) .

(١) سورة يس : الآية ١٢ . لاحظ الجاثية : الآيتان ٢٨ و ٢٩ . والإنفطار : الآيتان ١٠ و ١٢ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٤٩ .

(٣) سورة الكهف : الآية ٤٩ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ١٤ .

(٥) سورة الزلزلة : الآيتان ٤ و ٥ .

(٦) نقلاً عن تفسير الميزان : ج ٦ ، ص ٣٣٧ . وهناك روايات نقلها الشيخ الحرّ العاملي في الوسائل ، =

روى الشيخ الطوسي بإسناده عن أبي ذرٍّ عن النبي صلى الله عليه وآله ، في وصيته له : « يا أبا ذرٍّ ، ما من رجل يجعل جبهته في بقعة من بقاع الأرض ، إلّا شهدت له بها يوم القيامة »^(١) .

الشاهد العاشر : تجسّم العمل بهويّته الأخروية

دلّ القرآن والأحاديث على أنّ لكل عمل يرتكبه الإنسان في هذه النشأة ، صورتين وظهورين وهويتين ، يتمثل بإحدهما في هذه النشأة ، وبالأخرى في النشأة الآخرة . فالصلاة في هذه الدنيا عبارة عن الأذكار والحركات ، وهي هويتها الدنيوية ، ولكنها لها في النشأة الأخروية ظهوراً آخر . ومثله الأعمال الإجرامية ، فإنّ لكلٍّ منها صورتين ، يتمثل بإحدهما في الدنيا ، وبالأخرى في الآخرة .

يقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾^(٢) ، وظاهر الآية هو مشاهدة نفس العمل . وتأويله بمشاهدة الجزاء ، على خلاف الظاهر ، والآيات الواردة في مجال تجسّم الأعمال كثيرة ، نكتفي بواحدة منها :

يقول سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتِزُونَ ﴾^(٣) . والآية تعرب عن تجسّم الذهب والفضة الذي كُنِزَ بصورة النار المحيطة ، بحيث يطلق عليها أنّها نفس ما كنزوه .

* * *

= ج ٣ ، ص ٤٧٤ ، كتاب الصلاة ، أبواب مكان المصلّي ، الباب ٤٢ ، الحديث ٩ ، وفي الباب روايات أخرى فلاحظها .

(١) المجالس والأخبار ، ص ٢١٦ . نقله في الوسائل ، ج ٤ ، ص ٤٧٤ ، الحديث ٩ .

(٢) سورة الزلزلة : الآيتان ٧ و ٨ .

(٣) سورة التوبة : الآيتان ٣٤ و ٣٥ .

٥ - مشهد الميزان

إن هؤلاء الشهود الكثيرون يكفون في مقام القضاء وإتمام الحجة ، غير أنه سبحانه ، لا يكتفي بهم ، كما لا يكتفي بصحائف الأعمال التي ضبطت فيها جميع أفعال العبد جليلها ، ودقيقها ، بل يجسد وضع الإنسان بتوزين أعماله بالميزان الذي يضعه يوم القيامة .

يقول سبحانه : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنا حَاسِبِينَ ﴾ ^(١) .

والناس بين ثقل الميزان وخفيفه يقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ ^(٢) .

غير أن الكلام في تبين حقيقة هذا الميزان الذي توزن به الأعمال ، فهل هو كهذه الموازين الحسية الموضوعة فوق مناضد البقالين والعطارين ، أو شيء غيرها ، فنقول :

لا شك أن النشأة الآخرة ، أكمل من هذه النشأة ، وأنه لا طريق لتفهم الإنسان حقائق ذاك العالم وغيوبه المستورة عنا ، إلا باستخدام الألفاظ التي يستعملها الإنسان في الأمور الحسية . وعلى ذلك ، فلا وجه لحمل الميزان على الميزان المتعارف خصوصاً بعد استعمال الميزان في القرآن في غير هذا الميزان المحسوس .

الميزان في اللغة اسم آلة يوزن بها الشيء ، يقول سبحانه : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ ، فالله سبحانه يخبر فيها عن رفع السماء وخلقها مرفوعة ، كما يخبر عن أنه وضع لكل شيء ميزاناً يُقَدَّر به ، من غير فرق بين أن يكون جسماً أو قولاً أو فعلاً أو عقيدة ، فلكل شيء ميزانٌ يُمَيِّز به الحق من

(١) سورة الأنبياء : الآية ٤٧ .

(٢) سورة الأعراف : الآيتان ٨ و ٩ .

الباطل ، والصدق من الكذب ، والعدل من الظلم ، والرذيلة من الفضيلة .
ولأجل هذه السَّعة في معنى الميزان يقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ
وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾^(١) ، فلا معنى لتخصيص
الميزان هنا بما توزن به الأثقال ، مع أنَّ الهدف من إرسال الرسل وإنزال الكتب
والميزان هو قيام الناس بالقسط في جميع شؤونهم العقيدية والسياسية والاجتماعية
والاقتصادية . وبذلك يعلم أنَّ تفسير الميزان بالعدل ، أو بالنهي ، أو بالقرآن ،
كلُّها تفاسير بالمصادق ، فليس للميزان إلا معنى واحد هو : ما يوزن به الشيء ،
وهو يختلف حسب اختلاف الموزون من كونه جسماً أو حرارة أو نوراً أو ضغطاً أو
رطوبةً أو غير ذلك .

يقول صدر المتألهين رحمه الله : « ولو تأملوا قليلاً في نفس معنى الميزان ،
وجردوا حقيقة معناه عن الزوائد والخصوصيات ، لعلموا أنَّ حقيقة الميزان ليس
يجب أن يكون البتة بما له شكل مخصوص ، أو صورة جسمانية ، فإنَّ حقيقة معناه
وروحه وسره ، هو ما يقاس ويوزن به الشيء ، والشيء أعم من أن يكون جسمانياً
أو غير جسماني ، فكما أنَّ القَبان ، وذا الكفتين وغيرهما ، ميزان للأثقال ،
والاسطرلاب ميزان للارتفاعات والمواقيت ، والشاقول ميزان لمعرفة الأعمدة ،
والمسطرميزان لاستقامة الخطوط ، فكذلك علم المنطق ميزان للفكر في العلوم
النظرية ، وعلم النحو ميزان للإعراب والبناء ، والعروض ميزان للشعر ، والحسّ
ميزان لبعض المدركات ، والعقل الكامل ميزان لجميع الأشياء ، وبالجملة ميزان
كل شيء يكون من جنسه ، فالموازين مختلفة والميزان المذكور في القرآن ينبغي أن
يحمل على أشرف الموازين وهو ميزان يوم الحساب ، كما دلَّ عليه قوله تعالى :
﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وهو ميزان العلوم وميزان الأعمال
القلبية ، الناشئة من الأعمال البدنية »^(٢) .

ويؤيد ذلك أنَّه سبحانه يصف الميزان بكونه منزلاً من جانبه سبحانه ، كما في
الآية السابقة ويقول : ﴿ الله الذي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، وَالْمِيزَانَ ، وما يُدْرِكُ

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

(٢) الأسفار ، ج ٩ ، ص ٢٩٩ .

لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١﴾ .

وبما أن توزين الأعمال بالموازين القسط ، من الأمور الغيبية التي لا يقف عليها الإنسان إلا بخرق الحجب وحضور ذلك المشهد ، يعسر تبين حقيقته ، والذي يمكن أن يقال إنه ليس من قبيل هذه الموازين الحسية التي توزن بها الأجسام الثقيلة وغيرها . وما ذكر له من التفاسير لا يتجاوز حدّ الإحتمال .

يقول صدر المتألهين : « وأما القول في ميزان الأعمال ، فاعلم أن لكل عمل من الأعمال البدنية ، تأثيراً في النفس فإن كان من باب الحسنات والطاعات ، كالصلاة والصيام والحج والزكاة والجهاد ، وغيرها ، فله تأثير في تنوير النفس وتخليصها من أسر الشهوات وجذبها من الدنيا إلى الأخرى ، ومن المنزل الأدنى إلى المحل الأعلى ، وكذلك فلكل عمل حق مقدار معين من التأثير في التنوير والتهذيب . وإذا تضاعفت وتكثرت الحسنات ، فبقدر تكررها وتضاعفها ، يزداد مقدار التأثير والتنوير .

وكذلك لكل عمل من الأعمال السيئة قدراً معيناً من التأثير في إظلام جوهر النفس وتكديرها وتعليقها بالدنيا وشهواتها ، فإذا تضاعفت المعاصي والسيئات ، ازدادت الظلمة والتكثيف شدة وقدراً ، وكل ذلك محجوب عن مشاهدة الخلق في الدنيا . وعند قيام الساعة وارتفاع الحجب ، ينكشف لهم حقيقة الأمر في ذلك ، ويصادف كل أحد مقدار سعيه وعمله ، ويرى رجحان إحدى كفتي ميزانه ، وقوة مرتبة نور طاعته أو ظلمة كفرانه » (٢) .

وعلى هذه النظرية ، فليس هنا ميزان وراء انكشاف السرائر والمملكات الحسنة والسيئة ، وغاية ما في الأمر أن الإنسان يقف بعد رفع الحجاب على قربه وبعده من الرب ، وتتجسد له مرتبة نور طاعته أو ظلمة كفرانه .

ويقرب منه ما ذكره صاحب المنار ، قال : « إذا كان البشر قد اخترعوا موازين للأعراض كالحرّ والبرد ، أفيعجز الخالق الباريء القادر على كل شيء ،

(١) سورة الشورى : الآية ١٧ .

(٢) الأسفار ، ج ٩ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

عن وضع ميزان للأعمال النفسانية والبدنية ، المعبر عنها بالحسنات والسيئات بما أحدثته في الأنفس من الأخلاق والصفات ، والنقل والعقل متفقان على أن الجزء إنما يكون بصفات النفس الثابتة ، لا بمجرد ما كان سبباً لها من الحركات والأعراض الزائدة»^(١) .

وبما قدمنا يندفع عمدة ما أشكل على المتقدمين من المتكلمين في توزيع الأعمال من أن العمل عرض غير باق ، فكيف يمكن توزيعه في الآخرة ؟ .

فبعد إمكان توزيع الحرارة والبرودة ، والضغط والرطوبة ، وغيرها من الأعراض الزائلة ، بل توزيع الطاقة والحركة والعمل التي هي الوجه الآخر للمادة ، إذ ليست هي إلا المادة المستهلكة ، وهي توزن بالآلات وتقاس ، فيقال إن لهذا المحرك جهد كذا من الأحصنة ، وغير ذلك من الأقيسة ، فبعد إمكان وزن الأعراض وعمل الآلات ، ألا يمكن وزن عمل الإنسان في الآخرة بوجه من الوجوه ؟ .

هذا كله حول الميزان في النشأة الأخرى ، واعلم أنه سبحانه لم يترك الإنسان سدى ، بل جعل لتشخيص صحة عقائده وأخلاقه وأعماله ، موازين كالكتاب والسنة والعقل ، قال الإمام الباقر عليه السلام لأحد أصحابه : « أعرض نفسك على ما في كتاب الله ، فإن كنت سالكاً سبيله ، زاهداً في تزهيده ، راغباً في ترغيبه ، خائفاً من تخويفه ، فائثاً وأبشيراً ، فإنه لا يضرك ما قيل فيك ، وإن كنت مبائناً للقرآن ، فماذا الذي يغرك من نفسك ؟ »^(٢) .

وعلى ضوء هذا ، فالقرآن ميزان ، كما أن النبي ميزان ، والإمام المعصوم ميزان ، فلا غرور من أن نزور علياً ونقول :

« السلام على يعسوب الإيمان وميزان الأعمال ، وسيف ذي الجلال »^(٣) .

(١) المنار ، ج ٨ ، ٣٢٣ .

(٢) البحار ، ج ٧٨ ، باب وصايا الباقر عليه السلام ، ص ١٦٢ .

(٣) مستدرک الوسائل ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

وفي الختام نشير إلى أمرين :

الأول : إنّ بعض السلف ، إغتراراً بالظواهر ، ذهب إلى أنّ الميزان له كفتان ولسان وساقان . وهو تعبد بالظاهر وتعطيل للتعقل والتدبر في نفس القرآن الكريم . بل الأولى لهم أن يقولوا : الميزان عبارة عما يعرف به مقادير الأعمال وليس علينا البحث عن كيفيته بل نؤمن به ونفوض كيفيته إلى الله تعالى ، كما قال المحقق الدواني^(١) .

الثاني : المنقول عن المعتزلة^(٢) أنهم ينكرون الميزان قائلين بأن الأعمال أعراض وقد عدمت ، فلا يمكن إعادتها . وعلى تقدير إعادتها ، لا يمكن وزنها ، وعلى تقدير إمكانه ، مقاديرها معلومة له تعالى فوزنها عبث .

يلاحظ عليه : لو صحّت النسبة ، فإنما يرد لو كان المراد من الميزان هو ما نقبل عن بعض السلف . وأمّا على ما عرفت من التطور في الميزان فالشبهة مندفة . وأمّا القول بأنها معلومة ، فالحكمة في التوزين مثل الحكمة في الحساب ، الذي لا شبهة فيه .

* * *

٦ - الصراط

الصراط في اللغة هو الطريق ، ويغلب استعماله على الطريق الذي يوصل

(١) شرح العقائد العنصرية ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٢) وهذه النسبة التي ذكرها المحقق الدواني في شرح العقائد العنصرية غير صحيحة . قال القاضي عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة : فإن قالوا : وأي فائدة في وضع الموازين التي أثبتوها ، ومعلوم أنه إنما يوضع ليوزن به الشيء ، ولا شيء هناك يدخله الوزن ويتأق فيه ، فإن أعمال العباد وطاعتهم ومعاصيهم أعراض لا يتصور فيها الوزن . قيل له : ليس يمتنع أن يجعل الله تعالى النور علماً للطاعة ، والظلم أمانة للمعصية . ثم يجعل النور في إحدى الكفتين ، والظلم في الكفة الأخرى ، فإن ترجحت كفة النور حكم لصاحبه بالشواب ، وإن ترجحت الأخرى حكم له بالأخرى . . . إلى آخر كلامه . . . (شرح الأصول الخمسة ، ص ٧٣٥) نعم ، القاضي يتخيل أن المراد من الميزان هو التعارف بيننا ، وقد عرفت ما في ذلك .

الإنسان إلى الخير ، بخلاف السبيل ، فإنه يطلق على كل سبيل يتوسل به خيراً كان أم شراً^(١)

وإذا كان الصراط بمعنى الطريق ، فلكل موجود من الموجودات الإمكانية طريق ، لو سلكه ، يصل إلى كماله الممكن من غير فرق بين الجهاد والنبات والحيوان والإنسان .

وهذا ما يسمّى بالصراط التكويني ، وهو مجموعة القوانين السائدة على الموجود الإمكانى ، بأمر منه سبحانه ، التي لو تخلف عنها لهلك .

وهناك صراط آخر يختص بالإنسان وهو الصراط التشريعي ، أعني القوانين والأحكام الشرعية التي فرضها سبحانه على عباده ، وهداهم إليها ، فهم بين شاكركم وكفور ، وقد نبّه القرآن إلى الصراط التشريعي في عدّة آيات ، منها :

١ - قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾^(٢) .

٢ - قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾^(٣) .

٣ - قوله تعالى : ﴿ وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾^(٤) .

وفي مقابل هذا الصراط التشريعي ، طريق آخر يباينه في المقصد والمآل ، وقائده هو الشيطان ومن تبعه ، يقول سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾^(٥) .

وفي ضوء هذا يتبين أنّ الله سبحانه في هذه النشأة الدنيوية ، صراطين

(١) مفردات الراغب ، مادة سبل .

(٢) سورة الدهر : الآية ٣ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٥١ .

(٤) سورة الحج : الآية ٢٤ .

(٥) سورة الحج : الآية ٤ .

أحدهما تكويني ، في سلوكه كمال الموجود وبقاؤه ، والآخر تشريعي يختص بالإنسان ، فيه فوزه وسعادته .

نعم ، يستظهر من الذكر الحكيم ، ويدلّ عليه صريح الروايات ، وجود صراط آخر ، في النشأة الآخروية يسلكه كل مؤمن وكافر .

يقول سبحانه : ﴿ فَوَرَّبُّكَ لَنُحْشِرَنَّهُمُ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا . . . وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ (١) .

وقد اختلف المفسرون في معنى الورود بين قائل بأن المراد منه هو الوصول إليها ، والإشراف عليها لا الدخول ، وقائل بأن المراد دخولها . وعلى كل تقدير ، فلا مناص للمسلم من الاعتقاد بوجود صراط في النشأة الآخروية ، وهو طريق المؤمن إلى الجنة ، والكافر إلى النار (٢) .

وقد وصف الصراط في الروايات بأنه أدق من الشعر ، وأحذ من السيف . غير أن البحث يتركز على التعرف على حقيقة هذا الصراط بالمقدار الممكن ، وإن كان الوقوف على حقيقته كما هي ، غير ممكنة إلا بعد رفع الحجب .

فنقول : لا شك أن هناك صلة بين الصراطين الدنيوي والآخروي من وجوه :

١ - إن سالك الصراط الدنيوي بهداية . قيادة من النبي ، يسلك الصراط الآخروي بنفس تلك الهداية ويجتاز به أمان إلى الجنة . وسالكة بهداية الشيطان وولايته ، يسلك الصراط الآخروي ، بنفس تلك الهداية ، فتزل قدمه ويهوي في عذاب السعير (٣) .

٢ - إن قيام الإنسان بالوظائف الإلهية ، في مجالي العقيدة والعمل ، أمر

(١) سورة مريم : الآيات ٦٨ - ٧١ .

(٢) تفسير القمي ، ج ١ ، ص ٢٩ ، وفي أخرى بزيادة : « وأظلم من الليل » .

(٣) قال سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأِنَّهُ يُضِلُّهُ ، وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (الحج : الآية ٤)

صعب أشبه بسلوك طريق أدق من الشعر وأحد من السيف . فالفائز من الناس ، من كانت له قدم راسخة في مجال الإيمان والعقيدة ، وتثبت في مقام العمل والطاعة ، ومن المعلوم أن الفوز بهذه السعادة ليس أمراً سهلاً ، فكم من إنسان ضلّ في طريق العقيدة ، وعبد النفس والشیطان والهوى ، مكان عبادة الله سبحانه ، وكم من إنسان فشل في مقام الطاعة والعمل بالوظائف الإلهية .

فإذا كان هذا حال الصراط الدنيوي من حيث الصعوبة ، والدقة ، فهكذا حال الصراط الأخروي ، وإلى ذلك يشير الإمام الحسن بن علي العسكري ، عليهما السلام في حديثه عن علي بن أبي طالب ، عليه السلام قال :

« والصراط المستقيم ، صراطان ، صراط في الدنيا وصراط في الآخرة ، أما الصراط المستقيم في الدنيا فهو ما قصر عن الغلو ، وارتفع عن التقصير ، واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل ، وأما الطريق الآخر فهو طريق المؤمنين إلى الجنة » (١)

فلو قال قائل بأن الصراط الأخروي تمثل لذلك الصراط الدنيوي وتجسّد له ، فلم يجازف .

٣ - إن لصدر المتألهين كلاماً في تبين المراد من كون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف .

قال : « إن كمال الإنسان منوط باستعمال قوتيّه ، أما القوة النظرية فلا إصابة الحق ونور اليقين في سلوك الأنظار الدقيقة التي هي في الدقة واللطافة أدق من الشعر - إذا تمثلت - بكثير . وأما القوة العملية ، فبتعديل القوتين الشهوية والغضبية ، لتحصل للنفس حالة اعتدالية متوسطة بين الأطراف غاية التوسط ، لأن الأطراف كلّها مذمومة ، والتوسط الحقيقي بين الأطراف المتضادة منشأ الخلاص عن الجحيم . وهو أحد من السيف ، فإذا الصراط له وجهان :

أحدهما أدق من الشعر ، والآخر أحد من السيف » (٢) .

(١) معاني الأخبار ، ص ٣٣ .

(٢) الأسفار ، ج ٩ ، ص ٢٨٥ .

وعلى هذا البيان فالدقة راجعة إلى سلوك طريق إصلاح العقل النظري ،
والحدة راجعة إلى سلوك طريق إصلاح العقل العملي . وما في الآخرة تجسد
للصراط الديني في الدقة والحدة ، ولا حقيقة له إلا ما كان للإنسان في هذه
الدنيا .

٤ - إنَّ للإيمان واليقين درجات كما أنَّ للقيام بالوظائف العملية مراتب ،
فللناس في سلوك الصراط منازل ودرجات . فهم بين مخلص لله سبحانه في دينه ،
لا يرى شيئاً إلا ويرى الله قبله ، وبين مُقَصِّر في أعمال القوى النظرية والعملية ،
كما أنَّ بينهما مراتب متوسطة ، فالكل يسلك الصراط في النشأة الأخرى ، في
السرعة والبطء ، حسب شدة سلوكه للصراط الديني ، ولأجل ذلك تضافرت
روايات عن الفريقين باختلاف مرور الناس ، حسب اختلافهم في سلوك صراط
الدنيا ، قال الإمام الصادق (ع) : « النَّاسُ يَمُرُّونَ عَلَى الصَّرَاطِ طَبَقَاتٍ ،
وَالصَّرَاطُ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ وَمِنْ حَدِّ السِّيفِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ الْبَرْقِ ، وَمِنْهُمْ مِثْلُ
عَدُوِّ الْفَرَسِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ حَبْوً ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ مَشْيً ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ مُتَعَلِّقًا قَدْ
تَأَخَذَ النَّارَ مِنْهُ شَيْئًا وَتَرَكَ شَيْئًا » (١) .

فبقدر الكمال الذي يكتسبه الإنسان في هذه النشأة ، يتثبت في سلوك
الصراط الأخروي ، ولا تزل قدمه ، يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّ الدِّينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصَّرَاطِ لَنَاجِبُونَ ﴾ (٢) .

هذا ما يقتضيه التدبّر في الآيات والروايات الواردة حول الصراط ، ومع
ذلك كلّهُ ليس معنى كون الصراط الأخروي تجسماً للصراط الديني ، أو سلوكه
تمثلاً لسلوكه ، إنكار وجود صراط فوق الجحيم ، لا يحيص لكل إنسان عن
سلوكه ، بل مقتضي التعبد بظواهر القرآن والحديث وجود ذلك الصراط بمعناه
الحقيقي ، وإن لم نفهم حقيقته ، ولا بأس بإتمام الكلام بحديث جابر ، وهو ينقل
عن النبي أنه قال :

(١) أمالي الصدوق ، المجلس ٣٣ ، ص ١٠٧ ، لاحظ الدر المنثور ، ج ٤ ، ص ٢٩١ .

(٢) سورة المؤمنون : الآيتان ٧٣ و ٧٤ .

« لا يبقى برّ ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً ، كما كانت على إبراهيم ، حتى أن للنار ضجيجاً من بردهم ، ثم يُنَجِّي الله الذين اتَّقوا وَيَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا »^(١) .

٧ - الأعراف

يقول سبحانه : ﴿ وَيَتَّبِعُهَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ وإذا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ ، قالوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ونَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ ، رُجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، قالوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿^(٢) .

الحجاب هو الستر المتخلل بين الشيئين يستر أحدهما من الآخر ، والضمير في قوله : ﴿ يَتَّبِعُهَا ﴾ ، راجع إلى أصحاب الجنة والنار ، المذكورين في الآية المتقدمة .

والأعراف أعالي الحجاب والتلال من الرمل ، والعرف للديك ، وللفرس ، هو الشعر فوق رقبته ، وأعلى كل شيء ، ففيه معنى العلو ، والآية تدلّ على أن في أعالي الحجاب الذي بين الجنة والنار ، رجال يعرفون أهل الجنة والنار بعلائمهم وهم مشرفون على الجانبين ، لارتفاع موضعهم . وظاهر السياق أن هؤلاء الرجال منحازون عن الطائفتين متمايزون عن جماعتهم ، فيكون بذلك أهل الجمع منقسمين إلى طوائف ثلاث : أصحاب الجنة ، وأصحاب النار ، وأصحاب الأعراف .

ثم إنه وقع الكلام في معرفة من هم هؤلاء الرجال^(٣) ، والتدبر في الآيات يعطي أنهم جمع من عباد الله من غير الملائكة ، هم أرفع مقاماً وأعلى منزلة من

(١) الدر المنثور ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ .

(٢) سورة الأعراف : الآيات ٤٦ - ٤٨ .

(٣) اختلف المفسرون في ذلك على إثني عشر قولاً .

سائر الجمع ، يعرفون عامة الفريقين ، لهم أن يتكلموا بالحق يوم القيامة ، ولهم أن يشهدوا ، ولهم أن يشفعوا ، ولهم أن يأمرُوا ويقضُوا ، كل ذلك بإذنه سبحانه .
وقد تضافرت الروايات على أن المراد من الرجال هم الأئمة من آل محمد صلوات الله عليهم .

قال الصدوق : « إعتقادنا في الأعراف أنه سور بين الجنة والنار عليه رجال يعرفون كلاً بسماهم ، والرجال هم النبي وأوصياؤه »^(١)

* * *

٨ - لواء الحمد

إذا كان يومُ القيامة ، وحُشِرَ الناسُ على صعيد واحد ، وَتَمَيَّزَ الفريقان ، يُعْطَى النبي الأكرم لواء الحمد ، وَيَتَقَدَّمُ به يأخذ مسيره وَمَنْ خَلَفَهُ إلى الجنة ، وفي روايات الإمامية أَنَّ النبي الأكرم يدفعه إلى وصيّه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام .

وقد ورد في غير واحد من الروايات ذكر لواء الحمد ، وأنه مكتوب عليه : « المفلحون هم الفائزون بالجنة » . وأنه يمشي عليّ والقوم (أهل الجنة) تحت لوائه حتى يدخل الجنة »^(٢) .

وروى أحمد بن حنبل في مسنده عن أبي نضرة قال : خطبنا ابن عباس على منبر البصرة ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنه لم يكن نبي إلا له دعوة قد تنجزها في الدنيا ، وإنّي قد اختبأت دعوي ، شفاعة لأمتي ، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، ويدي لواء الحمد ولا فخر ، آدم فمن دونه تحت لوائي ولا فخر . . . »^(٣) .

(١) لاحظ بحار الأنوار ، ج ٨ ، ص ٣٢٩ - ٣٤٠ . وفي بعض الروايات : « يوقف كل نبي وكل خليفة نبي » ، وعند ذلك يكون ذكر النبي والأئمة من باب تطبيق الكلي على المصاديق المثلى .

(٢) لاحظ بحار الأنوار ، ج ٨ ، باب ١٨ ، الأحاديث ١ - ١٢ .

(٣) مسند ابن حنبل ، ج ١ ، ص ٢٨١ ، وص ٢٩٥ ، وج ٣ ، ص ١٤٤ .

٩- الحوض

قال الصدوق : « إعتقادنا في الحوض أنه حق وأنّ الوالي عليه يوم القيامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يسقي منه أوليائه ، ويذود عنه أعداءه . مَنْ شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً »^(١) .

روى الفريقان روايات حول الحوض : روى أبو حازم عن سهل بن سعد ، قال سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول : أنا فرطكم على الحوض ، من وَرَدَ شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً . وَلَيَرَدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرَفَهُمْ وَعَرَفُونِي ، ثم يحال بينه وبينهم »^(٢) .

روى الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من أراد أن يتخلص من هول يوم القيامة فليتلو وَلِيِّي ، وَلْيَتَّبِعْ وصي وخليفتي من بعدي علي بن أبي طالب ، فإنه صاحب حوضي ، يذود عنه أعداءه ، ويسقي أوليائه . فمن لم يسق منه لم يزل عطشاناً ولم يرو أبداً . ومن سُقِيَ منه شربة ، لم يَشْقَ ولم يظمأ »^(٣) .

وقد تقدم قول رسول الله صلى الله عليه وآله - المنقول متواتراً - في خطبته يوم الغدير حيث قال :

« فإني فرط على الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين » .

فنادى مناد : « وما الثقلان يا رسول الله ؟ »

قال : « الثقل الأكبر ، كتاب الله ، والآخر الأصغر عترتي ، وإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، فلا تقدموهما فتهلكوا ، ولا تقصروا عنها فتهلكوا »^(٤) .

(١) عقائد الصدوق ، ص ٨٥ .

(٢) جامع الأصول ، ص ١١٩ - ١٢١ وقد نقل روايات كثيرة حول الحوض .

(٣) بحار الأنوار ، ج ٨ ، ص ١٩ ، نقلاً عن أمالي الصدوق ، ص ١٦٨ .

(٤) لاحظ في الوقوف على مصادره ، ما دَبَّجَه قلم المتبع الكبير السيد ميرحامد حسين الهندي ، فقد جمع أسناده وبحث فيها وفي دلالاته في ستة مجلدات من كتابه « العبقات » . ولاحظ كتاب المراجعات ، للإمام شرف الدين ، المراجعة الثانية .

مباحث المعاد

(١٠)

المعاد الجسماني والروحاني

قد تعرفت على الدلائل التي أفادت ضرورة وقوع المعاد ، كما تعرفت على الآيات التي تشير إلى تلك الدلائل ، لكن يقع الكلام في كيفية المعاد ، وهل هو جسماني أو روحاني ، أو جسماني وروحاني معاً . وقبل بيان المراد من الجسمانية والروحانية ، نشير إلى كلمات تذكر الأقوال والآراء الموجودة في الكيفية .

١ - قال الرازي : « اختلفت أقوال أهل العالم في أمر المعاد على وجوه :

(أ) - أن المعاد ليس إلا للنفس ، وهو مذهب الجمهور من الفلاسفة .

(ب) - أن المعاد ليس إلا لهذا البدن ، وهو قول نفاة النفس الناطقة ، وهم أكثر أهل الإسلام .

(ج) - أن المعاد للأمرين ، وهم طائفة كبيرة من المسلمين »^(١) .

٢ - وقال العلامة الحلي : « إتفق المسلمون على إعادة الأجسام خلافاً للفلاسفة »^(٢) .

٣ - وقال الدواني : « المعاد الجسماني هو المتبادر من إطلاق أهل الشرع ، إذ

(١) نهاية العقول . نقله المجلسي في البحار ، لاحظ ج ٧ ، ص ٤٨ .

(٢) شرح الياقوت ، ص ١٩١ .

هو الذي يجب الاعتقاد به ، ويكفر من أنكره ، وهو حق ، لشهادة نصوص القرآن في مواضع متعددة بحيث لا تقبل التأويل ، كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ . . . إِلَى قَوْلِهِ : بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ . قال المفسرون نزلت هذه الآية في أبي بن كعب فإنه خاصم رسول الله وأتاه بعظم قد رمّ وبلى ، ففتته بيده وقال : يا محمد ، أترى الله يحبي هذه بعدما رمّت ، قال : نعم ، ويبعثك ويدخلك النار . « وهذا مما يقلع عرق التأويل بالكلية ، ولذلك قال الإمام (الرازي) : إنه لا يمكن الجمع بين الإيمان بما جاء به النبي وإنكار الحشر الجسماني »^(١) .

٤ - قال صدر المتألهين : إتفق المحققون من الفلاسفة والمليين على أحقية المعاد ، وثبتت النشأة الباقية ، لكنهم اختلفوا في كيفيته ، فذهب جمهور الإسلاميين وعامة الفقهاء وأصحاب الحديث إلى أنه جسماني فقط ، بناء على أن الروح عندهم جسم سارٍ في البدن سريان النار في الفحم ، والماء في الورد ، والزيت في الزيتون ، وذهب جمهور الفلاسفة وأتباع المشائين إلى أنه روحاني أي عقلي فقط لأن البدن ينعدم بصوره وأعراضه لقطع تعلق النفس بها ، فلا يعاد بشخصه تارة أخرى ، إذ المعدوم لا يعاد ، والنفس جوهر باقٍ لا سبيل للفناء إليه ، فتعود إلى عالم المفارقات لقطع التعلقات بالموت الطبيعي .

وذهب كثير من أكابر الحكماء ومشايخ العرفاء وجماعة من المتكلمين كالغزالي والكعبي والحليمي والراغب الأصفهاني وكثير من أصحابنا الإمامية كالشيخ المفيد ، وأبي جعفر الطوسي ، والسيد المرتضى ، والمحقق الطوسي ، والعلامة الحلي ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين إلى القول بالمعادين ، ذهاباً إلى أن النفس مجردة تعود إلى البدن^(٢) .

قال العلامة المجلسي : « إعلم أن القول بالمعاد الجسماني مما اتفق عليه جميع المليين وهو من ضروريات الدين ومنكره خارج من عداد المسلمين ، والآيات الكريمة على ذلك ناصة لا يعقل تأويلها ، والأخبار فيه متواترة لا يمكن ردّها ولا

(١) شرح العقائد العصبية ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

(٢) الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٦٥ .

الطعن فيها»^(١)

إن القضاء البات في هذه الآراء يتوقف على معرفة ملاك توصيف المعاد بالجسماني والروحاني ، وإليك بيانه .

ملاك كون المعاد جسمانياً أو روحانياً

إن لتوصيف المعاد بالجسماني أو الروحاني ، أوهما معا ، ملاكين ، هما :

الملاك الأول : ما يرجع إلى اتخاذ موقف حاسم في حقيقة الإنسان ، وأنها ما هي ، فلو قلنا بأن الإنسان عبارة عن هذا الهيكل الجسماني ، وليس للروح حقيقة وراء التفاعلات والإنفعالات المادية الفيزيائية والكيميائية ، وهي سارية في البدن سريان النار في الفحم ، والماء في الورد - لو قلنا بهذا - فلا مناص للقتال بالمعاد من توصيفه بكونه جسمانياً فقط ، إذ ليس هناك وراء الجسم ، والتأثير الماديين ، شيء آخر حتى يعاد .

وأما لو قلنا بأن وراء الجسم ، ووراء التفاعلات المادية ، جوهر حقيقي مدرك ، له تعلق بالبدن ، تعلقاً تدبيرياً ما دامت العُلة باقية ، فإذا زالت يكون له البقاء ولا يتطرق إليه الفناء . فلو قلنا بذلك ، ثم قلنا بأنه سبحانه يبعث الروح مع البدن ، فالمعاد يكون جسمانياً من جهة ، وروحانياً من جهة أخرى ، لكون المبعوث ممزوجاً من شيئين ومؤلفاً من أمرين ، ولكل معاد .

وأما لو قلنا بأن الروح - بعد مفارقتها البدن - لا ترجع إليه ، لعل ما ، فعندئذ تبعث الروح وحدها من دون تعلقها بالبدن ، فيكون المعاد روحانياً فقط ، وهذا الملاك هو الذي يلوح من كلام صدر المتألهين ، وصهره عبد الرزاق اللاهيجي^(٢) .

(١) بحار الأنوار ، ج ٧ ، ص ٤٦ . ولاحظ حق اليقين ، للسيد شبر ، ج ٢ ، ص ٥٢ . ولا نطيل الكلام بنقل كلمات الآخرين .

(٢) الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٦٥ . و«جوهر مراد» المقالة الثالثة ، الباب الرابع ، ص ٤٤٩ . (فارسي)

الملاك الثاني : إنّ هناك ملاكاً آخر لكون المعاد جسمانياً ، وروحانياً ، يلوح ذلك من كلمات الشيخ الرئيس ، وهو تقسيم المعاد إلى الجسماني والروحاني ، حسب الثواب والعقاب الموعودين : فلو قلنا إنّ العذاب والعقاب ينحصران بالجسماني منها ، كنعيم الجنة وحرّ الجحيم ، فيكون المعاد معاداً جسمانياً ، فقط ، وأما لو قلنا بأنّ هناك - وراء ذلك - ثواباً وعقاباً عقليين لا يمتّان إلى البدن بصلة ، بل يلتذ ويعاقب بهما الروح فقط ، فيكون المعاد ، وراء كونه جسمانياً ، روحانياً أيضاً ، وبعبارة أخرى : إلتذاذ النفس وتألّمها باللذات والآلام العقلية ، فهذا ملاك كون المعاد ، روحانياً .

قال الشيخ الرئيس : « يجب أن يعلم أن المعاد منه ما هو مقبول من الشرع ، ولا سبيل إلى إثباته إلا من طريق الشريعة وتصديق خبر النبوة ، وهو الذي للبدن عند البعث ، وخيرائه وشروره معلوم لا يحتاج إلى أن يُعلم ، وقد بسطت الشريعة الحقّة التي أتناها بها سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله ، حال السعادة والشقاء التي بحسب البدن .

ومنه ما هو معلوم مدرك بالعقل والقياس البرهاني ، وقد صدقته النبوة وهو السعادة والشقاوة الثابتان بالقياس إلى نفس الأمر ، وإن كانت الأوهام ممّا تقتصر عن تصورهما الآن . والحكماء الإلهيون ، رغبتهم في إصابة هذه السعادة أكثر من رغبتهم في إصابة السعادة البدنية ، بل كأنهم لا يتلفنون إلى تلك وإن أعطوها ، فلا يستعظمونها في جنب السعادة التي هي مقارنة الحق الأول »^(١) .

(١) النجاة ، ص ٢٩١ . والشفاء ، قسم الإلهيات ، المقالة التاسعة ، الفصل ٧ . والظاهر من كلام الشيخ الرئيس أنه لا سبيل إلى المعاد الجسماني إلا بالشريعة وتصديق خبر النبوة ، وقد فسر كلامه بأنه لا يمكن إثبات المعاد الجسماني وعود البدن مع الروح في النشأة الأخرى بالبرهان ، وإنما الطريق إليه هو الشريعة . ولكنه تفسير خاطيء ، كيف والأقلون من هذا الشيخ الإلهي مرتبة يثبتون ذلك بالبراهين الفلسفية ، وإنما مراده من المعاد الجسماني هو اللذات والآلام الجسمانية من الجنة ونعيمها والنار وهيبها ، فإن إثبات خصوص هذه اللذات يرجع إلى السمع وعالم الوحي ، ولولا السمع لما قدرنا على الحكم بأنّ الله سبحانه في النشأة الأخرى هذه النعم والنقم ، بل أقصى ما يمكن إثباته هو أن حشر الأجساد يمتنع أن يكون بلا غاية وبلا جهة ، أو بلا ثواب ولا عقاب ، وأما أن الثواب هو نفس ما ورد في الكتاب من الحور العين والفواكه والثمار وغيرها ، أو أنّ العقاب هو النار وهيبها ،

وقال الإمام الرازي : « أمّا القائلون بالمعاد الروحاني والجسماني معاً ، فقد أرادوا أن يجمعوا بين الحكمة والشرعية فقالوا : دلّ العقل على أنّ سعادة الأرواح بمعرفة الله تعالى ومحبته ، وأنّ سعادة الأجساد في إدراك المحسوسات ، والجمع بين هاتين السعادتين في هذه الحياة غير ممكن ، لأنّ الإنسان مع استغراقه في تجلّي أنوار عالم القدس ، لا يمكنه أن يلتفت إلى شيء من اللذات الروحانية ، وإنما تعذر هذا الجمع ، لكون الأرواح البشرية ضعيفة في هذا العالم ، فإذا فارقت بالموت ، واستمدت من عالم القدس والطهارة ، قويت وصارت قادرة على الجمع بين الأمرين ، ولا شبهة في أنّ هذه الحالة هي الحالة القصوى من مراتب السعادات »^(١) .

وقال الحكيم السبزواري : « القول الفحل والرأي الجزل ، هو الجمع بين المعادين : لأنّ الإنسان بدن ونفس ، وإن شئت قلت نفس وعقل ، فلبدن كمال ، ومجازاة ، وللنفس كمال ومجازاة وكذا للنفس وقواها الجزئية كمالات وغايات تناسبها وللعقل والقوى الكلية كمال وغاية ، ولأنّ أكثر الناس لا يناسبهم الغايات الروحانية العقلية ، فيلزم التعطيل في حقهم في القول بالروحاني فقط ، وفي القول بالجسماني فقط يلزم في الأقلين من الخواص والأخصيين »^(٢) .

تحليل الملاكين في ضوء القرآن الكريم

إذا كان الملاك في توصيف المعاد الجسماني أو الروحاني هو كون المحشور هو الجسم الحي وحده أو الروح وحدها ، فالقرآن الكريم يصدّق الأول وينكر الثاني ، وذلك أنّ مَنْ أَمَعَنَ النظر في الآيات الواردة حول المعاد يقف على أنّ المعاد

فلا يشبه البرهان . ويؤيد ما ذكرنا أنّه يقول : « وهو الذي للبدن عند البعث وخبراته وشروره معلوم » . فالشيخ الرئيس إنما يمي بذلك لعدم تفريقهم بين الملاكين في توصيف المعاد بالجسماني أو الروحاني ، فزعموا أنّ الملاك عنده هو الأول منها وغفلوا عن أنّ الملاك هو الثاني منها كما يعلم من التأمل في كلامه .

(١) شرح العقائد العضدية للمحقق الدواني ، ج ١ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٢) الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٦٥ ، تعليقة المحقق السبزواري .

الذي يصبر عليه القرآن هو عود البدن الذي كان الإنسان يعيش به في هذه الدنيا ، ولا يصدّق عود الروح وحدها فقط . ويظهر ذلك من ملاحظة أصناف الآيات الواردة حول المعاد ، ونحن نأتي فيما يلي بلفيف منها :

١ - ما ورد في قصة إبراهيم وبقرة بني إسرائيل وإحياء عزيز ، وأمة من بني إسرائيل وأصحاب الكهف^(١) .

٢ - الآيات التي تصرّح بأنّ الإنسان خُلِق من الأرض وإليها يُعاد ، ومنها يُخْرَج .

يقول سبحانه : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾^(٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾^(٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾^(٤) .

ويقول سبحانه : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهِ تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾^(٥) .

٣ - الآيات التي تدل على أنّ الحشر عبارة عن الخروج من الأجداث والقبور ، مثل قوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾^(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُتْتَشِرٌ ﴾^(٧) .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ

(١) لاحظ البحث الخامس من مباحث المعاد ، حيث ذكرنا نماذج من إحياء الموتى في الشرائع السابقة .

(٢) سورة طه : الآية ٥٥ .

(٣) سورة نوح : الآية ١٨ .

(٤) سورة الروم : الآية ٢٥ .

(٥) سورة الأعراف : الآية ٢٥ .

(٦) سورة يس : الآية ٥١ .

(٧) سورة القمر : الآية ٧ .

يُوفَضُونَ ﴿١١﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ (٢)

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ (٤)

٤ - ما يدل على شهادة الأعضاء ، قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٦) .

وقال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ ﴾ (٧) .

٥ - ما يدل على تبديل الجلود بعد نضجها وتقطع الأمعاء .

قال سبحانه : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ، لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ (٨) .

وقال سبحانه : ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً ، فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ﴾ (٩) .

إلى غير ذلك من الآيات الواردة في مواقف القيامة ، ومشاهدها ، ونعيم الجنة وعذاب الجحيم ، التي لا تدع لمريب ريباً في أنَّ الإنسان سوف يبعث بهذا

(١) سورة الماعز : الآية ٤٣ .

(٢) سورة الحج : الآية ٧ .

(٣) سورة الإنفطار : الآية ٤ .

(٤) سورة العاديات : الآية ٩ .

(٥) سورة النور : الآية ٢٤ .

(٦) سورة يس : الآية ٦٥ .

(٧) سورة فصلت : الآية ٤١ .

(٨) سورة النساء : الآية ٥٦ .

(٩) سورة محمد : الآية ١٥ .

البدن العنصري الذي تكون له الحياة بالنحو الذي كانت له في الدنيا ، وهذا مما لا نشك فيه .

هذا كله حول الملاك الأول ، وإليك البحث في الملاك الثاني الذي حاصله أن اتصاف المعاد بالجسماني أو الروحاني ، يرجع إلى كون الثواب والعقاب جسمانيين فقط ، أو أن هناك لذات وآلام روحية تلتذ بها النفس أو تتألم ، ولا دخالة للجسم في حصول اللذة والألم .

إن القرآن الكريم يصدّق كلا المعادين بهذا الملاك حيث يثبت اللذات والآلام الجسمانية والروحانية ، ولا يخص الثواب والعقاب بما يعرض للنفس عن طريق البدن ، وبواسطته . وإليك ما يدل على ذلك :

أما ما يدل على الثواب والعقاب الجسمانيين ، فحدّث عنه ولا حرج ، فالجنة والنار وما فيهما من النعم والنقم يرجعان إلى اللذات والآلام الجسمانية . وإنما الكلام فيما يدل من الآيات على اللذات والآلام الروحية فقط ، وفيما يلي نذكر بعضاً منها :

١ - لذة رضاء المعبود

يقول سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١) .

فترى أنه سبحانه يجعل رضوان الله في مقابل سائر اللذات الجسمانية ، ويصفه بكونه أكبر من الأولى ، وأنه هو الفوز العظيم .

ومن المعلوم أن هذا النوع من اللذة لا يرجع إلى الجسم ، بل هي لذة تدرك بالعقل ، والروح في درجتها القصوى .

وهنا كلمة مروية عن الإمام الطاهر علي بن الحسين قال : إذا صار أهل

(١) سورة التوبة : الآية ٧٢ .

الجنة ، ودخل وليُّ الله إلى جنانه ومساكنه ، واتكأ كل مؤمن منهم على أريكته ، حفته خدامه وتهدلت عليه الثمار ، وتفجرت حوله العيون ، وجرت من تحته الأنهار ، وبسطت له الزاربي ، وصففت له النارق وأتته الخدام بما شاءت شهوته من قبل أن يسألهم ذلك ، قال : ويخرجون عليهم الحور العين من الجنان فيمكنون بذلك ما شاء الله .

ثم إنَّ الجبار يشرف عليهم فيقول لهم : أوليائي وأهل طاعتي وسكان جنتي في جواربي ، هل أنبئكم بخير مما أنتم فيه ، فيقولون ربنا وأي شيء خير مما نحن فيه ، نحن فيما اشتهدت أنفسنا ، ولذت أعيننا من النعم في جوار الكريم ، قال فيعود عليهم بالقول ، فيقولوا : ربنا نعم ، فائتنا بخير مما نحن فيه ، فيقول لهم تبارك وتعالى : رضائي عنكم ومحبي لكم خير وأعظم مما أنتم فيه ، قال : فيقولون نعم يا ربنا ، رضاك عنا ومحبتك لنا خير لنا وأطيب لأنفسنا . ثم قرأ علي بن الحسين هذه الآية : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١) .

٢ - ألم الإبتعاد عن رحمة الله ؟

إذا كان إدراك رضوان المعبود أعظم اللذات العقلية ، فإدراك الإبتعاد عن رحمة الله التي وسعت كل شيء ، من أعظم الآلام العقلية . ولأجل ذلك نرى أنَّه سُبْحانه يوعد المنافقين والكفار بالنار ، ويُعقِّبه بلعنهم . فكأنَّ هناك أَلَمَيْنِ : جِسْمِي هو التعذيب بالنار ، وعقلي ، وهو إدراكهم ألم الإبتعاد عن رحمة .

يقول سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ (٢) .

ويظهر عظم هذا الألم ، بوقوع هذه الآية قبل آية الرضوان فكأنَّ الآيتين

(١) بحار الأنوار ، ج ٨ ، ص ١٤٠ ، كتاب العدل والمعاد ، الحديث ٥٧ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٦٨ .

تُعْرِبان عن اللذات والآلام العقلية التي تدركها الروح بلا حاجة إلى الجسم والبدن .

٣- الحسرة يوم القيامة

يقول سبحانه : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ، وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ وقال الذين اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وما هم بخارجين من النار ﴿ (١) .

إن أصحاب الجحيم عندما يقفون على درجات الجنة ومقامات أصحابها ، وما حلَّ بهم من السعادة والكرامة والراحة والإستغلال برحمة الله تبارك وتعالى ، وتفرغهم عن كل همٍّ وحزن ، ثم ينظرون إلى ما حلَّ بهم من عذاب أليم ، وطعام من غسيلين (٢) ، وضريع (٣) ، وشراب من حميم (٤) ، يتحسرون على ما ضيعوا من الفرض ، ويندمون على ما فوّتوا في الدنيا وفرطوا في حياتهم ، ولكنها الحسرة في وقت لا تنفع فيه .

وهذا النوع من العذاب - أعني الحسرة - أشد على النفس مما يحل بها من عذاب البدن ، ولأجل ذلك يسمى يوم القيامة بيوم الحسرة ، قال سبحانه : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥) .

روى أبو سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، قيل يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون ، وقيل يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيجاء بالموت ، كأنه كبش أملح ، فيقال لهم : تعرفون الموت ، فيقولون : « هذا ، هذا » وكل قد عرفه ،

(١) سورة البقرة : الآيتان ١٦٦ و١٦٧ .

(٢) سورة الحاقة : الآية ٣٦ .

(٣) سورة الغاشية : الآية ٦ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ٧ .

(٥) سورة مريم : الآية ٤٠ .

قال : فيقدم فيذبح ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت . قال : وذلك قوله : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ .

وروي هذا الحديث عن الإمامين الصادقين عليهما السلام ، بزيادة : « فَيَفْرَحُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا ، لو كان أحد يومئذ ميتا ، لما اتوا فَرَحًا ، وبشوق أهل النار شهقة ، لو كان أحد ميتًا ، لما اتوا »^(١) .

٤ - لقاء الله ومشاهدته العقلية

إن هناك لفيلاً من الآيات تعرب عن تمكن المؤمن من لقاءه سبحانه يوم القيامة ، يقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾^(٢) .

وهذه الآيات الوافرة تشير إلى لقاءه سبحانه . ولكن المفسرين - تنزيهاً له سبحانه عن الجسم والجسمانيات - أولوها إلى لقاء جزائه سبحانه وثوابه وعقابه ، ورضاه وسخطه ، وهذا المعنى مع صحته في نفسه ، ومع التركيز على تنزيهه سبحانه عن المشاهدة بالعيون المادية ، لا يمكن أن يكون معرباً عن كل ما تهدف إليه الآية ، فإن لهذه الآيات معنى دقيقاً يدركه العارفون الراسخون في معرفته سبحانه ، القائلين بأن المعرفة ، بذر المشاهدة ، لكن لا مشاهدة جسمانية ، بل مشاهدة قلبية وعقلية ، ولما كان بيان هذا النوع من اللذة العقلية ، خارجاً عن موضوع الكتاب تقتصر على هذا المقدار . ومن أراد التفصيل فليرجع إلى محله^(٣) .

(١) مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ٥١٥ .

(٢) سورة الكهف : الآية ١١٠ ، ورد هذا المضمون في الذكر الحكيم في سور كثيرة منها : الأنعام : ٣١ ، و ١٥٤ ، يونس : ١١٧ و ١٥٥ و ٤٥ ، العنكبوت : ٥ و ٢٣ ، السجدة : ١٠ و ٣ ، فصلت : الآية ٥٤ .

(٣) ما ذكرناه نماذج من اللذات والآلام الروحية الدالة على أن الثواب والعقاب ليسا محصورين في الجسماني منها ، ومن أراد التوسع فليلاحظ كتاب « لقاء الله » ، للعارف الكبير ، الشيخ جواد الملّكي ، (م ١٣٤٤) . وهناك روايات وردت حول الموضوع ، فمن أراد الوقوف عليها فليرجع إلى توحيد الصدوق ، وإلى الموسوعة القرآنية : « مفاهيم القرآن » .

المعاد الروحاني عند الحكماء

قد وقفت على تضافر آيات الكتاب وأحاديث السنّة على عدم حصر المعاد في الجسماني ، كما تعرفت على حكم العقل في ذلك المجال ، وأنّ حصره في المعاد الجسماني يخالف رحمة الله الواسعة وحكمته البالغة ، وعلى ذلك فالشرع والعقل متعاضان على أنّ هناك معاداً غير المعاد الجسماني ، ولكن يجب إلفات نظر الباحث في المقام إلى نكتة وهي أنّ المعاد الروحاني في الكتاب والسنّة يرجع إلى اللذات والآلام الروحية التي تلتذ بها النفس أو تتألم من دون حاجة إلى آلة جسمانية . وقد عرفت ما هو الوارد في الكتاب في هذا المجال من رضوانه سبحانه ولقائه والإبتعاد عن رحمته وإحاطة الحسرة بالإنسان في تلك النشأة ، فهذه هي حقيقة المعاد الروحاني التي تلخص في غير اللذات والآلام الجسمانية ، وعلى هذا فهو يعمّ جميع أهل الجنة والنار من غير فرق بين الكاملين والمتوسطين .

وعلى الجملة هناك لذات روحية وآلام كذلك تحيط أهل الجنة والنار من غير فرق بين طبقاتهم . وأمّا المعاد الروحاني عند الحكماء ، فهو يختلف عمّا وقفنا عليه في الكتاب بأمرين :

الأول : إنهم يَحْصُونَ المعاد الروحاني باللذات العقلية أي درك العقل الأمور الملائمة والمنافرة له ، فإن اللذة عندهم على وجه الإطلاق تفسّر بإدراك الملائم من حيث هو ملائم ، كالحلو من المذوقات . والملائم للنفس الناطقة ، إدراك المعقولات بأنّ تتمكن النفس من تصوّر ما يمكن أن يدرك من الحق تعالى ، وأنه واجب الوجود ، بريء عن النقائص والشرور والآفات ، منبع فيضان الخير على الوجه الأصوب ، ثم إدراك ما يترتب بعده من العقول والنفوس المجردة والأجرام السماوية والكائنات العنصرية حتى تصير النفس بحيث ترتسم فيها صور جميع الموجودات على الترتيب الذي هو لها .

وعلى هذا فإدراك الحس ، الملائم للحس ، معاد جسماني . وإدراك العقل ، الملائم له ، من الوجودات العالية ، معاد روحاني .

وهذه العلوم وإن كانت حاصلة لبعض النفوس في هذه النشأة إلا أنّها معرفة

ناقصة تتجلى بعد الموت في النشأة الأخرى بصورة كاملة برفع الموانع والحجب ، فكأن المعرفة العقلية بذر المشاهدة . فتلتذ النفوس في النشأة الأخرى بإدراك الأكمل فالأكمل .

وهذا كما ترى غير ما أشار إليه القرآن من اللذات الروحية ، نعم لا مانع من ثبوت كلا النوعين من المعاد الروحاني ، وليس الوارد في القرآن راداً لهذا القسم .

الثاني : إن المعاد الروحاني الوارد في القرآن الكريم يعم جميع النفوس ، كاملة كانت أو متوسطة أو ناقصة . ولكن المعاد الروحاني الذي عليه الحكماء يختص بصنف خاص ، وهم الكاملون في المعرفة . وذلك لأن المعاد الروحاني حسب الكتاب والسنة ، يرجع إلى اللذات الروحية لا إلى اللذة العقلية التي تختص بالكاملين في المعرفة .

يقول صدر المتألهين : « وهذا النوع من اللذة والسعادة لا تنالها كل نفس وإنما ينالها من عرف العقلية في النشأة الأولى ، لأن المعرفة بذر المشاهدة فمعرفة العقلية في النشأة الأولى منشأ الحضور في العقبى »^(١) .

إن النفوس مختلفة ومنقسمة إلى كاملة ومتوسطة وناقصة ، فلا شك أن حصر المعاد في الجسماني يخالف رحمة الواسعة وحكمته البالغة إذ النفوس الناقصة والمتوسطة ، وإن كانت تلتذ بنعيم الجنة ، ولكن النفوس الكاملة لا تلتفت إلى مثلها بل تطلب غاية أعلى منها ، ولأجل ذلك يجب أن يكون هناك وراء هذه اللذات الحسية ، لذة عقلية تشوق إليها النفوس الكاملة وتصبو إليها ، وليست هي إلا نيل مقامات القرب من الحق تعالى .

يقول الحكيم السبزواري : « لو حصروا المعاد في الجسماني لكان قصوراً حيث عطّلوا النفوس الكاملة عن البلوغ إلى غاياتها ، لأنها المستصغرة للغايات الجزئية ، الطالبة للإتصال بالأرواح المرسلة ، بل لمحض القرب من الله تعالى » .

(١) الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٢٣ و ١٢٩

وقال في موضع آخر : « إنّ الخلق طبقات فالمجازات متفاوتة ، فكل منها محبوب ومرغوب وجزاء يليق بحالها ، واللدائد الحسية للكمّل في العلم والعمل ، كالظلّ غير الملتفت إليه بالذات ، والتفاتهم بباطن ذواتهم وما فوقهم »^(١) .

ثم إن للحكماء المتأهلين في تبين السعادة والشقاء الآخرين العقليين مباحث مهمة لا سيما في تبين دور العقل النظري والعملي فيهما فمن أراد الوقوف عليها ، فليرجع إلى مظانها^(٢) .



(١) لاحظ إلهيات الشفاء ، والمبدأ والمعاد للشيخ الرئيس . والأسفار الأربعة لصدر المتأهلين ، ج ٩ .
 وشرح المنظومة ، وأسرار الحكم ، كلاهما للحكيم السبزواري ، وغيرها من كتب الفلاسفة .

(٢) شرح المنظومة للحكيم السبزواري ، المقصد السادس ، الفريدة الثانية .

مباحث المعاد

(١١)

الرجعة

قضية الرجعة التي تحدثت عنها بعض الآيات القرآنية والأحاديث المروية عن أهل بيت الرسالة، مما تعتقد به الشيعة من بين الأمة الإسلامية، وليس هذا بمعنى أن مبدأ الرجعة يُعدّ واحداً من أصول الدين، وفي مرتبة الاعتقاد بالله وتوحيده، والنبوة والمعاد بل إنها تُعدّ من المسلمات القطعية، وشأنها في ذلك شأن كثير من القضايا الفقهية والتاريخية التي لا سبيل إلى إنكارها. مثلاً: إتفقت كلمة الفقهاء على حرمة مس النساء في الحيض، بنص الكتاب العزيز يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ (١).

ودلت الوثائق التاريخية على أن معركة بدر وقعت في السنة الثانية للهجرة. فالأولى قطعية فقهية، والثانية قطعية تاريخية، ولكن لا يعدان من أصول العقائد الإسلامية، وشأن الرجعة في هذا المجال شأنها.

إذا عرفت ذلك نقول: الرجعة في اللغة ترادف العودة، وتطلق إصطلاحاً على عودة الحياة إلى مجموعة من الأموات بعد النهضة العالمية للإمام المهدي عليه السلام وهذه العودة تتم بالطبع قبل حلول يوم القيامة. وطبقاً لهذا المبدأ، فالحديث عن العودة، يُعدّ من أشراط القيامة.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

وعلى ضوء ذلك ، فظهور الإمام المهدي عليه السلام شيء ، وعودة الحياة إلى مجموعة من الأموات شيء آخر ، كما أن البعث يوم القيامة أمر ثالث ، فيجب تمييزها وعدم الخلط بينها .

قال الشيخ المفيد : « إن الله تعالى يحشر قوماً من أمة محمد صلى الله عليه وآله ، بعد موتهم ، قبل يوم القيامة ، وهذا مذهب يختص به آل محمد (صلوات الله عليه وعليهم) ، والقرآن شاهد به »^(١) .

وقال المرتضى متحدثاً عن الرجعة عند الشيعة : « إعلم أن الذي تذهب الشيعة الإمامية إليه ، أن الله تعالى يعيد عند ظهور إمام الزمان ، المهدي عليه السلام ، قوماً ممن كان قد تقدّم موته من شيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ، ومشاهدة دولته ، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم ، فيلتذوا بما يشاهدون من ظهور الحق وعلو كلمة أهله »^(٢) .

وقال العلامة المجلسي : « والرجعة إنما هي لمحضي الإيمان من أهل الملة ، ومحضي النفاق منهم ، دون من سلف من الأمم الخالية »^(٣) .

فالإعتقاد بالرجعة من الأمور القطعية المسلّم بها ، والروايات الكثيرة الواردة عن الأئمة المعصومين لا تُبقي أي مجال للشك في وقوعها .

يقول العلامة المجلسي : « كيف يشك مؤمن بحقيقة الأئمة الأطهار فيما تواتر عنهم فيما يقرب من مائتي حديث صريح ، رواها نيف وثلاثون من الثقات العظام ، في أزيد من خمسين من مؤلفاتهم كثقة الإسلام الكليني والصدوق و... »^(٤) .

وقد وصف الشيخ الحرّ العاملي الروايات المتعلقة بالرجعة بأنها أكثر من أن

(١) بحار الأنوار ، ج ٥٣ ، ص ١٣٦ ، نقلاً عن المسائل السروية ، للشيخ المفيد .

(٢) المصدر السابق نفسه ، نقلاً عن رسالة كتبها السيد المرتضى جواباً على أسئلة أهل الري .

(٣) المصدر السابق نفسه ، وقد نقل أقوال علماء الشيعة ونصوصهم في هذا الجزء من بحاره فمن أراد زيادة الاطلاع فليرجع إليه ص ٢٢-١٤٤ .

(٤) المصدر السابق .

تعد وتحصى وأنها متواترة معنى ^(١) .

هذه بعض كلمات كبار علماء الشيعة ومحدثيهم حول الرجعة ، ويقع الكلام في مقامين

الأول - إمكان الرجعة .

الثاني - الدليل على وقوعها في هذه الأمة .

* * *

المقام الأول : إمكان الرجعة

يكفي في إمكان الرجعة ، إمكان بعث الحياة من جديد يوم القيامة ، فإن الرجعة والمعاد ، ظاهرتان متباثلتان ومن نوع واحد مع فارق أن الرجعة محدودة كيفاً وكماً ، وتحدث قبل يوم القيامة ، بينما يبعث جميع الناس يوم القيامة ليبدأوا حياتهم الخالدة .

وعلى ضوء ذلك ، فالإعتراف بإمكان بعث الحياة من جديد يوم القيامة ، ملازم للإعتراف بإمكان الرجعة في حياتنا الدنيوية . وحيث إن حديثنا مع المسلمين الذين يعتبرون بالإيمان بالمعاد من أصول شريعتهم ، فلا بد لهؤلاء إذن من الإعتراف بإمكانية الرجعة .

أضف إلى ذلك أنه قد وقعت الرجعة في الأمم السالفة كثيراً ، وقد تحدثنا عنه عند ذكر شواهد من إحياء الموتى في الأمم السالفة نظير :

١ - إحياء جماعة من بني إسرائيل ^(٢) .

٢ - إحياء قتيل بني إسرائيل ^(٣) .

(١) الإيقاظ من الهجعة ، الباب الثاني ، الدليل الثالث .

(٢) سورة البقرة : الآيتان ٥٦ و ٥٥ .

(٣) سورة البقرة : الآيتان ٧٣ و ٧٢ .

٣ - موت ألوف من الناس وبعثهم من جديد^(١) .

٤ - بعث عُزَيْر بعد مائة عام من موته^(٢) .

٥ - إحياء الموتى على يد عيسى عليه السلام^(٣) .

وبعد وقوع الرجعة في الأمم السالفة ، هل يبقى محال للشك في إمكانها ؟
وتصور أن الرجعة من قبيل التناسخ المحال عقلاً ، تصوّر باطل ، لأن
التناسخ عبارة عن رجوع الفعلية إلى القوة ، ورجوع الإنسان إلى الدنيا عن طريق
النفطة ، والمرور بمراحل التكوّن البشري من جديد ، ليصير إنساناً مرة أخرى ،
سواء أَدَخَلَتْ روحه في جسم إنسان أم حيوان ، وأين هذا من الرجعة وعود الروح
إلى البدن المتكامل من جميع الجهات ، من دون أن يكون هناك رجوع إلى القوة بعد
الفعلية .

* * * *

المقام الثاني - أدلة وقوع الرجعة

يدل على وقوع الرجعة في هذه الأمة قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ * وَيَوْمَ نَخَشِرُهُم بِكُلِّ آتَةٍ فَوْجَأً تَمَنَّيْكَذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾^(٤) .

لا يوجد بين المفسرين من يشك بأن الآية الأولى تتعلق بالحوادث التي تقع
قبل يوم القيامة ، ويدل عليه ما روي عن النبي الأكرم من أن خروج دابة الأرض
من علامات يوم القيامة ، إلا أن هناك خلافاً بين المفسرين حول المقصود من دابة
الأرض ، وكيفية خروجها ، وكيف تتحدث ، وغير ذلك مما لا نرى حاجة
لطرحة ؟ .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤٣ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٩ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٤٩ .

(٤) سورة النمل : الآيتان ٨٢ و ٨٣ .

روى مُسلم أنه قال رسول الله : إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَكُونُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرَ آيَاتٍ : خَسْفٌ بِالشَّرْقِ ، وَخَسْفٌ بِالمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، والدَّخَانُ ، والدَّجَالُ ، ودَابَّةُ الْأَرْضِ ، ويَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تَرْجُلُ النَّاسَ ^(١)

إنما الكلام في الآية الثانية ، والحق أنها ظاهرة في حوادث قبل يوم القيامة ، وذلك لأن الآية تركز على حشر فوج من كل جماعة بمعنى عدم حشر الناس جميعاً ، ومن المعلوم أن الحشر ليوم القيامة يتعلق بالجميع ، لا بالبعض ، يقول سبحانه : ﴿يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَخَشَرْنَاَهُمْ ، فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ^(٢) أبعُد هذا التصريح ، يمكن تفسير ظرف الآية بيوم البعث والقيامة ؟ .

وهناك قرينتان أخريان ، تحققان ظرفها لنا ، إن كنا شاكين ، وهما :

أولاً - إِنَّ الآية المتقدمة عليها تذكر للناس علامة من علامات القيامة ، وهي خروج دابة الأرض ، ومن الطبيعي ، بعد ذلك أن حشر جماعة من الناس يرتبط بهذا الشأن .

ثانياً - ورد الحديث في تلك السورة عن القيامة في الآية السابعة والثمانين ، أي بعد ثلاث آيات ، قال سبحانه : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَاخِرِينَ﴾ ^(٣) .

وهذا يعرب عن أن ظرف ما تقدم عليها من الحوادث يتعلق بما قبل هذا اليوم ، ويُحَقَّقُ أَنَّ حشر فوج من الذين يكذبون بآيات الله يحدث حتماً قبل يوم القيامة ، وهو من أشراط هذا اليوم ، وسيقع في الوقت الذي تخرج فيها دابة من الأرض تكلم الناس .

ومن العجب قول الرازي بأن حشر فوج كل من أمة سيقع بعد قيام

(١) صحيح مسلم ، ج ٨ ، كتاب الفتن ، وأشراط الساعة ، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة ، ص ١٧٩ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٤٧ .

(٣) سورة النمل : الآية ٨٧ .

الساعة^(١) . فإنَّ هذا الكلام خاوٍ لا يستند إلى أيِّ أساس . وترتيب الآيات وارتباطها ببعضها ، ينفيه ، ويؤكد ما ذهب إليه الشيعة من أنَّ الآية تشير إلى حدثٍ سيقع قبل يوم القيامة .

أضف إلى ذلك أنَّ تخصيص الحشر ببعضٍ ، لا يجتمع مع حشر جميع الناس يوم القيامة .

نعم ، الآية قد تحدثت عن حشر المكذبين ، وأما رجعه جماعة أخرى من الصالحين فهو على عاتق الروايات الواردة في الرجعة .

وأما كيفية وقوع الرجعة وخصوصياتها فلم يتحدث عنها القرآن ، كما هو الحال في تحدّثه عن البرزخ والحياة البرزخية .

ويؤيد وقوع الرجعة في هذه الأمة وقوعها في الأمم السالفة كما عرفت . وقد روى أبو سعيد الخدري أنَّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال : « لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، شَبْرًا بِشَبْرٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ . حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جَحْرَ ضَبٍّ لَتَبَعْتُمُوهُ . قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ : الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ : فَمَنْ ؟ »^(٢) .

وروى أبو هريرة أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُؤْخَذَ أُمَّتِي بِأَخَذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا ، شَبْرًا بِشَبْرٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : كُفَّارِسَ وَالرُّومِ ، قَالَ : وَمَنْ النَّاسُ إِلَّا أَوْلَئِكَ ؟ »^(٣) .

وروى الشيخ الصدوق رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « كُلُّ مَا كَانَ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ فَإِنَّهُ يَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مِثْلُهُ ، حَذُو النُّعْلِ بِالنُّعْلِ ، وَالْقَدَّةُ بِالقَدَّةِ »^(٤) .

(١) مفاتيح الغيب ، ج ٤ ، ص ٢١٨ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام بقول النبي ، ج ٩ ، ص ١١٢ .

(٣) صحيح البخاري ج ٩ ، ص ١٠٢ . وكنز العمال ، ج ١١ ، ص ١٣٣ .

(٤) كمال الدين ، ص ٥٧٦ .

وبما أنَّ الرجعة من الحوادث المهمة في الأمم السالفة ، فيجب أن يقع نظيرها في هذه الأمة أخذاً بالمثالة ، والتنزيل .

وقد سأل المأمون العباسي ، الإمام الرضا عليه السلام عن الرجعة فأجابه ، بقوله : إنها حق ، قد كانت في الأمم السالفة ، ونطق بها القرآن ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يكون في هذه الأمة كل ما كان في الأمم السالفة حذو النعل بالنعل ، والقذة بالقذة^(١) .

هذه هي حقيقة الرجعة ودلائلها ، ولا يدعي المعتقدون بها أكثر من هذا ، وحاصله عودة الحياة إلى طائفتين من الصالحين والطالحين ، بعد ظهور الإمام المهدي عليه السلام ، وقبل وقوع القيامة . ولا ينكرها إلا من لم يمعن النظر في أدلتها^(٢) .

* * *

أسئلة وأجوبتها

السؤال الأول - كيف يجتمع إعادة الظالمين مع قوله سبحانه : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾^(٣) فإن هذه الآية تنفي رجوعهم بتاتاً ، وحشر لفيق من الظالمين يخالفها .

(١) بحار الأنوار ، ج ٥٣ ، ص ٥٩ ، الحديث ٤٥ .

(٢) بقي هنا بحثان :

١ - من هم الراجعون .

٢ - ما هو الهدف من إحيائهم .

وإجمال الجواب عن الأول أن الراجعين لفيق من المؤمنين ولفيق من الظالمين . وإجمال الجواب عن الثاني ما جاء في كلام السيد المرتضى المنقول آنفاً ، حيث قال : « إن الله تعالى يعيد عند ظهور إمام الزمان ، المهدي عليه السلام ، قوماً ممن كان تقدم موته من شيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ، ومشاهدة دولته ، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم . . . إلى آخر كلامه » .

لاحظ تفصيل جميع ذلك في البحار ، ج ٥٣ . والابقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة ، للشيخ الحر العاملي .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٩٥ .

والجواب : إن هذه الآية مختصة بالظالمين الذين أهلكوا في هذه الدنيا ورأوا جزاء عملهم فيها ، فهذه الطائفة لا ترجع . وأما الظالمون الذين رحلوا عن الدنيا بلا مؤاخذه ، فيرجع لفيف منهم ليروا جزاء عملهم فيها ، ثم يُردُّون إلى أشد العذاب في الآخرة أيضاً . فالآية لا تمت إلى مسألة الرجعة بصلة .

السؤال الثاني - إن الظاهر من قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت ﴾ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١﴾ ، نفي الرجوع إلى الدنيا بعد مجيء الموت .

والجواب : إن الآية تحكي عن قانون كلي قابل للتخصيص في مورد دون مورد ، والدليل على ذلك ما عرفت من إحياء الموق في الأمم السالفة ، فلو كان الرجوع إلى هذه الدنيا سنة كلية لا تتبعض ولا تتخصص ، لكان عودها إلى الدنيا مناقضاً لعموم الآية .

وهذه الآية ، كسائر السنن الإلهية الواردة في حق الإنسان ، فهي تفيد أن الموت بطبعه ليس بعده رجوع ، وهذا لا ينافي الرجوع في مورد أو موارد ، لمصالح عليا .

السؤال الثالث - إن الاستدلال على الرجعة مبني على جعل قوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ ، حاكياً عن حادثة تقع قبل القيامة ، ولكن من الممكن جعلها حاكية عن الحادثة التي تقع عند القيامة ، غير أنها تقدمت على قوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ ، وكان طبع القضية تأخيرها عنه ، والمراد من الفوج من كل أمة هو الملائكة من الظالمين ورؤسائهم .

والجواب : أولاً ، إن تقديم قوله : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ ... ﴾ ، على فرض كونه حاكياً عن ظاهرة تقع يوم القيامة ، على قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ ﴾ ، ليس إلا إخلال في الكلام ، بلا مسوغ .

(١) سورة المؤمنون : الآيتان ١٠٠ و ١٠١ .

وثانياً ، إن ظاهر الآيات أنّ هناك يومين ، يومُ حشر فوج من كل أمة ،
ويوم نفخ في الصور ، وجعل الأول من متمّات القيامة ، يستلزم وحدة اليومين ،
وهو على خلاف الظاهر^(١) .

* * *

(١) وإذا أحطتُ خبراً بما ذكرناه ، يتبين لك سقوط كثير مما ذكره الألوسي في تفسيره عند البحث عن
الآية . لاحظ تفسيره ، ج ٢٠ ، ص ٢٦ .

مباحث المعاد

(١٢)

التناسخ وأقسامه وبراهين بطلانه

التناسخ من النسخ بمعنى النقل^(١) ، أو بمعنى إزالة بشيءٍ يتعقبه ، كنسخ الشمس الظل ، والشيب الشباب^(٢) .

فالنسخ يعرب عن خصوصيتين : النقل والتحول . وسيوافيك أن كليهما مأخوذتان في التناسخ المصطلح ، الذي يعرب عن حالة نقل وتحول خاصة . ثم إن الانتقال أقساماً ما نشير إليها :

أ - الانتقال من النشأة الدنيوية إلى النشأة الآخروية الذي نسميه بالمعاد .

ب - الانتقال من القوة إلى الفعل ، كانتقال النفس في ظل الحركة الجوهرية إلى كمالها الممكن .

ج - انتقال النفس بالموت ، من البدن المادي إلى بدن مثله في هذه النشأة . وهذا النوع من الانتقال هو التناسخ المصطلح الذي ذهب إليه بعض الفلاسفة من البراهمة والهندوس وغيرهم .

وتبيين الحق يتوقف على بيان ما يتصور للتناسخ من الأقسام حتى يعلم أيُّ

(١) أقرب الموارد ، ج ٢ ، مادة نسخ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ، مادة نسخ .

قسم منها يضاد المعاد ويخالفه ، فنقول : إن للتناسخ المطروح من قِبَل أصحابه صوراً ثلاثة :

الصورة الأولى : التناسخ المطلق

وهو انتقال النفس من بدن إلى بدن آخر في هذه النشأة ، فإذا مات البدن الثاني إنتقلت إلى ثالث ، وهكذا بلا توقف أبداً ، والبدن المنتقل إليه قد يكون بدن إنسان أو حيوان أو نبات . وطريق الانتقال غالباً ، هو التعلق بجنين الإنسان أو الحيوان ، أو بالخلية النباتية . وقد نسب هذا القول إلى القدماء من الحكماء .

قال شارح حكمة الإشراف^(١) : « إن شذمة قليلة من القدماء ذهبوا إلى امتناع تجرد شيء من النفوس بعد المفارقة لأنها جسمانية ، دائمة الانتقال في الحيوانات وغيرها من الأجسام ، ويعرفون بالتناسخية ، وهم أقل الحكماء تحصيلاً »^(٢) .

الصورة الثانية : التناسخ المحدود (النزولي)

وهو أن يختص الانتقال ببعض النفوس دون بعض آخر ، وهذا كما هو محدود من حيث الأفراد ، محدود كذلك من حيث الزمان . وذلك لأن الانتقال قد ينقطع ، ولا ترجع النفس إلى النشأة الدنيوية ، بل تلتحق بعالم النور والعقول .

ووجه المحدودية من حيث الأفراد ، أن النفوس المفارقة للأبدان بعد الموت ، على قسمين :

١ - نفوس كاملة في مجالي العلم والعمل ، فهذه لا حاجة لها للانتقال إلى أبدان أخرى ، لأنها وصلت إلى كما لها الممكن ، فلا تحتاج إلى الرجوع ثانية إلى هذه النشأة .

(١) قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي ، المتوفي عام ٧١٠ أو ٧١٦ للهجرة .

(٢) شرح حكمة الأشراق ، المقالة الخامسة ، الفصل الأول ، ص ٤٧٦ .

٢ - ونفوس ناقصة في كلا المجالين ، فلا مناص لتكاملها من إرجاعها إلى هذه النشأة حتى تكتمل فيهما إلى أن تصير غنية عن الرجوع ، فتلحق بعالم العقول .

وأما المحدودية من جانب الزمان ، فوجهه أن الهدف من التناسخ ورجوع النفس إلى البدن في هذه النشأة مجدداً ، هو إكمالها في مجال العلم ، وتهذيبها من الرذائل ، وتجريدها من الكدورات . فإذا صارت منزهة عنها ، فلا وجه لدوام هذا النقل والتحول ، بل لا مناص من لحوقها بعد الإستكمال بعالم النور .

ويسمى التناسخ المحدود من حيث الأفراد والأزمنة بـ « التناسخ النزولي » .

يقول صدر المتألهين شارحاً هذه العقيدة : « إن أول منزل للنفس ، الصَّيْصِيَّةُ الإنسانية^(١) ، ويسمونها « باب الأبواب لحياة جميع الأبدان الحيوانية والنباتية » ، وهذا هو رأي يوداسف التناسخي ، قائلاً بأن الكاملين من السعداء تتصل نفوسهم بعد المفارقة بالعالم العقلي والملا الأعلى ، وتنال من السعادة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وأما غير الكاملين من السعداء كالمُتوسطين منهم والناقصين في الغاية والأشقياء على طبقاتهم ، فتنتقل نفوسهم من هذا البدن إلى تدبير بدن آخر من النوع الإنساني لا إلى غيره . وبعضهم جوز ذلك ولكن اشترط أن يكون إلى بدن حيواني . وبعضهم جوز النقل من البدن الإنساني إلى البدن النباتي أيضاً ، وبعضهم إلى الجامد أيضاً^(٢) .

الصورة الثالثة : التناسخ الصعودي

وهناك قسم ثالث من التناسخ يسمى بالصعودي ، يغاير التناسخ النزولي ، وحاصله أن الحياة إنما تفاض على المستعد فالمستعد ، والنبات - بزعمهم - أشدّ

(١) أي البدن والهيكل المادي الإنساني في اصطلاح شيخ الإشراق ومن تابعه .

(٢) الأسمار ، ج ٩ ، الباب الثامن ، الفصل ٢ ، ص ٨ ويسمى الأول نسخاً والثاني مسخاً والثالث فسخاً والرابع رسخاً ، يقول الحكيم السبزواري :

نَسَخٌ وَمَسَخٌ رَسَخٌ فَسَخٌ قُسِمَا إِنْسَانًا وَحَيَوَانًا جَمَادًا ثَمَا

استعداداً وأوّلَ بقبول الفيض الجديد من الحيوان والإنسان ، كما أنّ الإنسان يستدعي نفساً أشرف ، وهي التي جاوزت الدرجات النباتية والحيوانية .

وفي ضوء هذا ، فالحياة تفاض على النبات أولاً ، ثم تنتقل منه إلى الحيوان ، ثم إلى الإنسان ، وهذا النوع من التناسخ أشبه بالقول بالحركة الجوهرية ، وأنّ الأشياء في ظلّها تخرج من القوة إلى الفعل ، ومن النقص إلى الكمال ، وأنّ الموجود النباتي يتحول إلى الحيوان ، ثم الإنسان ، لكن الفرق بين القول بالتناسخ الصعودي والحركة الجوهرية ، هو أنّ التكامل في القول بالتناسخ على وجه الإنفصال دون الإتصال ، فالنفس النباتية تنتقل من النبات إلى البدن الحيواني ، ثم منه إلى البدن الإنساني ، ولكن التحول في الحركة الجوهرية ، على وجه الإتصال ، وأنّ النطفة الإنسانية تتحول وتتكامل من مرتبة ناقصة إلى مرتبة كاملة حتى يصدق عليها قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١) .

فظهر أنّ في التناسخ أقوالاً ثلاثة :

- ١ - التناسخ المطلق : وهو ما لا ينتهي النقل فيه ولا يتوقف ويعم الجميع .
- ٢ - التناسخ النزولي : وهو ما لا يعم الجميع أولاً ، ويتوقف النقل فيه بعد التصفية وبلوغ مراتب الكمال ، ثانياً .
- ٣ - التناسخ الصعودي : وهو ما يحصل فيه انتقال النفس في جهة الصعود ، من النبات إلى الحيوان فالإنسان . إذا تعرفت على المراد من هذه الأقسام ، فإليك تحليلها ، وبيان بطلانها :

* العناية الإلهية والتناسخ المطلق

إنّ التناسخ المطلق يعاند المعاد معاندة تامة ، والقائل به ليس له التفوه ،

(١) سورة المؤمنون : الآية ١٤ . وما ذكرناه إجمال ما يرمي إليه أصحاب هذا القول ، والتفصيل يطلب من عمله ، لاحظ في ذلك « أسرار الحكم » ، للحكيم السبزواري ، ص ٢٩٣-٢٩٤ .

الأرواح إلى الأبدان في النشأة الأخرى ، لأن المفروض أنّ الروح تنتقل إلى الأبد من بدنٍ إلى بدن ، بلا توقف ، فلا مجال للنفس لكي تبعث في النشأة الأخرى . ولعل أصحاب هذه النظرية - لقلّة تدبّرهم - حسبوا هذا النوع من الإنتقال للنفس معاداً لها ، فالمعاد عندهم هو انتقال النفس من بدن إلى بدن في هذه النشأة دون أن تكون هناك نشأة أخرى .

ويردّها أنّ النفس عند هؤلاء لا تخلو من إحدى حالتين : إما أن تكون منطبعة في البدن ، إنطباع الأعراض في الجواهر ، والصور الجوهرية في المادة ، فهي ممتنعة الإنتقال ، إذ الانطباع ينافي الإنتقال ، والجمع بينهما جمع بين النقيضين ، فإنه يستلزم أن تكون النفس في حال الانفصال موجودة بلا موضوع ، ومتحققة بلا محل .

أو تكون مجرّدة تجرداً تاماً ، ومع ذلك تكون دائمة الإنتقال في الأجسام من غير حقوق بعالم النور وهو باطل أيضاً إذ العناية الإلهية ، تقتضي إيصال كل ذي كمال إلى كماله ، وكما النفس العلمي يتحقق بصيرورتها عقلاً مُستفاداً^(١) ، فيه صور جميع الموجودات ، وكمال العقل العملي يتحقق بالتخلية عن رذائل الأخلاق ، والتحلية بمكارمها . فلو كانت دائمة الإنتقال ، كانت ممنوعة عن كمالها ، أزلاً وأبداً ، والعناية الأزلية تأبى ذلك^(٢) .

وبعبارة أخرى : إنّ النفس الإنسانية مستعدة لإفاضة الكمالات عليها ، فحبسها في الصياصي البدنية في هذه النشأة ، وإيقافها عن الصعود إلى النشأة الأخرى ، يخالف الحكمة الإلهية المتعلقة بإبلاغ كل ممكن إلى غايته الممكنة .

* * *

(١) العقل المستفاد أحد مراتب العقل الأربعة المصطلح عليها في الحكمة النظرية : وهي عبارة عن : ١ - العقل الهولاني ، ٢ - العقل بالملكة ، ٣ - العقل بالفعل ، ٤ - العقل المستفاد ، راجع في توضيحها شرح المنظومة للحكيم السبزواري ، قسم الطبيعيات ، مباحث النفس ، ص ٣٠٦-٣٠٧ .

(٢) شرح حكمة الإشراف المقالة الخامسة ، الفصل الأول ، ص ٤٧٦ . والأسفار ، ج ٩ ، الباب الثامن ، الفصل الثاني .

* الحركة الرجعية والتناسخ النزولي

والذي يُبطل هذا النوع الثاني من التناسخ ، إستلزامه الحركة الرجعية للنفس من الأشد إلى الأنقص ، ومن الأقوى إلى الأضعف بحسب الذات ، وهو أمر محال . وتوضيحه :

إن حقيقة التناسخ النزولي تتحقق بتعلق روح الإنسان بعد مفارقة البدن بالموت ، بجنين إنسان أو حيوان أو خلية نباتية ، والكل دونها في الكمال . فأصحاب هذا القول يتصورون أن النفوس المتوسطة تنتقل بعد فناء أبدانها إلى أجنة الإنسان أو الحيوان ، وتعود إلى الدنيا لمتابعة مسيرة الاستكمال ، والإرتقاء إلى درجة النفوس الكاملة .

ولكنه خيال باطل ، لأن تعلق تلك النفوس بأجنة الإنسان أو الحيوان لا يخلو من صورتين :

الأولى : أن تعلق النفس بالجنين الإنساني أو الحيواني بما لها من الكمال المناسب لمقامه . وهذا غير ممكن عقلاً ، لأن النفس ما دامت في البدن تزداد في فعليتها شيئاً فشيئاً حتى تصير أقوى وجوداً وأشد تحضلاً . ومثل هذا لا يمكنه أن يتعلق بالموجود الأدنى منه ، الذي لا يتحمل ذلك الكمال وتلك الفعلية ، لعدم تحقق التعاضد والأنسجام بينهما .

وبعبارة أخرى : إن واقعية النفس التي عاشت مع البدن أربعين سنة مثلاً ، واقعية تفتح القوى وبلغها مقام الفعلية . وأما واقعية النفس التي تتعلق بالأجنة ، فهي فقدان كل فعلية ، وانتسابها إلى جميع الكمالات بالقوة ، فحسب . فالقول بتعلق تلك الفعلية بالجنين ، جمع بين النقيضين . لأنها - على الفرض - بما أنها نفس إنسان مرّت عليه أربعون سنة ، مستجمعة لجميع الكمالات بالفعل . وبما أنها تعلق بالجنين ، مستجمعة لها بالقوة فحسب . فتكون الكمالات في محل واحد وزمان واحد ، بالفعل وبالقوة معاً ، وهذا محال .

الثانية : أن تعلق تلك النفوس بالأجنة ، لكن بعد تنزّلها عن فعلياتها ، وانسلاخها عن كمالاتها . وهذا النحو من التعلق ، وإن كان يوجد بين البدن

والنفس تعاضداً وانسجماً ، لكن ذاك الإنسلاخ إما ناشئ من ذات النفس ونابع من صميمها ، وإما قد حصل بقهر من الله سبحانه . والأول لا يتصور ، لأن الحركة الذاتية من الكمال إلى النقص غير معقولة ، والثاني ينافي الحكمة الإلهية التي تقتضي بلوغ كل ممكن إلى كماله الممكن^(١) .

وبما أن القائلين بهذا النوع من التناسخ يخصّونه بالمتوسطين في الكمال والناقصين فيه ، دون الكاملين في مجالي العلم والعمل ، فهو على طرف النقيض من المعاد في الصنفين الأولين ، دون الصنف الثالث الذين لهم الحشر والانتقال إلى النشأة الأخرى دون التناسخ .

نعم ، المتوسطون والناقصون - بعد انتهاء دورة التناسخ وزمنها - ينتقلون إلى عالم النور فيكون لهم من الحشر ما للكاملين من أفراد الإنسان .

* * *

التناسخ الصعودي وانتقال النفس

ذكرنا أن أصحاب التناسخ الصعودي يقولون بأن تكامل النفس من بدء حدوثها يتوقف على ظهور الحياة في النبات لتكون نفساً نباتية إلى أن تنتقل إلى بدن الحيوان فتصير نفساً حيوانية ، ثم نفساً إنسانية ، وعندئذ يقع السؤال في حقيقة هذه النفس ، فنقول :

إن النفس الموجودة في الحيوان مثلاً ، إما منطبعة إنطباع النقوش في الحجر ، والأعراض في موضوعاتها ، والصور في محالها ، فيكون انتقالها مستحيلاً على ما مرّ ، أعني استلزامه أن تكون في آن الانتقال بلا موضوع ومحل .

ولمّا مجرّدة ، لها من الخصوصيات ما للنفوس الحيوانية ، فمن المعلوم أن النفس الحيوانية بما لها من الخصوصية يمتنع أن تتحول إلى النفس الإنسانية ، فإن كمال النفس الأولى عبارة عن القوة الشهوية وحسّ الانتقام ، وهما يعدّان كمالاً

(١) ما ذكرناه تقريراً واضحاً لما أفاده صدر المتألهين ، في أسفاره . لاحظ الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٦ .

لنفوس الدواب والأنعام وأصلاً عظيماً للجسمانية والإخلاق إلى الأجساد . فلو تعلقت هذه النفس - بهذه الخصوصية - بالإنسان ، لوجب أن تنحط درجة إلى نوع نازل من الحيوان المناسب لهذه السجيا والغرائز . فإذا كان مقتضى الشهوة الغالبة أو الغضب الغالب ، شقاء النفس ونزولها إلى مراتب الحيوانات الصامتة ، التي كمالها في كمال إحدى هاتين القوتين ، فيمتنع أن يكون وجود هاتين القوتين وأفعالهما منشأ لارتفاع النفوس من درجتها البهيمية والسبعية إلى درجة الإنسان الذي كمال نفسه كسر هاتين القوتين . فتعلق النفس الحيوانية بما لها من الخصوصيات والغرائز بالإنسان ، لا يرفعه بل ينزله إلى درجة تناسب درجة الحيوانات^(١) .

وعلى الجملة فالنفس الحيوانية متشخصة بغرائز خاصة هي التمايلات الشهوية والسبعية والإخلاق إلى الأرض والمادة ، فكيف يمكن أن تكون مثل هذه أساساً لتكامل الإنسان وتعالیه ، الذي لا يتحقق له التكامل إلا بتحطيم هذه الغرائز وكسر ثورتها فإن هذا أشبه بجعل وجود الضد شرطاً لوجود ضد آخر .

نعم ، هذا الإشكال إنما يتصور في التكامل الصعودي المنفصل المراتب والدرجات دون متصلها كما في تكامل الإنسان في رحم أمه من الجهادية إلى النفس الإنسانية ، في ظل صور متوالية متتالية دون أن يقع بينها انفصال .

وعلى كل تقدير فهذا القسم من التناسخ باطل في نفسه ، وإن كان لا يصادم القول بالمعاد وحشر الإنسان في النشأة الأخرى ، بخلاف القسمين السابقين ، فإن الأول منهما على طرف النقيض من المعاد مطلقاً والقسم الثاني على طرف النقيض منه في مورد غير الكاملين من النفوس الإنسانية .

* * * * *

تحليل جامع للقول بالتناسخ

قد تعرفت على أقسام التناسخ والبراهين التي تهدم أساس كل واحد منها ،

(١) لاحظ الأسفار ، ج ٩ ، ص ٢٣ .

وهناك برهانان آخران على بطلان التناسخ على وجه الإطلاق ، من دون أن يختصا بقسم دون قسم ، وإليك بيانها :

الأول : اجتماع نفسين في بدن واحد

وهذا البرهان مبنى على أمرين :

أ - إنَّ كل جسم نباتاً كان أو حيواناً أو إنساناً ، إذا بلغ من الكمال إلى درجة يصير فيها صالحاً لتعلُّق النفس به ، تتعلق به . وبعبارة أخرى : متى حصل في البدن مزاج صالح لقبول تعلق النفس المدبرة به ، فبالضرورة تفاض عليه من الواهب من غير مهلة ولا تراخٍ ، وذلك مقتضى الحكمة الإلهية التي شاءت إبلاغ كل ممكن إلى كماله الممكن .

ب - إن القول بالتناسخ يستلزم تعلق النفس المستنسخة المفارقة للبدن ، ببدن نوع من الأنواع من نبات أو حيوان أو إنسان ، بحيث يتقوم ذلك البدن بالنفس المستنسخة المتعلقة به .

ولازم تسليم هذين الأمرين ، تعلق نفسين ببدن واحد : إحداهما النفس المفاضة على البدن لأجل صلاحيته للإفاضة ، وثانيتهما النفس المستنسخة المتعلقة بعدد المفارقة بمثل هذا البدن .

ومن المعلوم بطلانه وذلك لأن تشخص كل فرد من الأنواع بنفسه وروحه ، وفرض نفسين وروحين مساوئ لفرض ذاتين ووجودين لوجود واحد وذات واحدة .

أضف إلى ذلك : أنه ما من شخص إلا ويشعر بنفس وذات واحدة . قال التفتازاني : إنَّ كل نفس تعلم بالضرورة أن ليس معها في هذا البدن نفس أخرى تدبر أمره وأن ليس لها تدبير وتصرف في بدن آخر ، فالنفس مع البدن على التساوي ، ليس لبدن واحد إلا نفس واحدة ، ولا تتعلق نفس واحدة إلا ببدن واحد^(١) .

(١) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٣٨ . ولاحظ كشف المراد ، ص ١١٣ ، ط صيدا . ويضيف الأخير : =

سؤال وجواب :

أما السؤال فهو أن هذا إنما يتم إذا كان هناك فصل زمني بين صلوح البدن لإفاضة الحياة ، وتعلق النفس المستنسخة . وأما إذا كان صلوحه وقابليته ، مقارناً لتعلق النفس المستنسخة ، فلا يلزم اجتماع نفسين في بدن واحد ، لأنها تمنع عن إفاضة الحياة عليه ، فلا تكون له نفسان ولا حياتان .

والجواب : إن كون النفس المستنسخة مانعة من حدوث النفس الأخرى ليس بأولى من منع الأخرى من التعلق بالبدن .

أضف إلى ذلك أن استعداد المادة البدنية لقبول النفس من الواهب للصور ، يجري مجرى استعداد الجدار لقبول نور الشمس مباشرة أو انعكاساً إذا رفع الحجاب من أمامه . فإن كان عند ارتفاع الحجاب جسم ثقیل ينعكس فيه نور الشمس الواقع عليه إلى ذلك الجدار ، أشرق عليه النوران الشمسيان المباشري والإنعكاسي ، ولا يمنع من وقوع الإنعكاسي ، وقوع النور المباشري عليه . ومثل ذلك ما نحن فيه ، غير أن اجتماع النفسين ممتنع ، ومانعيه أحدهما عن طروء الأخرى غير صحيحة . فينتج أن التناسخ المبتني على أحد الأمرين (اجتماع نفسين أو مانعية أحدهما من طروء الأخرى) باطل^(١) .

الثاني : عدم التناسخ بين النفس والبدن

قد ثبت في محلة أن تركيب البدن والنفس ، تركيب طبيعي إتحادي ، لا تركيب إنضمامي ، فليس تركيبهما كتركيب السرير من الأخشاب والمسامير ، ولا كتركيب العناصر الكيميائية وتأثير بعضها في بعض .

والنفس في أول حدوثها متسمة بالقوة ، في كل ما لها من الأحوال ، وكذا البدن ، ولها في كل وقت شأن آخر من الشؤون الذاتية بإزاء سن الطفولة والصبا

= أنه لو تعلق نفس واحدة ببدنين لزم أن يكون معلوم أحدهما معلوماً للآخر وبالعكس ، وكذا باقي الصفات النفسانية ، وهو باطل بالضرورة .

(١) لاحظ الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٠ ، وهذا البرهان يختص المشائين وقبلة صدر المتألهين أيضاً .

والشباب والشيخوخة والهرم . وهما معا يخرجان من القوة إلى الفعل ، ودرجات القوة والفعل في كل نفس معينة بإزاء درجات القوة والفعل في بدنها الخاص بها ما دامت متعلقة به . فإذا صارت بالفعل في نوع من الأنواع استحالة صيرورتها تارة أخرى في حد القوة المحضة ، كما استحالة صيرورة الحيوان بعد بلوغه تمام الخلقة ، نطفة وعلقة .

فلو تعلقت نفس منسلخة ببدن آخر عند كونه جنيناً أو غير ذلك ، يلزم كون أحدهما بالقوة والآخر بالفعل ، وذلك ممتنع . لأن التركيب بينهما طبيعي إتحادي ، والتركيب الطبيعي يستحيل بين أمرين ، أحدهما بالفعل والآخر بالقوة^(١) .

نعم ، هذا البرهان إنما يتم لو تعلقت النفس ببدن أدون من حيث الدرجات الفعلية من النفس ، كما إذا تعلقت بالجنين على مراتبه وأما لو تعلقت ببدن له من الفعلية ما للنفس منها ، فالبرهان غير جارٍ فيه .

وهذا البرهان يغير البرهان الذي ذكرناه ، عند إبطال التناسخ النزولي فإن محور البرهان هنا لزوم التناسق بين البدن والنفس من حيث القوة والفعل ، وهذا الشرط مفقود في أكثر موارد التناسخ ، كما إذا تعلقت بالجنين .

وأما ما ذكرناه في إبطال التناسخ النزولي فإن محوره هو لزوم الحركة الرجعية في عالم الكون ، ورجوع ما بالفعل إلى ما بالقوة ، فلا يختلط عليك الأمران .

* * * *

سؤالان وجوابان

قد فرغنا من أقسام التناسخ وأنواعه وما يمكن أن يستدل به على إبطالها .
وبقى هنا سؤالان يجب طرحهما والإجابة عنهما :

(١) الأسفار ، ج ٩ ، ص ٣-٢ .

السؤال الأول : التناسخ ووقوع المسخ في الأمم السالفة

لو كان تعلق النفس الإنسانية ببدن الحيوان بعد مفارقة البدن الإنساني تناسخاً ممتنعاً ، فكيف وقع المسخ في الأمم السالفة ، حيث مسخوا إلى القردة والخنازير كما يقول سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُحَا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (٢) .

فإن صريح هذه الآيات تحوُّل جماعة من البشر إلى قردة وخنازير ، وهو لا ينفك عن تعلق نفوسهم البشرية بأبدان الحيوانات . فما هو الفرق بينه والقول بالتناسخ ؟ .

الجواب : إنَّ مقوم التناسخ أمران :

١ - تعدد البدن ، فإن في التناسخ بدنين : أحدهما البدن الذي تنسلخ عنه الروح ، والثاني : البدن الذي تتعلق به ثانياً بعد المفارقة سواء كان نباتاً أو حيواناً أو جنيناً .

٢ - تراجع النفس الإنسانية من كمالها إلى الحد الذي يناسب بدنها المتعلقة به من نبات أو حيوان أو جنين أو إنسان .

وكلا الشرطين مفقود في المقام ، فإن الأمة الملعونة والمغضوبة مسخت إلى القردة والخنازير بنفس أبدانها الأولية ، فخرجت عن الصورة الإنسانية إلى الصورة القردية والخنزيرية من دون أن يكون هناك بدنان . كما أن نفوسها السابقة بقيت

(١) سورة المائدة : الآية ٦٠ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٦٦ . والاستدلال مبني على أن المراد من النكالة هو العقوبة كما أن المراد من الموصول في « لما بين يديها وما خلفها » ، الذنوب المتقدمة على الإصطياد والمتأخرة عنه . فتكون اللام في قوله : « لما » ، سببية . (لاحظ مجمع البيان ، ج ١ ، ص ١٣٠) .

على الحد الذي كانت عليه ، وذلك لتنظر إلى الصورة الجديدة التي عرضت عليها ، فتعاقب وتزجر . وإلا ، لو انقلبت نفوسها من الحد الذي كانت عليه إلى حد النفس الحيوانية ، فلا شك أنها ستكون قردة بالحقيقة ، وعندئذ لا يترتب عليه عقاب ولا يصدق عليه النكال ، مع أنه سبحانه يصفه نكالا ، ويقول : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا يَبِينُ يَدَيُّهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

وهذان الأمران يفصلان المسخ في الأمم السالفة عن القول بالتناسخ .

وبالجملـة : فقد تجلت الروحانيات الخبيثة التي كانت عليها تلك الأمة ، على ظواهر أبدانها ، فلبست لباس الخنازير والقردة المعروفة بالحرص الشديد ، ومثل هذا - مع وحدة البدن وعدم نزول النفس عن درجتها السابقة - لا يعد تناسخاً .

قال التفتازاني : « إن المتنازع هو أن النفوس بعد مفارقتها الأبدان ، تتعلق في الدنيا بأبدان أخر للتدبير والتصرف والإكتساب ، لا أن تبدل صور الأبدان ، كما في المسخ . أو أن تجتمع أجزاؤها الأصلية بعد التفرق ، فتدرد إليها النفوس ، كما في المعاد على الإطلاق ، وكما في إحياء عيسى بعد الأشخاص » (٢) .

وقال العلامة المجلسي : « إن امتياز نوع الإنسان ، إذا كان بهذا الهيكل المخصوص ، فلا يكون إنساناً بل قرداً . وإن كان امتيازه بالروح المجردة ، كانت الإنسانية باقية غير ذاهبة ، وكان إنساناً في صورة حيوان ، ولم يخرج من نوع الإنسان ولم يدخل في نوع آخر » (٣) .

يقول العلامة الطباطبائي : لو فرضنا إنساناً تغيرت صورته إلى صورة نوع آخر من أنواع الحيوان كالقرد والخنزير ، فإنما هي صورة على صورة ، فهو إنسان خنزير ، أو إنسان قرد ، لا إنسان بطلت إنسانيته وحلت الصورة الخنزيرية أو القردية محلها ، فالإنسان إذا اكتسب صورة من صور الملكات ، تصورت نفسه

(١) سورة البقرة : الآية ٦٦ .

(٢) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٣) البحار ، ج ٥٨ ، طبعة بيروت ، ص ١١٣ .

بها ، ولا دليل على استحالة خروجها في هذه الدنيا من الكمون إلى البروز على حد ما ستظهر في الآخرة بعد الموت .

فالممسوخ من الإنسان ، إنسانٌ ممسوخ ، لا أنه ممسوخٌ فاقد للإنسانية .

وبذلك يظهر الفرق بين المقام والتناسخ ، فإن التناسخ هو تعلق النفس المستكملة بنوع كما لها بعد مفارقتها البدن ، ببدن آخر ، بخلاف المقام^(١) .

السؤال الثاني : التناسخ والرجعة

ما هو الفرق بين التناسخ الباطل بالأدلة السابقة ، والقول بالرجعة على ما عليه الإمامية ، فإن رجوع بعض النفوس بعد مفارقتها أبدانها ، إليها في هذه النشأة ، أشبه بالتناسخ .

والجواب : قد عرفت عند البحث عن المسخ ، أن مجوز التناسخ أمران : تعدد البدن وتراجع النفس عن الحد الذي كانت عليه ، وكلاهما مفقودان في الرجعة ، فإن النفس ترجع إلى البدن الذي فارقت من دون أن تمس كمال النفس ، وتحطها من مقامها ، بل هي على ما هي عليه من الكمال عند المفارقة ، فتتعلق أخرى بالبدن الذي فارقت .

ومن هنا يظهر أن القول بالحشر في النشأة الأخرى ، على طرف النقيض من التناسخ .

خاتمة المطاف

إن الذكر الحكيم ينصّ على عدم رجوع نفس الإنسان إلى هذه الدنيا بعد مفارقتها البدن (خرج ما خرج بالدليل كما في إحياء الأموات بيد الأنبياء العظام وغيره) يقول سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ * كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ

(١) الميزان ، ج ١ ، ص ٢١٠ بتلخيص .

يُعْتُونَ ﴿١﴾ .

إن قوله سبحانه : ﴿ كَلَّا ﴾ ، رَدُّ لطلب الرجوع إلى الدنيا ، فيفيد أنه على خلاف السنة الإلهية ، ومع ذلك فهو كسائر السنن التي ربما يخرج عنها بدليل .
وبذلك تعرف قيمة كلمة أحمد أمين المصري ذلك الكاتب المستهتر حيث يقول : « وَتَحْتَ التَّشْيِيعِ ظَهَرَ الْقَوْلُ بِتَنَاسُخِ الْأَرْوَاحِ » (٢) . والمسكين لا يفرق بين المَسْخِ والتناسخ ، كما لا يفرق بين التناسخ والرجعة ، بل بين التناسخ والمعاد .

* * *

(١) سورة المؤمنون : الآيتان ٩٩ و ١٠٠ .

(٢) فجر الإسلام ، ص ٢٧٧ وقد افترى على الشيعة في كتابه هذا ما افترى ، وندم عليه في آخريات عمره حيث لا ينفع الندم .

مباحث المعاد

(١٣)

الإيمان وأحكامه

الإيمان ، من الأمن ، وله في اللغة معنيان متقاربان ، أحدهما : الأمانة ، التي هي ضدّ الخيانة ، ومعناها سكون القلب . والآخر : التصديق ، والمعنيان متدانيان^(١) .

والمراد هنا هو المعنى الثاني ، فيقال : آمن به ، إذا أذعن به وسكنت نفسه وإطمأنت بقوله ، وهو تارة يتعدى بالباء كما في قوله تعالى : ﴿ آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ ﴾^(٢) وأخرى باللام ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾^(٣) وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ ﴾^(٤) .

وهذه الآيات تدل على أنّ الإيمان هو التصديق القلبي ، ويؤكدده قوله سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾^(٥) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾^(٦) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾^(٧) .

(١) مقاييس اللغة ، ج ١ ، ص ١٣٣ . ولو جعل سكون القلب تفسيراً للمعنى الثاني أي التصديق لكان أحسن .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٥٣ .

(٣) سورة يوسف : الآية ١٧ .

(٤) سورة العنكبوت : الآية ٢٦ .

(٥) سورة المجادلة : الآية ٢٢ .

(٦) سورة الحجرات : الآية ١٢ .

(٧) سورة النمل : الآية ١٠٦ .

وتؤكد آيات الطبع والختم ، فإنه تعرب عن كون محل الإيمان هو القلب ، كما يقول سبحانه : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ. وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(١) ويقول سبحانه : ﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٢) . والختم على السمع والبصر لأجل كونها من أدوات المعرفة التي يستخدمها القلب . والمآل هو القلب .

فالإيمان في هذه الآيات يثبت أن الإيمان هو التصديق القلبي ، وأما أن هذا المقدار من الإيمان يكفي في نجاة الإنسان أولا ، فهو بحث آخر ، إذ من الممكن أن يكون للإيمان في مجال النجاة شروط أخرى .

* سؤال :

لو كان الإذعان القلبي كافياً في صدق الإيمان ، فلماذا يندد سبحانه بجماعة من الكفار بأنهم جحدوا الحقيقة بألسنتهم وإن استيقنوها بقلوبهم ، مع أنهم على التعريف الذي ذكرناه ، مؤمنين . يقول سبحانه : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣) . ويقول سبحانه : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾^(٤) . ويقول سبحانه : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٥) . فهذه الآيات تدل على عدم كفاية التصديق القلبي في صدق الإيمان .

جوابه :

إن الإيمان هو التصديق ، وأما التنديد ، فلأن ظاهرهم كان مخالفاً لباطنهم ، فكانوا يتظاهرون بالنفاق ، ولولا التظاهر بالخلاف ، بأن لا يجحدوا بعد

(١) سورة النحل : الآية ١٠٨ .

(٢) سورة الجاثية : الآية ٢٣ .

(٣) سورة النمل : الآية ١٧ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٨٩ .

(٥) سورة البقرة : الآية ١٤٦ .

الإستيقان ، ولا يكفروا باللسان ما عرفوه قبلاً ، لكانوا مؤمنين حقاً .
نعم ، لا يمكن الحكم بإيمانهم في مجال الإثبات إلا إذا دلّ الدليل على
إذعانهم قلباً ، وهذا خارج عن موضوع البحث .

* سؤال :

ما هو الأثر المترتب على التصديق القلبي ؟ .

جوابه :

الإيمان بهذا المعنى ، موضوع للأثر في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا ، فحرمة
دمه وعرضه وماله ، إلا أن يرتكب قتلاً أو يأتي بفاحشة .
وأما في الآخرة ، فصحة أعماله ، واستحقاق الثواب عليها ، وعدم الخلود
في النار ، واستحقاق العفو والشفاعة في بعض المراحل .

* سؤال :

إنّ التصديق اللساني ، أيضاً له أثره الديني من حرمة الدم والعرض
والمال .

جوابه :

إنّ التصديق اللساني بما أنّه كاشف عن التصديق القلبي ، يترتب عليه ذلك
الأثر ، فالأثر للمكشوف عنه لا للكاشف ، وإلا فلوتبين نفاقه ، وأنّه يتظاهر بما
ليس في القلب ، فلا حرمة لدمه وماله وعرضه في الواقع .

نعم ، يجب علينا مجازاته حسب إقراره واعترافه إلا إذا كشف بقوله وإقراره
عن سريره ، هذا .

وإن السعادة الأخروية رهن العمل ، لا يشك فيه من له إلمام بالشريعة

والآيات والروايات الواردة حول العمل ، والتصديق القلبي إذا لم يقترن بالعمل ، لا ينجو الإنسان من عذاب الآخرة .

* * *

هذا هو الحق في الإيمان ، وها هنا أقوال أخر ، نشير إليها :

الأول : إن الإيمان هو التصديق بالقلب واللسان معاً ، ولا يكفي التصديق القلبي وحده ، وهذا القول للمحقق الطوسي مستدلاً بما مضى من قوله سبحانه : ﴿ وَجَٰهَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾ (١) .

يلاحظ عليه : إنَّ التنديد بهم سببه نفاقهم ، وعدم مطابقة لسانهم لما في قلوبهم . فلو كانوا مستيقنين غير منكرين بالسنتهم لكانوا مستحقين للثناء .

الثاني : إنَّ الإيمان هو الإقرار باللسان . واستدل القائل به بأنَّ من أعلن بلسانه شهادة الإسلام فهو مسلم محكوم له بحكم الإسلام .

أضف إليه قول رسول الله صلى الله عليه وآله في السوداء : « اعتقها فإنها مؤمنة » (٢) .

يلاحظ عليه : إنَّ الحكم لهم بالإسلام أو بالإيمان إنما هو بحسب الظاهر ، وليس هو حكماً بحسب الواقع ، ففي هذا المقام يجعل الاعتراف اللساني طريقاً إلى التصديق الجنائي ، ولو علم خلافه ، لحكم بالنفاق . قال سبحانه : ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

فإنَّ الرسول وأصحابه كانوا مكلفين بالحكم حسب المعايير الظاهرية التي تكشف عادة عن الإيمان القلبي ، قال رسول الله : أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيُؤْمِنُوا بِمَا أُرْسِلْتُ بِهِ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ، عَصَمُوا مِنِّي

(١) كشف المراد ، ص ٢٧٠ ، ط صيدا .

(٢) الفصل ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٨ .

دماءهم وأموالهم إلا بحققها ، وحسابهم على الله » (١) .

وبذلك يظهر وجه حكمه صلى الله عليه وآله في السوداء بأنها مؤمنة . روى ابن حزم عن خالد بن الوليد أنه قال : رُبَّ رجل يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، فقال صلى الله عليه وآله : « إني لم أبعث لأشقَّ عن قلوب الناس » (٢) .

وكيف يكتفي القائل بالتصديق اللساني ، مع أن صريح الكتاب على خلافه ، قال سبحانه : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (٣) والأعراب صدَّقوا بألسنتهم ، وأنكروا بقلوبهم ، فرد الله عليهم بأنكم لستم مؤمنين لأنكم مصدِّقون بألسنتكم لا بقلوبكم .

الثالث : إنَّ الإيمان هو التصديق بالقلب واللسان مع العمل ، فالعمل عنصر حقيقي مقوم للإيمان ، والفاقد له ليس بمؤمن بتاتاً والقائلون بهذا هم الخوارج والمعتزلة (٤) ، غير أن بينها فرقاً في المقام .

فالخوارج يرون العمل مقوماً للإيمان ، فالمقرُّ قلباً ولساناً إذا فقد العمل ، إرتكب الكبيرة ، فقد صار كافراً ، ولأجل ذلك يُكفرون مرتكب الكبيرة ، ويحكمون عليه بالخلود في النار ، إذا لم يتب .

والمعتزلة ، مع أنهم يرون العمل مقوماً للإيمان ، غير أنهم لا يُكفرون تارك العمل ، ومرتكب الكبيرة ، بل يجعلونه في منزلة بين الإيمان والكفر ، والمكلف عندهم على ثلاثة حالات :

إيمان ، إذا قام بالتصديقين ، وعمل بالوظائف .

وكُفْر ، إذا فقد التصديق القلبي ، أو هو واللساني .

ومنزلة بين المنزلتين ، إذا قام بالتصديقين ، ولكن فقد العمل .

(١) الفضل ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) سورة الحجرات : الآية ١٤ .

(٤) شرح الأصول الخمسة ، ص ١٣٩ .

والكلام مع هؤلاء في مقامين :

١ - نقد هذا المذهب عن طريق الكتاب والسنة .

٢ - تحليل ما تمسكوا به في إثبات عقيدتهم .

أما الأول ، فالآيات الدالة على أنَّ العمل ليس عنصراً مقوماً للإيمان (وإن كان مؤثراً في النجاة) كثيرة نشير إلى بعضها :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، فالعطف يقتضي المغايرة ، ولو كان العمل داخلاً في الإيمان لزم التكرار . واحتمال كون المقام من قبيل ذكر الخاص بعد العام ، يحتاج إلى نكتة ومسوغ له .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ^(١) فالجملة حالية ، المقصود منها : « من عمل حال كونه مؤمناً » ، وهذا يقتضي المغايرة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ، فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ، فقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) .

فأطلق المؤمن على الطائفة العاصية ، وقال ما هذا معناه : فإن بغت إحدى الطائفتين من المؤمنين على الطائفة الأخرى منهم » .

نعم ، يحتمل أن يكون إطلاق المؤمن عليهم باعتبار حال التلبس ، أي باعتبار كونهم مؤمنين قبل القتال ، لا بلحاظ حال صدور الحكم .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ^(٣) .

فأمر الموصوفين بالإيمان ، بتقوى الله ، وهو الإتيان بالطاعات والاجتناب عن المحرمات ، فدلَّ على أنَّ الإيمان يجتمع مع عدم التقوى ، وإلا كان الأمر به لغواً وتحصيلاً للحاصل .

(١) سورة طه : الآية ١١٢ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ٩ .

(٣) سورة التوبة : الآية ١١٩ .

واحتمال أن الآية أمرٌ على الإستدامة ، خلاف الظاهر .

هذا حسب الآيات ، وأما السنة فهناك روايات تدل على أن الإقرار المقترن بالعرفان ، إيمان . منها ما رواه الصدوق بسند صحيح عن جعفر الكناسي قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : ما أدنى ما يكون به العبد مؤمناً ، قال : يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ، ويقرّ بالطاعة ، ويعرف إمام زمانه ، فإذا فعل ذلك فهو مؤمن ^(١) .

وأما الثاني : وهو تحليل ما استدلوا به على أن العمل عنصر مقوم للإيمان بحيث لولاه فهو إما كافر أو في منزلة بين المنزلتين . فقد استدلوا بآيات :

١ - قوله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ ^(٢) ، فلو كان الإيمان هو التصديق ، لما قبل الزيادة والنقيصة ، لأن التصديق أمره دائر بين الوجود والعدم ، وهذا بخلاف ما لو كان العمل جزءاً من الإيمان ، فإنه عندئذٍ يزيد وينقص حسب زيادة العمل ونقيصته ، والزيادة لا تكون إلا في كمية عدد لا فيها سواها ، ولا عدد في الاعتقاد ^(٣) .

يلاحظ عليه ، إن الإيمان - بمعنى الإذعان - أمرٌ مقول بالتشكيك ، وللبقين مراتب بشهادة أن يقين الإنسان بأنّ الإثنين نصف الأربعة ، يفارق يقينه في الشدة والظهور بأنّ نور القمر مستفاد من الشمس ، كما أنّ يقينه الثاني يفارق يقينه بأنّ كل ممكن فهو زوج تركيب من ماهية وجود ، وهكذا يتنزل اليقين من القوة إلى الضعف إلى أن يصل إلى أضعف المراتب التي لو تجاوز عنها لزال وصف اليقين وانقلب إلى الظن أو الشك . فمن ادعى بأنّ أمر الإيمان - بمعنى التصديق والإذعان - دائر بين الوجود والعدم ، فقد غفل عن حقيقته ومراتبه ، فهل يصح لنا أن ندعي أن إيمان الأنبياء ، كإيمان سائر الناس ، كلا ، لأنّ الأنبياء معصومون ، وعصمتهم ناشئة من يقينهم بآثار المعاصي ، الذي يصدهم عن

(١) البحار ، ج ٦٦ ، ص ١٦ ، نقلاً عن معاني الأخبار للصدوق .

(٢) سورة الفتح : الآية ٤ .

(٣) الفصل ، لابن حزم الظاهري ، ج ٣ ، ص ١٩٤ .

اقترافها ، فلو كان إذعانهم كإذعان سائر الناس ، لما امتازوا عنهم بالعصمة عن المعصية .

وما ذكروه من أن الزيادة تستعمل في الكمية العددية ، فهو منقوض بآيات كثيرة استعملت فيها الزيادة في غيرها ، قال سبحانه : ﴿ وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ، وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾^(١) وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً ﴾^(٢) والمراد شدة خشوعهم ، وشدة نفورهم ، لا كثرة عددهما . وغير ذلك من الآيات التي استعمل فيها ذلك اللفظ فيما يرجع إلى الكيفية لا الكمية .

٢ - قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾^(٣) . والمراد من الإيمان ، صلاتهم إلى بيت المقدس قبل أن يُنسخ بالأمر باستقبال الكعبة^(٤) .
يلاحظ عليه : إنه لو أخذ بظاهر الآية ، فيجب أن يكون الإيمان نفس العمل ، وهو مجمع على خلافه .

أضف إلى ذلك أنه استعمل الإيمان وأريد منه العمل في المقام ، والاستعمال أعم من الحقيقة ، ولا شك أن العمل أثر الإيمان ورد فعل له ، فمن الشائع إطلاق السبب وإرادة المسبب .

٣ - قوله سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾^(٥)
أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون إلا بتحكيم النبي والتسليم بحكمه ، وعدم وجدان الحرج في قضائه . والتحكيم غير التصديق ، بل هو عمل خارجي^(٦)

(١) سورة الإسراء : الآية ١٠٩ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٤١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

(٤) البحار ، ج ٦٦ ، ص ١٨ .

(٥) سورة النساء : الآية ٣٥ .

(٦) الفصل ، ج ٣ ، ص ١٩٥ .

يلاحظ عليه : إن الآية وردت في شأن المنافقين ، فإنهم كانوا يتركون النبي ويرجعون في دعاويهم إلى الأخبار ، وهم مع ذلك يدعون الإيمان والإذعان والتسليم للنبي . فنزلت الآية بأنه لا يقبل منهم ذلك الإدعاء حتى يرى أثر الإيمان في حياتهم ، وهو تحكيم النبي في المرافعات ، والتسليم العملي أمام قضائه ، وعدم إحساسهم بالخرج ، وهذا هو الظاهر من الآية ، لا أن التحكيم بما أنه عمل ، جزء من الإيمان . وهذا نظير ما إذا ادعى إنسان حباً لرجل فيقال له : إن كنت صادقاً فيجب أن يرى أثر الحب في حياتك ، فاعمل له كذا وكذا .

٤ - قوله سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) فسمى سبحانه تارك الحج كافراً ^(٢)

يلاحظ عليه : إن المراد كفران النعمة ، حيث إن ترك فريضة الحج مع الإ استطاعة ، كفران لنعمته سبحانه ، وقد استعمل الكفر في مقابل شكر النعم ، قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ ^(٣)

كما ربما يكون المراد من الكفر جحْد وجوب الحج .

وغير ذلك مما استدلووا به من الآيات . وأنت إذا احطت بما ذكرنا ، تقدر على الإجابة عن استدلالهم بها ^(٤)

نعم ، هناك روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تعرب عن كون العمل جزءاً من الإيمان ، نظير قول الصادق عليه السلام : « ملعون ، ملعون من »

(١) سورة آل عمران : الآية ٩٧ .

(٢) البحر ، ج ٦٦ ، ص ١٩ .

(٣) سورة إبراهيم : الآية ٧ .

(٤) مثل قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (البينة : ٥) . مستدلين بأن المشار إليه بلفظة « ذلك » ، جميع ما ورد بعد الأمر ، من عبادة الله سبحانه بالإخلاص وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، استدلل به ابن حزم في الفضل ، ج ٣ ، ص ١٩٤ . وقد أجاب عنه الأستاذ دام ظلّه في الجزء الثالث من بحوثه في الملل والنحل ، فلاحظ .

قال : الإيمان قول بلا عمل ^(١) . والظاهر أنّ هذه الروايات وردت لرد المرجئة التي تكتفي في الحياة الدينية بالقول والمعرفة ، وتؤخر العمل ، وترجو رحمة وغفرانه ، مع عدم القيام بالوظائف . وقد تضافرت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام لعن المرجئة ^(٢) .

سؤال :

لو كان الإيمان هو التصديق ، فهل هو يزيد وينقص .

الجواب :

قد علم هذا مما ذكرنا من كون الإيمان ذا مراتب ، وأن نفس الإذعان ، له درجات . وليس القول بزيادة الإيمان ونقصانه مختصاً بمن جعل العمل عنصراً مقوماً للإيمان ، بل هو يتحقق أيضاً عند من يقول بأن الإيمان هو التصديق القلبي ، وليس العمل جزء منه .

إلى هنا تبين حقيقة الأقوال الأربعة في بيان حقيقة الإيمان ، وقد عرفت أنّ الصواب هو الأوّل منها ، وهو التصديق القلبي ^(٣)

* * *

(١) البحار ، ج ٦٦ ، باب أنّ الإيمان مبثوث على الجوارح ، الحديث ١ ، ص ١٩ ، ولاحظ سائر الروايات في هذا الكتاب .

(٢) لاحظ الوافي ، للفيض الكاشاني ، ج ٣ ، أبواب الكفر ، والشرك ، باب أصناف الناس ، ص ٤٦ .

(٣) بقي هنا قول المرجئة ، وهو لا يفترق كثيراً عن القول الثالث من الإكتفاء بالتصديق اللساني ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الجزء الثالث من أبحاث الشيخ الأستاذ حفظه الله في الملل والنحل .

مباحث المعاد

(١٤)

التوبة وشرائطها

إن التوبة من المكفّرات التي نص الكتاب والحديث على تكفير الذنوب بها ،
تحت شرائط خاصة ، وإشباع الكلام فيها يتم بالبحث في أمور :

الأمر الأول - فلسفة التوبة

ربما يتوهم أنّ في تشريع التوبة والدعوة إليها إغراءً بالمعصية وتحريضاً على ترك الطاعة ، بدعوى أنّ الإنسان إذا أيقن أنّه سبحانه يقبل توبته رغم اقترافه المعاصي ، تزيد جرأته على هتك الحرمات ، والإنهك في الذنوب ، فيدقّ باب كل قبيح ، معتمداً على التوبة .

ولكنه توهم ساقط من أصله ، فإنه لو كان باب التوبة موصداً في وجه العصاة ، واعتقد المجرم بأنّ العصيان مرّة واحدة ، يُدخله في عذاب الله ، فلا شكّ أنّه سيتماهى في اقتراف السيئات وارتكاب الذنوب ، معتقداً بأنه لو غير حاله إلى الأحسن ، لما كان له تأثير في تغيير مصيره ، فلا يترك لذات المحرمات في ما يأتي من أيام عمره . وهذا بخلاف ما لو اعتقد بأنّ الطريق مفتوح والنوافذ مشرعة ، وأنّه لو تاب توبة نصوحاً ينقذ من عذابه سبحانه ، فهذا يعطيه الأمل برحمة الله تعالى ويترك العصيان في مستقبل أيامه . وكم وكم من الشباب عادوا إلى الصلاح بعد الفساد في ظل الاعتقاد بالتوبة ، بحيث لولا ذلك الاعتقاد لأسهروا لياليهم في المعاصي ، بدل الطاعات .

ولأجل ذلك نرى في التشريعات الجنائية العالمية قوانين للعفو عن السجّاء المؤبدين ، إذا شوهدت منهم الندامة والتوبة ، وتغيير السلوك ، فتشريع هذا القانون يكون موجّباً لإصلاح السجّاء ، لا تقوية روح الطغيان فيهم . فالإنسان حيٌّ برجائه ، ولو ساد عليه اليأس والقنوت من عفوه ورحمته سبحانه ، لزداد في طغيانه في عامة أدوار عمره .

الأمر الثاني - حقيقة التوبة

إنّ التوبة كما يستفاد من الآيات والروايات حالة نفسانية مؤثّر في النفس فتصلحها وتعدّها للصالح الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة . ومن المعلوم أنّ هذه الغاية لا تحصل إلا بتحقيق أمرين :

١ - الندم على ما مضى .

٢ - العزم على عدم العودة إليه إذا قدر .

فلو انتفى الأمران أو أحدهما لما حصلت تلك الحالة المؤثّرة في صلاح النفس وإعدادها لكمالات أخرى ، فيلزم في التوبة وجود هذين الأمرين ، سواء أقلنا إنّ التوبة مركبة منهما وأنّ كل واحد منهما جزء لها ، كما نقل عن أبي هاشم الجبائي ، أو قلنا إنّ التوبة أمر بسيط هو الندم على ما مضى ، وأما العزم فهو من شروطها ولوازمها ، كما عليه الشيخ المفيد^(١) ، فإنّ هذا نزاع لفظي لا ثمره له إلا في موارد نادرة ، كما إذا ندم على ما سلف من القبيح ومنع من العزم ، فعلى القول الأوّل لم تتحقق التوبة دون الثاني .

وهناك كلام للإمام أمير المؤمنين حول التوبة ، وقد سمع من بحضرته يقول : أستغفر الله ، فقال : أتدري ما الإستغفار ؟ الإستغفار درجة العليّين ، وهو إسم واقع على ستة معان :

أوّلها : الندم على ما مضى .

(١) أوائل المقالات ، ص ٦١ .

والثاني : العزم على ترك العود إليه أبداً .

والثالث : أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليست عليك تبعة .

والرابع : أن تعمد إلى كل فريضة ضيّعتها فتؤدّي حقها .

والخامس : أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت^(١) فتذيه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد .

والسادس : أن تذيب الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية .

فعند ذلك تقول : « أستغفر الله »^(٢) .

وبالجملة : إنّ التوبة لغاية إزالة السيئات النفسانية التي تجر إلى الإنسان كل شقاء في حياته الأولى والأخرى ، وتمنعه من الاستقرار على أريكة السعادة . وهذه الغاية لا تحصل إلا بحصول أمرين : الندم والعزم .

وأما باقي الأمور الأربعة الواردة في كلام الإمام عليه السلام ، فسوافيك الكلام فيها .

الأمر الثالث - وجوب التوبة

اتفقت العدلية على وجوب التوبة واستدلوا على ذلك بأمرين :

أ - إنها دافعة للضرر الذي هو العقاب ، ودفع الضرر الأخروي واجب عقلاً .

ب - إن العزم على ارتكاب القبائح وترك الفرائض قبيح عقلاً فيجب اجتنابه ، وهو لا يحصل إلا بالتوبة .

(١) السحت : المال من كسب حرام .

(٢) نهج البلاغة : قسم الحكم ، الرقم ٤١٧ ، وسنرجع إلى هذا الحديث عند استعراض أحكام التوبة ، وإنما أوردناه هنا جملة واحدة ليسهل الرجوع إليه .

والدليل الثاني لا يفيد إلا وجوب العزم وهو أحد جزئي التوبة أو شرطها .

وكيف كان ، فكل من قال بالحسن والقبح العقليين ، لا مناص له عن القول بوجوب التوبة وجوباً عقلياً ، وما جاء من طريق السمع يكون مرشداً إلى هذا الحكم العقلي .

وأما المنكرون لها ، فيذهبون إلى وجوبها شرعاً ، قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾^(١) .

الأمر الرابع - هل تجب التوبة من الصغائر ؟

إن ارتكاب أي معصية ، صغيرة كانت أو كبيرة ، جرأة على الله وخروج عن رسم العبودية وزِيَّ الرِّقَّةِ ، وهي تترك أثراً سيئاً في النفس بلا ريب ، فيجب التوبة منها لإزالة أثرها من النفس . وإليه ذهب أبو علي الجبائي ، من المعتزلة ، ولكن الظاهر من ابنه أبي هاشم ، عدم وجوب التوبة من الصغائر إلا سماعاً ، واختاره القاضي عبد الجبار ، قائلاً بأن التوبة إنما تجب لدفع الضرر عن النفس ، ولا ضرر في المعصية ، فلا تجب التوبة منها ، غاية الأمر أن للصغيرة تأثير في تقليل التواب ، ولا ضرر في ذلك^(٢) .

يلاحظ عليه : إن ما ذكر مبني على أمرين غير ثابتين :

أ - أن المعاصي بالذات تنقسم إلى صغائر وكبائر ، وأن صِغَر المعاصي وكبرها ليس من الأمور الإضافية النسبية ، بل هناك صنفان من المعاصي لا يتداخل أحدهما في الآخر .

ب - أن المعاصي الصغيرة لا يعاقب عليها ما لم يكن عليها إصرار .

وكل ذلك مورد تأمل وتردد .

(١) سورة التحريم : الآية ٨ .

(٢) شرح الأصول الخمسة ، ص ٧٨٩ .

أضف إلى ذلك : أنَّ وجه تشريع التوبة ليس منحصرًا بالإجتناب عن العذاب حتى يقال إنَّه لا عقاب على الصغيرة ، بل قد عرفت أنَّ الوجه فيها - مضافاً إلى الخلاص من العذاب - حسن الندم على كل قبيح أو إخلال بالواجب ، وقبح العزم على الاستدامة ، وهذا مشترك بين الصغيرة والكبيرة . وبذلك يظهر الجواب عما ربما يقال من أنَّ عقاب الصغيرة مكفّر باجتناب الكبيرة إذا لم يصر عليها ، لقوله سبحانه :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ (١) .

وعندئذٍ ، لا يحتاج إلى التوبة منها ، لما عرفت من أنَّ وجه التوبة لا ينحصر بالخلاص من العذاب .

الأمر الخامس - التوبة واجب فوري

يحكم العقل بوجوب التوبة فوراً ، لأنها اجتناب عن القبيح بقاء ، وترك للعدوان استدامة ، ومثل ذلك لا يصح فيه التأخير والتراخي .

أضف إلى ذلك أنَّ العقل يُحرِّضُ على التوبة فوراً ففوراً ، لثلا يفوت أوانها ويكون ممّن لا تقبل توبته قال سبحانه :

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ (٢) .

وما ذكرناه هو خيرة المعتزلة أيضاً حيث قالوا بفورية الوجوب وأنَّه يلزم بتأخيرها ساعة إثم آخر يجب التوبة منه أيضاً ، حتى أن من أخر التوبة عن الكبيرة ساعة واحدة ، فقد فعل كبيرتين ، وساعتين أربع كبائر ، الأوليان ، وترك التوبة

(١) سورة النساء : الآية ٣١ . وقد نقله العلامة المجلسي عن الشيخ البهائي ، لاحظ البحار ، ج ٦ ، ص ٤٨ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٨ .

عن كل منهما ، وثلاث ساعات ، ثمان وهكذا^(١) .

ولكن لا دليل على هذا التفصيل .

الأمر السادس - أثر التوبة

إن أثر التوبة هو إزالة السيئات النفسانية التي تجر إلى الإنسان كل شقاء في حياته الأولى والأخرى ، فيرجع التائب بعد ندمه وعزمه على الترك في المستقبل ، أبيض السريرة ، كيوم ولدته أمه ، وبالتالي يسقط عنه العقاب .

وأما الأحكام الشرعية المترتبة على الأعمال السابقة فتبقى على حالها ، إذ ليس للتوبة تأثير إلا في إصلاح النفس وإعدادها للسعادة الأخروية ، ولذلك يجب الخروج عن مظالم العباد أولاً ، وتدارك ما فات من الفرائض ثانياً ، فإن السيئة العارضة على النفس بسبب هضم حقوق الناس لا ترتفع إلا برضاها ، لأنه سبحانه أحترم حقوقهم في أموالهم وأعراضهم ونفوسهم ، وعدّ التعدي على واحد منها ظلماً ، وعدواناً ، وحاشاه أن يسلبهم شيئاً مما جعله لهم من غير جرم صدر منهم وقد قال عز من قائل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً ﴾^(٢) .

قال المفيد رحمه الله : « إن من شرط التوبة إلى الله سبحانه من مظالم العباد الخروج إلى المظلومين من حقوقهم بأدائها إليهم أو باستحلالهم منها على طيبة النفس بذلك ، والإختيار له ، فمن عدى منهم صاحب المظلمة وفقده خرج إلى أوليائه من ظلامته أو استحلالهم منها »^(٣) .

ولأجل ذلك قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « والثالث : أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة ، والرابع : أن تعمد إلى كل فريضة ضيعتها فتؤدي حقها »^(٤) .

(١) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

(٢) سورة يونس : الآية ٤٤ .

(٣) أوائل المقالات ، ص ٦٢ .

(٤) هج البلاغة ، قسم الحكيم ، الرقم ٤١٧ .

هذا ، وإن المتبادر من الآيات والروايات أن التوبة بنفسها مسقطة للعقاب ، يقول سبحانه : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(١) فإن الظاهر منه أن نفس التوبة تجر الغفران ، وغير ذلك من الآيات ، وهذا الأمر من المسائل القرآنية الواضحة .

وأما حقوق الله ، فيتبع هناك لسان الدليل الشرعي ، فربما تكون التوبة مسقطة للحد كما في قوله سبحانه :

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٢) . فالإستثناء صريح في أن التوبة تُسقط الحدَّ الوارد في الآية .

قال المحقق الحلي : « إنَّ شارب الخمر إذا تاب قبل قيام البينة ، يسقط الحد ، وإن تاب بعدها لم يسقط »^(٣) .

وقال : « إذا تاب اللاتط قبل قيام البينة سقط الحد ، ولو تاب بعده لم يسقط »^(٤) .

الأمر السابع - تبول التوبة واجب على الله أولاً ؟

لا شك أن التوبة تسقط العقاب ، وهو مما أجمع عليه أهل الإسلام . وإنما الخلاف في أنه هل يجب على الله قبولها بحيث لو عاقب بعد التوبة كان ظالماً ، أو هو تفضل منه سبحانه ، وكرم ورحمة منه بعباده ؟

(١) سورة الأنعام : الآية ٥٤ .

(٢) سورة المائدة : الآيتان ٣٣ و ٣٤ .

(٣) شرائع الإسلام ، كتاب الحدود ، الباب الرابع في حد المسكر .

(٤) المصدر السابق ، الباب الثاني ، في أحكام اللواط

فالمعتزلة على الأول ، والأشاعرة والإمامية على الثاني .

استدل المعتزلة بوجهين :

١ - إن العاصي قد بذل وسعه في التلافي ، فيسقط عقابه ، كمن بالغ في الاعتذار إلى من أساء إليه ، فإنه يسقط ذمه بالضرورة^(١) .

وبعبارة أخرى : إن من أساء إلى غيره واعتذر إليه بأنواع الاعتذارات ، وعرف منه الإقلاع عن تلك الإساءة بالكلية فالعقلاء يذمون المظلوم ، إذا ذمه بعد ذلك^(٢) .

٢ - لو لم يجب إسقاط العقاب لم يحسن تكليف العاصي ، والتالي باطل إجماعاً ، فالقُدّم مثله .

بيان الشرطية : إن التكليف إنما يحسن للتعريض للنفع . وبوجوب العقاب قطعاً لا يحصل الثواب ، وبغير التوبة لا يسقط العقاب ، فلا يبقى للعاصي طريق إلى إسقاط العقاب عنه ، ويستحيل اجتماع الثواب والعقاب فيكون التكليف قبيحاً^(٣) .

يلاحظ على الأول ، بأنه لا يجب في منطق العقل قبول المعذرة ، بل المظلوم في خيرة بين القبول والصفح ، وليس رفض المعذرة مخالفاً للحكمة والعدل حتى يجب على الله سبحانه .

وأما الثاني ، فيلاحظ عليه أنه مبني على الأصل الذي اختاره المعتزلة من أن مرتكب الكبيرة مخلّد في النار ، وهو لا يجتمع مع الثواب المترتب على التكليف ، فاستدلوا بأنه لو لم تقبل توبته لوجب أن يخلد في النار (ولو بمعية واحدة) وهو لا يجتمع مع الثواب ، فيلزم سقوط تكليف العاصي . ولكن الأصل مردود لما قلنا من

(١) شرح المقاصد ، ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٢) كشف المراد ، ص ٢٦٨ . ولاحظ شرح الأصول الخمسة ، ص ٧٩٨ .

(٣) كشف المراد ، ص ٢٦٨ ط صيدا . ولاحظ شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

أنَّ المؤمن لا يخلد في النار وإنما كتب الخلود على الكافر ، فلا مانع من أن يعاقب مدة ثم يخرج فيثاب .

وعلى هذا فلا دليل على وجوب قبول التوبة على الله سبحانه ، بل قبولها تفضل وكرم منه سبحانه .

قال الطبرسي في تفسير قوله سبحانه : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَاُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾^(١) . قال : « ووصفه بالرحيم عقيب التَّوَّاب يدل على أن إسقاط العقاب بعد التوبة تفضل منه سبحانه ورحمة من جهته ، على ما قاله أصحابنا ، وإنه غير واجب عقلاً على خلاف ما ذهب إليه المعتزلة »^(٢) .

نعم ، هذا إذا لوحظ قبول التوبة من حيث هو هو ، وأما إذا لوحظ بعدما وعده سبحانه بقبول توبة التائب ، فالوجوب لا محيص عنه ، لأنَّ خلف الوعد قبيح ، من غير فرق بين الواجب والممكن ، وقد أوضحنا لك معنى كون شيء واجباً على الله سبحانه ، وأنه لا يراد منه تكليف الله سبحانه ، بل أنَّ العقل يكشف حكماً عاماً سائداً على الواجب والممكن ، وهو أنَّ الحكيم لا يفعل القبيح ، لما فيه من المبادئ الرافضة لارتكابه فيكون وجوب قبول التوبة سمعياً لا عقلياً .

الأمر الثامن - هل يجب في التوبة ، الندم على القبيح ؟

الظاهر من غير واحد من المحققين أنَّ التوبة تتقوم بالندم على القبيح لقبحه ، وإلا فلو ندم لأجل إضرارها بالبدن أو إخلالها بعرضه أو ماله أو لغرض آخر ، لا يكون تائباً .

وهذا كلام متين ، فإنَّ التوبة عبارة عن رجوع العبد إلى الله سبحانه ، وهذا لا يتحقق إلا بأن يكون رجوعه لاستشعاره قُبْح عمله ، وأنه كان عدواناً على الله

(١) سورة البقرة : الآية ١٦٠ .

(٢) مجمع البيان ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

وجرأة على المولى ، وأما من ترك شرب الخمر لا بهذا الاعتقاد بل لأجل صيانة بدنه عن مضارها ، فلا تكون توبة منه إلى الله .

إنما الكلام إذا تاب عن عمله لأجل الخوف من عقابه سبحانه ، فقد ذهب المحقق الطوسي وتبعه العلامة الحلي ، إلى أنه لو كانت الغاية من التوبة هي الخوف من النار بحيث لولا خوف النار لم يتب ، فلا يصدق عليها أنها توبة .

قال العلامة الحلي : « فإن كانت التوبة خوفاً من النار أو من فوات الجنة ، لم تصح توبته ، وهذا نظير ما لو اعتذر المسيء إلى المظلوم لا لأجل إساءته بل لخوفه من عقوبة السلطان ، فإن العقلاء لا يقبلون عذره »^(١) .

يلاحظ عليه : إن التكليف الإلهية متوجهة إلى عموم الناس ، من غير فرق بين التكليف بالصلاة والصوم أو التكليف بالتوبة . ومن المعلوم أن الأكثرية الساحقة لا يقومون بالفعل لحسنه بالذات ، ولا يتركونه لكونه قبيحاً كذلك ، بل الفعل والترك يقومان على أساس الرغب والرهب ، والطمع بالجنة والخوف من النار . وعلى ذلك فالآيات الواردة حول التوبة المقترنة بالثواب تارة والخلاص من النار أخرى ، تعرب عن أن التوبة إذا حصلت لإحدى هاتين الغايتين ، كفى ذلك في سقوط العقاب ، يقول سبحانه - حاكياً قول هود عليه السلام - : ﴿ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ﴾^(٢) .

ويقول تعالى : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾^(٣) .

وفي الدعاء الذي علمه علي عليه السلام كميل بن زياد ، لإيعاز ، إلى ذلك : يقول : « أَللّٰهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تَهْتِكُ الْعَصَمَ ، أَللّٰهُمَّ اغْفِرْ لِي

(١) كشف المراد ، ص ٢٤٦ ، ط صيدا ، بتصرف .

(٢) سورة هود : الآية ٥٢ .

(٣) سورة هود ، الآية ٣ .

الذنوب التي تُنزلُ النقم ، أَللَّهُمَّ اغفر لي الذنوب التي تُعَيِّرُ النِّعَمَ ، اللهم اغفر لي الذنوب التي تُنزلُ البلاء .

وإن شئت قلت : إنَّ التوبة خوفاً من النار ، لا تنفك عن الاعتقاد بكون ما فعل أمراً قبيحاً شرعاً .

وبالجملة ، فالآيات والروايات الواردة حول التوبة مطلقة ، تعم كل توبة يصدق عليها أنها رجوع إلى الله . وفي حديث يبين علي عليه السلام موقف العباد في عبادة الله تعالى ، ويقسمهم إلى ثلاثة أقسام ، يقول :

« إن قوماً عبدوا الله رغبةً ، فتلك عبادة التجار ، وإن قوماً عبدوا الله رهبةً ، فتلك عبادة العبيد ، وإن قوماً عبدوا الله شكراً ، فتلك عبادة الأحرار »^(١) .

وحينئذ ، فكما أنه تقبل عبادة العباد ، رغبة ورهبة ، تقبل توبتهم أيضاً إذا كانت كذلك .

ولا معنى للتفكيك بين قبول عبادتهم وقبول توبتهم ، ولا أجد فقيهاً يفتي ببطلان عبادة من عبده سبحانه لإحدى الغايتين ، أو كليهما . كيف وهو سبحانه يصف أنبياءه العظام بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾^(٢) .

وأما الإستدلال على أن المسقط ليس هو نفس التوبة ، بل كثرة الثواب بعدها بأنها لو أسقطت العقاب بذاتها ، لأسقطته في حال المعاينة ، وفي الدار الآخرة^(٣) ؛ فيلاحظ عليه أن التوبة إنما تقبل لأنها تؤثر في النفس الإنسانية ، فتصلحها ، أو تعدّها للصالح ، وهذا إنما يتصور فيما إذا كان الإنسان قادراً على الفعل والترك ، وأما في حال المعاينة أو دار الآخرة ، فالقدرة مسلوبة عن الإنسان هذا .

(١) نهج البلاغة ، قسم الحكم ، الرقم ٢٣٧ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٩٠ .

(٣) كشف المراد ، ص ٢٦٨ .

مع أنك قد عرفت عند البحث عن أثر التوبة أن التوبة بنفسها هي المسقطة للعقاب ، فلاحظ .

الأمر التاسع - هل تصح التوبة من قبيح دون قبيح ؟

اختلفت كلمتهم في أنه هل يصح الندم من قبيح دون قبيح ؟

فقال أبو علي : إنه تصح ما لم يصر على شيء من ذلك الجنس ، فلو أنه تاب من شرب الخمر وأصرّ على الزنا كانت توبته عن الأول توبة نصوحاً صحيحة ، وأما إذا أصرّ على شيء من ذلك الجنس لم تصح توبته . وذلك كما أنه لو تاب عن شرب هذا القدر من الخمر مع إصراره على شرب قدر آخر ، فلا إشكال في أن لا تصح توبته هذه^(١) .

وقال أبو هاشم : إنه لا تصح التوبة عن بعض القبائح مع الإصرار على بعض ، واختاره القاضي عبد الجبار ، واستدل عليه بأن التوبة عن القبيح يجب أن يكون نداماً عليه لقبحه ، وعزماً على أن لا يعود إلى أمثاله في القبح . وإذا كان هذا كذلك ، فليس تصح توبته عن بعض القبائح مع الإصرار على البعض ، إذ ليس يصح أن يترك أحداً بعض الأفعال لوجه ، ثم لا يترك ما سواه في ذلك الوجه ، ألا ترى أنه لا يصح أن يتجنب سلوك طريق لأن فيها سبعاً ، ثم لا يتجنب سلوك طريق أخرى فيها سبع . وكذلك لا يصح أن لا يتناول طعاماً لأن فيه سماً ، ثم يتناول طعاماً آخر مع أن فيه سماً^(٢) .

يلاحظ عليه : إن الأفعال القبيحة تختلف شدة وضعفاً ، وإن كانت تشترك في كونها عدواناً على الله وخرقاً لحدوده ، ولكنها مع ذلك تختلف في جهات القبح ، وعلى ذلك فربما يوجد داع إلى الندم في بعض القبائح دون الأخرى ، وذلك بأن يقترن ببعض القبائح قرائن زائدة كعظم الذنب ، أو كثرة الزواجر عنه ، أو الشناعة على فعله عند العقلاء ، دون قبائح أخرى ، فعندئذ ربما يرجع الندم

(١) شرح الأصول الخمسة ، ص ٧٩٥ .

(٢) شرح الأصول الخمسة : ص ٧٩٥ .

على القبائح المحتفة بما يوجد الندم في النفس دون الأخرى . ولو اشتركت جميع القبائح في قوة الدواعي اشتركت في وقوع الندم عليها جميعاً ، ولم يصح الندم على البعض دون الآخر^(١) .

وهذا مما يلمسه الإنسان في حياة المجرمين ، فرما يحضر عاص أنديه الوعظ والإرشاد ، فيستمع إلى الخطيب ، يندد ببعض المعاصي كشرب الخمر ، وأكل الربا ، ويذكر قبحهما وشناعهما ، وما يترتب عليهما من إشاعة البغضاء في المجتمع ، فيحصل في نفسه داع قوي يدفعه إلى ترك هذين القبيحين ، وفي الوقت نفسه قد لا يجد داعياً لترك غيرهما من المعاصي التي اعتاد عليها ، كالغيبة لأنه لا يراها قبيحة ، بل لأنها لم تحتف بما يوجد داعي الندم في نفسه ، بخلاف الأولين . فجميعها ، إذن ، تشترك في القبح والشناعة ، غير أن الأولين يتميزان بوجود الداعي إلى التوبة عنهما فتاب ، دون الآخر .

وبذلك يظهر الجواب عما ذكره أبو هاشم من أنه إذا كانت توبته عن بعض القبائح لأجل قبحها ، فهو موجود في البعض الآخر أيضاً ، فلم تاب عن الأولى دون الأخرى ؟ .

وجه الجواب أن الكل يشترك في القبح ، لكن ترك البعض دون الآخر ، لا لأجل اعتقاده أن واحداً قبيح دون الآخر ، بل إنه يعتقد بقبحهما ، ولكن الداعي للتوبة موجود في أحدهما دون الآخر .

ولقد أحسن المحقق الطوسي ، حيث قال : التحقيق أن ترجيح الداعي إلى الندم على البعض يبعث عليه خاصة ، وإن اشترك الداعي في الندم على القبيح لقبحه ، كما في الدواعي إلى الفعل . ولو اشترك الترجيح ، اشترك وقوع الندم ، فلا يصح الندم^(٢) .

ومما يوضح ذلك أنه لو أسلم يهودي ورجع عن كفره ، نادماً على ما مضى من عمره ، ولكنه بقي مصرأً على صغيرة من الصغائر ، فلو قلنا بأن التوبة من

(١) لاحظ كشف المراد ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ ط صيدا .

(٢) كشف المراد ، ص ٢٦٥ ، ط صيدا .

القبائح لا تتبع لزم أن لا تكون توبته مقبولة ، وهو خرق للإجماع ، وإلى هذا ينظر قول المحقق الطوسي ، « وإلا لولا التبعض ، لزم الحكم ببقاء الكفر على التائب منه المقيم على صغيرة »^(١) .

والعجب أن القاضي عبد الجبار استحسّن قول أبي هاشم وأراد التخلص عن هذا الإشكال فقال : إنه لا يسقط من عقوبته شيء لأنه لم يأت بما يسقط العقوبة عامة ، فبقيت عقوبته كما كانت ، نعم ، لا يجري عليه أحكام اليهود^(٢) .

كيف يقول لا يسقط من عقوبته شيء مع أنه كان كافراً فصار مؤمناً ، والإيمان يكفر الشرك وعقوبته باتفاق المسلمين ، فالقول ببقاء عقوبة الشرك مع أنه صار مؤمناً بحجة أنه لم يزل يرتكب صغيرة ، مخالف لنص الآيات واتفاق المسلمين ، ومعاملة النبي للمشرّكين الذين آمنوا ، ولو كان رفع العقوبة مقيداً بعدم الإصرار على صغيرة ، من الذنوب التي كان يرتكبها المشرك ، لأصحّ به النبي وبينه .

بقي هنا أبحاث طفيفة في التوبة ، يظهر حالها مما أوضحناه^(٣) . نسأله سبحانه أن يتوب علينا ، ويكتب الغفران في صحائف أعمالنا ، بفضله وكرمه .

* * *

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) شرح الأصول الخمسة ، ص ٧٩٧ .

(٣) مثل ما إذا اغتاب إنسان رجلاً ، فهل يجب عليه الاعتذار منه ، خاصة إذا بلغته الغيبة - أو لا ؟ وهذه مسألة فقهية .

وإذا كان التائب عالماً بذنوبه على التفصيل فهل يجب التوبة عن كل واحدة منها ، أو تكفي التوبة عنها إجمالاً ؟

وهل يجب تجديد التوبة ، كلما تذكر التائب ، معصيته السابقة ؟

وغير ذلك مما ذكره المتكلمون ، لاحظ التجريد وشروحه ، في التوبة ، المسألة الحادية عشر .

مباحث المعاد

(١٥)

الشفاعة

الشفاعة في الآخرة بصيص من الرجاء ، ونافذة من الأمل ، فتحتها الشريعة الإسلامية في وجه العصاة حتى لا ييأسوا من روح الله ورحمته ، ولا يغلبهم الشعور بالحرمان من عفوه فيتأدوا في العصيان . فالسبب في تشريع الشفاعة هو عينه السبب في تشريع التوبة في الحياة الدنيوية . وجلاء الحقيقة في الشفاعة ، يتم بالبحث في الأمور التالية :

- ١ - تصنيف آيات الشفاعة وإرجاعها إلى معنى واحد .
- ٢ - نقل نماذج مما ورد من السنة عن النبي والعترة الطاهرة .
- ٣ - تبين معنى الشفاعة ، وأقسامها .
- ٤ - مبررات تشريع الشفاعة .
- ٥ - شرائط شمول الشفاعة .
- ٦ - أثر الشفاعة وأنه حطُّ الذنوب ، لا رفع الدرجة .
- ٧ - تحليل الإشكالات المثارة حول الشفاعة ، وهي خمسة .
- ٨ - جواز طلب الشفاعة من الأولياء .

وفيهما يلي البحث في كل واحدة منها^(١) .

* * * *

الأمر الأول : آيات الشفاعة وتصنيفها

قد ورد ذكر الشفاعة في الكتاب الحكيم في سور مختلفة ، لمناسبات شتى . ولا يظهر المراد من المجموع إلا بعرض بعضها على بعض ، وتفسير الكل بالكل ، والآيات الواردة في الشفاعة تندرج تحت الأصناف التالية :

الصنف الأول : ما ينفي الشفاعة في بادئ الأمر .

يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾^(٢) .

وهذا الصنف من الآيات هو المستمسك لمن اعتقد بأن الشفاعة عقيدة إختلقها الكُفَّان^(٣) ، وسيوافيك أن المنفي قسم خاص منها لا جميع أقسامها بقرينة أن المنفي قسم من أواصر الخلّة لا جميعها ، بشهادة قوله سبحانه : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾^(٤) .

الصنف الثاني : ما يردّ الشفاعة المزعومة لليهود .

يقول سبحانه : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾^(٥) .

والآية خطاب لليهود ، وهي تهدف إلى نفي الشفاعة المزعومة عندهم ، حيث كانوا يقولون نحن أولاد الأنبياء وأولادنا يشفعون لنا ، فصار ذلك ذريعة

(١) التفصيل في هذه الأمور يوجنا إلى تأليف مفرد ، ولد اقتصرنا في البحث على ما يناسب وضع الكتاب .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٤ .

(٣) لاحظ دائرة معارف القرن الرابع عشر ، ص ٤٠٢ ، مادة شفع .

(٤) سورة الزخرف ٠ الآية ٦٧ .

(٥) سورة البقرة . الآية ٤٨ .

لارتكاب الموبقات ، وترك الفرائض ، فأيسهم الله من ذلك .

الصف الثالث : ما ينفي شمول الشفاعة للكفار .

يقول سبحانه - حاكياً عن الكفار - : ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ يَوْمَ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ (١) .

وهذا الصف ناظر إلى نفي وجود شفيع - يوم القيامة - للكفار الذين انقطعت علاقتهم بالله لكفرهم به وبرسله وكتبه كما انقطعت علاقتهم الروحية بالشفعاء الصالحين ، فلم يبق بينهم وبين الشفاعة أية صلة وعلاقة .

الصف الرابع : ما ينفي صلاحية الأصنام للشفاعة .

يقول سبحانه : ﴿ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٢) .

وهذا الصف يرمي إلى نفي صلاحية الأصنام للشفاعة ، وذلك لأن العرب الجاهليين كانوا يعبدون الأصنام لاعتقادهم بشفاعتهم عند الله .

الصف الخامس : ما يخص الشفاعة بالله سبحانه .

يقول سبحانه : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٣) .

وكون الشفاعة مختصة بالله لا ينافي ثبوتها لغيره بإذنه كما يعرب عنه آيات الصف السادس .

الصف السادس : ما يثبت الشفاعة لغيره بإذنه سبحانه .

يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ (٤) .

(١) سورة المدثر : الآيات ٤٦ - ٤٨ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٩٤ . ولاحظ يونس : ١٨ ، الروم : ١٣ ، الزمر : ٤٣ ، يس : ٢٣ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٥١ ، ولاحظ الأنعام : ٧ ، السجدة : ٤ ، الزمر : ٤٤ .

(٤) سورة طه : الآية ١٠٩ .

ويقول سبحانه : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾^(١) .

والجمع بين هذا الصنف وما سبقه واضح ، وقد قلنا إن مقتضى التوحيد في الخالقية أنه لا مؤثر في الكون إلا الله ، وأن تأثير سائر العلل إنما هو على وجه التبعية لإرادته سبحانه .

الصنف السابع : ما يسمي من تُقبل شفاعته .

ويتضمن هذا الصنف أسماء بعض من تُقبل شفاعتهم يوم القيامة .

يقول سبحانه : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ، لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾^(٢) . فصرح بأن الملائكة وحلة العرش تقبل شفاعتهم .

ويتحصل من جمع الآيات أن الشفاعة تنقسم إلى شفاعة مرفوضة ، كالشفاعة التي يعتقد بها اليهود ، وشفاعة الأصنام ، والشفاعة في حق الكفار ، وإلى مقبولة وهي شفاعة الله سبحانه ، وشفاعة من أذن له ، وشفاعة الملائكة وحلة العرش ، وبالإحاطة بالأصناف السبعة ، تقدر على تمييز المرفوضة عن المقبولة .

وليست آيات الشفاعة مختصة بالأصناف التي ذكرناها ، فإن هناك آيات تخرج عن إطارها مثل قوله سبحانه : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدُ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ، عسى رَبُّكَ أَنَّ يَتَعَثَلَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾ . وقد أطبق المفسرون على أن المراد من المقام المحمود ، هو مقام الشفاعة^(٣) .

* * *

(١) سورة البقرة . الآية ٢٥٥ ، ولاحظ يونس : ٣ ، مريم : ٨٧ ، ساء : ٢٣ ، الزخرف : ٨٦ .

(٢) سورة الأنبياء . الآيات ٢٦ - ٢٨ ولاحظ النجم : ٢٦ ، غافر : ٧ .

(٣) لاحظ مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ٤٣٥ .

الأمر الثاني : الشفاعة في السنة .

لقد اهتم الحديث النبوي ، وحديث العترة الطاهرة بأمر الشفاعة وحدودها وشرائطها وأسبابها وموانعها ، اهتماماً بالغاً لا يوجد له مثيل إلا في موضوعات خاصة تتمتع بالأهمية القصوى . وإذا لاحظ المتتبع ، الصحاح والمسانيد والجوامع الحديثية فإنه يقف على جمهرة كبيرة من الأحاديث الواردة في الشفاعة ، تدفع به إلى الأذعان بأنها من الأصول المسلّمة في الشريعة الإسلامية ، ونحن نذكر النذر اليسير منها .

١ - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لكل نبي دعوة مستجابة . فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي ، شَفَاعَةً لِّأُمَّتِي ، وَهِيَ نَائِلَةٌ مِنْ مَاتَ مِنْهُمْ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً »^(١) .

٢ - وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أُعْطِيَتْ خُمْسًا ، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ ، فَادْخَرْتُهَا لَأُمَّتِي ، فَهِيَ لِمَنْ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ »^(٢) .

٣ - وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إِنَّمَا شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي »^(٣) .

٤ - وقال علي عليه السلام : « ثَلَاثَةٌ يَشْفَعُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيُشَفَّعُونَ : الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ »^(٤) .

٥ - وقال الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام في كلام له : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ ، وَشَرِّفْ بَنِيَانَهُ ، وَعَظِّمْ بُرْهَانَهُ ، وَثَقِّلْ مِيزَانَهُ وَتَقَبَّلْ شَفَاعَتَهُ »^(٥) .

(١) صحيح مسلم ، ج ١ ، ص ١٣٠ . وصحيح البخاري ، ج ٨ ، ص ٣٣ ، وج ٩ ، ص ١٧٠ . وغير ذلك من المصادر .

(٢) صحيح البخاري ، ج ١ ، ص ٤٢ ، وص ١١٩ . ومسنّد أحمد ، ج ١ ، ص ٣٠١ .

(٣) « من لا يحضره الفقيه » للصدوق ، ج ٣ ، ص ٣٧٦ .

(٤) « الخصال » ، للصدوق ، ص ١٤٢ .

(٥) الصحيفة السجادية ، الدعاء الثاني والأربعون . ومن أراد التبسط فعليه الرجوع إلى المصادر التالية :

الأمـر الثالث : حقيقة الشفاعة وأقسامها

للشفاعة أصل واحد يدل على مقارنة الشيئين ، من ذلك الشفع ، خلاف الوتر ، تقول كان فرداً فشَفَعْتَهُ^(١) .

فإذا كان مقوم الشفاعة ، انضمام شيء إلى شيء في مقام التأثير ، فهي تنقسم إلى الأقسام التالية :

شفاعة تكوينية ، شفاعة قيادية ، وشفاعة مصطلحة بين الناس .

١ - الشفاعة التكوينية

قد عرفت في مباحث التوحيد أنَّ المظاهر الكونية ، بحكم أنَّها ممكنة الوجود ، غير مستقلة في ذاتها ، ولكنها مع ذلك قائمة على أساس علل ومعاليل سائدة فيها .

وعلى ضوء ذلك فتأثير كل ظاهرة كونية في أثرها ، ومعلولها ، بإذنه سبحانه ، ولا يتحقق إلّا مقترناً به ، ولأجل ذلك سُمي سبحانه السبب الكوني ، شافعاً ، لأنَّ تأثيره مشروط بأن يكون إذنه سبحانه منضجاً إليه ، فيؤثران معاً . يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾^(٢) والمراد من الشافع هو الأسباب والعلل المادية الواقعة في طريق وجود الأشياء وتحققها . وإنما سميت العلة شافعاً ، لأجل أنَّ تأثيرها يتوقف على إذنه سبحانه ، فهي مشفوعة إلى إذنه ، حتى تؤثر وتعطي ما تعطي .

كنز العمال ، ح ٤ ، ص ٦٣٨ - ٦٤٠ . التاج الجامع للأصول ، ج ٥ ، ص ٣٤٨ - ٣٦٠ . بحار الأنوار ، ح ٨ ، ص ٢٩ - ٦٣ ، وقد أورد أحاديث الشفاعة في غير هذا الجزء أيضاً . وقد جمع الأستاذ دام ظله القسط الأوفر من أحاديث الشفاعة في موسوعته القرآنية : « مفاهيم القرآن »

ج ٤ ، ص ٢٨٧ - ٣١١ .

(١) المفايس ، ج ٣ ، ص ٢٠١

(٢) سورة يونس : الآية ٣ .

فالآية خارجة عن الشفاعة المصطلحة بين علماء الكلام ، والقرائن الموجودة في نفس الآية تصدُّنا عن حملها إلا على هذا القسم من الشفاعة ، وقد عرفت أنَّ الشفاعة خلاف الوتر ، وأنَّه يصح في صدقها ، إنضمام شيء إلى شيء .

٢ - الشفاعة القيادية

والمراد من هذا الصنف هو قيام الأنبياء والأولياء والأئمة والعلماء ، والكتب السماوية مقام الشفيع ، والشفاعة للبشر لتخليصهم من عواقب أعمالهم وسيئات أفعالهم .

والفرق بين هذه الشفاعة والشفاعة المصطلحة أنَّ الثانية توجب رفع العذاب عن العبد بعد استحقاقه له ، وهذه توجب أن لا يقع العبد في عداد العصاة ، حتى يستحق العقاب . فالأولى من قبيل الرفع ، والثانية من قبيل الدفع . وعلى ذلك فقيادة الأنبياء والأئمة ، تقوم مقام الشفيع والشفاعة في تجنب العبد من الوقوع في المعاصي والمهالك .

فالشفاعة بهذا المعنى ، مثلها مثل الوقاية في الطبابة ، كما أنَّ الشفاعة المصطلحة مثلها مثل المداواة بعد إصابة المرض .

وليس إطلاق الشناعة بهذا المعنى إطلاقاً مجازياً ، كيف وقد شهد بذلك القرآن والأخبار .

قال سبحانه : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾^(١) .

والضمير المجرور في ﴿ بِهِ ﴾ يرجع إلى القرآن ، ومن المعلوم أنَّ ظرف شفاعة القرآن ، هو الحياة الدنيوية . فإن هدايته تتحقق فيها ، وإن كانت نتائجها تظهر في الحياة الآخروية ، فمن عمل بالقرآن قاده إلى الجنة .

(١) سورة الأنعام : الآية ٥١ .

يقول صلى الله عليه وآله : « إذا التبت عليكم الفتنُ كَقَطْعِ الليل المظلم ، فعليكم بالقرآن ، فإنه شافعٌ مُشَفَّعٌ »^(١) .

فالشفاعة هنا بنفس معناها اللغوي ، وذلك أن المكلف يضم هداية القرآن وتوجيهات الأنبياء والأئمة ، إلى إرادته وسعيه ، فيفوز بالسعادة الآخروية .

• وهذا غير الشفاعة المصطلحة فإنَّ ظرفها هو الحياة الآخروية ، فبين الشفاعتين بون بعيد .

٣ - الشفاعة المصطلحة

حقيقة هذه الشفاعة لا تعني إلا أن تصل رحمته سبحانه ومغفرته وفيضه إلى عباده عن طريق أوليائه وصفوة عباده ، وليس هذا بأمر غريب فكما أن الهداية الإلهية التي هي من فيوضه سبحانه ، تصل إلى عباده في هذه الدنيا عن طريق أنبيائه وكتبه ، فهكذا تصل مغفرته سبحانه إلى المذنبين والعصاة من عباده ، يوم القيامة ، عن ذلك الطريق ولا بُعد في أن يصل غفرانه سبحانه إلى عباده يوم القيامة ، عن طريق عباده ، فإنه سبحانه قد جعل دعاءهم في الحياة الدنيوية سبباً لذلك وقال :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾^(٢) .

وتتضح هذه الحقيقة إذا وقفنا على أن الدعاء بقول مطلق ، وبخاصة دعاء الصالحين ، من المؤثرات الواقعة في سلسلة نظام العلة والمعلول ، ولا تنحصر العلة في المحسوس منها ، فإنَّ في الكون مؤثرات خارجة عن إحساسنا وحواسنا ، بل قد تكون بعيدة عن تفكيرنا ، وإليه يشير قوله سبحانه : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾^(٣) .

(١) الكافي ، ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٢) سورة النساء : الآية ٤٦ ، ولاحظ يوسف : الآية ٩٧ و٩٨ ، التوبة : الآية ١٠٣ .

(٣) سورة النازعات : الآية ٥ .

وبالإمعان فيما ذكرنا من وقوع الدعاء في سلسلة العلل ، تقدر على إرجاع الشفاعة المصطلحة إلى قسم من الشفاعة التكوينية بمعنى تأثير دعاء النبي في جلب المغفرة .

* * *

الأمـر الرابع - مبررات الشفاعة

ربما يقال : إذا كان المنقذ الوحيد للإنسان يوم القيامة ، هو عمله الصالح ، كما هو صريح قوله سبحانه : ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جِزَاءٌ الْحُسْنَى ﴾^(١) ، فلماذا جعلت الشفاعة وسيلة للمغفرة ؟ .

والجواب عن ذلك : إنّ لتشريع الشفاعة مبررات عدة ، نذكر منها اثنتين :

الأول - الحاجة إلى رحمة الله الواسعة حتى مع العمل

إنّ الفوز بالسعادة وإن كان يعتمد على العمل أشد الإعتداد ، غير أنّ صريح الآيات هو أنّ العمل ما لم تنضم إليه رحمة الله الواسعة ، غير كاف في إنقاذ الإنسان من تبعات تقصيره .

قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾^(٢) .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾^(٣) .

(١) سورة الكهف : الآية ٨٨ .

(٢) سورة النحل : الآية ٦١ .

(٣) سورة فاطر : الآية ٤٥ .

الثاني - الآثار التربوية للشفاعة

بالرغم مما اعترض على الشفاعة من كونها توجب الجرأة ، وتحجي روح التمرد في العصاة والمجرمين ، فإنَّ الشفاعة تتسبب في إصلاح سلوك المجرم وإنابته والتخلي عن التمادي في الطغيان . وتظهر حقيقة الحال إذا لاحظنا مسألة التوبة التي اتفقت الأمة على صحتها ، فإنه لو كان باب التوبة موصداً في وجه العصاة والمذنبين ، واعتقد المجرم بأنَّ عصيانه مرة واحدة يخلّده في عذاب الله ، فلا شكَّ أنَّه يتهاذى في اقتراف السيئات باعتقاد أنَّ تغييره للوضع الذي هو عليه لن يكون مفيداً في إنقاذه من عذاب الله ، فلا وجه لأنَّ يترك لذات المعاصي . وهذا بخلاف ما إذا وجد الجومشرفاً ، والطريق مفتوحاً ، وأيقن أنَّ رجوعه يغير مصيره في الآخرة ، فيترك العصيان ويرجع إلى الطاعة .

ومثل التوبة الإعتقاد بالشفاعة المحدودة (أي مع شروط خاصة في المشفوع له) فإذا اعتقد العاصي بأنَّ أولياء الله قد يشفعون في حقه إذا لم يهتك السر ، ولم يبلغ إلى الحد الذي لا تكون فيه الشفاعة نافعة ، فعند ذلك ، ربما يعيد النظر في مسيره ، ويحاول تطبيق حياته على شرائط الشفاعة ، حتى لا يُجرّمها .

نعم ، الإعتقاد بالشفاعة المطلقة المحررة من كل قيد ، مرفوض في منطق العقل والقرآن . والمراد من المطلقة هو أنَّ الأنبياء يشفعون للإنسان يوم القيامة ، وإنَّ فَعَلَ ما فَعَلَ ، إذ عند ذلك يستمر ويتهاذى في أعماله الإجرامية . وأما الشفاعة المحدودة بشرائط في المشفوع له والشافع ، فلا توجب ذلك .

ومحمل هذه الشروط أنَّ لا يقطع الإنسان جميع علاقاته العبودية مع الله ، وشائجه الروحية مع الشافعين ، ولا يصل تمردّه إلى حدّ نصف جسور الإرتباط .

* * *

الأمر الخامس - شرائط شمول الشفاعة

قد تعرفت على أنَّ الشفاعة المشروعة ، هي الشفاعة المحدودة بحدود ،

وليس أمر الشفاعة فوضى بلا قيد وشرط ، ونحن نذكر بعض شرائطها كما وردت في الروايات .

١ - عدم الشرك بالله شيئاً

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « شفاعتي نائلة إن شاء الله من مات ولا يشرك بالله شيئاً »^(١) .

٢ - شهادة الشهادتين بإخلاص

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله ، مخلصاً ، يصدق قلبه لسانه ، ولسانه قلبه »^(٢) .

٣ - عدم الغش

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي »^(٣) .

٤ - عدم نصب العدا لأهل البيت عليهم السلام

قال الإمام الصادق عليه السلام : « إن المؤمن ليشفع لحميمه ، إلا أن يكون ناصباً ، ولو أن ناصباً شفع له كل نبي مرسل وملك مقرب ما شفّعوا »^(٤) .

(١) مسند أحمد : ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

(٢) مسند أحمد ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ ، و ٥١٨ ، ولاحظ صحيح البخاري ، ج ١ ، ص ٣٦

(٣) مسند أحمد ، ج ١ ، ص ٧٢ ، المراد من العرب المسلمون ، لأن المسلمين يوم ذاك كانوا منحصرين في العرب .

(٤) ثواب الأعمال ، للصدوق ، ص ٢٥١ .

٥ - عدم الإستخفاف بالصلاة

قال الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام : « لما حُضِرَ أبي (الإمام الصادق) قال لي : يا بُنَيَّ ، إنه لا ينال شفاعتنا من استخف بالصلاة »^(١) .

٦ - عدم التكذيب بشفاعة رسول الله

قال علي بن موسى الرضا عليه السلام : « قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : من كَذَّبَ بشفاعة رسول الله لم تنله »^(٢) .

وغير ذلك من الشرائط التي يجدها المتبع في أحاديث الشفاعة من الفريقين .

الأمر السادس - ما هو أثر الشفاعة : إسقاط العقاب أو زيادة الثواب ؟

لم تكن مسألة الشفاعة فكرة جديدة إبتكرها الإسلام وانفرد بها ، بل كانت فكرة رائجة بين أمم العالم من قبل ، وخاصة بين الوثنيين واليهود .

نعم ، هَذَّبَها الإسلام من الخرافات ، وقررها على أصول توافق أصول العدل والعقل ، وصَحَّحَها تحت شرائط في الشافع والمشفوع له ، تجر العُصاة إلى الطهارة من الذنوب ، ولا توجب فيهم جرأة وجسارة . وغير خفي على من وقف على آراء اليهود والوثنيين في أمر الشفاعة ، وأنَّ الشفاعة بينهم كانت رجاء في حط الذنوب وغفران الآثام ، ولأجل ذلك كانوا يقترفون الكبائر ، تعويلاً على ذلك الرجاء . وجاء القرآن يرد تلك العقيدة الباعثة إلى الجرأة ، فقال إنه لا يشفع إنسان إلا بإذنه تعالى وفي حق من ارتضاه سبحانه ، فليس لكم أن تقتربوا الذنوب تعويلاً على شفاعة الشفيع ، لأن الأمر ليس في أيديهم بل في ملكه سبحانه وقدرته .

(١) الكافي ، ج ٣ ، ص ٢٧٠ . وج ٦ ، ص ٤٠١ . والتهذيب ، للطوسي ، ج ٩ ، ص ١٠٧ .

(٢) عيون أخبار الرضا ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

وعلى ضوء هذا ، إن الشفاعة عند الأمم ، مرفوضها ، ومقبولها ، يراد منها حط الذنوب ، ورفع العقاب ، وهي كذلك في الإسلام ، بلا فرق ، كما يوضحه قوله صلى الله عليه وآله : « إِدْخَرْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي »^(١) .

وفي المقابل ذهبت المعتزلة إلى تخصيص آيات الشفاعة بأهل الطاعة ، دون العصاة ، وأن أثرها ينحصر في رفع الدرجة وزيادة الثواب . وما هذا التأويل في آيات الشفاعة إلا لأجل موقف مسبق لهم في مرتكب الكبيرة ، حيث حكموا بخلوده في النار إذا مات بلا توبة ، فلما رأوا أن القول بالشفاعة التي أثرها هو إسقاط العقاب ، ينافي ذلك المبني ، أولوا آيات الله ، فقالوا إنَّ أثر الشفاعة إنما هو زيادة الثواب ، ورفع الدرجة . وهذا المقام أحد المقامات التي يؤخذ المعتزلة فيها بالعقاب ، حيث قدّموا النهج على النقل الصريح ، وخالفوا في ذلك جميع المسلمين .

قال القاضي عبد الجبار ، منكرأ شمول الشفاعة للعصاة : « إِنَّ شَفَاعَةَ الْفَاسِقِ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الْفُسُوقِ وَلَمْ يَتُوبُوا تَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الشَّفَاعَةِ لِمَنْ قُتِلَ وَلَدَ الْغَيْرِ وَتَرَصَّدَ لِلْآخِرِ حَتَّى يَقْتُلَهُ ، فَكَمَا أَنَّ ذَلِكَ يَقْبَحُ فَكَذَلِكَ هَا هُنَا »^(٢) .

وما ذكره القاضي ، غفلة منه عن شروط الشفاعة ، فإنَّ بعض الذنوب الكبيرة ، تقطع العلائق الإيمانية بالله سبحانه ، كما تقطع الأواصر الروحية مع النبي الأكرم ، فأمثال هؤلاء العصاة لا تشملهم الشفاعة ، وقد تقدم ذكر النصوص الدالة على حرمان طوائف منها .

والعجب أن القاضي إستدل على أنَّ الفاسق لا يخرج من النار بشفاعة النبي ، بقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾^(٤) .

(١) سنن أبي داود ، ج ٢ ، ص ٥٣٧ ، وصحيح الترمذي ، ج ٤ ، ص ٤٥ ، صحيح ابن ماجه ،

ج ٢ ، ص ١٤٤١ . مسند أحمد ، ج ٣ ، ص ٢١٣ .

(٢) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٨٨ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٤٨ .

(٤) سورة غافر : الآية ١٨ .

فيلاحظ عليه : أنَّ الآيتين راجعتان إلى الكفار ، فالآية الأولى ناظرة إلى نفي الشفاعة التي كان اليهود يتبنونها ، كما هو صريح سياقها ، والآية الثانية ناظرة إلى نفي الشفاعة التي كان المشركون يرجونها من معبوداتهم ، يقول سبحانه : ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿ اذْ نَسَوَیْكُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ وما أضلنا إلا المجرمون ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ ولا صديق حمیم ﴿ (١) .

وقال سبحانه : - حاكياً قول المجرمين في سقر - ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِیَوْمِ الدِّينِ ﴾ حتى أتانا اليقين ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ (٢) .

* * *

الأمر السابع - الإشكالات المثارة حول الشفاعة

هناك إشكالات مثارة حول الشفاعة ، ناشئة من قياس الشفاعة الواردة في الشريعة الإسلامية ، بالشفاعة الرائجة بين الناس ، ولوعرف المستشكلون الاختلاف الماهوي بين الشفاعتين ، لما اجترؤا على إلقاء هذه الشبهات .

* الإشكال الأول :

إن جميع المعاصي تشترك في هدم الحدود والجرأة على المولى ، فأی معنى لشمول الشفاعة لبعض ألوان الجرائم والمعاصي دون البعض الآخر ؟ .

والجواب :

إن للجُرم مراتب ، كما أنَّ المجرمين ، على درجات من النفسیات والروحیات ، فلا يستوي من أحرق مَنديل أحدٍ عُدواناً بمن أحرق مصنعاً كبيراً له . وَفَرَّقَ بين شاب ينظر إلى المرأة الأجنبية نظراً ممزوجاً بالسوء ، وآخر يعتدي

(١) سورة الشعراء : الآيات ٩٦-١٠١ .

(٢) سورة المدثر : الآيات ٤٦-٤٨ .

عليها بالعنف . فإذا اختلف الجرماني ، اختلف المجرمان من حيث النفسانيات والروحيات . وهناك مجرم قد حافظ على روابطة الإيمان مع الله ، وعلى علاقاته الروحية مع الشفيع ، بحيث لا يعد المجرم غريباً عن كلا المقامين ، ومجرم قد قطع كلتا العلاقتين ، وصار أجنبياً عنهما ، فتشريع الشفاعة في حق الأول دون الثاني ، لا يعدّ تفريقاً في القانون .

والذي يوضح ذلك أنّ الله سبحانه فرّق بين الذنوب ، فقال بأنّ الشرك لا يغفر ، إلّا مع التوبة ، وأما غيره فيغفر وإن لم تقع التوبة .

قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾^(١) .

وأنت إذا أحطت بما ورد حول الذنوب من العقوبات المختلفة وتقسيمها إلى كبائر وصغائر ، تقف على أنّ قبول الشفاعة ، في حق بعضٍ دون بعضٍ ، ليس ترجيحاً بلا مرجح .

❖ الإشكال الثاني :

إنّ تشريع الشفاعة يُجرّ إلى التهادي في العصيان ، واستمرار المجرم في عدوانه ، رجاء غفران ذنوبه بالشفاعة^(٢) .

والجواب ، أما نقضاً :

فبالوعد بالمغفرة ، مع التوبة ، بل حتى مع عدمها ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ ، فلو كانت الشفاعة موجبة للتهادي ، فليكن الوعد بالمغفرة مع التوبة بل مع عدمها في غير الشرك موجباً للتهادي ، أيضاً . فالجواب هنا ، هو الجواب هناك .

(١) سورة النساء : الآية ٤٨ .

(٢) دائرة المعارف ، لفريد وجدي ، ج ٥ ، ص ٤٠٢ .

وأما حلاً

فالإشكال ينبع من تصوّر خاطيء وهو اعتقاد كون الشفاعة مطلقة غير مشروطة بشيء ، فيكون للإنسان عند ذاك أن يفعل ما يريد تعويلاً عليها. ولكنك عرفت أن الشفاعة محدودة ، وتشمل بعض العباد ، وهم الذين لم تنقطع علاقاتهم بالله سبحانه وبأوليائه ، ومثل هذه الشفاعة لا تبعث على الجرأة ، بل تبعث عملاً في نفس العاصي ، وتدفعه إلى الإحتفاظ بعلاقته ولا ينسفها من رأس .

إن الشفاعة التي نطق لها القرآن ، ليست أمراً مطلقاً من كل قيد وشرط ، فإن الشفاعة مقيدة بإذنه سبحانه أولاً ، وكون المشفوع له مريضاً عند الله ثانياً ، وليس من الممكن أن يُدّعى المجرم بأنه ممن يشملته أذنه سبحانه ورضاه .

قال سبحانه : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ﴾ (٢) .

فليس في وسع أحد أن يدّعي أنه من العباد المرضيين ، ثم يعتمد على ادّعائه ويتهادى في العصيان .

وهناك وجه آخر لكون الشفاعة محدودة ، وهو إيهامها من حيث الجرم ، فلا يعلم أي جرم تشملته الشفاعة وأيه لا تشملته . كما أنها مبهمة من حيث وقت القيامة ، فللعصاة والطفاة مواقف مختلفة ، وهي مواقف رهيبية وخيفة تهز القلوب ، ولم يعين وقت الشفاعة .

وهذا الإيهامات الثلاثة ، تصد المجرم عن الإعتماد على الشفاعة ليتهادى في المعصية ، وغاية ما يمكن أن يقال في الشفاعة أنها بصيص من الرجاء ، ونافذة من الأمل فتحها القرآن في وجه العصاة حتى لا يأسوا من روح الله .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٢٨ .

* الإشكال الثالث :

إنّ الشفاعة لا تتحقق إلا بترك الإرادة وفسخها لطلب الشفيع رفع العقاب عن المشفوع له ، من غير فرق بين الحاكم العادل والحاكم الظالم ، غاية الأمر أنّ الحاكم العادل لا يقبل الشفاعة إلا إذا تغيّر علمه بما كان أرادته أو حكم به ، كأن أخطأ ثم عرف الصواب ، ورأى العدل في خلاف ما أرادته أو حكم به . وأما الحاكم الظالم ، فهو يقبل الشهادة لكن مع العلم بصواب الحكم الأول وكونه عدلاً ، لكنه يفضل مصلحة ارتباطه بالشافع المقرب عنده على العدالة ، وكلا النوعين محال على الله ، لأن إرادته تعالى على حسب علمه ، وعلمه أزلي لا يتغير^(١) .

والجواب :

إنّ المستشكل لو أمعن في حقيقة الشفاعة التي نطق بها القرآن والأحاديث لما جعل الشفاعة من هذا الباب . بل هي من واد آخر ، ومن باب تغيير الحكم لأجل تغيير الموضوع . فالخمر ما دام خمراً حرام ، فإذا تبدّل إلى الخل يكون حلالاً ، ولا يُعدّ الحكم الثاني ناقضاً للحكم الأول .

ونظير ذلك العاصي والتائب ، فإن العصيان حالة نفسانية في الإنسان ، فله حكمه الخاص ، كما أنّ التوبة حاكية عن حالة نفسانية مغايرة للحالة الأولى ، فلها حكمها الخاص ، والاختلاف في الحكمين لأجل الاختلاف في الموضوعين ، ولا يعد ذلك تبدلاً في العلم ، بل تبدلاً في المعلوم .

وعلى هذا الأساس ، فالعاصي - مجرداً عن انضمام الشفاعة إليه - محكوم بالعقاب ، ولكنه - منضمّةً إليه الشفاعة - محكوم بحكم آخر من أول الأمر ، واختلاف الحكمين ، لأجل اختلاف الموضوعين في الإطلاق والتقييد .

وإن شئت قلت : إنّ العاصي مجرداً عما ير عليه في البرزخ من العذاب ،

(١) المنار ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ، وقد تبني مؤلفه هذا الإشكال وما يليه ١١ .

وما يستتبع ذلك العذاب من الصفاء في روحه ، ومجرداً عن دعاء الشفيع في حقه ، محكوم بالعقاب . ولكنه - منضماً إلى الضمائم الثلاث - محكوم بالمغفرة .

وعلى ضوء هذا ، يتبين أن الشفاعة لا توجب اختلافاً في علمه وتغييراً في إرادته ، كما لا توجب أن يكون أحد الحكمين مطابقاً للعدل والآخر مطابقاً للجور ، بل الحكمان صدرا من الأزل ، على موضوعين مختلفين ، من مصدر العدل ، تبارك وتعالى .

* الإشكال الرابع :

ليس في القرآن نص قطعي على وقوع الشفاعة وإنما ورد الحديث بإثباتها^(١) .

ولعل نظر المستشكل إلى أن الشفاعة مقيدة بإذنه سبحانه وارتضاءه ، ولا دليل على أنه يأذن ويرتضي ، فهو ممكن لا دليل على وقوعه .

والجواب :

إن البحث عن الإمكان والإمتناع يناسب المسائل الفلسفية والكلامية البحتة ، وأما المسائل التربوية ، كالشفاعة ، فالوعدها ، مقيداً بالإذن ، والإرتضاء ، لا يهدف إلا إلى وقوعها في ذلك الإطار ، لا إمكانها فيه ، وذلك مثل قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾^(٢) وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾^(٣) .

على أن هناك قرائن تدل على وقوع الإستثناء وتحققه ، منها :

١ - أنه سبحانه عبّر عن رضاه ، بالجملة الماضية ، وقال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ

(١) المنار ، ج ٧ ، ص ٣٧٠ .

(٢) سورة يونس : الآية ١٠٠ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٤٥ .

إِلَّا لَنْ ارْتَضَى ﴿١﴾ ، وهو يدل على تحقق الرضا منه سبحانه في حقّ المشفوع له ، ورضاه له لا ينفك عن تحقق إذنه للشفعاء .

٢ - وأنه سبحانه أخبر بخير قطعيّ عن شهادة من شهد بالحق ، قال : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وهذا يكشف عن تحقق المراتب المتقدمة عليه ، من إذنه سبحانه له وارتضائه لمن يستحقها .

وغير ذلك من القرائن التي يستكشف منها كون الشفاعة وعداً مقطوعاً وقوعه .

* الإشكال الخامس :

الذي ورد في إثبات الشفاعة ، من الآيات المتشابهات ، وفيه يقضى بمذهب السلف ، بالتفويض والتسليم ، ولا نحيط بحقيقتها ، مع تنزيه الله تعالى جل جلاله عن المعنى المعروف للشفاعة في لسان التخاطب العرفي (٢) .

والجواب :

قد تعرفت على أصناف الآيات الواردة في الشفاعة ، وليس فيها آية مبهمة مستعصية على الفهم . وعلى فرض وجودها ، يرفع إبهامها بآية أختها ، أو بالأحاديث الواردة حولها .

على أنّ ما ذكره المستشكل من أنّ مذهب السلف في المتشابهات هو التفويض والتسليم ، مردود من رأس فإنّ القرآن كتاب الهداية والتربية ، نزل للفهم

(١) سورة الزخرف : الآية ٨٦ .

(٢) المنار ، ج ١ ، ص ٣٠٧-٣٠٨ .

والعبرة ، فلا معنى لقراءة الآيات وتفويض مفاهيمها التصديقية إلى الله ، بل يجب رفع إبهام التشابهات عن طريق المحكمات .

نعم ، هناك مفاهيم تصويرية مبهمة ، كحقيقة ذاته تعالى ، وصفاته ، وحقيقة الميزان والحساب واللجنة والنار ، ولكنها مفاهيم تصويرية خارجة عن موضوع البحث .

* * *

هذه جملة من الإشكالات ، وبالإحاطة بها وبأجوبتها ، تقدر على دفع ما لم نوردته مما ذكره^(١) .

وفي الختام ، نشير إلى أن مسألة الشفاعة مسألة إجماعية ، اتفق عليها الفريقان ، فلا تجد في كتاب كلامي إلا التصديق بها .

قال القاضي عياض : « مذهب أهل السنة هو جواز الشفاعة عقلاً ، ووجوبها سمعاً بصريح الآيات ، وبخبر الصادق ، وقد جاءت الآثار التي بلغت مجموعها التواتر ، بصحة الشفاعة في الآخرة للمذنبين المؤمنين ، وأجمع السلف الصالح ومن بعدهم من أهل السنة ، عليها »^(٢) .

وقال الإمام أبو حفص النسفي : « والشفاعة ثابتة للرسل والأخيار في حق أهل الكبائر ، بالمستفيض من الأخبار »^(٣) .

* * *

(١) راجع في الوقوف على سائر الإشكالات وأجوبتها ، مفاهيم القرآن ، ج ٤ ، ص ٢٤٦-٢٥٦ .

(٢) بحار الأنوار ، ج ٨ ، ص ٦٢ .

(٣) شرح العقائد النسفية ، ص ١٤٨ . ولاحظ أنوار التنزيل للبيضاوي ، ج ١ ، ص ١٥٢ . ومفاتيح الغيب ، للرازي ، ج ٣ ، ص ٥٦ . ومجموعة الرسائل الكبرى ، لابن تيمية ، ج ١ ، ص ٤٠٣ . وتفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٣٠٩ . وغير ذلك من المصادر .

الأمر الثامن : هل يجوز طلب الشفاعة ؟

قد تعرفت على أنّ أصل الشفاعة أمر مفروغ عنه ، وأنّ المخلصين من عباده يشفعون يوم القيامة بعد إذنه وارتضاءه ، لكن يقع الكلام في جواز طلب الشفاعة من الأولياء في هذه النشأة .

فذهب ابن تيمية وتبعه محمد بن عبد الوهاب - مخالفين الأمة الإسلامية جمعاء - إلى أنّه لا يجوز طلب الشفاعة من الأولياء في هذه النشأة ولا يجوز للمؤمن إلّا أن يقول : اللهم شفّع نبينا محمداً فينا يوم القيامة ، ولا يجوز أن يقول : يا رسول الله ، إشفع لي يوم القيامة .

واستدلّا على ذلك بوجوه ، لا بأس بذكرها والإجابة عنها على وجه الإجمال .

الوجه الأول : إنّ من أقسام الشرك ، أي الشرك بالعبادة ، والقائل بهذا الكلام ، يعبد الولي^(١) .

والجواب ، أما نقضاً

فبأنّه لو كان طلب الشفاعة في هذه النشأة من الأنبياء والأولياء شركاً ، لوجب أن لا يكون هناك فرق بين حياتهم ومماتهم ، مع أنّ القرآن يدعو المؤمنين إلى أن يلجأوا إلى حضرة الرسول في حال حياته ويطلبوا منه أن يستغفر لهم ، يقول سبحانه : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾^(٢) . وليس طلب الاستغفار من النبي إلّا طلباً للشفاعة ، إذ ليس معنى قولنا : يا رسول الله إشفع لنا عند الله ، إلّا أدع لنا عند ربك بالخير والمغفرة .

(١) الهدية السنية ، ص ٤٢ .

(٢) سورة النساء : الآية ٦٤ .

وأما حلاً :

فقد عرفت أنّ طلب شيء من أي شخص كان ، إنما يعد عبادة ، إذا اعتقد أنّه إله أو ربّ ، أو أنّه مفوض إليه فعل الخالق وتدبيره وشؤونه . وأما طلب من الشخص بما أنّه عبد صالح محبوب عند الله ، فلا يعدّ عبادة للمدعو سواء أكان نافعاً أو لا . وقد أوضحنا معنى العبادة عند البحث عن التوحيد في العبادة^(١) .

الوجه الثاني :

إنّ طلب الشفاعة من النبي يشبه عمل عبدة الأصنام في طلبهم الشفاعة من آلهتهم الكاذبة ، وقد حكى القرآن ذاك العمل منهم ، وقال : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾^(٢) . ويقول سبحانه : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾^(٣) . وعلى ذلك فالإستشفاع من غيره سبحانه ، عبادة لهذا الغير^(٤) .

والجواب :

إنّ المعيار في القضاء ليس هو التشابه الصوري ، بل المعيار هو البواطن والعزائم ولو صحّ ما ذكره لوجب أن يكون السعي بين الصفا والمروة ، والطواف حول البيت ، شركاً ، لقيام المشركين به في الجاهلية ، وقد عرفت أنّهم كانوا يطلبون الشفاعة من الأوثان باعتقاد أنّها آلهة أو أشياء فوّض إليها أفعال الله سبحانه من المغفرة والشفاعة .

وأين هذا من طلب الشفاعة من الأنبياء والأولياء بما أنّهم عباد الله

(١) لاحظ الجزء الأول من الكتاب ، ص ٤٢٩-٤٤٧ .

(٢) سورة يونس : الآية ١٥ .

(٣) سورة يونس : الآية ١٨ .

(٤) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ، ص ٦ .

الصالحون . فَعَطَفُ هذا على ذلك ، جَوْرٌ في القضاء ، وعناد في الإستدلال .

وأما الإستدلال بالآية الثانية ، فهو ضعيف من وجهين :

الأول : إِنَّ الآية على خلاف ما يدّعيه أدلّ ، لأنّ عطف ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ ، على قوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ ، دليل على أنّ العمل الثاني ليس عبادة ، أخذاً بحكم العطف الدال على المغايرة . وبعبارة أخرى : إنّ المشركين كانوا يقومون بعملين ، العبادة أولاً ، وقولهم هم شفعاؤنا ، وطلب الشفاعة منهم ثانياً ، وعلة اتّصافهم بالشرك هو الأوّل لا الثاني .

الثاني : لو فرضنا أنّ الجملة الثانية ، جملة تفسيرية للأولى ، فنقول : إنّ توصيف طلب الشفاعة من الأوثان بالعبادة لا يستلزم توصيف طلب الشفاعة من الأولياء بها أيضاً ، لما عرفت من الاختلاف في العقيدة ، وأنّ الشافعين كانوا عند عبدة الأصنام آلهة ، وعند المؤمنين عباداً صالحين ، وأين هذا من ذاك ؟ ١٩ .

الوجه الثالث :

إن طلب الحاجة من غيره سبحانه حرام ، فإن ذلك دعاء لغير الله ، وهو حرام .

قال سبحانه : ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (١) .

وبدل على أنّ الدعاء في الآية عبادة ، قوله سبحانه : ﴿ أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٢) . فقد عبّر عن العبادة في الآية بلفظ « الدعوة » في صدرها ، ولفظ العبادة في ذيلها ، وهذا يكشف عن وحدة التعبيرين في المعنى . وقد ورد عنه صلى الله عليه وآله : « الدعاء مخ العبادة » .

(١) سورة الجن : الآية ١٨ .

(٢) سورة فاطر : الآية ٦٠ .

والجواب

إنّ القول بأنّ دعاء الغير في جميع الظروف مساوق للعبادة ، شيء لا أساس له ، وإلا يلزم أنّ لا يُسجّل إسم أحد في سجل الموحدين ، فإنّ الناس لا ينفكون عن التعاون ، واستعانة بعضهم ببعض ، ودعوة الواحد منهم الآخر . وعلى ذلك فيجب أن يقال إنّ قسماً - فحسب - من الدعاء مساوق للعبادة ، وهو دعاء الشخص بما أنّه إله ، وبما أنّه رب ، أو بما أنّه مفوض إليه أفعاله سبحانه . فدعاؤه بهذه الخصوصيات ، مساوق لعبادته .

والآية ناظرة إلى هذ القسم من الدعاء بقرينة قوله ﴿ مَعَ اللَّهِ ﴾ ، معرباً عن أنّ الداعي يرى المدعو مشاركاً لله سبحانه في مقام أو مقامات ، ومن المعلوم أنّ الدعاء بهذه الخصوصية شرك بلا إشكال ، والمشركون في الجاهلية ، كانوا يسوون بين الأوثان ورب العالمين ، ويدل عليه قوله سبحانه - حاكياً قولهم يوم القيامة - : ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

فأي كلمة أظهر من التعبير عن عقيدة المشركين في حق الأوثان بأنها كانت عندهم ورب العالمين ، سواسية .

فقياس دعوة الصالحين من الأنبياء والأولياء ، بدعوة الأصنام والأوثان ، قياس مع الفارق البالغ ، لا يعتمد عليه إلا من سبق له الرأي في هذا المجال ، ويريد التمسك بالطحلب والحشيش .

الوجه الرابع :

إنّ الشفاعة حق مختص بالله لا يملكه غيره ، وعلى ذلك فطلبها من غير مالئها أمر غير صحيح ، قال سبحانه : ﴿ أَمْ أَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ، قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ قُلْ لِلَّهِ الشُّفَاعَةُ جَمِيعاً . . . (٢) .

(١) سورة الشعراء : الآيتان ٩٧ و ٩٨ .

(٢) سورة الزمر : الآيتان ٤٣ و ٤٤ .

والجواب : إنَّ المراد من قوله سبحانه : ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ ، ليس أنَّه هو الشفيع دون غيره ، إذ من الواضح أنَّه سبحانه لا يشفع لأحد عند الغير ، بل المراد أنَّه المالك لمقام الشفاعة دون غيره ، فليس في الوجود من يملك المغفرة والشفاعة وغيرهما مما هو من شؤونه سبحانه ، غيره .

ولكن هذا لا ينافي أنَّ يملكها الغير بتتمليك منه سبحانه ، وفي طول ملكه ، كما هو صريح قوله سبحانه : ﴿وَمَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١) ، فإنَّ الإستثناء في قوله : ﴿إِلَّا﴾ يرجع إلى قوله : ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ . فتكون النتيجة أنَّه يملك من شهد بالحق ، الشفاعة ، لكن بتتمليك منه سبحانه : فهو المالك بالأصالة ، وغيره مالك بالتتمليك والعرض .

وليس هذا مختصاً بالشفاعة المصطلحة بل الشفاعة التكوينية أيضاً كذلك ، لأنَّ الأثر الطبيعي لجميع الأسباب التكوينية ، يرجع إليها لكن بتسبب منه سبحانه ، فلولا أنَّه جعل النار حارة ، والشمس مضيئة ، والقمر نوراً ، لا تجد فيها تلك الآثار .

الوجه الخامس :

إنَّ طلب الشفاعة من الميت أمر باطل .

والجواب : إنَّ هذا آخر سهم في كنانة القائلين بحرمة طلب الشفاعة من أولياء الله الصالحين ، والإشكال ناجم من عدم التعرف على مقام الأولياء في كتاب الله الحكيم . وقد عرفت أنَّ القرآن يصرِّح بحياة جموع كثيرة من الشهداء وغيرهم ، كما عرفت أنَّه يصرح بكون النبي شهيداً على الأمة في قوله سبحانه : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾^(٢) . فهل تعقل الشهادة بدون الحياة ، والإطلاع على ما يجري بينهم من الأمور ، من كفر وإيمان وطاعة وعصيان؟ . فلو كان النبي ميّتاً كسائر الأموات ، فما معنى التسليم

(١) سورة الزخرف : الآية ٨٦ .

(٢) سورة النساء : الآية ٤١ .

عليه في كل صباح ومساء ، وفي تشهد كل صلاة : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » ؟ وما معنى خطابه بـ « عليك » ؟ . وحمل ذلك على الشعار الخالي والتحية الجوفاء ، تأويل بلا دليل .

وأما قوله سبحانه في حق الموتى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتِ وَلَا يُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ ^(١) فهو لا يدلّ إلا على أنّ الأموات المدفونين في القبور ، لا يسمعون ولا يفهمون ، وأنهم كالجساد ، ولذلك شبه المشركين بهم في عدم التعقل ، وهو أمر غير منازع فيه ، فإنّ الأبدان بعد الموت ، جمادات محضة ، من غير فرق بين جسد النبي وغيره .

غير أنّ المؤمنين لا يطلبون الشفاعة من أجساد الصالحين وأبدانهم ، بل يطلبونها من أرواحهم المقدسة الحية عند الله سبحانه ، بأبدان برزخية .

فالزائر القائل : « يا مُحَمَّدُ إشفع لي عند الله » ، لا يشير إلى جسده ، بل إلى روحه الزكية ، غير أنّ الوقوف عند قبره الشريف يدفع له استعداداً لأن يتصل بروحه ويخاطبها .

إلى هنا تم عرض الإشكالات الضئيلة التي أُستدل بها على تحريم طلب الشفاعة من الأولياء ، والإجابة عليها بما لا يدع مجالاً بعدها للشك في الجواز .

* * *

(١) سورة النمل : الآية ٨٠ .

مباحث المعاد

(١٦)

الإحباط والتكفير

الإحباط في اللغة ، بمعنى الإبطال ، يقال : أَحْبَطَ عَمَلَ الكافر ، أي أبطله^(١) .

والكفر بمعنى الستر والتغطية ، يقال لمن غطى درعه بثوب : قد كَفَّرَ درعه ، والمكفِّر ، الرجل المتغطّي بسلاحه ، ويقال للزارع كافر ، لأنه يغطي الحبّ بتراب الأرض . قال الله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾^(٢) . والكفر ضد الإيمان ، سمي بذلك لأنه تغطية الحق^(٣) .

والمراد من الحبط هو سقوط ثواب العمل الصالح بالمعصية المتأخرة ، كما أنّ المراد من التكفير هو سقوط الذنوب المتقدمة ، بالطاعة المتأخرة .

وبعبارة أخرى : إنّ الإحباط في عرف المتكلمين عبارة عن إبطال الحسنة بعدم ترتب ما يُتوقع منها عليها ، ويقال التكفير وهو إسقاط السيئة بعدم جريان مقتضاها عليها ، فهو في المعصية نقيض الإحباط في الطاعة . ولنقدّم الكلام في الإحباط أولاً .

(١) المقاييس ، ج ٢ ، مادة حبط ، ص ١٢٩ .

(٢) سورة الحديد ٠ الآية ٢٠ .

(٣) المقاييس ، ج ٥ ، مادة كفر ، ص ١٩١ .

أولاً : الإحباط

المعروف عن الإمامية ، والأشاعرة هو أنه لا تحابط بين المعاصي والطاعات والثواب والعقاب ، والمعروف عن جماعة من المعتزلة ، كالجبائين وغيرهما هو التحابط^(١) .

قال التفتازاني : « لا خلاف في أن مَنْ آمَنَ بعد الكفر والمعاصي فهو من أهل الجنة بمنزلة من لا معصية له ، ومن كفر بعد الإيمان والعمل الصالح ، فهو من أهل النار بمنزلة من لا حسنة له ، وإنما الكلام فيمن آمن وعمل صالحاً وآخر سيئاً ، واستمر على الطاعات والكبائر ، كما يشاهد من الناس ، فعندنا مآله إلى الجنة ولو بعد النار ، واستحقاقه للثواب والعقاب ، بمقتضى الوعد والوعيد ، من غير حبوط . والمشهور من مذهب المعتزلة أنه من أهل الخلود في النار إذا مات قبل التوبة ، فأشكّل عليهم الأمر في إيمانه وطاعته وما يثبت من استحقاقاته ، أين طارت ؟ وكيف زالت ؟ فقالوا بحبوط الطاعات ، ومالوا إلى أن السيئات يذهبن الحسنات »^(٢) .

أقول : اشتهر بين المتكلمين أن المعتزلة يقولون بالإحباط والتكفير ، وأما الأشاعرة والإمامية فهم يذهبون إلى خلافهم . غير أن هنا مشكلة ، وهي أن نفيهما على الإطلاق يخالف ما هو مُسلم عند المسلمين ، من أن الإيمان يكفر الكفر ، ويدخل المؤمن الجنة خالداً فيها ، وأن الكفر يحبط الإيمان ويخلد الكافر في النار . وهذا النوع من الإحباط والتكفير مما أصفقت عليه الأمة ، ومع ذلك كيف يمكن نفيهما في مذهب الأشاعرة والإمامية ؟ ولأجل ذلك ، يجب الدقة في فهم مرادهما من نفيهما على الإطلاق ، وسوف يتبين الحال في هذين المجالين ، وأن ما ينفونه منها لا ينافي ظواهر الآيات والأخبار .

(١) أوائل المقالات ، ص ٥٧ .

(٢) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ ، ويظهر من القاضي عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٢٤ ، أن القول بالإحباط والتكفير خيرة مشايخ المعتزلة ، وإنما خالف منهم القليل مثل عباد بن سليمان الصيمري

هذا ، وإن القائلين بالإحباط اختلفوا في كفيته ، فمنهم من قال بأن الإساءة الكثيرة تسقط الحسنات القليلة ، وتمحوها بالكلية ، من دون أن يكون لها تأثير في تقليل الإساءة ، وهو المحكي عن أبي علي الجبائي .

ومنهم من قال بأن الإحسان القليل يسقط بالإساءة الكثيرة ولكنه يؤثر في تقليل الإساءة ، فيُنْقِصُ الإحسان من الإساءة ، فيُجْزَى العبد بالمقدار الباقي بعد التنقيص ، وهو المنسوب إلى أبي هاشم .

وهناك قول آخر في الإحباط ، وهو عجيب جداً حكاه التفتازاني في شرح المقاصد ، وهو أن الإساءة المتأخرة تحبط جميع الطاعات وإن كانت الإساءة أقل منها ، قال : حتى ذهب الجمهور منهم إلى أن الكبيرة الواحدة تحبط ثواب جميع العبادات^(١) .

وعلى هذا ففي الإحباط أقوال ثلاثة :

- ١ - الإساءة الكثيرة تسقط الحسنة القليلة من دون تأثير في تقليل الإساءة .
- ٢ - الإساءة الكثيرة تسقط الحسنة القليلة ، مع تأثير الإحسان في تقليل الإساءة .
- ٣ - أن الإساءة المتأخرة عن الطاعات ، تبطل جميع الطاعات من دون ملاحظة القلة والكثرة .

إذا عرفت موضع النزاع في كلام القوم ، فلننقل أدلة الطرفين :

أدلة نفاة الإحباط

استدل النافون بوجهين : عقلي ونقلي .

أما الوجه العقلي ، فهو أن القول بالإحباط يستلزم الظلم ، لأن من أساء وأطاع وكانت إساءته أكثر ، يكون بمنزلة من لم يُحسن . وإن كان إحسانه أكثر ،

(١) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ .

يكون بمنزلة من لم يسيء . وإن تساويا يكون مساوياً لمن يصدر عنه أحدهما ، وهو نفس الظلم^(١) .

يلاحظ عليه : إن الإحباط إنما يعدّ ظلماً ، ويشملّه هذا الدليل ، إذا كان الأكثر من الإساءة مؤثراً في سقوط الأقل من الطاعة بالكلية ، من دون أن تؤثر الطاعة القليلة في تقليل الإساءة الكثيرة ، كما عليه أبو علي الجبائي . وأما على القول بالموازنة ، كما هو المحكي عن ابنه أبي هاشم ، فلا يلزم الظلم ، وصورته أن يأتي المكلف بطاعةٍ استحق عليها عشرة أجزاء من الثواب ، وبمعصية استحق عليها عشرين جزءاً من العقاب ، فلو قلنا بأنه يحسن من الله سبحانه أن يفعل به عشرين جزءاً من العقاب ، ولا يكون لما استحقه من الطاعة أيّ تأثير ، للزم منه الظلم . وأما إذا قلنا بأنه يقبح من الله تعالى ذلك ، ولا يحسن منه أن يفعل به من العقاب إلا عشرة أجزاء ، وأما العشرة الأخرى فإنها تسقط بالثواب الذي استحقه على ما أتى به من الطاعة ، فلا يلزم ذلك .

يقول القاضي عبد الجبار ، بعد نقل مذهب أبي هاشم : « وَلَعَمْرِي إنه القول اللائق بالله تعالى ، دون ما يقوله أبو علي ، والذي يدل على صحته هو أن المكلف أتى بالطاعات على الحد الذي أمر به ، وعلى الحد الذي لو أتى به منفرداً عن المعصية لكان يستحق عليها الثواب ، فيجب أن يستحق عليها الثواب ، وإن دُتسها بالمعصية ، إلا أنه لا يمكن والحالة هذه أن يوفر عليه ، على الحد الذي يستحقه ، لاستحالاته ، فلا مانع من أن يزول من العقاب بمقداره ، لأن دفع الضرر كالنفع في أنه مما يعد في المنافع » .

ثم قال : « فأمّا على مذهب أبي علي فيلزم أن لا يكون قد رأى صاحب الكبيرة ، شيئاً مما أتى به من الطاعات ، وقد نصّ الله تعالى على خلافه »^(٢) .

والأولى أن يُستدلّ على بطلان الإحباط بأنه يستلزم خلف الوعد إذا كان الوعد منجزاً ، كما هو في محل النزاع ، وأما إذا كان مشروطاً بعدم حقوق العصيان

(١) كشف المراد ، ص ٢٦٠ .

(٢) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٢٩ .

به ، فهو خارج عن محل البحث . هذا ، من غير فرق بين قول الوالد والولد ، والقول الثالث الذي هو في غاية الإفراط .

وأما الوجه النقلي ، فقوله سبحانه : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا ، يَرَهُ ﴾^(١) .

يلاحظ عليه : إنَّ الاستدلال بالآية إنما يتم على القولين الأول والثالث حيث لا يكون للإحسان القليل دور ، وأما على القول الثاني ، فالآية قابلة للإنطباق عليه ، لأنه إذا كان للإحسان القليل تأثير في تقليل الإساءة الكثيرة ، فهو نحو رؤية له ، لأن دفع المضرة كالنفع في أنه مما يُعَدُّ منفعة . وهذا كما إذا ربح إنسان في تجارة ، قليلاً ، وخسر في تجارة أخرى أكثر ، فأدَّى بعض ديونه من الربح القليل .

نعم ، الظاهر من الآية ، رؤية جزاء الخير ، وهو بالقول بعدم الإحباط ، ألصق وأطبق .

سؤال وجوابه

السؤال : لو كان القول بالإحباط مستلزماً للظلم ، أو كان مستلزماً لخلف الوعد ، فما هو المخلص فيما يدل على حبط العمل ، في غير مورد من الآيات التي ورد فيها أنَّ الكفر والإرتداد ، والشرك والإساءة إلى النبي وغيرها مما يحبط الحسنات^(٢) . ما هو الجواب عن هذه الآيات ؟ وما هو تفسيرها ؟ .

الجواب : إنَّ القائلين ببطالان الإحباط يفسرون الآيات بأنَّ الإستحقاق في مواردها كان مشروطاً بعدم لحوق العصيان بالطاعات ، فإذا عصى الإنسان ولم يحقق الشرط ، إنكشف عدم الإستحقاق .

ويمكن أن يقال بأنَّ الإستحقاق في بدء صدور الطاعات لم يكن مشروطاً

(١) سورة الزلزلة : الآية ٧ .

(٢) سنذكرها في آخر البحث .

بعدم لحوق العصيان ، بل كان استقرار الإستحقاق في مستقبل الأيام ، هو المشروط بعدم لحوق المعصية ، فإذا فُقد الشرط ، فُقد استقرار الإستحقاق واستمراره .

يقول الشيخ الطوسي في تفسير قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ، فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) : « معناه أنها صارت بمنزلة ما لم يكن ، لإيقاعهم إياها على خلاف الوجه المأمور به ، وليس المراد أنهم استحقوا عليها الثواب ثم انحبطت ، لأن الإحباط - عندنا - باطلٌ على هذا الوجه » (٢) .

ويقول الطبرسي في تفسير قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٣) : « وفي قوله : ﴿ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ ، هنا دلالة على أن حبوط الأعمال لا يترتب على ثبوت الثواب ، فإن الكافر لا يكون له عمل قد ثبت عليه ثواب ، وإنما يكون له عمل في الظاهر لولا كفره لكان يستحق الثواب عليه ، فعبر سبحانه عن هذا العمل بأنه حبط ، فهو حقيقة معناه » (٤) .

ويقول في تفسير قوله سبحانه : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا الَّذِينَ بِاللَّهِ جَهْدَ إِيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ (٥) . « أي ضاعت أعمالهم التي عملوها لأنهم أوقعوها على خلاف الوجه المأمور به ، وبطل ما أظهروه من الإيمان ، لأنه لم يوافق باطنهم ظاهرهم ، فلم يستحقوا به الثواب » (٦) .

وبما ذكره الطبرسي يظهر جواب سؤال آخر ، وهو أنه إذا كان الإستحقاق

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٧ .

(٢) التبيان ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ ، ولاحظ مجمع البيان ، ج ١ ، ص ٣١٣ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٥ .

(٤) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .

(٥) سورة المائدة : الآية ٥٣ .

(٦) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ .

مشروطاً بعدم صدور العصيان ، فإذا صدر يكشف عن عدم الإستحقاق أبداً ، فكيف يطلق عليه الإحباط ، وما الإحباط إلا الإبطال والإسقاط ، ولم يكن هناك شيء حتي يبطل أو يسقط ؟

وذلك لأن نفس العمل في الظاهر سبب ومقتضى ، فالإبطال والإسقاط كما يصدقان مع وجود العلة التامة ، فهكذا يصدقان مع وجود جزء العلة وسببها ومقتضيها ، وهذا كمن ملك أرضاً صالحة للزراعة فأحدث فيها ما أفقدها هذه الصلاحية .

وبعبارة أخرى : إنَّ الموت على الكفر ، وإن كان يُبطل ثواب جميع الأعمال ، لكن ليس هذا بالإحباط ، بل باشتراط الموافاة على الإيمان في استحقاق الثواب على القول بالاستحقاق ، وفي الوعد بالثواب على القول بعدم الإستحقاق . وهكذا القول في المعاصي التي ورد أنها حابطة لبعض الحسنات من غير قول بالحبط ، بل يكون الإستحقاق أو الوعد مشروطاً بعدم صدور تلك المعصية .

نعم ، هذا التفسير إنما نحتاج إليه في جانب الإحباط ، وأما في جانب التكفير فلا حاجة إليه ، بل لنا أن نقول إنَّ التوبة والأعمال المكفّرة يذهبان العقاب المكتوب على المعاصي من دون حاجة إلى القول بكون الإستحقاق مشروطاً بالموافاة على الكفر ، لجواز تفضّله سبحانه بالعفو .

هذا ، ولا يصح القول بالإحباط والتكفير في كل المعاصي ، بل يجب علينا تَتَبُّعُ النصوص ، فكل معصية وردت في الكتاب أو في الآثار الصحيحة أنها ذاهبة أو منقصة لثواب جميع الحسنات أو بعضها ، نقول بالإحباط فيها على التفسير الذي ذكرناه . وهكذا في جانب التكفير فلا يمكن لنا أن نقول إنَّ كل حسنة تُذهب السيئة إلا بالنص .

إلى هنا تم بيان دليل النافين للإحباط على الوجه اللائق بكلامهم ، والإجابة عليه .

أدلة مُثَبِّتِي الإحباط

استدل القاضي على ثبوت الإحباط بوجه عقلي فقال : « قد ثبت أنّ الثواب والعقاب يستحقان على طريق الدوام ، فلا يخلو المكلف إما أن يستحق الثواب فيثاب ، أو يستحق العقاب فيعاقب ، أو لا يستحق الثواب ولا العقاب ، فلا يثاب ولا يعاقب ، أو يستحق الثواب والعقاب ، فيثاب ويعاقب دفعة واحدة ، أو يؤثر الأكثر في الأقل على ما نقوله .

ولا يجوز أن لا يستحق الثواب ولا العقاب ، فإن ذلك خلاف ما اتفقت عليه الأمة . ولا أن يستحق الثواب والعقاب معاً فيكون مثاباً ومعاقباً دفعة واحدة ، لأن ذلك مستحيل ، والمستحيل مما لا يستحق . . .

فلا يصح إلا ما ذكرناه من أن الأقل يسقط بالأكثر . وهذا هو الذي يقوله الشيخان أبو علي وأبو هاشم ولا يختلفان فيه ، وإنما الخلاف بينها في كيفية ذلك^(١) .

يلاحظ عليه : إنه مبني على أن استحقاق العقاب على وجه الدوام ، وهو مبني على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار ، وبما أن الأساس باطل ، فيبطل ما بني عليه ، فلا دليل على دوام استحقاق العقاب . وعلى ذلك فالحصر غير حاصر ، وإن هنا شقاً سادساً ترك في كلامه ، وهو أنه يستحق الثواب والعقاب معاً لكن لا دفعة واحدة ، بل يعاقب مدة ثم يخرج من النار فيثاب بالجنة على ما عليه جمهور المسلمين .

وقد نقل القاضي عبد الجبار ، وجهاً عقلياً آخر للإحباط عن الشيخ أبي علي وأجاب عنه ، فلاحظ^(٢) .

(١) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٢٥ . وترك تعليل الوجه الأول (وهو أن يستحق الثواب فقط) والثاني (وهو أن يستحق العقاب فقط) ، لوضوحه .

(٢) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٣٠ - ٦٣١ ، وحاصل هذا الدليل أنّ المكلف ، بارتكاب الكبيرة تخرج نفسه من صلاحية استحقاق الثواب . وهو كما ترى دعوى بلا دليل ، إذ لا دليل على أن كل معصية لها هذا الشأن ، وليست كل معصية كالكفر والإرتداد والنفاق .

تحليل لمسألة الإحباط

وها هنا تحليل آخر للمسألة وهو أنَّ في الثواب والعقاب أقوال :

١ - الثواب والعقاب في الآخرة من قبيل الأمور الوضعية الجعلية كجعل الأجرة للعامل ، والعقاب للمتخلف في هذه النشأة .

٢ - الثواب والعقاب في الآخرة مخلوقان لنفس الإنسان حسب الملكات التي اكتسبها في هذه الدنيا ، بحيث لا يمكن لصاحب هذه الملكة ، السكون والهدوء إلا بفعل ما يناسبها .

٣ - الثواب والعقاب في الآخرة عبارة عن تمثّل العمل في الآخرة وتحلّيه فيها بوجوده الأخروي من دون أن يكون للنفس دور في تلك الحياة ، في تحلّي هذه الأعمال بتلك الصور ، بل هي من ملازمات وجود الإنسان المحشور .

فلو قلنا بالوجه الأول ، كان لما نقلناه من نفاة الحبط (من أن الإستحقاق أو استمراره مشروط بعدم الإتيان بالمعصية) وجه حسن ، لأن الأمور الوضعية ، رفعها ووضعها ، وتبسيطها ، وتضييقها ، بيد المقتن والمشرّع . وعندئذ يُجمع بين حكم العقل ، بلزوم الوفاء بالوعد ، وما دلّ من الآيات على وجود الإحباط في موارد مختلفة ، كما سيوافيك .

وقد عرفت حاصل الجمع ، وهو أن إطلاق الإحباط ليس لإبطال استحقاق الإنسان الثواب ، بل لم يكن مستحقاً من رأس ، لعدم تحقق شرط الثواب . وأما مصحح تسميته بالإحباط فقد عرفته أيضاً ، وهو أن ظاهر العمل كان يحكي عن الثواب وكان جزء علة له .

ولو قلنا بالوجه الثاني ، وحاصله أن الملكات الحسنة والسيئة التي تعدّ فعليات للنفس ، تحصل بسبب الحسنات والسيئات التي كانت تصدر من النفس . فإذا قامت بفعل الحسنات ، تحصل فيها صورة معنوية ، مقتضية لخلق الثواب . كما أنه إذا صدر منها سيئة ، تقوم بها صورة معنوية تصلح لأن تكون مبدءً لخلق العقاب . وبما أن الإنسان في معرض التحول والتغير من حيث الملكات النفسانية ، حسب ما يفعل من الحسنات والسيئات ، فإنّ من الممكن بطلان

صورة موجودة في النفس وتبدلها إلى صورة غيرها ما دامت تعيش في هذه النشأة الدنيوية .

نعم ، تقف الحركة ويبطل التحول عند موافاة الموت ، فعند ذلك تثبت لها الصور بلا تغيير أصلاً .

فلو قلنا بهذا الوجه ، كان الإحباط على وفق القاعدة ، لأنَّ الجزء في الآخرة ، إذا كان فعل النفس وإيجادها ، فهو يتبع الصورة الأخيرة للنفس ، التي اكتسبتها قبل الموت . فإن كانت صورة معنوية مناسبة للثواب فالنفس منعمة في الثواب من دون مقابلة بالعقاب ، لأن الصورة المناسبة للعقاب قد بطلت بصورة أخرى . وإذا انعكست الصورة ، إنعكس الحكم .

وأما لو قلنا بالوجه الثالث ، وهو تجسُّم الأعمال وتمثلها في الآخرة بالوجود المماثل لها ، فالقول بعدم الإحباط هو الموافق للقاعدة ، إذ لا معنى للإبطال ، في النشأة الأخرى .

غير أن الكلام كله في انحصار الثواب والعقاب بهذين الوجهين الأخيرين ، وقد عرفت في الجزء الأول أنَّ المتشرع لا يتجرأ على القول بذلك^(١) .

عوامل الإحباط وأسبابه

البحث عن عوامل الإحباط وأسبابه ، بحثٌ نقلي يتوقف على السبر والفحص في الكتاب والسنة ، ونكتفي في المقام بما جاء في الكتاب العزيز .

١ - الإرتداد بعد الإسلام

قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ، فَأُولَئِكَ خَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٢) .

(١) لاحظ « الإلهيات » ج ١ ، ص ٢٩٩

(٢) سورة البقرة : الآية ٢١٧ .

٢ - الشرك المقارن بالعمل

يقول سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (١) .

وقد كان المشركون يزعمون أنَّ العمل الصالح بنفسه موجب للثواب ، غير أنَّ القرآن شطب على هذه العقيدة ، وصرَّح بأن الثواب يترتب على العمل الصالح ، إذا صدر من فاعل مؤمن .

ولأجل ذلك أتبع الآية السابقة بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (٢) .

٣ - كراهة ما أنزل الله

قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّأْهُمْ وَأُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالُهُمْ ﴾ (٣) .

٤ - الكُفر

٥ - الصَّدُّ عن سبيل الله

٦ - مجادلة الرسول ومشاقته

وقد جاءت هذه العوامل الثلاثة في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ ﴾ (٤) .

(١) سورة التوبة : الآية ١٧ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٨ .

(٣) سورة محمد : الآيتان ٩ و ٨ .

(٤) سورة محمد : الآية ٣٢ . ولاحظ في عامل الكفر ، سورة التوبة : الآية ٦٩ .

وهل كل منها عاملٌ مستقلٌ ، أو أنّ هنا عاملاً واحداً هو الكفر ، ويكون حينئذٍ الصّدُّ عن سبيل الله ومشاقّة الرسول من آثار الكفر ، فهم كفروا ، فصدوا وشاقوا ؟ .

تظهر الثمرة فيما لو صدّ إنسانٌ عن سبيل الله لأغراض دنيوية ، أو شاقّ الرسول لحالة نفسانية مع اعتقاده التام بنبوة ذاك الرسول وقبح عمل نفسه . فلو قلنا باستقلال كل منهما في الحبط ، يخبط عمله ، وإلا فلا . وبما أن الآية ليست في مقام البيان ، بل تحكي عمل قوم كانت لهم هذه الشؤون فلا يمكن استظهار استقلال كل منهما في الحبط . نعم ، يمكن القول بالاستقلال من باب الأولوية ، وذلك أنّه إذا كان رفع الصوت فوق صوت النبي من عوامل الإحباط كما سيأتي ، فكيف لا يكون الصّدُّ والقتل من عوامله ؟ .

٧- قتل الأنبياء

٨- قتل الأمرين بالقسط من الناس

قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (١) .

٩- إساءة الأدب مع النبي

قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (٢) .

وربما يتصور أنّ رفع الصوت ليس عاملاً مستقلاً في الإحباط ، بل هو

(١) آل عمران : الآية ٢٣

(٢) سورة الحجرات : الآية ٢٢ .

كاشف عن كفر الرافع . ولكنه احتمال ضعيف ، لأن الآية تخاطب المؤمنين به بقولها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

نعم ، لا يمكن الإلتزام بأن كل إساءة بالنسبة إلى النبي تُجبط الأعمال الصالحة^(١) ، إلا إذا كانت هتكاً في نظر العامة ، وتحقيراً له في أوساط المسلمين ، كما هو الظاهر من أسباب نزول الآية .

١٠ - الإقبال على الدنيا والإعراض عن الآخرة

قال سبحانه : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نَفْسٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَاهُمْ فِيهَا وَهُمْ لَا يُخْسُونَ ﴾ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ .

ويمكن أن يقال إن الإقبال على الدنيا بهذا النحو الذي جاء في الآية ، يساوق الكفر ، أو يساوق ترك الفرائض ، والتوغل في الموبقات ، فتكون إرادة الحياة الدنيا وزينتها إشارة إلى العامل الواقعي .

١١ - إنكار الآخرة

قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ ، حَبِطَتْ أَعْمَاهُمْ ﴾ (٣) .

وهو فرع من فروع الكفر وليس عاملاً مستقلاً .

١٢ - النفاق

قال سبحانه : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ * أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَاهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ

(١) كالغضب في محضه صلوات الله عليه وآله .

(٢) سورة هود : الآيتان ١٥ و ١٦ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٤٧ . ولاحظ سورة الكهف : الآية ١٠٥ .

على الله يَسيراً ﴿١﴾ .

وقوله : ﴿لَا إِخْوَانَهُمْ﴾ ، يدل على أنهم لم يكونوا مؤمنين بل كانوا منافقين . ويصرّح به قوله : ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ . وعلى ذلك فيرجع النفاق إلى عامل الكفر وعدم الإيمان ، وليس سبباً مستقلاً .

هذه هي أبرز أسباب الإحباط في الذكر الحكيم ، وقد عرفت إمكان إدغام البعض في البعض . وعلى كل تقدير فالإحباط هنا هو بطلان أثر مقتضى ، لا إبطال أثر ثابت بالفعل ، كما تقدم .

* * *

ثانياً : التكفير

التكفير هو إسقاط ذنوب المعاصي المتقدمة بثواب الطاعات المتأخرة ، وهو لا يعدّ ظلماً ، لأن العقاب حق للمولى ، وإسقاط الحق ليس ظلماً بل إحسان ، وقد عرفت أن خُلف الوعيد ليس بقبیح وإنما القبيح خلف الوعد . فلاجل ذلك لا حاجة إلى تقييد استحقاق العقاب أو استمرار استحقاقه ، بعدم تعقّب الطاعات . بل الإستحقاق واستمراره ثابتان ، غير أن المولى سبحانه ، تفضلاً منه ، عفى عن عبده لفعله الطاعات .

قال سبحانه : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ﴿٢﴾ .

وقال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٣﴾ .

وقال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ

(١) سورة الأحزاب : الآيتان ١٨ و ١٩ .

(٢) سورة النساء : الآية ٣١ .

(٣) سورة الأنفال : الآية ٢٩ .

وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿١﴾ .

ولا يمكن استفادة الإطلاق من هذه الآيات ، وأن كل معصية تُكْفَر ، لأنها بصدد بيان تشريع التكفير ، وأما شروطه وبيان المعاصي التي تُكْفَر دون غيرها ، فلا يستفاد منها . وإنما الظاهر من الآية الأولى هو اشتراط تكفير الذنوب الصغيرة باجتناّب الكبيرة منها ، ومن الآية الثانية ، اشتراط تكفير السيئات بالتقوى ، ومن الثالثة ، تكفير السيئات للذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّل على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم .

روى الكراجكي ، بسنده عن الإمام علي عليه السلام أنه قال : « وإن كان عليه فضل ، وهو من أهل التقوى ، ولم يشرك بالله تعالى ، واتقى الشرك به ، فهو من أهل المغفرة ، يغفر الله له برحمته إن شاء ويتفضل عليه بعفوه » (٢) .

* * *

(١) سورة محمد (ص) : الآية ٢ .

(٢) البحار ، ج ٥ ، ص ٣٣٤ ، ح ٢ .

مباحث المعاد

(١٧)

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١)

لا خلاف بين الأمة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، غير أن القاضي عبد الجبار ، نسب إلى شرذمة من الإمامية عدم وجوبها^(٢) . والنسبة في غير محلها ، فإنهم عن بكرة أبيهم ، مقتفون للكتاب والسنة . وصريح الآيات وأحاديث العترة الطاهرة على الوجوب .

روى جابر بن عبد الله الأنصاري ، عن أبي جعفر الباقر ، أنه قال :

« إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ، ومنهاج الصلحاء ، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتؤمن المذاهب ، وتحل المكاسب ، وترد المظالم ، وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء ، ويستقيم الأمر »^(٣) .

وأما كلمة المحققين ، فيكفي في ذلك مراجعة كتبهم الكلامية والفقهية^(٤) .

(١) وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأحكام الفرعية الفقهية ، غير أن القوم بحثوا عنه في الكتب الكلامية لأنه من الأحكام الاجتماعية التي لها دور أساسي في تطوير المجتمع وسوقه إلى الصلاح ، ونحن اقتفينا أثرهم في هذا المقام .

(٢) شرح الأصول الخمسة : ص ٧٤١ .

(٣) وسائل الشريعة ، ج ١١ ، الباب الأول ، من أبواب الأمر بالمعروف ، الحديث ٧ ، ص ٣٩٣ .

(٤) لاحظ أوائل المقالات ، ص ٩٨ وكشف المراد ، ص ٢٧١ ، ط صيدا .

١ - وجوبها عقلي أو شرعي

هل يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عقلاً ، أو لا يجبان إلا شرعاً ؟
القائلون بوجوب اللطف المقرب يلزمهما القول بوجوبها عقلاً ، لأن اللطف
ليس إلا تقريب العباد إلى الطاعة وإبعادهم عن المعصية . ومن أوضح ما يحقق
تلك الغاية هو الأمر بالمعروف بعامة مراتبه .

وأورد عليه المحقق الطوسي ما هذا توضيحه :

لو وجبا عقلاً على الله تعالى ، فإن كل واجب عقلي ، يجب على كل من
حصل في حقه وجه الوجوب ، ولو وجب عليه تعالى لكان إما فاعلاً لهما ، فكان
يلزم وقوع المعروف قطعاً ، لأنه تعالى يحمل المكلفين عليه ، وانتفاء المنكر لأنه
تعالى يمنع المكلفين عنه ، وهذا خلاف ما هو الواقع في الخارج ، وإما غير فاعل
لهما ، فيكون مخالفاً بالواجب ، وذلك محال ، لما ثبت من حكمته تعالى .

وإلى هذا المعنى أشار هذا المحقق بقوله : « لو كانا واجبين عقلاً لزم
ما هو خلاف الواقع ، أو الإخلال بحكمته سبحانه »^(١) .

يلاحظ عليه : إن وجوبها عقلاً لا يلزم وجوبها على الله سبحانه بعامة
مراتبها ، لأنه لو وجب عليه كذلك يلزم الإخلال بالغرض وإبطال التكليف ،
وهذا يصد العقل عن إيجابها على الله سبحانه فيما لو استلزم الإلجاء ، فيكتفى فيهما
ببعض المراتب ، كالتبليغ والإنذار مما لا ينافي حرية التكليف ، وهما متحققان .

وإلى ما ذكرنا يشير شيخنا الشهيد الثاني بقوله : « لاستلزام القيام به على
هذا الوجه (من وجوبه قولاً وفعلاً) الإلجاء الممتنع في التكليف ، ويجوز اختلاف
الواجب باختلاف محالّه ، خصوصاً مع ظهور المانع ، فيكون الواجب في حقه
تعالى الإنذار والتخويف بالمخالفة لئلا يبطل التكليف . والمفروض أنه قد
فعل »^(٢) .

(١) كشف المراد ، ص ٢٧١ ، ط صيدا .

(٢) الروضة البهية ، ج ١ ، كتاب الجهاد ، الفصل الخامس ، ص ٢٦٢ ، الطبعة الحجرية .

وهذا صحيح لو كان اللطف المقرب واجباً ، ولكنك عرفت أنّ وجوبه غير ثابت ، وإنّما الثابت هو اللطف المحصّل للغرض^(١) .

٢ - شرائط وجوبها

قد فصل الفقهاء والمتكلمون الكلام في شرائط وجوبها ، وإليك بيانها .

أ - عِلْمُ فاعلها بالمعروف والمنكر .

ب - تجويز التأثير ، فلو علم أنها لا يؤثران لم يجب .

ج - انتفاء المضرة ، فلو علم أو غلب على ظنه حصول مفسدة له أو لبعض إخوانه في أمره ونهيه ، سقط وجوبها دفعاً للضرر .

د - تنجّز التكليف في حق المأمور والمنهي ، فلو كان مضطراً إلى أكل الميتة ، لا تكون الحرمة في حقه منجّزة ، فلا يكون فعله حراماً ولا منكراً ، وإن كان الحكم في حق الأمر والنهي منجزاً .

نعم ، إنّ الشرط الثالث ، أي عدم المضرة ، شرط في موارد خاصة لا مطلقاً ، فربما يجب على الأمر والنهي تحمل الضرر وعدم ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذلك فيما إذا كانت المصلحة مهمة ، كما لو استلزم سكوته خروج الناس عن الدين ، وتزلزلهم في العقيدة ، فيحرم عليه السكوت ، بل يجب عليه الإصحار بالحقيقة وإن بلغ ما بلغ من ضرب أو شتم أو حبس ، حتى القتل .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا ظهرت البدع في أمتي ، فليظهر العالم علمه وإلا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »^(٢) .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : « وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم »^(٣) .

(١) راجع الدليل الخامس من أدلة وجوب بعثة الأنبياء .

(٢) سفينة البحار ، ج ١ ، ص ٦٣ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة الثالثة .

وبذلك يعلم أنّ التقية مشروعة ، ولكن لها حدود ولها أحكام ، فكما أنها تجب ، فربما تحرم ، والتفصيل موكول إلى محله ^(١) .

٣ - وجوبها عيني أو كفائي ؟

الظاهر ، كما هو المعروف ، كون وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كفائياً ، لأنّ الغرض شرعاً هو وقوع المعروف وارتفاع المنكر ، من غير اعتبار مباشر معين ، وهذا آية كون الوجوب كفائياً ، فإذا حصل ، ارتفع الوجوب .

والإستدلال على وجوبها عيناً بالعمومات ، مثل قوله سبحانه : ﴿ كُتِّمٌ خَيْرٌ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ^(٢) ، غير كافٍ ، لأنّ الواجب الكفائي ، يشترك مع الواجب العيني في كون الشيء واجباً على العموم ، إلا أنه يسقط بفعل واحد من المكلفين ، بخلاف العيني . فتوجه الخطاب إلى العموم ، مشترك بين العيني والكفائي .

٤ - مراتبهما

إنّ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب تبديء بالقلب فاللسان فاليد ، وتنتهي بإجراء الحدود والتعزيزات والجهاد .

قال الإمام الباقر عليه السلام : « فَأُنْكِرُوا بِقُلُوبِكُمْ ، وَالْفُطُورَ بِاللِّسَانِ ، وَصَكُّوا بِهَا جِبَاهَهُمْ ، وَلَا تَخَافُوا فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَّائِمَةً » ^(٣) .

وبهذا يصبح الأمر بالمعروف على قسمين : قسم لا يحتاج إلى جهاز وقدرة ، وهذا ما يرجع إلى عامة الناس ، وهو كالإنكار بالقلب ، والتذكير أو النهي باللفظ . وقسم يحتاج إلى الجهاز والقوة ، ويتوقف على صدور الحكم من المحاكم

(١) لاحظ رسالة الأستاذ الفقيه في التقية ، فقد أثبت أنّ التقية ربما تحرم إذا كان الفساد في تركها أوسع وسيوافيك بحث التقية في الخاتمة .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

(٣) الوسائل ، ج ١١ ، كتاب الجهاد ، الباب الثالث من أبواب الأمر بالمعروف ، الحديث ٢ .

القضائية وهذا يرجع إجراؤه إلى السلطة التنفيذية القائمة في الدولة الإسلامية بأركانها الثلاثة^(١) .

هذا ، وقد كان على القاضي أن يؤاخذ الحنابلة والأشاعرة ، حيث إنهم لا يرون الخروج على أئمة الجور ، ويرون إطاعتهم واجبة ، ما لم يأمرُوا بمعصية ، وقد تقدّم نقل نُبَيٍّ من نصوصهم في ذلك .

* * *

(١) لاحظ جواهر الكلام ، ج ٢١ ، ص ١٣ .

* أسئلة حول المعاد

- ١ - نشور الإنسان دفعي أو تدريجي ؟ .
- ٢ - ما هو المحشور من الأبدان المتعددة ؟ .
- ٣ - هل المعاد إعادة للمعدوم ؟ .
- ٤ - شبهة عدم كفاية المواد الأرضية .
- ٥ - شبهة الأكل والمأكول .
- ٦ - مكان بعث النفوس وحشرها .
- ٧ - كيف يخلد الإنسان مع أن المادة تفسى ؟ .
- ٨ - ما هو الغرض من عقاب المجرم وتنعيم المسيء ؟ .
- ٩ - من هم المختدون في النار ؟ .
- ١٠ - هل يجوز العفو عن المسيء ؟ .
- ١١ - هل الجنة والنار مخلوقتان ؟ .

أسئلة المعاد

(١)

نشور الإنسان دفعي أو تدريجي ؟

إن تكامل الإنسان من خلية إلى أن يصير بدنًا متكاملًا ، رهن تفاعلات تدريجية ، معلومة لكلِّ منّا ، فهل عَوْدُ الإنسان إلى الحياة من جديد رهن هذا الناموس التدريجي أو لا ؟

الجواب

كل من أراد تفسير المعاد من هذا الطريق ، يريد إخضاع المسائل الغيبية ، للقوانين الطبيعية المحسوسة ، ولكن السمع يرد هذا الفرض ، ويعرف المعاد بأنه يحصل دفعة ، والآيات في هذا المجال متعددة ، منها قوله سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ مَخْرُجُونَ ﴾^(١) .

والآية ظاهرة في أنَّ الدعوة تكوينية متعلقة بإعادة خلق الإنسان من جديد ، وأن تلك الدعوة التكوينية الملازمة لخلق الإنسان ، مقارنة لخروجه ، فالدعوة والخروج يتحققان في زمن واحد .

ويؤيد ذلك الآيات الكثيرة التي تصرح بأن القيامة ، تحدث بغتة وفجأة وهم لا يشعرون ، كقوله سبحانه :

(١) سورة الروم : الآية ٢٥ .

﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ﴾^(١) .
 وهذه الآية وإن كانت واردة في الموجودين زمن حدوث القيامة ، ولكن لو كان
 تَكُونُ الأموات تحت التراب أمراً تدريجياً ، لَعَلِمَ به الأحياء قبيل حصول القيامة ،
 لفحصهم الدائم في الأرض .

* * *

(١) سورة الأنعام : الآية ٣١ ، ولاحظ في ذلك الأعراف : الآية ١٨٧ ، الأنبياء : ٤٠ ،
 الحج : ٥٥ ، الشعراء : ٢٠٢ ، العنكبوت : ٥٣ ، الزمر : ٥٥ ، الزخرف : ٦٦ ،
 محمد : ١٨ ، والكل يدل على أن تَكُونُ الإنسان عند بعثه ، يحصل دفعة واحدة .

أسئلة المعاد

(٢)

ما هو المحشور من الأبدان المتعددة ؟

أثبت العلم أنّ بدن الإنسان وخلاياه في مهب التغيّر والتبدل ، وأنّه يأخذ لنفسه في كل عشرة أعوام بدنًا ، فلو عاش إنسان ثمانين سنة ، فإنّه سيكون له ثمانية أبدان ، ومن المعلوم أنّ الإطاعة والعصيان يقعان في جميع فترات عمر الإنسان ، والجزاء والثواب على مجموع الأعمال .

وعندئذ يتساءل ، هل المحشور جميع أطوار بدن الإنسان الواحد ، فهو غير معقول ، أو واحد من هذه الأبدان ، وهو يستلزم نقض قانون الجزاء والثواب ، وأن يكون بدن واحد حاملاً لأوزار الأبدان الآخر .

والجواب :

إنّ هذا السؤال نابع من إنكار الروح والإعتقاد بأصالة المادة وأمّا على ما ذكرنا من أنّ البدن ليس إلّا أداة لتنعيم الإنسان وتعذيبه ، وأنّ الأمور الروحية من الفرح والحزن واللذة والألم ، كلها أمور مربوطة بالروح ، ويتوصل إليها الروح بالبدن والأجهزة الظاهرية ، فالنعمة الملذة ، إنّما يصل إليها الإنسان من طريق الجهاز السمعي ، فإنه آلة ، والملتذ هو الروح ، والمنظر الخلابة إنّما تصل إليها النفس عن طريق العين ، وهكذا سائر اللذات ، والآلام الروحية ، وعلى ذلك فالحافظ للعدالة هو أن ترد اللذة والألم على روح واحدة ، من غير فرق بين الأبدان .

وهذا نظير تعذيب بعض المجرمين بإكسائهم ثوباً ليمسهم العذاب من طريقه ، فالمضروب ظاهراً هو اللباس ، ولكن المتألم هو الإنسان .

وبعبارة أخرى ، إن الروح هي الرابط الوثيق بين جميع الأبدان ، فهي تضيء عليها جميعها وصف الوحدة ، وتعرفها جميعها بأنها فلان بن فلان ، من دون أن يضر اختلافها في الهيئة والشكل والحجم بوحدة الإنسان ، هذا .

وربما يتخيل أن المعاد هو البدن الأخير ، الذي هو عصارة جميع الأبدان الماضية ، والجامع لعامة خصوصياتها .

ولكن ، غَيْرُ خَفِيِّ أَنَّ هذا الأصل المزعوم (وهو كون البدن الأخير ، عصارة الأبدان المتقدمة) ، مما لا أصل له ، لأن الأبدان في الفترات المتوسطة من العمر ، لها من القوة والنشاط ما تفقده الأبدان الواقعة في العقود الأخيرة من العمر .

أضف إلى ذلك أن الجواب مبني على إعطاء الأصالة للمادة ، وزعم أن الإنسان هو نفس الجلود واللحوم والعظام وأن البدن الأخير عصارة كل ما تقدم .

نعم ، ربما يستظهر من قوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾^(١) ، أن المعاد هو البدن الأخير ، ولكن الاستظهار في غير محله فإن الآية كناية عن خروج الناس من التراب للحساب والجزاء نظير قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾^(٢) . وأما كون الخارج هو البدن الأخير فليست الآية بصدد بيانه .

والشاهد على ذلك أن من الناس من يخطفه الطير ، أو تفتسه السباع ، أو يحيط به الموج فتأكله حيتان البحر ، أو تصيبه نار فتحرقه ، والآية تعم هذه الأصناف أيضاً ، مع أنهم لم يقبروا في الأجداث .

* * *

(١) سورة يس : الآية ٥١ .

(٢) سورة طه : الآية ٥٥ .

أسئلة المعاد

(٣)

هل المعاد إعادة للمعدوم

إذا كان الموت إفناء للإنسان أو لبعضه ، فكيف يمكن إعادة ما بطل وانعدم ، فإنه لا يكون إلا خلقاً جديداً لا إعادة له خصوصاً إذا لم يكن بين المبتدأ والمعاد رابطة وصلة .

والجواب :

إنّ هذا السؤال نابع مما يزعمه السذج من الناس من أنّ الموت إعدام لجثة الإنسان وبدنه نظير إحراق الحطب ، فإنّ قسماً منه يتبدل إلى الدخان وينعدم ، ولا يبقى منه إلا شيء ضئيل نسميه بالرماد ، فلو كان الموت بهذا المعنى فيكون المعاد إعادة للإنسان المعدوم .

ولكن قانون بقاء المادة ، يبطل هذا الزعم ، فإنّه ينص على أنّ المادة لا تنعدم ، بل تتحول من صورة إلى صورة أخرى^(١) .

وعلى ضوء هذا ، فالتفاعلات الحاصلة في المادة الحيّة ، أو غير الحيّة ، لا تنقص من وزن المادة شيئاً ، فالعالم من حيث الوزن ثابت ، وإنّما الاختلاف في الصور والأنواع ، وهذا القانون دَعَمَ دعوة الأنبياء بأنّ البشر خلقوا للبقاء لا

(١) وهو قانون لا فوازييه ، (١٧٤٣-١٧٩٤) .

للفناء ، كما دَفَعَ توهم كون الموت إعدام لقسم من مادة البشر ، وأثبت أن هناك مادة واحدة ثابتة في مهب التفاعلات الفيزيائية والكيميائية والحيوية ، وإنما التغير في الصور الطارئة عليها .

نعم ، سبقه علماء الإسلام ، في تأسيس هذا الأصل لكن بصورة أوسع ، وهو أن الوجود لا يتطرق إليه العدم .

* * *

أسئلة المعاد

(٤)

شبهة عَدَم كِفَايَةِ الموادّ الأرضية لإحياء الناس

قد كشفت التنقيبات الجيولوجية والأثرية على أن الإنسان يعيش في هذا الكوكب منذ قرابة مليوني سنة ، وعلى هذا فلو كان المعاد عاماً لجميع الناس ، الذين عاشوا على هذه الكرة ، فكيف يكون تراها كافياً لإحيائهم ، فإن المعاد حسب ما مرّ معاد عنصري ، يعود كل إنسان إلى بدنه العنصري ، فالمعادون كثر ، مع أن ما يعادون به ، وهو المواد العنصرية الأرضية قليل لا يكفيهم .

قال صدر المتألهين في بيان هذه الشبهة : « إن جرم الأرض مقدور محصور ممسوح بالفراسخ والأميال والأذرع ، وعدد النفوس غير متناه فلا يفي مقدار الأرض ، ولا يسع لأن تحصل منه الأبدان غير المتناهية »^(١) .

والجواب عن هذا السؤال من جهات ثلاث ، عقلية وعلمية وسمعية :

الجهة الأولى : الجواب العقلي ، وهو أمور :

أولاً : إن ما تنقله لنا هذه التنقيبات والحفريات التاريخية والطبيعية ليس على درجة يفيد القطع واليقين ، حتى نرفع باقوالهم اليد عن الوحي الإلهي أو نتردد في صحة المعاد .

(١) الأسفار ، ج ٩ ، ص ٢٠٠ .

وثانياً : لم يدل دليل على أن بدن الإنسان كنفس البدن الدنيوي في الحجم والوزن وسائر الجهات المادية ، بل يكفي أن يصدق على المعاد أنه نفس المبتدأ وأما المطابقة في سائر الجهات فلم يدل عليها دليل .

وثالثاً : لو فرض عدم كفاية المواد الترابية لإحياء جميع من قطنوا هذا الكوكب ، فلا مانع من تكميلها بتراب الكرات الأخرى ، وليس ذلك على خلاف العدل ، لما عرفت من أن الثواب والعقاب بملاك الروح والنفس ، فالنفس الإنسانية إذا أدخلت في أي بدن كان ، وحُشِرَتْ مع أي جسم إنساني ، فهو هو ، وليس غيره ، وإغما يكون البدن أداة ووسيلة لتعذيبه ، وتنعيمه ، ولولا دلالة القرآن على أن المعاد في الآخرة عنصري ، لكان العقل مكتفياً بإعادة الروح والنفس غير أن إصرار الذكر الحكيم ، على كون المعاد عنصرياً ، يصدده عن الإكتفاء بالمعاد الروحاني .

وعلى ضوء ذلك ، فلو كانت المواد الأرضية غير كافية لإحياء كل من سكن هذا الكوكب ، فلا مانع من تكميل بدن كل إنسان بمواد من كواكب أخرى .
هذه الأجوبة ، أجوبة عقلية ، وهناك أجوبة أخرى تعتمد على التجربة والدليل العلمي .

الجهة الثانية : الجواب العلمي ، وهو أمور :

إن ما ذكره من عدم كفاية تراب الأرض لإحياء الناس باطل بالنظر إلى حجم المواد الأرضية وذلك لأن حجم الكرة الأرضية يبلغ ألفاً وثلاثمائة وثمانين ملياراً ، وثلاثمائة وعشرين مليون كيلومتر مكعب^(١) ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى إن صندوقاً بحجم كيلومتر مكعب ، بمعنى أن كلا من طوله وعرضه وارتفاعه يبلغ كيلومتراً واحداً ، إن مثل هذا الصندوق يسع داخله لأضعاف عدد سكان الأرض الحاليين^(٢) .

(١) ١,٠٨٣,٣٢٠,٠٠٠,٠٠٠ .

(٢) دلت الإحصاءات الأخيرة أن عدد سكان الأرض حالياً يبلغ قرابة خمسة مليارات إنسان .

وذلك أنّ كل كيلومتر في الطول يسع خمسة آلاف إنسان ، يقف كل منهم إلى جانب الآخر ، وكل كيلومتر في الارتفاع يسع سبعمائة وخمسين إنساناً متوسط طول الواحد منهم متراً ونصف المتر ، يقف كل منهم على رأس الآخر ، فإذا أردنا حساب من يمكن أن يحويه ذاك الصندوق ، فما علينا إلا أن نضرب الطول بالعرض بالارتفاع^(١) ، فتكون النتيجة اتساع هذا الصندوق لثمانية عشر مليار ، وسبعمائة وخمسين مليون إنسان .

هذه سعة الكيلومتر المكعب الواحد ، فما ظنك بسعة ألف وثلاثة وثمانين مليار ، وثلاثمائة وعشرين مليون كيلومتر مكعب ؟ إنها بالتأكيد تكفي لأضعاف - لا تحصى - من قطن هذه الكرة الأرضية .

فمسألة قلة المواد الأرضية لإحياء الناس ، مسألة ذهنية طرحت من غير تدبر في حجم العالم .

٢ - إنّ بدن الإنسان لا يتشكل من التراب فحسب ، بل الماء والغازات من العناصر الرئيسية التي يتكون منها بدن الإنسان . ويحيط بالأرض طبقة من الغازات تسمى بالغلاف الجوي ، تبلغ في الارتفاع والسمكة ألف كيلومتر ، وتبلغ في الوزن خمسة ملايين مليار طن^(٢) هذا في جانب الغازات .

وأما في جانب المياه المتواجدة على سطح الكرة الأرضية فيكفي أن نعرف أنّ إلقاء حجر في إناء مملوء من الماء ، يوجب ارتفاع سطح الماء بما يساوي حجم هذا الحجر ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى ، أثبت العلم الحديث أننا لو جمعنا كل البشر الذي يقطنون الكرة الأرضية^(٣) وألقيناهم في بحيرة قزوين ، فسوف لن يصل ارتفاع الماء في البحيرة إلى ستمتر واحد بل يكون أقلّ منه ، بمعنى أنّ ارتفاع المياه لن يكون محسوساً لنا .

(١) $18,750,000,000 \times 5000 \times 5000 = 468,750,000,000,000$ إنسان .

(٢) $5000,000,000,000,000$

(٣) وهم عدد إجماع هذا الحساب ، مليار إنسان .

هذا وليست هي إلا بحيرة^(١) فما ظنك ببحار الدنيا ومحيطاتها .

٣ - إن النيازك المشاهدة في الليالي هي نتيجة وصول أحجار وأتربة وأجسام ثقيلة من الفضاء الخارجي إلى الغلاف الجوي ، فيوجب احتكاكها الشديد به احتراقها وتناثرها ، وهبوطها على الأرض ذرات خفيفة لا تزعج الحياة عليها وهذه الأحجار توجب ازدياد المواد الأرضية زيادة مطردة بشكل يومي ، وقال العلماء إنَّ عشرين مليون حجراً فضائياً يصطدم يومياً بالغلاف الجوي وهي تسير بسرعة خمسين كيلو متراً في الثانية ، فتتلاشى وتتناثر وتهبط بلا إزعاج على القشرة الأرضية^(٢) .

وعلى هذا ، فالمواد الأرضية لم تنزل في حال التوفر والازدياد ، والله يعلم إلى أي حد يصل حجمها إلى يوم البعث .

٤ - وصل العلم إلى أنه لو كانت هناك قدرة على إزالة الفراغات المتخللة بين ذرات المواد الأرضية لبلغت هذه الكرة العظيمة الهائلة في الحجم ، مقدار جوزة صغيرة . ولو فرض إفراغ فواصل ذرات المنظومة الشمسية ، بشمسها وسياراتها الكبيرة والصغيرة ، لبلغ حجمها مقدار فاكهة كبيرة كالبطيخ هذا من جانب .

ومن جانب آخر ، لو ازدادت الفراغات بين الذرات ، لازداد حجم العالم ازدياداً كبيراً ، فليس الحجم تابعاً لكثرة الذرات وقتلها ففي وسع المولى سبحانه - وهو على كل شيء قدير - أن يبسط فراغ المواد الأرضية فيزداد حجمها ، وتكفي لإحياء الموتى منها بلغوا .

وليس هذا الأمر بعيداً عن الحس ، فإننا نرى أن حجم الماء يتفاوت في حالاته الثلاث التجمد والسيلان والتبخر ، وعليه فلا مانع من امتداد المادة الأرضية يوم القيامة إمتداداً هائلاً بحيث يصبح ما كان لا يكفي لإحياء أكثر من إنسان واحداً كافياً لإحياء الكثير من الناس ، هذا ما كشف عنه العلم .

(١) تبلغ مساحة بحيرة قزوين ٤٢٠,٠٠٠ كلم مربع .

(٢) الله يتجلى في عصر العلم ، ص ٢٠ .

الجهة الثالثة : الجواب السمعي

قد أعرب الوحي عن كفاية مواد الأرض لإحياء الموتى بوجه خاص ، يفهمه المتدبر في القرآن الكريم .

يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ ﴾^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ، فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ ﴾^(٢) .

ومن المحتمل جداً أن يكون مد الأرض في ظل الاندكاك ، بكسر الذرات الموجودة فيها ، فيبلغ حجم حجر يقدر بمتر مكعب إلى ملايين الكيلومترات المكعبة .

فخرجنا بهذه النتيجة ، وهي أن تصور عدم كفاية المادة الأرضية لإحياء الناس ، باطل في العقل ، والعلم والوحي .

* * *

(١) سورة الإنشقاق : الآية ٣ .

(٢) سورة الحاقة ٠ الآية ١٤ .

أُسْئَلَةُ الْمَعَادِ

(٥)

شُبْهَةُ الْآكِلِ وَالْمَأْكُولِ

إنَّ هذه الشبهة من أقدم الشبهات التي وردت في الكتب الكلامية حول المعاد الجسماني ، وقد أعتنى بدفعها المتكلمون والفلاسفة عناية بالغة ، والإشكال يقرر بصورتين :

الصورة الأولى : إذا أكل إنسانُ إنساناً بحيث عاد بدن الثاني جزءً من بدن الإنسان الأول ، فالأجزاء التي كانت للمأْكول ثم صارت للآكل ، إمَّا أن تعاد في كل واحد منهما ، أو تعاد في أحدهما ، أو لا تعاد أصلاً . والأول محال ، لاستحالة أن يكون جزءٌ واحدٌ بعينه ، في آن واحد ، في شخصين متباينين . والثاني خلاف المفروض ، لأنَّ لازمه أن لا يعاد الآخر بعينه .

والثالث أسوأ حالاً من الثاني ، إذ يلزم أن لا يكون أي من الإنسانين معاداً بعينه . فينتج أنه لا يمكن إعادة جميع الأبدان بأعيانها .

الصورة الثانية : لو أكل إنسان كافر ، إنساناً مؤمناً ، وقلنا بأنَّ المراد من المعاد هو حشر الأبدان الدنيوية في الآخرة ، فيلزم تعذيب المؤمن ، لأنَّ المفروض أنَّ بدنه أو جزءً منه ، صار جزءً من بدن الكافر ، والكافر يُعَذَّبُ ، فيلزم تعذيب المؤمن^(١) .

(١) لاحظ شرح المواقف للسيد شريف ، ج ٨ ، ص ٢٤٥ ، شرح المقاصد ، للفتازاني ، ج ٢

وقبل الورود في الجواب نعلّق على هذا السؤال بأنه لا يختص بما ورد فيه من أكل إنسان إنساناً، الذي لا يتفق حصوله إلا في أعماق الأدغال، والمجتمعات الوحشية، بل السؤال يرجع إلى أمر يومي ملموس في المجتمعات المتحضرة، وذلك أنّ النباتات والثمار والحُبوب التي يتغذى عليها الإنسان تنبت من تراب الأرض، الذي هو مزيج رفات الأموات الذين قضوا عبر الدهور، والذي هو عصارة الأبدان وخلاصتها.

ونحن نرى أنّ المقابر الواقعة في أكناف البلاد تتبدل إلى حدائق للتفرج والتنزه أو إلى مزارع للاستثمار، فيتغذى منها الحيوان والإنسان، فيؤول بدن الإنسان الميت، جزء من الإنسان الحي، فعندئذ يطرح السؤال المتقدم.

الجواب :

إن هذه أقوى شبهة تعترض القول بالمعاد الجسمي، ونحن نذكر أولاً ما هو الحق عندنا في الإجابة، ثم نشير إلى ما ذكره المتكلمون في ذلك :

أما الصورة الأولى من الإشكال، فبعض احتمالاتها ساقط جداً، وهو عود المأكول جزء لكلا الإنسانين، فيبقى الإحتمالان الآخران، وبأي واحد منها أخذنا يندفع الإشكال، وذلك بالبيان التالي :

إنّ الإنسان من لدن تكوّنه وتولده إلى يوم وفاته واقع في مهبط التغير وخضوع التبدل، فليس وجوده جامداً خالياً عن التبدل. فبدن الإنسان ليس إلا خلايا لا يحصيها إلا الله سبحانه، وكل منها يحمل مسؤوليته في دعم حياة البدن، والخلايا

= ص ٢١٦ . والإشكال الثاني وارد فيه دون الأول . وكشف المراد، ص ٢٥٥، ط صيدا . والأسفار، ج ٩، ص ١٩٩ .

والفرق بين الصورتين هو أنّ الإشكال بالتقرير الأول يركز على نقص الإنسان المعاد من حيث البدن، ولكنه في التقرير الثاني يركز على أنّ المعاد الجسمي في المقام يستلزم خلاف العدل الإلهي، فالأساس في الإشكال في الصورتين واحد، وهو كون بدن إنسان جزء من بدن إنسان آخر، ولكن المترتب على الصورة الأولى هو عدم صدق كون المعاد هو المنشأ في الدنيا، وعلى الصورة الثانية هو تعذيب البريء مكان المجرم.

في حال تغير وتبدل مستمر ، تموت ويخلفها خلايا أخرى ، وبهذا يتهيء للبدن استمرار حياته ، من غير فرق بين الخلايا الدماغية وغيرها ، غاية الأمر أن الخلايا الدماغية ، ثابتة من حيث العدد دون غيرها .

وقد قال الأخصائيون بأن مجموع خلايا البدن تتبدل إلى خلايا أخرى كل عشر سنوات ، فبدن الإنسان بعد عشر سنين من عمره يغير بدنه الموجود قبل عشر سنين وعلى هذا فالإنسان الذي يبلغ عمره ثمانين سنة قد عاش في ثمانية أبدان مختلفة ، وهو يحسبها بدنًا واحدًا .

إذا عرفت ذلك ، فنقول : إن هناك فروضاً :

١ - فلو فرض أن بدن الإنسان صار جزءً من بدن إنسان آخر ، فبما أن للمأكول أبداناً متعددة على مدى حياته ، فواحد منها مقرون بالمانع ، والأبدان الأخر خالية منه فيحشر مع الخالي .

٢ - ولو فرض أن جميع أبدانه اقترنت بالمانع ، فإنه أيضاً لا يصد عن القول بالمعاد الجسماني ، لأنّ الناموس السائد في التغذية ، هو أن ما يستفيد الإنسان من الغذاء لا يتعدى ثلاثة بالمائة من المأكول والباقي يدفعه .

فإذاً لا مانع من أن تتعلق الروح بأحد هذه الأبدان التي تتفاوت عن البدن الدنيوي من حيث الوزن والحجم ، ولم يدل على أن المحشور في النشأة الأخروية يتحد مع الموجود في النشأة الدنيوية في جميع الجهات وعامة الخصوصيات .

٣ - ولو فرض أن قانون التحول ساد على أبدان المأكول ، فلم يبق من كل بدن إلا النذر اليسير الذي لا يتشكل منه بدن إنسان كامل ، فلا مانع في هذا الفرض النادر من تكميل خلقته بالمواد الأرضية الأخرى حتى يكون إنساناً قابلاً لتعلق الروح به ، وليس لنا دليل على أن المعاد في الآخرة يتحد مع الموجود في الدنيا في جميع الجهات حتى المادة التي يتكون منها البدن .

نعم ، إن كانت المادة الترابية التي تكوّن منها البدن الدنيوي موجودة ، فلا وجه للعدول عنها إلى تراب آخر ، وأما إذا كانت مقرونة بالمانع ، فلم يبق إلا جزء

يسير لا يكفي لتكوّن البدن ، فلا غرو في أن يُتَسَبَّب في تكميل خلقته بالأخذ من المواد الترابية غير المقرونة بالمانع .

والذي يدل على ذلك أنه سبحانه في مقام التنديد بالمنكرين ، يعبر بلفظ المثل ، ويقول : ﴿ أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾^(١) . الضمير في ﴿ مِثْلَهُمْ ﴾ يعود إلى المشركين المنكرين للمعاد ، وهذا يعرب عن كفاية المثل من غير حاجة إلى صدق العينية ، بالوحدة في المادة الترابية .

ويؤيد ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام : « فإذا قبضه الله إليه ، صير تلك الروح إلى الجنة في صورة كصورته ، فيأكلون ويشربون ، فإذا قدم عليهم القادم عرفهم بتلك الصورة التي كانت في الدنيا »^(٢) .

فترى أن الإمام عليه السلام يذكر كلمة الصورة ، ولعلّ فيه تذكير بأنه يكفي في المعاد الجسماني كون المُعاد متحداً مع المبتدأ في الصورة من غير حاجة إلى أن يكون هناك وحدة في المادة الترابية بحيث إذا طرأ مانع من خلق الإنسان منه ، فشل المعاد الجسماني ولم يتحقق .

والتركيز على وحدة المادة ، يبتني على تحليل وجود الإنسان تحليلاً مادياً وأنه ليس وراء المادة شيء آخر ، وأما على القول بأن واقعية الإنسان بروحه ونفسه ، وأنّ جميع خصوصياته وملكاته موجودة في نفسه ، فالمعاد الجسماني لا يتوقف على كون البدن المحشور نفس البدن الدنيوي حتى في المادة الترابية ، بل لو تكوّن بدن الإنسان المُعاد من أئمة مادة ترابية كانت ، وتعلقت به الروح ، وكان من حيث الصورة متحداً مع البدن الدنيوي ، يصدق على المُعاد أنه هو المنشأ في الدنيا .

قال صدر المتألهين : « إن تشخّص كلّ إنسان إنما يكون بنفسه لا ببدنه ، وإنّ البدن المعتبر فيه ، أمر مُبْهَم ، لا تحصيل له إلا بنفسه ، وليس له من هذه

(١) سورة يس : الآية ٨١ .

(٢) السحر ، ج ٦ ، باب أحوال البرزخ ، الحديث ٣٢ ، ص ٢٢٩ .

الحيشية تعين ، ولا يلزم من كون بدن زيد مثلاً محشوراً أن يكون الجسم الذي منه صار مأكولاً لسبع أو إنسان آخر ، محشوراً ، بل كل ما يتعلّق به نفسه هو بعينه بدنه الذي كان . فالإعتقاد بحشر الأبدان يوم القيامة هو أن تُبعث أبدان من القبور إذا رأى أحد كل واحد منها يقول هذا فلان بعينه ، أو هذا بدن فلان ، ولا يلزم من ذلك أن يكون غير مبدّل الوجود والهوية . كما لا يلزم أن يكون مشوّه الخلق وأن يكون الأقطع والأعمى والمهْرِم محشوراً على ما كانوا عليه من نقصان الخلقة وتشويه البنية»^(١) .

ثم إن للمتكلمين جواباً آخر في الذب عن هذه الصورة من الإشكال حاصله أن المعاد ، إنما هو الأجزاء الأصلية ، وهي الباقية من أول العمر إلى آخره ، لا جميع الأجزاء على الإطلاق ، وهذه الأجزاء الأصلية ، التي كانت للإنسان المأكول ، هي في الأكل فضلات ، فإننا نعلم أن الإنسان يبقى مدة عمره وأجزاء الغذاء تتوارد عليه وتزول عنه ، فإذا كانت فضلات فيه ، لم يجب إعادتها في الأكل بل في المأكول^(٢) .

ويظهر من المحقق الطوسي ارتضاؤه حيث يقول : « ولا يجب إعادة فواضل المكلف » . وأوضحه العلامة الحلي بقوله : « إن لكل مكلف أجزاء أصلية لا يمكن أن تصير جزءاً من غيره ، بل تكون فواضل من غيره لو اغتذى بها »^(٣) .

وما ذكره خال عن الدليل ، إذ لم يدلّ دليل على أن لكل مكلف أجزاء أصلية لا تكون جزءاً لبدن غيره .

نعم ، ورد في بعض الروايات ، ولكنها روايات آحاد ، لا توجب علماً ، فلو ثبت صدورهما ، فَلْيَقْبَلْ تَعْبِداً^(٤) .

إلى هنا تم الجواب عن الصورة الأولى من الإشكال .

(١) الأسفار ، ج ٩ ، ص ٢١٠ .

(٢) شرح المواقف ، ج ٨ ، ص ٢٩٦ .

(٣) كشف المراد ، ص ٢٥٦ ، ط صيدا .

(٤) لاحظ بحار الأنوار ، ج ٧ ، باب إثبات الحشر ، الحديث ٢١ ، ص ٤٣ .

وأما الصورة الثانية من الإشكال : فقد عرفت أنها تركز على العدل الإلهي ، وأن كون بدن المؤمن جزءً من بدن الكافر يستلزم تعذيب المجرم ، ولكنه مبني على إعطاء الأصالة في الحياة للبدن وهي نظرية خاطئة ، فإن اللذائذ والآلام ترجع إلى الروح ، والبدن وسيلة لتعذيبه وتنعيمه .

فصيرورة بدن المسلم جزءً من بدن الكافر ، لا يلزم تعذيب المؤمن ، لأنَّ المُعَذَّب بتعذيب البدن ، هو روح الكافر ونفسه ، لا روح المؤمن . وهذا نظير أخذ كلية من إنسان حيٍّ ووصلها بإنسان يعاني من ضعفها وعلتها ، فإذا نجحت عملية الوصل وصارت الكلية الموصولة ، جزء من بدن المريض ، ثم عُذِّب هذا المريض ، فالمُعَذَّب هو هو ، ولو نُعِم ، فالنَّعَم هو هو ، ولا صلة بينه وبين من وَهَب كليته وأهداها إليه .

وقد عرفت في كلام صدر المتألهين ما يفيدك في المقام .

* * *

أسئلة المعاد

(٦)

مكان بعث النفوس وحشرها

أثبتت البحوث الجيولوجية والتنقيبات الأثرية أن الإنسان يعيش في هذا الكوكب منذ أكثر من مليوني سنة ، ويستدل على ذلك بالمستندات الحفرية التي تؤلف سجلات الخليقة . فعندئذ يطرح هذا السؤال : هل يكفي سطح الأرض لاستقرار جميع الخلائق التي لا يحصي عددها إلا خالقها ، في يوم واحد ، كما هو صريح قوله سبحانه : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ (١) ، مع أن مساحة الأرض لا تتجاوز (٥٠٩,٩٥٠,٧١٥) كيلومتر مربع ؟

والجواب :

إن السؤال مبني على حفظ النظام يوم القيامة ، مع أن صريح الآيات على تبدل النظام ، وحدث نظام أوسع وأكبر ، وقد عرفت أن الديناميكا الحرارية تثبت اتجاه المواد الكونية إلى الفناء بمرور الزمن ، فلا تقوم القيامة على صعيد هذا النظام . والآيات في هذا المجال كثيرة .

يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٢) .

(١) سورة المرسلات : الآية ٣٨ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٤٨ .

والذكر الحكيم يصرح بأن الشمس والقمر يجريان إلى أجلٍ مسمى . يقول سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ لِّجَرِيِّ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾^(١) ، بل جميع العوالم المحسوسة من الأرض والسموات ، كلها تجري إلى أجلٍ مسمى ، يقول سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾^(٢) .

والآيات التي ننقلها في كيفية حدوث القيامة ، تكشف عن تدمير النظام بأسره ، وانقلابه إلى نظام آخر ، يقول سبحانه : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَبُثَّتِ الْجِبَالُ بُثًّا ﴾^(٣) . ويقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ﴾^(٤) . وغير ذلك مما سيوافيك بيانه .

فالناس يحشرون على صعيدٍ واحد ، في يوم واحد ، لكن في نظام آخر ، عظيم هائل يسع لجميع العباد ، ومحاسبتهم فيه .

* * *

(١) سورة الرعد . الآية ٢ .

(٢) سورة الروم . الآية ٨ ، ونظيره الأحقاف : ٣ .

(٣) سورة الواقعة . الآيتان ٧ و ٦ .

(٤) سورة الطور . الآيتان ٨ و ٩ .

أسئلة المعاد

(٧)

كيف يخلد الإنسان ، مع أن المادة تفتى ؟

دلّت الآيات والروايات على خلود الإنسان في الآخرة ، إما في جنتها ونعيمها ، أو في جحيمها وعذابها ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر ، دلت القوانين العلمية على أن المادة ، حسب تفجر طاقاتها ، على مدى أزمنة طويلة ، تبلغ إلى حد تنفذ طاقتها فلا يمكن أن يكون للجنة والنار بقاء ، كما لا يكون للإنسان خلود كذلك ، لأنّ مكونات الكون تفقد حرارتها تدريجياً ، وتصير الأجسام على درجة بالغة الانخفاض^(١) ، وبالتالي تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة .

الجواب

إنّ السؤال ناشٍ من مقايضة الآخرة بالدنيا ، وهو خطأ فادح ، لأنّ التجارب العلمية لا تتجاوز نتائجها المادة الدنيوية . وإسراء حكم هذا العالم إلى العالم الآخر ، وإن كان مادياً وعنصرياً مثلها ، قياس لا دليل عليه . كيف ، وقد تعلقت قدرتها سبحانه على إخلاد الجنة والنار ، وله إفاضة الطاقة ، إفاضة بعد إفاضة ، على العالم الأخرى بجحيمه وجنته ، ومؤمنه وكافره . ويعرب عن ذلك

(١) هي درجة الصفر المطلق البالغة (٢٦٩) درجة مئوية تحت الصفر ، وهي درجة سيلان غار الهيليوم .

قوله سبحانه : ﴿ كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١) .

ويعزز ذلك ما جاء في آخر الآية من الإتكاء على كونه عزيزاً ، فإنَّ معناه : مقتدراً على إمداد المادة . فلأجل ذلك لو كانت الحركة والعمل مفيينين لطاقات المادة الدنيوية ، فليس كذلك في المادة الآخروية ، لدعمها بطاقات جديدة ، فلو نضج جلد يأتي مكانه جلد آخر ، وهكذا .

وهذا السؤال من أوضح موارد قياس الغيب على الحس أولاً ، وعدم التعرف على قدرته سبحانه ثانياً ، يقول تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (٢) .

* * *

(١) سورة النساء : الآية ٥٦ .

(٢) سورة الحج : الآية ٧٤ .

أسئلة المعاد

(٨)

ما هو الغرض من عقاب المجرم أو تنعيم المحسن ؟

إنَّ الحكيم لا يعاقب إلا لغاية وغاية العقوبة إما التشفي كما في قصاص المجرم ، وهو محال على الله ، أو إيجاد الاعتبار في غير المعاقب ، أو تأديب المجرم ، وكلاهما يتحققان في النشأة الدنيوية لا الآخروية ، فيكون تعذيب المجرم في الآخرة عبثاً لا غاية فيه .

بل ربما يقال إنَّ تنعيم المؤمن أيضاً بلا وجه ، لأن اللذة الجسمانية لا حقيقة لها وإنما هي دفع الألم ، فلوترك الميت على حاله ولم يعد ، لم يكن مثلاً . فالغرض حاصل بدون الإعادة ، فلا فائدة فيها^(١) .

الجواب

إنَّ السائل قد فرض أنَّ المعاد أمر ممكن في ذاته ولم يدل دليل على ضرورة وقوعه ، فسأل عن الغاية الموجبة له ، ولكنه لو وقف على ما ذكرنا من الأدلة التي تحتم المعاد ، وتجعل وجوده ضرورياً ، لترك السؤال . فقد عرفت أنَّ هناك وجوهاً ستة تُعرَّفُ المعاد أمراً ضرورياً لا مناص عنه ، منها كون المعاد مجلي للعدل الإلهي ، فإذا كان وجود المعاد ، أمراً ضرورياً ، فالسؤال عن غاية وهدف

(١) لاحظ شرح المواظف ، ج ٨ ، ص ٢٩٦ ، والجزء الأول من كتابنا هذا ، وقد جاء السؤال فيه أبسط مما ذكر هنا .

أمر ضروري الوقوع ، ساقط . وذلك لأن بين تلك الأدلة التي توجب ضرورة المعاد ، عللاً غائية ، كتجلى عدله سبحانه في المعاد ، أو كمال الإنسان ، ومعها لا معنى للسؤال عن غاية المعاد .

ومن العجب أن السائل يجعل اللذة الجسمانية شيئاً لا حقيقة له ، وأنها ما هي إلا دفع الألم . ولا أظن أنه نفسه يقدر على تطبيقه على جميع موارد اللذة ، فهل في اللذة الجسمانية الحاصلة من التأمل في روضة غناء ، دفعاً للألم ، بحيث لولاه لكان غارقاً في الآلام والأوجاع ، أو أنها لذة واقعية مناسبة للنفس في مقامها المادي ، وقس على ذلك غيره .

وهناك جوابان آخران تقدّما في الجزء الأول عند البحث عن ثمرات التحسين والتقبيح العقليين ، فلا نعيدهما^(١) .

* * *

(١) لاحظ الإلهيات ، ج ١ ص ٢٩٣-٣٠٠ .

أسئلة المعاد

(٩)

من هم المخلدون في النار

اختلفت كلمة المتكلمين في المخلّدين في النار ، فذهب جمهور المسلمين إلى أن الخلود يختص بالكافر ، دون المسلم وإن كان فاسقاً . وذهب الخوارج والمعتزلة إلى خلود مرتكب الكبائر في النار إذا مات بلا توبة .

قال الشيخ المفيد : « إتفقت الإمامية على أن الوعيد بالخلود في النار متوجه إلى الكفار خاصّة دون مرتكبي الذنوب من أهل المعرفة بالله تعالى والإقرار بفرائضه من أهل الصلاة »^(١) .

وقال في شرح عقائد الصدوق : « أما النار فهي دار من جهل الله سبحانه ، وقد يدخلها بعض من عرفه ، بمعصية الله ، غير أنه لا يخلد فيها بل يخرج منها إلى النعيم المقيم ، وليس يخلد فيها إلا الكافرون » . . . إلى أن قال : « وكل آية تتضمن ذكر الخلود في النار فإنما هي في الكفار دون أهل المعرفة بالله تعالى ، بدلائل العقول والكتاب المسطور ، والخبر الظاهر المشهور^(٢) ، والإجماع ، والرأي السابق لأهل البدع من أصحاب الوعيد »^(٣) .

(١) أوائل المقالات ، ص ١٤ .

(٢) يريد من الخبر ، ما تصافر عن النبي من أنه قال : إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي . راجع البحار ، ج ٨ ، ص ٣٥١ .

(٣) شرح عقائد الصدوق ، ص ٥٥ .

وقال العلامة الحلي : « أجمع المسلمون كافة على أن عذاب الكافر مؤبد لا ينقطع ، وأما أصحاب الكبائر من المسلمين ، فالوعيدية على أنه كذلك . وذهبت الإمامية وطائفة كثيرة من المعتزلة والأشاعرة إلى أن عذابه منقطع »^(١) .

واستدل القائلون بالإنقطاع بآيات ، منها قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾^(٢) ، والإيمان أعظم أفعال الخير . فإذا استحق العقاب بالمعصية ، فيما أن يقدم الثواب على العقاب ، فهو باطل بالإجماع ، لأن الأثابة لا تكون إلا بدخول الجنة ، والداخل فيها مخلد لا يخرج منها أبداً ، فلا يبقى مجال لعقوبته ، أو بالعكس وهو المراد .

أضف إلى ذلك أنه يلزم أن يكون مَنْ عَبَدَ الله تعالى مدة عمره بأنواع القربات إليه ، ثم عصى في آخر عمره معصية واحدة ، مع حفظ إيمانه ، مخلداً في النار ، ويكون نظير من أشرك بالله تعالى مدة عمره ، وهذا عند العقل قبيح ومحال^(٣) .

واستدللت المعتزلة على خلود الفاسق في النار ، بالسمع وهو عدة آيات ، استظهرت من إطلاقها أن الخلود يعم الكافر والمنافق والفاسق . وإليك هذه الآيات واحدة بعد الأخرى .

الآية الأولى - قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَعَصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾^(٤) . ولا شك أن الفاسق عن عصي الله ورسوله بترك الفرائض وارتكاب المعاصي .

يلاحظ عليه : أولاً - إن دلالة الآية على خلود الفاسق في النار لا يتجاوز حد الإطلاق ، والمطلق قابل للتقييد . وقد خرج عن هذه الآية باتفاق المسلمين

(١) كشف المراد ، ص ٢٦١ ، ط صيدا .

(٢) سورة الزلزلة : الآية ٧ .

(٣) لاحظ كشف المراد ، ص ١٦١ ، ط صيدا .

(٤) سورة النساء : الآية ١٢ . وأما قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَعَصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ﴾ (الجن : الآية ٢٣) فهو راجع إلى الكفار ، كما هو واضح لمن لاحظ آيات السورة .

الفاستق التائب ، فلودل دليل هنا على أن المسلم الفاسق ربما تشمله عناية الله ورحمته ، ويخرج عن العذاب ، لكان المطلق مقيداً بقيد آخر وراء التائب ، فيبقى تحت الآية المشرك والمنافق .

وثانياً : إن الموضوع في الآية ليس مطلق العصيان ، بل العصيان المنضم إليه تعدي حدود الله ومن المحتمل جداً أن يكون المراد من التعدي هورفض أحكامه سبحانه ، وطردها ، وعدم قبولها . كيف ، وقد وردت الآية بعد بيان أحكام الفرائض .

يقول سبحانه : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ... ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ ... ﴾ (٢) .

ثم يقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... ﴾ (٣) .

ويقول : ﴿ وَمَنْ يُعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ... ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ﴾ ، وإن لم يكن ظاهراً في رفض التشريع ، لكنه يحتمله . بل ليس الحتم عليه بعيداً بشهادة الآيات الأخر الدالة على شمول غفرانه لكل ذنب دون الشرك ، أو شمول رحمته للناس على ظلمهم وغير ذلك من الآيات الواردة في حق الإنسان غير التائب كما سيوافيك .

يقول الطبرسي : « إن قوله : ﴿ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ﴾ ، ظاهر في تعدي جميع حدود الله ، وهذه صفة الكفار ، ولأن صاحب الصغيرة بلا خلاف خارج عن عموم الآية وإن كان فاعلاً للمعصية ، ومتعدياً حداً من حدود الله ، وإذا جاز إخراجه بدليل ، جاز لغيره أن يخرج من عمومها ، كمن يشفع له النبي أو يتفضل

(١) سورة النساء : الآية ١١ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٢ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٣ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٤ .

الله عليه بالعفو ، بدليل آخر ، وأيضاً فإن التائب لا بدّ من إخراجِه من عموم الآية ، لقيام الدليل على وجوب قبول التوبة ، وكذلك يجب إخراج من يتفَضَّل الله بإسقاط عقابه ، منها ، لقيام الدلالة على جواز وقوع التفضل بالعفو»^(١) .

الآية الثانية : قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَلَعَنَهُ ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾^(٢) .

قال القاضي : وجه الإستدلال هو أنه تعالى بيّن أنّ من قَتَلَ مؤمناً عمداً جازاه ، وعاقبه وغضب عليه ، ولعنه (وأخلده في جهنم)^(٣) .

يلاحظ عليه : أولاً - إن دلالة الآية دلالة إطلاقية ، فكما خرج منها القاتل المشرك إذا أسلم ، والمسلم القاتل إذا تاب ، فليكن كذلك من مات بلاثوبة ولكن اقتضت الحكمة الإلهية ، أن يتفَضَّل عليه بالعفو ، فليس التخصيص أمراً مشكلاً .

وثانياً : إنّ من المحتمل أن يكون المراد القاتل المستحل لقتل المؤمن ، أو قَتَلَهُ لإيمانه ، وهذا غير بعيد لمن لاحظ سياق الآيات .

لاحظ قوله سبحانه : ﴿ سَتَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ، كُلًّا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فُحِّدُوهُمْ وَاغْلُظْهُمْ حَيْثُ يَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾^(٤) .

ثم ذكر سبحانه بعد هذه الآية حكم قتل المؤمن خطأ وتعمداً . وفي ضوء هذا يمكن أن يستظهر أنّ الآية ناظرة إلى القتل العمدي ، الذي يقوم به القاتل لعداء ديني لا غير ، فيكون ناظراً إلى غير المسلم .

الآية الثالثة : قوله سبحانه : ﴿ بَلَى مِنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ

(١) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٢٠ ، طبعة صيدا .

(٢) سورة النساء : الآية ٩٣ .

(٣) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٥٩ .

(٤) سورة النساء : الآية ٩١ .

فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿١﴾ .

والاستدلال هذه الآية إنما يصح مع غُصَّ النظر عن سياقها ، وأما مع فإنها واردة في حق اليهود .

أضف إليه أن قوله سبحانه : ﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِئْتُهُ ﴾ ، لا يهدف إلا إلى الكافر ، فإنَّ المسلم المؤمن مهما كان عاصياً لا تحيط به خطيئته ، فإنَّ في قلبه نقاط بيضاء يشع عليها إيمانه واعتقاده بالله سبحانه وأنبيائه وكتبه . على أن دلالة الآية بالإطلاق ، فلوثبت ما يقوله جمهرة المسلمين ، يخرج الفاسق من الآية بالدليل .

الآية الرابعة : قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢)

إن دلالة الآية إطلاقية ، قابلة للتقييد ، أولاً . وسباق الآية في حق الكفار ، بشهادة قوله سبحانه قبل هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ (٣) ، ثم يقول : ﴿ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * فِ الْمَجْرِمِينَ ﴾ ، في مقابل ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، فلا يعم المسلم ، ثانياً .

هذه هي الآيات التي استدلت بها المعتزلة على تخليد الفاسق في النار ، وقد عرفت أن دلالتها بالإطلاق لا بالصراحة . وتقييد المطلق أمر سهل مثل تخصيص العام . مضافاً إلى انصراف أكثرها أو جميعها إلى الكافر والمنافق .

وهناك آيات أظهر مما سبق (٤) تدل على شمول الرحمة الإلهية للفساق غير التائبين نكتفي باثنتين منها :

(١) سورة البقرة ٠ الآية ٨١ .

(٢) سورة الزخرف ٠ الآيات ٧٤-٧٦ .

(٣) سورة الزخرف ٠ الآيتان ٦٩ و٧٠ .

(٤) كما تدل هذه الآيات على عدم الخلود في النار ، تدل على جواز العفو عن الفاسق من بدء الأمر ، وأنه يعفى عنه ولا يعذب من رأس ، فهذا الصنف من الآيات كما يحتاج به في هذه مسألة ، يحتاج به في المسألة السالفة أيضاً فلاحظ .

١ - قوله سبحانه : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١) .

قال الشريف المرتضى : « في هذه الآية دلالة على جواز المغفرة للمذنبين من أهل القبلة لأنه سبحانه دلنا على أنه يغفر لهم مع كونهم ظالمين ، لأن قوله ﴿ على ظلمهم ﴾ (جملة حالية) ، إشارة إلى الحال التي يكونون عليها ظالمين ، ويجري ذلك مجرى قول القائل : أنا أود فلاناً على غدره ، وأصله على هجره » (٢) .

وقد قرر القاضي دلالة الآية وأجاب عنها بأن الأخذ بظاهر الآية مما لا يجوز بالإتفاق ، لأنه يقتضي الإغراء على الظلم ، وذلك مما لا يجوز على الله تعالى ، فلا بد من أن يؤول ، وتأويله هو أنه يغفر للظالم على ظلمه إذا تاب (٣) .

يلاحظ عليه : إن ما ذكره من الإشكال ، جارٍ في صورة التوبة أيضاً ، فإن الوعد بالمغفرة مع التوبة يوجب تمادي العاصي في المعصية ، برجاء أنه يتوب . فلو كان القول بعدم خلود المؤمن موجباً للإغراء ، فليكن الوعد بالغفران مع التوبة كذلك .

والذي يدل على أن الحكم عام للتائب وغيره هو التعبير بلفظ « الناس » مكان « المؤمنين » فلو كان المراد هو التائب ، لكان المناسب أن يقول سبحانه : « وإنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ظُلْمِهِمْ » ، مكان قوله : « للناس » . وهذا يدل على أن الحكم عام يعم التائب وغيره .

إن هذه الآية تعدُّ الناس بالمغفرة ، ولا تذكر حدودها وشرائطها فلا يصح عند العقل الإعتماد على هذا الوعد وارتكاب الكبائر ، فإنه وعد إجمالي غير مبين من حيث الشروط والقيود .

٢ - قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ

(١) سورة الرعد : الآية ٧ .

(٢) مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ٢٧٨ .

(٣) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٨٤ .

يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿١﴾ .

وجه الاستدلال بهذه الآية على أن رحمته تشمل غير التائب من الذنوب ، أنه سبحانه نفى غفران الشرك دون غيره من الذنوب . وبما أن الشرك يغفر مع التوبة ، فتكون الجملتان ناظرتين إلى غير التائب . فمعنى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ ، أنه لا يغفر إذا مات من أشرك بلا توبة . كما أن معنى قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ، أنه يغفر ما دون الشرك من الذنوب بغير توبة لمن يشاء من المذنبين ، ولو كانت سائر الذنوب ، مثل الشرك ، غير مغفورة إلا بالتوبة ، لما حسن التفصيل بينهما ، مع وضوح الآية في التفصيل (٢) .

وقد أوضح القاضي دلالة الآية على ما يتبناه الجمهور بوجه رائع ، ولكنه - تأثراً بعقيدته الخاصة في الفاسق - قال : « إِنَّ الآية مجملة مفتقرة إلى البيان ، لأنه قال : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » ، ولم يبين من الذي يغفر له . فاحتمل أن يكون المراد به أصحاب الصغائر ، واحتمل أن يكون المراد أصحاب الكبائر ، فسقط احتجاجهم بالآية » (٣) .

أقول : عزب عن القاضي أن الآية مطلقة ، تعم كلا القسمين ، فأني إجمال في الآية حتى نتوقف . والعجب أنه يتمسك بإطلاق الطائفة الأولى من الآيات ، ولكنه يتوقف في إطلاق هذا الصنف .

نعم ، دفعا للإغراء ، وقطعا لعذر الجاهل ، قيد سبحانه غفرانه بقوله : ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ، حتى يصد العبد عن الارتقاء في أحضان المعصية بحجة أنه سبحانه وعده بالمغفرة .

ثم إن القاسم بن محمد بن علي الزبيدي العلوي المعتزلي ، تبع القاضي في تحديد مداليل هذه الآيات وقال : « آيات الوعيد لا إجمال فيها ، وهذه الآيات ونحوها مجملة ، فيجب حملها على قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ

(١) سورة النساء : الآية ٤٨

(٢) مجمع البيان ، ح ٢ ، ص ٥٧ بتلخيص .

(٣) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٧٨ .

صالحاً ثم اهتدى﴾. «ثم ساق بعض الآيات الواردة في غفران العباد في مجال التوبة^(١) .

ويظهر النظر في كلامه مما قدمناه في نقد كلام القاضي فلا نعيد .

هذا ، والبحث أشبه بالبحث التفسيري منه بالكلامي ، ومن أراد الإستقصاء في هذا المجال فعليه بجمع الآيات الواردة حول الذنوب والغفران حتى يتضح الحال فيها ، ويتخذ موضعاً حاسماً بإزاء اختلافاتها الأولية .

* * *

(١) الأساس لعقائد الأكياس ، ص ١٩٨

أسئلة المعاد

(١٠)

هل يجوز العفو عن المُسيء ؟

هل يجوز العفو عن العصاة في الآخرة أولاً ؟ وهل في الحكم بجواز العفو ،
إغراء للعصاة على إدامة العصيان ، أولاً ؟ أَوَلَيْسَ العفو عن العاصي ، خلفاً
للعوید ، وهو قبيح ؟

الجواب

إنَّ التعذيب حق للمولى سبحانه وله إسقاط حقه ، وهو إحسان منه
سبحانه على العبد : ﴿ وَمَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ ، فلا مانع ، إذا اقتضت
الحكمة ، من العفو عن العاصي في ظروف خاصة ، إما بالشفاعة ، أو بدونها .
وقد خالف معتزلة بغداد في ذلك ، فلم يجوزوا العفو عن العصاة عقلاً ،
واستدلوا على ذلك بوجهين :

الوجه الأول - إنَّ العقاب لطف من الله تعالى ، واللفظ يجب أن يكون
مفعولاً بالملكف على أبلغ الوجوه ، ولن يكون كذلك إلا والعقاب واجب على الله
تعالى . ومن المعلوم أنَّ الملكف متى علم أنَّه يُفَعَّل به ما يستحقه من العقوبة على
كل وجه ، كان أقرب إلى إداء الواجبات واجتناب الكبائر^(١) .

(١) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٤٦ .

يلاحظ عليه : إنّ اللطف عبارة عما يقرب الإنسان من الطاعة ، ويبعده عن المعصية ، وهذا لا يتصور إلا في دار التكليف لا دار الجزاء ، فالدار الأولى ، دار العمل والسعي ، والآخرة دار الحساب والإجتناء .

وأما ما ذكره أخيراً من أنه لو علم أنه يفعل ما يستحقه من العقوبة على كل وجه ، كان أقرب إلى إداء الواجبات واجتناب الكبائر ، فهو لو تم ، لوجب سد باب التوبة ، لإمكان أن يقال إن المكلف لو علم أنه لا تقبل توبته كان أقرب إلى الطاعة وأبعد من المعصية .

أضف إلى ذلك أن للرجاء آثاراً ببناءً في حياة الإنسان ، ولليأس آثاراً سلبية في الإدامة على الموبقات ، ولأجل ذلك جاء الذكر الحكيم ، بالترغيب والترهيب معاً .

ثم إنّ الكلام في جواز العفو لا في حتمته ، والأثر السليبي - لو سلمناه - يترتب على الثاني دون الأول .

الوجه الثاني - أن الله أوعد مرتكب الكبيرة بالعقاب ، فلم يعاقب ، للزم الخلف في وعيده ، والكذب في خبره^(١) ، وهما محالان^(٢) .

الجواب : إنّ الخلف في الوعد قبيح ، وليس كذلك في الوعيد ، والدليل على ذلك أن كل عاقل يستحسن العفو بعد الوعيد في ظروف خاصة ، فلو كان العفو من الله تعالى مع الوعيد قبيحاً ، لوجب أن يكون كذلك عند كل عاقل . ولعل الوجه في عدم كونه قبيحاً هو أن الوعيد حق ، والعفو إسقاط ، ومثل ذلك يعد مستحسنًا لا قبيحاً ، إذا وقع العفو في موقعه ، ولأجل ذلك يقول الشيخ الصدوق : اعتقادنا في الوعد والوعيد هو أن من وعده الله على عمل ثواباً ، فهو منجزه ، ومن وعده على عمل عقاباً فهو بالخيار إن عذّب به فَعَذِّله وإن عفا عنه فبفضله ، ﴿ وما الله بظلام للعبيد ﴾ ، ﴿ إنّ الله لا يغفر أن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا

(١) أخطأ المستدل في هذا ، فإن الوعد إنشاء وليس بإخبار حتى يلزم فيه الكذب .

(٢) شرح العقائد العضدية ، لجلال الدين الدواني (م ٩٠٨) ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

دونَ ذلك ﴿٢١﴾ .

هذا كله حول العفو عن الوعيد عقلاً . وأما سمعاً ، أي حسب الأدلة
النقلية فسيوافيك الكلام فيه عند البحث عن عدم خلود غير الكافر في النار .

* * *

(١) عقائد الصدوق ، ص ٨٦ من السحرة الحجرية الملحقة بشرح الباب الحادي عشر

أسئلة المعاد

(١١)

هل الجنة والنار مخلوقتان ؟

إنَّ الله سبحانه وعد المتقين بالجنة وأُوعِد العاصين بالنار ، فهل هما مخلوقتان الآن ، أم لا ؟ .

الجواب : ذهبت المعتزلة - غير أبي على الجبائي - والخوارج وطائفة من الزيدية ، إلى الثاني وذهبت الإمامية والأشاعرة إلى أنَّهما مخلوقتان .

قال الشيخ المفيد : « إنَّ الجنة والنَّار في هذا الوقت مخلوقتان وبذلك جاءت الأخبار ، وعليه إجماع أهل الشرع والآثار »^(١) .

وقال التفتازاني : « جمهور المسلمين على أنَّ الجنة والنار مخلوقتان الآن خلافاً لأبي هاشم والقاضي عبد الجبار ، ومن يجري مجراهما من المعتزلة حيث زعموا أنَّهما إِنَّمَا يُخْلَقَان يوم الجزاء »^(٢) .

والظاهر من السيد الرضي ، أنَّهما غير مخلوقتين الآن ، قال : والصحيح أنَّهما تَخْلُقَان بعد »^(٣) .

(١) أوائل المقالات ، ص ١٠٢

(٢) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ، ولاحظ شرح التجريد للقوشجي ، ص ٥٠٧ ، والعبارتان متحدتان .

(٣) حقائق التأويل ، ص ٢٤٥ .

أدلة القائلين بخلقها

أُستدل على كون الجنة والنار مخلوقتان ، بوجوه :

الوجه الأول : قصة آدم وحواء ، وإسكانهما الجنة ، وأكلهما من الشجرة ، وخصفهما عليهما من ورق الجنة ، ثم إخراجهما منها ، على ما نطق به الكتاب والسنة ، وانعقد عليه الإجماع قبل ظهور المخالفين . وحملهما على بستان من بساتين الدنيا ، ليس عليه دليل ^(١) .

يلاحظ عليه : إنَّ حمله على غير جنة الخلد التي هي قرار المآب وجنة الثواب ، ليس أمراً بعيداً ، والجنة في أصل اللغة يعبر بها عن الرياض ، والمنابت ، والأشجار ، والحدائق ، والكروم المعروشة ، والنخيل .

وعلى هذا قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ ^(٢) . وقوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ ، جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ ^(٣) .

ويمكن أن يؤيد ذلك بأنه لو كانت جنة الخلد ، لما خرج منها ، قال سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ^(٤)

وهذا ، وإن كان يُمكن حمله على مَنْ دَخَلَهَا بَعْدَ دَارِ الدُّنْيَا ، وهو غير متحقق في آدم ، ولكنه إحتمال في مقابل إحتمال . وكما لا يمكن الاحتجاج على كونها مخلوقين بما ورد في جنة آدم ، كذلك لا يمكن الإحتجاج عليه بما ورد من كون الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ^(٥) ، أو بما ورد من أنَّ آل فرعون يُعْرَضُونَ على

(١) شرح المقاصد ، ح ٢ ، ص ٢١٨ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٣٩ .

(٣) سورة سبأ : الآية ١٥ .

(٤) سورة المؤمنین : الآيتان ١١ و ١٠ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ١٦٩ .

النار غُدُوًّا وَعَشِيًّا^(١) ، لأنها راجعان إلى الحياة البرزخية . والتنعيم اوالتعذيب فيهما ، غيرهما في الآخرة .

الوجه الثاني : الآيات الصريحة في كونها مخلوقين ، كقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ رَأَوْا نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾^(٢) وكقوله في حق الجنة : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾^(٣) ، ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾^(٤) . ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾^(٥) وفي حق النار : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾^(٦) . ﴿ بُرِّرَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾^(٧) . وحملها على التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه ، مثل : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾^(٨) . ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار^(٩) ، يحتاج إلى دليل^(١٠) .

وهذا الاستدلال أمتن من سابقه ، ومع ذلك فالاعتقاد بكونها مخلوقتين الآن يتوقف على كون دلالتها على المقصود قطعية ، وهو غير حاصل ، لما عرفت من الإحتمال الآخر^(١١) .

نعم ، بعض هذه الآيات لا يحتمل إلا المعنى الأول ، مثل قوله : ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ ، إذ لم ير التعبير عن الشيء الذي سيتحقق غداً ، بالجملة الإسمية .

(١) سورة غافر : الآية ٤٦ .

(٢) سورة النجم : الآيات ١٣-١٥ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٣٣ .

(٤) سورة الحديد : الآية ٢١ .

(٥) سورة الشعراء : الآية ٩٠ .

(٦) سورة آل عمران : الآية ١٣١ .

(٧) سورة الشعراء : الآية ٩١ .

(٨) سورة الكهف : الآية ٩٩ .

(٩) سورة الأعراف : الآية ٤٤ .

(١٠) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢١٨ و٢١٩ .

(١١) وقد اعتمد على هذا الإحتمال السيد الرضى في حقائق التأويل ص ٢٤٧ ، وقال : إنَّ التعبير بالفعل الماضي ، لصحته وتحقيق وقوعه ، وكأنه قد كان ، فعبر عنه بعبارة الكائن الواقع .

الوجه الثالث : إنّ الله تعالى رَغِبَ المُكَلِّفِينَ بِالْجَنَّةِ ، وَرَهَّبَهُم بِالنَّارِ ، فكيف يصحّ الترغيب بجنة لم يخلقها ، والترهيب بنار لم يخلقها^(١) .

وهذا الوجه ضعيف جداً ، لأنّ الجنّة الموصوفة ، لما كانت مقدورة له تعالى ، ومثلها النار ، صحّ الترغيب والترهيب ، كما رغب المكلفين في ثواب لم يوجد بعد ، لأنّ وعده صادق وأمره واقع^(٢) .

نعم ، هناك روايات لا يمكن العدول عنها ، لتضافرها روى الصدوق في الأمالي والتوحيد عن الهروي ، قال : قلت : للرضا عليه السلام : يا بن رسول الله ، أخبرني عن الجنّة والنار أهما اليوم مخلوقتان ؟ فقال : نعم ، وإنّ رسول الله قد دخل الجنّة ورأى النار ، لما عرج به إلى السماء . قال : فقلت له : فإنّ قوماً يقولون إنّهما اليوم مقدّرتان غير مخلوقتين . فقال عليه السلام : ما أولئك منّا ولا نحن منهم ، من أنكر خلق الجنّة والنار ، فقد كذّب النبي صلى الله عليه وآله وكذّبنا^(٣) .

أدلة النافين لخلقها

استدل النافون لخلقها بوجوه :

١ - إنّ خلق الجنّة والنار قبل يوم الجزاء ، عبث ، لا يليق بالحكيم تعالى .
٢ - إنّهما لو خلقتا لهلكتا ، لقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾^(٤) ، واللازم باطل ، للإجماع على دوامهما ، وللنصوص الشاهدة بدوام أكل الجنّة وظلّها .

٣ - إنّهما لو وجدتتا الآن فإما في هذا العالم ، أو في عالم آخر ، وكلاهما باطل ، أمّا الأوّل فلأنه لا يتصور في أفلاكه ، لامتناع الخرق والالتثام عليها ،

(١) حقائق التأويل ، ص ٢٤٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) حق اليقين ، للسيد شبر ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ .

(٤) سورة القصص : الآية ٨٨ .

ولامتناع حصول العنصریات فیها ، ولأنها لا تسع جنّة عرضها كعرض السماء والأرض .

وأما الثاني ، بأن يكونا فوق محدد الجهات^(١) ، فلأنه يلزم أن يكون في اللامكان مكان ، وفي اللاحقة جهة^(٢) .

يلاحظ على الأول أن الحكم بالعبيّة يتوقف على العلم القطعي بعدم ترتب غرض عليه ، ومن أين لنا بهذا العلم ؟ .

ويلاحظ على الثاني أنه ليس المراد من ﴿ هالك ﴾ هو تحقق انعدامه وبطلان وجوده ، بل المراد أن كل شيء هالك في نفسه ، باطل في ذاته ، لا حقيقة له إلا ما كان عنده مما أفاضه الله عليه . والحقيقة الثابتة في الواقع التي ليست هالكة باطلة من الأشياء هي صفاته الكريمة ، وآياته الدالة عليها فيها جميعها ثابتة بثبوت الذات المقدسة ، هذا بناء على كون المراد بالهالك في الآية ، الهالك بالفعل .

وأما إذا أريد من الهالك ما يستقبله الهلاك والفناء ، بناء على ما قيل من أن اسم الفاعل ظاهر في الإستقبال ، فهلاك الأشياء ليس بمعنى البطلان المطلق بعد الوجود ، بأن لا يبقى منها أثر ، فإن صريح كتاب الله ينفيه ، فإن آياته تدل على أن كل شيء مرجعه إلى الله وأنه المنتهى وإليه الرجعى ، وهو الذي يُبدى الخلق ثم يعيده .

وإنما المراد بالهالك على هذا الوجه ، تبدل نشأة الوجود ، والرجوع إلى الله ، المعبر عنه بالانتقال من الدنيا إلى الآخرة ، والتلبس بالعود بعد البدء ، وهذا إنما يشمل ما كان موجوداً بوجود بدني دنيوي ، وأما نفس الدار الآخرة ، وما هو موجود بوجود أخروي كالجنة والنار ، فلا يتصف بالهلاك بهذا المعنى . قال سبحانه : ﴿ وَمَا عِنْدَكُمْ يَنْقَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾^(٣) .

(١) محدد الجهات عبارة عن الفلك التاسع ، وهو الفلك الأطلس الذي كان يعتقد به بطليموس ويقول ليس فوقه خلاء ولا ملاء .

(٢) لاحظ هذه الوجوه الثلاثة في شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

(٣) سورة النحل : الآية ٩٦ .

وقال سبحانه : ﴿ وما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾^(١) . وقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خِزَائُنُهُ ﴾^(٢) . وكذا اللوح المحفوظ ، كما قال سبحانه : ﴿ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾^(٣) . فهذه الآيات تعرب عن عدم شمول الآية إلا لما له وجود دنيوي ، فيتبدل إلى وجود أخروي ، لا ما كان موجوداً بوجود أخروي من بدء الأمر .

ويلاحظ على الثالث أنه مبني على التصوير البَطْلَمَيْوسِي للعالم ، وقد أبطل العلم أصله ، فيبطل ما فرع عليه ، فإن الكون وسيع إلى حد لا تحيط به الأرقام والأعداد النجومية .

وعلى ذلك يمكن أن تكون الجنة والنار في ذلك الفضاء الواسع الذي لا يحيط بسعته إلا الله سبحانه ، وليس علينا تعيين مكانها بالدقة ، كيف والله سبحانه يقول : ﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿^(٤)﴾ ، فلما كان المراد من جنة المأوى ، الجنة الموعودة ، فهي عند سدرة المنتهى ، وقد سئل ابن عباس عن سدرة المنتهى ، فقال : « إليها ينتهي علم كل عالم ، وما وراءها لا يعلمه إلا الله »^(٥) . فإذا كانت سدرة المنتهى هي منتهى علم البشر ، فلن يصل علمهم إلى الجنة الموعودة التي هي عندها ، ولا يمكن لأحد تعيين مكانها ، بل غاية ما يمكن قوله هو أنها مخلوقتان موجودتان في هذا الكون غير المتناهي طولاً وعرضاً .

وأما قوله سبحانه : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ ﴾^(٦) ، فليس المراد من العَرْض فيه ما يضاد الطول ، بل هو بمعنى السعة ، والآية بصدد بيان سعة الجنة كما لا يخفى .

(١) سورة آل عمران : الآية ١٩٨ .

(٢) سورة الحجر : الآية ٢١ .

(٣) سورة ق : الآية ٤ .

(٤) سورة النجم : الآيتان ١٤ - ١٥ .

(٥) الدر المنثور ، ج ٦ ، ص ١٢٥ .

(٦) سورة الحديد : الآية ٢١ .

نعم ، يستفاد من ظاهرها أنها ليست في السماء التي يراد منها السيارات والكواكب والمجرات الظاهرة . ومما يؤيد ذلك أن النظام السماوي السائد على الكون المشاهد ، يتلاشى عند قيام القيامة لقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ ﴾^(١) فلو كانت الجنة والنار فيها ، للزم تلاشيها واندثارهما عند قيام القيامة .

ويمكن أن يقال إن الجنة والنار كسائر الموجودات الإمكانية ، تتكاملان وتتسعان ، ويؤيده ما رُوِيَ عن النبي أنه قال : « ليلة أُسْرِيَ بي ، مرَّ بي إبراهيم ، فقال : مُرْ أُمَّتَكَ أَنْ يَكْثُرُوا مِنْ غَرْسِ الْجَنَّةِ ، فَإِنْ أَرْضُهَا وَاسِعَةٌ وَتَرْبَتُهَا طَيِّبَةٌ ، قُلْتُ : وَمَا غَرْسُ الْجَنَّةِ قَالَ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ »^(٢) .

هذا كله على القول بأن الجنة والنار حسب ظواهر الكتاب ، موجودتان في الخارج ، مع قطع النظر عن أعمال المكلف ، وأنها معدّتان للمطيع والعاصي ، وأما على القول بأنه ليس لهما وراء عمل الإنسان حقيقة ، وأن الجنة والنار عبارة عن تجسم عمل الإنسان بصورة حسنة وبهيّة ، أو قبيحة ومرعبة ، فالجنة والنار موجودتان واقعاً بوجودهما المناسب في الدار الآخرة ، وإن كان الإنسان ، لأجل كونه محاطاً بهذه الظروف الدنيوية ، غير قادر على رؤيتهما ، وإلا فالعمل ، سواء كان صالحاً أو طالحاً ، قد تحقق وله وجودان وتمثلان ، وكل موجود في ظرفه .

* * *

(١) سورة الأنبياء : الآية ١٠٤ .

(٢) سفينة البحار ، مادة غرس ، ج ٢ ، ص ٣١٢ .

الخاتمة

- * التَّقِيَّةُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ
- * عَدَالَةُ الصَّحَابَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ
- * الشَّيْعَةُ وَاتِّهَامُهُمْ بِالْقَوْلِ بِتَحْرِيفِ الْقُرْآنِ
- * الْمُنْتَعَةُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

الخاتمة

قد تعرفت فيما تقدم على المسائل الرئيسية المطروحة في علم الكلام الإسلامي ، ووقفت على الحق القراح الذي يدعمه العقل ويثبت الكتاب والسنة المطهرة ، وهناك بعض المسائل التي لم تزل الشيعة الإمامية ، تُزدرى بها ، وتهاجم أو تُتهم بالإعتقاد بها ، وهي :

- ١ - البداء .
- ٢ - الرجعة .
- ٣ - التقية .
- ٤ - عدم الإعراف بعدالة جميع الصحابة .
- ٥ - الإتهام بالقول بتحريف القرآن .
- ٦ - المتعة .

وقد قدّمنا البحث عن البداء في الجزء الأول من الكتاب^(١) ، وعن الرجعة في مباحث الإمامية^(٢) ، وفيما يلي نتعرض إلى بقية هذه المسائل ، وإن كان بعضها (المتعة) من المسائل الفقهية التي لا تمت إلى المسائل الكلامية بصلة ، ولكن نذكرها رجاء الستر عن وجه الحق ، وتقريب الخطى بين المسلمين .

(١) الإلهيات ، ج ١ ، الفصل الخامس ، ص ٥٦٣-٥٩٣ .

(٢) لاحظ ص من هذا الجزء .

مباحث الخاتمة

(١)

التقية في الكتاب والسنة

إنّ مما يشنع به على الشيعة ويُزدرى به عليهم ، قولهم بالتقية وعملهم بها في أحيان وظروف خاصة . ولكن المشنعين لم يقفوا على مغزاها . ولو تثبتوا في الأمر ، وترثوا في الحكم ، ورجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وسألوا أهل الذكر ، لوقفوا على أنها مما تحكم به ضرورة العقل ونص الكتاب والسنة .

إنّ ها هنا أمرين مختلفين ربما يخلط الجاهل أحدهما بالآخر ، وهما :

١ - النفاق .

٢ - التقية .

وقد ضربوهما بسهم واحد ، وأعطوهما حكماً واحداً فقالوا إن التقية فرع من النفاق تجلّى في الشيعة باسم التقية . ولورجعوا إلى الكتاب العزيز لعرفوا أنه بينما يندد بالنفاق والمنافقين ويقول : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾^(١) ، ويقول : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾^(٢) ، يحرّض على التقية في ظروف خاصة ويقول : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ

(١) سورة التوبة : الآية ٩٧ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٤٥ .

ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ، إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ .

فقلوه : ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا﴾ ، إستثناء من أهم الأحوال ، أي إن ترك موالات الكافرين حتم على المؤمنين في كل حال ، إلا في حال الخوف من شيء يتقونه منهم ، فللمؤمنين حيثل أن يوالوهم بقدر ما يتقى به ذلك الشيء ، لأن درء المفسد مُقَدَّم على جلب المصالح .

والإستثناء منقطع ، فإن التقرب من الغير خوفاً بإظهار آثار التولي ظاهراً ، من غير عقد القلب على الحب والولاية ، ليس من التولي في شيء . لأن الخوف والحُب أمران قليبان ، ومتنافيان أثراً في القلب ، فكيف يمكن اجتماعهما . فاستثناء الإلتقاء إستثناء منقطع .

فلو كانت التقية من فروع النفاق ، فلماذا دعا إليها الكتاب الحكيم ؟ .

روى السيوطي في الدرّ المنثور قال : أخرج ابن إسحاق وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، قال : كان الحجاج بن عمرو ، حليف كعب الأشرف ، ابن أبي الحقيق ، وقيس بن زيد ، وقد بطنوا بنفر من الأنصار ، ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير ، وسعد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء النفر من اليهود ، واحذروا مباطنتهم لا يفتنونكم عن دينكم . فأبى أولئك النفر ، فأنزل الله فيهم : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ ، إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ، فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) . فترى أنه سبحانه يجوز إظهار الكفر كرهاً ، ومجارة الكافرين خوفاً

(١) سورة آل عمران : الآية ٢٨ .

(٢) الدرّ المنثور ، ج ٢ ، ص ١٦ .

(٣) سورة النحل : الآية ١٠٦ .

منهم بشرط أن يكون القلب مطمئناً بالإيمان . فلو كانت مداراة الكافرين في بعض الظروف نفاقاً ، فلم رخصه الإسلام وأباحه ، وقد اتفق المفسرون على أن الآية نزلت في جماعة أكرهوا على الكفر، وهم عمار وأبوه ياسر وأُمُّه سُمَيَّة ، وقتل أبو عمار وأُمُّه ، وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه . ثم أخبر سبحانه بذلك رسول الله ، فقال قومٌ كَفَرَ عمار ، فقال صلوات الله عليه وآله : « كَلَّا ، إِنَّ عماراً مُلِئَ إِيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه » . وجاء عمار إلى رسول الله وهو يبكي ، فقال : « ما وَرَأَاكَ ؟ » فقال : « شَرُّ يا رسول الله ، ما تُرِكَتُ حتى نِلْتُ مِنْكَ ، وذكرت آهتهم بخير » . فجعل رسول الله يمسح عينيه ويقول : « إِنَّ عادوا لك فَعَدُّهُمْ بما قُلْتَ » فنزلت الآية (١) .

نعم ، شذت عن المسلمين جماعة الخوارج فمنعوا التقية في الدين مطلقاً ، وإن أكره المؤمن وخاف القتل ، زاعمين أكن الدين لا يُقَدَّم عليه شيء (٢) .

وماذكروه إجتهد في مقابل النص ، فإن الآية تصرح بأن من نطق بكلمة الكفر مَكْرَهاً ، وقايةً لنفسه من الهلاك ، لا شارحاً بالكفر صدىراً ، ولا مستحسناً للحياة الدنيا على الآخرة ، لا يكون كافر بل يُعَذَّر ، كما عُدَّ الصحابي الذي قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أني رسول الله ، قال : نعم ، فتركه ، وقتل رفيقه الذي سأله هذا السؤال ورفضه (٣) .

كيف ، وربما يترتب على التقية ومجاراة أعداء الدين ومخالفي الحق ، حفظ مصالح الإسلام والمسلمين . وبذلك يظهر الفرق بين النفاق والتقية ، فلن بين الأمرين فرقاً جوهرياً لا يخلط أحدهما بالآخر .

إن التقية والنفاق يختلفان من وجهين ، وربما يكون الفرق أكثر من ذلك ، ولكن نكتفي بهما :

(١) مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ٣٨٨ ، ونقله غير واحد من المفسرين .

(٢) المنار ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨١ .

١ - اختلافهما من حيث المبادئ النفسية

إنَّ المتقي مؤمن بالله سبحانه وكتبه ورسله ، غير أنه يرى صلاح دينه ودينه في عدم التظاهر بما آمن به ، والتظاهر بخلافه في بعض الأحيان . ولكن المنافق هو من يُبطن الكفر ، وعدم الإيمان بالله سبحانه ، وكتبه ، ورسله ، أو ما دونها من المبادئ الدينية ، ولكنه يتظاهر بالإيمان حتى يتخيل المؤمنون أنه منهم .

وهذا مؤمن آل فرعون ، يكتُم إيمانه ، تقية من قومه ، وربما يتظاهر بأنه على دين قومه ، ولكنه بهذا الغطاء يخدم دينه ونبيّه ، فيُرشد قومه إلى رصانة دينه ، ببيانٍ بليغٍ صادرٍ عن رجلٍ محايد ، كما يخدم نبي زمانه بإبلاغه مؤامرة قومه للفتك به ، وتظهر تلك الحقيقة في الآيتين التاليتين :

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴾ (١) .

ويقول أيضاً : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ، قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٢) .

٢ - اختلافهما من حيث الغايات والأغراض

إنَّ مستعمل التقية لا يهدف من استعمالها ، إلا صيانة نفسه عن الأذى والقتل ، وعرضه عن الهتك ، وماله عن النهب ، أو ما يؤول إليها بالنتيجة . فلو كان هناك طمأنينة بالنسبة إلى ما يرجع إليه من هذه الأمور ، لما استعمل التقية ، ولا لجأ إليها . حتى أنَّ التقية لأجل التحابب والتوادم ، ترجع غايتها إلى درء الشر عن النفس والنفيس .

(١) سورة غافر ٠ الآية ٢٨

(٢) سورة القصص : الآية ٢٠ وهذا الرجل هو مؤمن آل فرعون على ما في التفسير .

وأما المنافق فإنما يلجأ إلى النفاق ، لا لتلك الغايات المقدسة ، وإنما يريد أن يتدخل في شؤون المسلمين ، ويقلب ظهر المجن عليهم في الظروف القاسية أو يشترك معهم في المناصب ، والمقامات والغنائم والأموال وغير ذلك مما تلتذ به النفوس الحريصة ، ولأجل ذلك يعدّ سبحانه عبد الله بن أبي وأنصار حزبه من المنافقين وإن تظاهروا بالإيمان . يقول سبحانه : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

سؤال وجواب

أما السؤال ، فهو : إن الآيتين راجعتان إلى تقيّة المسلم من الكافر ، ولكن الشيعة تتقي إخوانهم المسلمين ، فكيف يستدل بهما على صحة عملهم ؟ .
وأما الجواب ، فهو : إن الآيتين وإن كانتا لا تشملان تقيّة المسلم من أخيه المسلم بالدلالة اللفظية ، ولكنهما تشملان غير موردهما نفس الملاك الذي سوغ تقيّة المسلم من الكافر فإن وجه تشريع التقيّة هو صيانة النفس والعرض والمال من الهلاك والدمار ، فإن كان هذا الملاك موجوداً في غير مورد الآية ، فيجوز ، أخذاً بوحدة المناط . وقد كان عمل الشيعة على التقيّة منذ تغلب معاوية على الأمة ، وابتزازه الإمرة عليها بغير رضا منها ، وصار يتلاعب بالشريعة الإسلامية حسب أهوائه ، وجعل يتتبع شيعة علي ويقتلهم تحت كل حجر ومدر ، وناخذ على الظنة والتهمة . وسارت على طريقته العوجاء الدولة المروانية ، ثم العباسية ، فزادت في الطين بلة ، وفي الطنبور نغمة . هذا وذاك ، اضطر الشيعة إلى كتمان أمرها تارة ، والتظاهر به أخرى ، زنة ما تقتضيه مناصرة الحق ، ومكافحة الضلال ، وما يحصل به إتمام الحجة .

(١) سورة المنافقون : الآية ١ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٩٨ .

التقية المَحْرَمَة

إن التقية تنقسم حسب الأحكام الخمسة ، فكما أنها تجب لحفظ النفوس والأعراض والأموال ، ربما تحرم إذا ترتب عليها مفسدة أعظم ، كهدم الدين وخفاء الحقيقة عن الأجبال الآتية ، وتسلب الأعداء على شؤون المسلمين وحرمانهم ومعابدهم . ولأجل ذلك نرى أن كثيراً من عظماء الشيعة وأكابرهم رفضوا التقية في بعض الأحيان وتبوءوا للشُّنق على جبال الجور ، والصلب على أخشاب الظلم . وكلُّ من استعمل التقية ورفضها ، له الحُسى ، وكلُّ عمل بوظيفته التي عينتها ظروفه .

إنَّ التاريخ يحكي لنا عن الكثير من رجالات الشيعة الذين سحقوا التقية تحت أقدامهم ، وقَدَّموا هياكلهم المقدسة قرابين للحق ، منهم شهداء مرج عذراء ، وقائدهم الصحابي العظيم الذي أنهكته العبادة والورع ، جُجْر بن عُدي الكِنْدِي ، الذي كان من قادة الجيوش الإسلامية الفاتحة للشام .

ومنهم ميثم التمار ، ورشيد الهجري ، وعبد الله بن يقطر ، الذين شنقهم ابن زياد في كناسة الكوفة ، هؤلاء والمئات من أمثالهم هانت عليهم نفوسهم العزيزة في سبيل الحق، ونطحوا صخرة الباطل ، وما عرفوا أين زرعت التقية وأين وادياها ، بل وجدوا العمل بها حراماً ، ولو سكتوا وعملوا بالتقية ، لضاعت التقية من الدين ، وأصبح دين الإسلام دين معاوية ويزيد ، وزياذ وابن زياد ، دين المَكْر ، ودين الغدر ، ودين النفاق ، ودين الخداع ، دين كل رذيلة ، وأيّن هو من دين الإسلام الحق ، الذي هو دين كل فضيلة ، أولئك هم أصحابي الإسلام وقرابين الحق .

وفوق أولئك ، إمام الشيعة ، أبو الشهداء الحسين وأصحابه الذي هم سادة الشهداء ، وقادة أهل الإباء .

خزاية التاريخ

كيف لا يتقي شيعة عليٍّ في أيام حكومة الأمويين ، وهذا معاوية كتب إلى

عماله في جميع الآفاق : « أنظروا إلى من أُقيمت عليه البيّنة أنّه يحبّ علياً وأهل بيته فاحموه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه » . وشفّع ذلك بنسخة أخرى فيها : « من اتهمتموه بمؤالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره » . فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق ولا سبياً بالكوفة .

روى أبو الحسن علي بن محمد المدائني قال : قامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر، يلعنون علياً ويبرؤون منه ، ويقعون فيه وفي أهل بيته ، وكان أشدّ الناس بلاء حينئذٍ أهل الكوفة ، لكثرة مَنْ بها مِنْ شيعَةِ عليٍّ ، فاستعمل عليهم زياد بن سمية ، وضم إليه البصرة ، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف ، لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام ، فقتلهم تحت كل حجر ومدر ، وأخافهم ، وقطع الأيدي والأرجل ، وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشرّدهم عن العراق ، فلم يبق بها معروف منهم ^(١) .

وهناك رسالة قيّمة لأبي الشهداء ، الحسين بن علي عليه السلام حول الدماء الجارية والنفوس المقتولة بيد ابن أبي سفيان ، بذنب أنهم شيعة علي ومحبه ، رسالة تُعدّ من أوثق المصادر التاريخية ومما جاء فيها :

« أُلِّسَتْ قَاتِلَ جَجْرٍ وَأَصْحَابِهِ الْعَابِدِينَ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَفْظَعُونَ الْبَدْعَ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَقَتَلْتَهُمْ ظُلْماً وَعُدْوَاناً مِنْ بَعْدِ مَا أُعْطِيَتْهُمْ الْمَوَاقِيقُ الْغَلِيظَةُ وَالْعُهُودُ الْمُؤَكَّدَةُ ، جَرَاءً عَلَى اللَّهِ وَاسْتِخْفَافاً بِعَهْدِهِ ؟ »
« أَوَلَسْتُ بِقَاتِلِ عَمْرِو بْنِ الْحَقِّمِ الَّذِي أَخْلَقْتَ وَأَبْلَغْتَ وَجْهَهُ الْعِبَادَةَ ، فَقَتَلْتَهُ مِنْ بَعْدِ مَا أُعْطِيَتْهُ مِنَ الْعُهُودِ مَا لَوْ فَهَمْتَهُ الْعَصَمُ نَزَلَتْ مِنْ سَقْفِ الْجِبَالِ ؟ »

« أَوَلَسْتُ قَاتِلَ الْحَضْرَمِيِّ ^(٢) الَّذِي كَتَبَ إِلَيْكَ فِيهِ زِيَادٌ : إِنَّهُ عَلَى دِينِ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَدِينِ عَلِيِّ هُوَ دِينُ ابْنِ عَمِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الَّذِي أَجْلَسَكَ مَجْلِسَكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ كَانَ أَفْضَلُ شَرَفِكَ وَشَرَفِ آبَائِكَ تَجَشُّمَ الرَّحْلَتَيْنِ :

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج ٣ ، ص ١٥ .

(٢) يعني شريك بن شداد الحضرمي ، كان من أصحاب حجر الذين بعث بهم زياد إلى معاوية وقتل مع حجر .

رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، فوضعها الله عنكم بنا ، مِنةً عليكم »^١

نعم ، الرزية كل الرزية تقية المسلم من المسلم ، وخوف الأخ من أخيه ، ولولا الظلم الذي أوردته طائفة منهم على الأخرى ، لما احتاجت إلى التقية ، فلا ذنب للشيعة حينئذٍ . ولو سادت الحرية في العالم الإسلامي على الطوائف الإسلامية كلها ، لما كان هناك وجه لتقية الأخ من الأخ ، ولكن للأسف إن السلطة رأت أن مصالحها لا تقوم إلا بالضغط على الشيعة ليركوا عقيدتهم وعملهم ويذوبوا في الطوائف الإسلامية الأخرى ، فما ذنب الشيعة عندئذٍ من أن تتقي السلطة وجلالوتها وتظاهر على خلاف ما تعتقد لئلا يقتلوا أو يصلبوا ، أو تهتك أعراضهم أو تنهب أموالهم .

وكم شهدت أوساط الشيعة من مجازر عامة بيد السلطات الغاشمة ، فُقِلَ الآلاف منهم بلا ذنب إلا اتّباعهم لأئمة أهل بيت نبي الإسلام ، واقتنائهم آثارهم . ونكتفي من ذلك بكلمة موجزة - لكي لا نخرج عن موضوع البحث - تُصوّر جانباً من تلك الجرائم الفظيعة .

لم يفتأ شيخ الشيعة ، أبو جعفر الطوسي ، إمام عصره وعزيز مصره بغداد ، حتى نارت القلاقل وحدثت الفتن بين الشيعة والسنة ، ولم تزل تنجم وتخبوين الفينة والفينة ، حتى اتسع نطاقها بأمر طغرل بك أول القادة السلجوقيين ، فورد بغداد ، عام ٤٤٧ ، وشرّ على الشيعة حملة شعواء وأمر بإحراق مكتبة الشيعة التي أنشأها أبو نصر ، وزير بهاء الدولة البُوَيْهي ، وكانت من دور العلم المهمة في بغداد ، بناها هذا الوزير في محلة بين السورين ، في الكرخ ، عام ٣٨١ ، على مثال بيت الحكمة الذي بناه هارون الرشيد . وكانت مهمة للغاية فقد جمع فيها هذا الوزير ما تفرّق من كتب فارس والعراق واستكتب تآليف أهل الهند والصين والروم ، ونافت كتبها على عشرة آلاف من جلائل الآثار ، ومهام الأسفار ، وأكثرها نسخ الأصل بخطوط المؤلفين قال ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٤٨ : « وهرب أبو جعفر الطوسي ونهبت داره » ، ثم قال في حوادث سنة ٤٤٩ : « وفي

(١) الغدير ، ج ١٠ ، ص ١٦٠-١٦١ لاحظ المصدر هناك .

صفر هذه السنة كبست دارة أبي جعفر الطوسي متكلم الشيعة بالكُرخ ، وأخذ ما وجد من دفاتره وكُرسی يجلس عليه للكلام ، وأخرج إلى الكُرخ ، وأضيف إليه ثلاث سناجيق بيض كان الزوار من أهل الكُرخ يحملونها معهم إذا قصدوا زيارة الكوفة ، وأُحرق الجميع^(١) .

هذا غيض من فيض ، ونزر من كثير ، حول اضطهاد الشيعة وقتلهم ، وهتك أعراضهم ، جئنا به ليقف القارئ على أن لجوء الشيعة إلى هذا الأصل لم يكن إلا لظروف قاسية مرت عليهم ، وهي بعد سائدة ، فما ذنب الشيعة إذا أرادوا صيانة أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ؟ .

بالله عليكم أيها الإخوان ، لو كنتم انتم مكان الشيعة ، وكنتم تواجهون هذه الأحداث المؤلمة ، هل كنتم تسلكون غير هذا المسلك ، وهل كنتم تضمنون بالنفس والنفيس ، أو كنتم تهدون دماءكم وتهتكون أعراضكم وتبيدون أموالكم ؟ أظن أن من يملك شيئاً من العقل والإنصاف يحكم بالشافي ، إلا إذا كان هناك مصلحة أهم منها ، وتوقف إعلاء الحق وإبطال الباطل على التضحية ، وهو أمر آخر خارج عن الموضوع . وبعد هذا كله ، أفصح أن يقال إن التقية نفاق؟^(٢) .

* * *

(١) الحادثة المذكورة في أكثر الكتب التاريخية التي تعرضت لحوادث عامي ٤٤٧ و ٤٤٨ للهجرة . وقد ذكرها شيخنا الطهراني في مقدمة « التبيان » ، ص ٥ .

(٢) نعم ، هنا بحث آخر وهو أنه إذا عمل الشيعي على مقتضى التقية ، كما إذا غسل رجله مكان مسحها أو سجد على غير ما يصح عليه السجود ، كالسجود ، فكيف يحكم بصحة عمله مع أنه لم يمثل ما على ذمته . وهذه مسألة فقهية ، لها بحثها ، وإجمال الجواب أن أدلة التقية حادثة على الأدلة الواقعية ، موسعة لها في ظروفها كالتيتم في مواقع فقد الماء ، فإجراؤهما من باب واحد ، والتفصيل يطلب من عمله .

مباحث الخاتمة

(٢)

عدالة الصحابة في الكتاب والسنة

المشهور بين أهل السنة عدالة الصحابة جميعاً ، قال ابن عبد البر : « تثبت عدالة جميعهم »^(١) .

وقال ابن الأثير : « والصحابة يشاركون سائر الرواة في جميع ذلك إلا في الجرح والتعديل ، فإنهم كلهم عدول لا يتطرق إليهم الجرح »^(٢) .

وقال الحافظ ابن حجر : « إتفق أهل السنة على أن الجميع عدول ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة »^(٣) .

هذه بعض كلمات القوم ، وقد زعموا أن من يتتبع أحوال الصحابة لجرحهم ، أو تعديلهم ، فإنما يريدوا أن يجرحوا شهود المسلمين ليُبطلوا الكتاب والسنة .

غير أن الشيعة الإمامية ، عن بكرة أبيهم ، على أن الصحابة كسائر الرواة ، فيهم العدول وغير العدول ، وأن كون الرجل صحابياً لا يكفي في الحكم بالعدالة ، بل يجب تتبع أحواله حتى يوقف على وثاقته .

(١) الاستيعاب ، ج ١ ، ص ٢ ، في هامش الإصابة .

(٢) أسد الغابة ، ج ١ ، ص ٣ .

(٣) الإصابة ، ج ١ ، ص ١٧ .

والدليل الوحيد للقوم هو ما رواه عن النبي الأكرم أنه قال : « مثل أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اقتديتم »^(١) .
ولكن الاستدلال بالحديث باطل من وجوه :

١ - إنَّ نصوص الكتاب تردّ صحة الإهتداء بكل صحابي أدرك النبي ، فإنّه يقسمهم إلى طائفتين ، طائفة صالحة عادلة ، مرفوعة المقام والمكانة ، وهؤلاء وصفوا بالسابقين الأولين ، المبايعين تحت الشجرة ، وغير ذلك^(٢) .

وطائفة غير صالحة ولا عادلة ، بل جاحدة على النبي والمسلمين ، وهم بين منافق عرف المسلمون نفاقه^(٣) ؛ ومن أخفى نفاقه وتمرّن عليه إلى حد لا يعرفه المسلمون حتى النبي الأكرم^(٤) ؛ ومُشرفٍ على الإرتداد يوم دارت على المسلمين الدوائر ، واشتدت الحرب بينهم وبين قريش^(٥) ؛ وفاسق يكذب في إخباره على النبي ، يعرفه الكتاب بأنّه فاسق لا يقبل قوله^(٦) ؛ ومريض القلب قد فقد الثقة بالله ورسوله فهو يؤيد المنافقين من غير شعور^(٧) ؛ وسَماعٍ للمنافقين يقبل كل ما سمع منهم^(٨) ؛ ومُوَلٍّ في ميدان الحرب أمام الكفار ، لا يصغي لنداء النبي ولا يهمة إلا نفسه^(٩) ؛ ومسلمٍ بلسانه دون قلبه فخطوب بأنّ الإيمان لم يدخل في قلبه^(١٠) ؛ وجماعة ألقت قلوبهم بإعطاء الزكاة حتى يتقى شرهم^(١١) ؛ وخالطٍ عملاً صالحاً بعمل سيئ^(١٢) .

(١) المصدر السابق .

(٢) جامع الأصول ، ج ٩ ، كتاب الفضائل ، ص ٤١٠ ، الحديث ٦٣٥٩ .

(٣) لاحظ سورة التوبة : الآية ١٠٠ ، وسورة الفتح : الآية ١٦ والآية ٢٩ .

(٤) لاحظ سورة المنافقون .

(٥) سورة التوبة : الآية ١٠١ .

(٦) سورة آل عمران : الآية ١٥٤ .

(٧) سورة الحجرات : الآية ٦ .

(٨) سورة الأحزاب : الآية ١١ .

(٩) سورة التوبة : الآيات ٤٥-٤٧ .

(١٠) سورة الأنفال : الآيات ١٦-١٥ .

(١١) سورة الحجرات : الآية ١٤ .

(١٢) سورة التوبة : الآية ٦٠ .

فهذه طوائف عشر من الصحابة الذين يمجدهم أهل السنة بوصف العدالة ، وأن في الاقتداء بكل واحد منهم ، الهداية إلى الصراط المستقيم . ولا أظن أن مَنْ سب هذه الآيات وأمعن فيها يجزؤ على ذلك الإدعاء ، بل سوف يرجع ويقول إن كثيراً ممن تشرفوا بصحبة النبي ، ما عرفوا قدرها ، وكفروا بنعمة الله تبارك وتعالى ، فبدلاً من أن يستثمروا هذه النعمة ، فيكونوا في الجبهة والسنام من العدالة ، وخسروا أنفسهم وخسروا غيرهم ممن تبعهم .

إن التشرف بصحبة النبي لم يكن بأشد ولا أقوى من صحبة امرأة نوح وامرأة لوط لزوجيهما ، فما أغتاتهما عن الله شيئاً ، قال سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نوحٍ وامْرَأةَ لوطِ كانتا تحتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَاتَمَهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ ﴾ (١) .

وإن التشرف بصحبة النبي لم يكن أكثر امتيازاً وتأثيراً من التشرف بالزواج من النبي وقد قال سبحانه في أزواج النبي : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مِنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ، وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ (٢) . وليس الخطاب من قبيل إياك أعني واسمعي يا جارة ، بل الخطاب خاص بهن بشهادة قوله : ﴿ يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ ، فإن غيرهن لا يضاعف لهن العذاب .

إن تأثير الصحبة لم يكن تأثيراً كيميائياً ، كتأثير بعض المواد في تحويل عنصر كالحاس إلى عنصر آخر كالذهب ، بل كان تأثيرها تأثيراً شبيهاً بتأثير المعلم في التلميذ ، والمرشد في المسترشد ، ومن المعلوم أن مثل هذا يؤثر في جمع من الأمة لا في كلهم . فمن البعيد جداً أن يكون للصحبة ثورة عارمة في قلب شخصيات الصحابة التي نشأت وترعرعت في العصر الجاهلي ، وتربت على السنن السيئة ، إلى شخصيات تعدّ مثلاً للفضل والفضيلة ، من دون أن يشدّ منهم شاذ ، فتصبح الألوف المؤلفة التي تربو على مائة ألف مع اختلافهم في الأعمار والقابليات ، رجالاً

(١) سورة التحريم : الآية ١٠ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٣٠ .

عدولاً يستدر بهم الغمام ويؤتمر بهم في العقائد والشرائع ، وغير ذلك من مجالات الإقتداء .

٢ - إن السنة المتضافرة عن النبي الأكرم ، على ارتداد الصحابة بعده ، تردّ كون كل واحد منهم نجماً لامعاً يقتدى به . ومؤلفوا الصحاح ، وإن أفردوا أبواباً في فضائل الصحابة ، إلا أنهم لم يفردوا باباً بل ولا عنواناً في مثالبهم ، وإنما لجأوا إلى إقحام ما ورد من النبي في هذا المجال ، في أبواب آخر ستراً لمثالبهم ، فذكرها البخاري في الجزء التاسع من صحيحه في باب الفتن ، وأدرجها ابن الأثير في جامعهم في أبواب القيامة عند البحث عن الخوض . كل ذلك ستراً لأفعالهم وأوصافهم غير المرضية .

ولكن الصبح لا يخفى على ذي عيني ، ففيما أوردوا من الأحاديث في هاتيك الأبواب شاهد على أنّ صحابة النبي لم يكونوا مرضيين بل أنّ كثيراً منهم ارتدوا على أدبارهم القهقري .

روى البخاري ومسلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يَرُدُّ عَلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِي - أَوْ قَالَ : مِنْ أُمَّتِي - فَيَحْلُثُونَ عَنِ الْخَوْضِ ، فَأَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَصْحَابِي » . فيقول : « إِنَّهُ لَا عِلْمَ لَكَ بِمَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ، أَنَّهُمْ ارْتَدَوْا عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى » .

وفي بعض النصوص أنّ الناجي منهم ليس إلا همل النعم ، وهو كناية عن العدد القليل .

هذا قليل من كثير ، ذكرناه ، وكفى في تنديد النبي بهم قوله : « سَحَقًا سَحَقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي »^(١) .

٣ - إنّ التاريخ المتواتر يشهد على ظهور الفسق من الصحابة في حياة النبي وبعده ، وهذا الوليد بن عقبة نزل في حقه قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَاءٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾^(٢) ويشهد التاريخ على أنّه شرب الخمر ، وقام ليصلي بالناس صلاة

(١) لاحظ في الوقوف على هذه الأحاديث ، جامع الأصول ، لابن الأثير ، ج ١١ ، كتاب الخوض ، في ورود الناس عليه ، ص ١٢٠-١٢١ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ٦ .

الفجر ، فصلّى أربع ركعات ، وكان يقول في ركوعه وسجوده : إشرّبي واسقيني .
ثم جاء في المحراب ، ثم سلّم ، وقال : هل أزيدكم إلى آخر ما ذكره (١) .
وهذا البخاري يروي مشجرة سعد بن معاد ، سيد الأوس وسعد بن عباد
سيد الخزرج ، في قضية الإفك ، فقد قال سعد بن عباد لابن عمه : كذبت
لعمرو الله . وأجابه ابن العم بقوله : كذبت لعمرو الله ، فإنك منافق تجادل عن
المنافقين (٢) .

أولا تعجب أن هؤلاء يصف بعضهم بعضاً بالكذب والنفاق ، ونحن نقول
إنهم عدول صلحاء . والإنسان على نفسه بصيرة .

إنّ الحروب الدائرة بين الصحابة أنفسهم لأقوى دليل على أنهم ليسوا جميعاً
على الحق ، فقد ثاروا على عثمان بن عفان وأجهزوا عليه . فكيف يمكن أن يكون
القاتل والمقتول كلاهما على الحق والعدالة .

وهذا هو طلحة وذاك الزبير ، جهّزا جيشاً جراراً لمحاربة الإمام ، وأعانتها
عائشة ، التي أمرت مع سائر نساء النبي بالقرار في بيوتهن وعدم الظهور
والبروز .

وهذا خال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ، الباغي على الإمام المفترض
الطاعة بالنص أولاً ، وبيّعة المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ثانياً ،
فاهدر دماء كثيرة لا يحصّيها إلا الله سبحانه .

ومن العذر التافه تبرير أعمالهم الإجرامية بأنهم كانوا مجتهدين في أعمالهم
وأفعالهم ، مع أنه لا قيمة للإجتihad أمام النص وإجماع الأمة ، ولو كان لهذا
الإجتihad قيمة ، لما وجدت على أديم الأرض مجرماً غير معذور ، ولا جانياً غير
مجتهد ؛ ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ (٣) .

هذا قدامه بن مظعون ، صحابي بدري شرب الخمر ، وأقام عليه عمر

(١) الكامل لابن الأثير ، ج ٢ ، ص ٤٢ ، وأسد الغابة ، ج ٥ ، ص ١٩٠ .

(٢) صحيح البخاري ، ج ٥ ، ص ١١٨ في تفسير سورة النور .

(٣) سورة الكهف : الآية ٥ .

الحد (١) .

وهؤلاء الصحابة الذين خضبوا وجه الأرض بالدماء ، فاقروا تاريخ بسر بن أرطاة ، فإنه قتل مئآت من المسلمين ، وما نقم منهم إلا أنهم كانوا يحبون علي بن أبي طالب ، ولم يكتف بذلك حتى قتل طفلين لعبيد الله بن عباس (٢) .

٤ - أن تشبيه الصحابة بالنجوم ، وأن الاقتداء بكل واحد منهم سبب للإهتداء ، يعرب عن أن القائل يعتمد في ذلك على الذكر الحكيم ، فإنه سبحانه قال : ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ . ولكن شتان ما بين المشبه والمشبّه به ، إذ ليس كل نجم هادياً للضال ، وإلا لقال تعالى : « وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » . فأي معنى - عندئذ - لهذا التشبيه .

٥ - إن هذا الحديث موضوع على لسان النبي الأكرم ، وصرّح بذلك جماعة من أعلام أهل السنة .

قال أبو حيان الأندلسي - في معرض ردّه على الزمخشري الذي أورد هذا الحديث - وقوله : « وقد رضي رسول الله لأمتّه إتباع أصحابه والإقتداء بآثارهم في قوله : أصحابي كالنجوم الخ » ، لم يقل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو حديث موضوع لا يصح بوجه عن رسول الله .

ثم نقل قول الحافظ ابن حزم في رسالته في إبطال الرأي والقياس والإستحسان والتعليل والتقليد ، ما نصه : « وهذا خبر مكذوب باطل لم يصح قط » .

ثم نقل عن البزاز صاحب المسند قوله : وهذا كلام لم يصح عن النبي صلى الله عليه وآله ، وشرع بالطعن في سنده (٣) .

ورد ابن قيم هذا الحديث وضعف أسانيده وقال رداً على من استدلل في

(١) أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ١٩٩ .

(٢) الفارات ، للثقفى ، ج ٢ ، ص ٥٩١-٦٢٨ ، تاريخ يعقوبي ، ج ١ ، ص ١٨٦-١٨٩ ، الكامل ، ج ٣ ، ص ١٩٢-١٩٣ .

(٣) لاحظ جميع ذلك في تفسير البحر المحيط ، ج ٥ ، ص ٥٢٨ .

صحة التقليد ، بهذا الحديث : كيف استجزتم ترك تقليد النجوم التي يُهتدى بها وقلدتهم مَنْ هم دونهم بمراتب كثيرة ، فكان تقليد مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحد أثر عندنم من تقليد أبي بكر، وعمر ، وعثمان ، وعلى «^(١) ؟ .

وقال الذهبي في جعفر بن عبد الواحد ، ومن بلاياه ، عن وهب بن جرير ، عن أبيه عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أصحابي كالنجوم من اقتدى بشيء منه اهتدى »^(٢) .

كلمة الإمام زين العابدين في الصحابة

إنَّ الشيعة ، تبعاً للدلائل المتقدمة ، واقتداءً بأئمتهم ، يقدّسون الصحابة الذين عملوا بكتاب الله سبحانه وسنة نبيه ، ولم يتجاوزوها ، كما أنّهم يتبرؤون من خالف كتاب الله وسنة رسوله ، وفي هذا المقام كلمة مباركة للإمام زين العابدين قال في دعاء له :

«ألّهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحبة والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكاتفوه وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته ، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته ، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته ، وانتصروا به ، ومن كانوا منطوين على محبته ، يرجون تجارة لن تبور في مودته ، والذين هجرتهم العشائر . إذا تعلّقوا بعروته ، وانتفت منهم القربات ، إذا سكنوا في ظل قرابته ، فلا تنس اللهم ما تركوا لك وفيك ، وأرضهم من رضوانك ، وبما حاشوا الخلق عليك ، وكانوا مع رسولك ، دعاة لك إليك . واشكرهم على هجرهم فيك ديار قومهم ، وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه ، ومن كثرت في إعزاز دينك من مظلومهم . اللهم وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا »^(٣) .

(١) لاحظ أعلام الموقعين ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٢) ميزان الاعتدال ، للذهبي ، ج ١ ، ص ٤١٣ .

(٣) الصحيفة السجادية الدعاء الرابع مع شرح « في ظلال الصحيفة السجادية » ، ص ٥٥ - ٥٦ .

تحليل الاستدلال بآيتين على عدالة الصحابة

وربما يستدل على عدالة الصحابة بآيتين :

الأولى : قوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (١) فَإِنَّ ظاهرة أنه سبحانه رضى عنهم ، والرضا آية كونهم مطيعين غير خارجين عن الطاعة ، وليس للعدالة معنى إلا ذلك .

ويلاحظ عليه : أولاً : إِنَّ الآية نزلت في حق مَنْ بايَعَ النبي تحت الشجرة في غزوة الحديبية ، لا في حق جميع الصحابة ، وقد كانوا في ذاك اليوم ألفاً وأربعمائة .

أخرج مسلم وابن جرير وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه ، قال : « كُنَّا يوم الحديبية ، ألفاً وأربعمائة ، فبايعناه ، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة ، وهي سمرة ، وقال بايعناه على أَنْ لَا نفر ولم نبايعه على الموت » (٢) . فاقصى ما يشبه الحديث هو رضاه سبحانه عن العدد المحدود . وأين هو من رضاه سبحانه عن الآلاف المؤلفة من الصحابة .

وثانياً : إِنَّ ظرف الرضا مذكور في الآية ، وهو وقت البيعة حيث يقول : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾ ، ومن المعلوم أَنَّ الرضا في ظرف خاص لا يدل على الرضا بعده إلا إذا ثبت أنهم بقوا على الحالات التي كانوا عليها ، وهو غير ثابت . وإثباته بالاستصحاب ، أوهن من بيت العنكبوت .

وليس هذا مختصاً بهؤلاء ، فإن الإيمان والأعمال الصالحة ، إنما تفيد إذا لم يرتكب الإنسان ما يبطل أثرهما ، سواء أقلنا بالإحباط أو لا .

وثالثاً : إنه سبحانه يقول في نفس السورة : ﴿ إِذْ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ . يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا

(١) - صحيح البخاري - ١٩٠٠

(٢) - ندر المنشور ، ج ٦ ، ص ٧٤

عاهد عَلَيْهِ اللهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١﴾ .

وهذا يعرب عن أنَّ بعض المبايعين كانوا على مظنة النكث بما عاهدوا وبايعوا عليه ، وأن البعض الآخر كانوا على مظنة الوفاء به وإلا فلو كان الوفاء معلوماً منهم ، فما معنى هذا التردد . وليست الآية خطاباً قانونياً حتى يقال إنها من قبيل إِيَّاكَ أَعْنِي واسمعي يا جارة ، بل قضية خارجية مختصة بأناس معينين .

ورابعاً : إِنَّ السُّنَّةَ تدل على أنَّ نزول السكينة كان مختصاً بمن علم منه الوفاء ، وبالتالي يكون الرضا أيضاً مخصوصاً بهم .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، قال : إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء « (١٢) »

وخامساً : إِنَّ الرضا تعلق بالمؤمنين . ومن المعلوم أنه بايع النبي في غزوة الحديبية جماعة من المنافقين أيضاً ، لا خلاف . وبما أنهم كانوا مختلطين غير متميزين فلا يحكم على كل واحد بالرضا والعدالة ، إلا إذا ثبت أنه مؤمن غير منافق .

وكيف يمكن أن يكون للآية عموم أفرادى وأزمانى يعم جميع المبايعين إلى آخر أعمالهم ، مع أن طلحة والزبير ممن بايعا بيعة الرضوان ، وقد وقع منهما من قتال عليٍّ ما خرجا به عن الإيمان وفسقا عند جمع من المسلمين ، كالمعتزلة ومن جرى مجراهم ، ولم يمنع وقوع الرضا في تلك الحال من وقوع المعصية فيما بعد ، فلماذا الذي يمنع من مثل ذلك في غيرهم (١٣) ؟

الآية الثانية : قوله سبحانه : ﴿ تَحْمَدُ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ، رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ، يَتُغَوُّونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي السُّورَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي

(١) سورة الفتح : الآية ١٠

(٢) اند، المنتور ، ج ٦ ، ص ٧٣ .

(٣) لا-حف الشيا ، ج ٩ ، ص ٣٢٩

الْإِنْجِيلَ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١﴾ .

والاستدلال مركّز على قوله : ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ ، وهم موصوفون بأوصاف سبعة : ١ - أشداء على الكفار ، ٢ - رحماء بينهم ، ٣ - تراهم ركعاً ، ٤ - سجداً ، ٥ - يبتغون فضلاً من الله ، ٦ - ورضواناً ، ٧ - سيّاهم في وجوههم من أثر السجود .

وكأنّ المستدل يستظهر من الآية أنّها بصدد بيان أنّ كل من كان مع النبي كان على هذه الصفات السبع التي لا تنفك عن العدالة ، وأنّ مضمونها قضية خارجية راجعة إلى الجماعة التي كان الزمان والمكان يجمعانهم والنبي الأكرم .

يلاحظ عليه : أولاً : إنّ الآية على خلاف المقصود أدلّ ، فإنها ، وإن كانت قضية خبرية بظاهرها ، ولكنها بمعنى الإنشاء ، فهي بصدد أمر من كان معه على أن يكونوا بهذه الصفات ، وهذا نحو قولك : « ولدي يصلي » ، فهو بمعنى : « صل يا ولد » فالآية تُزَيَّف منطق من يدّعون أن الصحابة مصنونون عن كل قبيح ، فهم لصحبتهم الرسول ، نبراس منير ، لأنّ الآية تحمل صورة رائعة عن سيرة الذين كانوا مع الرسول وأنهم يجب أن يكونوا على هذه الصفات السبع ، فيكونون في سلبيتهم (أشداء على الكفار) مثل سلبيتهم ، وإيجابيتهم بينهم أنفسهم (رحماء بينهم) كإيجابيتهم ، وهكذا سائر صفاتهم من الركوع والسجود وابتغاء الفضل والرضوان . والآية وإن كانت نازلة في حق جماعة خاصة كانوا مع الرسول ، ولكنها ليست قضية خبرية ، بل تحمل قضية إنشائية ، وطلباً وإيجاباً منهم لأن يكونوا على هذه الصفات السبع .

ولأجل ذلك ترى أنّه سبحانه يخصص وعد المغفرة وإعطاء الأجر العظيم . بعدة منهم ، ويقول في آخر الآية : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . وهذا التبعض والتخصيص إيعاز إلى أنّ هذه الصفات السبع ، ربما

(١) سورة الفتح : الآية ٢٩ .

تتحقق في صورها وظواهرها دون حقيقتها وواقعيتها التي هي الإيمان بالله والعمل الصالح .

وثانياً : إنه يمكن أن يراد من قوله : ﴿ والذين معه ﴾ ، غير المعية الزمانية والمكانية ، حتى يقال بأنها مختصة بصحابه المعاصرين ، منحسرة عن بعده من التابعين ، وأتباعهم إلى يوم الدين ، وإنما يراد الذين معه في رسالته الإلهية تصديقاً وإيماناً وتطبيقاً ، ومعه في حملها كما حملها ، ومعه في جهاده وصبره كما جاهد وصبر .

وعند ذلك تعم الآية الأمة الإسلامية جميعاً ، إلى يوم الدين ، وتكون أجنبية عن مسألة عدالة الصحابة ، وتعرب عن أن من كان مع الرسول يجب أن يكون بهذه الصفات والسمات ، ومع الإيمان والعمل الصالح .

وثالثاً : إن الاستدلال لا يكتمل إلا بجمع الآيات الواردة في شأن الصحابة حتى يستظهر من الجميع ما هو مقصوده سبحانه وقد عرفت أن آيات كثيرة تندد بأقسام عشرة من صحابة النبي والذين كانوا معه ، وأنهم كانوا بين معلوم النفاق ومخفيه ، ومشرفين على شفير هاوية الإرتداد ، إلى غير ذلك من الأقسام ، ومع ذلك كيف يمكن الاستدلال بآية وتناسي الآيات الأخر . كل ذلك يعرب عن أن المفسر لا يصح له اتخاذ موقف حاسم في موضوع واحد إلا بملاحظة جميع الآيات التي لها صلة به .

* * *

مباحث الخاتمة

(٣)

الشيعة وإتهامهم بتحريف القرآن

إنَّ القرآن الكريم أحد الثقلين الذين تركهما النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بين الأمة الإسلامية وحث على التمسك بهما ، وأنها لا يفترقان حتى يردا عليه الحوض ، وقد كتب سبحانه على نفسه حفظه وصيانه وقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(١) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم ، فعليكم بالقرآن ، فإنه شافع مشفع ، وما حل مصدق ، مَنْ خَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ »^(٢) .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغْشَى ، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يَصِلُ »^(٣) .

وقال عليه السلام : « ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ نُورًا لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ ، وَسِرَاجًا لَا يَجْبُو تَوَقُّدُهُ ، وَمَنْهَاجًا لَا يَضِلُّ نَهْجُهُ . . . وَفِرْقَانًا لَا يُخَمِّدُ بَرَهَانَهُ »^(٤) .

بل إنَّ أئمة الشيعة جعلوا موافقة القرآن ومخالفته ميزاناً لتمييز الحديث

(١) سورة الحجر : الآية ٩ .

(٢) الكافي ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ١٧٦ .

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة ١٩٨ .

الصحيح من الباطل ، قال الصادق عليه السلام : « ما لم يوافق من الحديث القرآن ، فهو زخرف »^(١) .

ومع ذلك كله أتهمت الشيعة - اغتراراً ببعض الروايات الواردة في جوامعهم الحديثية - بالقول بتحريف القرآن ونقصانه ، غير أن أقطاب الشيعة وأكابرهم رفضوا تلك الأحاديث كما رفضوا الأحاديث التي رواها أهل السنة في مجال تحريف القرآن ، وصرّحوا بصيانة القرآن عن كل نقصان وزيادة وتحريف . ونحن نكتفي فيما يلي بذكر بعض النصوص لأعلام الإمامية ، الواردة في هذا المجال :

١ - قال الصدوق (م ٣٨١) : « إعتقادنا في القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه ، هو ما بين الدفتين ، وهو ما في أيدي الناس ليس بأكثر من ذلك ، ومن نسب إلينا أننا نقول إنه أكثر من ذلك فهو كاذب »^(٢) .

٢ - وقال الشيخ المفيد (م ٤١٣) : « قد قال جماعة من أهل الإمامة إنه لم ينقص من كلمة ولا من آية ولا من سورة ، ولكن حذف ما كان ثبثاً في مصحف أمير المؤمنين من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله وذلك ثابتاً منزلاً وإن لم يكن من جملة كلام الله الذي هو المعجز ، وقد يسمى تأويل القرآن قرآناً .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ، فسمى تأويل القرآن قرآناً . وعندي أن هذا القول أشبه بمقال من ادّعى نقصان كلم من نفس القرآن على الحقيقة دون التأويل ، وإليه أميل ، والله أسأل توفيقه للصواب وأما الزيادة فمقطوع على فسادها »^(٣) .

٣ - وقال الشيخ الطوسي (م ٤٦٠) : « أما الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق به أيضاً لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها وأما النقصان منه ، فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه ، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا ، وهو الذي نصره المرتضى ، وهو الظاهر في الروايات . . إلى أن قال : ورواياتنا متناصرة بالحث على

(١) الكافي ، ح ١ ، كتاب فضل العلم ، باب الأخذ بالسنة ، الحديث ٤ .

(٢) عقائد الصدوق ، ص ٩٣ من السسخة الحصرية الملحقة بترح الباب الحادي عشر .

(٣) أوائل المقالات ، ص ٥٥ .

قراءته والتمسك بما فيه وردّ ما يرد من اختلاف الأخبار في الفروع إليه ، وعرضها عليه ، فما وافقه عمّل به ، وما خالفه تُجَنَّب ولم يُلْتَفَت إليه «^(١) .

٤ - قال الطبرسي مؤلف مجمع البيان (م ٥٤٨) : « فأما الزيادة فمجمع على بطلانها ، وأما نقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشويه أهل السنة أنّ في القرآن نقصاناً والصحيح من مذهبنا خلافه وهو الذي نصره المرتضى قدس الله روحه ، واستوفى الكلام فيه غاية الإستيفاء في جواب المسائل الطرابلسيات ، وذكر في مواضع أنّ العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب ، فإن العناية اشتدت والدواعي توفرت على نقله وحراسته وبلغت إلى حد لم تبلغه فيما ذكرناه ، لأن القرآن معجزة النبوة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية ، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية ، حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته ، فكيف يجوز أن يكون مغيّراً ومنقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد^(٢) .

هؤلاء هم أعلام الشيعة في القرون السابقة من ثالثها إلى سادسها ، ويكفي ذلك في إثبات أنّ نسبة التحريف إلى الشيعة ظلم وعدوان .

وأما المتأخرون فحدّث عنه ولا حرج فهم بين مصرّح بصيانة القرآن عن التحريف ، إلى باسط القول في هذا المجال ، إلى مؤلّفٍ أفردته بالتأليف .

ونختم المقالة بكلمة قيمة للأستاذ الأكبر الإمام الخميني قال : « إنّ الواقع على عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه وضبطه ، قراءة وكتابةً ، يقف على بطلان تلك المزعمة (التحريف) ، وأنّه لا ينبغي أن يركن إليها ذو مسكة ، وما ورد فيه من الأخبار ، بين ضعيف لا يستدل به ، إلى مجعول تلوح منه أمارات الجعل إلى غريب يقضي منه العجب ، إلى صحيح ، يدل على أن مضمونه تأويل الكتاب وتفسيره ، إلى غير ذلك من الأقسام التي يحتاج بيان المراد منها إلى تأليف

(١) التبيان ، ج ١ ، ص ٣ .

(٢) مجمع البيان ، المقدمة ، الفن الخامس ، ولاحظ بقية كلامه .

كتاب حافل ، ولولا خوف الخروج عن طور البحث لأوضحنا لك أن الكتاب هو عين ما بين الدفتين وأن الاختلاف في القراءة ليس إلا أمراً حديثاً لا صلة له لما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين «^(١)» .

تحريف القرآن في روايات الفريقين

روى الفريقان روايات في تحريف القرآن ، وقد قام أخيراً أحد المصريين بتأليف كتاباً أسماه « الفرقان » ، ملأه بكثير من هذه الروايات . كما أن المحدث النوري ألف كتاباً باسم « فصل الخطاب » أودع فيه روايات التحريف ، وليس هذا وذاك أول من نقل روايات التحريف ، بل هي مبثوثة في كتب التفسير والحديث . وهذا هو القرطبي يقول في تفسير سورة الأحزاب : أخرج أبو عبيد في الفضائل ، وابن مردويه ، وابن الأنباري عن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبي ماعتي آية ، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلا على ما هو الآن «^(٢)»

وهذا هو البخاري ، يروى عن عمر قوله : « لولا أن يقول الناس إن عمر زاد في كتاب الله ، لكتبت آية الرجم بيدي »^(٣) .

وغير ذلك من الروايات التي نقل قسمًا منها السيوطي في الإتيان^(٤) .

ومع ذلك فنحن نُجَلِّ علماء السنة ومحققهم عن نسبة التحريف إليهم ، ولا يصح الإستدلال بالرواية على العقيدة ، ونقول مثل هذا في حق الشيعة ، وقد تعرفت على كلمات الأعظم منهم في العصور المتقدمة ، وعرفت أن الشيخ المفيد يحمل هذه الروايات على أنها تفسير للقرآن ، وأن ما يدل على التحريف بالدلالة المطابقة يضرب به عرض الجدار .

(١) تهذيب الأصول ، تقريراً لأبحاث الإمام الحميري في أصول الفقه ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

(٢) تفسير القرطبي ، ج ١٤ ، ص ١١٣ ، ولاحظ الدر المنثور ، ح ٥ ، ص ١٨٠ .

(٣) صحيح البخاري ، ج ٩ ، باب الشهادة تكون عند الحاكم في ولاية القضاء ، ص ٦٩ ، ط مصر .

(٤) الإتيان ، ح ٢ ، ص ٣٠

إنَّ المحقق الأستاذ الشيخ جواد البلاغي تدارس الروايات ، فخرج بهذه النتيجة وهي أنَّ القسم الوافر منها يرجع أسانيده إلى بضعة أشخاص وصفوا في علم الرجال بالصفات التالية :

- ١ - ضعيف القول ، فاسد المذهب ، مجفو الرواية .
 - ٢ - مضطرب الحديث والمذهب ، يعرف حديثه وينكر ، ويروي عن الضعفاء .
 - ٣ - كذاب متهم ، لا تستحل رواية حديث واحد من أحاديثه .
 - ٤ - غال كذاب .
 - ٥ - ضعيف لا يلتفت إليه ولا يعول عليه ومن الكذابين .
 - ٦ - فاسد الرواية يرمى بالغلو .
- ومن المعلوم أنَّ رواية هؤلاء لا تجدي شيئاً ، وإن كثرت وعالت ، وأمّا المراسيل فهي مأخوذة من تلك المسانيد .
- هذا بعض القول في تنزيه الشيعة بل المسلمين عامة عن وصمة التحريف ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الرسائل المؤلفة في هذا الموضوع^(١) .

* * *

(١) لاحظ مقدمة تفسير آلاء الرحمن للعلامة السلافي ، ج ١ ، ص ٢٦ . وتفسير الميزان ، ج ١٢ ، ص ١٠٦ ، ١٣٧ ، وتفسير البيان للمحقق الخوئي ، ص ٢١٥ - ٢٥٤ . وإظهار الحق للعلامة الهندي ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، فإن فيها كفاية وعنى لطالب الحق .

مباحث الخاتمة

(٤)

المتعة في الكتاب والسنة

حقيقة نكاح المتعة ، تزويج المرأة الحرة الكاملة ، إذا لم يكن بينها وبين الزوج مانع من نسب أو سبب أو رضاع أو إحصان أو عدّة أو غير ذلك من الموانع الشرعية ، بمهر مسمى ، إلى أجل مسمى ، بالرضا والإتفاق ، فإذا انتهى الأجل تبيّن منه من غير طلاق . ويجب عليها مع الدخول بها - إذا لم تكن يائسة - أن تعتد عدة الطلاق إذا كانت ممن تحيض ، وإلا فبخمسة وأربعين يوماً . وولد المتعة ، ذكراً كان أو أنثى يلحق بالأب ، ولا يدعى إلاّ له ، وله من الإرث ، ما أوصانا الله به سبحانه في آية الموارث من أنّ للذكر مثل حظّ الأنثيين ، كما يرث من الأم ، وتشملّه جميع العمومات الواردة في الأبناء والآباء والأمهات ، وكذا العمومات الواردة في الأخوة والأخوات ، والأعمام والعّمات .

وبالجملة المتمتع بها زوجة حقيقة ، وولدها ولد حقيقة ، ولا فرق بين هذا الزواج والزواج الدائم ، إلاّ أنّه لا توارث بين الزوجين ولا قسم ولا نفقة لها ، كما أنّ له العزل عنها ، وهذه الفوارق الجزئية ، فوارق في الأحكام لا في الماهية ، والماهية واحدة ، غير أنّ أحدهما مؤقت والآخر غير مؤقت ، وأنّ الأول ينتهي بانتهاء الوقت ، والثاني ينفصم بالطلاق أو بالفسخ .

وقد أجمع أهل القبلّة على أنّه سبحانه شرع هذا النكاح في دين الإسلام في صدره ، ولا يشك أحد ولا يتردد في أصل مشروعيته ، وإنّما وقع الكلام في نسخه أو بقاء مشروعيته .

وأوضح دليل على مشروعيته في صدر الإسلام ، نهي عمر عنها حيث قال :
مُتَعَتَانِ كَانَتَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَلَالًا ، وَأَنَا أُحَرِّمُهُمَا ، وَأَعَاقِبُ عَلَيْهِمَا : إِحْدَاهُمَا
مُتَعَةُ النِّسَاءِ وَالْأُخْرَى مُتَعَةُ الْحَجِّ^(١) . فَإِنَّ النَّبِيَّ إِذَا كَانَ إِجْتِهَادًا مِنْ عَمْرِ كَمَا
هُوَ ظَاهِرُ كَلَامِهِ ، أَوْ كَانَ مُسْتَدًّا إِلَى نَصِّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَمَا وَجَّهَ بِهِ كَلَامُهُ . وَعَلَى
كُلِّ التَّقْدِيرَيْنِ ، يَدُلُّ عَلَى جَوَازِهِ فِي فِتْرَةٍ خَاصَّةٍ ، وَهَذَا وَاضِحٌ لِمَنْ أَلَمَّ بِفَقْهِ الْمَذَاهِبِ
الْإِسْلَامِيَّةِ .

والأصل في ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ
وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا *
وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَأَجَلٌ لَكُمْ مَا
وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ^(٢) غَيْرَ مُسَافِحِينَ ، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ
فَاتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾^(٣) .

دلالة الآية على المتعة

وقد ذَكَرَتْ أُمَّةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ نَزُولَ الْآيَةِ فِي مَوْرِدِ الْمُتَعَةِ ،
أَوْ جَعَلُوا نَزُولَهَا فِيهَا أَقْوَى الْإِحْتِمَالَيْنِ نَشِيرًا إِلَى بَعْضِهِمْ :
١ - إمام الحنابلة أحمد بن حنبل (م ٢٤١) في مسنده^(٤) .
٢ - أبو جعفر الطبري (م ٣١٠) في تفسيره^(٥) .
٣ - أبو بكر الجصاص الحنفي (م ٣٧٠) في أحكام القرآن^(٦) .

(١) سنن البيهقي ، ج ٧ ، ص ٢٠٦ .
(٢) المراد من الإحصان هو إحصان التعفف لا إحصان التزويج . أي متعفين لا متزوجين ومن فسره
بإحصان التزويج فقد أخطأ . ويشهد لما ذكرنا من التفسير قوله : ﴿ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ أي غير
زانيين .

(٣) سورة النساء : الآيات ٢٣ و ٢٤ .

(٤) مسند أحمد ، ج ٤ ، ص ٤٣٦ .

(٥) تفسير الطبري ، ج ٥ ، ص ٩ .

(٦) أحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ١٧٨ .

- ٤ - أبو بكر البيهقي (م ٤٥٨) في السنن الكبرى^(١) .
- ٥ - محمود بن عمر الزمخشري (م ٥٣٨) في الكشف^(٢) .
- ٦ - أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبي (م ٥٦٧) في تفسيره^(٣) .
- ٧ - أبو عبد الله فخر الدين الرازي الشافعي (م ٦٠٦) في تفسيره^(٤) .
- ٨ - أبو الخير القاضي البيضاوي (م ٦٨٥) في تفسيره^(٥) .
- ٩ - علاء الدين البغدادي (م ٧٤١) في تفسيره^(٦) .
- ١٠ - الحافظ عماد الدين ابن كثير الدمشقي (م ٧٤٥) في تفسيره^(٧) .
- ١١ - جلال الدين السيوطي (م ٩١١) في الدر المنثور^(٨) .
- ١٢ - أبو السعود العمادي الحنفي (م ٩٨٢) في تفسيره^(٩) .
- ١٣ - القاضي الشوكاني (م ١٢٥٠) في تفسيره^(١٠) .
- ١٤ - شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (م ١٢٧٠) في تفسيره^(١١) .

وينتهي نقل هؤلاء إلى أناس أمثال ابن عباس وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود ، وعمران بن حصين ، وحبيب بن أبي ثابت وسعيد بن جبير ، وقتادة ومجاهد ، كما أن ناقل هذه الروايات رجال الحديث والتفسير كما عرفت ، فلا يمكن إتهامهم بالوضع والجعل ، هذا حسب أسباب النزول .

-
- (١) السنن الكبرى ، ج ٧ ، ص ٢٠٥ .
 - (٢) الكشف ، ح ١ ، ص ٣٦٠ .
 - (٣) تفسير القرطبي ، ج ٥ ، ص ١٣٠ .
 - (٤) مفاتيح الغيب ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ .
 - (٥) تفسير البيضاوي ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .
 - (٦) تفسير الخازن ، ح ١ ، ص ٣٥٧ .
 - (٧) تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٧٧٤ .
 - (٨) الدر المنثور ، ج ٢ ، ص ١٤٠ .
 - (٩) هامش تفسير الرازي ، ج ٣ ، ص ٢٥١ .
 - (١٠) تفسير الشوكاني ، ج ١ ، ص ٤١٤ .
 - (١١) روح المعاني ، ج ٥ ، ص ٥ .

ثم إن هناك قرائن تؤيد كون المراد من قوله : ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ ، نكاح المتعة ، وهي :

١ - أن جماعة من عظماء الصحابة كعبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله الأنصاري وعمران بن حصين ، وابن مسعود وأبي بن كعب ، كانوا يفتنون بإباحتها ، ويقرؤون الآية هكذا : ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ ﴾ (إلى أجل مُسَمًّى) ، فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ . وهذا صريح في نكاح المتعة ، ومن المعلوم - ولا يحتمل غيره - أن ليس مرادهم سقوط هذه الجملة من الذكر الحكيم ، بل المراد بيان معنى الآية على نحو التفسير الذي أخذوه من الصادق بالوحي ، ومن أنزل عليه ذلك الكتاب صلى الله عليه وآله . ومن زعم أن هذه الجملة عند هؤلاء ، جزء القرآن فقد أخطأ .

٢ - إن الإِسْتِمَاعَ في الآية ظاهر في هذا النوع من الزواج ، وقد كان معروفاً في صدر الإسلام بالمتعة والتمتع ، فلا بد أن يحمل على هذا النوع من النكاح ، لا على المعنى اللغوي الموجود في الزواج الدائم والمنقطع .

٣ - إن النكاح الدائم قد مرّ تشريعه في صدر السورة حيث قال تعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾^(١) ولا وجه لتكراره . وتوهم أن وجه التكرار هو تبين حكم صداقيهن الوارد في قوله : ﴿ أُجُورَهُنَّ ﴾ ، مدفوع بأنه مرّ بيانه أيضاً ، في صدر السورة ، عند قوله : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾^(٢) ، بل جاء بيانه أيضاً قبل هذه الآية بقليل ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ﴾^(٣) .

ولا يصحّ جعل هذه الفقرة تأكيداً لقوله : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ ﴾ ، لأن الآية السابقة أكد بياناً من هذه الآية .

(١) سورة النساء : الآية ٣ .

(٢) سورة النساء : الآية ٤ .

(٣) سورة النساء : الآية ٢٠ .

٤ - إنّ الآية تُفَرِّع وجوب دفع الأجور على الإستمتاع وهو يناسب الزواج المنقطع ، الذي هو المطلوب فيها ، وأمّا المهر في النكاح الدائم فهو يملك بنفس العقد ، غير أنّه لو طلق قبل المسّ يسقط النصف .

٥ - ما تضافر نقله عن بعض الصحابة والتابعين من دعوى كون الآية منسوخة ببعض الآيات ، فلو لم تكن الآية واردة في مورد المتعة فما معنى إدعاء النسخ .

وهذه القرائن لا تدع للآية ظهوراً إلّا في العقد المنقطع .

ثم إنّ صاحب المنار أصرّ على أنّ المراد من الآية هو النكاح الدائم ، واستدلّ بأنّ المتمتع بالنكاح المؤقت لا يقصد الإحصان دون المسافحة ، بل يكون قصده المسافحة ، فإنّ كان هناك نوع ما من إحصان نفسه ، ومنعها من التنقل في دمن الزنا ، فإنّه لا يكون فيه شيء ما من إحصان المرأة التي تؤجّر نفسها كلّ طائفة من الزمن لرجل ، فتكون كما قيل :

كرة حذفت بصوالجة فتلقفها رجل رجل^(١) .

يلاحظ عليه أنّه جعل السفاح في قوله : ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ ، بالمعنى اللغوي ، وهو صبّ الماء وسفحه على الأرض ، ومن ثمّ جعل العقد المنقطع مصداقاً له ، فصارت الآية ناهية عنه ، وظاهرة في العقد الدائم .

لكن عزب عنه أنّ المراد من السفح هنا ، هو الزنا لا المعنى اللغوي ، والآية تؤكّد على أنّ الطريق المشروع في نيل النساء ومباشرتهن ، هو النكاح لا الزنا ، والزواج لا السفاح ، وتدعو المؤمنين إلى التزوج لا الفجور . فتفسير ﴿ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ بالمعنى اللغوي ، لا يناسب مفاد الآية .

والعجب أنّه غفل عن أنّ السفح ، بمعنى صبّ الماء ، مشترك بين الدائم والمنقطع والزنا ، فلو أخذ به لم يبق مورد لمقابله ، أعني قوله تعالى : ﴿ مُحْصِنِينَ ﴾ .

(١) المنار ، ج ٥ ، ص ١٣ .

توضيح ذلك أَنَّ الآية تحرض على أمر مشروع وهو قوله : ﴿ محصنين غير مسافحين ﴾ ، وتنهى عن مقابله ، الذي يعدّ مفهوماً للآية ، فلو قلنا بأنّ المراد من السفح في الآية ، هو صبّ الماء ، وهو مشترك بين الدائم والمنقطع والزنا ، لم يبق لقوله محصنين مصداق ومورد .

وإنّ خصّ بالزنا ، كما هو الحق ، يدخل الدائم والمنقطع تحت قوله : ﴿ مُحْصِنِينَ ﴾ ، ويبقى الزنا تحت قوله : ﴿ مسافحين ﴾ .

ثم إنّ الإحصان الذي يراد منه التعفف والإجتناب عن الزنا ، يحصل بالدائم والمنقطع معاً ، فتخصيصه بالأول غفلة عن حقيقة العقد المنقطع .

وما في آخر كلامه من تشبيه المرأة المتمتع بها ، بِكُرّة تحذف بصوالجة مختلفة ، يتلقاها رجل عن رجل ، جسارة على التشريع الإلهي ، إذ لا شك أنّ النبي الأكرم سوّغ المتعة مدة ، ولو في أمر قصير ، وإنّما اختلفت الأمة في نسخه وعدمه . وعلى فرض النسخ ، اختلفوا في زمانه ، فهل يصحّ لنا التعبير عن سنة النبي ، الذي لا يصدر إلّا عن الوحي الإلهي ، بهذا الشعر المبتذل ، وما هو إلّا لضعف البصيرة وقلة المعرفة .

وربما يقال في تخصيص الآية بالنكاح الدائم أنّ الهدف من تشريع النكاح هو تكوين البيت وإيجاد النسل والولد ، وهو يختص بالنكاح الدائم ، دون المنقطع الذي لا يترتب عليه إلّا إرضاء القوة الشهوية ، وصبّ الماء وسفحه .

ولا يخفى أنّه خلط بين الموضوع والفائدة المترتبة عليه ، وما ذكر إنّما هو من قبيل الحكمة ، وليس الحكم دائراً مدارها ، ضرورة أنّ النكاح صحيح وإن لم يكن هناك ذلك الغرض ، كزواج العقيم واليايسة والصغيرة ، بل أغلب المتزوجين في سن الشباب بالزواج الدائم لا يقصدون إلّا قضاء الوطر واستيفاء الشهوة من طريقها المشروع ، ولا يخطر على بالهم طلب النسل أصلاً وإن حصل لهم قهراً ، ولا يقدر ذلك في صحة زواجهم .

ومن العجب حصر فائدة المتعة في قضاء الوطر ، مع أنّها كالدائم قد يقصد منها النسل والخدمة وتبدير المنزل وتربية الأولاد والإرضاع والحضانة .

ونسأل المانعين الذين يتلقون نكاح المتعة ، مخالفاً للحكمة التي لأجلها شرع النكاح ، نسألهم عن الزوجين الذين يتزوجان نكاح دوام ، ولكن ينويان الفراق بالطلاق بعد شهرين ، فهل هذا النكاح صحيح أو لا ؟ ، لا أظن أن فقيهاً من فقهاء الإسلام ، يمنع ذلك ، وإلا فقد أفنى بغير دليل ولا برهان . فيتعين الأول ، فأني فرق يكون حينئذ بين المتعة وهذا النكاح الدائم سوى أن المدة المذكورة في الأول ، دون الثاني .

يقول صاحب المنار : « إن تشديد علماء السلف والخلف في منع المتعة يقتضي منع النكاح بنية الطلاق ، وإن كان الفقهاء يقولون إن عقد النكاح يكون صحيحاً إذا نوى الزوج التوقيت ، ولم يشترطه في صيغة العقد ، ولكن كتبانه إيّاه يعد خداعاً وغشاً وهو أجدر بالبطلان من العقد الذي يشترط فيه التوقيت » (١) .

أقول : نحن نفرض أن الزوجين رضيا بالتوقيت لبّاً ، حتى لا يكون هناك خداع وغش ، فهو صحيح بلا إشكال .

الآية غير منسوخة

ثم إن جماعة من المفسرين والمحدثين بعدما سلّموا نزول الآية في المتعة ودلائلها على مشروعيتها ، تخلّصوا عن القول بمشروعيتها الناسخة إلى أقوال :

فبين قائل بأنها منسوخة ببعض الآيات ، وقائل بأنها منسوخة بالسنة ، والقائلون بكونها منسوخة بالقرآن اختلفوا بدورهم في الآيات الناسخة ، كما أن القائلين بأنها نسخت بالسنة اختلفوا كذلك في زمن النسخ اختلافاً كثيراً وهذه الاختلافات ، مع قرائن من التاريخ والسنة ، تدلّ على عدم وقوع النسخ :

أ- الخلاف في الآيات الناسخة

مّا يدلّ على عدم نسخ آية المتعة ، خلافهم في الآيات التي نسختها ، إلى أقوال ، لا يفي أيّ منها بالمدعى :

(١) المنار ، ج ٣ ، ص ١٧ .

القول الأول : إنّ الناسخ قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ فَمَنْ أَبْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿ ١ ﴾ .

وقد عزب عن القائل أنّ هذه الآية مكيّة ، وآية المتعة مدنيّة ، ولا معنى لناسخية آية لحكم لم يُشرّع بعد .

أضف إليه أنّ نكاح المتعة داخل في الشقّ الأول ، أعني قوله : ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ ﴾ .

القول الثاني : إنّها منسوخة بآية العدة ، وهي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ، فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ ﴿ ٢ ﴾ حيث تدلّ على أنّ انفصال الزوجين إنّما يحصل بطلاق وعدّة ، والمتعة ليس فيها عدّة ولا طلاق .

وهذا من غرائب الأقوال ، وذلك أنّ القول بعدم العدّة في المتعة ناش من الجهل بأحكامها ، فإنّ فيها العدة كالدائم غير أنّ عدتها حيضتان لمن تحيض وخمس وأربعين يوماً لمن لا ترى الحمرة وهي في سنّ من تحيض .

وأما الطلاق ، فلم يدلّ دليل على أنّه وسيلة الفراق الوحيدة لكلّ زواج ، وإنّما ينحصر دليل الطلاق بالنكاح الدائم .

القول الثالث : إنّها منسوخة بآية الميراث حيث لا ميراث في المتعة .

يلاحظ عليه إنّ الميراث من أحكام الزواج ، ونفي حكم في مورد ، لا يدلّ على انتفاء الموضوع ، فالمتنع ، بها زوجة يترتب عليها آثار الزوجية إلّا ما خرج بالدليل ، وانتفاء أثر ما لا يدلّ على فقدان الموضوع . مثلاً النفقة من أحكام الزوجية والناشئة لا نفقة لها ومع ذلك فهي زوجة . والكافرة ، والقاتلة والمعقود عليها في المرض إذا مات زوجها فيه قبل الدخول ، زوجات ، ولكن لا يرثن . بل

(١) سورة المؤمنون : الآيات ٥ - ٧ .

(٢) سورة الطلاق ، الآية الأولى ، ونظيره قوله تعالى ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ (سورة البقرة : الآية ٢٢٨) .

قد تتحقق الوراثة من دون أن تكون هناك زوجية ، كما إذا طلق الرجل زوجته في مرض موته ، وخرجت عن العدة ، فمات الزوج إلى سنة من الطلاق ، فترته ، وليست بزوجة . فبين الزوجية والوراثة عموم وخصوص من وجه .

ب - الخلاف في زمن النسخ

ومّا يدلّ على عدم النسخ اختلافهم في زمن نسخه إلى أقوال شتى :

- ١ - أنها أُبيحت ثم نهي عنها عام خيبر .
 - ٢ - ما حلّت إلّا في عمرة القضاء .
 - ٣ - كانت مباحة ونهي عنها في عام الفتح .
 - ٤ - أُبيحت عام أوطاس ثم نهي عنها^(١) .
- وهذه الأقوال تنفي الثقة في وقوع النسخ .

على أن القول بنسخ الكتاب بأخبار الأحاد ممنوع جداً ، وقد صحّح عن عمران بن الحصين أنّه قال : إنّ الله أنزل المتعة وما نسخها بآية أخرى ، وأمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله بالمتعة وما نهانا عنها ، ثم قال رجل برأيه ، يريد به عمر بن الخطاب^(٢) .

ج - قرائن أخرى على عدم النسخ

لكن هناك قرائن قطعية تدلّ على عدم النسخ وكفى في ذلك ما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري ، قال : كنّا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق ، لأيام ، على عهد رسول الله وأبي بكر ، وحتى (ثم) نهي عنه عمر في شأن عمرو بن حريث^(٣) .

(١) راجع في الوقوف على مصادر هذه الأقوال : كتاب الغدير ، ج ٦ ، وأصل الشيعة وأصولها ، ص ١٧١ . والأقوال في الثاني أكثر ممّا ذكرنا .

(٢) التفسير الكبير للرازي ، ج ١٠ ، ص ٥٣ . الإرشاد ، ج ٤ ، ص ١٦٩ فتح الباري ، ج ٤ ، ص ٣٣٩ ، وجاء في بعض نسخ البخاري ، كما نص عليه العسقلاني

(٣) صحيح مسلم ، ج ١ ، ص ٣٩٥ .

وقد تضافر عن عليّ أنه سُئِلَ عن آية المتعة ، أُمسوخة ؟ قال : لا . وقال :
لولا نهي عن المتعة ما زنى إلا شقي^(١) .

أضف إلى ذلك ما تضافر من الروايات الدالة على أنّ عُمَرَ هو الذي نهي عن
المتعة بعد تسنمه الخلافة ، وقد أسند النبي إلى نفسه بقوله : إنّ رسول الله هذا
الرسول ، وإنّ القرآن ، هذا القرآن ، وإنّهما متعتان على عهد رسول الله وأنا أنهي
عنهما ، وأعاقب عليهما ، إحداهما متعة النساء ، ولا أقدر على رجل تزوج امرأة إلى
أجل إلا غيبته بالحجارة ، والأخرى متعة الحج^(٢) .

وأقصى ما يمكن أن يقال إنّ الخليفة رأى مصلحة في زمانه وأيامه ، اقتضت
أن يمنع من المتعة منعاً سياسياً لا دينياً ولذا قال : « وأنا أحرّمهما وأعاقب
عليهما » ، ولم يقل : « إنّ رسول الله حرّمهما أو نسخهما » ، بل نسب التحريم إلى
نفسه ، وجعل العقاب عليها منه لا من الله . ومن المعلوم أنّ المنع السياسي يكون
منعاً مؤقتاً تابعاً لمصلحة الزمان ، فإذا انقلبت المصلحة إلى غيرها ، يرتفع النهي .

فالحق أنّ المتعة سنة إسلامية أمر بها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله
وسلم بوحى من الله سبحانه ليسدّ بذلك طريق الزنا وأنّ الحكمة الإلهية في إكمال
الشرعية تقتضي تسويغ هذا النوع من الزواج ، فالمسافرون ولا سيما من تطول
أسفارهم في طلب علم أو تجارة أو جهاد ، أو مرابطة في ثغر ، وهم في ميعة
الشباب وريعان العمر ، وتأجج سعي الشهوة ، لا يخلو حالهم من أمرين : أما
الصبر ومجاهدة النفس الموجب للمشقة ، التي تنجر إلى الوقوع في أمراض مزمنة ،
وعلى مهلكة ، وفيه إلقاء في العسر والحرج وعظيم المشقة ، ممّا تأباه شريعة
الإسلام السمحة السهلة ، ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ، وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾^(٣) ،
﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾^(٤) .
وإما الوقوع في الزنا والعهر والتوغل في المفاسد .

(١) تفسير الطبري ، ج ٥ ، ص ٩ .

(٢) سنن البيهقي ، ج ٧ ، ص ٢٠٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٦ .

فما هو تكليف الشاب المغترب الذي لا يقدر على الزواج الدائم ، وأيهما يختار ، يا قادة المسلمين ويا رجال الإصلاح ؟ .

غير أن الشيعة الإمامية ، إقتفاء لأثر رسول الله ، وأئمتهم الأطهار ، ينادون بجلاء أفواههم بأن هناك طريقاً ثالثاً ، جامعاً بين اليسر والشرف ، وهو الزواج المؤقت ، على شروط وأحكام . ولعمري إن المتعة كانت رحمة رحم الله بها أمة محمد صلى الله عليه وآله ، كما قال حبر الأمة ابن عباس^(١) .

هذا ، وفيما كتبه الأعلام حول المتعة غنى وكفاية ، وما ذكرناه قبس من أنوار علومهم ، وضياء من مشاعلهم ، رحم الله الماضين من علمائنا وحفظ الله الباقيين منهم ، وجمع بهم كلمة المسلمين ، وأوردتهم المنهل الصافي المعين ، أعني توحيد الكلمة ، كما هم عليه من كلمة التوحيد ، وقد بُني الإسلام على كلمتين :

كلمة التوحيد ، وتوحيد الكلمة

بلغ القلم هذه السطور صبيحة يوم الإثنين السادس عشر من شهر شوال المكرم من شهور عام ١٤٠٩ للهجرة النبوية المباركة ، بيد العبد الفقير بذاته إلى الله سبحانه ، أبي جعفر حسن بن محمد مكّي العاملي ، غفر الله لي ولوالديّ ، وجعل ما كتبته وأقدمه إلى المجتمع الإنساني ، ومحافل الفكر والمعرفة ، ومدارس الحق والهداية ، مذكوراً في خزائنه بأفضل ما يشيب تعالى عباده عليه ، ويؤجرهم به ، إنه خير مؤملٍ ومدعوٍ ومُجيبٍ .

﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(١) أحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ١٧٩ . بداية المجتهد ، ج ٢ ، ص ٥٨ . الدر المنثور ، ج ٢ ، ص ١٤١ .

ملحق^(١)

(١)

تعليق للمؤلف

أما ما يرجع إلى آدم عليه السلام من النسيان - بل غيره من الصفات ، كالعصيان - فمفتاح حلّه وفك عقده أن يُعلم أنّ الدار التي كان فيها آدم لم تكن دار تكليف ، فلم تكن الأوامر التي تلقاها آدم ، مولوية يترتب على فعلها الثواب ومخالفتها العقاب ، بل كانت إرشادية إلى ما فيه المنفعة لا غير .

فإذا لم تكن تلك دار تكليف ، ولا يترتب على نسيان آدم أي محذور عقلي من المحاذير المتقدمة ، كأدائه إلى انتفاء الغرض من بعثه بتطرق احتمال النسيان إلى ما يحمله من شرع ويبلغه من مبادئ ، فلا مانع من تجويز السهو والنسيان عليه .

وأما ما وقع من موسى عليه السلام في الموردين ، أعني قوله : « سيا حوتهما » ، وقوله « لا تؤاخذني بما نسيت » ، فقد قيل إنه بمعنى الترك ، وليس كذلك ، لإباء السياق عنه أولاً ، ولأنّ الترك الذي يطلق عليه النسيان منشؤه إمّا ضعف القلب ، أو الغفلة ، أو القصد حتى ينحذف من القلب ذكره ، والأولان خلاف المطلوب والثالث خلاف المورد والسياق .

وقال الشيخ الطوسي في التبيان ، في قوله : ﴿ نسيا حوتهما ﴾ ؛ « إنّما نسيه يوشع بن نون - فتاه - وأضافه إليهما ، كما يقال نسي القوم زادهم وإنّما نسيه بعضهم »^(٢) . ولكنه لا ينفع في المراد ، لأنّ يوشع بن نون نبي أيضاً . نعم ، لو

(١) راجع إلى ص .

(٢) التبيان ، ج ٧ ، ص ٦٦ ، ط النجف ١٣٨١ .

لم يكن الفتى يوشع بن نون ، لانتجه ما ذكره .

وقال في الآية الثانية : « وقيل في معنى نسيت ثلاثة أقوال :

أحدها : ما حكى عن أبيّ بن كعب أنّه قال : « معناه بما غفلت ، من النسيان الذي هو ضدّ الذكر » .

والثاني : ما روي عن ابن عباس أنّه قال : « معناه بما تركت من عهدك » .

والثالث : لا تؤاخذني بما كنّيّ نسبته ، ولم ينسه في الحقيقة - في رواية أخرى عن أبيّ بن كعب^(١) .

واختار العلامة الطباطبائي في ميزانه وقوع النسيان من موسى في المورد الأول على حقيقته ، قال : « فمعنى نسيا حوتها بنسبة النسيان إليهما معاً : نسيا حال حوتها ، فموسى نسي كونه في المكتل فلم يتفقده ، والفتى نسيه إذ لم يخبر موسى بعجيب ما رأى من أمره .

ثم قال في ذيل قول فتاه : ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره ﴾ ، « ولا ضير في نسبة الفتى نسيانه إلى تصرف من الشيطان بناء على أنّه كان يوشع بن نون النبي ، والأنبياء في عصمة إلهية من الشيطان لأنهم معصومون مما يرجع إلى المعصية ، وأما مطلق إيذاء الشيطان فيما لا يرجع إلى معصية فلا دليل يمنعه .

قال تعالى : ﴿ واذكر عبدنا أيّوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾^(٢) .

وحمل النسيان في المورد الثاني على ضرب من الاعتذار^(٣) .

والذي يمكن أن يقال جمعاً بين ما أفاده العلمان ، أن كون الفتى هو يوشع بن نون النبي غير مسلّم - وإن جاء في رواية العياشي عن أبي حمزة البطائني عن أبي

(١) المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(٢) سورة ص : الآية ٤١ ، الميزان ، ج ١٣ ، ص ٣٣٩ - ٣٤١

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٤٤ .

جعفر عليه السلام قال : « كان وصي موسى يوشع بن نون ، وهو فتاه الذي ذكره في كتابه » - ولكنها مرسله ، فيقال هنا - حينئذٍ - إن الذي نسي هو الفتى وإنما نسب إليها ، كما يقال : نسي القوم زادهم ، وإنما نسيه بعضهم ، على ما ذكره الشيخ . هذا في المورد الأول .

وأما في المورد الثاني ، فهو ضرب من الاعتذار .
وبذلك ينجلي الحال فيما نسب إلى موسى من النسيان .

* * *

ملحق^(١)

(٢)

إنّ البحث عن الإعجاز البياني للقرآن الكريم بحث مهم لم يستوفه علماء العقائد في كتبهم الكلامية ، ولأجل ذلك رأينا من اللازم الخوض فيه على وجه مبسوط مقنع . وقد كتبت حول هذا القسم من الإعجاز ، كتب ورسائل ، بيد أئمة البلاغة ، قديماً وحديثاً ونشير هنا إلى بعض ما اعتمدنا عليه في تنظيم هذه المباحث ، واستضأنا من أنواره :

- ١ - بيان إعجاز القرآن ، لأبي سليمان ، محمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت ٣١٩ - م ٣٨٨) .
- ٢ - النكت في إعجاز القرآن ، لأبي الحسن ، علي بن عيسى الرماني ، (ت ٢٩٦ - م ٣٨٦) .
- ٣ - الرسالة الشافية ، لأبي بكر عبد القاهر عبد الرحمان الجرجاني المتوفى عام ٤٧١ .
- وهذه الرسائل الثلاث طبعت في مجموعة واحدة باسم « ثلاث رسائل في إعجاز القرآن » في مصر .
- ٤ - إعجاز القرآن : لأبي بكر محمد بن الطيّب الباقلاني ، المتوفى عام ٤٠٣ .
- ٥ - سر الفصاحة ، لابن سنان الخفاجي ، المتوفى عام ٤٦٤ هـ .
- ٦ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، تأليف السيد

(١) راجع إلى ص

- يحيى بن حمزة العلوي اليميني متوفى عام ٧٤٩ هـ ، طبع في مصر في ثلاثة أجزاء ، طبعة المقتطف ، عام ١٣٣٣ هـ . وهو كتاب قيم ، خصوصاً الجزء الثالث منه .
- ٧ - الإتيقان في علوم القرآن ، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى عام ٩١١ ، أربع أجزاء في مجلدين .
- ٨ - إعجاز القرآن والسلاغة النبوية ، تأليف مصطفى صادق رافعي ، الطبعة الثامنة .
- ٩ - مناهل العرفان في علوم القرآن ، تأليف محمد عبد العظيم الزرقاني ، طبع في مصر في جزئين .
- ١٠ - إعجاز القرآن ، تأليف عبد الكريم الخطيب ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٣٩٥ .
- ١١ - المعجزة الخالدة ، تأليف العلامة هبة الدين الشهرستاني المتوفى عام ١٣٨٦ طبعة ١٣٣٩ هـ .
- ١٢ - البيان في تفسير القرآن للعلامة المحقق السيد أبو القاسم الخوئي دام ظله .
- وغير ذلك من عشرات الكتب التي رجعنا إليها في تدوين هذا القسم من الإعجاز .

ملحق^(١)

(٣)

تعليق للمؤلف

من المفيد الإشارة إلى شبهة يطرحها بعض المتشددين بالتجدد والعصرنة ، يقولون : إنّ بنیان الحكم في الإسلام مبني على أسس الديمقراطية ، وحرية الرأي والتعبير ، ومن هذا المنطق ، كان الطريق الذي شرعه الإسلام لانتخاب الإمام والقائد ، هو الشورى والإختيار الحر .

وهو غير صحيح من جهات عدة :

الأولى : إنهم أرادوا بدعوى الديمقراطية ، تصحيح خلافة الأوائل ، التي يعرف القاضي والداني أية ديموقراطية كانت سائدة فيها ، فأين الضرب بالأيدي والعصي ، والتهديد والوعيد ، وحرق الدور ، وغصب الأموال ، و . . . وبالجملّة قمع المخالفين بالقهر والعنف والإذلال ؟ . ومع ذلك كلّ ، كم إنسان شارك في عملية الإنتخاب ؟ وما نسبتهم إلى المجتمع الإسلامي ؟ أم ما هي سمتهم التمثيلية لأبنائه ؟ .

الثانية : كيف يسوغ التفوه بمقولة الديمقراطية في مجتمع عشائري قبلي ، الرؤوس فيه عديدة ، والآراء فيه غريدة ، وإنّ هو إلّا رأي صاحب العشيرة . ما بعده من رأي ، هذا . والديموقراطية تفترض الحرية في الرأي ، والإنفتاح في التعبير ، فلكل فرد من أبناء المجتمع رأيه المستقل ، ونظره الخاص ، يدلي بصوته

(١) راجع إلى ص

لمن شاء وأحب . وفرض مثل هذا في مجتمع قبلي وعشائري ، هرطقة فاضحة .

الثالثة : يقول علماء الاجتماع إنّ الديمقراطية إنما تُفترضُ في المجتمع المترقّي فكرياً وثقافياً ، وذلك لأنّ العمليات الانتخابية التي يُفترض إجراؤها تحت مظلة الديمقراطية ، تستلزم وعياً ونظراً وإدراكاً للمصالح والمفاسد ، وتقويماً للطرق السليمة التي تفيد المجتمع في ارتقائه وتكامله ، وتجربةً في الحياة السياسية . وهذا كله يستدعي أرضية ثقافية وفكرية نشيطة ، لدى أبناء الشعب ، وفي غير تلك الصورة ، يكون فرض الديمقراطية ، لا ديمقراطية .

فإذا قست هذا الأصل الذي ذكرناه ، إلى وضع أفراد المجتمع الإسلامي حال وفاة الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله ، تدرك ما قيمة فرض مبدأ « الديمقراطية » في الانتخاب ، آنذاك .

* * *

المحتويات

٥	تصدير بقلم المحاضر
٥	تطوير علم الكلام أو رصد الحركات الإلحادية
٨	الأول : فصل الدين عن العلم
٩	الثاني : النسبية أو نفي الحقائق المطلقة
١٢	الثالث : إنكار الفطريات
١٣	الرابع : الغرور بالعلم
١٧	دواء يزيد داء
١٩	الفصل السابع : النبوة العامة
٢٠	النبوة العامة : مقدمة
٢٢	مباحث النبوة العامة
٢٢	البحث الأول - لزوم بعثة الأنبياء
٢٣	١ - أدلة لزوم البعثة : حاجة المجتمع إلى القانون الكامل
٢٣	الأمر الأول : نزعة الإنسان إلى الحياة المدنية
٢٤	الأمر الثاني : الحياة الاجتماعية رهن القانون
٢٤	الأمر الثالث : شرائط المقنن

الشرط الأول : أن يكون المقنن عارفاً بالإنسان	٢٥
الشرط الثاني : أن لا يكون المقنن منتفعاً بالقانون	٢٦
الشرط الثالث : إصلاح الباطن	٢٦
٢ - أدلة لزوم البعثة : حاجة المجتمع إلى المعرفة	٣٠
الأمر الأول : الهداية التكوينية	٣١
الأمر الثاني : قصور العلم الإنساني في مجال المعارف الإلهية	٣١
الأمر الثالث : ضالة العلم الإنساني في التعرف على المصالح والمفاسد	٣٣
إشارة إلى هذا الدليل في الكتاب	٣٥
٣ - أدلة لزوم البعثة : هداية الفطريات وتعديل الغرائز	٣٧
الأمر الأول - الإنسان مجبول على فطرياته وغرائزه	٣٧
الأمر الثاني - حاجة الفطريات إلى الهداية والغرائز إلى التعديل	٣٨
الأنبياء والفطرة في الحديث	٤٢
٤ - أدلة لزوم البعثة : بعثة الأنبياء أولى من الكماليات	٤٤
٥ - أدلة لزوم البعثة : اللطف الإلهي	٤٧
أ - اللطف المحصّل	٤٧
ب - اللطف المقرّب	٤٨
أدلة منكري بعثة الأنبياء	٥٥
الدليل الأول :	٥٥
الدليل الثاني :	٥٦
الدليل الثالث :	٥٧
الدليل الرابع :	٥٨
مباحث النبوة العامة	٦١
البحث الثاني : ما تثبت به دعوى النبوة	٦١
طرق التعرف على صدق الدعوى	٦١
١ - طرق إثبات النبوة - الإعجاز وهي على ثمان جهات	٦٢
الجهة الأولى : تعريف المعجزة	٦٤

- ١ - الإعجاز خارق للعادة وليس خارقاً للعمل ٦٤
- ٢ - الإعجاز يجب أن يكون مقترناً بالدعوى ٦٦
- ٣ - عجز الناس عن مقابلته ٦٦
- ٤ - أن يكون عمله مطابقاً لدعواه ٦٧
- الجهة الثانية : هل الإعجاز يخالف أصل العلية ؟ ٦٨
- الجهة الثالثة : ما هي العلة المحدثة للمعجزة ؟ ٧٠
- القول الأول : إنها الله سبحانه ٧٠
- القول الثاني : إنها علل مادية غير متعارفة ٧١
- القول الثالث : إنها الملائكة والموجودات المجردة ٧١
- القول الرابع : إنها نفس النبي وروحه ٧٢
- الجهة الرابعة : هل الإعجاز يضعف برهان النظم ؟ ٧٧
- الجهة الخامسة : الإعجاز والمتجددون من المسلمين ٨٠
- الجهة السادسة : دلالة الإعجاز على صدق دعوى النبوة ٨٦
- البيان الأول لوجود الرابطة المنطقية ٨٧
- القرآن والدعوى الكاذبة ٩٠
- البيان الثاني لوجوه الرابطة المنطقية ٩٢
- الجهة السابعة : هل حرم الإنسان المعاصر من المعاجز والكرامات ؟ ٩٦
- الأولى - القرآن الكريم ٩٦
- الثانية - المباهلة ٩٧
- الجهة الثامنة : بماذا تُتميز المعجزة عن السحر ١٠٠
- الأول : إنَّ السحر ونحوه رهن التعليم دون الإعجاز ١٠١
- الثاني : إنَّ السحر ونحوه قابل للمعارضة دون المعجزة ١٠٢
- الثالث : إنَّ السحر ونحوه لا يقترن بالتحدي بخلاف الإعجاز ١٠٢
- الرابع : إنَّ السحر ونحوه محدود من حيث التنوع دون المعاجز ١٠٣
- الخامس : الاختلاف من حيث الأهداف والغايات ١٠٤
- السادس : الاختلاف في النفسانيات ١٠٥
- ٢ - طرق إثبات النبوة - تنصيب النبي السابق على نبوة اللاحق ١٠٧
- ٣ - طرق إثبات النبوة - جمع القرائن والشواهد ١٠٩

١١٠	١ - النفسيات النبي
١١٠	٢ - سمات بيئته
١١٠	٣ - مضمون الدعوة
١١٠	٤ - ثباته في طريق دعوته
١١١	٥ - الأدوات التي يستفيد منها في دعوته
١١١	٦ - المؤمنون به
١١٥	مباحث النبوة العامة
١١٥	البحث الثالث : الوحي وأقسامه
١١٥	الأمر الأول : الوحي في اللغة
١١٦	الأمر الثاني : الوحي في القرآن الكريم
١١٧	١ - تقدير الخلق بالسنن والقوانين
١١٧	٢ - الإدراك بالغريزة
١١٨	٣ - الإلهام والإلقاء في القلب
١١٨	٤ - الإشارة
١١٩	٥ - الإلقاءات الشيطانية
١١٩	٦ - كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه
١٢٠	الأمر الثالث : حقيقة الوحي في النبوة
١٢٣	النظرية الأولى : الوحي نتيجة النبوغ
١٢٤	تحليل نظرية النبوغ
١٢٧	النظرية الثانية - الوحي النفسي
١٢٨	١ - الوحي نتيجة تجلي الأحوال الروحية
١٣٢	٢ - الوحي نتيجة ظهور الشخصية الباطنة
١٣٨	٣ - نظرية الفلاسفة المشائين في الوحي
١٤٤	مباحث النبوة العامة
١٤٤	البحث الرابع : سمات الأنبياء
١٤٦	١ - سمات الأنبياء - العصمة

- المرتبة الأولى للعصمة : العصمة عن الذنوب ١٤٧
- المقام الأول - حقيقة العصمة عن المعاصي ١٤٧
- الوجه الأول : العصمة غصن من دوحه التقوى ١٤٨
- الوجه الثاني : العصمة نتيجة العلم القطعي بعواقب المعاصي ١٤٩
- الوجه الثالث : الاستشعار بعظمة الرب وكماله وجماله ١٥٢
- المقام الثاني - مبدأ ظهور فكرة العصمة ١٥٣
- المقام الثالث - دليل لزوم عصمة الأنبياء عن الذنوب ١٥٥
- الدليل الأول - الوثوق فرع العصمة ١٥٧
- الدليل الثاني - التربية رهن عمل المربي ١٦٠
- سؤالان هامان : ١٦٢
- السؤال الأول : هل العصمة تسلب الاختيار ؟ ١٦٢
- السؤال الثاني : العصمة موهبة فلا تكون مفخرة ١٦٤
- العصمة في الكتاب العزيز ١٦٨
- وجه الدلالة ١٦٨
- المرتبة الثانية للعصمة : عصمة النبي في تبليغ الرسالة ١٧٢
- القرآن وعصمة الأنبياء في تبليغ الرسالة ١٧٣
- المرتبة الثالثة للعصمة : العصمة عن الخطأ في تطبيق الشريعة والأمر العادية ١٧٩
- القرآن وعصمة النبي عن الخطأ ١٨٠
- أدلة المجوزين للخطأ على الأنبياء ١٨٥
- الرأي السائد بين المتكلمين حول سهو النبي ١٨٨
- ٢ - سمات الأنبياء : التنزه عن المنفردات ١٩٧
- ١ - التنزه عن دناءة الآباء وعهر الأمهات ١٩٧
- ٢ - سلامة الخلقة ١٩٨
- ٣ - كمال الخلق ١٩٨
- ٤ - كمال العقل ١٩٨
- ٥ - حُسْنُ السيرة ١٩٨
- ٣ - سمات الأنبياء : علم النبي بالمعارف والأحكام ٢٠٠

٢٠٣	٤ - سمات الأنبياء : الكفاءة في القيادة
٢٠٥	الفصل الثامن : النبوة الخاصة
٢٠٦	الدعوة الإسلامية
٢٠٦	١ - ظروفها
٢٠٦	٢ - اسم الداعي ونسبه
٢٠٧	٣ - تاريخ الدعوة
٢٠٨	٤ - سمات الدعوة
٢١٤	الطريق الأول لإثبات نبوة نبي الإسلام
٢١٤	الاستدلال بمعجزاته
٢١٥	١ - دعوى النبوة
٢١٥	٢ - خرق العادة
٢١٥	٣ - التحدي
٢١٥	٤ - العجز عن مقابلته
٢١٥	٥ - مطابقة المعجزة للدعوى
٢١٥	المقام الأول : المعجزة الخالدة
٢١٩	الأمر الأول : سبب التحدي بالكلام
٢٢٠	الوجه الأول : أصدق المعجزات ما شابه أرقى فنون العصر
٢٢٢	الوجه الثاني : الدين الخالد رهن المعجز الخالد
	مزايا أخرى لهذه المعجزة :
٢٢٤	١ - القرآن كتاب الهداية والتربية
٢٢٤	٢ - استقلالها في إثبات الرسالة
٢٢٥	٣ - التحدي بأبسط الأشياء وأوفرها
٢٢٧	الأمر الثاني : وجه إعجاز القرآن وكونه كتاباً خارقاً للعادة
٢٢٩	المسلك الأول : في إثبات إعجاز القرآن

٢٢٩	اعتراف بلغاء العرب بأعجاز القرآن البياني
٢٢٩	١ - اعتراف الوليد بن المغيرة ريحانة العرب
٢٣١	٢ - اعتراف عتبة بن ربيعة
٢٣٣	٣ - تأثير آيتين
٢٣٦	١ - منع سماع القرآن
٢٣٩	٢ - غرو القرآن إلى السحر
٢٤٢	٣ - دعوة القصاص لسرد الأساطير
٢٤٢	المسلك الثاني : في إثبات إعجاز القرآن
٢٤٣	تحليل إعجاز القرآن الكريم
٢٤٧	تعريف الفصاحة
٢٤٨	تعريف البلاغة
٢٤٩	نكبة مهمة
٢٥١	١ - دعائم إعجاز القرآن
٢٥١	الفصاحة : جمال اللفظ وأناقة الظاهر
٢٥٩	٢ - دعائم إعجاز القرآن :
٢٥٩	البلاغة : جمال العرض وسمو المعنى
٢٦٠	الأمر الأول : مطابقة الكلام المقتضي الحال
٢٦١	١ - بلاغة سورة « الكوثر »
٢٦٤	٢ - بلاغة سورة « الضحى »
٢٧٣	الأمر الثاني - سمو المعاني
٢٧٤	١ - المعارف العليا
٢٧٦	٢ - سطوع براهينه
٢٧٨	٣ - بداية التصوير والتعبير
٢٨٢	لون آخر من التصوير الفني
٢٨٣	٤ - الأمثال
٢٨٣	الصراع بين الحق والباطل

٢٨٧	٥ - آية تحتمل مليوناً ومائتين وستين ألف احتمال
٢٩١	٣ - دعائم إعجاز : النظم
٢٩١	رصانة البيان واستحكام التأليف
٢٩١	تعريف النظم
٢٩٣	١ - تجاذب الكلمات
٢٩٥	٢ - وضع كل كلمة في موضعها
٢٩٨	هل في القرآن سجع ؟
٣٠٠	٤ - دعائم إعجاز القرآن : الأسلوب
٣٠٠	بداعة المنهج وغرابة السبك
٣٠٨	التنبية الأول : آيتان على منضدة التشريح
٣٠٨	١ - آية « يا أرض إبلعي »
٣١٢	٢ - آية « وأوحينا إلى أم موسى »
٣١٤	التنبية الثاني : مزايا القرآن البيانية
٣١٤	١ - الصراحة في بيان الحقائق
٣١٦	٢ - علو الجهة المنزل منها القرآن
٣٢٠	التنبية الثالث : مذهب الصرفة
٣٢١	حقيقة الصرفة
٣٢٧	مناقشة نظرية الصرفة
٣٣٤	الأمر الثالث : عجز البشر عن الإتيان بمثله
٣٣٥	دفع توهم
٣٣٧	هل عورض القرآن الكريم ؟
٣٣٧	١ - مسيلمة الكذاب
٣٣٩	ما هي حقيقة المعارضة ؟
٣٤١	الشك في صحة نسبة هذه المعارضات
٣٤٢	٢ - طليحة بن خويلد الأسدي
٣٤٢	٣ - شجاع بنت الحارث بن سويد التميمية
٣٤٤	٤ - الأسود العنسي

- آخرون رُموا بأنهم عارضوا القرآن الكريم ، ومنهم : ٣٤٦
- ١ - عبد الله بن المقفع ٣٤
- ٢ - أحمد بن الحسين المتنبي ٣٤٥
- ٣ - أبو العلاء المعري ٣٤٥

الأمر الرابع : الشواهد الدالة على كونه كتاباً سماوياً ٣٤٩

- ١ - شواهد إعجاز القرآن : أمية حامل الرسالة ٣٥٠
- ٢ - شواهد إعجاز القرآن : عدم الاختلاف في الأسلوب ٣٥٣
- ٣ - شواهد إعجاز القرآن : عدم الاختلاف في المضمون ٣٥٥
- ٤ - شواهد إعجاز القرآن : هَيْمَنَةُ القرآن على الكتب السماوية ٣٥٨
- ١ - آدم في القرآن والتوراة ٣٦١
- ٢ - نوح في القرآن والتوراة ٣٦٤
- ٣ - إبراهيم في القرآن والتوراة ٣٦٨
- ٤ - لوط في القرآن والتوراة ٣٦٩
- ٥ - يعقوب في القرآن والتوراة ٣٧١
- ٦ - داود وسليمان في القرآن والعهدين ٣٧١
- ٧ - المسيح في القرآن والإنجيل ٣٧٤
- المسيح يحوّل الماء خمرأ ليشرب الناس ٣٧٥
- ٥ - شواهد إعجاز القرآن : إعجازه من ناحية إتقان التشريع والتقنين . . ٣٧٨
- السمة الأولى : مرونة التشريع القرآني ٣٨١
- أ - النظر إلى المعاني لا المظاهر ٣٨١
- ب - الأحكام التي لها دور التحديد ٣٨٤
- السمة الثانية : تشريعاته معتمدة على الفطرة ٣٨٥
- السمة الثالثة : التقنين الوسيط بين المادية والروحية ٣٨٨
- السمة الرابعة : رعاية الموضوعية في التقنين ٣٩٠
- السمة الخامسة : ضمان الإجراء ٣٩٠
- السمة السادسة : سعة القوانين ٣٩٢
- ٦ - شواهد إعجاز القرآن : الإخبار عن الغيب ٣٩٥

- ١ - التنبؤ بعجز البشر عن معارضة القرآن ٣٩٦
- ٢ - التنبؤ بانتصار الروم على الفرس ٣٩٧
- ٣ - التنبؤ بصيانة النبي عن أذى الناس ٣٩٨
- ٤ - التنبؤ بالقضاء على العدو قبل لقائه ٣٩٨
- ٥ - التنبؤ بكثرة ذرية النبي (ص) ٣٩٩
- ٧ - شواهد إعجاز القرآن : إخباره عن الظواهر والقوانين الكونية ٤٠٠
- ١ - القرآن والجادبية العامة ٤٠٢
- ٢ - القرآن وكروية الأرض ٤٠٢
- ٣ - القرآن والعالم الجديد ٤٠٥
- ٤ - القرآن وحركة الأجرام السماوية ٤٠٦
- ٥ - القرآن وحركة الأرض ٤٠٧
- ٦ - القرآن وزوجية الموجودات ٤١٠
- ٧ - القرآن والحياة في الأجرام السماوية ٤١٣
- ٨ - القرآن ودور الجبال في إثبات القشرة الأرضية ٤١٤
- ٨ - شواهد إعجاز القرآن - الأخلاق ٤١٦

- المقام الثاني : الاستدلال على نبوته بمعجزه الآخر ٤١٩
- الدليل الأول : المحاسبة العقلية ٤٢٠
- الدليل الثاني : القرآن يثبت للنبي معاجز غير القرآن ٤٢١
- ١ - انشقاق القمر ٤٢١
- ٢ - إسراء ومعراج النبي (ص) ٤٢٣
- ٣ - مباهلة النبي لأهل الكتاب ٤٢٣
- ٤ - طلب المعاجز من النبي (ص) الواحدة تلو الأخرى ٤٢٤
- ٥ - وصف معاجز النبي بالسحر ٤٢٥
- ٦ - النبي الأعظم وبيئاته ٤٢٥
- ٧ - إخبار النبي عن الغيب ، كالمسيح (ع) ٤٢٦
- الدليل الثالث - معاجز النبي في الحديث والتاريخ ٤٢٦
- مقارنة بين معاجز النبي وغيره من الأنبياء ٤٢٧

٤٢٨	خاتمة المطاف
٤٢٩	الطريق الثاني لإثبات نبوة نبي الإسلام
٤٢٩	بشائر خاتم الرسل في العهدين
٤٣٦	الطريق الثالث لإثبات نبوة نبي الإسلام
٤٣٦	القرائن الدالة على نبوة الرسول الأعظم
٤٣٧	القرينة الأولى - سيرته النفسية والخلقية قبل الدعوة وبعدها
٤٤٠	القرينة الثانية - الظروف التي فيها نشأ وادعى النبوة
٤٤١	القرينة الثالثة - المفاهيم التي تبناها ودعا إليها
٤٤٣	القرينة الرابعة - الأساليب التي اعتمدها في نشر دعوته
٤٤٦	القرينة الخامسة - شخصية المؤمنين به
٤٤٨	القرينة السادسة - ثباته في طريق دعوته
٤٤٩	القرينة السابعة - أثر رسالته في تغيير البيئة التي ظهر فيها
٤٥١	سمات الدعوة الإسلامية
٤٥٢	السمة الأولى : عالمية الرسالة
٤٥٦	إزالة شبهات
٤٥٨	١ - تفنيد فكرة الشعب المختار
٤٥٩	٢ - النجاة رهن العمل والالتزام
٤٦٠	٣ - الأصالة للتوحيد لا لليهودية ولا للنصرانية
٤٦٣	السمة الثانية : خاتمة الرسالة
٤٦٣	الخاتمة في الكتاب العزيز
٤٦٣	١ - التنصيص على أنه خاتم النبيين
٤٦٤	الخاتم وما يراد منه
٤٦٦	تشكيك ضئيل
٤٦٧	تشكيك آخر
٤٦٩	٢ - التنصيص على أن القرآن لا يأتيه الباطل
٤٧٠	٣ - التنصيص على الإنذار لكل من بلغ
٤٧١	٤ - التنصيص على أنه نذير للعالمين

- ٥ - التنصيص على كونه مرسلًا إلى الناس كافة ٤٧٤
 إشارات إلى الخاتمة في الذكر الحكيم ٤٧٤
 ب - الخاتمة في الأحاديث الإسلامية ٤٧٦
 تنصيص الإمام عليّ على الخاتمة ٤٧٨

أسئلة حول الخاتمة

- السؤال الأول : لماذا حرمت الأمة من النبوة التبليغية ؟ ٤٨٣
 السؤال الثاني : لماذا حرمت الأمة من الاطلاع على الغيب ؟ ٤٨٧
 السؤال الثالث : أليس التحول ناموساً عاماً ، فما ٤٩٢
 السؤال الرابع : كيف تكون الشريعة ثابتة مع أنّ لكلّ عصرٍ إقتضاءً خاصاً ؟
 ٤٩٤
 السؤال الخامس : هل القوانين المحدودة تفي بالحاجات غير المتناهية ؟ ٤٩٧
 ١ - الاعتراف بحجية العقل في مجالات خاصة ٤٩٨
 ٢ - الاعتراف بتبعية الأحكام للمصالح والمفاسد ٤٩٩
 ٣ - الكتاب والسنة مادة خصبة للتشريع ٥٠٠
 ٤ - تشريح الاجتهاد ٥٠١
 ٥ - حقوق الحاكم الإسلامي ٥٠٣

- الفصل التاسع : الإمامة والخلافة ٥٠٩
 الأمر الأول - في تعريف الإمامة ٥١٠
 الأمر الثاني - هل الإمامة من الأصول أو الفروع ٥١١
 الأمر الثالث - ماهية الإمامة عند أهل السنة ٥١٥
 الأمر الرابع - مؤهلات الإمام عند أهل السنة ٥١٨
 الأمر الخامس - بماذا تنعقد الإمامة عند أهل السنة ٥٢٢
 الأمر السادس - الإمامة عند الشيعة الإمامية ٥٢٨
 الأمر السابع - المصالح العامة ، وصيغة الحكومة بعد النبي ٥٤٨
 الأول : الأمة الإسلامية والخطر الثلاثي ٤٨

٥٥١	الثاني : الحياة القبلية تمنع من الاتفاق على قائد
٥٥٤	الثالث : الصحابة ومدى الوعي الديني
٥٥٨	الأمر الثامن - هل الشورى أساس الحكم والخلافة ؟
٥٦٤	الأمر التاسع - هل البيعة أساس الحكم
٥٦٨	الأمر العاشر - تصوّر النبي الأكرم للقيادة بعده
٥٧٠	الأمر الحادي عشر - تصوّر الصحابة للخلافة بعد النبي
٥٧٣	الأمر الثاني عشر - صيغة القيادة في الشرائع السابقة
٥٧٨	البحث الأول : السنة النبوية وتنصيب علي للإمامة
٥٧٨	أ - حديث بدء الدعوة
٥٨١	ب - حديث المنزلة
٥٨٤	ج - حديث الغدير
٥٨٧	الأمر الأول : البلاغ الرسمي للولاية
٥٨٨	الأمر الثاني : سند الحديث وتواتره
٥٩٠	الأمر الثالث : دلالة الحديث
٥٩٠	الطريق الأول : الدلالة بالوضع اللغوي
٥٩٤	ليس للمولى إلا معنى واحد
٥٩٦	الطريق الثاني : الدلالة بالقرائن
٦٠٠	حديث الغدير ورجال الأدب
٦٠١	السؤال الأول : لماذا أعرض الصحابة عن مدلول حديث الغدير
٦٠١	١ - رزية يوم الخميس
٦٠٢	٢ - سرية أسامة
٦٠٣	٣ - صلح الحديبية واعتراض القوم
٦٠٥	السؤال الثاني : ما فائدة البحث عن إمامة علي في هذه الأزمان
٦٠٧	١ - حديث الثقلين
٦٠٨	من هم العترة وأهل البيت ؟
٦١٠	٢ - حديث السقيفة
٦١١	البحث الثاني : السنة النبوية والأئمة الاثنا عشر
٦١١	البحث الثالث : عصمة الإمام في القرآن

٦٢٠	الأول : ما هو المراد من الإمامة في الآية
٦٢٣	الثاني - ما هو المراد من الظالمين
٦٣٣	البحث الرابع : الإمام المنتظر في الكتاب والسنة
٦٤١	أسئلة مهمة حول المهدي عجل الله تعالى فرجه
٦٤٢	السؤال الأول - كيف يكون إماماً وهو غائب ؟ وما فائدته ؟
٦٤٦	السؤال الثاني - لماذا غاب المهدي عليه السلام
٦٤٨	السؤال الثالث - الإمام المهدي وطول عمره
٦٥١	السؤال الرابع - علائم ظهوره ، ما هي ؟

الفصل العاشر : المعاد

١ - مباحث المعاد -

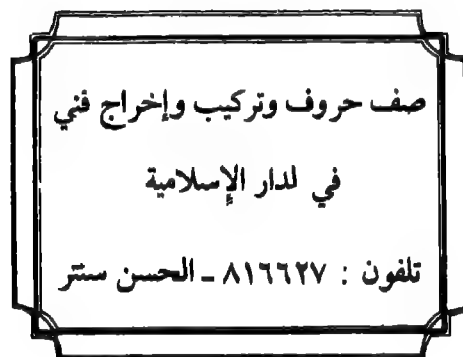
٦٥٦	المعاد في الملل والشرائع السابقة
٦٥٨	المعاد في العهد القديم والجديد
٦٦٠	القرآن والمعاد في الشرائع السماوية
٦٦٣	المعاد في القرآن
٦٦٤	أسماء المعاد في القرآن
٦٦٥	٢ - مباحث المعاد - أدلة وجوب المعاد وضرورته
٦٦٥	الدليل الأول : صيانة الخلقة من العبث
٦٦٠	الدليل الثاني : المعاد مقتضى العدل الإلهي
٦٧١	الدليل الثالث : المعاد مجلي لتحقيق وعده ووعيده
٦٧٣	الدليل الرابع : المعاد مجلي لرحمته سبحانه
٦٧٤	الدليل الخامس : المعاد خاتمة المطاف في تكامل الإنسان
٦٧٦	الدليل السادس : المعاد مقتضى الربوبية
٦٧٨	٣ - مباحث المعاد - بواعث إنكار المعاد وشبهات المنكرين
٦٧٩	الباعث الأول : التحلل من القيود والحدود
٦٧٩	الباعث الثاني : صيانة السلطة
٦٨٠	الباعث الثالث : التكذيب بالحق

- ٦٨ شبهات المنكرين للمعاد وهي عشرة
- ٦٨١ الإجابة التفصيلية عن شبهات
- ٦٩٣ ٤ - مباحث المعاد - تجرد الروح الإنسانية
- ٦٩٣ ١ - البراهين العقلية على تجرد الروح وهي ثلاث براهين
- ٦٩٧ ٢ - القرآن وتجرد النفس وخلودها ، وهي قسمين
- ٧٠٤ ٥ - مباحث المعاد - نماذج من إحياء الموتى في الشرائع السابقة
- ٧٠٥ ١ - إبراهيم وإحياء الموتى
- ٧٠٩ ٢ - إحياء عزيز
- ٧١٠ ٣ - إحياء قوم من بني إسرائيل
- ٧١٢ ٤ - إحياء قتيل بني إسرائيل
- ٧١٤ ٥ - إحياء سبعين رجلاً من قوم موسى
- ٧١٥ ٦ - المسيح يحيي الموتى
- ٧١٦ ٧ - إيقاظ أصحاب الكهف
- ٧١٨ ٦ - مباحث المعاد - الموت نافذة إلى حياة جديدة
- ٧١٩ الأمر الأول : « الموت » في اللغة والقرآن
- ٧٢٠ الأمر الثاني : هل الموت أمر عدمي ؟
- ٧٢١ الأمر الثالث : الموت سنة عامة في الخلق
- ٧٢٢ الأمر الرابع : لماذا يستوحش الإنسان من الموت ؟
- ٧٢٣ الأمر الخامس : الموت وأقسامه
- ٧٢٦ الأمر السادس : الموت والأجل المسمى
- ٧٢٧ الأمر السابع : الإنابة عند الموت
- ٧٢٨ الأمر الثامن : الوصية عند الموت
- ٧٢٩ الأمر التاسع : جهل الناس بأوان موتهم
- ٧٢٩ الأمر العاشر : الملائكة الموكلون بقبض الأرواح
- ٧٣١ ٧ - مباحث المعاد - الحياة البرزخية
- ٧٣٤ السؤال في القبر وعذابه ونعيمه
- ٧٣٧ نفخ الصور

٧٣٩	٨ - مباحث المعاد - أشراف الساعة وفيه مطالب
٧٥١	٩ - مباحث المعاد - مشاهد البعث والقيامة
٧٥١	١ - انهزام النظام
٧٥٢	٢ - خروج الناس من القبور
٧٥٢	٣ - إعطاء الكُتُب
٧٥٣	٤ - الحساب والشهود ، وهم عشرة
٧٦١	٥ - مشهد الميزان
٧٦٥	٦ - الصراط
٧٧٠	٧ - الأعراف
٧٧١	٨ - لواء الحمى
٧٧٢	٩ - الخوض
٧٧٣	١٠ مباحث المعاد - المعاد الجسماني والروحاني
٧٧٥	ملاك كون المعاد جسمانياً وروحانياً
٧٧٧	تحليل الملائكين في ضوء القرآن الكريم
٧٨٤	المعاد الروحاني عند الحكماء
٧٨٧	١١ - مباحث المعاد - الرجعة
٧٨٩	المقام الأول : إمكان الرجعة
٧٩٠	المقام الثاني : أدلة وقوع الرجعة
٧٩٦	١٢ - مباحث المعاد - التناسخ وأقسامه وبراهين بطلانه
٧٩٩	العناية الإلهية والتناسخ المطلق
٨٠١	الحركة الرجعية والتناسخ النزولي
٨٠٢	التناسخ الصعودي وانتقال النفس
٨٠٣	تحليل جامع للقول بالتناسخ
٨١١	١٣ - مباحث المعاد - الإيمان وأحكامه
٨٢١	١٤ - مباحث المعاد - التوبة وشروطها

- الأمر الأول : فلسفة التوبة ٨٢١
- الأمر الثاني : حقيقة التوبة ٨٢٢
- الأمر الثالث : وجوب التوبة ٨٢٣
- الأمر الرابع : هل تجب التوبة من الصغائر ٨٢٤
- الأمر الخامس : التوبة واجب فوري ٨٢٥
- الأمر السادس : أثر التوبة ٨٢٦
- الأمر السابع : قبول التوبة واجب على الله أولاً ٨٢٧
- الأمر الثامن : هل يجب في التوبة ، الندم على القبيح ؟ ٨٢٩
- الأمر التاسع : هل تصح التوبة من قبيح دون قبيح ؟ ٧٣٢
- ١٥ - مباحث المعاد - الشفاعة ٨٣٥
- الأمر الأول : آيات الشفاعة وتصنيفها ٨٣٦
- الأمر الثاني : الشفاعة في السنة ٨٣٩
- الأمر الثالث : حقيقة الشفاعة وأقسامها ٨٤٠
- الأمر الرابع : مبررات الشفاعة ٨٤٣
- الأمر الخامس : شرائط شمول الشفاعة ٨٤٤
- الأمر السادس : ما هو أثر الشفاعة ٨٤٦
- الأمر السابع : الإشكالات المثارة حول الشفاعة ٨٤٨
- الأمر الثامن : هل يجوز طلب الشفاعة ٨٥٥
- ١٦ - مباحث المعاد - الإحباط والتكفير ٨٦١
- أولاً : الإحباط ٨٦٢
- ثانياً : التكفير ٨٧٤
- ١٧ - مباحث المعاد - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٨٧٦
- ١ - أسئلة المعاد - نشور الإنسان دفعي أو تدريجي ؟ ٨٨٢
- ٢ - أسئلة المعاد - ما هو المحشور من الأبدان المتعددة ٨٨٤
- ٣ - أسئلة المعاد - هل المعاد إعادة للمعدوم ٨٨٦
- ٤ - أسئلة المعاد - شبهة عدم كفاية المواد الأرضية لإحياء الناس ٨٨٨

٨٩٣	٥ - أسئلة المعاد - شبهة الأكل والمأكل
٨٩٩	٦ - أسئلة المعاد - مكان بعث النفوس وحشرها
٩٠١	٧ - أسئلة المعاد - كيف يخلد الإنسان ، مع أنَّ المادة تفنى
٩٠٣	٨ - أسئلة المعاد - ما هو الفرض من عقاب المجرم أو تنعيم المحسن ؟
٩٠٥	٩ - أسئلة المعاد - من هم المخلدون في النار ؟
٩١٣	١٠ - أسئلة المعاد - هل يجوز العفو عن المسيء ؟
٩١٦	١١ - أسئلة المعاد - هل الجنة والنار مخلوقتان ؟
٩٢٥	١ - مباحث الخاتمة - التقية في الكتاب والسنة
٩٣٤	٢ - مباحث الخاتمة - عدالة الصحابة في الكتاب والسنة
٩٤٥	٣ - مباحث الخاتمة - الشيعة واتهامهم بتحريف القرآن
٩٥٠	٤ - مباحث الخاتمة - المتعة في الكتاب والسنة
٩٦١	ملحق (١) تعليق للمؤلف
٩٦٤	ملحق (٢) تعليق للمؤلف
٩٦٦	ملحق (٣) تعليق للمؤلف
٩٦٩	محتويات الكتاب



طبع على مطابع مؤسسة الفجر
بمقر الدمام، عتبات السكك

